بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبدالله بن حسين الشبري الشريف كلية : الشريعة قسم : التاريخ الإسلامي

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : التاريخ الإسلامي

عنوان الأطروحة : ((الصلات بين الشام في ظل الحكم الإسلامي منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٤١٧هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : أ.د. [illegible]	الاسم : د. [illegible]	الاسم : د. [illegible]
التوقيع : [illegible]	التوقيع : [illegible]	التوقيع : [illegible]

يعتمد

رئيس قسم

الاسم : د. [illegible]

التوقيع : [illegible]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

نصارى الشام

في ظل الحكم الإسلامي
منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية

رسالة مقدمة لنيل درجة
الدكتوراه
في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب
عبدالله بن حسين الشنبري الشريف

إشراف
الأستاذ الدكتور
أحمد السيد دراج

مكة المكرمة
١٤١٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

(نصارى الشام فى ظل الحكم الإسلامى منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية)

هذا الموضوع لم يدرس من قبل فى رسالة علمية جامعية على الرغم من أهميته فى تاريخ بلاد الشام فى صدر الاسلام ، وفى تاريخ انتشار الاسلام بين الشعوب التى فتح المسلمون بلادهم ، فقد كتب من قبل عن النصارى فى ثلاث من أكبر ولايات الدولة الإسلامية وهى العراق ومصر والأندلس ، بينمالم يتصد أحد لدراسة نصارى الشام منذ بداية فتوح الشام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نهاية الدولة الأموية ، وهى الفترة الزمنية التى اخترناها لموضوع هذا البحث ، لما لها من أهمية . فإن بلاد الشام هى مهد النصرانية وفيها مقدسات النصارى ، كما أن سابقة الدعوة لنصارى الشام إلى الإسلام وفتح بلادهم قبل غيرها من البلدان وماأخذ عليهم من الشروط فى عهود الصلح إنما تمثل قاعدة فقهية ونموذجا يحتذى فى معاملة أهل الذمة فى كافة البلاد التى فتحها المسلمون بعد ذلك ، وأسسا تنظم العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة .

وقد جاءت هذه الرسالة فى مقدمة وتمهيد وثمانية فصول وخاتمة . فالتمهيد يعرض فى إيجاز لأحوال نصارى الشام فى العصر البيزنطى قبيل الفتح الإسلامى ، وأما الفصول الثمانية فتناولت فيها بالدراسة أحوال نصارى الشام فى الفترة موضوع البحث ، فعرضت للعلاقات بين نصارى الشام والدولة الإسلامية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودعوة نصارى الشام الى الإسلام والوصاية بهم وماصولحوا عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، ثم السياسة الإدارية والمالية للمسلمين تجاه نصارى الشام ، وعن موقف المسلمين إزاء نصارى الشام من الناحيتين الدينية والإجتماعية ، ثم عرضت لموقف نصارى الشام من الدولة الإسلامية ، ودورهم فى الحياة الإقتصادية والعمارة والفنون والحياة العلمية .

وأهم ماتمخضت عنه هذه الدراسة من نتائج ، وهى ماحوته الخاتمة ، إنما تتمثل فى تميز الحكم الإسلامى عن حكم الروم والفرس الذى عرفه نصارى الشام قبل الفتح الإسلامى ، واتسام معاملة الحكام المسلمين لهم بالعدل والبر والرحمة والتسامح والإحسان، وقد أدى ذلك الى قبول نصارى الشام للحكم الإسلامى ، وولائهم للدولة الإسلامية ، وتقبل الدعوة وانتشار الإسلام بين معظمهم ، وقد تجلى كل ذلك فى غلبة دورهم الإيجابى فى مختلف مجالات الحياة فى ذلك العصر ، ومن أهم ماتوصلت اليه هذه الدراسة من نتائج هى ثبوت صحة الشروط العمرية ، وترجيح بطلان القول بإسقاط المسلمين الجزية عن بعض أهل الذمة لقاء عونهم للمسلمين ، وأن ماقدر على نصارى أهل الشام من جزية وخراج لم يكن كما قدر على أهل الذمة فى الأمصار الأخرى .

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية	المشرف	الطالب
د.محمد بن صامل السلمى	أ.د.أحمد السيد دراج	عبدالله بن حسين الشنبرى الشريف

١٤١٧/٢/١٧


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لدين الاسلام الذى ارتضاه لنفسه فقال جل من قائل : {**إن الدين عند الله الاسلام** ...}(١)، الدين الذى بعث به الأولين والآخرين من أنبيائه ، وهو دينهم ودين أتباعهم ، ولايقبل من أحد دينا غيره ، يقول تعالى : {**ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**}(٢).

والحمد لله الذى جعلنا من أمة عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، بشر به من سبقه من الأنبياء ، وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، وأرسله الله بالهدى ودين الحق الى جميع الثقلين الانس والجن ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، ليظهره على الدين كله ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم صراطا مستقيما .

فدعى أهل الكتاب الى الاسلام كما فى قول الله تعالى : {**قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**}(٣).

وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك فى الملك ولاولى من الذل ولم يكن له كفوا أحد ، وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لقد استحوذ التاريخ السياسى على اهتمام جل المؤرخين فى قديم الزمان وحديثه ، ولما كانت دراسة تاريخ الطوائف غير المسلمة فى دار

---

(١) آل عمران ، آية : ١٩ .

(٢) آل عمران ، آية : ٨٥ .

(٣) آل عمران ، آية : ٦٤ .

الاسلام من المواضيع التى قل من طرقها ، على ماللبحث فيها من أهمية ، حيث أن هذا النوع من الدراسات يعد عملة ثمينة ذات وجهين ، الوجه الأول : يبين سمو مبادىء الاسلام وعدالة تشريعاته فى معاملة غير المسلمين من أهل الذمة ، وحركة الدعوة الى الله سببا وهدفا وأسلوبا ونتيجة ، والحكم الاسلامى وطبيعته ، والحكام ومنهجهم ، والمعاملة وحسنها . والوجه الثانى : يبين أثر ذلك فى الطائفة غير المسلمة ، وموقفها من الدعوة والحكم ومدى انتشار الاسلام بين أفرادها ، وقبولها الحكم الاسلامى ، والحياة فى ظله آمنة مطمئنة ، والتعايش والتفاعل فى اطار مجتمع دار الاسلام ، ودورها فى جوانب الحياة المختلفة .

لذا فقد آثرت على نفسى أن يكون موضوع دراستى عن تاريخ احدى الطوائف غير المسلمة فى ظل الحكم الاسلامى ، واستهدفت فى بحثى اظهار تلك الوجوه ، وابراز تميز الحكم الاسلامى عما سواه ، وموقف تلك الطائفة من الحكم الاسلامى .

وبما أن أهمية الموضوع وجدته شرط لازم فى اختيار الدراسات العلمية الجامعية ، فقد وقع اختيارى على موضوع : (نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية) ، فقد وجدت بعد الاستقصاء والتحرى أن هذا الموضوع لم يدرس من قبل فى رسالة علمية جامعية ، فما كتب عن بلاد الشام فى فترة موضوع بحثنا يتناول بالدراسة الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، والعلاقات الاسلامية البيزنطية ، والدولة الأموية وخلفاءها ، وبعض جوانب الحياة فيها ، كالادارية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية بصفة عامة ، دون تعرض تلك الدراسات لنصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى ، وموقفهم من الدعوة الاسلامية والحكم ، خلال فترة البحث على وجه الخصوص ، الا بعض الاشارات العابرة واللفتات القصيرة ضمن تلك الدراسات لبعض جوانب حياتهم .

وقد أولى عدد من الباحثين اهتمامهم بدراسة النصارى أو أهل الذمة عامة فى ولايات الدولة الاسلامية الأخرى خلال العصور الاسلامية الأولى وخاصة فى العراق ومصر . بينما لم يتصد أحد لدراسة نصارى الشام فى فترة البحث مع مالدراسة طائفة النصارى فى بلاد الشام بالذات فى تلك الفترة من أهمية تنفرد بها عما سواها . فان نصارى الشام آنذاك كانوا خاضعين لدولة الروم البيزنطية ، راعيةالنصرانية ، فضلا عن ذلك فان بلاد الشام مهد النصرانية ، فيها ظهرت ، ومنها انتشرت ، وبها مقدسات النصارى . لذا فان دعوة نصارى الشام وفتح بلادهم وخضوعهم للحكم الاسلامى ، ومعاملة المسلمين لهم ، وبالتالى موقفهم من الاسلام والدعوة اليه ومن الحكم الاسلامى بصفة عامة ، يستحق الدراسة ، خصوصا أن النصارى فى بلاد الشام لم يكونوا أقلية مستضعفة ، فحتى الفتح الاسلامى كانوا يمثلون الأكثرية فى بلاد الشام ، وكانوا يملكون القدرة التى تمكنهم من التعبير عن مواقفهم تجاه الحكام البيزنطيين . وليس أدل على ذلك من موقفهم الدينى العدائى ازاء المذهب الرسمى للدولة البيزنطية ، وهو مذهب الطبيعتين ، وتمسكهم بالمذهب اليعقوبى مذهب الطبيعة الوحدة المخالف لمذهب الدولة ، على الرغم مما تعرضوا له بسبب ذلك من اضطهادات دينية من قبل الأباطرة البيزنطيين ، وظلوا على النصرانية على مذهب الطبيعة الواحدة . بينما نجدهم يتقبلون دعوة الاسلام ، وحكم الفاتحين المسلمين ، وأخذ الاسلام ينتشر بينهم تدريجيا مع مرور الزمن ، وعاشوا فى سلام فى ظل الحكم الاسلامى العادل ، وبعد أن كانوا أكثرية نصرانية فى بلاد الشام عند الفتح الاسلامى ، أصبحوا فيما بعد أقلية طائفية بين جمهور المسلمين . ولم يحدث ذلك عن اكراه وانما عن قناعة بدين الاسلام الحق ، وولاء للحكم الاسلامى الذى وجدوا فى ظله مالم يجدوه فى ظل الدولة البيزنطية التى كانت على دينهم دين النصرانية .

كما أن سابقة الدعوة لنصارى الشام الى الاسلام وفتح بلادهم قبل غيرها من البلاد ، منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وخضوعها للحكم

الاسلامى وفق عهود الصلح التى أعطاهم اياها الرسول عليه السلام ، والخلفاء من بعد ، وخاصة الشروط العمرية التى شرطها عمر بن الخطاب رضى الله عنه على نصارى الشام ، والتى حددت حقوقهم وواجباتهم ونظمت العلاقة بينهم وبين الحكام المسلمين ، تمثل قاعدة فقهية ونموذجا يحتذى فى معاملة أهل الذمة فى الأقاليم التى فتحت بعد بلاد الشام ، مما جعل هذا الموضوع جديرا بالدراسة وحقيقا بالبحث .

وكنت أعلم مدى الصعوبة التى سيواجهها الباحث فى تناول هذا النوع من الدراسات ، فمصادر التاريخ الاسلامى لاتتحدث الا فيما ندر عن الطوائف غير المسلمة ، وانما يجد الباحث الحديث عنها بشكل عرضى فى ثنايا الأخبار نتفا وشذرات بين السطور ، وكثيرا ماتكون غامضة وقاصرة تكتنفها الثغرات ، فتحتاج للشرح والايضاح فى ضوء السياسة العامة للدولة ، وروح العصر ، والاستنتاج المنطقى ، أو بالقياس على مايماثلها فى الأقاليم الأخرى . وعلى الباحث فى هذا المجال أن يقرأ من المصادر مايراه ذا صلة ببحثه وماظهر أن لاصلة له ، عساه يقع على معلومة شاردة تكون شاهدا تاريخيا يخدم فكرة بحثه . اذ أن الدراسة التاريخية ليست مجرد نظريات وأفكار وآراء ، وانما واقع تاريخى تجسده الحوادث والوقائع التاريخية ، التى يتخذ منها الباحث أمثلة وشواهد توضح فكرة بحثه ، وترسم أبعاده ، وتشرح وتبين مكنونه .

ولقد قضيت فى دراسة بعض أمهات المصادر أكثر من شهر وأنا أقرأ أجزاءها المتعددة التى تغطى فترة البحث كلمة كلمة حتى أحصل على ماأريد وأحيانا أجهد نفسى فى قراءة بعض المصادر حتى آخرها فأخرج خالى اليدين ومأشد عناء الباحث وهو يواجه ندرة المعلومات ، واضطراب الآراء ، واختلاف الأقوال ، وغموض الحقائق .

وتتمثل صعوبة هذا الموضوع أيضا ، بأنه موضوع شائك ، فمثل هذا النوع من الدراسات وماكتب حولها ، كان عرضة للتشويه والهوى

واختلاف الآراء ، وهـذا يجعـل البـاحث يقـف كثيرا ، ويجتهـد كثيرا ، ويتحرى الحق فيما يقول ويحاسب على كل كلمة يدونها .

وبهـذا يكون هذا الموضوع حرى بالبحـث ، علنا بدراسته نبحث مالم يدرس ، ونجلـو حقائق مبهمـة ، ونصحح مفاهيم خاطئـة ، ونبين للناس سمو مبادىء الاسلام وتشريعاته فى معاملة غير المسلمين ونصور حياة نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى .

وتحقيقـا للهدف من هذه الدراسة ، وفى ضوء ماتوفـر من المعلومات ، ووفقـا للتصـور الأصوب الذى يوصلنـا للغـاية ، ويرسـم أبعـاد الموضوع ، استقرت خطة الرسالة وقام بناؤها فى هذه المقدمة ، وتمهيد ، وثمانية فصول ، وخاتمة .

وقـد حوت المقدمة ايضاح أهمية موضوع الرسالة واسبـاب اختياره ، ثم دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع .

أما التمهيد ففيه عرضت فى اجمال لأحوال نصارى الشـام قبيل الفتح الاسلامـى ، لنقـف على طبيعـة حيـاتهم فى ظل الحكم البيزنطـى ، وفى ظـل الحكـم الفارسى الذى خضعوا لـه فترة قصيرة من عمر الـزمن عندما انتزعوا بلاد الشـام من يد البيزنطيين ، ثم استردها البيزنطيـون قبل سنوات قليلة من وصــول الفـاتحين المسلمين ، ومقـارنتها بما أصبحـوا عليـه فى ظـل الحكـم الاسلامى .

وفى الفصـل الأول تحدثت عـن العلاقات بين نصـارى الشـام والدولة الاسلاميـة زمن الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، اذ أن دعـوته لهـم وغزواته الى تخوم الشـام وعهود الصلـح التى أعطاها لبعض بلاد الشـام ، تعـد سوابق للدعوة زمن الخلفاء الراشدين والأمويين ، ومقدمات للفتح والحكم الاسلامى لبلاد الشام ، وأساسا لما سار عليه الخلفاء من بعده تجاه النصـارى . وعرضت فيه لعموم رسالته عليه السلام ، وعلم نصارى الشام السـابق بدعوته من قبل البعثة والدعوة ، ودعوته السلمية لهم ، ووصاياه بنصارى الشام ، وغزواته

وسراياه التى وجهها الى تخوم الشام ، وعهود الصلح النبوية لبعض نصارى تخوم الشام ، وموقف أولئك من دعوته والفتح فى زمنه صلى الله عليه وسلم.

وجعلت الفصل الثانى لدراسة دعوة نصارى الشام الى الاسلام والوصاية بهم وماصولحوا عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . وعرضت فيه للنقاط التالية فى دعوة الخلفاء الراشدين والأمويين السلمية نصارى الشام الى الاسلام ، ووصايا الخلفاء الراشدين والأمويين بحسن معاملة نصارى الشام ، وفيه يظهر سمو سيرة الفاتحين ، وتميز حركة الفتوحات الاسلامية عن الحروب البشرية التى شهدها العالم قديما وحديثا ، وعرض مجمل للفتح الاسلامى لبلاد الشام كحركة دعوة . ولم نفصل الحديث عن الفتح لأنه ليس من شأننا فى هذا البحث ، ولكن كان لابد من معرفة كيف تم فتح بلاد الشام ، لنعرف كيف خضع نصارى الشام للحكم الاسلامى . وحيث أن عهود الصلح التى أقمنا عليها دراسة أسس العلاقات بين المسلمين ونصارى الشام ، وماأعطاه المسلمون لهم من حقوق ، وماشرط عليهم من واجبات ، كانت نتيجة لذلك الفتح أو بالأحرى كان الفتح لكثير من بلدان الشام نتيجة للاتفاق على الصلح وتوقيع عهود الأمان وشروط عهود الصلح التى أعطاها المسلمون لنصارى الشام ، والشروط العمرية التى ثبت لنا صحتها بعد الدراسة والتمحيص ، وعقد الذمة .

وخصصت الفصل الثالث بذكر السياسة الادارية تجاه نصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وفيه عرضت لخضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى وأحكام الملة ، وأبرزت طبيعة الحكم الاسلامى وتميزه بالعدل والوفاء والرحمةوالاحسان والتسامح فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين من خلال شواهد الممارسات الفعلية للحكام المسلمين تجاه نصارى الشام ، ليتضح من خلاله الفرق بين طبيعة الحكم الاسلامى لنصارى الشام وحكم الدولة البيزنطية لهم ، وليعرف سبب حسن ولاء النصارى للدولة الاسلامية والعيش فى سلام فى ظلها . وعرضت فيه أيضا لدور نصارى الشام

فى الادارة فى عصر الخلفاء الراشدين وفى العصر الأموى ، وأثر تعريب الدواوين عليهم ، ودورهم فى سك العملة ، وأثر تعريبها وتعريب القراطيس والطرز عليهم .

بينما تناولت فى الفصل الرابع السياسة المالية تجاه نصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، من خلال الحديث عن الجزية ، والخراج والأرزاق ، والضيافة ، والعشور .

ودرست فى الفصل الخامس موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الدينية والاجتماعية فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، ويتضمن الحديث عن الناحية الدينية من حيث موقف المسلمين من مللهم ودور عباداتهم وشعائرهم الدينية ، والجدل الدينى الذى دار بين المسلمين ونصارى الشام على أثر دعوتهم لتصدى بعض نصارى الشام للدعوة والدفاع عن النصرانية ، ولم أعرض لفرقهم ومذاهبهم ودور عبادتهم وشعائرهم الدينية وتقاليدهم الاجتماعية ، فذلك أمر يخصهم وهو من مظاهر كفرهم ، وقد تناولته كتب الملل والنحل باسهاب ، واكتفيت بايضاح مذهبهم فى التمهيد ، والذى يهمنى فى هذه الدراسة هو موقف الاسلام والمسلمين من ذلك . كما عرضت لموقف المسلمين من تقاليدهم الاجتماعية ، المتمثل فى الحفاظ على تميز المسلمين ، وتمييز نصارى الشام عنهم ، وكذلك عن التعايش بين المسلمين وغيرهم ، وأثر نصارى الشام فى الحياة الاجتماعية للمسلمين ، نتيجة للاختلاط والتعايش والتعامل الذى حدث بين المسلمين ونصارى الشام فى مجتمع دار الاسلام .

ورصدت فى الفصل السادس موقف نصارى الشام من الدولة الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وهو يعبر عن أثر معاملة المسلمين لنصارى الشام فى تشكيل موقفهم من الدعوة والفتح والحكم الاسلامى ، فبينت فيه موقف نصارى الشام من الحكم الاسلامى ، وكيف ظهر فى البداية عدائيا على وجه العموم ، ثم تحول قبولا وترحيبا وولاء عندما عرفوا حقيقة

الـدعوة ، وسمـاحة الشريعـة ، وحسن سياسة الحكام وعـدالتهم . وحاولـت تلمـس مـدى انتشار الاسلام بينهـم آنذاك ، فـوجدته قـد سـرى بين نصارى العـرب سريعا ، وبين العجم بطيئـا ، غير أنه فشى فيهـم تدريجيا ، حتى أسلم أكثرهـم ولم يبق على النصـرانية سوى أقلية منهم . وذكـرت حركـاتهم ضد الحكـم الاسلامى وكانت نادرة ، ودورهم فى الفتن الـداخلية وكان محدودا ، ومـوقفهم من حركة الجهاد الاسلامى تجاه البيزنطيين وكـان فى غالبه ايجابيا .

وسابع الفصول كان بعنوان دور نصارى الشام فى الحيـاة الاقتصادية فى عصـر الخلفـاء الراشدين والأمـويين ، فى الزراعة ، والتجـارة ، والصنـاعة .

وجاء ثامـن الفصول وآخرهـا متضمنا الحديث عن دور نصـارى الشام فى العمـران والفنون والحياة العلمية فى عصر الخلفاء الـراشدين والأمويين ، وفيـه تكلمت عن دورهم فى العمارة الاسلامية والفنون ، ودورهـم فى الحياة العلميـة ، حيث بينا ماقاموا به فى ترجمة بعض العلوم القـديمة الى العربية ، وبروزهم فى الطب واسهامهم فى الأدب .

وأتممت رسالتى بخاتمة ذكرت فيها مزايا الحكم الاسلامـى لنصارى الشام وأهم نتائج هذه الدراسة وماتوصلنا اليه من حقائق ومفاهيم تاريخية .

وأولا وآخرا الحمد لله الذى لاتعد نعمه ولاتحصـى ، أحمدك ربى أن جعلتنى مـن طلاب العلم ، فـوفقت وأعنت ويسرت ، فحمـدا لك اللهم حمد الشاكرين .

ثم قبـل الختـام ومن باب وجوب الشكـر لأصحـاب المعـروف ، كـان لزاما على الاعتراف بفضل أستاذى سعادة الأستاذ الدكتـور أحمد السيد دراج المشـرف على هذه الرسالة ، على جهـده الكبير فى اتمام هـذا العمل العلمى ، فبعلمـه الجم ، وعطائه الثر ، ومـاأسداه لى من آراء وتوجيهـات وتصويبات وملاحظات علمية قيمة ، استطعت فى ضوئها بفضل اللـه ، انجاز هذا البحث وخروجه بالصـورة التى ظهر بهـا ، فجزاه الله خير الجزاء ، وجعـل ذلك فى موازين أعماله .

والشكر لكل من أعانني على القيام بهذا العمل واتمامه ، والدعاء أن يعينهم الله ويجزل لهم المثوبة .

وأخيرا أرجو الله أن أكون بهذه الرسالة قد أسهمت فى خدمة التاريخ الاسلامى ، وأظهرت فضل المسلمين ، وتميز حكمهم القائم على شريعة الاسلام ، فان أصبت فبفضل الله ، وان أخطأت فمن نفسى ، اللهم ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، واغفر لنا وارحمنا ، انك على كل شىء قدير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الطالب

عبدالله بن حسين الشنبرى الشريف

مكة المكرمة حرسها الله

الأحد ١٤١٦/٩/١هـ



دراسة نقدية

لأهم المصادر والمراجع

دراسة نقدية
لأهم المصادر والمراجع

اقتضت طبيعة الموضوع تنوع مصادره ومراجع معلوماته ، والدراسة الدقيقة والعميقة والشاملة لتلك المصادر والمراجع المختلفة ، فرجعت لمصادر التاريخ العام والمحلى للأقاليم والمدن ، وكتب السيرة النبوية ، والمصنفات فى المغازى والسير ، وكتب الفتوح والفقه وخاصة كتب الأموال ، وكتب الحديث ، والتفسير ، والتراجم والطبقات ، والأنساب ، والعلوم والأدب ، والجدل الدينى ، والملل والنحل ، والمعاجم ، وكذلك للمراجع والبحوث العلمية الموثقة ، العامة والخاصة ، وذلك بهدف تغطية مجالات البحث المختلفة واثرائها . وبالرغم من أن بعضها اختص بتغطية جانب من الرسالة ، الا أننا لانعدم الفائدة منه فى جوانب أخرى وان لم تكن نسبة الفائدة واحدة كما تفاوتت المصادر والمراجع فى الأهمية وغزارة الفائدة .

ومن أهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث ، تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ) ، ويسمى كتابه أيضا (تاريخ الرسل والملوك) . وهو من أهم مصادر التاريخ الاسلامى ، والمعول عليه فى تاريخ القرون الثلاثة الأولى ، وتاريخه عالمى عام وشامل ، بدأه بمبدأ الخلق ، وانتهى بعصره ، أورد فيه تاريخ ماقبل الاسلام على أساس الموضوعات ، ومابعد الاسلام على أساس السنين . وقد تنوعت مصادره ، وسار على طريقة المحدثين بذكر الاسناد ، مع تعدد الروايات حول الحدث الواحد ، وقدم أقوى الروايات سندا ، ثم الروايات المعززة لها ، ثم ماعداها من الروايات وان كان مخالفا لها ، أو غير معقولا ، وقد حاول انتقاد مادته وتمييزها ، وان لم يصرح بنقد أو ترجيح ، وقد بين منهجه فى مقدمته ، وأوضح عدم التزامه بذكر الصحيح أو الراجح ، وايراد الروايات المختلفة ، وان الرواية الضعيفة مسئولية الراوى .

وقد أفدت من الأجزاء من الثانى حتى السابع ، التى تغطى فترة البحث ومقدماتها ، وفيها قدم معلومات على درجة كبيرة من الأهمية وكثير من الفائدة ، كأخبار الفتوح وعهود الصلح وغيرها . ولكن مع الأهمية التاريخية لهذا المصدر ، وثراء مادته العلمية ، فانه لم يقدم الكثير عن موضوع هذا البحث ويرجع ذلك الى اهتمام المؤرخين المسلمين بالجوانب السياسية دون الحضارية ، واهمال الحديث عن الطوائف غير المسلمة الا أن يكون الحديث عنها عرضا بين ثنايا الأخبار العامة ، فضلا عن أن أخبار حوادث العراق والمشرق استولت على جل اهتمام المؤرخ ، بينما جاءت الأخبار عن الشام قليلة اذا ماقورنت بها ، فقد لاحظ (F.M.Donner) [1]أن الطبرى يتحدث على أكثر تقدير فى مئتى رواية فحسب عن تاريخ الشام منذ الفتح حتى سنة (١٠٠هـ) . وهو مايلمس أيضا فى كتابات اليعقوبى ، والدينورى ، والمسعودى باستثناء البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ، الذى جاءت مادته العلمية متوازنة .

وكتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت٦٣٠هـ) . ويعد من أهم مصادر التاريخ الاسلامى ، وصاحبه من أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبرى وكتابه عالمى عام وشامل ، بدأ بمبدأ الخلق وانتهى به الى عصره ، وقد اتبع النظام الحولى ، ووضع عناوين للحوادث العامة خلال ذلك ، وعمل على التوازن فى عرض مادته العلمية ، ونقدها ، وتقديم مالرتضاه من الروايات ، ولم يلتزم بطريقة المحدثين فى الاسناد ، ولم يسلم من الهوى ، ووقع فيما نقد فيه غيره من ذكر شىء من الأساطير والخرافات خصوصا فى تاريخ ماقبل الاسلام . وقد اعتمد على الطبرى فى كثير من رواياته ، الا أنه أخذ أوثقها فى نظره ، وأخذ عنه ترتيب الحوادث ولم يكد يغير فيه شيئا ، وهو ينقل

---

(١) انظر :

The problem of early arabic historiography in Syria .

بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، البحوث الانجليزية والفرنسية ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م .

عن الطبرى بالحرف أحيانا ، ويلخص مانقله أحيانا أخرى ، ويحذف السند ، وبعض الأخبار . وقد أفدنا منه كثيرا وبالأخص كتب الرسول الى أهل الشام ، وغزواته الى تخوم بلادهم ، وفتوحها زمن الخلفاء الراشدين ، وموقف المسلمين من أهل الذمة ، وذكر عهود الصلح التى أعطاها المسلمين لنصارى الشام ، غير أنه لم يهتم بالجوانب الحضارية والنظم المالية والادارية .

ومنها كتاب الامام ابن كثير (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية ، وهو من أهم مصادر التاريخ الاسلامى وهو عالمى عام وشامل ، بدأه بذكر بدء الخليقة ، وانتهى به فى سنة وفاته . وضمنه الحديث عن الآخرة ، وعلامات القيامة ، وشىء من الوعظ الدينى . وقد عد بهذا الكتاب ومصنفاته الأخرى من كبار المؤرخين كالطبرى وابن الأثير . وقد اتبع طريقة الحوليات فى تأليف كتابه ، وأورد أصح الروايات ، وان كان قد لجأ الى تعددها حول الحدث الواحد فى بعض الأحيان ، وكان يبدى رأيه فى بعض الأمور ، ويصدر أحكامه فيها ، ويرد على أقوال بعض المؤرخين السابقين ، كانكاره الاستعانة بنصارى الروم فى عمارة المسجد النبوى . وقد أفدنا منه ، واستنرنا بآرائه فى بعض القضايا ، ومما أفدنا منه حديثه عن دعوة هرقل الى الاسلام وبواكير الفتح ، وبناء الجامع الأموى ، وماورد فى كتابه حول ادخال كنيسة يوحنا فى الجامع الأموى ، وعن العمارة والادارة بشكل عام ، كما أفدنا من تراجم الرجال التى أوردها فى نهاية حديثه عن حوادث كل سنة ، وقد تفرد ببعض الأخبار وقدم لنا معلومات جديدة ، وبرزت الروح الاسلامية فى كتابة تاريخه.

ومن مصادر التاريخ العام التى أفدنا منها أيضا ، كتاب تاريخ خليفة ابن خياط (ت٢٤٠هـ) . وقد صنفه المؤلف على طريقة الحوليات ، وذكر السند وأورد الروايات المختلفة حول الحدث الواحد ، مع عدم الاكثار من ذلك ، والابتعاد عن الجمع بين المتناقض منها . وهو من أقدم المصادر التاريخية التى دونت تاريخ فترة موضوع الرسالة . وحاز مؤلفه على ثقة المحدثين ، مما جعل تاريخه من أهم المصادر ، غير أن الافادة منه فى هذا البحث كانت

قليلة ، بسبب قلة ماأورده من معلومات تخص البحث ، لعدم افراده شيء من كتابه عن تاريخ النصارى ، ولأسلوب الايجاز الذى انتهجه فى تصنيف تاريخه ، فتحدث عن فتوح بلاد الشام بايجاز ، ولم يذكر عهود الصلح ، ولم يتكلم عن السياسات المالية . وقد أفدنا منه فى حديثه عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم الى تخوم الشام ، وكذلك الفتوحات فى عصر الخلفاء الراشدين ، والقوائم التى قدمها عن رجال الادارة ، وقد ذيل بها عصر كل خليفة ، وذكر فيها عماله على الأقاليم والدواوين ومرافق الدولة ، وماتضمنته من الحديث عن تولى سرجون بن منصور الرومى الدواوين لبنى أمية حتى عهد عبد الملك بن مروان ، وقلما نجد هذا الاهتمام بالأمور الادارية من قبل مؤرخى التاريخ العام .

وتاريخ اليعقوبى (ت نحو ٢٩٢هـ) تميز بالشمول والايجاز وحسن العرض وقد بدأه ببدء الخلق حتى وقته ، ونشر فى قسمين المجلد الأول عن تاريخ ماقبل الاسلام ، والثانى عن التاريخ الاسلامى ، وتمثلت افادته فى هذا البحث بما احتوى عليه من أخبار قيمة عن النصارى ، وبخاصة ماأورده عن المجتمع الشامى قبل الفتح الاسلامى ، وأديان أهله ، والقبائل العربية المتنصرة فى بلاد الشام ، ومن تولى الحكم منها . وقد شاب كتابته شيء من الأساطير فيما كتبه عن تاريخ ماقبل الاسلام ، وتميز بعض ماقدمه بالجدة والتفرد ، مع الأخذ بعين الاعتبار أثر تشيعه فى كتابته وبخاصة فى التاريخ الاسلامى .

كما أفدنا من كتابى مروج الذهب والتنبيه والاشراف للمسعودى (ت٣٤٦هـ) حيث احتويا على معلومات قيمة عن أهل الذمة . وقد ضمت كتب اليعقوبى والمسعودى معلومات هامة تختلف عما أورده الطبرى وغيره ، مما يدل على أنهما استمدا معلوماتهما من مصادر مختلفة ، لكن من الصعب تعيين تلك المصادر لعدم ذكرهما الأسانيد .

والى جانب المصادر التاريخية العامة ، هناك تواريخ المدن . وقد أفدنا فى هذا البحث من عدد منها ، وجاء على رأسها وأهمها كتاب تاريخ دمشق

لابن عساكر (ت٥٧١هـ) ، ومختصره لابن منظور (ت٧١١هـ) . وهو كتاب عظيم الشأن لايستغنى عنه الباحث فى تاريخ بلاد الشام ، اذ أن مصنفه لم يقتصر على تاريخ دمشق بل عم الشام أحيانا . وقد قسم كتابه على طريقة الموضوعات ثم ترجم لأعلام دمشق ، وأسند رواياته وجمع بين المتناقض دون النظر الى صحته ، وان دعم مايرويه بالآيات والأحاديث ، وظهر فى كتابته التعصب لدمشق ، فذكر من فضائلها مالايصح . وقد أفدنا منه على وجه الخصوص بعض نصوص عهود الصلح الأولى ، ونص الشروط العمرية ، ومافرض على نصارى الشام من الضرائب وماأتخذ حيالهم من التدابير الادارية ، وموقف المسلمين من مللهم وتقاليدهم الاجتماعية ، وتراجم الرجال ، وغير ذلك . فقد حوى مصنفه مانقل من كتب قد فقدت ، وعلم مشايخ ذهبوا وضاع مادونوه ، وهذا مايزيد من أهميته .

وقد اتبع ابن منظور فى اختصاره تاريخ دمشق ، أسلوب حذف الأسانيد الا القليل منها ، والغاء بعض الروايات المكررة ، وجمع عدد من الروايات فى خبر واحد ، ولكن بشىء من الدقة والحفاظ على لفظ الأصل ، والتنبيه على ماأشكل عليه ، مما يدل على أمانته العلمية. وعمل ابن عساكر أقرب الى طريقة المؤرخين من المحدثين ، كما أن هذا الكتاب ومثائله أقرب الى صفة كتب التراجم من صفة كتب التاريخ ، ومعلوم الجهد الكبير الذى يعانيه الباحث من أجل استخلاص المادة التاريخية المتناثرة فى ثنايا التراجم .

كما أفدنا من كتب تاريخ مكة والمدينة ، ومن أهمها كتاب أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار للأزرقى (ت نحو ٢٥٠هـ) ، وأخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه للفاكهى (ت نحو ٢٨٠هـ) ، ووفاء الوفاء للسمهودى (ت٩١١هـ) حيث قدمت لنا معلومات جديدة ومفيدة تنفرد بها عما سواها من المصادر ، وذلك حول ماذكر عن استخدام أهل الشام فى عمارة المسجد النبوى ، وبعض الأعمال العمرانية فى مكة فى العصر الأموى ، وهو ماناقشناه فى الفصل الأخير .

ومثلت كتب الفتوح أساسا لبناء هذه الرسالة ، ويأتى فى مقدمتها ، كتاب فتوح البلدان للبلاذرى (ت٢٧٩هـ) . وقد قسم كتابه على أساس

الموضـوعات ، وحافظ على الترتيب الزمنى فى عرض الفتـوح ، واتبع طريقة الاسنـاد فى بعض مروياته ، لكنه يروى عن مجاهيل أحيـانا ، ولجأ الى طريقة تعدد المرويات حول الخبر الواحد ، غير أنه لم يجمع بين المتنـاقضات الا فيما ندر ، وأحيـانا يقوم بنقد بعـض المرويات التى أوردهـا ، ويعمل على تنسيق ماجمع منها .

وقد تحدث عن فتوح الأقاليم ، مع التعريف بالاقليم الـذى يتحدث عن فتـوحه ، ومع تخصص الكتاب فى موضوع الفتوح ، الا أنه جاء حاويا لكثير من المعلومات ، حول الادارة والأمـوال والعلـوم والعمـارة ، وتحدث عـن عهود الصلح ، وتمصير الأمصار ، والدواوين وتعريبهـا ، وتعريب القراطيس وضرب العملة ، والكتابة ، وغير ذلك . وقد أفدنا منه كثيرا وكان رفيقنا فى كثير مـن جوانب هـذه الدراسـة حيـث قدم لنا معلـومات عـن شروط عهود الصلـح ، ومـوقف نصـارى الشـام مـن الاسلام والحكام المسلمين ، ولمحـات حسنة عن اعتناق النصارى فى بلاد الشام لدين الاسلام منذ الفتوح الأولى ، وكـذلك عـن القراطيس والدواوين وسـك العملة وتعـريبها ، وعـن أحكام الأرض الخراجيـة ، وبعض أحكـام أهل الذمة ، وقد تفـرد بأخبار تاريخية لم نجدها عند غيره من المؤرخين .

كمـا أفـدنا من عدد من كتـب الفتوح الأخرى التى لاترقى الى أهميـة كتـاب فتوح البلدان للبلاذرى ومكانته ، ومنها كتاب فتـوح الشام المنسوب للواقدى (ت٢٠٧هـ) ، والكتاب فى مجلدين ، ومع أنه مخصـوص بفتوح الشام الا أنه تحدث فى ايجاز عـن فتـوح مصـر والجزيرة وارمينيـة والعـراق . وقد خالـف فى ذكره خطوات الفتح لبلاد الشام كثيرا من المصـادر الأخرى ، كما خالفهـا فى كثير من الأخبار . وقد اتبع الأسلوب القصصـى وأسلوب الحوار فى سـرد الخبر ، وطغى على كتابته الأسلوب البلاغى سجعـا وجناسا . ويشك القـارىء فيما نسبه من الأقوال الى الصحابة وغيرهم مـن رجال الأخبار التى تحدث عنهـا لما فيها من الـركاكة . وقد لجأ مؤلفه الى تعـدد الـروايات حول الخبر الـواحد الا مـاندر ، وذكـر أسانيد أخباره ، وأظهـر فيمـا رواه أهدافه وعاطفته وآراؤه .

ولقد قدم لنا هذا المصدر معلومات غزيرة حول الموضوع ، ومع الشك فى نسبة هذا المصدر للواقدى ، وتفرده بكثير من الأخبار عن غيره من مؤرخى الفتوح ، الا أننا أخذنا بشىء منها ، مما لايخالف سياق الحوادث ، ولايتنافى مع روح العصر ، ويفسر ويسد ثغرات لانجد شيئا منها عند غيره(١).

وكتاب تاريخ فتوح الشام للأزدى (ت٢٣١هـ) يشك فى نسبته للأزدى ويرى أنه ألف على مراحل وأنه أخذ صيغته النهائية خلال الحروب الصليبية ، ولعل الأزدى هو الذى وضع نواته ، وربما كان من أهل الشام . وعلى الرغم من الملاحظات على كتاب الأزدى فانه يمدنا بمعلومات عن نصارى الشام خلال الفتوحات الاسلامية ، وأنشطتهم ، ومذاهبهم ، وموقفهم من الدين الاسلامى والفتح .

وكتاب تاريخ فتوح الشام المنسوب للأزدى الذى بين أيدينا ، يعتمد الاسناد ، ويتسم بالشمول وتتبع الحوادث من بدايتها حتى نهايتها . وقد قدم لنا معلومات عن الفتح ، ووصايا الخلفاء ، والتزام المسلمين بمبادىء الاسلام فى فتوح الشام ، وشروط عهود الصلح ، وموقف نصارى الشام من الفتح والحكم ، وطبيعة الحكم الاسلامى لهم . وقد لوحظ التطابق فى بعض الأخبار بين الأزدى وكتاب فتوح الشام المنسوب للواقدى ، مما يشير الى نقل أحدهما عن الآخر ، أو أنهما استقيا معلوماتهما من مصدر واحد ، ولعل فى ذلك قرينة على صحة انكار نسبة كتاب فتوح الشام للواقدى ، وأن مؤلف هذا الكتاب نقل عن الأزدى(٢).

---

(١) عن القول فى الواقدى ، وكتاب فتوح الشام المنسوب اليه ، انظر : محمد بن صامل السلمى ، منهج كتابة التاريخ الاسلامى ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٣٥٤-٣٦٠ .

(٢) انظر القول فى نسبة كتاب تاريخ فتوح الشام الى الأزدى فى بحث :
Lawrence L.Conrad : Al-azdi's history of the arab conguests in bilad al-sham. some historiographical obser vations .
بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، القسم الانجليزى والفرنسى ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، عمان ١٩٨٧م .

وكتاب الفتوح لابن أعثم (ت٣١٤هـ) ، الذى تحدث فيما سوى الفتوح عن الولايات والفتن الداخلية وولاية الخلفاء وغير ذلك . وأخذنا منه مايفيد البحث مما كتبه عن فتوح بلاد الشام ، ولكن فى حذر شديد ، فالمآخذ على هذا الكتاب يطول شرحها ، وقد أخضع محمد جبر أبو سعدة هذا المصنف للنقد ، فكفانا عناء ذلك، وقد قلل من أهميته ، وأنقص من قدره وقيمته العلمية ، وضعف مؤلفه (١).

وكتاب الغزوات الضامنة الكافلة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة فى أيام الخلفاء الأئمة الأول الثلاثة ، لابن حبيش (ت٥٨٤هـ) . وهو فى سفرين ، الأول عن مقدمة المؤلف وحروب الردة وفتوح الشام ومصر والنوبة وافريقية ، وهو الذى أفدنا منه فى هذه الدراسة ، والآخر عن فتوح العراق وماولاه من أرض فاس ، والقسم الآخر لازال مخطوطا . وتأتى أهميته فى كونه أول كتاب يفرد فتوح الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، واعتماده على ماسبقه من مصادر صرح بالبعض ولم يذكر الآخر ، وقد اعتمد على الأزدى كثيرا فى فتوح الشام . ويعطينا الثقة فيما حواه فضل مؤلفه وغزير علمه . وغيرها من كتب الفتوح الأخرى .

وأمدتنا كتب السيرة النبوية والمغازى والسير بمعلومات هامة وقيمة أثرت الفصل الأول فيما يخص العلاقات بين الدولة الاسلامية ونصارى الشام زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهود الصلح النبوية لبعض نصارى تخوم الشام . ومنها كتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت٢١٨هـ) ، وشهرته تغنى عن التعريف به . وكتاب السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ، وهو القسم الأول والثانى من كتاب الثقات لابن حبان (ت٣٥٤هـ) ، وقد تحدث

= بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، البحوث الانجليزية والفرنسية ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م .

(١) انظر كتابه : ابن أعثم الكوفى ومنهجه التاريخى فى كتاب الفتوح ، مطبعة الجبلاوى الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

عن السيرة والخلفاء حتى المطيع العباسي . وامتاز مصنفه بالشمول والايجاز والتنوع ، فعرض جوانب من أخبار الخلفاء الاجتماعية ، والادارية ، والعمرانية ، وتحدث عن بعض الظواهر الطبيعية كالزلازل والجفاف والأوبئة وقد تحدث فى شيء من التفصيل عن السيرة وعصر الخلفاء الراشدين ، وأوجز فيما بعد ذلك ، وقد زاد تقدم تأليفه ومكانة صاحبه كمؤرخ ومحدث من أهميته ، وافادتنا منه جيدة ، وبالأخص فى الفصل الأول من الرسالة .

وكتاب الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، واقتصرت الفائدة منه على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام الى الاسلام ، وبعض غزواته الى تخوم بلاد الشام وامتاز أسلوب مؤلفه بالدقة والضبط والاحاطة وإبداء الرأى .

وكتاب السير للفزارى (ت١٨٦هـ) ، وهو كتاب مهم فى بابه ، لقدم تأليفه ، وجودة ماحواه ، غير أن إفادتنا منه قليلة ، لأنه ركز على المبادىء والقواعد والأحكام ، ونحن أحوج الى الشواهد والأمثلة التاريخية .

وكتاب المغازى للواقدى (ت٢٠٧هـ) ، وهو من أهم المصادر فى مجاله ، وأمدنا بمعلومات عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام الى الله ، وغزواته الى تخوم الشام ، وموقف الروم ونصارى العرب من الدعوة والفتح .

وكتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير ، لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) . وهو كتاب جيد جامع مختصر ، بدأ بالبعثة النبوية ، وانتهى بوفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأفدنا منه مايخص الموضوع زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، كغزواته وسراياه الى تخوم الشام ، واسلام بعض نصارى الشام فى زمنه .

وتعد كتب الفقه من أهم المصادر التى أمدت هذا الموضوع بمعلومات زاخرة ، انفردت بكثير منها عما سواها من المصادر ، وبخاصة النظم المالية والادارية والأحكام التى عامل بها المسلمون نصارى الشام ومايتعلق بأحوالهم الدينية والاجتماعية . وتأتى كتب الأموال فى مقدمة الكتب

الفقهيــة أهمية . وعلى رأسهــا ، كتـاب الخراج لأبي يوســف (ت١٨٢هـ) ، وتتمثل أهميته فى قدمه وقدر مؤلفه ، وتفرده ببعض الحقـائق التاريخية حول مافرض على نصارى الشام مـن الضرائب ، وبخاصة ماقـدر على نصارى الشام من الجزية وماقدر على أرض الشـام من الخراج . وكتـاب الأموال لأبى عبيد (ت٢٢٤هـ) ، وهـو غنى بالمعلومـات المالية ، وتميز بما ابداه أبو عبيـد من آراء كفقيـه فيمـا اختلف فيه . وقـد اتبع مؤلفه أسلوب تعـدد الـروايات المسندة حول الحدث الواحد واتسم مصنفه بالدقة والضبط ، وتفسير غوامض الأمور ونقـدها ، والتوفيق بين الروايات المتضاربة ، وترجيـح مارأى قوة حجته من أقوال العلماء ، وهو عمدة فى فقه معاملة أهل الكتـاب ومن جرى مجراهم . كمـا اشتمـل مـؤلفه على الأمـور الماليـة الخاصة بالمسلمين أيضـا كـالصدقة . وكـذلك كتـاب الخراج لابن آدم (ت٢٠٣هـ) وهـو على شـاكلة سـابقيه لكنـه لايرقى الى مكـانتهما ، وكتـاب الأموال لابن زنجويه (ت٢٥١هـ) ، وقـد اعتمد فى كثير ممـا حواه كتابه على ماكتبه أبو عبيد فى كتـاب الأموال آنف الذكر ، وقـد امتاز بالشمول والتفصيل واسناد الروايات وتعـددها ، وأفدنا منه فى شروط عهود الصلح والأموال المفـروضة على أهل الـذمة ، وماذكر فى حسن معاملتهم .

وكتـاب الخراج لقـدامة بن جعفـر (ت٣٢٩هـ) ، وقـد فقـد منه الأربع المنازل الأولى ، والمطبوع منه هى الأربع المنازل الأخيرة . وهـو كتاب عظيم الفـائدة ، حيـث أنه لم يقتصـر على مجال عنـوانه ، فقـد تعـرض للنـواحى السيـاسية ، والادارية ، والجغـرافية ، والفتوح ، متميزا بالـدقة والشمول فى ايجاز . وقـد أفـدنا منه فى مـافرض على نصـارى الشـام مـن ضرائب مالية ، وكـذلك عـن الفتـوح لبلاد الشـام ومـاصولح عليـه نصـارى تلـك البلاد ، ودورهم فى الادارة .

وقـد عالجت كتب الأحكام المسـائل المتعلقة بأهـل الـذمة وتحدثت عن حقـوقهم وواجبـاتهم بالتفصيـل ، وقد ألف عدد من الفقهـاء كتبـا اختصت بذلك .

فكان لكتاب الأحكام السلطانية للماوردى (ت٤٥٠هـ) أهميتـه الخاصة ، لما أفـدناه مـن فقه مؤلفه حول الأمـور الماليـة والادارية ، وبخاصـة مـايتعلق بنصارى الشام ، والأحكام الاسلامية نحوهم .

أمـا كتـاب أحكـام أهل الـذمة لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) فقـد فـاق ماسبقه من الكتب فى هذا الباب ، لما امتاز به من الشمول والدقة والعمق ، وجاء جامعا فى بابه . فتناول فقه معاملة أهل الذمة فى شؤونهم المختلفة عند الأئمة الأربعـة وغيرهم ، وذكر الشروط العمرية وشـرحها وصحح نسبتها الى عمـر بن الخطاب ، وهو ماصـح عندنا فى هذا البحث . وقـد ظهـر التشدد فى أحكـامه نحو أهـل الذمة ، ومنـع استعمـالهم فى ولايات الـدولة ومـرافقها . وقال صبحى الصالح محقق هذا الكتاب أن ذلك ربما كان اتبـاعا لنهج أستاذه ابن تيميـة ، أو لروح العصـر ، حيث ساد فى زمنه الصـراع الدينى والمذهبى بسبـب الحروب الصليبية التى عـاصرها . ولم يخل كتابه مـن الفائدة التاريخية المتعلقة بأهل الذمة وان كان مصنفا فقهيا .

كما أفدنا من كتابه هداية الحيارى فى أجوبة اليهـود والنصارى ، وهو فى باب مقـارنة الأديان والجدل الـدينى ، وأفدنا منـه فيمـا يخص علم نصارى الشـام بنبوة محمد صلى اللـه عليه وسلم قبل أن يبعـث ، ومـاورد فى الكتب المقدسة من بشارات به ، وتاريخ النصرانية ومجامعها .

ومـن نوع كتـاب أحكـام أهـل الـذمة لابن القيم ، كتـــاب المذمـة فى استعمـال أهل الذمة لابن النقـاش (ت٧٦٣هـ) . وقد وافـق ابن القيم فى منع استخدام أهل الذمة فى أمور المسلمين ، وعنوانه يدل على مضمونه . ويحمل رأى مـؤلفه فى هذا الأمر ، فقد ساق كثيرا من الآيات والأحاديث ، ومـاأثر عن السلف فى منع استخدام أهـل الكتاب . وقد قام بتحقيقـه ونشـره وطبعه لأول مـرة هذا العام ١٤١٦هـ عبـد الله ابراهيم بن على الطـريقى . وقد لاحظ المحقـق ورجح أن يكون ابن النقـاش نقل كثيرا من مـــادة مصنفه عن كتاب أحكـام أهـل الـذمة لابن القيم الجوزية لما بينهمـا مـن التطـابق فى كثير مـن المواضع ، غير أن ذلك لايقلل من أهميته ، فانه وان كـان صغيرا فى حجمه

فهو كبير فى مضمونه ، وقد لخص رأى جمهور أهل العلم فى حكم تولية أهل الذمة الوظائف والولايات فى الدولة الاسلامية .

ولكتاب الجواب الصحيح فى الرد على من بدل دين المسيح لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، أهمية كبيرة . وقد جلت فائدته فى هذا البحث ، بما حواه من غزير العلم وتنوعه ، فلم تقف مادته عند حدود عنوانه وقد نشر أولا فى طبعة المجد التجارية غير محققا ، ثم هيأ الله له ثلاثة من الباحثين وحققوه فى اطروحاتهم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ونشر فى ستة أجزاء . وهو كتاب غنى عن التعريف ، وقد أفدنا منه ، وبخاصة فى الفصل الأول ، عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام للاسلام ، وموقفهم منها ، والرد على افتراءاتهم تجاه النبى عليه السلام ، وعن تاريخ النصرانية قبل الاسلام ، وعقائد النصارى . كما أفدنا من كتابه السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، وهو كتاب عظيم الفائدة ، ركز على الأسس العامة ، دون ايراد الشواهد والأمثلة التاريخية ، مما قلل الافادة منه فى موضوع البحث حيث جاء الحديث عن الطوائف غير المسلمة مقتضبا فى بعض موضوعاته . ومما أفدناه منه معرفة الأسس الشرعية فى معاملة أهل الذمة ، وتطور التشريع فى أمر الجهاد ، منعا واذنا وأمرا وحثا ، وبعض مبادئه ، وفضل القائمين به .

كما أفدنا من عدد من الكتب التى عنت بمجادلة النصارى والرد عليهم ككتاب بين الاسلام والمسيحية لأبى عبيد الخزرجى (ت٥٨٢هـ) ، وكتاب مناظرة فى الرد على النصارى لفخر الدين الرازى (ت٦٠٦هـ) ، وكتاب الرد على النصارى لأبى البقاء صالح بن حسين الجعفرى (ت فى القرن السابع) ففى ثنايا حديثهم وردودهم وجدنا مايفيد بعض نواحى هذه الدراسة .

وعن عقيدة النصارى واختلاف مذاهبهم وشىء من تاريخ النصرانية قبل الاسلام ، وأثر النصارى فى الفكر الاسلامى ، رجعنا الى كتب الملل والنحل ، ومنها : كتاب الملل والنحل للشهرستانى (ت٥٤٨هـ) ، وكتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (ت٤٥٦هـ) ، وكتاب اعتقادات

فرق المسلمين والمشركين للرازى (ت٦٠٦هـ) . وقد أفدنا منها وبخاصة فى الحديث عن عقائد النصارى فى التمهيد .

وامتاز كتاب الشهرستانى بالشمول والاستقصاء والبعد عن التحيز ، كما اهتم بالجانب التاريخى لنشأة الفرق النصرانية الى جانب عقائدها وكتبها وشعائرها وأعيادها ومراسيمها . واتبع ابن حزم الأسلوب العلمى الدقيق فى العرض والتحليل . وعمل الرازى على الحديث عن الفرق مرتبة حسب تواريخ ظهورها ، فأفادنا فى العرض التاريخى لتاريخ النصرانية .

وكان للكتب التى اختصت بالتأريخ لبعض الخلفاء ، ككتابى تاريخ عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد لابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) ، وكذلك كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ) أهمية خاصة . فقد أوليا تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعمر بن عبد العزيز رحمه الله اهتماما كبيرا ، وجمعا الكثير من سيرتهما الشخصية وأقوالهما وأعمالهما . لكن الغالب عليها الاهتمام بالسيرة لاتاريخ الدولة فى زمنهما . ومع ذلك فهى تقدم معلومات قيمة متفردة فى بعض جوانب موضوع الدراسة ، وخاصة فى الوصاية بأهل الذمة ومعاملتهم وبعض التدابير المالية والادارية تجاههم . فعمر بن الخطاب هو الذى فتحت بلاد الشام فى عهده ، فنظمت العلاقة بين المسلمين ونصارى الشام فى زمنه وبأمره ، كما كان لعمر بن عبد العزيز سياسته المتميزة تجاه نصارى الشام وأهل الذمة عامة ، وذلك بعمله على تطبيق قواعد الاسلام وماسنه عمر بن الخطاب فى معاملتهم ، والحقيقة أن هذه الكتب يمكن أن تعد سيرة ذاتية للخليفتين ، لاتاريخا بالمفهوم العلمى الدقيق . وقد قسم الكاتبان هذه الكتب وفق الموضوعات ، واتبعا أسلوب الاسناد وتركه أحيانا ، وتعدد الروايات المختلفة حول الخبر الواحد ، مع اغفال النقد لما دوناه .

ومثلت كتب التراجم والطبقات ركيزة من ركائز هذا البحث ، بالترجمة للرجال ، وماحوته من ذكر الحقائق التاريخية والعلمية والاجتماعية المتفرقة والتدابير المالية والادارية لبعض الخلفاء تجاه أهل الذمة ، خلال

تراجمهم - والتى أثرت جوانب عدة من هذه الدراسة . وفى مقدمتها كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد (ت٢٣٠هـ) وهو أول كتاب وصلنا من كتب الطبقات والتراجم ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١هـ) ، وسير أعلام النبلاء للذهبى (ت٧٤٨هـ) ، وكتابى الاصابة فى تمييز الصحابة ، وتهذيب التهذيب لابن حجر السعقلانى (ت٨٥٢هـ) ، وغيرها . والاسهاب فى نقدها يطول ، والمهم أن مؤلفيها اتبعوا طريقة الاسناد ، وذكر مصادر مادتهم العلمية فى كثير من الأحيان ، وتركه أحيانا ، وذكر المرويات المختلفة حول الخبر الواحد ، لكنهم لجأوا أحيانا لنقدها ، واصدار الأحكام فى بعض مادونوه من الحوادث والأخبار ، ونقد مصادر مادتهم العلمية ، مما جعل مادونوه على درجة من الدقة والضبط وجليل الفائدة .

كما أفدنا من كتب التفسير ، والعلوم ، والأدب ، والأنساب ، والمعاجم . ومع قلة المعلومات التى استقيناها من بعض هذه المصادر ، غير أنها على درجة بالغة من الأهمية ، لاختصاصها فى أبوابها ، وتفردها ببعض المعلومات التى أمدتنا بها فيما يخص هذا البحث كأخبار الأطباء النصارى وعلمهم ومصنفاتهم الطبية ، وعملهم فى خدمة المسلمين ، ورجال الفكر والفلسفة والأدب ، وأعلام المترجمين الذين ورد ذكرهم فى كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (ت٦٤٦هـ) ، وكتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ) ، وكذلك ماذكر عن شعراء النصارى فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) .

كما حوت المعاجم ، كمعجم البلدان لياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ) اضافة للمعلومات الجغرافية ، حقائق تاريخية واقتصادية ودينية واجتماعية .

وكان لزاما علينا أن نتوقف عند هذا الحد فيما ذكرناه عن أهم المصادر من اللمحات النقدية الموجزة ، حيث أن الأمر يطول ، فان كل مصادر هذا البحث على قدر من الأهمية ، وان تفاوتت درجاتها .

والى جانب المصادر تعد الدراسات الحديثة ، العربية وغير العربية ، من المراجع المهمة لهذا الموضوع ، وبالذات ماكتب عن نصارى الشام خاصة

أو أهل الذمة عامة ، وعن تاريخ بلاد الشام عامة أو مدنها ، وفتوحاتها ، والدولة الأموية أو بعض خلفائها ، والتى تبحث فى النظم الاسلامية عامة ، أو الادارية والمالية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية خاصة ، وذلك بما تضمنته من مادة علمية استمدتها من بعض المصادر التى لم نتمكن من الاطلاع عليها ، عربية كانت أو غير عربية ، سريانية أو بيزنطية أو أرمينية ، وماحوته من تحليلات للنصوص التاريخية ذات العلاقة بموضوع البحث ، وآراء كتابها حول ذلك .

وأخص بالذكر كتابات د. نجدة خماش ، ومنها كتاب الشام فى صدر الاسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بنى أمية ، دراسة للأوضاع الاجتماعية والادارية ، وكتاب الادارة فى العصر الأموى ، وأيضا بحوثها القيمة التى تقدمت بها للمؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، وهى : الادارة ونظام الضرائب فى الشام فى عصر الراشدين ، والأجناد وادارتها ، والجيش الشامى فى العصر الأموى ، والدواوين المركزية فى الشام فى العصر الأموى . أما كتاب الادارة فى العصر الأموى فهو رسالة ماجستير منشورة ، تعرضت للادارة فى بلاد الشام وغيرها من الأقاليم ، وأفدنا منها مايخص جباية الضرائب ، والتنظيمات المتعلقة بأهل الذمة فى هذا الشأن . أما الشام فى صدر الاسلام ، فأعتقد أنه رسالة دكتوراه للمؤلفة ، وهو كتاب مطبوع ، حوى الحديث عن العناصر السكانية فى الشام قبل الفتح وموقعها منه ، وتوزيع تلك العناصر بعد الفتح ، وطبقات المجتمع ودورها فى الادارة والحكم ، ومنها طبقة أهل الذمة ، وموقف الدولة الاسلامية من نصارى الشام وموقفهم من الفتح الاسلامى ، وفيه عرضت لدور أهل الشام فى توطيد سلطان بنى أمية ، وفى الفتوح ، وتحدثت عن النظام الادارى والمالى والتنظيم العسكرى ، وأخذنا من كل ذلك مايخص نصارى الشام فى ضوء آرائها وتحليلاتها المتميزة . أما بحوثها المقدمة للمؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، فعناوينها تدل على فحواها ، واشتملت على معلومات خاضعة للدراسة التحليلية ، مما جعلها على درجة من الأهمية .

وكـذلك مؤلفات محمد كـرد على ، وهى خطط الشـام ، وهـو مصنف موسوعى عام وشامل عن تاريخ بلاد الشام منذ القدم حتى العصـر الحديث . وقد حوى علما غزيرا ، جعلنا نفيد منه فى كثير من جوانب هـذه الدراسة ، ولكـن يؤخذ عليه عدم توثيق معلـوماته ، وكتابه الادارة الاسلاميـة فى عـز العـرب ، وكـذلك كتاب غوطـة دمشـق . فالأول اختص بالادارةمنـذ العهـد النبـوى ، حتى عهـد المقتـدر العبـاسى ، وقـد ذكر مصـادر معلـوماته ، دون توثيقهـا ، بذكر الجزء والصفحة ، والآخر اختص بالحديث عـن غوطة دمشق من جميع الجوانب ، لكنه جاء غير مـوثق . ومـع ذلــك فــان مـابهما مـن المعلـومات الغزيرة التى تلائم المكـانة العلمية لمؤلفهمـا ، جعلهما من المراجع القيمة عن تاريخ بلاد الشام .

ورجعنا الى عدد من الكتب التى اختصت بالتاريخ لبعض المدن الشامية من أهمها : تاريخ القدس والعلاقـة بين المسلمين والمسيحيين فيهــا منذ الفتح الاسلامـى حتى الحروب الصليبيـة ، لشفيق جاسر أحمـد محمود ، وهو رسالة علميـة منشورة ، اختصت بالقدس وامتدت زمنا غير قصير ، وقـد أفدنا منها كثيرا ، لغـزارة معلوماتها ، وصائب آراء مؤلفها ، ولتنـاولها علاقة المسلمين بنصـارى مدينة القدس الشاميـة ، مما جعلها من أهم المراجع الحديثـة لهـذا الموضـوع ، وكـانت معنا فى كثير مـن منـاحيه ، وبخاصـة عنـد الحديث عـن طوائف النصارى فى القدس ، ومـوقف الاسلام والمسلمين منهـم ، ومن دور عباداتهم ، وتقاليدهم الاجتماعية ، ومعاملة المسلمين لهم ، والعهدة العمرية لأهل القدس .

واعتمدت على الدراسات الخاصة بالدولة الأموية ، أو بعض خلفائها ، ومـن أهمهـا كتاب تاريخ خلافـة بنى أمية لنبيه عاقــل ، وقـد عرض لتاريخ الـدولة منـذ الحوادث التى أدت لانتقـال الحكـم الى بنى أميـة ، حتى سقـوط دولتهم . وهى دراسة علمية قامت على التحليل والاستنتـاج ، وابداء الرأى ومنـاقشة بعـض المفاهيم والحقـائق التاريخية الشائعة ، كمنـاقشة المرويات التى

ذكرت الاستعانة بالنصارى فى عمارة المسجد النبوى زمن الوليد بن عبد الملك ، وردها . ولكن يعاب عليه قلة توثيق معلوماته ، وقد أخذنا عنه ماكان ذو علاقة بموضوع الرسالة فى ثنايا دراسته الشاملة.

واعتمدنا على عدد من الرسائل العلمية التى اختصت بدراسة بعض جوانب تاريخ أهل الذمة ، وبلاد الشام خاصة ، سواء المنشور منها ومالم ينشر . ومنها : العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم للباحث خميس صالح الغامدى ، وهى رسالة جيدة ، امتازت بالاعتماد على المصادر الأولية ، والعمق والتحليل ، وأفدنا منها فى الفصل الأول .

والمعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين للشريف حسن بن على الحارثى ، وقد أمدتنا بآراء جيدة حول مناقشة بعض شروط عهود الصلح الشامية ، وماحوته من عهود الصلح التى أعطاها المسلمون لأهالى الأقاليم الأخرى عدا بلاد الشام ، حيث استفدنا منها فى المقارنة والنظر للمسائل عند مناقشة بعض الشروط ، وذلك فى الفصل الثانى ، غير أنها لم تعرض للشروط العمرية .

والحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى العصر الأموى لثريا حافظ عرفة وهى رسالة دكتوراه غير منشورة ، أفدنا منها فى التمهيد فيما يخص أحوال بلاد الشام قبيل الفتح الاسلامى ، وكذلك قدمت لنا معلومات وآراء مفيدة فى الفصل السابع الخاص بدور نصارى الشام فى الحياة الاقتصادية ، وهى فى رسالتها تتحدث عن الحياة الاقتصادية بشكل عام ، زراعة وصناعة وتجارة فى بلاد الشام ، سواء قامت على يد المسلمين أو غيرهم ، دون ايضاح لدور النصارى خاصة فى المجال الاقتصادى . كما قدمت معلومات مفيدة عن سك العملة ، وأخرى متفرقة أفدنا منها فى عدد من جوانب البحث .

والحياة الزراعية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، لفالح حسين ، وهى رسالة ماجستير مطبوعة . وقد قدمت لنا معلومات قيمة عن الزراعة بالفصل السابع ، غير أن معلوماته عامة عن الحياة الزراعية ، ولم يتتبع دور النصارى فى بلاد الشام فى هذا المجال ، لكنه عرض لجوانب من هذا الدور دون ابراز أو اهتمام خاص ، تبعا لمنحى رسالته التى تتحدث عن الزراعة

دون النظر لزارعها ، وقد لوحظ عليه أنه لم يقف عند حدود العصر الأموى ولعل ذلك راجع الى صعوبة التاريخ للحياة الزراعية فى اطار زمنى دقيق . واعتمد فى معرفة أنواع الزراعات فى بلاد الشام على ماورد فى كتب الرحالة مع أن مشاهداتهم كانت بعد فترة دراسته بأمد ليس قصير .

ورسالة الماجستير المنشورة والموسومة بالحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى الهجرى لخليل داود الزرو ، وهى عمل علمى متميز ، اتسم بالوضوح والمباشرة والعمق ، وقد أمدتنا بما له علاقة بدور نصارى الشام فى العلوم العقلية وأثرهم فى الفكر الاسلامى خلال حديثه العام عن العلماء والعلوم سواء كانوا مسلمين أو من علماء الطوائف غير المسلمة .

ومن المراجع المهمة فى هذه الدراسة ، ماكتبه جميل عبد الله المصرى ومنها كتاب ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية فى القرن الأول الهجرى ، وهى رسالة دكتواره منشورة ، وقد أفدنا منها فى دور نصارى الشام فى الفتن الداخلية بالفصل السادس ، وأثرهم فى الحياة الفكرية ونشوء الفرق ، عند الحديث عن دورهم فى الحياة العلمية بالفصل الأخير . وكذلك كتاب تاريخ الدعوة الاسلامية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، وظهر فيه جليا شخصية المؤلف ، الذى لم يكتف بعرض المادة العلمية ، ولكنه أبدى الرأى وأظهر توجهه ، وبث روحه الاسلامية وحماسه الدينى فيما يكتب ، فكانت المعلومة لديه لخدمة الفكرة وتحقيق الهدف ، ولم تكن هدفا بذاتها . وأمدنا كتابه الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية (زمن الدولة الأموية) ، بمعلومات وآراء قيمة عن أثر نصارى الشام فى الحركات الفكرية التى نشأت فى العصر الأموى ، كما أفدنا من كتابه ، الموالى (موقف الدولة الأموية منهم) .

وكان كتاب الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام)، لأحمد عادل كمال من أهم المراجع الحديثة التى تناولت فتح الشام . فقد عمل على جمع الروايات التى تناولت فتح بلاد الشام فى المصادر الأولية ، وأخضعها للدراسة ، وعمل على التوفيق بينها ، والتصحيح والترجيح ، وقد كان ركيزة عرضنا المجمل لفتح بلاد الشام .

ولم نكن نستغنى ونحن بصدد دراسة نصارى الشام أن نرجع الى مثائلها للمقارنة وسد الثغرات بما عملت به الدولة الاسلامية تجاه النصارى فى الأقاليم الأخرى ، فكان مادون عن النصارى خاصة ، وأهل الذمة عامة فى الأقاليم الاسلامية ، من أهم مراجع هذه الدراسة ، وقد حظى الذميون فى الأقاليم الأخرى ، خلال فترة البحث بعناية عدد من الباحثين المسلمين وغيرهم ، على عكس نصارى بلاد الشام الذين ظلوا بحاجة الى دراسة مستقلة تتناول مختلف أوضاعهم ، فجاءت هذه الدراسة مكملة لذلك النظم ، فكان لنا الاطلاع على عدد من تلك الدراسات ، وخصوصا الرسائل العلمية الجامعية ، التى يأتى على رأسها ، رسالة الدكتوراه المنشورة التى أعدها توفيق سلطان اليوزبكى بعنوان تاريخ أهل الذمة فى العراق (١٢-٢٤٧هـ) ، والتى تعد من أهم مراجع هذا البحث ، وأمدتنا بكثير من المعلومات ، والآراء ، والتحليلات ، أفدنا منها فى مواضع عدة من دراستنا . وقد امتازت هذه الدراسة ، بالاعتماد على كم وافر من المصادر والمراجع العربية وغير العربية وتغطية موضوعه من جميع الجوانب ، شمولا وعمقا وكان يلجأ الى نقل بعض الأخبار بالنص ، فأخذنا عنه بعض النصوص التى لم نتمكن من الاطلاع على مصادرها ، غير أن الملاحظ عليه الاكثار من ايراد آراء المؤرخين المستشرقين والانسياق معهم فيما رأوه ، كانكار صحة الشروط العمرية .

ويعد كتاب عبد الكريم زيدان الموسوم بأحكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام ، وهو عبارة عن رسالة دكتواره منشورة ، أهم مرجع حديث تناول أحكام أهل الذمة والمستأمنين فى الشريعة الاسلامية . وقد امتاز بالشمول لجميع جوانب حياتهم ، وعلاقتهم بالمسلمين ، ومعاملة المسلمين لهم ، وأحكام ذلك . وليس له من شبيه الا كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية من المصادر القديمة ، والكتابان خير مايعول عليه الباحث عند دراسة أحكام الاسلام فى أهل الذمة لما استوعباه من ذلك . ولعلنا نستطيع القول أنه يكفى عن الاطلاع على غيره من المراجع الحديثة فى هذا المجال ،

فانه كتاب جامع ، وقد اعتمدنا عليه كثيرا ، وأمدنا بالمعلومة التاريخية ، والحكم الفقهى ، فى آن واحد .

كما اعتمدنا على عدد كبير من المراجع التى لاتقل أهمية عما ذكرناه ، لكن المجال هنا لايتسع لدراستها ونقدها .

وفيما يختص بالبحوث ، فان البحوث التى قدمت الى المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الذى عقد فى الجامعة الأردنية فى عمان ، تنفرد بأهمية خاصة بالنسبة لموضوع البحث ، فقد غطت هذه البحوث سواء ماكتب منها باللغة العربية أو باللغة الانجليزية والفرنسية ، جوانب متعددة من موضوع الدراسة وعلى وجه الخصوص البحوث التى تناولت تاريخ بلاد الشام خلال الفترة الأخيرة من العصر البيزنطى ، وصدر الاسلام حتى سنة ٤٠هـ ، والعصر الأموى .

ويكفينا فى هذا المجال لبيان أهمية هذه البحوث أنها كتبت بأيدى أعلام المتخصصين فى تاريخ بلاد الشام ، وقد بلغ عدد البحوث التى أفدنا منها فى موضوع البحث والتى غطت الفترة الزمنية المخصصة له سبعة وخمسين بحثا باللغة العربية ، وخمسة وعشرين بحثا باللغة الانجليزية والفرنسية . وكلها تتساوى فى الأهمية بالنسبة لموضوع البحث ، وهى بحوث علمية موثقة ، اعتمدت على المصادر العربية والسريانية والبيزنطية والأرمينية ولذلك فقد أضافت هذه البحوث اضافات علمية متعددة ، وعالجت جوانب هامة من تاريخ بلاد الشام فى فترة البحث ، وحيث أنها جميعها تتساوى فى الأهمية ، ونظرا لكثرة عددها ، فقد اكتفينا بهذه الاشارة عنها فى الدراسة النقدية لأهم المصادر والمراجع ، اذ أن اخضاعها للتحليل والدراسة والنقد أمر سيطول فى هذا المقام ، ونحيل القارىء الى قوائم المصادر والمراجع والبحوث ، فهناك ثبت خصصناه بهذه البحوث ، وليطلع أيضا على المصادر والمراجع التى لم يتسع المجال فى هذه الدراسة النقدية لذكرها وكان لها جميعا الأهمية فى استكمال جوانب هذا البحث .

التمهيد

أحوال نصارى الشام قبيل الفتح الإسلامي

التمهيد
أحوال نصارى الشام قبيل الفتح الاسلامى

كان حال النصارى[(١)] ببلاد الشام قبيل الفتح الاسلامى على أسوأ حال فقد عاشوا فى ظل الحكم البيزنطى حياة اتسمت بالجور السياسى والاضطهاد

---

(١) النصارى : أمة المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وكلمته عليه السلام ، وهو المبعوث حقا بعد موسى عليه السلام ، وكتابهم الانجيل ، وسموا بذلك نسبة الى قرية فى الشام تسمى "ناصرة" ، وهى التى كان ينزلها عيسى عليه السلام قال ياقوت : الناصرة : فيها كان مولد المسيح ، ومنها أشتق اسم النصارى ، ثم أورد ان أهل بيت المقدس ونص الانجيل تذكر أن مولد المسيح فى بيت لحم ، ثم نزل الناصرة . فقيل : عيسى الناصرى ، فلما نسب أصحابه اليه سموا : النصارى ، وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ، وقيل سموا بذلك لقوله تعالى : {من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله} . والتنصر الدخول فى النصرانية ونصره جعله نصرانيا ، والمعهود فى عصرنا استعمال لفظ : "مسيحى" ، ولكن النصوص القرآنية والحديثية لاتذكر غير لفظ : نصرانى ونصارى ، ويرى بعض المستشرقين أن لفظة "نصرانية" و"نصارى" من أصل سريانى هو : نصرويو NOSRYO ونصرايا NASRAYA . ويرى البعض أنها من NAZARENES التسمية العبرانية التى أطلقها اليهود على من اتبع المسيح . والنصارى من أهل الكتاب ، ويقرون ببعض الأنبياء ، لكن جماهيرهم وفرقهم لايقرون بالتوحيد مجردا بل يقولون بالتثليث . وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، وكبار فرقهم ثلاث : الملكانية ، والنسطورية ، واليعقوبية . انظر عن ذلك : (ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة محمد على صبح وأولاده ، القاهرة ، ٢٨/١-٢٩ ؛ الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت ، ص٢٢١-٢٢٣ ؛ الرازى ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ضبط وتقديم وتعليق ، محمد المعتصم بالله البغدادى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص١١٥-١١٩ ، ج١ ، ص١١٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ٢٥١/٥ ؛ القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م ، تفسير آية : ٦٢ ، البقرة ، ٤٣٣/١-٤٣٤ ، وآية ١٧ ، الحج ، ٢٣/١٢ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، دار الفكر ، بيروت ، مادة : "نصر" .

الـديني والاستنزاف الاقتصادى ، وعانوا ويلات الحرب بين الـدولة البيزنطية والفرس ، من قتل وتخريب وتدمير ، كما تعرضت بلادهم لعدد من الظواهر الطبيعية المدمرة ، من زلازل وأوبئة ومجاعات .

فقد أدى الاضطراب الذى عاشته بلاد الشام[١] قبيل الفتح الاسلامى ، الى تطلع النصارى الى الاستقـرار والأمن والحرية والعـدل والرخاء ، وهى حقـوق سلبتهـا الدولة البيزنطيـة منهـم ، ولم يستطـع الفـرس الذين حكموا الشام عند استيلائهم عليه توفيرها لهم . فلما استرد الحكـام البيزنطيون الشام كانوا لأسباب سياسية واقتصادية ودينية أشد وطأة وأكثر قسـوة على رعاياهم وأهـل ملتهم النصارى فى بلاد الشام ، وهو ماملأ قلـوب أولئك رجاء فيمن يخلصهـم ، ويرفع الضيم عنهـم، ويمكنهم من الحقوق ، ويحقـق لهم الآمال ، فتحقق لهم ذلك فى ظل الحكم الاسلامى ، الذى حكم أهله بالحق وبه كانوا يعدلون .

وليتبين لنـا حال النصارى فى تلك الفترة ، سنعـرض فى اجمال لحالهم والعـوامل التى كـانت وراء تردى أوضـاعهم وصيرورتهـا الى ذلـك الحال .

كـانت بلاد الشـام قبـل الفتـح الاسلامـى ولاية مـن أهـم ولايات الامبراطورية البيزنطية ، وقد خضعت بلاد الشام للامبراطـورية الرومانية منذ سنـة ٦٣ ق.م ، ومـن بعدها للامبراطـورية البيزنطية ، فـدام حكـم الدولتين

---

(١) بلاد الشـام فى العصر الاسلامى ، تعنى سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، ويحدهـا شرقا نهر الفرات والبادية ، وغـربا بحر الروم والعريش المتـاخم للـديار المصرية ، وشمـالا جبال طوروس كحد مع بلاد الروم ، وجنوبا حد مصـر وايلة امتدادا مع البـادية حتى الفرات . انظر : (ياقوت الحموى ، معجم البلـدان ، ٣١١/٣-٣١٥ ؛ البكـرى ، معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيـق مصطفى السقى ، عالم الكتب ، بيروت ، ٧٧٣/٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشـق لابن عساكر ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دمشـق م١/ج١ ، ص٤٠-٤٢ ؛ ابن كثير ، البـداية والنهـاية ، تحقيـق أحمـد أبو ملحـم ، وعلى نجيـب عطوى ، وفؤاد السيد ، ومهدى ناصر الدين وعلى عبـد الساتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٨هـ ، ٢٦٧/٤ .

لبلاد الشام نحو سبعمائة عام ، وأطلق العرب على الرومان والبيزنطيين اسم الروم(١)، وبه عرفت دولتهم .

وكانت معاملة الرومان والبيزنطيين من بعدهم للشاميين بادىء الأمر عادلة وحسنة ، ولما شاخت دولتهم وساءت أحوالهم الاقتصادية ، قاسى أهل الشام من سطوة حكمهم ومن جورهم بل ومن اضطهادهم الدينى وبخاصة بعد أن نشأ الخلاف المذهبى بين المسيحيين حول طبيعة المسيح ، واختار أهل الشام المذهب المنوفستى (مذهب الطبيعة الواحدة) للمسيح ، وهو المذهب المخالف لمذهب الدولة البيزنطية ، واشتطوا عليهم فى جباية الضرائب ، وكثيرا ماكان أهل الشام يبيعون أبناءهم ليوفوا ماعليهم من الضرائب ، وعانوا كثيرا من مظالمهم وتسخيرهم لهم ، بل لم يكن لهم فى ظل الحكم البيزنطى حقوق المواطنة(٢).

لقد كانت للشام أهمية خاصة ومكانة فريدة متميزة ، ليس عند الروم فحسب ، بل فى العالم المسيحى أجمع ، فلها أهميتها الدينية ، فهى أرض المسيح ، ومهد النصرانية ، وبالشام الأماكن المسيحية المقدسة ، حيث بيت المقدس التى عرفوها باسم مدينة المسيح ، وكنيسة القيامة أم الكنائس ومحج

---

(١) كانت لفظة روم تتردد فى حوليات المسلمين على البيزنطيين الذين حلوا مكان الروم فى الشام ، أو على العرب الذين سكنوا بين الشام والحجاز ، وقد أتى هذا التداخل من أن هؤلاء كانوا حلفاء للروم ، وان تميزوا عنهم باسم الروم العرب وقد تلاشت هذه التسمية تدريجيا بعد الفتح الاسلامى لبلاد الشام . أما الروم أنفسهم فقد عرفوا للعرب ببنى الأصفر ، كما عرف الروم العرب بالعرب المتنصرة لاعتناقهم النصرانية . (عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣/ص١٧٧) .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ٢٠٦/١ ؛ يوسف الدبس ، مختصر تاريخ سورية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م ، ص١٧٤-١٧٥ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة النورى ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٦٥/١-٦٦ .

المسيحيين عامة على اختلاف مذاهبهم ، وبيت لحم[(١)] مسقط رأس المسيح عليه السلام ، وانطاكية[(٢)] التى كانوا يدعونها مدينة الله ومدينة الملك وأم المدن ، لأنها أول بلد ظهر فيه دين النصرانية ، وقد جعلها الروم عاصمة الشام لما استولوا عليها . وكانت كنيسة بيت المقدس لها الزعامة الروحية على العالم المسيحى على الأقل فى الشرق ، فلئن كان قلب دولة الروم فى القسطنطينية فروحها فى بلاد الشام ، وللشام أهميتها السياسية والاستراتيجية فان اشراف ثغورها الشمالية على دروب جبال طوروس المنفذة لآسيا الصغرى ، واشراف سواحلها الغربية على البحر المتوسط ، وأنها بوابة شرقية لمصر ، جعلها منطقة صراع ومحل مطمع بين الروم والفرس ، فكانت بالنسبة للروم حصنا أماميا فى وجه الفرس للدفاع عن آسيا الصغرى والقسطنطينية نفسها ، اذ كان الروم يرون أنه اذا أخذت منهم دمشق ، ضاعت نيقوميديا[(٣)] على بحر مرمرة . كما كان لها أهميتها الاقتصادية ، فانها تمثل الطريق البرى الوحيد بين القسطنطينية ومصر المخزن الرئيسى الذى يمد بيزنطة بالقمح والغلال ، كما أنها ممر للطريق التجارى الذى يصل الصين فى الشرق بموانىء الشام على البحر الأبيض المتوسط ، ومركز رئيسى على طريق القوافل القديم بين الدولة الرومانية من جهة ، واليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى . أضف الى ذلك أنها كانت قلعة صناعية فى دولة الروم .

وللشام مكانتها الحضارية ، ففى أنطاكية قامت مدرسة من أكبر مدارس الفكر اليونانى حيث اتجه اليها عدد كبير من علماء اليونان عندما تعرضوا

---

(١) بيت لحم : بليدة قرب بيت المقدس ، على نحو فرسخ من جهة جبرين ، ولد فيها عيسى بن مريم عليه السلام . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٥٢١/١ ؛ البكرى ، معجم ٢٨٩/١) .

(٢) انطاكية : مدينة من الثغور الشامية معروفة ، فتحت على يد أبى عبيدة ، ثم انتقضت وأعيد فتحها . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٢٦٦/١-٢٧٠) .

(٣) نيقوميديا : هى الولاية التى تطل على بحر مرمرة ، وبها القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

للاضطهادات المذهبية . وكانت الدولة البيزنطية يونانية الحضارة واللغة ، فغدت الشام مركزا من مراكز الحضارة البيزنطية ، وأسهم أهلها فى بناء صرحها الحضارى ، ولذلك حرصت الدولة البيزنطية على سلامة بلاد الشام والدفاع عنها ضد أى خطر يهددها لما لها من مكانة سياسية ودينية واقتصادية وحضارية(١). غير أن الدولة البيزنطية ذاتها كانت تعانى من عدد من المشاكل ، فى مقدمتها اضطراب سياسى ، ونظام ادارى انتابه الخلل والتآكل والفساد ، وتدهور اقتصادى ، وحروب تكالب فيها الأعداء على النيل من الدولة البيزنطية ، وهى أمور أدت الى سوء أحوال الدولة البيزنطية بعامة ، وأدى بالتالى الى سوء الحكم البيزنطى فى بلاد الشام .

فاذا ألقينا نظرة على الدولة البيزنطية فى القرن السادس الميلادى ، نجد أن المحاولات اليائسة التى بذلها الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) لاعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة ، لم تؤت ثمارها . وبانتهاء أسرة جستنيان عام (٦١٠م) كانت الكوارث تحيط بالدولة من كل جانب ، ففى الشرق الخطر الفارسى ، وفى الشمال الآفار والسلاف ، وفى الغرب اللمبارديون وقد نزلوا فى ايطاليا المفككة ، بينما سقطت أسبانيا فى أيدى القوط الغربيين . وعندما اعتلى هرقل العرش الامبراطورى سنة (٦١٠م) كانت الدولة قد أفلست ، وتخلخلت السلطة المركزية ، وبدا كأن أيام الدولة أصبحت معدودة . وكانت الدولة تعانى من فساد خلقى ، فضلا عن انتشار الأوبئة والأمراض والزلازل والمجاعات . وكانت الأمور تحتاج من هرقل حلولا

---

(١) انظر عن أهمية بلاد الشام للدولة البيزنطية : أبو الفداء ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، تحقيق محمد كمال وفالح البكور ، دار القلم العربى ، حلب ، سوريا الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص٣٠ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٥٧/١ ؛ سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامى لبلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ١٩٨٧م ، م٣/ص١٩٧-٢٠١ .

سريعة ، غير أن ذلك كان مستحيلا ، اذ لم يجد الفرصة لذلك ، ولم يتمكن من اعادة تنظيم دولته ، فقد أقام الآفار والسلاف بالبلقان ، واكتسح الفرس الشام ومصر وأرمينية وآسيا الصغرى حتى وصلوا بحر مرمرة .

وهي ظروف دعت الشعب فى القسطنطينية الى التبرم على الأباطرة ، ورحب أهل الشام بالفرس ليخلصوهم من نير الحكم البيزنطى ، ولما تمكن هرقل من استعادة الشام مارس عماله عليها الضغط من جديد ، فعادت الى سابق عهدها من الفوضى والاضطراب(١).

لقد عمل الروم على اصلاح نظمهم الادارية ، فقد اتخذ دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) وقسطنطين (٣٠٥-٣٣٧م) اجراءات ادارية لايقاف التدهور الذى كانت تعانى منه الدولة ، اذ لم يعد النظام الادارى الرومانى قادرا على التعامل مع المشاكل الحادة ، فقاما باصلاحات ادارية يمكن القول عنها أنها تطوير لنظام جديد تمكن من الاستمرار لقرون عديدة مع اضافات وتعديلات طفيفة عبر القرون . فأعاد دقلديانوس تقسيم الولايات الى ولايات صغيرة فى اطار هرمى مترابط ، وقلص سلطات الحكام ، وفصل القيادة العسكرية عن المدنية . ثم أعيد تنظيم الولايات وتقسيمها زمن قسطنطين وجستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) ، وظلت انطاكية عاصمة بلاد الشام التى قسمت الى ثمانية أقسام . وكان القائد العسكرى هو المشرف على الأمور المدنية فى بلاد الشام عكس المقاطعات البيزنطية الأخرى التى فصل فيها بين السلطة العسكرية والمدنية ، لذلك كان نفوذ القائد العسكرى أكبر من سلطة الحاكم المدنى . وكانت الادارة البيزنطية فى الواقع متطورة ودقيقة وتتسم بالثبات ، وقد كانت بلاد الشام مع أرمينية مركزين من الدرجة الأولى للدفاع عن الحدود البيزنطية ضد الفرس ، ولاشك أن ذلك أثر على أهل الشام وأرمينية . غير أن هذا

---

(١) انظر جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الشام وتخومه فى صدر الاسلام فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣/ص٢٥٥-٢٥٨

التقسيم الادارى المنتظم لبلاد الشام كان قد تآكل بين أيام جستنيان وهرقل (٦١٠-٦٤١م) اذ أن الحرب التى شنها جستنيان فى الغرب استنزفت موارد البلاد ، فأهملت صيانة خط الحدود مع الفرس . ويضاف الى هذا أن الغساسنة لما استقروا فى الشام ، اتخذهم البيزنطيون حلفاء لهم للدفاع عن المنطقة فأهملت الدولة خط الدفاع مع الفرس وشبه الجزيرة العربية . وكان للحروب البيزنطية الفارسية ومارافقها من تخريب وتدمير دور فى اضعاف خط الدفاع البيزنطى وزوال أكثر حصونه ، وتهرؤ الادارة البيزنطية فى الأقسام الشرقية من بلاد الشام ، وخضوعها لنفوذ زعماء محليين ، كما أدى الى زوال دولة الغساسنة ، ومكانتهم كحكام للقبائل العربية بالشام وقد عرفوا عند العرب بملوك الشام ، فجعل الروم لأنفسهم بعد استعادة الشام الاشراف على بلاد الشام وأطرافها ، وقسموها الى أقسام حربية بثوا فيها حامياتهم وعرفت تلك الأقسام باسم (Thema) جمعها (Themae) ، وهو النظام الذى طبقه العرب فى بلاد الشام والمعروف بالأجناد . ومع ذلك أبقى الغساسنة على صلاتهم ببيزنطة التى حاول حكامها من جديد اقامة تحالف مع القبائل العربية لحماية الحدود لكن الوقت لم يسعفهم ، ويظهر ضعف الادارة البيزنطية فى الشام ، من تتبع أخبار الفتوح ، عندما نلمس غياب ممثلى الحكومة ، وقيام ممثلين عن أهالى البلدان بمفاوضة المسلمين على الصلح [١].

---

(١) انظر تلك الاجراءات والتقسيمات الادارية والعسكرية عند : نقولا زيادة ، التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد البيزنطى ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، ص١١٦-١٢١،١٢٣ ؛ Werner Seibt : Byzantin Administation tiok in Bilad Al-Sham the Fourth International conference of the history of Bilal Al-Sham, Amman, October 1983 .
نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣/ص١٥٩-١٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، موقف =

وفى ظل الفساد الادارى والتدهور الاقتصادى الذى انتاب الدولة البيزنطية اشتط الروم فى فرض الضرائب لسد حاجتهم المتزايدة من الأموال والجور فى جبايتها .

وكانت الضرائب الأساسية فى بلاد الشام زمن البيزنطيين نوعين ، الأول : ضرائب نظامية ، والثانى ضرائب غير نظامية لمواجهة الطلبات الخاصة . وأهم الضرائب النظامية ، ضريبة الأرض ، وكانت تجى بنسبة ١٪ من تقدير قيمة الأرض ، ثم صارت نسبة ١٢,٥٪ من الحاصل ، وضريبة الرأس ويدفعها كلا الجنسين ، الرجال من سن ١٤ حتى سن ٦٥ ، والاناث من سن ١٢ حتى سن ٦٥ عاما . وهناك ضرائب اضافية تفرض فى مناسبات خاصة وكانت أكثر ارهاقا من الضرائب النظامية ، مثل ضريبة حرب أيام هادريان ، وضريبة التاج ، وضريبة الطعام للحاميات والادارة الرومانية . وكانت الجزية زمن ديوكليتيان نقدية ، وفى زمن قسطنطين ضمت الى ضريبة الأرض ، وصار العبء الأكبر من الضرائب على الفلاحين ، وذلك بعد اعفاء عدد كبير من فئات المجتمع من ضريبة الرأس ، فضريبة الأرض على الأرض الزراعية فقط ، وضريبة الرأس كانت باستثناء افريقية وبعض الولايات الغربية على السكان الريفيين فقط ، وساعدت تلك التدابير على ربط الفلاحين بالأرض . وقد جعلت اصلاحات القرن الرابع الميلادى أراضى القرى لأهلها ، غير أن عسف الجباه وجور الحكام جعل الملاكين الصغار يجعلون أنفسهم فى حماية النبلاء ، فصاروا أقنانا لهم ، فتوسعت الملكيات الكبيرة واصبحت ذات أهمية كبيرة . واتبع الروم أسلوب بيع حق جباية الضرائب والجمارك والمناجم الى ملتزمين ، وكان هؤلاء لهم جباة فى الولايات يأخذون أكثر مما يحق لهم ، ويسلبون نعمة الأهلين ، وكثيرا

= الروم العرب من الاسلام ، ص١٧٩-١٨٠ ؛ نقولا زيادة ، المراكز الادارية والعسكرية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١/ص٣٠٦-٣٠٨ .

مايبيعونهم كما يباع الرقيق . كما فرضت المكوس على التجارة وأخرى على المواشى . وكانت كل تلك الضرائب والرسوم على ثقلها أخف على عاتق الشاميين من المغارم والسخر التى حملهم اياها الروم . وبالنظر الى تنظيمات الضرائب فى بلاد الشام ، نجدها أنظمة تعسفية ، وضعتها الحكومة البيزنطية لاستعادة أملاكها الضائعة فى الغرب واعادة المجد الرومانى لدولتهم ، ولكن هذه السياسة استنزفت الأموال فى حروب جستنيان وأضعفت الامبراطورية بعد وفاته مما جعل الأباطرة من بعده يحاولون تنظيم مصادر الدفاع ، فأثقلوا كاهل الدولة ليتحصلوا على القدر الكافى من الدخل لسد النفقات العسكرية وبذلك أرهقت الدولة البيزنطية رعاياها واستنزفت قواهم ومواردهم(١).

ومن أسباب مالاقاه نصارى بلاد الشام من عنت الروم واضطهادهم ، الخلاف المذهبى بينهم ، ولفهم ذلك نعود فى ايجاز الى أصل النصرانية ثم افتراق أهلها الى مذاهب يكفر بعضها بعضا . كان الله قد بشر بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام على ألسنة أنبيائه ، وكانت اليهود تنتظره وتصدق به قبل مبعثه ، فولد عليه السلام فى بيت لحم من أرض الشام وبعث على رأس الثلاثين من عمره ، وأنزل عليه الانجيل ، لكن لم يكتب فى زمنه عليه السلام فدعا الى الله وبلغ رسالته لبنى اسرائيل ، فكفر به اليهود بغيا وحسدا وشردوه وآذوه وهموا بقتله مرارا الى أن أجمعوا أمرهم على القبض عليه وقتله ، فرفعه الله اليه ، وشبه لهم أنهم صلبوه وقتلوه ،

---

(١) عن التنظيمات المالية البيزنطية والضرائب التى فرضها الروم على نصارى الشام ، انظر : عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب "الضرائب فى بلاد الشام" بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢/ص٤٥٧-٤٥٩ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص٣٩-٤٦ ؛ نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب فى الشام فى عصر الراشدين ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢/ص٤٣٤-٤٣٧ .

ومـاصلبوه وماقتلوه يقينـا بل رفعه الله اليـه ، يقـول عز وجل : **{وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظـن وماقتلوه يقينا . بل رفعـه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما}**(١).

ثم تفـرق الحواريون بعـد رفعـه فى البلاد على دينـه ومنهـاجه يدعون الأمم الى توحيد الله ودينه والايمان بعبده ورسوله المسيح عيسى بن مريم ، فدخل كثير من الناس فى دينـه جهرا وسرا ، وبعد عشـرين سنـة من الوقت الـذى رفـع فيه المسيح ، سمـى المؤمنون به نصارى ، وانتشـر ذلـك ، وكان أصـل هـذه التسمية بانطاكية . وأعـداء الله اليهود والـروم - وكـان اليهود رعـايا للروم آنذاك - فى غاية الشـدة والاضطهاد لأتباع المسيـح قتلا وتعذيبا وتشـريدا ، حتى اضحـى النصـارى يصلون فى البيوت خفيـة مـن الخوف الا ماندر من ملوك الرومان ، كـالامبراطور "فليبـس" الـذى آمـن بالمسيح فقتله بعض قواده . وفى هذه الفترة كتبت الأناجيل الأربعة ، انجيل مرقص ، ولوقا

---

(١) سـورة النسـاء ، آية : ١٥٨،١٥٧،١٥٦ . وعـن المسيـح عيسـى ابن مـريم ، مـولده ومبعثـه ودعـوته ورفعه ، انظـر : تاريخ القضـاعى (كتاب عيـون المعـارف وفنون أخبـار الخلائف) ، تحقيق جميـل عبد الله المصرى ، نشـر مـركز البحوث واحياء التراث الاسلامــى ، جامعـة أم القــرى ، مكـة ، المملكــة العــربية السعـودية ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص١٤٠-١٤٨ ؛ ابن قيم الجوزية ، هداية الحيـارى فى أجوبة اليهود والنصـارى ، تقـديم وتحقيق وتعليـق أحمـد حجازى السقـا ، القـاهرة ، الطبعة الـرابعة ، ١٤٠٧هـ ، ص٢٥٢-٢٥٣ ؛ يوسـف الـدبس ، مختصـر تاريخ سـورية ، ص١٨٦-١٩٠،٢٠٤-٢٠٦ ؛ محمـد ضيـاء الرحمن الأعظمى ، اليهـودية والمسيحيـة ، مكتبـة الـدار بالمدينـة المنورة ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص٢٢٩-٢٩٢ ؛ أحمـد شلبى ، مقـارنة الأديان (المسيحيـة) ، مكتبـة النهضـة المصـرية ، القـاهرة ، الطبعــة الثـامنة ، ١٩٨٤م ، ص٣٣-١٠٦ ؛ أحمــد طلعـت الغنـام ، أضـواء على النصرانية تاريخها وعقيدتها ، مطبعة الفجر الجديد ، القـاهرة ، ص٢١-٦٥ ؛ الشيخ محمـد أبو زهـرة ، محاضرات فى النصـرانية ، طبـع ونشر الـرئاسة العـامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، الرياض ، المملكـة العربية السعودية الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ ، ص١٥-٣٥ .

ومتى ، ويوحنا ، بعد زمن ليس بالقصير من رفع المسيح عليه السلام . وكان النصارى كلمتهم واحدة فى المسيح أنه عبد رسول مخلوق مصنوع مربوب لايختلف فيه اثنان منهم ، حتى كان "بولس السمساطى" بترك انطاكية(١)، فكان أول من ابتدع فى شأن المسيح اللاهوت والناسوت ، فكان أول من أفسد دين النصرانية ، وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر اسقفا فى مدينة انطاكية ونظروا فى مقالة بولس ، فأوجبوا عليه اللعنة ولعنوا من يقول بقوله . وفى هذه الفترة ظهرت مقولة "آريوس"(٢)، بعدها تولى قسطنطين امبراطورية

---

(١) بولس السمساطى : كان بطريركا على الكرسى الانطاكى ، وينسب الى مسقط رأسه "سيمساط" مدينة فيما بين النهرين ، وقد قال : أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت انسانا كواحد منا فى جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وانه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الانسى صحبة النعمة الالهية فحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله ، وقال : ان الله جوهر واحد واقنوم واحد ، وبسبب اتحاد القوة الالهية بالانسان ، يسوغ القول : أن المسيح هو الله ، ولكن مجازا لاحقيقة ، وزعم أنه كان فى المسيح اقنومان وابنان لله أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى ، وانتهى الأمر بحرمانه وطرده . انظر : ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى ، ص٢٥٦ ، وقيل : أنه أنكر ألوهية المسيح وقرر أنه مجرد بشر رسول . وعقد للنظر فى شأنه ثلاثة مجامع بانطاكية من سنة ٢٦٤ حتى ٢٦٩ . وانتهى الأمر بحرمانه وطرده . انظر (على عبد الواحد وافى ، الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام ، دار النهضة ، مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص١٢٤) .

(٢) آريوس : كان قسيسا فى كنيسة الاسكندرية ، داعية واعظا ، خالف ماكانت عليه كنيسة الاسكندرية من القول بالوهية المسيح وبنوته للأب ، وقرر أن المسيح ليس الها ولاابنا وانما هو بشر مخلوق ، عبد لله كسائر الأنبياء والرسل وهو مربوب مخلوق مصنوع . وقال : ان الله لما أراد أن يخلق عالما له نهاية احتاج الى وسيط ولم يكن فى هذا الوسيط قوة خالقه ، وانما كان عاملا بسيطا علمه الأب كيفية القيام بهذه المهمة ، وعلى ذلك فان القوة الخالقة من صفات الأب ، أعطاها للمسيح كلمته وابنه عن طريق الاصطفاء ، فأوجد بها المخلوقات ، وهو خالق الأشياء ، واتبع مقولته خلق من النصارى فى مصر والشام وبيزنطة ، وهو قبل فرق التثليث ، التى تبرأت منه لمخالفتهم اياه فى المذهب . وقد حكم مجمع =

الـروم (٣٠٥-٣٣٧م) ، وكانت أمه هيلانة قد تنصرت ، فـآمن بالنصرانية ، وقام بها ، حتى انتشرت النصرانية فى زمنه وعز شأنها ، وأمـر ببناء الكنائس.

وقـد اختلف النصارى فى أمـر المسيح ، فعقد مجمـع "نيقية" سنة ٣٢٥م للفصـــل فى أمـر الخلاف بين آريوس ومخالفيـه ، واتخاذ مـــايرونه فى شئـون العقيـدة والشريعة ، على أن تصبـح قراراتهم مذهبا رسميـــا يجب أن يعتنقـه جميـع النصـارى فـأثبتوا الـوهية المسيـح وتكفير آريوس ،وحرمـانه وطـرده وتكفير كل من يذهب الى أن المسيح انسان وتحريق كـل الكتب التى لاتقول بألـوهية المسيـح وتحريم قـراءتهـا . وبارك المجتمعـون الملـك وقلـدوه سيفـه وطلبـوا منه اظهار دين النصرانية والذب عنه ووضعوا لـه أربعين كتابا فيها مايصلح أن يعمل به الأساقفـة ومـايصلح للملـك أن يعمـل بما فيهـا ، وهـو الـذى رتبت فيه "الأمانة" كما يزعمون وانما هى خيانة كبيرة حقيرة ، اذ أن ماوضعته له بطاركته كان دينا مخترعا مركبا من أصل دين النصرانية ممزوجا بشىء من عبادة الأوثان .

وأمر قسطنطين بكسر الأصنام وقتل من يعبدها وألا يثبـت فى الديوان الا أولاد النصـارى وأن يكونوا الأمراء والقواد ، وأمـر بطلب موضع المقبرة والصليب ، وبناء كنيسة القيامة ، فتولت أمه هيلانة مـع أسقف بيت المقدس ذلك ، وبنت كنيسة القيامة ، وكنيسة بيت لحم ، وكنيسة قسطنطين ، وقيل : بنى اثنتا عشر ألف كنيسة .

كما أمر أن لايسكن اليهود القدس ، وأن يقتل مـــن لايتنصر ، فتنصر من اليهود خلق ، وأوامر أخرى .

= نيقيـة سنـة ٣٢٥م الذى تقرر فيـه التثليث وألوهية المسيـح عقيـدة للنصارى بطرد آريوس مـن الكنيسة ، وكفره ، فانقرض مذهبه . انظر : (جوزيف نسيم يوسـف ، تاريخ الـــدولة البيزنطيـــة ، مــؤسسة شبـــاب الجامعـة ، الاسكنـــدرية ، ١٩٨٤م ، ص٤٣-٥٩) .

ويعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م حدا فاصلا بين مرحلتين اجتازتها العقيدة النصرانية ، المرحلة الأولى : وهى التى سبقته منذ مبعث المسيح حتى انعقاده وبدأت النصرانية فيها عقيدة توحيد ، ثم مالبث أن تسرب اليها الشرك فانقسم النصارى طائفتين ، احداها جنحت للشرك بالله وأخرى حافظت على التوحيد ، وكل طائفة تفرعت الى فرق عديدة .

ومن الفرق التى انحرفت عقائدها فى هذه المرحلة ، فرقة المرقيونيين وفرقة البربرانية ، وفرقة الاليانية ، وفرقة التثليث .

ومن أهم الفرق التى ظلت عقائدها محافظة على التوحيد ، فرقة ابيون وكانت تقر جميع شرائع موسى ، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم ، وتنكر ألوهية المسيح وتعتبره مجرد بشر رسول ، وانقرضت فى أواخر القرن الرابع ، وفرقة بولس السمساطى ، الذى أنكر ألوهية المسيح وقرر أنه مجرد بشر رسول . وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ الى سنة ٢٦٩م ثلاث مجامع للنظر فى شأنه وانتهى الأمر بطرده وحرمانه من الكنيسة ، وقال عن قوله ابن حزم : وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام (١) والآريوسيون أتباع اريوس وقد قرر أن المسيح ليس الها ولاابنا لله انما هو بشر مخلوق وأنكر جميع ماجاء فى الأناجيل من العبارات التى توهم ألوهية المسيح . وقد حكم مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م بطرد آريوس وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح ، وقد انقرض أتباع آريوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى (٢).

ومن ظل على التوحيد أصحاب الكهف ، وهم فتية من الروم كانوا على دين المسيح ، وكان ملكهم كافرا يعبد الأصنام ، فأخرج لهم صنما ودعاهم الى عبادته فأبوا وقالوا : {**ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعوا من**

---

(١) قال ابن القيم أن بولس السماطى أول من أفسد دين النصرانية . انظر قوله قبل : ص٤٣ .

(٢) انظر : على عبد الواحد وافى ، الأسفار المقدسة ، ص١٢١-١٢٥ .

دونه إلها}(١).

ويذكر ابن تيمية أن بقايا من النصارى كانوا على التوحيد متمسكين بدين المسيح حتى مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول : "وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :"ان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب" . وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على دين الله عز وجل ، وأما من حين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : "والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولايؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار""(٢).

أما المرحلة الثانية من سنة **٣٢٥**م حتى وقتنا الحاضر ، فقد تم من خلال مجمع نيقية سنة **٣٢٥**م ومجمع القسطنطينية الأول سنة **٣٨١**م ، تقرير عقيدة التثليث فى الديانة المسيحية ، وأصبحت العقيدة الرسمية التى يجب أن يعتنقها كل مسيحى ، ويكفر من يقول بغيرها ، وتلاشت الفرق الأخرى سواء التى تمسكت بالتوحيد ، أو التى انحرفت عنه الى الشرك عدا من اعتقد التثليث منهم شركا وكفرا ، وقد شاع معتقدهم بين النصارى ، فكل الكنائس الآن تقول بالتثليث ، يقول الله تعالى فى شأنهم : {**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ... الآية**}(٣).

وكان قد انقسم النصارى فى بلاد الشام على أثر مجمع خلقدونية سنة

---

(١) سورة الكهف ، آية : ١٤ ؛ وانظر : القضاعى ، تاريخ القضاعى ، ص١٥١-١٥٥ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، مطابع المجد التجارية ، ٣٤/٣-٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، ٢٠٥/١ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ٧٣

٤٥١م الى فرقتين : الملكانية[1](أصحاب مذهب الطبيعيتين) ، واليعقوبية[2] (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) ويسمون المونوفيزيستيون ، الذين انتشر مذهبهم فى الشام ومصر والحبشة وأرمينية ، وتبعه أكثر نصارى بلاد الشام ، فكان غالبية النصارى فى بلاد الشام على المذهب اليعقوبى ، وبالذات القبائل العربية المتنصرة كالغساسنة وغيرهم .

وكان سبب عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م أن كنيسة الاسكندرية قد خرجت برأى جديد حول طبيعة المسيح ، جمعوا له جمعا من الأساقفة فى مجمع أفسس الثانى ، وأعلنوه للملأ فيه وقرروه . وذلك الرأى أن للمسيح

---

(١) الملكانية : نشأ هذا اللقب فى القرن الخامس فى أعقاب مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م ، وأطلقه اليعاقبة على من خالفهم من نصارى الشرق وهم الذين وافقوا ملك بيزنطة (الامبراطور) ، على قبول مقررات المجمع الخلقدونى ، لاالى رجل يدعى ملكا قيل أنه ظهر بأرض الروم واستولى عليها ، أو رجلا يدعى ملكانيا هو صاحب مقالتهم وهم أصحاب مذهب (الطبيعتين) ، ومذهبهم يؤمن بتعدد الآلهة الى ثلاثة كما قال الله تعالى فيهم : {لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة} ، آية : ٧٣ المائدة . انظر : (الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٢٢٣-٢٢٥ ؛ ابن قيم ، هداية الحيارى ، ص٢٤٨-٢٤٩ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بنى أمية ، دراسة للأوضاع الاجتماعية والادارية ، دار طلاس ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص١٣٤ .

(٢) اليعقوبية : نسبة الى يعقوب البرادعى ، وان كان المذهب قد ظهر قبله بزمن . وتقول : ان الكلمة انقلبت لحما ودما فصار المسيح هو الله نفسه ، وأن الله صلب وقتل ومات ثم قام ورجع وبقى العالم ثلاثة أيام بلامدبر ، وانه عاد حديثا ، وأن المحدث عاد قديما ، وأنه تعالى كان فى بطن أمه محمولا - تعالى الله عن كفرهم علوا كبيرا - وهم أصحاب مذهب (الطبيعة الواحدة) ، وفيهم قال الله تعالى : {لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم} . آية ٧٢ ، المائدة . انظر : (ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٣٩/١-٤٠ الشهرستانى ، نفس المصدر ، ص٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن قيم ، نفس المصدر ، ص٢٤٧-٢٤٨ ؛ على عبد الواحد وافى ، الأسفار المقدسة ، ص١٣١-١٣٣ ؛ صابر طعيمة ، الأسفار المقدسة قبل الاسلام ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص٢٣١-٢٣٢) .

طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت ، معارضة بطريرك القسطنطينية واشتد الاختلاف بعد ذلك حول مجمع افسس الثانى أهو صحيح محترم السلطان أم هو مجمع غير عام لاتلتزم بآرائه الكنائس كلها . فعقد مجمع خلقدونية للنظر فى مذهب الطبيعة الواحدة الذى رأته كنيسة الاسكندرية وأعلنته فى مجمع افسس الثانى المذكور ، فعقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م باشراف الدولة البيزنطية ، وانتهى المجمع الى تقرير أن المسيح فيه طبيعتان لاطبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحده ، التقتا فى المسيح .

وبيانه قولهم : أن مريم العذراء ولدت الاهنا ، ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الالهية ، ومع الناس فى الطبيعة الانسانية ، وشهدوا أن المسيح له طبيعتان ، واقنوم واحد ، ووجه واحد ، ولعنوا ديسقورس بطريرك كنيسة الاسكندرية صاحب مذهب الطبيعة الواحدة الذى جمع له مجمع افسس وقرره وأعلنه ، ونفوه الى فلسطين ، كما لعنوا نسطورس صاحب مذهب النسطورية[١].

ولما نفى ديسقورس سار الى فلسطين وبيت المقدس ، ودعا الى اعتقاده حتى قال أهلها بمقالته . ثم ظهر فى أواسط القرن السادس الميلادى يعقوب البرادعى ، الذى دعا الى مذهب الطبيعة الواحدة الذى قال به ديسقورس من قبل ، ونشط فى ذلك ، فانتشر المذهب ، وانتسب من اعتقد مذهب الطبيعة الواحدة الى اسمه ، فعرفوا باليعقوبيين ، فأدى مجمع خلقدونية الى

---

(١) النساطرة : أتباع نسطور بطريرك كنيسة القسطنطينية ، فبعد أن تقرر التثليث فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م ، أنكر نسطور ألوهية المسيح ، فعقد مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م ، وقرر : أن مريم العذراء والدة الله ، وأن المسيح اله حق وانسان معروف بطبيعتين متوحد فى الاقنوم . ولعنوا نسطور ، ونفوه الى مصر ، لكن مذهبه لم يندرس وانتشر فى المشرق وبخاصة فى نصيبين والعراق والجزيرة . انظر : محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ، ص١٦٥-١٦٧ .

انقسام النصارى المثلثة الى ملكانيين ويعاقبة(١).

ولما كانت الشام تابعة للدولة البيزنطية ، والامبراطور البيزنطى هو الزعيم الروحى للعالم المسيحى ، فانه لمخالفة اليعاقبة لمذهب الملك ، ومناهضتهم مذهب الدولة ، لاقوا استبدادا دينيا من الحكومة البيزنطية ، فقامت فى بلاد الشام الثورات الدينية ، وراحت نهبا للفوضى والاضطراب . ولم تتمكن بيزنطة من تدارك الوضع المتردى هناك ، وهذا مادعى اليعاقبة للميل الى الفرس عندما استولوا على بلاد الشام ، ونشط مذهبهم فى فترة الاحتلال الفارسى . فلما استرد هرقل الشام ، اضطهدت دولته اليعاقبة فى الشام ، وبالغ الحكام فى تعذيبهم . وأراد الامبراطور هرقل أن يضع حدا للخلاف المذهبى ، فنادى بمذهب دينى جديد عرف باسم المونوثيليتى (Mohothelitism) ويعنى (المشيئة الواحدة) ، كما عرف بمذهب التوفيق أو التوحيد أى التوحيد والتوفيق بين المذاهب النصرانية المختلفة ، وأخذ عليه موافقة البابا هونوريوس الأول . وأصدر به مرسوما عرف باسم الايكيثيز (Ecthesis) سنة (٦٣٨م/١٧هـ)(٢). لكنه لم يلق القبول ، ورفضه اليعاقبة وعملت الدولة على فرضه على النصارى قسرا ، مما أغضب اليعاقبة ، وأثارهم على الدولة ، وزاد من روح الكراهية فى نفوسهم على الامبراطور ودولته ، وزادت المشاكل الدينية سوءا . وبينما كان الامبراطور هرقل يصدر أمره بالمذهب الجديد (٦٣٨م/١٧هـ) كان المسلمون يفتحون بلاد الشام ومصر(٣).

---

(١) عن مجمع خلقودنية سنة ٤٥١م وأثره فى ظهور فرقتى الملكانية واليعقوبية ، انظر : محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ، ص١٦٨-١٧٣ .

(٢) عن مذهب المشيئة الواحدة ، انظر : عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٥م ، ص١٠٨-١٠٩ ؛ جوزيف نسيم ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٠٨-١٠٩ .

(٣) عن ماقدمناه مختصرا عن حال النصرانية بعد عيسى عليه السلام ، انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٢٢١-٢٢٩ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، =

وفى بداية دعــوة الاسلام عــانى نصارى بلاد الشــام ويلات صــراع عسكـرى بين الفـرس والروم ، أشـار الله له فى قـوله عـز من قائل : {آلم . **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**}(١). وماكاد الروم يستردون بلاد الشام ، حتى بدت لهـم طلائع الفـاتحين المسلمين تحمـل نور الاسلام ليهـدى اللـه بنـوره مـن يشاء ، ويحكم المسلمون بلاد الشام فيستظل نصاراها فى أفياء شـريعة السماء آمنين .

ويقـال أن العـداء بين الـروم والفـرس عـداء طبيعـى بوصفـه مظهـرا للتنافس الحضارى بين الشرق والغرب ، ومن أن الرومـان حلوا محل اليونان فى عدائهم للفرس ، وهو ماأدى الى حروب مريرة بين الجارتين مـاتهدأ حينا الا لتثور حينا آخر . وكان من أهداف القوتين السيطـرة على البحر المتوسط باعتبـاره مـركز القـوة لأى دولـة تريد السيـادة العالميـة . وفى أوائل القـرن السابع الميلادى توغل الفرس فى آسيا الصغرى حتى وصلـوا الى البسسفور ، وفى تلـك الأثناء اعتلى هرقل (٦١٠-٦٤١م) كرسى الامبراطـورية البيزنطية فى ظروف صعبة تمر بها الدولة البيزنطية . ومما زاد الأمر حرجا اجتياح الفرس بلاد الشام سنة (٦١٤م) واستيلاؤهم على بيت المقدس ومصر بعد ذلك بعامين واتسمـت الحرب الفارسية للـروم فى بلاد الشام بالخراب والتـدمير والقتـل ،

= ٣/٥-٥٣ (نقلـه عن تاريخ "نظم الجوهر" لسعيد بن البطريق) ؛ ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى ، ص٢٥٢-٢٧٤ ؛ على عبـد الـواحد وافى ، الأسفـار المقـدسة ، ص٧٦-١٤٠ ؛ سهيلـة الريماوى ، مـدينة حمص عند الفتح الاسلامـى ، بحث ضمن أعمـال المؤتمر الـدولى الرابع لتـاريخ بلاد الشام ، بلاد الشـام فى صـدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣/ص٢٢٧-٢٢٩ ؛ بطـرس ضو ، تاريخ الموارنة ، دار النهـار للنشـر والتـوزيع ، لبنــان ، الطبعـة الثـانية ، ١٩٧٧م ، ٣٩/١-٤٥،٢١٨ ؛ ثريا حافـظ عرفة ، الحياة الاقتصـادية فى بلاد الشـام ، ص٣٣-٣٩ ؛ جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطيـة ، ص٢٥٦-٢٥٧ ؛ عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٠٨-١٠٩ .

(١) سورة الروم ، آية : ١

فقد خربوا أسوار حلب وأبوابها ، ودخلوا بيت المقدس عنوة ، وأباحوها ثلاثة ، فقتلوا مايقارب التسعين ألفا من المسيحيين والجنود البيزنطيين وغيرهم ، وأحرقوا كنيسة القيامة وغيرها كثير ، فذكر أنهم هدموا ثلاثمائة كنيسة ، وقيل ثلاثة آلاف دير وكنيسة ، وغيرها من المعالم المدنية ، كما أصاب التدمير المزارع ، وأحرقت المحاصيل وعادوا الى ايران يحملون ذخائر تلك الأديرة والكنائس التى دمروها .

وهذا أدى بدوره الى هجرة أعداد كبيرة من سكان المدن من المسيحيين واليهود ، فساءت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، كما أسر الفرس آلاف من سكان البلاد من النصارى اليعاقبة واليهود وغيرهم ، وعلى رأسهم بطريق بيت المقدس .

وقد استولى الفرس على صليب الصلبوت ونقلوه الى عاصمتهم طيسفون (المدائن) ، وكان الفرس يهدفون خلال غزوهم الى ضرب الركائز الهامة لبلاد الشام عند البيزنطيين وهى الأهمية الاقتصادية بخسرانها مصدرا من أهم مصادر ثروتها ، وحرمانها الزعامة الروحية على العالم المسيحى باعتبارها حامية الأماكن المقدسة للمسيحيين فى الشام ، والسيطرة على الشام كمنطقة استراتيجية تطل على البحر المتوسط ، وتمثل خط دفاع أمامى للروم على حدود الدولة الفارسية .

ويذكر روبرت شيك (Robert Schick) ، أن الغزو الفارسى أدى الى خروج عدد كبير من النصارى من فلسطين ، وأنه اتصف بالتخريب والتدمير ، وأن الفتح الاسلامى لبلاد الشام لم يكن مثله ، فان كثيرا من المدن فتحت صلحا بمقتضى عهود أمان ، ولم يعرف عن المسلمين نهب البلاد وأن المسلمين احتفظوا بعلاقات ودية مع سكان فلسطين ، وظل عددهم فيها أقل من سكانها النصارى(١).

---

(١)انظر عن ذلك :

The fate of the cristians in palestine in the byzantine - umayyad transition, the fourth international conference of the history of bilad al-sham, the third symposium , Amman, 1989, p.38-42 .

ولقد أصاب بلاد الشام وباء قبل سنتين من انسحاب الفرس سنة (٦٢٧م/٦هـ) ، مات فيه آلاف من أهل الشام . يقول ويلراميل كاجى[(١)]: ويبدو أن القدس عانت من التخريب أكثر من غيرها ، وأن التخريب لم يكن عاما ولاكبيرا ، وأن ذلك الذى حدث كان فى البدء نوعا من المعاناة وتتبعا لبعض العناصر من السكان ، كما يظهر أن السلطة الفارسية حاولت الابقاء على الأوضاع وتجنب استفزاز روح النصرانية ، وكان عدد الفرس المحتلين بعد الاستيلاء كان محدودا . ويلاحظ لجوء كثير من مدن الشام لمفاوضة الفرس بدل المقاومة ، وهو أمر ملموس خلال الفتح الاسلامى[(٢)].

ثم شرع هرقل سنة (٦٢٢م/١هـ) فى استعادة أملاك الدولة البيزنطية التى سيطر عليها الفرس ، ولم تمض ثلاث سنوات حتى أجبر الامبراطور هرقل الفرس على الانسحاب من مصر والشام . ولم يكتف بذلك ، فتقدم سنة (٦٢٦م/٥هـ) ، عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب دولة الفرس ، وأنزل بكسرى الفرس خسرو هزيمة ساحقة فى أواخر سنة (٦٢٧م/٦هـ) ، قرب نينوى ، وعلى أثر فرار خسرو بعد الهزيمة لحق به هرقل الى المدائن العاصمة فقامت ثورة عصفت بخسرو كسرى الفرس سنة (٦٢٨م وقيل (٦٢٩م/٧ أو ٨هـ) ، وتولية ابنه شيرويه ، وتم عقد صلح بين الطرفين المتحاربين وافق الفرس بمقتضاه على الجلاء عن جميع الأراضى التى مازالت بأيديهم من ممتلكات دولة الروم ، وعلى رد صليب الصلبوت ، واطلاق سراح الأسرى فأعاد هرقل الصليب الأعظم الى القدس ، فنادوا به محررا للمسيحية ومعيدا لمجد الامبراطورية الرومانية الشرقية[(٣)].

---

(١) انظر : Waler Emil Kaegi : New perspections on the last decades of the byzantine era, p. 4-6 .
من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، الندوة الأولى عن العصر البيزنطى ، عمان ، ١٩٨٣م .

(٢) ibid : p.8 .

(٣) عن استيلاء الفرس على بلاد الشام ، واسترداد الامبراطور هرقل لها ، انظر : سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ، ص٢٠١-٢٠٤ ؛ جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية=

ويذكر لنا المؤرخ البيزنطي كونداكوف (Kondakov) رأيه عن آثار الغزو الفارسي ، وهو ماينقله فازيليف (Vasilief) فيقول : لقد أزال آثار الحضارة اليونانية الرومانية التي كانت سائدة في فلسطين ، ودمر الزراعة ، وأدى الى هجرة كثير من سكان المدن ، وخرب دور العبادة ، وأوقف تقدم التجارة ، وحرر القبائل العربية من الروابط والعلاقات التي كانت تربطهم ببيزنطة ، والخوف الذي كان يسيطر عليهم من البيزنطيين ، فبدأوا يكونون الوحدة بينهم ، وأن التقدم الثقافي في بلاد الشام قد انتهى ، وأن فلسطين دخلت فيما يعرف بفترة العصور الوسطى ، وأن فترة الغزو الفارسي تشبه الى حد كبير فترة الغزو المغولي لبلاد الشام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي من حيث التدمير والتخريب في كافة المجالات[١]. ويذكر المؤلف أيضا أن المعلومات عن الادارة في فترة الحكم الفارسي تكاد تكون معدومة ، لكن المعروف أن الفرس أثقلوا على أهل بلاد الشام في جباية الضرائب ، لكن هذا لم يمنع بعض الكارهين للحكم البيزنطي من اليعاقبة النصارى واليهود من التعاون مع الفرس ، وقد شارك آلاف من اليهود مع الفرس في الهجوم على بيت المقدس ، والاساءة الى المسيحيين اليعاقبة الذين وقع منهم أيضا أعداد كبيرة في الأسر . ولكن يمكن القول أن الكنيسة

= البيزنطية ، ص٢٥٧-٢٥٨ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، ص٤٧-٥٢ ؛ عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٩٩-١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٠١-١٠٧ ؛ وانظر :

Michael G. Morony : Syria under the persians cio-629, The fourth international conference on the history of bilad al-sham, Proceedings of the second symposium Amman, 1987, p. 87-95 .

شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها حتى الحروب الصليبية ، مطابع الإيمان ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص٧٥ .

(١) Michael G. Morony : Op. Cit, p.88 .

اليعقوبية أصبحت أكثر قوة ونفوذا فى أعالى بلاد الشام وفى بلاد الجزيرة ، وأن أوضاعها تحسنت خلال الحكم الفارسى عما كانت عليه أيام الحكم البيزنطى (١).

ويظهر لنا أن الغزو الفارسى فى البدء كان عنيفا مدمرا ، ولم يكن يميز فى معاملته بين فئات السكان الدينية والعرقية وان تعاون معهم بعض اليهود واليعاقبة ، فقد طال القتل والأسر والهجرة من المدن أعدادا كبيرة أخرى منهم . ويبدو أنهم منحوا اليعاقبة بعد ذلك نوعا من التسامح نكاية فى الحكام البيزنطيين الملكانيين ، ولتعميق هوة الخلاف المذهبى بين النصارى ، وهذا ماحدث فعلا ، فقد كثر أتباع الكنيسة اليعقوبية ، وزاد نفوذهم فى بلاد الشام خلال الحكم الفارسى ، واشتد النزاع الدينى بعد انسحاب الفرس بين اليعاقبة والحكام الملكانيين .

أما ماقاله المؤرخ البيزنطى كونداكوف من أن الغزو الفارسى لبلاد الشام كان يعنى دخول فلسطين فترة العصور الوسطى الموسومة عندهم بالظلام فذلك رأى استشراقى حاقد ، فان الغزو الفارسى أعقبه الفتح الاسلامى ، وفى ظل الحكم الاسلامى عاشت الشام فى نور الاسلام والعلم ، بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجاهلية والجهل ، ورقت بلاد الشام كجزء من دولة الاسلام سلم التطور الحضارى ، ثم رقته أوروبا فى أثر خطى المسلمين وبنور علمهم حتى أضحت على ماهى عليه اليوم .

ويرى بعض الباحثين أن بلاد الشام على أثر الغزو الفارسى ،ومن ثم الاسترداد البيزنطى ، قد أصابها الخراب والاهمال والفوضى . وفى ظل تلك الفتن تآكل التقسيم الادارى ، وأصاب الخلل التنظيمات البيزنطية هناك كما أهملت الخطوط الدفاعية ودمرت التحصينات العسكرية القديمة ، وأضحت الأقسام الشرقية من بلاد الشام تخضع للسلطات المحلية ، فقد كان الغساسنة أوسع القوى المحلية سلطانا وكان الروم قد ولوهم حماية الحدود .

---

(١) IBID : p. 91-94 .

لكن الغزو الفارسى قضى على مملكة الغساسنة والتحالفات القبلية التى كانت بيزنطة قد عملت على ايجادها فى بادية الشام ، ولم يكن أمر اعادتها سهلا بعد الحرب ، اذ استغلت بعض القبائل فترة الحرب ونزحت للمناطق الغنية وغيرت تحالفاتها . وكان الانفاق على القوى المحلية والمرافق العامة مسئولية السلطات المحلية ، بينما ترك الانفاق على القوى التابعة للادارة المركزية للدولة ، وفى ظل توقف الدولة عن تقديم المخصصات المالية لزعماء القبائل ، أدى ذلك الى تفكك الروابط بين الدولة وتلك السلطات المحلية ، وأوهن صدق ولاءها للدولة البيزنطية وحماية حدودها(١). فلم يكن وقت الفتح الاسلامى ملائما للدولة البيزنطية التى خرجت للتو من حرب ضروس أنهكت قواها واستنزفت مواردها المالية وهو ماأدى الى تسريح عدد كبير من جنودها بعد الحرب ، الى جانب ماخلفته تلك الحرب من أوضاع جديدة فى بلاد الشام ، فان بلاد الشام لم تعد لحالتها الأولى قبل الغزو الفارسى ، اذ تفاقمت النزاعات الدينية ، حيث كثر أتباع الكنيسة اليعقوبية وقوى نفوذهم ، لذلك وقفوا بقوة فى وجه محاولات هرقل لفرض "مذهب التوحيد" ، كما زادت المشاكل الاقتصادية بسبب فرض الدولة ضرائب جديدة بعد الحرب ، مما وسع الهوة بين نصارى الشام والدولة البيزنطية ، وهذا ماجعلهم يبدون ميلا للفاتحين المسلمين(٢).

أما الجيش البيزنطى فى بلاد الشام فقد كان يعانى من تقسيمه الى خمسة أقسام ، يقود كل قسم أمير لايربطه بالآخر رابط ، وليس بينهم وفاق كما بدا عليهم الاستخفاف بمشاكل الاقليم ، الى جانب استهزاء هرقل بالفتح

---

(١) نقولا زيادة ، التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، ص١١٩،١٢٢ ؛ نقولا زيادة ، تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص١٦٥-١٦٦ ؛ نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، ص٤١٢ .

(٢) جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية ، ص٢٧٩،،٢٩٨-٢٩٩ .

الاسلامى للشام بعد انتصاره على الفرس ، متخذا من حمص مدينة اللهو آنذاك مركزا له ولحاشيته ، ولم يكن وضع الجند أفضل من وضع قادتهم[١]. والصحيح أن هرقل لم يكن مستخفا بالفاتحين ، وكان يعلم حقيقة الدعوة ، وأن الفاتحين سيفتحون الشام لامحالة ، ومع ذلك فقد جيش الجيوش ووجه العساكر لصد المسلمين عن بلاد الشام ، لكنه لم يفلح ، وخرج من الشام مهزوما كسيرا لم يهنأ بفرحة نصره على الفرس[٢]. ومن عجيب المصادفات التاريخية أنه عندما خرج هرقل من القسطنطينية بجيشه لمحاربة الفرس واستعادة أملاك الدولة البيزنطية التى استولوا عليها سنة (٦٢٢م/١هـ) كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة حيث بنى دولة الاسلام ، ومأأن استعاد هرقل بلاد الشام سنة (٦٢٩م/٨هـ) حتى خرج المسلمون الى الشام فحاربوا الروم فى مؤتة فى نفس العام ، وفى السنة التالية (٦٣٠م/٩هـ) ، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى تبوك يريد غزو الروم وفتح الشام[٣].

ولقد غطت ظلال الفتح الاسلامى لبلاد الشام على الغزو الفارسى له ، فالفتح الاسلامى أدى الى فتح بلاد الشام ، بينما لم يتمخض الغزو الفارسى عن فتح . ومع ذلك فهذا الغزو الفارسى له أهمية فى تاريخ بلاد الشام ، وهذا راجع للاضطراب الذى أثاره ، والى احياء روح الكراهية بين اليهود والنصارى من ناحية وبين الحكام البيزنطيين والنصارى اليعاقبة فى بلاد الشام من ناحية أخرى ، ولمعاصرته ظهور الدعوة الاسلامية ، ففى الوقت الذى

---

(١) سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢٣٠ .

(٢) انظر بعد : ص٧٦،٨٣،٩٣-١٠١،١٠٩،١٣٧ ومابعدها ، ١٥٣،٤٧٢ ومابعدها .

(٣) سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ، ص٢٠٤-٢٠٥ . وقد أخطأ ابن الحنبلى محمد بن ابراهيم الحلبى القادرى عندما ذكر : أن هجرة المصطفى عليه السلام كانت فى أول سنة من حكم هرقل . انظر : الزبد والضرب فى تاريخ حلب ، تحقيق محمد التونجى منشورات مركز المخطوطات والتراث ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ص١٧-١٨ .

وانظر عن غزوة مؤتة وتبوك بعد : الفصل الأول ، ص٩٦-١٠١ .

تمكن البيزنطيون من استعادة بلاد الشام ، فان الحرب الفارسية البيزنطية قد مهدت الطريق لفتح المسلمين لها ، غير أن من الممكن القول أن فتح المسلمين لبلاد الشام ربما كان أيسر اذا كان الفتح حدث وهى تحت الحكم الفارسى[(١)].

وأراه أصاب فى ذلك ، فان أهمية بلاد الشام للروم أكبر منها للفرس وبخاصة من الناحية الدينية ، وهذا ماجعل الروم يستميتون فى الدفاع عنها ولكن دون جدوى ، فقد نصر الله من نصره من عباده المؤمنين ولاغالب لأمر الله .

وكان المجتمع الشامى قبيل الفتح الاسلامى يتكون من عدد من العناصر مختلفة الأديان والمذاهب واللغات والثقافات ، غير أن النصارى هم سواد أهل الشام والغالبين عليه . يقول ابن قيم الجوزية[(٢)]: وكان الشام كلها نصارى ، واليهود بأطرافه مستذلين . ويذكر أن هناك آخرون من غير النصارى واليهود ، وأن بعض أهل الشام كانوا على الوثنية[(٣)].

كان الحكام الروم منذ استولوا على بلاد الشام سنة (٦٣ ق.م) يمثلون العنصر الغالب[(٤)]، ومعهم سكان البلاد ، وكان العرب فى بلاد الشام يشكلون عنصرا هاما وكبيرا عند الفتح الاسلامى . وقد قدم العرب الشام واستوطنوه وصار لهم به شوكة ودول تحت سيادة دولة الروم ، يقول اليعقوبى[(٥)]: كانت قضاعة أول من قدم الشام من العرب ، فصارت الى ملوك الروم ، فملكوهم على من ببلاد الشام من العرب ، فكان أول الملك فيهم لتنوخ ، فدخلوا فى النصرانية ، ثم غلبت بنو سليح من قضاعة

---

(١) Michael G. Morony : Op. Cit, p.84-94 .

(٢) هداية الحيارى ، ص٣٦ .

(٣) انظر بعد : ص٤٩٠،٥١٦ .

(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٥٧/١ ؛ يوسف الدبس ، مختصر تاريخ سورية ، ص١٧٤-١٧٥ .

(٥) تاريخ اليعقوبى ، ٢٠٦/١-٢٠٨ ؛ وانظر : محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٦٦/١-٦٨ ؛ يوسف الدبس ، نفس المرجع ، ص٢٤٥-٢٤٦ .

وملكت ، فلما تفرقت الأزد وصارت غسان الى الشام ملكهم الروم على من بها من العرب وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم . وقيل : أن الضجاعمة من قضاعة كانوا ملوكا قبل الغساسنة(١). وكان نزول العرب الشام قديما منذ القرن الأول قبل الميلاد ، وتتابعت هجراتهم عبر القرون ، فجاوروا الأنباط والتدمريين واخوانهم الساميين السابقين فيها(٢).

وكان معظم العرب فى بلاد الشام قبل الفتح الاسلامى من القبائل اليمانية ، ومن تلك القبائل غير ماقدمنا ذكره ، لخم ، وجذام ، وكلب ، وبهراء ، وبلقين ، وبلى ، وعاملة ، وعذرة ، وجهينة ، واياد ، وقبائل من حمير ، وكنده ، وتغلب ، وطى ، وقيس ، وبطون من الأزد أخرى . وكان لهذه القبائل مواطنها ، غير أن الكتاب يختلفون فى ذلك ، ولعله راجع الى تغير مواطنها من حين لآخر ، بسبب مزاحمة الهجرات الجديدة لمن استقر سابقا ، والارتحال من مكان لآخر حيث أن كثيرا منها سكن بادية الشام ، وفى أرياف المدن والحواضر ، وبسبب تغير التحالفات وأثر الحروب التى منيت بها بلاد الشام عبر تاريخ ماقبل الاسلام . ولكن يمكن القول اجمالا أن القبائل العربية كانت تمثل جزءا كبيرا من سكان بلاد الشام عند الفتح الاسلامى ، وقد انتشرت على معظم الرقعة الجغرافية لبلاد الشام ، فقد استوطنوا دمشق ، وحمص ، وقنسرين ، وبعلبك ، وقيسارية ، وبصرى ، وتدمر ، وأيله ، ودومة الجندل ، ومعان ، ومادبا ، وغوطة دمشق ، والجولان ، وحوران ، والبلقاء ، ومرج راهط ، واليرموك ، والبقاع ، وغور الأردن ، وقراقر ، وسوى ، ومدائن قوم لوط ، والسماوة وغلبوا على الأردن وفلسطين ، وبادية الشام ، وغيرها من المواطن . وهذا الانتشار

---

(١) انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٥٥-٥٩ .

(٢) صالح الحمارنة : المسيحية فى أرض الشام فى أوائل الحكم الاسلامى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى لبلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، الدار المتحدة للنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م ، ص٥٤٩ ؛ نقولا زيادة : تموين الجيوش العربية ، ص١٦٦ .

الـواسع للقبائل العربية فى بلاد الشـام قبيل الفتح يبين كثـافة العنصر العربى فى الشام ومدى أهميته(١).

وهنـاك قبائل عربية كثيرة نزلـت الشام ولم تذكرهـا المصـادر العربية ، ولم يكـن لعلمـاء الأنساب علم بهـا ، ذكرتها التوراة وكتـب اليهـود الأخرى والمصادر اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية ، والقـت المكتشفات الأثرية الأضواء على تلك القبائل وقدم سكناها بلاد الشام ، وأن منهـا أسرا حكمت حمص والرها وفى لبنان(٢).

وقـد اعتنـق جل عـرب الشـام النصـرانية ، وكانت قبيلـة غسـان على المذهـب اليعقوبى . ويرى عـدد من الباحثين أن النصـرانية بين العرب كانت اسميـة ولم تتعمق فى قلوبهـم ، وكان لايزال فى نفوسهـم شىء من الوثنية ، كمـا بقـى بعضهـم على الـوثنيـة ، فهـذا الحارث بن أبى شمـر الغسـانى أحد ملـوكهم الـذى مات عام الفتـح ، أهدى لصنم "مناة" سيفين لـه همـا مخذوم ورسوب ، وكانت كلب التى اعتنق بعض بطونها النصرانية تعبد صنمها "ود" بدومة الجندل ، وكانت لخم وجذام تعبد المشترى ، ولهم مع عامله وغطفان

---

(١) عـن القبائل العربية ومواطنها فى بلاد الشـام قبل الفتح الاسلامـى ، انظر : خليفة ابن خيـاط ، تاريخ خليفـة بن خيـاط ، تحقيق أكرم ضياء العمـرى ، دار طيبـة ، الـرياض ، الطبعـة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١١٩ ؛ قـدامة بن جعفـر ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدى ، دار الرشيد للنشر ، العراق ١٩٨١م ، ص٢٨٦-٢٨٧،٣٠٣ ؛ نبيـه عاقل ، موقف سكان بلاد الشـام من الفتح ، ص١٦١،١٥٣-١٥٨ ؛ عبـد المنعـم مـاجد ، مـوقف الـروم العـرب ، ص١٧٨،١٧٩ ؛ محمـد عبـد القادر خريسات ، دور العـرب المتنصـرة فى الفتـوحات ، بحث ضمـن أعمـال المؤتمر الـدولى الرابع لتـاريخ بلاد الشام ، بلاد الشـام فى صـدر الاسلام ، الجامعـة الأردنية وجامعة اليرمـوك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص١٣٧ ومـابعدها ؛ توفيـق فهد، ماوية وضجعم أو العـرب والرومان فى أواخر القـرن الرابع ، بحث ضمـن أعمال المؤتمر الدولى لتـاريخ بلاد الشام ، بلاد الشـام فى العهـد البيزنطى ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، ص١٧٩-١٩٧ وغيرها .

(٢) انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٥١-٥٤ .

صنم يقال له "الأقيصر" . وهذا يوضح أن مقاومتهم للفتح لم تكن نتيجة الوازع الدينى ، وانما سعيا وراء المصالح ولأسباب سياسية ، فلما تغيرت الأمور وزالت المصالح وهان أمر الروم وامتنعوا عن دفع المبالغ المقررة للقبائل التى كانت تحمى الحدود ، بدلت تلك القبائل مواقفها(١). ولم يكن الخلاف المذهبى فى حقيقة الأمر له ذلك الأثر البين كما قال بعض الباحثين فى ميل نصارى الشام الى الفاتحين ، فان الغساسنة الذين كانوا أصدق القبائل العربية المتنصرة فى الشام ولاء للروم ، وقاتلوا معهم المسلمين حتى النهاية ، وخرج ملكهم جبلة بن الأيهم فى جمع من قومه الى أرض الروم ، كانوا على المذهب اليعقوبى المخالف للمذهب الملكانى مذهب الدولة البيزنطية .

كما كانت قبيلة تغلب فى دومة التى عرفت بتمسكها بالنصرانية على المذهب اليعقوبى المخالف لمذهب الدولة البيزنطية(٢). ويطلق الاخباريون على القبائل العربية فى الشام ، عرب الضاحية ، أو المستعربة ، أو المتنصرة أو نصارى العرب ، وروم العرب(٣). وقد ساعد وجود العرب فى الشام

---

(١) انظر عن انتشار المسيحية بين القبائل العربية فى الشام : اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١-٢٥٧ ؛ صالح موسى درادكة ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص١٠٧-١٠٩ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٠-٥٥١ ؛ محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتح ، ص١٣٥-١٣٧ ؛ توفيق فهد ، ماوية وضجعم ، ص١٨٨ .

(٢) معروف زريق ، تاريخ دومة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٣٠ .
ودومة : مركز منطقة فى محافظة ريف دمشق ، وهى قرية من قرى غوطة دمشق شرقى حرستا . وليست دومة الجندل . انظر : نفس المرجع ، ص١٣-٢٥ .

(٣) محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص٣٣٥ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٥٩-٦٠ .

على انتشار العربية ، فكانت لسان العرب ومن خالطهم ، بينما كانت لغة التخاطب عند أهل البلاد الآرامية والسريانية ، كما كانت اللاتينية معروفة فى السواحل ، وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية(١). ولقد كان لذلك أثره فى الموقف من الفتح والاسلام . وكان لعرب الشام سوق فى دومة الجندل ، يقوم فى شهر ربيع الأول ، ورؤساؤها غسان وكلب أى الحيين غلب قام(٢).

ولم تنقطع صلة عرب الشام بعرب الجزيرة ، فالى جانب رابطة النسب واللغة والجوار ، كان هناك علاقات تجارية بين عرب الشام وعرب الجزيرة وخاصة الحجاز . فقد نجح هاشم بن عبد مناف القرشى من عقد معاهدة تجارية مع الروم والغساسنة فى الشام ، للتبادل التجارى وتأمين القوافل ، ذكرها الله تعالى فى سورة قريش(٣).

وكانت لحوران مكانة مميزة مع عرب الحجاز ومكة خاصة ، وكان أهل مكة معروفين لدى أهل حوران ، لديمومة التواصل الذى أدى اليه ماكان يتمتع به اقليم حوران من رخاء وثراء وازدهار تجارى واقتصادى ، جعله موضع اهتمام البيزنطيين ، ومحط رحال تجار قريش وبخاصة مدينة بصرى كمركز تجارى ، وكانت حوران تقع عند نهاية الطريق التجارى القادم من شبه الجزيرة العربية عبر وادى السرحان ، ويدل على كبر حجم التبادل التجارى أن قوافل قريش التجارية كانت تصل الى (٢٥٠٠) جمل ، وأن وصول قافلتهم كان يمثل موسما تجاريا فى بصرى ، وكان عرب حوران

---

(١) نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ معروف زريق ، نفس المرجع ، ص٢٩-٣٠ ؛ نقولا زيادة ، تموين الجيوش العربية ، ص١٦٧ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦٩ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢٧٠/١ .

(٣) انظر : جميل عبد الله المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٥٣ .

يرون عرب مكة اخوة لهم ، ويرد ذكر بصرى فى أخبار علاقات قريش بالشام فى قصة الراهب بحيرا ومعرفته رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة(١). ولاشك أن تلك العلاقات كان لها أثرها الايجابى فى الموقف من الفتح واعتناق الاسلام ، كما أن تلك الصلات جعلت المسلمين على معرفة بالشام وطرقه ، مما أعان على وضع الخطة المناسبة لفتح الشام وتحديد طرق سير الجيوش الاسلامية . ومأأرى من قبيل المصادفة فى ضوء ماقدمنا أن تكون مدينة بصرى فى اقليم حوران أول مدينة يفتحها المسلمون فى بلاد الشام .

وبالاضافة الى الحكام الروم والعرب كان يسكن الشام خليط من بقايا اليونانيين والآراميين والسريان والنبط واليهود والسامرة والجراجمة والموارنة والفرس والأرمن والأقباط والكرج والأحباش(٢). وبعض هذه العناصر نزلت بيت المقدس بعد تنصرها ، وكانوا أقليات ، وبعضهم من بقايا القوى التى استولت على الشام كاليونان والفرس .

ويرى لامنس (Lamens) أن العناصر الجنسية التى كانت تؤلف سكان بلاد الشام متعددة ومتباينة ، ولكن يمكن ردها جميعا بطريقة اجمالية الى العنصرين الأصليين فى الشعوب الشامية وهما : العنصر الآرامى فى الشمال والوسط ، والعنصر الكنعانى الفينيقى على الشاطىء والجنوب(٣).

---

(١) Maurice Sartre : Le Hawran Byzantin a la veille de la conquete musulmane, the fourth international conference of bilad al-sham, proceedings of the second symposium, Amman 1987, p.155-167 .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية ، ٩/١٤٩-١٥٠ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٦١-٦٢ ؛ سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢٢٦ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦٥-٦٧،٦٩،٧٠-٧١،٧٣ .

(٣) صالح درادكة ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٣٢-١٣٣ [نقلا عن : لامنس ، سورية فى زمن الفتح العربى ، مجلة المشرق ، عدد ، م٣٠،١٩٣٢ ، ص١٣] .

تلك كانت عناصر المجتمع الشامي قبيل الفتح ، وجلها كانت على النصرانية ، أما اليهود والوثنيون فكانوا قلة قليلة ، حتى لانكاد نسمع لهم ذكرا عند الفتوحات . فلم يعقد المسلمون لليهود عهود أمان خاصة بهم ، وانما كانوا تبعا للنصارى ، الا ماكان من عهد أبي عبيدة للسامرة فى الأردن وفلسطين(١)، أما الوثنيون العرب ببلاد الشام فيبدو أنهم اعتنقوا الاسلام جميعا ، اذ لاتذكر المصادر شيئا عنهم بعد الفتح ، والمعروف أن ليس فى وثني العرب الا الاسلام أو القتل(٢).

ومن خلال هذا العرض المجمل لأحوال النصارى فى بلاد الشام قبيل الفتح الاسلامى يتبين لنا سوء حالهم ، وتخبطهم فى ظلمات الجاهلية ، ومتاهات الاختلافات الدينية والمذهبية ، وجور الأنظمة الوضعية ، وشر الروح العرقية ، فلاحكومة عدل ، ولادين حق ، ولاحرية دين وفكر كحق للانسان الحر ، ولاأمن واستقرار ، أو رغد عيش ورخاء .

ويمكن أن نقول أن وقوع الشام على حدود الجزيرة العربية الشمالية جعلها مقصدا للدعوة والفتح على أساس مبدأ الموالاة فى الدعوة ، وأن أهمية بلاد الشام سياسيا ودينيا واقتصاديا وحضاريا للدولة البيزنطية جعل الروم يستميتون فى الدفاع عنها ومقاومة الفتح الاسلامى بكل قوة . كما أن خضوع نصارى الشام للحكم الفارسى هيأ نصارى الشام لقبول حكم غير الروم وان كانوا على غير دينهم ، فكان ذلك من أسباب ترحيب النصارى فى الشام بالحكم الاسلامى . وقد تبين لنا أن مالاقاه النصارى فى الشام فى ظل الحكم البيزنطى ، من جور سياسى ، واضطهاد دينى ، واستنزاف اقتصادى ، وتعسف وتفرقة فى المعاملة واشتطاط فى الجباية ، أدى الى تطلع النصارى الى حكم يجدون فى ظله الأمن والسلام والاستقرار والعدل والحرية والرخاء ، فكان لهم ذلك فى ظل الحكم الاسلامى .

---

(١) انظر بعد : عهود الصلح ، ص١٨٨ .

(٢) انظر : أبو عبيد ، كتاب الأموال ، تحقيق وتعليق خليل محمد هراس ، دار الفكر الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص٣٤-٣٩ .

ودعا المسلمون نصارى بلاد الشام الى الاسلام ، ولم يكرهوهم على الدين ، وأعطوهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم ودور عبادتهم ، وصالحوهم على مايستطيعون ، ولم يحملوهم مالايطيقون ، وحكموهم بالحق والعدل وعاملوهم كرعايا بالاحسان والرحمة والتسامح ، وشارطوهم على مايحفظ حقوقهم ويلزمهم واجباتهم ، وأعطوهم حق المواطنة فى ممارسة الحياة والأعمال المختلفة ، فاستفادوا منهم ، وأفادوهم ، واستعانوا بهم وتعاملوا معهم ، وتركوا لهم حياتهم الاجتماعية يعيشونها وفق تقاليدهم ، كل ذلك كان لهم وعليهم بما أوجبه الشرع وأباحه الشارع .

فأثمر ذلك عن قبول بالحكم الاسلامى ، والولاء للمسلمين والتعايش معهم ، كما انتشر الاسلام بين طوائف النصارى فى الشام ، فاعتنقته الأكثرية وبقى على النصرانية منهم الأقلية ، فسعد كلا الفريقين ، ففاز من أسلم بسعادة الدنيا والآخرة ، وسعد من ظل على الكفر بالحياة الكريمة فى الدنيا فى ظل الحكم الاسلامى التى لم يجدونها فى ظل الحكم البيزنطى .

وان ذلك لأسمى دليل على قدرة الاسلام كتشريع سماوى عالمى خالد صالح لكل زمان ومكان على احتواء كافة الأجناس والأديان واللغات والثقافات ، والهيمنة عليها . يقول تعالى : {**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... الآية**}(١).

---

(١) المائدة ، آية : ٤٨ .

الفصل الأول
العلاقات بين الدولة الإسلامية ونصارى الشام
زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

* عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

* علم النصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

* دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم السلمية لنصارى الشام الى الاسلام .

* وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لقادة الغزوات والسرايا بحسن معاملة نصارى الشام .

* عهود الصلح النبوية للنصارى .

* موقف نصارى الشام من الدعوة والفتح زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الأول
العلاقات بين الدولة الإسلامية ونصارى الشام زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

*** توطئة :**

أساس هذه العلاقات هو دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام الى الاسلام ، ثم استمرت بقيام المسلمين بهذا الواجب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ومن جاء بعدهم . والمسلمون فى الدعوة الى الله انما هم متبعين سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى توحيد الله عز وجل ، واخلاص العبادة له ، واخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومن الكفر الى الايمان ، قياما بالواجب الذى ألزمهم الله اياه فى قوله عز من قائل : {**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وماأنا من المشركين**}(١)، وقوله : {**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ...}(٢). وماأمرنا بذلك الا لعموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى بعث داعيا الى دين الله الحق الذى ارتضاه لنفسه ، فقال تعالى : {**إن الدين عند الله الإسلام**}(٣)، وارتضاه لأنبيائه وأتباعهم ، فلايقبل من أحد دينا غيره ، يقول تعالى : {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**}(٤)، فأوحى به اليهم ، وأمرهم بالدعوة اليه ، وتبليغ الناس اياه فقال جل جلاله آمرا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالتبليغ : {**ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدى القوم الكافرين**}(٥).

---

(١) يوسف ، آية : ١٠٨
(٢) آل عمران ، آية : ١١٠
(٣) آل عمران ، آية : ١٩
(٤) آل عمران ، آية : ٨٥
(٥) المائدة ، آية : ٦٧

ولايضـاح ذلـك نطرح مايبين عمـوم رسـالته عليـه السلام ، وشمـول دعوته ، وجهده وجهاده فى سبيل دعوة نصارى الشام الى الاسلام ، والى أى مدى وصل فى هذا السبيل ، لنعلم من أين بدأ الخلفاء الراشدون ومن بعدهم الأمـويين ، وماقاموا به فى هـذا الشأن استكمالا لما بدأه نبيهـم محمـد صلى اللـه غليـه وسلم ، وحصيلـة جهـدهم فى دعـوة نصارى الشـام الى الاسلام .

* عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثابت بالقرآن والسنة وماعلم من سيرته وأحواله ، وأن الله أرسله الى الناس كافة ومنهم النصارى ، بل الى الثقلين الجن والانس عربيهم وعجميهم(١).

يقول الله تعالى مبينا ذلك : {**وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون**}(٢)، وقال : {**قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لاإله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**}(٣)وغيرها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن : "**فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون**"(٤).

وقال عليه السلام : "**كان النبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس كافة**"(٥).

---

(١) عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معلوم لدينا نحن المسلمون ، ولكن ذكرنا لبعض دلائل ذلك موجه لمن اطلع على هذه الدراسة من أهل دين النصرانية ولمعلومات أكثر تفصيلا انظر مجادلة شيخ الاسلام ابن تيمية للنصارى الذين يدعون أنه انما أرسل الى العرب خاصة أو أنكروا رسالته ، فى كتابه : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، م١ ، ج١ ، ص٢٩-٦٦،١١١-١٢٣،١٢٦-١٢٧ ، وتعم الفائدة بقرائة جوابه فى كامل الكتاب .

(٢) سبأ ، آية : ٢٨

(٣) الأعراف ، آية : ١٥٨

(٤) مسلم ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، الناشر ، دار احياء التراث العربى ، ٣٧١/١ .

(٥) البخارى ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى ، الناشر ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م ، ٥١٩/١ ؛ مسلم ، نفس المصدر ، ٣٧٠/١-٣٧١ (من حديث طويل) .

واتبع عليه السلام أسلوب الحكمة فى الدعوة كما أمره الله بقوله : {**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن...**}(١).

والقرآن يذكر دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب(٢) ومنهم النصارى ، ومن لاكتاب له من الانس والجن جميعا ، فى مواضع كثيرة ، الى الايمان به وبما جاء به .

ومعلوم من سيرته وأحواله أنه دعا أهل الكتاب كما دعا الأميين(٣) بنفسه ، وعن طريق نوابه ، وأرسل اليهم رسله ، وأمر بجهادهم ، وجاهدهم(٤).

---

(١) النحل ، آية : ١٢٥

(٢) أهل الكتاب : الكتابى عند الأحناف ، كل من اعتقد دينا سماويا وله كتاب منزل كالتوراة والانجيل وصحف ابراهيم وشيت وزبور داود . وقال غير الأحناف ، كالحنابلة والشافعية ، أهل الكتاب هم اليهود والنصارى دون غيرهم كأصحاب صحف ابراهيم وشيت وزبور داود ، لأن قوله تعالى : {أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا} يدل على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى دون غيرهم ، والقول الثانى هو الراجح لاطلاق القرآن هذه التسمية على اليهود والنصارى ، فهى خاصة بهم ، وهذا ماصرح به الامام الجصاص الحنفى . (عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام ، مكتبة القدس ، بغداد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص١١-١٢) .

(٣) الأميون : هم العرب ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فالأمى الذى لايكتب . ومنه قوله تعالى : {هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم} ، وفى الحديث "إنا أمة أمية ، لانكتب ولانحسب" ، و"بعثت الى أمة أمية" . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : أمم .

(٤) ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ١/٥٠،١١٢ .

* علم النصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

كان العلم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قديما منذ أن بعث الله الأنبياء ، وقد أخبرهم بنبوته وأخذ عليهم العهد والميثاق أن يؤمنون به وينصرونه ان جاءهم . قال تعالى : {**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمامعكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**}(١).

ويرى ابن عباس(٢)وغيره من السلف فى تفسير هذه الآية : أنه مابعث الله نبيا الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه فأدوا ذلك الى من آمن بهم وصدقهم(٣).

لذلك كان بعض علماء أهل الكتاب المعاصرين لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون نعته وصحة ماجاء به ، لما فى كتبهم من بشارات الأنبياء

---

(١) آل عمران ، آية : ٨١

(٢) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد وبنو هاشم محصورون بالشعب قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس والأول أثبت ، دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعلمه الله الحكمة ، وفى رواية أنه قال عليه السلام : "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل" ، وهو حبر الأمة ، وكان يسمى البحر لغزارة علمه ، ولاه على رضى الله عنه البصرة ، وكان على ميسرته فى صفين ، وقد مات بالطائف سنة خمس وستين وقيل سبع وقيل ثمان وهو الصحيح فى قول الجمهور . انظر : ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ ، ٢/٣٣٠-٣٣٤ .

(٣) خميس صالح محمد الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ١٤١٤هـ ، ص١٠٦ .

به ، يؤكد ذلك قول الله تعالى : {**الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ...}(١)، وقوله تعالى : {**الذين آتينهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ...}(٢). ونص القرآن على بشارة عيسى عليه السلام للنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : {**وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**}(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم مؤكدا تلك البشارة : "**انى عبد الله وخاتم النبيين وسأخبركم عن ذلك دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى قومه** ..."(٤).

ومع ماأصاب الانجيل من التحريف ، وقيام الأحبار والرهبان على طمس البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقد وجد مصرحا به فى انجيل برنابا ، وفى انجيل يوحنا البشارة بالنبى بارقليط وهذا اللفظ يونانى ومعناه بالعربية أحمد(٥).

وقد تتبع على محمد عودة الغامدى تلك البشارات فى الكتاب المقدس عند النصارى فوجدها تزيد عن المئة ، ضمن بحثه فى ذلك أشد فحواها وضوحا ودلالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وان أزيل التصريح به وحرف النص غموضا وتعمية(٦).

---

(١) الأعراف ، آية : ١٥٧

(٢) البقرة ، آية : ١٤٦

(٣) الصف ، آية : ٦

(٤) انظر : ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ، توزيع دار الباز ، مكة المكرمة الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ١٢٧/٤، ١٢٨ ، ٢٦٢/٥ . رواه بلفظ آخر ، ولم أجد الحكم على صحة الحديث .

(٥) خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٠٦-١٠٧، ١٩-٢٠ .

(٦) بحث فى طريقه للنشر ، بعنوان "رؤية تاريخية لصفات مكة عند أهل الكتاب" .

وفى كتب التاريخ من المرويات مايدل على علم نصارى الشام بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قصة الراهب بحيرا وكان ببصرى الشام[١] الذى عرف الرسول صلى الله عليه وسلم عندما رآه مع عمه أبو طالب فى تجارة قريش بصفته ، فأخبر عمه أنه سيد الناس والرسول الذى يبعثه الله رحمة للعالمين ، ونصحه بحفظه أعلمهم بأنه سيكون له شأن عظيم وأوصاه بحفظه من اليهود[٢].

واخبار صاحب بيعة شامية أمية بن أبى الصلت الثقفى[٣] وكان مع أبو سفيان بن حرب[٤] فى تجارة بالشام ، بالنبى العربى المنتظر الذى يخرج فى

---

(١) بصرى ، بالشام من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة جوران ، فتحها المسلمون سنة ١٣هـ . ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٤١/١ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى ، ص١٥٥-١٥٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، صححه وفهرسه الأب انطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبنانى ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٦٠ ؛ خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٨٢-٩٠ (قال عن رواية هذا الخبر : وقد رويت فى كتب السير وعند أصحاب السنن والمؤرخين بطرق وروايات متعددة مطولة ومختصره وأضاف : وهذه القصة بجميع طرقها ورواياتها لم تصح من جهة السند ، لأن أقل مافيها أنها مرسلة ، ومن جهة المتن لكثرة النكارات والغرائب فيها ، وعرض القصة عن أقوى طرقها ، فأورد نقد السند ونقد الذهبى فى كتابه ، السيرة النبوية ، ص٢٨ ؛ وكتاب ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، ٥١٨/٢ لسندها ومتنها ، وأضاف نقده لها بما يدحض الرواية .

(٣) أمية بن عبد الله بن أبى الصلت الثقفى ، شاعر جاهلى ، من أهل الطائف ، قدم الشام قبل الاسلام وكان مطلعا على الكتب القديمة ، يلبس المسوح تعبدا ، وقد حرم الخمر على نفسه ، ونبذ عبادة الأوثان فى الجاهلية . صدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لكنه لم يسلم حسدا ، كان يطمع فى النبوة ، ومات بالطائف سنة ٥هـ . الزركلى ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م ، ٢٣/٢ .

(٤) أبو سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشى ، رأس قريش وقائدهم يوم أحد والخندق ، أسلم يوم الفتح وصح اسلامه ، وكان من دهاة العرب ومن أهل الرأى والشرف فيهم ، شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حنينا ، وقتال أهل الطائف ، وشهد اليرموك ، وكان يحرض على الجهاد تحت راية ولده يزيد ، =

بيت تجه العرب وصفته وقرب مبعثه وأنه يبعث بعد ست رجفات بعد عيسى ، حدث منها خمس والسادسة حدثت بعد عودتهما ، فبعث عليه السلام قبل مرور الحول ، وأخبر أبو سفيان أمية فى الطائف بالأمر ، فكره ذلك ، ولم يؤمن به حسدا ، لأنه كان يطمع أن يكون هو النبى (١). واخبار راهب شامى آخر أمية بن أبى الصلت فى أحد سفراته الى الشام ، أن نبى العرب قد بعث ، وكان يلتمس الدين ويطمع فى النبوة ، فيئس منها (٢).

وذكر أن رجلا من أهل الشام لقى نسوة بمكة ، فقال لهن : انه سيكون فيكم نبى يقال له أحمد ، أيتما امرأة منكن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل ، فحفظت خديجة (٣) حديثه (٤)، مما يدل على معرفتهم باسمه وفيمن يبعث وأين .

وسئل محمد بن عدى كيف سماك أبو محمدا؟ فقال : انه خرج فى أربعة من تميم الى الشام ، فرآهم صاحب دير ، فلما عرف أنهم من خندف

= وكان حمو النبى صلى الله عليه وسلم ، توفى سنة احدى وثلاثين وقيل : اثنتين ، وقيل : ثلاث أو أربع وثلاثين ، وله نحو تسعين سنة . الذهبى ، سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٠٥/٢-١٠٧

(١) ابن قيم ، هداية الحيارى ، ص١٥٣-١٥٤ .

(٢) ابن قيم ، نفس المصدر ، ص١٥١-١٥٢ .

(٣) خديجة بنت خويلد القرشية ، أم المؤمنين ، ولدت قبل الهجرة النبوية بـ٦٨ عاما من بيت مجد وسؤدد ورياسة ، عرفت بالعقل والعفة ، فدعيت فى الجاهلية الطاهرة كانت تاجرة ، وأجر لها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشام قبل البعثة ، وتزوجها عليه السلام ولها من العمر أربعون سنة ، وله خمس وعشرون سنة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، وله منها ذرية ، ولما بعث النبى عليه السلام كانت خديجة أول من آمن به ، وكان عليه السلام يجلها ويقدرها ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل غير ذلك .
انظر : عمر رضا كحالة ، أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ٣٢٦/١-٣٣١ .

(٤) ابن قيم ، نفس المصدر ، ص١٥٠ .

من مضر[١]، أخبرهم أنه يبعث فيهم نبى اسمه محمد هو خاتم الأنبياء ، فلما رجعوا ولد لكل منهم غلام فسماه محمدا[٢].

ونزول سلمان الفارسى رضى الله عنه[٣]، جزيرة العرب ، يترقب بعث النبى العربى صلى الله عليه وسلم ، وكان قد نزل الشام ، وعلم علم أهل الكتاب ، بقرب بعثته ، وذلك دليل على علم علماء نصارى الشام بمبعثه عليه السلام[٤].

---

(١) ترجع قبيلة تميم فى خندف من مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وخندف أم ولد الياس بن مضر وهم مدركة وطابخة وقمعة ، وهم ينتسبون اليها ، وطابخة هو أبو تميم ، والى مدركة تنسب قريش ، انظر : أبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى ، كتاب نسب قريش ، نشر وتصحيح وتعليق ا.ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥١م ، ص٣-١٢ .

(٢) سلمان الفارسى ، أبو عبد الله ، صحب النبى وخدمه وحدث عنه ، كان لبيبا حازما من عقلاء الرجال وعبادهم ونبلائهم ، وهو فارسى من أهل أصبهان ، كان أبوه دهقانا ، وكان سلمان على المجوسية ، فاطلع على دين النصرانية فوجدها خيرا من المجوسية ، فسأل عن أصلها ، فقالوا بالشام ، فخرج الى الشام ، فنزل على أسقف فى احدى كنائسهم ، وكان فى خدمته رغبة فى الدين والعلم ، وكان رجل سوء ، فمات ، فخدم الأسقف الذى بعده وكان على خير ، فلما احتضر أوصاه باللحاق بآخر على مثل حاله فى الموصل ، ولما دنت وفاته أوصاه باللحاق بثالث على مثل حالهم من الخير فى نصيبين ، وأوصاه هذا باللحاق رجل فى عمورية على نهجهم ، فلما دنت وفاته ، قال ماأعلم أحد على مثل حالته ولكن الحق بأرض العرب فانه قد أضلك زمن نبى يبعث من الحرم ، مهاجره بين حرتين الى أرض سبخة ذات نخل ، ومن علاماته خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولايأكل الصدقة ، فلما مات لحق بأرض العرب ، فابتاعه أهل القافلة التى حملته ظلما الى يهودى فى وادى القرى ، ثم باعه ذاك الى يهودى من بنى قريظة ، فحمله الى المدينة ، ولم يعلم بمبعث النبى لما هو فيه من حال الرق حتى هاجر الى المدينة ، فأتاه وتثبت من علامات النبوة ، فعرفها ، فآمن به ، ولم يشهد بدرا وأحدا ، ثم كاتب عنه نفسه وأعتق ، وشهد المشاهد التى بعدها . واختلف فى عمره وسنة وفاته . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٥٠٥/١-٥٥٨ .

(٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، أخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر ، ٤٨٥/١-٤٨٧ .

(٤) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١/ ، ج١ ، ص١٩٦-١٩٧ .

كما يدل على ذلك توقع هرقل ظهور ملك الختان لما عنده من العلم[(١)].

وهذا جبير بن مطعم[(٢)] يخبر أنه لما بعث الله نبيه ، خرج الى بصرى الشام ، وكان نصارها قد علموا بمبعثه فسألوه هل يعرفه ، فقال نعم ، فأطلعوه على عدد من الصور ، وسألوه ان كان يجد صورة محمد صلى الله عليه وسلم بينها ، فأشاروا الى احداها ، فاذا هى صورته ، وشهد بذلك ، وسألوه عن رجل يأخذ بعقبه ، فقالوا له : "نشهد أن هذا صاحبكم ، وأن هذا الخليفة من بعده" رواه البخارى فى تاريخه ، وقال فيه : "قال الذى أراه الصورة ، لم يكن نبى الا كان بعده نبى ، الا هذا النبى"[(٣)].

كما ورد كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على هواده بن على الحنفى صاحب اليمامة يدعوه الى الله وعنده أركون دمشق وهو عظيم من عظماء النصارى ، فسأله هواده عن النبى ، فصدق نبوته ، وأخبره أن عيسى بشر به ، ونصحه باتباعه[(٤)].

ويذكر أن هشام بن العاص[(٥)]، خرج مع رجل آخر من قريش الى هرقل الروم ، لدعوته الى الاسلام خلال الفتوح الاسلامية لبلاد الشام

---

(١) ابن قيم ، هداية الحيارى ، ص١٤٥ .

(٢) جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف القرشى النوفلى ، أسلم عام خيبر وقيل يوم الفتح ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الزبير كان يؤخذ عنه النسب ، وكان أخذ النسب عن أبى بكر ، وكان أحد من يتحاكم اليه ، توفى بالمدينة سنة ٥٩هـ ، أو ٥٨هـ ، أو ٥٦هـ . انظر : ابن حجر ، كتاب تهذيب التهذيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م ، ٥٦/٢ .

(٣) ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ٢٩٠/٣-٢٩١ .

(٤) ابن قيم ، نفس المصدر ، ص٦٩ .

(٥) هشام بن العاص السهمى ، الرجل الصالح المجاهد ، كان قديم الاسلام بمكة ، وهاجر الى الحبشة ثم رد الى مكة اذ بلغه أن النبى قد هاجر ليلحق به ، فحبسه قومه بمكة ، ثم قدم بعد الخندق مهاجرا وشهد مابعدها . قتل يوم اليرموك أو غيره شهيدا رضى الله عنه . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٧٨/٣-٧٩ .

زمن أبى بكر الصديق ، فمرا بجبلة بن الأيهم الغسانى[1] ودعياه الى الاسلام وكان قد عزم على اخراج المسلمين من الشام ، فأخبروه ببشارة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم أنهم يملكون الشام حتى مجلسه وملك الملك الأعظم وكان يعلم صفة من يملك الشام وأنهم قوم يصومون بالنهار ويفطرون بالليل فلما عرف أنها صفة المسلمين ، اسود وجهه ووجه بهم الى هرقل وقد عجب من أثر ذكرهم لقول : لااله الا الله والله أكبر الذى اهتز منها مجلسه فدعوه ؛ وسألهم عن بعض الأمور ، فأجابوه ، وعرض عليهم صورا للأنبياء ومنها صورة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم فعرفوه . فقال انه آخرهم ، ثم أجازهم وأحسن جائزتهم ، وأتيا أبا بكر ، وأخبراه الخبر فقال : لو أراد الله به خيرا لفعل[2].

وكذلك خبر الراهب الشامى عيصا الذى أقام بمر الظهران ينتظر ظهور النبى المنتظر[3].

وتفيد عدد من المصاد رالتى تحدثت عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هرقل امبراطور الروم الى الاسلام ، أنه كان على علم بالبشارة بسيدنا محمد ، وصفته ووقت خروجه ، ومعه بعض علماء قومه ، وانه لذلك أراد قومه على الاسلام ، أو مصالحة الرسول عليه السلام[4].

---

(١) جبلة بن الأيهم بن جبلة الغسانى ، من آل جفنة ملوك الغساسنة فى بادية الشام ، قاتل المسلمين فى مؤتة ، وفى اليرموك كان على مقدمة متنصرة عرب الشام مع الروم ضد المسلمين ، أسلم ثم ارتد ولحق بأرض الروم حتى مات سنة ٢٠هـ . انظر الزركلى ، الأعلام ، ١١١/٢-١١٢ .

وانظر حديثنا عن موقفه من الدعوة والفتح والحكم الاسلامى بعد : ص٤٧٥-٤٧٦

(٢) ابن القيم ، هداية الحيارى ، ص١٥٧-١٥٩ .

(٣) خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى ، ص٧٣ [نقلا عن : ابن عساكر ، تاريخ دمشق (السيرة) تحقيق نشاط غزاوى ، ق١ ، ص٣٤٤-٣٤٥ ؛ الذهبى ، السيرة النبوية ، ص١٦ ؛ ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٢٢٢/١ ، وغيرها].

(٤) انظر تلك المصادر بعد : ص٨٠ .

وهذه الأخبار وغيرها تدل على علم كثير من النصارى بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا بما تضمنته كتبهم من بشارات به على علم ببعثته وصفته ، ومكان خروجه ووقته ، ولذلك لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم يدعو ملوك النصارى بالشام الى الايمان به عرفوه ، وعرفوا أنه النبى المبشر به ، وكان ذلك أول ظهور دينه(١).

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٣/٢٥٢ .

* دعوة[١] الرسول محمد صلى الله عليه وسلم السلمية لنصارى الشام الى الاسلام :

لعموم دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، قام عليه السلام بدعوة الناس كافة ، ومنهم نصارى الشام ، الى دين الاسلام . وكان صلى الله عليه وسلم قد ركز دعوته فى مرحلتيها السرية والجهرية ، على قومه أو من قدم عليه سواء من مشركى العرب أو أهل الكتاب ، ولعل الآيات الخاصة بالدعوة والجهاد تستلزم حكمة التدرج من الأقرب الى الأبعد ، كقوله تعالى : {**وأنذر عشيرتك الأقربين**}[٢]، وقوله :{**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**}[٣]، وكذلك قوله : {**يأأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**}[٤].

ولم يباشر الرسول صلى الله عليه وسلم فى العهد المكى دعوة النصارى عامة فى مناطق تمركزهم ولم يرسل اليهم نظرا لانشغاله بدعوة قومه وتربية أصحابه [٥].

وكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغ الدعوة عن طريق السبل المختلفة سواء عن طريق الدعوة السلمية مشافهة أو مكاتبة أو عن

---

(١) عن الدعوة ، تعريفا ، وأصولا ، ومنهاجا ، انظر : عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، مكتبة البشائر ، عمان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ؛ ربيع بن هادى المدخلى ، منهج الأنبياء فى الدعوة الى الله فيه الحكمة والعقل ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ؛ عدنان على رضا النحوى ، دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ومكتبة أسامة ، الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

(٢) الشعراء ، آية : ٢١٤

(٣) الحجر ، آية : ٩٤

(٤) التوبة ، آية : ١٢٣

(٥) خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١١١ .

طريق الجهاد ، ويبدو أن ارسال الكتب والرسل بدأ مع بداية ظهور حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ومع قادة سراياه وغزواته الأولى(١).

وقد اغتنم الرسول صلى الله عليه وسلم الهدنة مع قريش لنشر الاسلام داخل وخارج الجزيرة العربية ، فأرسل رسله الى الملوك والأمراء والرؤساء المعاصرين له ، ومن الواضح أن الرسل لم يبعثوا فى وقت واحد واستمر ارسالهم حتى وفاته عليه السلام(٢).

وقد نص على ذلك الطبرى(٣)من رواية لابن اسحق ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرق رجالا من أصحابه الى ملوك العرب والعجم دعاة الى الله فيما بين الحديبية ووفاته .

وأسلوب الدعوة السلمية ندب الله رسوله الى استعماله بقوله : {... **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**}(٤).

وقد عمل به سليمان عليه السلام كما أخبر بذلك عز وجل فى كتابه بقوله : {**إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين**}(٥).

وعرض الاسلام على الكفار احسان اليهم بالتوسل الى نقلهم من الكفر الى الايمان(٦).

---

(١) جميل عبد الله المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص١٩٤ ، وانظر : ص٨٤-٨٩

(٢) جميل عبد الله المصرى ، نفس المرجع ، ص١٩٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار سويدان ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ٦٤٤/٢-٦٤٦ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ٨٨/١ .

(٤) آل عمران ، آية : ٢٠

(٥) النمل ، آية : ٣٠،٣١

(٦) عز الدين بن عبد السلام ، أحكام الجهاد وفضائله ، تحقيق وتقديم وتعليق ، نزيه حماد ، مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص٨٩ .

وتذكر كتب السيرة والمغازى والتاريخ[1]، أن الرسول صلى الله عليه وسلم وجه رسله سنة ٦هـ/٦٢٧-٦٢٨م ، وقيل سنة ٧هـ/٦٢٨-٦٢٩م يدعون الى الله من حوله من الناس ومنهم نصارى الشام وعلى رأسهم هرقل امبراطور الروم وقد وجه اليه دحية بن خليفة الكلبى ، وأمراء العرب المتنصرة فى الشام وهم : الحارث بن أبى شمر الغسانى[2]حاكم دمشق ،

(١) انظر توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لرسله الى حكام الشام ، وكتبه ، وموقفهم من الدعوة فى الكتب التالية : الواقدى ، كتاب المغازى ، تحقيق د. مارسون جوةنسن ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٧٥٥/٢-٧٥٦ ؛ أبو عبيد ، كتاب الأموال ، ص٢٨-٣٢،٣٢٤-٣٢٥ ؛ ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ص٧٩،٩٨ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٧٧/٢-٧٨ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٤٤/٢-٦٥٢ ؛ ابن حبان ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء وهى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه من الثقات ، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء ، مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ص٢٨٨-٢٩٧ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، م٢ ، ج٢ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٦٥-١٦٦، ١٩٥-١٩٧ ؛ ابن زنجويه ، كتاب الأموال ، تحقيق شاكر الذيب فياض ، طبع ونشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٢٠،١٢٣-١٢٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ١٤٣/٢-١٤٥ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ٩٢/١-٩٦ ، ٣١٦/٤-٣١٨ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، السفر الأول ، (السيرة النبوية ـ خلافة الصديق) ، تحقيق ، حسام الدين القدسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ٢٥٣/١-٢٥٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٢/٤-٢٦٧ ، ١٨٢/٤-١٨٣ ، ١٤/٥-١٥ ؛ خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٩٤-٢٠٧، ٢١١-٢١٣ .

(٢) يقول المقدسى : "وفيها ـ أى سنة ٨هـ ـ مات ملك دمشق الحارث بن أبى شمر الغسانى فملك مكانه جبلة بن الأيهم" . انظر : نفس المصدر ، م٢ ، ج٢ ، ص٢٣٨ وهذا النص يزيل اللبس الذى حدث عند بعض المؤرخين هل بعث النبى عليه السلام الكتاب الى الحارث أم جبلة ، ويظهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث الى الحارث ، فلما مات وملك بعده جبلة أرسل اليه يدعوه الى الاسلام أيضا.

أرسل اليه شجاع بن وهب الأسدى ، وقيل الى جبلة بن الأيهم[١]، وحاكم بصرى ، الذى بعث اليه الحارث بن عمير الأزدى فقتله ، ثم أحد بنى لهب .

وقد أفرد ابراهيم ابراهيم هلال كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم ، بكتيب لما له من أهمية ولأن هرقل كان حامى النصرانية آنذاك ، ولموقفه من الدعوة ؛ وقد حكم باسلامه ، وأورد ماقيل فى ذلك[٢]. ونص كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى هرقل : "من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الأريسيين ، و{**ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**}[٣]"[٤].

ولم تقتصر دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم السلمية على هؤلاء النفر من نصارى الشام وشمال الجزيرة ، بل كاتب عددا كبيرا من الأمراء وزعماء القبائل والأفراد وقد راسل بعضهم أكثر من مرة كهرقل[٥]، بينما لم تنقطع دعوته ومراسلاته لتلك النواحى .

---

(١) يقول محمد عبد القادر خريسات : اختلفت المصادر فى المنطقة التى كان يحكمها هل هى دمشق ، أو تخوم الشام ، أو الأردن ، أو البلقاء . انظر بحثه : دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٤٤-١٤٦ .

(٢) انظر : حديث هرقل وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، دار الصحوة للنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م . والصحيح أنه لم يسلم . انظر بعد : ص٨٣-٨٤ .

(٣) آل عمران ، آية : ٦٤

(٤) البخارى ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٤٣/١ . (من حديث طويل رواه ابن عباس رضى الله عنه) . وورد بألفاظ أخرى فى بعض المصادر . (انظر تلك المصادر بحاشية (١) فى الصفحة السابقة) .

(٥) يذكر أن النبى عليه السلام راسل هرقل من تبوك لما غزاها سنة ٩هـ . انظر بعد : ص١٠٠ .

فتـذكر المصادر اسـم المنذر بن الحارث[١]. ومــن ترجمته يظهر أنه لم يدرك النبى صلى اللـه عليه وسلم ، وجبلـة بن الأيهـم الغسـانى ، ومالك بن أحمـر الجذامـى العـوفى[٢]، وبنى الضبيــب مــن جذام ، ورفــاعة بن زيد الجذامى[٣]، وبنى جفـال الجذاميين ، والى بطـون وأفـراد أخر مـن جذام ، والى زهير بن قرضم القضاعى[٤]، وكتب أمانا لزمل بن عمـرو العذرى[٥] وقبيلتـه عذره ، وكتب الى بنى جعيل من بلى من قضـاعة ، وفروة بن عمرو الجذامى[٦]، عامل الروم على معان وقيل عمان ، وكتب أمانا لبنى ثعلبة من غســان ، وسعد هذيم من قضـاعة ، وبنى غاويا وبنى عـريض ، ولبنى جنـاب من كلب . كما وجه بخمسة كتب الى جماعات من طىء .

---

(١) المنـذر بن الحارث بن جبل الغسانى ، أمير بادية الشام قبيـل الاسلام ، كان مواليا للـروم وهم يعتبرونه من عمالهم ، وتولى سنة ٥٧٠م بعد أبيـه ، وتجددت الوقائع بينـه وبين اللخميين، ثم تنكر له الروم ، فقطع صلاته بهـم ، فعاث اللخميون فى سورية فسادا ، فاسترضاه الروم وأنعموا عليه بالتاج ، ثم عاد الى ولائهم ، لكنهم غدروا به ، واعتقلوه ، ونفـى الى جزيرة صقليـة ، وانقطعـت أخبـاره بعد ذلك . الزركلى ، الأعلام ، ٢٩٢/٧-٢٩٣ .

(٢) لم أجد له ترجمة .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) لم أجد له ترجمة .

(٥) لم أجد له ترجمة .

(٦) فـروة بن عمرو الجذامى ، أمير ، كان قبيل الاسلام وفى عهـد النبوة عاملا للروم على قـومه بنى النـافرة بين خليـج العقبة وينبع ، وعلى مـن كـان حوالى معان من العـرب ، ولما ظهر الاسلام بمكـة والمدينة وحدثت وقعـة تبـوك ، بعث الى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم باسلامـه وأهـدى اليه بغلة بيضـاء ، فلمـا علم الروم ، سلطـوا عليه الحارث بن أبى شمر الغسانى (ملك غسان) فاعتقلـه وصلبه بفلسطين . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١٤٣/٥ .

وأرسل الى الأيهم بن النعمان الغسانى[(١)]، وبحنه بن رؤبة[(٢)].

وقد حاول بعض المستشرقين انكار حقيقة هذه المكاتبات ، وماذلك الا لانكار عالمية الدعوة الاسلامية ، وعلمهم بأهميتها فى اثبات ذلك وأنها مقدمة بررت فعله بغزو الشام الذى كان مقدمة لفتح الشام زمن الخلفاء الراشدين[(٣)].

ولم يجب حكام نصارى الشام دعوة الداعى ، فأبوا واستكبروا وكانوا من الكافرين ؛ فهرقل عظيم الروم تبين أنه على علم بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأراد قومه على الاسلام ، ومتابعة الرسول عليه السلام ، أو مصالحته ، فنفروا منه ، وأخذتهم العزة بالاثم ، فسايرهم ولم يسلم وقدم الدنيا على الآخرة والملك على الدين ، وقيل خشية على نفسه لما رآهم قتلوا الاسقف ضغاطر عندما أسلم . غير أن بعض المصادر قالت أنه أسلم وليس بصحيح ، وانما كان على علم بصدق النبى عليه السلام وأنه الذى بشر به عيسى عليه السلام ، بعد أن سأل عن صنعته ، وتحقق من أنه النبى المنتظر بما لديه من علم ومالدى بعض علماء أهل ملته ، لذا أحسن استقبال رسول النبى عليه السلام وأجازه ، وأجل كتابه وصانه ، وظل آل هرقل يحفظونه

---

(١) لم أجد له ترجمة . ووجدت الايهم بن جبلة الغسانى ، ولكن هذا مات نحو ٢٦ قبل الهجرة النبوية ، فليس هو المقصود . انظر : الزركلى ، نفس المرجع ، ٣٦/٢

(٢) صالح موسى درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٥-١٢٨ ؛ محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، م٢ ، ص١٤٤-١٤٦ ؛ احسان عباس ، فتح بلاد الشام "مؤشرات وارهاصات" ، المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص١٤-١٥ .

وبحنة بن رؤبة هو صاحب أيلة ، وقد كتب له الرسول صلى الله عليه وسلم أمانا فى غزوة تبوك . انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٥/٥ .

(٣) انظر تلك المزاعم والرد عليها عند : خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٨٤-١٩٤ ؛ جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص١٩٤ .

ويتوارثونه كابرا عن كابر . ويقـول ابن تيمية[1]: وقد أخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق الآن ـ زمن ابن تيمية ـ عند الفنش صاحب قشتالة[2]وبلاد الأندلس يفتخرون به ، وهذا أمر مشهور معروف . وقـال اليعقوبى[3]: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يبقى ملكهم مابقى كتـابى عندهم . قالوا : وكتـب الى رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أنه مسلم ، وبعـث اليه بدنانير ، فوافاه كتابه فى تبوك . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : كـذب عدو الله ليس بمسلم ، ولكنه على النصرانية ، وقسم الدنانير[4].

أما الحارث بن أبى شمر الغسـانى[5]، فقد جاءه شجاع بن وهـب وهو بغـوطة دمشـق يعد الأنزال لهـرقل ، وكـان قادما من حمـص الى ايليـاء بعد

---

(١) الجواب الصحيح ، ١/٩٥-٩٦ .

(٢) قشتالة : عمل من أعمال الأندلس ، قاعدته قشتالة وسمى بهـا ، وقالوا : ماخلف جبـل الشـارات جنوبا يسمى اشبـانيا ، ومـاخلف الجبل مـن جهـة الشمال يسمى قشتـالة . انظر : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الـروض المعطار فى خبر الأقطـار ، لمحمد بن عبد الله الحميرى ، نشر وتصحيح وتعليـق ا.لافى بروفنسـال ، ص١٦١ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ، ٢/٧٧-٧٨ .

(٤) انظر عـن مـوقف هرقل من دعـوة الـرسول صلى الله عليـه وسلم : أبو عبيـد ، الأمـوال ، ص٢٨-٣٢ ، ٣٢٤-٣٢٥ ؛ ابن زنجويه ، الأمـوال ، ١/١٢٣-١٢٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/٧٧-٧٨ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمـم ، ٢/٦٤٦-٦٥١ ابن منظـور ، مختصـر تاريخ دمشـق لابن عسـاكر ، م١ ، ج١ ، ص١٦٥-١٦٦ ، ١٩٥-١٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكـامل ، ٢/١٤٣-١٤٥ ؛ ابن تيميـة ، نفس المصـدر ، ١/٩٢-٩٦ ، ٤/٣١٦-٣١٨ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ١/٢٥٤-٢٥٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/٢٦٢-٢٦٧ ، ٥/١٤-١٥ ؛ الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليـه وسلم ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٢٦ ؛ خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٩٩-٢٠٧ .

(٥) الحارث بن أبى شمـر الغسانى ، مـن أمراء غسان فى أطراف الشـام ، كـانت اقامته بغـوطة دمشق ، وأدرك الاسلام ، فأرسل اليه النبى صلى اللـه عليه وسلم كتابا مع شجاع بن وهب ، ومات فى عام فتح مكة .
انظر : الزركلى ، الأعلام ، ٢/١٥٥ .

انتصاره على الفرس ؛ فاستخف به ، وتركه على بابه فترة ، ثم أدخله وقرأ الكتاب ، ورمى به ، وقال من ينزع منى ملكى ، أنا سائر اليه ، وأراد غزو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرده عن ذلك هرقل ودعاه الى موافاته بايلياء وأمر لرسول الرسول صلى الله عليه وسلم بصلة ، فعاد بالخبر ، فقال عليه السلام : باد ملكه(١).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وجه الى ملك بصرى الحارث بن عمير الأزدى ثم أحد بنى لهب فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فقتله ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره(٢).

وقد أخذت غسان تعد نفسها لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغتهم دعوته مع شجاع بن وهب رسوله الى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، كما غدر النصارى بدعاة المسلمين فى ذات أطلاح(٣).

هكذا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى ربه ، دعوة سلمية بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة ، شفهيا أو كتابيا ، بنفسه أو عن طريق أصحابه ، ولما لم تلق دعوته الاجابة عند حكام نصارى الشام ، وان أحسن البعض استقبال رسله وصدق نبوته كهرقل ، وماذكر من اسلام فروة ابن عمرو الجذامى ، عامل الروم على معان(٤)، واسلام بعض من الأفراد والجماعات من نصارى الشام(٥)، فقد ظلت العقبات قائمة فى طريق الدعوة

---

(١) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٥٢/٢ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٢ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٤٥/٢ ؛ ابن قيم ، هداية الحيارى ، ص٧٠ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٢٥٧/١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٦٧/٤ .

(٢) الواقدى ، المغازى ، ٧٥٥/٢-٧٥٦ .

(٣) خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٧٠ .

(٤) انظر بعد : ص١٠٨ .

(٥) صالح موسى درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٧ .

ولابد من ازالتها . كما أن موقف جمهور نصارى الشام وعلى رأسهم الامبراطور ، وعماله ، المتمثل فى الكفر بما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعدم متابعته ، أو تكذيبه ، واعتراض دعوته ، والاستخفاف بقدره واهانة رسله أو قتلهم ؛ أوجب جهادهم . ولما نزلت آية الجزية كانت حدا فاصلا يقيم المسلمون علاقاتهم مع الكفار على ضوئها ، وذلك بقتال من لايؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . قال تعالى : {**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**}(١).

وقد حكم القرآن بكفر النصارى لتحريفهم دينهم ، قال تعالى : {**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم** ...}(٢). وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : "**والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار**"(٣). ويقول ابن تيمية(٤): أنهم كفار بتبديلهم دين عيسى ، وهو منسوخ بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أنهم كفار بتكذيب شريعة المصطفى عليه السلام وعدم الايمان به ، وأمر بقتالهم ، قال تعالى :

---

(١) انظر : محمد بن ناصر الجعوانى ، القتال فى الاسلام أحكامه وتشريعاته (دراسة مقارنة) ، مطابع المدينة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٦٢-٦٦ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م ، ص٢٥ . وانظر : التوبة ، آية : ٢٩ .

(٢) المائدة ، آية : ١٧

(٣) مسلم ، صحيح مسلم ، ١٣٤/١ .

(٤) الجواب الصحيح ، ١١٢/١،١٢٦-١٢٧ ، ٢٢٨/٢-٢٣٠ ؛ السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، تحقيق بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٢٧-١٣٣ ؛ وانظر : ابن سلام ، الأموال ، ص٢٦-٢٨ .

{وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ...}(١).

ويترتب على عدم استجابتهم لدعوة الاسلام : معاداتهم ، وبغضهم ، وعدم موالاتهم ، ومخالفتهم ، وعدم التشبه بهم ؛ وكذلك اخضاعهم لحكم الدولة الاسلامية بدفع الجزية ، والتزام أحكام الملة ، ومسالمتهم اذا جنحوا للسلم لوقت محدد ، يقول الجصاص : "ومسالمة المسلمين مقرونة بحالة قلة عددهم وكثرة عددهم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على وجوب تحديد مدة المسالمة (الهدنة)"(٢).

---

(١) البقرة ، آية : ١٩٣

(٢) خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى ، ص١٧٢-١٧٤ [ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ، ٢٤٠/١ ؛ عبد الله الطريقى ، الاستعانة بغير المسلمين ، ص٦٢ ؛ ابن القيم ، احكام أهل الذمة ، ١٨/١ وغيرهم] . نقلا عن : الجصاص ، أحكام ، ٧٠/٣ ؛ الطبرى ، اختلاف الفقهاء ، ص١٤ .

* جهاد[(١)] الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام :

حكم الاسلام بكفر من لم يجب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن بما جاء به ، وأمر المسلمين بقتاله ، غير أن الاسلام رغبة فى تحقيق غاية الدعوة والجهاد وهى اعلاء كلمة الله ، حرض المسلمين على مبدأ استمرار الدعوة قبل كل قتال ، وتخيير الناس فى الاسلام أو الجزية والا فالقتال ، مع أن الدعوة قد بلغت الناس وعمت الأرض .

واختلف العلماء فى تجديد الدعوة مرة أخرى اذا دعوا فلم يجيبوا ولزم القتال ، قال الجمهور ذلك مستحبا وليس بواجب ، والقتال قبل الدعوة محرم ، الا أن يهاجم الكفار المسلمين .

وقال البعض الدعوة واجبة قبل كل قتال لمن بلغته الدعوة قبل ومن لم تبلغه .

وقال الفريق الثالث لاتجب دعوتهم مطلقا قبل القتال ، وقد بلغتهم الدعوة وانتشر خبرها ، واستحسن المؤلف الدعوة قبل القتال لمن سبق وأن بلغته وليست بواجبة ، لثبوت ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته وفى عهد الخلفاء حيث دأبوا على ذلك[(٢)].

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة الى الله سلميا بالحكمة والموعظة الحسنة داعيا ، وتدرج بدعوته من السر الى العلن ، ومن العشيرة الى العامة، حكمة أمره الله بها فى قوله : ﴿**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾[(٣)].

---

(١) عن الجهاد (القتال) ، فرضه وأحكامه وفضائله ، انظر : عز الدين بن عبد السلام أحكام الجهاد وفضائله ؛ ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص١٢٧-١٣٣ ؛ محمد بن ناصر الجعوان ، القتال فى الاسلام ؛ جميل عبد الله المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص١٣١-١٣٧ ؛ خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٤٨-٢٥٤ .

(٢) محمد بن ناصر الجعوان ، نفس المرجع ، ص٢٠٨-٢١٠ .

(٣) النحل ، آية : ١٢٥

ولم يقاتل الرسول من خالفه ، ولم يجاهد فى سبيـل نشر الدعوة طوال العهـد المكى لأنه لم يؤمر بقتـال ، ثم أذن له بالقتـال ، وكتـب على أمته ، وأكـد ، وعظـم أمره وفضائله ، وذم التـاركين لـه ، وبين الاسلام مبـادءه . فشـرع الـرسول صلى الله عليـه وسلم يقـاتل ويجاهد مـن لم يجب الـدعوة ، فكـانت حروبه مع العرب وثنيون ويهود ونصارى ، ثم خرج بالـــدعوة فيما وراء جزيرة العـرب سلميا ، عـن طريق الكتب والدعـاة ، ومشافهة من وفد عليـه من الناس ؛ فلما وقف أئمة الكفـر من حكام تلـك البلاد ومنهم هرقل امبراطـور الـروم ، وأمـراء نصـارى عـرب الشام ، فى طـريق الـدعوة باشـر جهـادهم بنفســه ليضع للمسلمين سنـة يتبعـونها وطريقـا يسلكـوه من بعده .

* وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لقادة الغزوات والسرايا لنصارى الشام :

جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى الشام فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر الاسلام ، وجعل الدين كله لله(١). فوجه غزواته وسراياه الى الشام وتخومه ، وكان عليه السلام قد بين لقادة الجهاد مبادىء القتال فى الاسلام وآدابه من خلال وصاياه وأوامره ، فكما فى حديث بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا ثم أوصاه بقوله : اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلاتغلوا ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا وليدا ؛ والوصية بدعوتهم الى ثلاث خلال الاسلام أو الجزية فان أبوا فالقتال ؛ وأن يجعل لهم ذمته وذمة أبيه وأصحابه لاذمة الله ولاذمة رسوله صلى الله عليه وسلم(٢)، وتضمنت

---

(١) هذا هو هدف الفتوحات الاسلامية ، ويضع بعض المؤرخين أهدافا أخرى الى جانب ذلك ، وللمستشرقين ومن تابعهم مزاعم باطلة عن الجهاد الاسلامى ، انظر : جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص٢٦٠-١٨٤،٢٦٧-١٨٥ ؛ ابراهيم زيد الكيلانى ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام ، "دراسة نقدية" ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، المجلد الثانى ، ص٨٥ ؛ محمد حنيف الله البطاينة ، فتح فلسطين وملكيتها بعد الفتح الاسلامى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ، تاريخ فلسطين ، الجامعة الأردنية ، عمان ، جامعة اليرموك ، اربد ، مطابع الجمعية العلمية الملكية ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، المجلد الثالث ، ص١١٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام ، ص١٨١-١٨٣ ؛ جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية ، ص٢٧٧-٢٧٩ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٣٢-٣٣ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، تحقيق صبحى الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م ، ١/٤-٦ ؛ ابن زنجويه ، ١/١٢١-١٢٢ ، ٢/٤٧٧ ؛ عز الدين بن عبد السلام ، أحكام الجهاد وفضائله ، ص٧٦ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/٧٧ .

وصيته لأسامة بن زيد[١]علاوة على ماسبق ، أمره بقتال عدو الله وعدوهم فى الشام ، وأنهم سيجدون رجالا معتزلين فى الصوامع فلايتعرضون لهم ، وآخرين للشيطان فى رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، وألا يقتلوا امرأة ولاصغيرا ضرعا ولاكبيرا فانيا ، ولايغرقوا نخلا ، ولايقطعوا شجرا ، ولايهدموا بيتا[٢].

ولطالما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المثلة وقتل الذرية[٣].

ووصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال أهل الذمة ، بعض من سياسته فى حسن معاملتهم ، وفق مبادىء شريعة الاسلام السامية ، وماتنطوى عليه من العدل والرحمة والاحسان ، فجاءت وصاياه العامة والخاصة بهم تؤكد ذلك ، قال عليه السلام : "**احفظونى فى ذمتى**"[٤].

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة ، المولى الأمير ، حب رسول الله ومولاه وابن مولاه ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش لغزو الشام وفى الجيش عمر والكبار وكان عمره ١٨ سنة آنذاك ، فلم يسر حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثه الصديق ، فأغار على أبنى من ناحية البلقاء ، وقيل : شهد مؤتة مع والده ، وسكن المزة من قرى دمشق مدة ثم عاد الى المدينة وبها مات ، وقيل مات بوادى القرى ، وكانت وفاته فى آخر خلافة معاوية .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ،٤٩٦/٢-٥٠٧ .

(٢) الواقدى ، المغازى ، ٧٥٧/٢-٧٥٨ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٥٣،١٧٤ ؛ سامى العانى ، تجربة مؤتة ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣ ، ص٨٣-٨٤ . ولم تخرج وصية لعبد الرحمن بن عوف عندما وجهه سنة ٦هـ الى دومة الجندل عن ذلك ، انظر : الواقدى ، نفس المصدر ، ٥٦١/٢ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص١٥١ .

(٣) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص٩٠،٩١ ؛ الفزارى ، كتاب السير ، دراسة وتحقيق فاروق حماده ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، ص٢٩٨ .

(٤) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٣ .

وقال : "**من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه يوم القيامة**"(١). وقال : "**لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ، وتصالحونهم على ذلك ، فلاتصيبوا منهم بعد ذلك شيئا**"(٢). وقد قتل عليه السلام مسلما بذمى ، وفاء للذمة(٣)، وكان يقبل هديتهم(٤). ويحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ، ويزورهم ، ويكرمهم ، كما كان يقترض منهم فمات ودرعه مرهونة عند يهودى(٥).

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، تحقيق ، محمد ابراهيم البنا ، دار الاصلاح للطبع والنشر والتوزيع ، ص٢٥٨ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٢٢ ؛ يحي بن آدم القرشى ، كتاب الخراج ، تصحيح وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر ، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ ، ص٧١ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٤٢٠/١-٤٢١ (على خلاف يسير فى اللفظ بينهم) .

(٢) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٧١-٧٢ . والأحاديث الثلاثة السابقة لم أجد لها تخريجا .

(٣) نفسه ، ص٧٢ .

(٤) أبو يوسف ، نفس المصدر ، ص٣٧٠ .

(٥) توفيق سلطان اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق (١٢-٢٤٧هـ) ، دار العلوم الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١١١ .

* غزوات وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشام وتخومه :

كانت غزوة دومة الجندل[١] فى ٢٥ ربيع الأول سنة (٥هـ/٦٢٦م) ، أول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم الى بلاد الشام وتخومه ، وكان هدفها الدنو من قيصر الروم بالشام ليخيفه ، وتبديد جمع من النصارى العرب على رأس أكيدر[٢] النصرانى عامل الروم على دومة بلغه أنه يهم بغزو المدينة ، ولتأمين طريق التجارة الشامى لما علم من قطع أهل دومة الطريق ونهب التجار ، فبلغها وقد رعب الجمع لقدومه وتفرق[٣]، فلم يلق كيدا وبث سراياه فيما حولها ، وغنم ماوجده بعدهم ، ولقى رجلا واحدا أسلم على يديه ، وقيل بل رجع عليه السلام من الطريق ولم يصلها[٤]. وقد

---

(١) دومة الجندل : عدها ابن الفقيه من أعمال المدينة ، وهى على سبع مراحل من دمشق بين الشام والمدينة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/٤٨٧-٤٧٩) .

(٢) أكيدر بن عبد الملك الكندى ، ملك دومة الجندل (الجوف) فى الجاهلية ، كان شجاعا ، وله حصن وثيق ، وجه اليه الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد من تبوك لما غزاها عليه السلام ، فأسره ، وفتح حصنه صلحا ، فعفى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أسلم فرده عليه السلام على قومه ، وقيل : لم يسلم ، ولما قبض النبى عليه السلام ، نقض الصلح ، فوجه اليه أبو بكر بخالد ابن الوليد ، فقتله وفتح دومة الجندل . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ٢/٦ .

(٣) لأن الرسول عليه الصلاة والسلام رزق الرعب ، فقال قال عليه السلام : "فضلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون" انظر الحديث وتخريجه قبل : ص٦٨ .

(٤) الواقدى ، المغازى ، ١/٤٠٢-٤٠٣ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢/٥٦٤ ؛ ابن حبان السيرة ، ص٢٥١ ؛ ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ ، ص١٦٨ ؛ ابن كثير ، الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ٤/٩٣ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ١/١٩٤ . وقد ظنها صالح درادكة ، الغزوة التى قادها عبد الرحمن بن عوف سنة ٦هـ . انظر : مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢١-١٢٢ .

قام عليه السلام بهذه الغزوة والامبراطور البيزنطى لم يكن قد فرغ بعد من حروبه مع الفرس[(١)].

ثم سرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه[(٢)] الى قبيلة كلب بدومة الجندل سنة ٦هـ ، فدعاهم الى الاسلام ، فأسلم الاصبغ بن عمرو الكلبى[(٣)] زعيمهم وكان نصرانيا وجماعة من قومه ، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٤)]. وهذا يعنى نجاح السرية فى تحقيق أهدافها ، وعلل ذلك جوزيف نسيم بانشغال الروم بحرب الفرس عن مد يد العون لحلفائهم فى دومة الجندل[(٥)].

ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة[(٦)] فى سرية

---

(١) جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية ، م٣ ، ص٢٦٣-٢٦٥ .

(٢) عبد الرحمن بن عوف الزهرى القرشى ، أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى ، ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وأسلم قديما قبل دخول النبى دار الأرقم ، وهاجر الهجرتين ، وشهد سائر المشاهد ، بعثه النبى عليه السلام الى دومة الجندل ، وأذن له أن يتزوج ابنة ملكهم ، ففتح عليه وتزوجها مات سنة احدى وثلاثين ، وقيل : سنة اثنتين وهو الأشهر ، ودفن بالبقيع ، وفضائله كثيرة انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٤١٦/٢-٤١٧ .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٧٩ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٧٥/٢ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٢٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٥٠-١٥١ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٢٥١/١

(٥) العلاقات الاسلامية البيزنطية ، م٣ ، ص٢٦٦ .

(٦) عامر بن عبد الله بن الجراح القرشى الفهرى ، المشهور بأبى عبيدة بن الجراح ، أسلم قبل دخول النبى دار الأرقم ، وهو أحد العشرة السابقين الى الاسلام ، وهاجر الهجرتين وشهد بدرا ومابعدها ، وهو أمين الأمة وقد جمع القرآن ، سير أميرا لفتح الشام ، ففتح أكثر الشام على يده ، وكان أمير الشام من قبل عمر ، وفضائله كثيرة ، وقد مات فى طاعون عمواس بالشام سنة ١٨هـ . انظر : ابن حجر نفس المصدر ، ٢٥٢/٢-٢٥٤ ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٥/١-٢٢ .

الى دومة الجندل[١]. وسرية الى مدين[٢]بقيادة عبد الرحمن بن عوف[٣].
وسرية زيد بن حارثة الى حسمى[٤]سنة ٦هـ/٦٢٧-٦٢٨م ، أو سنة ٧هـ/٦٢٨-٦٢٩م وهو الراجح[٥]. وسرية ذات السلاسل[٦]من بلاد قضاعة ناحية الشام ، سنة ٨هـ/٦٢٩-٦٣٠م قادها عمرو بن العاص[٧]، وأمده الرسول صلى الله عليه وسلم بأبى عبيدة ابن الجراح فى جماعة من المهاجرين

---

(١) خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى ، ص٢٧٤ .

(٢) مدين : مدينة على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك بين المدينة والشام ، وقيل من أعمال طبرية ، ومدين اسم قوم شعيب عليه السلام . ياقوت ، معجم البلدان ٥/٧٧-٧٨ .

(٣) خميس الغامدى ، نفس المرجع ، ص٢٧٤ .

(٤) حسمى : أرض ببادية الشام ، بينها وبين وادى القرى ليلتين ، وينزلها جذام . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/٢٥٨-٢٥٩) .

(٥) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٨٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/١٨١ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ١/٢٤٩-٢٥٠ ؛ خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٧٤-٢٧٦ . (ورجح التأريخ لها بسنة ٧هـ . وهو ماجزم به ابن القيم فى كتابه زاد المعاد ، ٣/٢٨٤ ؛ وذكره : البلاذرى ، أنساب ، ١/١٧٧ ؛ ابن حبيب المجد ، ص١٢١ وغيرهما).

(٦) ذات السلاسل : من بلاد عذره وبلى وبنى القين . والسلاسل أو سلسل ماء لجذام وبه سميت الغزوة . (البكرى ، معجم ماastعجم ، ٢/٧٤٤-٧٤٥) .

(٧) عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، داهية قريش ، يضرب به المثل فى الفطنة والحزم والدهاء والبصر بالحروب ، هاجر الى الرسول صلى الله عليه وسلم مسلما فى أوائل سنة ٨هـ ، ففرح الرسول عليه السلام بمقدمه واسلامه ومن معه ، وأمره الرسول عليه السلام ، وولاه قيادة غزوة ذات السلاسل ، وقال عليه السلام فيه وفى أخيه : "ابنا العاص مؤمنان ، عمرو وهشام" . كان من فرسان قريش فى الجاهلية ، وكان أحد أمراء فتح الشام ، وولى فتح مصر وامرتها زمن عمر وصدر خلافة عثمان ، ثم أعطاه معاوية امرة مصر وغلتها لوقوفه معه فى خلافة مع على بن أبى طالب ، وكان عثمان قد نزعه من امرة مصر وولاها عبد الله بن أبى السرح توفى فى مصر سنة ٤٣هـ وقيل سنة ٤٢هـ وقيل غير ذلك .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣/٥٤-٧٧ .

الأولين فيهم أبو بكر وعمر ، فنصروا وغنموا وعادوا سالمين[١]. وقد أمر الرسول عليه السلام عمرا ، أن يستعين بمن يمر بهم من قبائل بلى وعذره وبلقين ، مما يدل على تبدل مواقف هذه القبائل من الولاء للروم الى الولاء لدولة الاسلام[٢]. وسرية كعب بن عمير الغفارى[٣] سنة ٨هـ الى ذات أطلاح[٤]، من أرض الشام ، وأهلها من قضاعة ، رأسهم يدعى سدوس ، وكان فى خمسة عشر رجلا للدعوة الى الله فقتل سائر أصحابه ، ونجا كعب جريحا وعاد الى المدينة بالخبر[٥].

وفى سنة (٨هـ/٦٢٩م) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا الى الشام ، للدعوة الى الله وقتال من اعترضهم ، وليأخذ بثأر الحارث بن عمير الأزدى[٦] رسوله الى صاحب بصرى الذى قتله هناك شرحبيل بن عمرو

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٢/٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٧٥/٢ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٢ ؛ الكتبى ، نفس المصدر ، ٢٨٥/١ .

(٢) صالح درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٣ .

(٣) كعب بن عمير الغفارى ، من كبار الصحابة ، أمره النبى صلى الله عليه وسلم على سرية الى ذات أطلاح من البلقاء ، فأصيب كعب ومن معه سنة ٨هـ ، وقيل : أصيب وتحامل حتى بلغ المدينة ، وقيل بل قتل يومئذ ، وأن الذى تحامل الى المدينة رجل آخر .
انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٣٠١/٣ .

(٤) ذات أطلاح : موضع من وراء ذات القرى الى المدينة . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٢١٨/١) .

(٥) ابن خياط ، نفس المصدر ، ص٧٩ (أرخ لها بسنة ٦هـ) ؛ الطبرى ، معجم البلدان ٢٩/٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٨٦/٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٥١ ؛ الكتبى ، نفس المصدر ، ٣٣٤/١-٣٣٥ ؛ ابراهيم بيضون ، حملة مؤتة ، ص٦٠ ، قال : بأنها أول عمل عسكرى الى المنطقة الشامية.

(٦) الحارث بن عمير الأزدى بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم الى ملك بصرى بكتابه فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فأوثقه وضرب عنقه صبرا ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر بعث البعث الى مؤتة .
انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٢٨٦/١ .

الغساني وجعل على قيادته زيد بن حارثة [١]، وجعفر بن أبي طالب [٢]، وعبد الله بن رواحة [٣]، وهي غزوة مؤتة [٤]، فنزلوا معان [٥] من أرض الشام ، ووجدوا هرقل قد نزل مآب [٦] من أرض البلقاء ، في مئة ألف من الروم ومثلهم من نصارى العرب من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى عليهم مالك بن رافلة من بني اراشه [٧] من بلى ، فمضى المسلمون حتى نزلوا قرية

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي ، قالوا : زارت أم زيد قومها بنو معن ، فأغارت عليهم خيل لبني القين بن جسد في الجاهلية ، فاحتملوا زيدا وهو غلام ، فباعوه في سوق عكاظ لحكيم بن حزام الذي شراه لعمته خديجة بنت خويلد ، فلما تزوجها الرسول وهبته زيد ، وكان يدعى بزيد بن محمد حتى منع ذلك الاسلام ، فنسب الى أبيه ، وكان قد قدم أبوه لعتقه ، فاختار النبي عليه السلام على أهله ، قيل : كان أول من أسلم ، وشهد بدرا ومابعدها ، وقتل في غزوة مؤتة وهو أمير . ابن حجر ، الإصابة ، ٥٦٣/١-٥٦٤ .

(٢) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، القرشي ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد السابقين الى الاسلام ، وشقيق علي بن أبي طالب ، كان أبو هريرة يقول : أنه أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يحب المساكين ، وكان عليه السلام يكنيه أبا المساكين ، ويقول له : أشبهت خلقي وخلقي ، هاجر الى الحبشة ، فأسلم النجاشي ومن تبعه على يديه ، ثم هاجر الى المدينة والرسول عليه السلام بخيبر ، واستشهد بمؤتة من أرض الشام . ابن حجر ، نفس المصدر ، ٢٣٧/١-٢٣٨ .

(٣) عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، الشاعر المشهور ، من السابقين الأولين من الأنصار ، وكان أحد النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدرا ومابعدها حتى استشهد بمؤتة ، ومناقبه كثيرة .

انظر : ابن حجر ، نفس المصدر ، ٣٠٦/٢-٣٠٧ .

(٤) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، وقيل من مشارف الشام . (ياقوت معجم البلدان ، ٢١٩/٥-٢٢٠) .

(٥) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١٥٣/٥) .

(٦) مآب : مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٣١/٥) .

(٧) لم أجد له ترجمة .

مؤتة بالبلقاء ، وقد نزل الروم بحذائهم فى قرية يقال لها مشارف ، فالتقى الفريقان عند مؤتة واقتتلوا قتالا عظيما ، واستشهد قادة المسلمين الثلاثة تباعا وقتل قائد نصارى العرب مالك بن رافلة ، فأخذ خالد بن الوليد[(١)] القيادة ، وانحاز بالمسلمين ، وخلصهم من العدو ، وعاد بهم الى المدينة[(٢)]. وقد كانت هذه الغزوة ارهاصا لما بعدها من غزو الروم وارهابا لأعداء الله[(٣)]. ولأول مرة نلاحظ ذكر هرقل امبراطور الروم فى التصدى للغزوات الاسلامية وماذلك الا لانتهائه من حرب الفرس .

وهذه الغزوة أول موقعة يقف فيها المسلمون أمام احدى أعظم قوتين فى العالم وهى الدولة البيزنطية ، وأول احتكاك خارجى على نطاق دولى ؛ وعلى الرغم من فشلها عسكريا ، الا أنهاأدت الى نتائج ايجابية كثيرة ، تمثلت فى انتشار الاسلام بين القبائل العربية المتنصرة ، وتعريف تلك القبائل أن هناك قوة يمكن الاعتماد عليها وهى الدولة الاسلامية العربية ، كما أنها

---

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة أبو سليمان القرشى المخزومى ، سيف الله المسلول ، وفارس الاسلام ، الأمير ، هاجر مسلما فى صفر سنة ٨هـ ، وشهد غزوة مؤتة ، وتأمر على المسلمين بعد قتل قادتها . وشهد الفتح وحنين وتأمر فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وحارب أهل الردة ، وغزا العراق واستظهر ، ثم شهد حروب الشام وأمره الصديق على أمراء الشام ومناقبه غزيرة ، عاش ستين سنة ومات على فراشه بحمص سنة ٢١هـ .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣٦٦/١-٣٨٤ .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٨٧ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٥/٣،٢٦-٤٢، ١٥٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٦٥/٢-٦٦ ؛ الواقدى ، المغازى ، ٧٥٥/٢٠-٧٦٩ ؛ ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص٢٠٩-٢١٠ ؛ المقدسى البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٠-٢٣٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٥٨/٢-١٦١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤١/٤-٢٥٠ (ورجح القول أن خالد انتصر على الروم) ؛ الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٧٨-٨٠ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٢٧٩/١-٢٨٥ ، وانظر : خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٧٨-٢٨٧ .

(٣) ابن كثير ، نفس المصدر ، ص٨٠ .

تعتبر المعركة التمهيدية لفتح الشام ، فقد استطلع المسلمون فنون الحرب مع الروم[(١)].

وكانت غزوة تبوك[(٢)]سنة ٩هـ/٦٣٠-٦٣١م تتمة للأهداف التى سعى المسلمون الى تحقيقها فى الغزوات السابقة ، وتميزت بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، وكبر حجمها لما تهيأ لها من عدد واعداد ، وأهمية هدفها ، حيث قصد الرسول عليه السلام غزو الروم ونصارى العرب فى بلاد الشام ، الذين أظهروا أنهم يريدون غرو المدينة[(٣)]. وقيل : للثأر لشهداء مؤتة[(٤)]. ويقدم على هذه الأسباب ، ماأورده ابن كثير[(٥)]أن الرسول صلى الله عليه وسلم عزم على قتال الروم ، لما نزل الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأنه بدأ بدعوتهم لأنهم أقرب الناس اليه ، ولقربهم الى الاسلام وأهله .

فندب صلى الله عليه وسلم الناس الى الجهاد ، وخرج الى تبوك فى رجب سنة ٩هـ/٦٣٠م ، فى نحو ثلاثين ألفا من المسلمين ، فلم يلق كيدا ، اذ تفرقت جموع الأعداء ، وشاور أصحابه فى الدخول الى أرض الشام ، فأشار عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعدم الدخول ، وبقى بها بضع عشرة

---

(١) ولمعلومات أكثر تفصيلا عن غزوة مؤتة وآثارها ، انظر : سامى العانى ، تجربة مؤتة ، ص٧٩،٨٥ ومابعدها ؛ ابراهيم بيضون ، حملة مؤتة ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الندوة الثانية ، الجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣ ، ص٤٧ ومابعدها .

(٢) تبوك : موضع بين وادى القرى والشام ، قال أبو زيد : تبوك بين الحجر وأول الشام . (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٤/٢-١٥) .

(٣) صالح درادكة ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٤ ؛ جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية ، ص٢٧٣ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٣٦٦-٣٧١ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٩-٢٤٠ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٦٧/٢-٦٨ .

(٥) البداية والنهاية ، ٣/٥-١٩ .

ليلـة ، لم يقدم عليه الروم ومتنصرة العرب وراسل هـرقل من هناك ، وبث سراياه فيما حولها ، ومنهـا سرية خالد بن الوليد رضـى اللـه عنه الى دومة الجنـدل ففتحها ، وأسر ملكها أكيدر بن عبد الملك الكنـدى وكان نصرانيا ، فعفـا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ورده الى قريتـه ، بعد أن صالحه على الجزية ، وبعـث علقمة بن مجزر المدلجى(١) الى فلسطين ، وقدم عليه بهـا يحنة ابن رؤبة أسقـف أيلـة(٢)، وأهـل جرباء(٣)، وأذرح(٤)، وتيمـاء(٥)، ومقنا(٦)، وغيرهـا . فصالحهم على دفـع الجزية وكتب لهـم عهودا كما كتب كتابا لمالك ابن أحمـر(٧) رجلا كـان مـن نصارى الشـام فأسلم ، وقـدم على الـرسول صلى الله عليه وسلم بتبـوك ، ثم قفل عائدا الى المدينـة فى رمضان

---

(١) علقمـة بن مجزر الكنانى المدلجى ، ذكـره ابن سعد فى الطبقـة الثالثة من الصحابة ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعث الى ناس مـن الحبشة بساحل يقال له الضينـة ، سنة ٩هـ ، وذكر السنـد ضعيف عن ابن عباس أن الـرسول عليه السلام بعثه من تبوك الى فلسطين ، وذكر أنه شهد اليرموك وحضـر الجابية ، وكان عاملا لعمـر على حرب فلسطين ، وذكـر المصعـب الزبيرى أن عمـر أو عثمـان أغزاه فى البحر ، ذكر الطبرى والواقدى أنه كان ذلك سنة ٢٠هـ الى الحبشة ، فأصيبوا . ابن حجر ، الاصابة ، ٢/٥٠٥-٥٠٦ .

(٢) أيلـه : مـدينة على ساحل بحر القلـزم (الأحمـر) ، من بلاد الشـام وهـى أولـه . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٩٢/١) .

(٣) جرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام ، وهى قرية من أذرح . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١١٨/٢) .

(٤) أذرح : بلـد فى أطراف الشام مـن أعمال الشراة من نواحى البلقـاء . (ياقـوت ، نفس المصدر ، ١٢٩/١) .

(٥) تيماء : بليد فى أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى على طريق الحاج الشامى (ياقوت ، نفس المصدر ، ٦٧/٢) .

(٦) مقنا : قرب أيله وكان أهلها يهودا . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١٧٨/٥) .

(٧) لم أجد له ترجمة .

من السنة نفسها[١].

وفى السنة العاشرة من الهجرة جهز عليه السلام حملة بقيادة أسامة بن زيد لغزو الشام الا انها لم تخرج الا فى عهد خليفته أبى بكر الصديق ، لوفاته صلى الله عليه وسلم[٢].

---

(١) عن غزوة تبوك انظر : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٩٢-٩٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/٦٧-٦٨ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/١٠٠-١١١ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٣٦٦-٣٧١ ؛ ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص٢٣٨-٢٤٦ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٩-٢٤٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢/١٨٩-١٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥/٣-١٩ ؛ الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٩٢-٩٤ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٦٠-١٦٢ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ١/٣٤٤-٣٥١ ؛ وانظر : خميس الغامدى العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٨٨-٢٩٩ .

(٢) انظر بعد : ص١٤٠-١٤١ .

* عهود الصلح النبوية للنصارى :

تمخضت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الاسلام ، سواء عن طريق الدعوة السلمية ، أو الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله ، عن اسلام بعض من بلغتهم الدعوة ، وخضوع البعض لسلطان الدولة الاسلامية بمصالحة المسلمين على دفع الجزية ، من خلال عهود الصلح التى أبرمها عليه السلام مع أهل الكتاب ، وخاصة النصارى ، والتى نظمت العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة ، فكانت الأساس الذى بنيت عليه عهود الصلح التى أعطاها الفاتحون المسلمون لبلاد الشام[١].

فالمعاهدات النبوية ، معاهدات تشريعية يجب العمل بها وعدم مخالفتها لقوله تعالى : {... **وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ان الله شديد العقاب**}[٢]، غير أنه لاينبغى اثباتها تاريخيا والتسليم بها الا اذا ثبتت صحتها حديثيا ، يقول ابن تيمية : "ولايجوز أن يعتمد فى الشريعة على الأحاديث الضعيفة التى ليست صحيحة ولاحسنة"[٣].

وهذا مايدعونا الى عرض ماتضمنته من الشروط ، لنتبين أسس تلك العلاقات ومدى التزام الخلفاء الراشدين بالسياسة النبوية فيما أعطوه من عهود لنصارى الشام .

وآليت على نفسى ألا أورد نصوص تلك العهود ، وسأكتفى بذكر ماتضمنته العهود النبوية من شروط لأهل بعض البلاد الشامية أو الواقعة بأطراف الشام ؛ ذاكرا شروط صلح نجران ، لأن أهلها أول من دفع الجزية

---

(١) وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، عمان ، المجلد الثانى ، ص١٩٣ .

(٢) الحشر ، آية : ٧

(٣) خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٢٣ (نقلا عن : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٢٥٠/١) .

بعد نزول آية السيف[١]، ولتكتمل بذكره الأسس التى سار عليها الخلفاء الراشدون فى ماأعطوه من عهود الصلح لنصارى نجران ، وذلك أنه لايوثق بحرفيةنصوص العهود التى وصلت الينا ، لسقوط سندها ، واختلاف مروياتها وان وجدت لاثقة فى صحة نسبتها ومضامينها ، مع مراعاة الاختلاف بينها زيادة ونقصا ، اجمالا وتفصيلا ، عند اخضاعها للدراسة والنقد .

يقول جاسر أبو صفية فى بحثه[٢]الذى سلك فيه سبيل علماء الحديث فى دراسة العهود ، لأنها جزء من الأحاديث النبوية : "لم ترد هذه العهود بسند متصل فى أى من المصادر الأولية أو المتأخرة ، ... ، ـ وضرب أمثلة على تلك الأسانيد وقال ـ : وهذا النمط من الاسناد لايعتد به عند علماء الحديث ، ... ، وهكذا نجد أن السند الذى رويت به هذه العهود النبوية ساقط ، بل لابد من النظر فى المضمون ، أو المتن كما يسميه علماء الجرح والتعديل" .

وقد أقام دراسته على المصادر التاريخية الأولية ، وهى : السيرة النبوية لابن اسحق برواية ابن هشام ، ومغازى الواقدى ، والأموال لأبى عبيد بن سلام ، وطبقات ابن سعد ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، لاعتماد من جاء بعدهم على كتبهم ، وماأصاب الكتب المتأخرة من اضافة ونقص وتحريف بفعل النساخ ؛ ولأن كتب السنة لم ترو تلك العهود بنصوصها ، واكتفت بالاشارة الى بعضها ومضمونها[٣].

---

(١) خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٢٥ .

(٢) المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص٦٦-٦٧ .

(٣) نفسه ، ص٦٥-٦٦ ؛ ابراهيم الكيلانى ، المراسلات النبوية ، ص٨٦-٨٧ .

يرفد ذلك قول خميس الغامدى [١] فى عهد نجران :"وكتب لهم عهدا على ذلك ورد نصه بطرق متعددة كلها معلولة مع اختلاف فى ألفاظ العهد وزيادة ونقص فى روايته ، ترجع فى الغالب الى تناقل الرواة له شفهيا ، ولهذا فهو لايمثل النص الحرفى لأصل العهد المبرم فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم" .

وقد تضمنت عهود الأمان مع نصارى نجران واليمن [٢]، وتبوك [٣]، ودومة الجندل [٤]، وأيلة [٥]، وأذرح ، وجرباء [٦]، وتيماء [٧]، مجموعة من

---

(١) العلاقات بين المسلمين والنصارى ، ص٢٣٠ .

(٢) عن صلح نجران ، انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص١٥٨-١٦٠ ؛ يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٦٨ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٤٤-٢٤٥ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، عنى بمراجعته والتعليق عليه ، رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٧٦ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص٢٧٢-٢٧٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٨٣/٢،٨٠-٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٠٠/٢-٢٠١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤٨/٥-٥١ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٧١ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٧٠ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٥٣ ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٧٢-٧٤ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٧٠-٢٧٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٤٥٨/٢-٤٦١ ؛ ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٦/٥ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣/١ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٥٨ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٣٦٩ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٤٦٣/٢ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ١٩١/٢ ؛ ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٥/٥ .

(٦) ابن حبان ، نفس المصدر ، ص٣٦٩ ؛ ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٥/٥-١٦ .

(٧) الكتبى ، عيون التواريخ ، ٣٤٤/١-٣٥١ . (واستبعدنا عهد أهل مقنا ، لأن الدراسات النقدية ، أفادت بأن تزويره ظاهرا ، ومضامينه تخالف ماكان المسلمون يشترطونه على أهل الذمة ، وتخالف مبادىء الشريعة ، ولأن أهل مقنا يهودا ومع ذلك فحكمهم حكم النصارى لأنهم من أهل الكتاب) . انظر نقده ، ودراسة نقدية للعهود السابقة فى بحثى : جاسر أبو صفية ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام ، م٢ ، ص٦٥-٨٣ ؛ وابراهيم زيد الكيلانى ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام ، م٢ ، ص٨٥-١٠١ .

الشـروط ، بعضها شرط على الجميع ، وللجميع ، والآخر اختـص به البعض عن الكل . ونجملها فيما يأتى :

(١) الخضـوع لحكـم الرسول صلى اللـه عليه وسلم (ورد فى عهـد نجران) .
(٢) فـرض الجزية على النصـارى ، بشكـل جماعى أو فـردى ، نقـدا ، أو بقدرها عروضا (عهد نجران ، وأهل اليمن ، وتبـوك ، ودومة الجندل وأيلة ، وأذرح ، وجرباء ، وتيماء) .
(٣) ضيافة الرسل وقرى من يمر بهم من المسلمين (عهـد نجران ، وأيلة) .
(٤) النصح والصلاح للمسلمين (عهد نجران ، وجرباء وأذرح) .
(٥) الاحسان لمن لجأ اليهم من المسلمين (عهد جرباء وأذرح) .
(٦) اعـارة المسلمين السلاح والـدواب للـركوب وقـت الحرب ، بضمـان اعادتها أو مثلها (عهد نجران) .
(٧) منعهم من أكل الربا والتعامل به (عهد نجران) .
(٨) وفـاؤهم بالعهـد والتزام شـروطه وأدائها ، ومـن أحدث نقـض العهد وبرئت منه الذمة (عهد أهل اليمن ، وأيلة) .
(٩) ولهـم بذلك : الذمة على أنفسهـم وأموالهم ، وحرمـاتهم ، وثلتهم ، وغائبهم وشاهدهم (عهد نجران) .
(١٠) والذمة على ملتهم ، وعباداتهم ، وبيعهم ، ورهبانيتهـم ، وأساقفتهم ، وألا يغيروا ماكانوا عليه ولاحق من حقوقهم ، فلايفتنـوا عن دينهم ، ومراتبهم ولايغير الأساقفة (عهد نجران) .
(١١) الأمن والحفظ والمنعة (عهد نجران ، جرباء وأذرح ، وأيلة) .
(١٢) ألا يعشروا ، ولايحشروا ، ولايطأ أرضهم جيش (عهد نجران) .
(١٣) العدل والانصاف لهم ، ورفع الظلم والجور عنهم ، وألا يعنفـوا (عهد نجران) .
(١٤) الأمـان لسفنهـم وسيارتهم وبحرهـم وبرهـم ، وألا يمنعـوا مـوارد الماء ولاالطرق السائلة برا أو بحرا (أيلة) .

وقـد أوجب الاسلام على المسلمين الوفاء بالعهود المشـروعة القائمة على البر والتقـوى ، يقول تعـالى : {... **واوفـوا بالعهد إن العهد كـان مسئولا**}(١)؛ ولقـد حققـت تلـك العهـود أهـدافها ، فى اعلاء كلمـة اللـه ، وبسـط نفـوذ المسلمين وهيبتهـم على أهل الديانات الأخرى ، وتأمين طـرق الدعوة ، كما أتاحت الفرصة للنصارى أهل الذمة التعرف على حقيقة الاسلام ، بعد زوال هيبة حكم الكفر عنهم ، واحساسهم بالأمان وحق الاختيار(٢).

---

(١) الاسراء ، آية : ٣٤

(٢) انظر : خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص٢٢٢،٢٢٣،٢٢٤،٢٤٦ .

* موقف نصارى الشام من الدعوة والفتح زمن الرسول صلى الله عليه وسلم :

ونتيجة للدعوة السلمية وجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام وتخومه فى شمال الحجاز أسلم بعض أهالى تلك البلاد جماعات وأفراد ، فقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفد جذام ، وبلى ، وقضاعة ، وعذره ، وتنوخ ، وكلب ، والقين ، ولخم ، وبهراء ، وسعد هذيم ، وتجيب ، وطيء ، وغسان(١) ، معلنة اسلامها(٢).

وممن أسلم من الرجال المعروفين : رفاعة بن زيد الجذامى ، ودحية ابن خليفة الكلبى ، والاصبغ بن عمرو الكلبى ، وعدى بن حاتم الطائى(٣). وابتنى مسلمو جذام مسجدا وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة فيه(٤).

---

(١) يقول نبيه عاقل : لقبيلة غسان فى الشام فروع فى شمال الحجاز ، لربما كان الوفد الذى قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم كان منهم ، فلم يكونوا على ذلك العداء الذى اتخذه غساسنة الشام من حكومة المدينة . انظر : موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٥٩-١٦١ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الانبارى ، عبد الحفيظ شلبى ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، م٢ ، ص٥٩١،٥٩٦ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٢٢/٣،١٣٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٧١/٢،٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٩٥/٢،١٩٨،٢٠١،٢٠٣ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٣٨٧/١-٣٨٨،٣٨٩،٣٩١ ؛ محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٤٦-١٤٧ ؛ صالح درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٨-١٢٩ ؛ احسان عباس ، فتح بلاد الشام ، ص١٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام ، ص١٨٣-١٩١ .

(٣) انظر : الواقدى ، المغازى ، ٥٦٠/٢-٥٦٢ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ١٤١/٢-١٤٢ ؛ ابن القيم ، هداية الحيارى ، ص٥١-٧١ ؛ صالح درادكه ، نفس المرجع ، ص١٢٨ ؛ ابراهيم بيضون ، حملة مؤتة ، ص٥٩-٦٠ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، نفس المرجع ، ص١٩٠ .

بل وانتشر الاسلام فى عمق الشام ، وممن أسلم منهم : كبير أساقفة الروم ، الذى أعلن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم على الروم ، وأنه النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام ، وأشهر اسلامه ، باذن هرقل ، وعلى ملأ من الروم لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ، فقتلوه(١)، كما أسلم من أهل الشام فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على معان ، فقتلوه ، وزنباع بن روح الجذامى ، والحارث بن قيس بن الحارث بن أسماء بن أبى شمر الغسانى ، وفروة بن مجالد مولى لخم من فلسطين ، ومسروج بن سند الحمصى ، ومالك بن أحمر الجذامى ، وتميم الدارى ، وسيماه البلقاوى تاجر القمح الى المدينة ، وثلاثة من غسان ، وغيرهم(٢).

وكما ارتبطت بعض قبائل تخوم الشام بدولة الاسلام برباط الدين لاعتناقها الاسلام جملة أو أفرادا ، خضعت قبائل جنوب الشام وشمال الحجاز للحكم الاسلامى ، على أثر الغزوات النبوية ، وماأثمرت عنه من عهود ، قبلت بمقتضاها السيادة الاسلامية عليها ودفعت الجزية للمسلمين ، أو ببعث وفودهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعلنون اسلامهم ، أو لابرام الاتفاقيات بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ارتضت تلك القبائل سيادته . ونتيجة لذلك أقام الرسول عليه السلام عماله على تلك البلاد وأهلها ، كامرؤ القيس الكلبى على دومة الجندل ، وعمرو بن الحكم على بنى القين ، ومعاوية بن فلان على سعد هذيم ، وعبد الرحمن بن عوف على صدقات كلب ، وغيرهم(٣).

---

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ٩٦/١ .

(٢) انظر : ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص٢٥٧-٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٠٣/٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج٢٩ ، ص٢١٩-٢٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧٧/٥-٧٨ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٣٩١/١-٣٩٢ ؛ جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص٢٥٩،٢٢٠ .

(٣) انظر : نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٦٢-١٦٤ ؛ محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٤٤،١٤٦،١٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام ، ص١٩١،١٩٢ .

لكن تلك القبائل وان قبل البعض منها الاسلام ، والبعض ارتبط بالولاء للمسلمين ، الا أن الآخر رفض ذلك تماما ، وظل على ارتباطه بالروم كما أنها وان أسلمت ، وخضعت فروعها فى شمال الحجاز وجنوب الشام لدولة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتمسكت بالدين وظلت على الولاء بعد وفاته عليه السلام ، فان البعض منها ارتد بعد وفاته ، غير أن ردتهم كانت أقل عنفا من ردة بعض القبائل العربية داخل الجزيرة العربية ، وقد أعادهم أبو بكر الى حظيرة الاسلام ، فلم يتصدوا لحركة الفتح ، وان لم يشتركوا فيها بايجابية . بينما ظلت فروع تلك القبائل العربية فى شمال بلاد الشام وعمقه كالغساسنة ، على الولاء للروم ، والعداء للاسلام والمسلمين ، وقاوموا الفتوحات الاسلامية ، حتى تبدلت مواقفهم مع نجاح الفتوح ومعرفتهم لحقيقة الاسلام(١).

أما الروم فقد تبين لنا موقف هرقل من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم(٢)، وموقف حلفائهم أمراء الغساسنة(٣)، كما عرفنا تصديهم للغزوات النبوية ، واجتماع النصارى روما وعربا فى الجملة على حرب الاسلام وأهله(٤). يضاف الى ذلك أن الدولة البيزنطية وعلى رأسها هرقل ظلوا فى حالة رعب وترقب ، فالرسول عليه السلام منصور بالرعب(٥)، وهرقل كان

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٦٠٠/٤ ؛ ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٩٨ ؛ ابن حبان السيرة ، ص٣٦١،٣٧٥ ؛ ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص٢٤٣-٢٤٦ ؛ محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة ، ص١٤٤،١٤٦-١٤٩ ؛ دور غسان فى الحياة العامة ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام بلاد الشام فى العهد الأموى ، القسم العربى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص١٩١-١٩٥،١٩٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام ، ص١٨٣-١٩٢ ؛ نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٥٧-١٦١ .

(٢) انظر قبل : ص٨٣ .

(٣) انظر قبل : ص٨٤-٨٥ .

(٤) انظر قبل : ص٩٣ ومابعدها .

(٥) انظر قبل : ص٦٨ .

يعلم صدق نبوته ، وهو على يقين أنه منصور ، وسيملك ماتحت قدميه(١)؛ لذلك وان بلغت الأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين عزم نصارى الشام على غزو المدينة(٢)، الا أنهم جبنوا عن الاقدام على ذلك ، بل ومنع هرقل الحارث بن أبى شمر من حرب الرسول عليه السلام(٣)، كما أنهم جبنوا عن لقائه فى تبوك وتفرقت جموعهم التى أعدوها لحربه(٤) بل عملوا على ملاطفته ، فيذكر أن أسقف غزة قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بتبوك وسلمه أموال هاشم وعبد شمس(٥).

ومع ذلك فقد استقر هرقل فى الشام فى تلك المرحلة الحرجة من عمر دولته ، يراقب دولة الاسلام ، عن طريق العيون والجواسيس وخصوصا التجار(٦)، ويعد العدة ويوجه الجيوش للتصدى للغزوات النبوية ، ويستنفر نصارى العرب الى جانبه(٧)، كما أصبح الشام مأوى للفارين من وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، كأبى عامر الراهب ، وعدى بن حاتم الطائى وكنانة بن عبد ياليل الثقفى وغيرهم(٨).

وسعى هرقل وحلفاؤه الغساسنة الى تفتيت وحدة المسلمين والتدخل فى شئونهم الداخلية ، كمراسلتهم كعب بن مالك ودعوته اللحاق بالشام

---

(١) انظر قبل : ص٧٥،٧٦،٨٣ ، وانظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤٠٢-٤٠٣ .

(٢) انظر : ابن حبان ، السيرة ، ص٣٦١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٥٦-١٥٨،١٦٣ ؛ محمد خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة ، ص١٩٨ .

(٣) انظر قبل : ص٩٣،٨٤ .

(٤) انظر قبل : ص١٠٠ .

(٥) جميل عبد الله المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص١٥٨ .

(٦) انظر : ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص١٦٣ ؛ شفيق جاسر أحمد محمود ، تاريخ القدس ، ص٨٥ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/١٤-١٥ ؛ محمد خريسات ، نفس المصدر ، ص١٩٨ .

(٨) الكتبى ، عيون التواريخ ، ١/٣٦١،٣٧٩-٣٨٢ ؛ جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص١٥٠ ؛ محمد خريسات ، نفس المرجع ، ص١٩٨ .

ونصرته. مستغلين حادثة المخلفين[١] عن غزوة تبوك[٢].

غير أن هناك اشارات الى قيام علاقات تجارية بين الشام والمدينة خلال العهد النبوى وأن حالة الحرب لم تؤثر على تدفق التجارة بين الجانبين ، بل وارتباط بعض المدن الشامية كحمص باتفاقيات تجارية مع الحكومة الاسلامية[٣].

---

(١) تخلف أناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فلم يخرجوا معه منهم من تخلف لعذر فهم البكاؤون لم يجدواماير كبونه ، ومهم من اعتذر من الأعراب ولم يعذرهم الله تعالى ، ومنهم من تخلف نفاقا وخذلانا وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ، وثلاثة من المؤمنين منهم كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى من بنى سلمة ، أبطأت بهم النية وتخلفوا عن غير شك ولاارتياب ولانفاق ، وكانوا نفر صدق لايتهمون فى اسلامهم ، فلما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذر المخلفون وحلفوا ، فعذرهم الرسول عليه السلام واستغفر لهم ، أما كعب وصاحبيه فصدقوا الرسول عليه السلام ، ولم يكذبوا ولم يحلفوا ، فخلفهم الرسول عليه السلام ، وأرجأ أمرهم حتى يقضى الله فيهم ، وأمر المسلمين بهجرهم وألا يكلموهم حتى يقضى الله فيهم ، كما أمر ، عليه السلام أن يعتزلوا زوجاتهم ، وبعد خمسين ليلة ، نزل الوحى بتوبة الله عليهم فى قوله تعالى : {لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... الآية} ، انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، م٢/٥١٥-٥٣٧ .

(٢) انظر : ابن حبان ، السيرة ، ص٣٧٥ ؛ ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص٢٤٣-٢٤٦ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٣٥٦/١ .

(٣) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٤٠/٣ ؛ سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢٣٠ .

الفصل الثاني
دعوة نصارى الشام الى الإسلام والوصاية بهم وماوصلوا عليه في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* دعوة الخلفاء الراشدين والأمويين السلمية نصارى الشام الى الاسلام .

* وصايا الخلفاء الراشدين والأمويين بحسن معاملة نصارى الشام .

* عرض مجمل للفتح الاسلامى لبلاد الشام كحركة دعوة .

* شروط عهود الصلح التى أعطاها المسلمون نصارى الشام.

* الشروط العمرية .

* عقد الذمة .

الفصل الثانى
دعوة نصارى الشام الى الإسلام والوصاية بهم وماصولحوا عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* دعوة الخلفاء الراشدين والأمويين السلمية نصارى الشام الى الاسلام :

دعوتهم فى عصر الخلفاء الراشدين :

كانت الدعوة الى الله تنطلق ببعثة الرسول الى الخلق ، ثم يلتف حوله المؤمنون ليمضوا فى طريق الدعوة ، ثم يتناول الأمر رسول آخر يلتف حوله المؤمنون وهكذا حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، فاكتمل منهاج الله ، وأصبحت الدعوة الى الله أمرا ماضيا فى الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، تقوم بهاجماعة الايمان وأمة الاسلام . يقول تعالى : {**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**}(١)، {**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**}(٢)، فقيام الأمة الاسلامية بالدعوة ، طاعة لله وعبادة له ، وتحقيقا للأمانة وقياما بالتكاليف(٣). لذلك سار الخلفاء الراشدون فى سبيل رسول الله داعين الى الله ، قال تعالى : {**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله ومأأنا من المشركين**}(٤). ومنفذين لأمر الله وأمر رسوله(٥). فانه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رسول الله الى الناس كافة ومنهم النصارى ، ودعاهم وجاهدهم ، وأمر بدعوتهم وجهادهم ، فدعوة الخلفاء الراشدين لهم وجهادهم اياهم وكذلك المسلمين من بعدهم فى عصر بنى أمية ومن جاء بعدهم لم يكن بدعة

---

(١) آل عمران ، آية : ١١٠

(٢) البقرة ، آية : ١٤٣

(٣) عدنان على النحوى ، دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية ، ص٨٥-٨٦ .

(٤) يوسف ، آية : ١٠٨

(٥) انظر قبل : ص٦٨-٦٩،٧٨-٨٩ .

ابتدعوها كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام ، فان المسلمين لايجيزون لأحد بعد الرسول محمد عليه السلام أن يغير شيئا من شريعته(١).

فاستفتاح أبى بكر خلافته بالدعوة الى الله وجهاد الكفار كان تحقيقا للسير فى سبيل الحق والقيام بواجب الدعوة ، وأبدى رضى الله عنه اهتمامه بالجهاد كوسيلة لنشر الدعوة فى خطبته التى أعلن فيها سياسته بعد توليه الخلافة فكان أول عمل بدأ به خلافته بعث جيش أسامة بن زيد(٢).

وكان انفاذ بعث جيش أسامة بن زيد رغم شدة الأحوال واشارة بعض الصحابة بابقائه امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : {**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**}(٣)، فكانت العناية بأمره من أسباب النصر والفلاح(٤).

وقد كانت الدعوة الاسلامية فى أعقاب غزوة تبوك قد أحاطت بجزيرة العرب ، مما مهد للدعوة خارجها على يد خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم(٥).

ويذكر أن الخليفة أبا بكر رضى الله عنه ، أرسل هشام بن العاص ورجلا آخر من قريش ، الى هرقل امبراطور الروم ، يدعوه الى الاسلام ، فنزلا على جبلة بن الأيهم الغسانى فى غوطة دمشق وقد عزم على اخراج المسلمين من الشام ، فدعوه الى الاسلام ، وأخبروه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم سيملكون الشام وملك هرقل ، فلما وجد فيهم صفة من يملك الشام اسود وجهه ، ووجه بهم الى هرقل ، فدعوه الى الله ، وقد وجد العجب من ذكرهم "لااله الا الله والله أكبر" التى اهتز لها مجلسه ، فسألهم عن بعض الأمور ، وعرض عليهم بعض صور الأنبياء ، ومنها صورة

---

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ١١٤/١ .

(٢) جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص٢٤١ .

(٣) النور ، آية : ٦٣

(٤) سعيد بن على القحطانى ، الحكمة فى الدعوة الى الله تعالى ، مطبعة سفير ، الرياض توزيع مؤسسة الجريسى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص٢١٧-٢٢٠ .

(٥) جميل المصرى ، نفس المرجع ، ص٢٢١ .

للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فعرفوه ، فقال : انه آخرهم ، ولم يسلم ثم أجازهم ، فأتوا أبا بكر وأخبروه الخبر ، فقال : لو أراد الله به خيرا لفعل (١).

وذكر ابن أعثم (٢) الخبر ، غير أنه ذكر أن الذى وجهه فى جماعة من المسلمين هو أبو عبيدة عامر بن الجراح الى هرقل ، وجبلة بن الأيهم ، لما دخلت جيوش المسلمين الشام ، وقد ترك هرقل بيت المقدس ونزل أنطاكية ، وأبقى جبلة فى أربعين ألفا من متنصرة العرب فى غوطة دمشق . وقد لايكون خلافا ، فلعل الذى أمر بذلك الخليفة أبو بكر ، وأنفذه أبو عبيدة ، فعاد الوفد الى أبى عبيدة بالخبر ، وبعث بهم الى أبى بكر ليعلموه الخبر (٣).

وكما حرص الصديق على استمرارية الدعوة وعدم توقفها أو تأثرها بأعظم المصائب وهو متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وردة العرب على أثر ذلك ، فبادر بتوجيه بعث أسامة ، نجده يؤكد حرصه ذاك عند وفاته لخليفته عمر بن الخطاب بقوله : "اسمع ياعمر ماأقول لك ، ثم اعمل به ، انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فان أنا مت فلاتمسين حتى تنتدب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل فلاتصبحن حتى تنتدب الناس مع المثنى ، ولاتشغلكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم" ، فكان أول عمل بدأ به عمر بعد ماسوى الأرض على أبى بكر تنفيذ أمر الصديق ، بانتداب الناس مع المثنى (٤).

---

(١) ابن القيم ، هداية الحيارى ، ص١٥٧-١٥٩ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون من تاريخ الاسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٤٢ .

(٢) الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، م١ ، ص١٠٢-١٠٧ .

(٣) ولهذا مثائل ، كأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص أن يبعث الى كسرى الفرس رجالا يدعونه الى الله ، فأوفد الى كسرى ، كما أرسل الى رستم من يدعوه قبل أن يحاربهم فى القادسية . انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٩٥/٣-٥٠١

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤١٣/٣-٤١٤،٤٤٤ .

لقد كانت الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام وغيرها حركة دعوة الى الله ، وذلك يظهر فى مشاورة الخليفة أبى بكر كبار الصحابة فى أمر فتح الشام ، وأحاديثه لقادة الفتح(١)، ومن تقديمه والخلفاء من بعده دعوة أهل البلاد التى يراد فتحها الى الله أو دفع الجزية على الحرب . وهذا مبدأ اسلامى سار عليه قادة الفتح قبل الشروع فى الحرب عند فتح البلدان أو خوض المعارك(٢)، من ذلك دعوة أبى عبيدة عرب حاضر قنسرين الى الاسلام ، فأسلم البعض ، وبقى البعض على النصرانية ، فصالحهم على الجزية(٣). وارساله أحد المسلمين وهو محاصر حلب الى صاحب الرقة يدعوه الى الاسلام(٤). وماذكرته بعض المصادر ، من كتابته الى أهل ايليا يدعوهم الى الله(٥). وعند لقاء العدو فى المعارك ، كدعوة نصارى الشام الى الاسلام قبل القتال فى اليرموك(٦)ودعوتهم فى فحل(٧)، وأجنادين(٨).

---

(١) انظر : اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٣٢/٢-١٣٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات الضامنة الكافلة والفتوحات الجامعة الحافلة الكائنة فى أيام الخلفاء والأئمة الأول الثلاثة ، تحقيق طلال بن سعود الدعجانى ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، الجامعة الاسلامية ، المدينة ، كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، السفر الأول ، م١ ، م٢ ، ص١٥٩-١٦٩ ؛ ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٨٠-١٨٦ .

(٢) انظر ذلك قبل : ص٨٨ .

(٣) اسماعيل أبو الفداء ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، ص٣٢ .

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، دار الجيل ، بيروت ، ٩٩/٢-١٠٠ .

(٥) ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص٢٢٢-٢٢٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، س١ ، م٢ ، ص٣٧٧-٣٧٨ ؛ شفيق جاسر ، تاريخ القدس ، ص٨٩ .

(٦) الواقدى ، نفس المصدر ، ١٨٩/١ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، الناشر ، مؤسسة سجل العرب ، ص١٩٤-٢٠٧ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤١٣/٣ ؛ ابن أعثم ، نفس المصدر ، م١ ، ص١٨٧-١٩٢ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، س١ ، م٢ ، ص٣٣٥-٣٤٤ .

(٧) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١١٥-١٢٥ ؛ ابن أعثم ، نفس المصدر ، م١ ، ص١٤٧-١٤٩ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، س١ ، م٢ ، ص٢٦١-٢٦٨ .

(٨) الواقدى ، نفس المصدر ، ٥٨/١ .

ويستمر الحرص على الدعوة ، فبعد دعوة جيش الروم فى اليرموك قبل القتال ، يدعو خالد بن الوليد جرجه مقدم جيش الروم الذى برز له عند اللقاء وسأله عن سبب تسميته بسيف الله المسلول ويفوز خالد بفضل اجابته داعى الله والدخول فى الاسلام(١).

يقول أبو يوسف(٢): وانما كان أبو عبيدة يجيب النصارى الى الصلح على تلك الشروط ويعطيهم ماسألوا ، يريد بذلك تألفهم ، وليسمع بهم غيرهم ، فيسرعون الى الصلح .

وكانت مواقفهم خلال الدعوة تدل على حقيقة حركة الفتح ، وانما هى لاعلاء كلمة الله ، فهم ملتزمون بأسس الدعوة عند مفاوضة العدو وهى الاسلام أو الجزية أو الانذار بالقتال ، رافضين الاغراءات المادية التى قدمت لهم من العدو من أرض ومال كما حدث فى اليرموك وفحل واجنادين ، مقابل الرجوع عن الحرب(٣).

وفيه الرد الكافى على من زعم أن الفتوحات ماقامت الا لدوافع اقتصادية ، حيث أن ماقدم لهم من عرض الحياة كان يمكن أن يرضيهم ، لو كانوا يريدون الدنيا ، فالدعاة الى الله فى اليرموك يأبون الجلوس على الحرير فى سرادق القائد الرومى ، فيضطر الى البروز لهم على فرش ممهده، فيقول هرقل عندما بلغه ذلك : هذا أول الذل(٤).

ومما يجدر بيانه أن الدعوة لم تقتصر على دعوة نصارى الشام قبل القتال وعنده ، بل استمر المسلمون دعاة الى الله يتألفون أهل الذمة ومنهم النصارى ماستطاعوا لذلك سبيلا .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٩٨/٣-٣٩٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٨٣/٢ .

(٢) الخراج ، ص٢٨٣ .

(٣) انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، ٥٨/١،١٦٧-١٦٩ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ص١١٥-١٢٥،١٩٤-٢٠٧ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص١٨٧-١٩٢،١٤٧-١٤٩ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، س١ ، م٢ ، ص٣٣٥-٣٤٤ ، ٢٦١-٢٦٨ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٠٣/٣ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، س١ ، م٢ ، ص٣٩٤-٣٩٥ ؛ مختصر تاريخ ابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص١٩٨ .

ومن وجوه الحرص على الدعوة أن المسلمين اتخذوا سياسة ابتناء مسجد فى كل مدينة شامية يتم فتحها ، واستثناء موضعه من الصلح ، ليكون منارا للاسلام يشع منه نور الهداية ، عسى أن يهتدى الناس الصراط المستقيم . فقد اتخذوا نصف كنيسة دمشق مسجدا ، ثم أخذ النصف الثانى زمن الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الأموى(١). وابتنوا مسجدا فى اللاذقية بعد فتحها بناه عبادة بن الصامت رضى الله عنه(٢)، واستثنى أبو عبيدة على أهل حمص لما صالحوه ربع كنيسة يوحنا للمسجد(٣)، كما استثنى من صلح حلب موضع المسجد(٤). واستثنى شرحبيل بن حسنة موضعا لمسجد المسلمين مما صالحه عليه أهل طبرية(٥).

واتخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه موضع الصخرة بمسجد داود ببيت المقدس ، وهو المسجد الأقصى الذى أسرى برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم اليه مسجدا ، وحازه للمسلمين وحال بين أهل الذمة وبينه . وقد جعل مصلاه صدر المسجد نحو الكعبة ، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها ، ولم يقبل مشورة كعب الأحبار ، بأن يجعل المصلى الى الصخرة فيجمع قبلة موسى ومحمد عليهما السلام ، وتقدم وصلى بالمسلمين فى محراب داود وأمر بازالة الكناسة التى وضعها النصارى على الصخرة ، وباشر ذلك بنفسه والمسلمون(٦)كما قال للراهب الذى

---

(١) انظر بعد : ص١٧٢-١٧٣،٤٢٠-٤٢٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٣/٢ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٦-١٣٧ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٣٤٤/٢ ؛ اسماعيل أبو الفداء ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ص٣٣ .

(٥) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٠ .

(٦) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠٣،١٩٦ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٨٧/١،٣٨٩-٣٩٠ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦١٠/٣-٦١٢ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، ١٨٥/٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٧/٧ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، دراسة وتحقيق محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروى ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ١٧١/٢ ؛ المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، =

صالحه على بيت لحم أنه لابد فى كل موضع للنصارى أن نجعل فيه مسجدا ؛ فأرشده الى حنيه مبنية على القبلة وسأله ألا يأخذ الكنيسة ، فتركها لهم ، واتخذ الحنية مسجدا ، وجعل على النصارى اسراجها وعمارتها وتنظيفها(١).

وعن مسلمة بن عبد الله الجهنى عن عمه قال : "لما قدم عمر بن الخطاب كان من شرطه على النصارى أن يشاطرهم منازلهم فيسكن فيها المسلمون ، وأن يأخذ الحيز القبلى من كنائسهم لمساجد المسلمين"(٢).

وفى سبيل الدعوة ونشر الاسلام تألف عمر بن الخطاب بنو تغلب بمضاعفة الصدقة جزاء لما أنفوا من أداء الجزية بسماها لأنهم عربا ، على ألا ينصروا أولادهم(٣). وذكر بأنه أمر متولى الخراج أن يشتد فى معاملتهم فى عدل موفور ، رغبة منه فى اسلامهم(٤). ويظل عمر داعيا فى كل الأحوال ، فنراه يدعو جبلة بن الأيهم الى الاسلام ، فلايسلم(٥)، وقيل انما أسلم زمن عمر ثم ارتد ولحق بالروم ، وفى اسلامه أقوال أخرى(٦). ويدعو عبدا له نصرانيا الى الاسلام ، ويتألفه بترغيبه فى العمل فى شئون المسلمين ان هو أجاب ، ولايكرهه ، ولما أبى أعتقه عند موته تألفا ، فأسلم(٧). كما وجه عمر بمن يفقه أهل الشام ويقوم بأمر الدعوة ، ومنهم عبد الله بن غنم الأشعرى نزيل فلسطين(٨). كما قام بالدعوة فى الشام بعض أصحاب

= القاهرة ٤٩٢/٢ ؛ مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، الأردن ، توزيع دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ٢٥٥/٢-٢٥٧ .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥٢١/١ ؛ المقريزى ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ ابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٨ . وانظر ماورد عن ذلك فى عهود الصلح بعد : ص١٧٢-١٧٣ .

(٣) انظر : يحي بن آدم ، الخراج ، ص٦٢-٦٤ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٥٠ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٥٥/٤-٥٦ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٦/١-٧٨

(٤) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، دار الفكر العربى مطبعة الاعتماد ، مصر ، ١٩٤٩م ، ص٩٤ .

(٥) ابن زنجويه ، الأموال ، ١٣٥/١ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦٥/٨-٦٩ ؛ وانظر بعد : ص٤٧٥-٤٧٦ .

(٧) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٤٣ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٤٥/١ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، تحقيق أحمد شوحان ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة التراث ، دير الزور ، ص١٣٩ .

(٨) ابن كثير ، نفس المصدر ، ٢٨/٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأبي الدرداء[١]رضي الله عنه[٢]، وبعض التابعين كالضحاك بن مزاحم[٣]، وغيرهم وقد ساعد على نشر الاسلام كثرة الصحابة الذين شاركوا في الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، وقام هؤلاء المجاهدون بعد أن استقروا وتوزعوا في الأمصار بالدعوة الى الله ونشر دينه ، وتعليم الناس وتفقيههم ، وأصبحت المساجد مراكز للدعوة الى الله .

وقد طلب يزيد بن أبي سفيان[٤]من عمر بن الخطاب أن يرسل اليه

---

(١) أبو الدرداء بن زيد بن قيس ، ويقال عويمر بن عامر ، ويقال : ابن عبد الله ، وقيل : ابن ثعلبة بن عبد الله الأنصاري الخزرجي ، الامام القدوة ، قاضي دمشق وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكيم هذه الأمة ، وسيد القراء بدمشق ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث ، معدود فيمن جمع القرآن وتلا على النبي صلى الله عليه وسلم ، أسلم يوم بدر ، ثم شهد أحدا ، وهو من علماء الصحابة ، مات قبل مقتل عثمان رضي الله عنه ، قيل سنة ٣٢هـ وقيل سنة ٣١هـ .
انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٣٣٥/٢-٣٥٣ .

(٢) أحمد بدر ، الدور الاداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة في الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام في صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص٤٠٥ .

(٣) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٢/١ .
وهو الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني ، روى عن عدد من الصحابة والتابعين وقيل لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة ، ثقة مأمون ، كان معلم كتاب ، واشتهر بالتفسير ، مات سنة ١٠٥هـ وقيل ١٠٦هـ ، وقيل ١٠٢هـ .
انظر : ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٣٩٧/٤-٣٩٨ .

(٤) يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخو معاوية من أبيه ، يقال له : يزيد الخير ، كان من العقلاء الألباء الشجعان ، أسلم يوم الفتح ، وحسن اسلامه ، وشهد حنينا ، وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم ، ولما فتحت دمشق ، أمره عمر بن الخطاب عليها ، وعلى يده كان فتح قيسارية ، وقد استخلف على عمله عند موته أخاه معاوية ، فأقره عمر ، مات في طاعون عمواس سنة ١٨هـ .
انظر : الذهبي ، نفس المصدر ، ٣٢٨/١-٣٣٠ .

من يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، فأرسل اليه بمعاذ بن جبل [١]، وعبادة بن الصامت [٢]، وأبا الدرداء رضى الله عنهم أجمعين ، فاستقر عبادة بحمص ، وأبو الدرداء بدمشق ، ومعاذ بفلسطين ، وشاركهم فى هذه المهمة غيرهم من كبار الصحابة والتابعين [٣].

ولاشك أن سكنى الفاتحين المسلمين فى الأمصار الشامية ، واختلاطهم بالنصارى وتعايشهم معهم واندماجهم فى مجتمع واحد يقوم على التراحم والعدل ، وماكان بين الفريقين من تعامل وتعاون وتزاوج ، ساعد النصارى على رؤية الاسلام على حقيقته فى سلوك المسلمين ، وقد كان منهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون وتابعيهم باحسان ، وهم على

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصارى الخزرجى ، شهد العقبة شابا أمرد ، وله عدة أحاديث ، وشهد بدرا ، كان من الذين جمعوا القرآن ، وكان أعلم الناس بالحلال والحرام ، من أجلاء علماء الصحابة وفقهائهم ، ولما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ، خلفه فيها يقرىء الناس ويفقههم . وبعثه الى اليمن وأوصاه وودعه ، وكان عامله على الجند عند وفاته عليه السلام ، وكان عمر يستشيره ، خرج الى الشام مجاهدا مع أبى عبيدة ، ومات فى طاعون عمواس سنة ١٨هـ .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٤٤٣/١-٤٦١ .

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أحد النقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سكن بيت المقدس ، كان ممن جمع القرآن زمن النبى عليه السلام ، وكتب يزيد بن أبى سفيان الى عمر بحاجة أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فكان عبادة أحدهم ، وقد أنكر على معاوية شيئا، فرحل الى المدينة ، فلما عرف عمر سبب قدومه ، رده الى الشام وقال : ارحل الى مكانك ، فقبح الله أرضا لست فيها وأمثالك ، فلاامرة له عليك . وكتب معاوية الى عثمان : ان عبادة قد أفسد على الشام وأهله ، فاما أن تكفه واما أن أخلى بينه وبين الشام ، فكتب اليه : أن رحل عبادة حتى ترجعه الى داره بالمدينة . ومات بالرملة سنة ٣٤هـ ، وقيل سنة ٤٥هـ فى خلافة معاوية .
انظر : الذهبى ، نفس المصدر ، ٥/٢-١١ .

(٣) انظر : نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٢٥-٤٢٨ .

ماهم عليه من الفضل ، كما أثنى عليهم ربهم جل جلاله ورضى عنهم وشهد لهم بالخيرية ، وكذلك نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم(١).

ويبين مدى أثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتميزهم ، وانبهار نصارى الشام عندما رأوا حسن سيرتهم وهديهم قول أحدهم : ماكان أصحاب عيسى بن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهادا من هؤلاء(٢).

دعوتهم فى العصر الأموى :

واصل بنو أمية الدعوة الى الله داخليا وخارجيا ، فعملوا على نشر الاسلام بين أهل الذمة بدعوتهم وتألفهم ، فيروى أن عبد الملك بن مروان كان يتمنى أن يسلم الشاعر الأخطل النصرانى ليفرض له فى شرف العطاء(٣). ومن حرص على اسلام أحد الناس وتمنى ذلك له فلاشك أنه عمل من أجل ذلك . وقد عمل عمر بن عبد العزيز جاهدا فى الدعوة الى الله ودختل جموع كثيرة من أهل الذمة فى زمنه فى الاسلام ، لما لقوه فى عهده من عدل وسماحة وحسن معاملة ، حتى أشار عليه بعض عماله بأخذ الجزية ممن أسلم لنقص موارد بيت المال فقال : "ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه جابيا" ، ويبدو لكثرة الداخلين فى الاسلام زمنه أن الأمر

---

(١) انظر قول ابن القيم فى فضلهم فى كتابه : هداية الحيارى ، ص١٩٨-١٩٩ ؛ وانظر لمعلومات أكثر تفصيلا : أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م من منشورات مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة .

(٢) ابن القيم ، نفس المصدر ، ص١٩٠ .

(٣) نجدة خماش ، الدواوين المركزية فى الشام فى العصر الأموى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٠م ، ص١٥ .

اختلط على ثيوفانس حتى ظن أن عمرا أرغمهم على الاسلام[١]. وقد كتب الى عماله بدعوة أهل الذمة الى الله ونشر الاسلام بينهم ، فمن أسلم وضعت عنه الجزية ، وكان له ماللمسلمين وعليه ماعلى المسلمين[٢].

وكان عمر بن عبد العزيز يرسل البعثات العلمية لتفقيه الناس والدعوة الى الله[٣]. وكان يتألف النصارى الى الاسلام ، فيعطيهم المال ، وينزل عليهم ، ويأكل من طعامهم ، ويعطيهم أكثر من ذلك ، ولايأكل الا اذا قبلوا مايعطيهم ، بينما لم يكن يقبل من المسلمين شيئا[٤]. ويروى أنه أعطى بطريقا ألف دينار يتألفه على الاسلام[٥]. ويبدو أن عمرا كان حريصا على الدعوة من قبل توليه الخلافة فقد أسلم على يديه وهو أمير عبد الملك

---

(١) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة ، مكتبة الفيصلية ، مكة ، ١٩٨٤م ، ص٢٦ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار الفكر ، ودار صادر ، بيروت ، ٣٨٦/٥ ؛ عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص٨٦ .

(٣) ابن الجوزى ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، ضبطه وشرحه وعلق عليه ، نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٩٢ ؛ ماجدة فيصل زكريا ، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم ، مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص١٧٥ .

(٤) نادية حسنى صقر ، نفس المرجع ، ص١٥ ؛ عمر أبو النصر ، الأيام الأخيرة للدولة الأموية ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢م ، ص٩٨ .

(٥) نجدة خماش ، الدواوين المركزية ، ص٢٨ ؛ محمد كرد على ، الادارة الاسلامية فى عز العرب ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٢م ، ص١٠٢ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م ، ٣٢٩/١ .

ابن أبجر الكنانى الطبيب العالم الماهر[١]. أما قول ثيوفانس باجبار عمر النصارى على الاسلام فقد نقله فلهاوزن وكفانا مؤنة الرد عليه ، يقول نبيه عاقل[٢]: ينقل فلهاوزن نصا عن المؤرخ البيزنطى ثيوفانس فيه أنه حدثت هزة قوية فى بلاد الشام أيام عمر بن عبد العزيز[٣]، فأمر بمنع شرب الخمر فى المدن ، وأجبر النصارى على اعتناق الاسلام ، فالذين أسلموا لم يأخذ منهم الجزية ، والذين أبوا أمر بقتلهم ، فاستشهد عدد كبير منهم . ويرى فلهاوزن فى هذه الرواية جوانب صحيحة وأخرى خاطئة ؛ ويقول أنه من الصواب القول أن عمر كان متحمسا لاسلامه وأن النصارى عرفوا ذلك وشعروا به ، ولكن من الخطأ القول بأنه أجبرهم على الاسلام ، لأن ذلك مخالفة صريحة للاسلام ، الأمر الذى كان عمر لايقدم عليه ، ولايقوم به ، لأنه كان مسلما صادقا ، ولعل ثيوفانس كما قالت نادية صقر اختلط عليه الأمر لكثرة الداخلين فى الاسلام زمن عمر فظن أنه أجبرهم عليه .

وبلاشك فان حسن المعاملة والعدل وتطبيق الشريعة والدعوة الى الله وتألف النصارى على الاسلام ، وتطبيق مبدأ اسقاط الجزية عمن أسلم[٤]،

---

(١) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٥م ، ص١٦٣ .

(٢) نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص٢٩٣ .

(٣) ذكر السيوطى أن زلزلة كانت بالشام فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر الناس بالذكر والصدقة والصلاة والاستغفار . (انظر : كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة تحقيق وتعليق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى ، مكتبة الدار ، المدينة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ ، ص٥٠-٥٢،٦٧) . ولم يذكر ماقاله ثيوفانس ولعله نهى عن المحرمات ، واظهار الفجور ، لأنها مدعاة لسخط الله ، سواء من أهل القبلة أو أهل الذمة .

(٤) انظر بعد : ص٢٤٢ ومابعدها ، ٣٣١ ؛ عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٥٥٢ ومابعدها .

ومنع أهل الذمة من العمل فى الدواوين الا من أسلم منهم[(١)]، ساعد على انتشار الاسلام بينهم فى زمنه . بل لم تتوقف الدعوة السلمية فى زمن عمر ابن عبد العزيز عند حدود دولته ، فقد وجه رسله يحملون الدعوة الى الله الى ملوك القوى المجاورة ، فقد بعث الى ملوك الهند والسند وماوراء النهر والى ليو الأيسورى امبراطور الروم[(٢)]. وقد التزم عمر نهج الاسلام فى دعوة المحاربين الى الله ، أو أن يدفعوا الجزية قبل قتالهم والوصاية بهم ، والقبول من أهل الذمة ماأدوا الجزية وأمسكوا بأيديهم[(٣)].

كما كانت الفتوحات الاسلامية التى شهدها العصر الأموى طريقا آخر للدعوة الى الله ، وكان دافعها اعلاء كلمة الله ونشر الاسلام ، وكان أعداؤهم يعرفون ذلك ، فان المسلمين لما حاصروا القسطنطينية زمن سليمان ابن عبد الملك كتب ليو الأيسورى ملك الروم الى ملك البرجان يستنصره وقال له ليس لهم همة الا فى الدعوة الى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، وانهم متى فرغوا منى خلصوا اليك ، فما كنت صانعا حينئذ فاصنعه الآن[(٤)].

وقد نقل توفيق اليوزبكى[(٥)]: أن جولد تسهير وديورانت شهدا بسماحة الاسلام وأن القيود التى فرضها عمر بن عبد العزيز والمتوكل كان يقصد بها التشجيع على اعتناق الاسلام .

وتلزم الاشارة هنا الى أن قيود عمر بن عبد العزيز لم تكن بدعا ، وانما هى تطبيقا لأحكام الاسلام فى أهل الذمة ، وماشرط عليهم فى عهود الصلح .

---

(١) انظر بعد : ص٢٩٣-٢٩٦ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٤٢٨-٤٢٩ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٤٠٩،٤٢١ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٦٣/١-٦٤ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٥٥/٥-٣٦٩ ؛ ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز نسخ وتصحيح وتعليق أحمد عبيد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٧٩ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٩٢/٩ (وورد فى حاشيته قول المحقق : البرجان : الأرجح أنهم البلغار ، وهم أقرب الأمم النصرانية الى القسطنطينية) .

(٥) تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٣-١٤٤ .

* وصايا الخلفاء الراشدين والأمويين بحسن معاملة نصارى الشام :

ـ وصايا الخلفاء الراشدين :

جاءت وصايا الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم الى القادة والعمال والمسلمين عامة بأهل الذمة ، داعية الى حفظ الذمة والوفاء بالعهد ، وحسن المعاملة والرعاية ، انفاذا لأمر الله واتباعا لسنة نبيه والتزاما بمبادىء الدين الحنيف . فقد أمر الله بالوفاء بالعهد ، فقال : {... **وأفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**}(١)، وشرع الله برهم وانصافهم بقوله : {**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين**}(٢)، والقيام بالعدل والقسط حتى مع الكفار فى قوله تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ...}(٣)، وأحل طعامهم ونساءهم بقوله : {**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذين أخدان**}(٤). ولاغرو فقد وسعت رحمته كل شىء وهو أرحم الراحمين ، يقول تعالى : {**ورحمتى وسعت كل شىء**}(٥)، والاحسان اليهم ، قال صلى الله عليه وسلم "**ان الله كتب الاحسان على كل شىء ... الحديث**"(٦). وغيرها من الآيات

---

(١) الاسراء ، آية : ٣٤
(٢) الممتحنة ، آية : ٨
(٣) المائدة ، آية : ٨
(٤) المائدة ، آية : ٥
(٥) الأعراف ، آية : ١٥٦
(٦) مسلم ، صحيح مسلم ، ١٥٤٨/٣ ؛ أبو داود ، سنن أبو داود مع عون المعبود ، ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ١٠/٨ ؛ الترمذى ، جامع الترمذى مع تحفة الأحوذى ، راجع أصوله وصححه عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ٦٦٤/٤-٦٦٥ ؛ النسائى ، سنن النسائى ، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى ، الناشر ، دار احياء التراث العربى بيروت ، لبنان ، ٢٢/٧ ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، تحقيق ، محمد فؤاد =

وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم(١).

فقامت سياسة الخلفاء الراشدين فى معاملة أهل الذمة على هذه الأسس ملتزمة بتعاليم الاسلام السمحة . نجد ذلك فى تعليماتهم لقادة الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، فقد جاء فى وصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأسامة بن زيد لما بعثه الى الشام(٢): "ياأيها الناس ، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولاتغلوا ، ولاتغدروا ، ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا طفلا صغيرا ولاشيخا كبيرا ولاامرأة ، ولاتعقروا نخلا ولاتحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا الا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فاذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوا بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله بالطعن والطاعون"(٣).

وقال الذهبى(٤): بعث أبو بكر أسامة بن زيد على الجيش الذى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر : "أن لايجزر فى القوم ، أن يقطع الأيدى والأرجل والأوساط فى القتال" . ومانقله الذهبى نهى عن المثلة التى نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥).

= عبدالباقى ، الناشر ، دار الفكر ، ١٠٥٨/٢ ؛ الدارمى ، سنن الدارمى ، تحقيق ، السيد عبد الله هاشم ، الناشر ، حديث آكادمى نشاط أباد ، فيصل آباد ، باكستان ، ١٤٠٤هـ ، ٩/٢ .

(١) انظر شيئا من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الذمة قبل : ص٨٩-٩٢ .

(٢) انظر خبر حملته بعد : ص١٤٠-١٤١ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٢٦/٣-٢٢٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٢٧/٢ (خالفه فى لفظ : تعقروا بقوله : تقعروا ، ولفظ : تحرقوا بـ تحرقوا ، وأفناكم بـ أقناكم) ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٧٢ (أورد لفظ تعقروا ، تعزقوا ، ولفظ تحرقوا ، تحرقوا كابن الأثير . وأرى لفظ الحرق والفناء أولى بالترجيح . والاختلاف فى اللفظ لعله من خطأ النساخ) .

(٤) الخلفاء الراشدون ، ص١١ .

(٥) انظر وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل : ص٨٩-٩٠ .

ويقول سعيد بن المسيب أن الصديق أوصى قادة فتح الشام بأمور منها مالم يرد فى وصيته لأسامة بن زيد فيما يخص معاملة العدو قوله : ولاتفسدوا فى الأرض ، وأمرهم بدعوتهم الى الاسلام ، أو الجزية ان لم يجيبوا ، والا فالقتال . وألا يهدموا لهم بيعة(١). ويستدرك على محتوى الوصية أنه أمر قائده بدعوة من أسلم الى التحول الى دار الهجرة ، والصحيح أن الدعوة الى التحول الى دار الهجرة كان مما يوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم قادة الغزوات قبل فتح مكة(٢). أما بعد الفتح ، فكما قال عليه السلام : "**لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فأنفروا**"(٣).

ومما أوصى به يزيد بن أبى سفيان ، عند خروجه لفتح بلاد الشام مما لم يذكر فى وصاياه السابقة قوله : ولاتنقضوا اذا صالحتم ، وستمرون على قوم فى الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا فى الله فدعوهم ، ولاتهدموا صوامعهم(٤)، ولاتخربن عمرانا ، ولاتقطعن بجرا الا لنفع ، ولاتخن(٥)، واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولاترينهم فيروا خللك ، ويعلموا علمك ،

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٨٨ ؛ وأورد ابن أعثم وصيته الى أمراء الأجناد عامة ، وذكر فيها الوصية بعدم الفساد ، لكنه لم يذكر دعوتهم والنهى عن هدم البيع . الفتوح ، م١ ، ص٣٥٠ .

(٢) انظر : الواقدى ، المغازى ، ٧٥٧/٢-٧٥٨ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٣٢-٣٣ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٢١/١-١٢٢ ؛ ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص٩٠-٩١ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٤/١-٦ .

(٣) البخارى ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٤٥/٦ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ١٤٨٧/٣،١٤٨٨ .

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، ٨/١ .

(٥) ابن حبان ، السيرة ، ص٤٤٦-٤٤٧ ؛ ابن أعثم ، نفس المصدر ، م١ ، ص٨٣-٨٤ (وافقه فى اضافة ألا يخربوا عامرا) ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ص٩٧ . (كابن أعثم) . والحديث لم أجد له تعريفا .

وأنزلهم فى ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم (١).

ويلاحظ اختلافا بين المصادر زيادة ونقصا فى وصايا الصديق لقادة الفتوحات ، غير أنه لاتناقض ولاخروج عن الأسس الاسلامية قرآنا وسنة فى معاملة غير المسلمين ، مما يدفع الى القول أن ذلك الاختلاف جاء نتيجة لاختلاف الرواه بين سامع أدرك كل ماسمع فرواه ، وآخر حفظ شيئا ونسى آخر .

وذكرت بعض المراجع (٢) أنه أوصى ألا يقتل أحد من أهل ذمة الله ، وعولوها على أهل الذمة . غير أن المقصود بأهل ذمة الله كما فى النص الأصلى عند ابن سعد (٣) هم المسلمون الذين يصلون الخمس الفرائض .

والتزاما بشرائع الاسلام التى حرمت المثلة لنهى الله عز وجل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن التمثيل عندما عزم على التمثيل بكفار قريش انتقاما لتمثيلهم بأصحابه فى أحد ومنهم عمه حمزة رضى الله عنهم أجمعين بقوله تعالى : ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾ (٤). ونهى الرسول عليه السلام عنها امتثالا لأمر ربه ، فكان ينهى عن المثلة فى خطبه ، وقال : "ولاتمثلوا" . وكان الصديق ينهى عن المثلة كما أسلفنا ، ولما قدم عليه عقبة بن أبى عامر برأس بياق البطريق ، أنكر ذلك

---

(١) ابن الأثير ، ٢/٢٧٦-٢٧٧ ؛ وانظر أيضا عن وصية الصديق ليزيد : الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٢ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، س١ ، م٢ ،ص١٧٠ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ١/٥٠ .

(٢) شفيق يموت ، أهل الذمة فى مختلف أطوارهم وعصورهم ، الشركة العالمية للكتاب مكتبة المدرسة ، دار الكتاب العالمى ، الدار الافريقية العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، ص١٥-١٦ ؛ شفيق جاسر ، تاريخ القدس ، ص١٦٦ [نقلا عن : ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٣٧] .

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣/١٩٣-١٩٤ .

(٤) النحل ، آية : ١٢٦

فلما قيل أنهم يفعلون ذلك بنا ، قال : فاستنان بفارس والروم ، لايحمل الى رأس فانما يكفى الكتاب والخبر(١).

أما الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكان يوصى أمراء الجيوش عند عقد الألوية فيما يخص الكفار بقوله : "وقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين ، ولاتمثلوا عند القدرة ، ولاتسرفوا عند الظهور ، ولاتقتلوا امرأة ولاهرما ولاوليدا ، ولاتغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا"(٢). وعن أسلم ، أن عمر بن الخطاب كتب الى أمراء الأجناد : "أن يقاتلوا فى سبيل الله ، ولايقاتلوا الا من قاتلهم ، ولايقتلوا النساء ولاالصبيان ، ولايقتلوا الا من جرت عليه الموسى "(٣).

وفى خطبته بالجابية(٤)من أرض الشام قال : "ألا وانى وجدت صلاح ماولانى الله الا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ألا وانى ماوجدت صلاح هذا المال الا بثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل"(٥).

ولما كتب على نصارى الشام شروط الذمة ، والتزموها ، أوصى بهم نوابه ومن يأتى بعده من الخلفاء وغيرهم ، وهذا هو العدل الذى أمر الله به ورسوله(٦).

---

(١) انظر : محمد بن ناصر الجعوان ، القتال فى الاسلام ، ص٢٢٢-٢٢٤ .

(٢) ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص

(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٥ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٥٧/١ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٤٢/١ .

(٤) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمال حوران . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٩١/٢) .

(٥) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ٥٤/١-٥٥ .

(٦) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٤/١ .

فقد كتب الى أبى عبيدة فى أمر أهل الشام : فاذا أخذت منهم الجزية فلاشىء لك عليهم ولاسبيل ، ... ، فاضرب عليهم الجزية ، وكف عنهم السبى ، وامنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم ، وأكل أموالهم الا بحقها وف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ماأعطيتهم(١).

وكتب عمر الى معاوية بن أبى سفيان : "أما بعد ، فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لايقضى الا بالحق ، والسلام"(٢).

ويؤكد رضى الله عنه على المسلمين تقوى الله فى أهل الذمة وعدم ظلمهم فى ساعة حكم فيها بصلب ذمى فحش بامرأة مسلمة فى الشام فقال "ياأيها الناس : اتقوا الله فى ذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولاتظلموهم ، فمن فعل فلاذمة له"(٣).

وكان يوصى بألا يكلفوا فوق طاقتهم ، وينهى عن تعذيبهم فى الجباية فقال عندما رأى أناسا يعذبون فى مسيره من الشام حتى يؤدوا الجزية : دعوهم ، ولاتكلفوهم مالايطيقون فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "**لاتعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة**"(٤)، وأمر باخلاء سبيلهم(٥).

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٨١-٢٨٣ (قال انه كتب بذلك فى شأن أهل الأردن ، بعد أن سأله أبو عبيدة أيقرهم على أن يؤدوا الجزية ، أو يقسمهم بين المسلمين ، لأن أرضهم فتحت عنوة ، واختلف المسلمون فى أمرهم) .

(٢) ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص١٥٤ .

(٣) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٩٢/٢ .

(٤) انظر : مسلم ، صحيح مسلم ، ٢٠١٨/٤ ؛ أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ٢٩٨/٨ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ، ٤٠٣/٣ (والحديث عندهم بلفظ آخر) .

(٥) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥٨ .

ومع عدل ورحمة واحسان يعامل بها عمر أهل الذمة ، فانه كان ينزلهم منازلهم ، وينهى المسلمين عن التخلق بأخلاقهم ، قال رضى الله عنه : "أهينوهم ولاتظلموهم ، فلقد سبوا الله مسبة ماسبه اياها أحد من البشر"(١). وقال : "سموهم ولاتكنوهم ، وأذلوهم ولاتظلموهم ، واذا جمعتكم واياهم طريق فالجئوهم الى أضيقها"(٢). ونهى عن تقليد الأعاجم فى الملبس والمركب والمأكل مما كان محرما(٣).

واستمر حرص الفاروق على الوفاء بالعهد وحفظ الذمة فى أهل الذمة حتى عند وفاته ، فكان مما أوصى به عند موته الى الخليفة من بعده : أوصى الخليفة من بعدى بذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وأن لايكلفوا فوق طاقتهم(٤).

وأضاف توفيق اليوزبكى(٥): وأوصيكم ألا ترخصوا أنفسكم ، ولالغيركم فى ظلم أهل الذمة ، ولاتغلقوا أبوابكم دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم .

قال ابن تيمية(٦)معقبا على وصيته : وهذا امتثال لقول النبى صلى الله عليه وسلم : "الا من ظلم معاهدا ، أو انتقصه من حقه ، أو كلفه فوق

---

(١) ابن القيم ، هداية الحيارى ، ص٢١١ .

(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

(٣) انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، ٣٧/٢ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤٠٣-٤٠٥،٤١٤ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٥٨ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص١٥٤ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص٤٩،٩٠،٢٥٧،٢٥٩ ؛ يحي بن آدم ، الخراج ، ص٧٠،٧١ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٣٥/١ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص٢٤٨ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١٠ ، ج١٩ ، ص٣٩-٤٠ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٤/١ .

(٥) تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١١٧ [نقلا عن : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٤٦/٢-٤٨] .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة .

طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة" ؛ فكان هذا فى النصارى الذين أدوا اليه الجزية(١).

أما عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد اشتمل أول كتاب كتبه الى عماله على عدد من الوصايا بأهل الذمة ، وهى : أن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة ، وأن يعطوا أهل الذمة الذى لهم ، ويأخذوهم بالذى عليهم(٢).

وكتب الى أمراء الأجناد أن يسيروا على ماوضع لهم عمر(٣). والى عمال الخراج أن يأخذوا الأموال بالحق ، والتزام الأمانة والوفاء ، وألايظلموا المعاهدين فان الله خصم لمن ظلمهم(٤).

كما أن لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، كثير من الوصايا بأهل الذمة وان كانت موجهة لعماله فى غير بلاد الشام ، لأنه لم يكن له سلطان عليها بخروج أميرها معاوية رضى الله عنه عليه ، غير أن من المفيد ذكر شىء منها ، لنتبين استمرار النهج الاسلامى فى حسن معاملة أهل الذمة عامة زمن الخلفاء الراشدين من خلال وصاياهم . فكان مما أوصى به أحد عماله "واعزز المسلمين ، ولاتظلم المعاهدين"(٥). وكتب الى عامله عمر بن مسلمة المرحبى : "أما بعد ، فان دهاقين عملك شكوا غلظتك ونظرت فى أمرهم فما رأيت خيرا ، فلتكن منزلتك بين منزلتين : جلباب لحين الطرف من الشدة فى غير ظلم ولانقص ، فانهم أحيونا صاغرين ، فخذ مالك عندهم وهم صاغرون ولاتتخذ من دون الله وليا ، فقد قال عز وجل : {**يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا**

---

(١) وانظر أيضا وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند أبى يوسف ، الخراج ، ص٢٥٧-٢٥٨ ؛ وقبل : ص٨٩-٩٠ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، ٤/٢٤٥ .

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/٢٠٠-٢٠١ .

بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ...} [١]، وقال جل وعز فى أهل الكتاب : {**ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء**...}[٢]، وقال تبارك وتعالى {**ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ...}[٣]. وقرعهم بخراجهم ، وقابل فى ورائهم واياك ودماءهم والسلام"[٤]. وأمر عاملا آخر له أن يعمر نهرا لأهل الذمة كان قد عفا وادفن[٥]، ولآخر ألا يعذبهم فى جباية ، ولايبيع لهم رزقا ولاكسوة ولادابة فى طلب ماعليهم من المال[٦]. ولأحد عماله : "ولاتظلم أهل الذمة ، ولاتتكبر فان الله لايحب المتكبرين"[٧].

وبالنظر فى وصايا الخلفاء الراشدين نجد أنها تستمد أصولها مما جاء فى كتاب الله عز وجل فى شأن معاملة النصارى وأهل الذمة عامة ، وسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، مقارنة بما عرفناه من نهجه من خلال دعوته للنصارى ووصاياه وفعله فى شأنهم ، وهى سياسة هدفها الدعوة الى الله بالحكمة ومايرغب الناس فى قبول الاسلام ، فجاءت دعوته صلى الله عليه وسلم متوجة بقول الله تعالى : {**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**}[٨].

وهدف الجهاد فى الكتاب والسنة واضح وهو مقيد بأنه فى سبيل الله لالأهداف أخرى ، فصدرت الأوامر والوصايا من أئمة المسلمين بالتزام ذلك والعمل به ، والأمثلة الدالة على طريقة المسلمين فى قتالهم ومعاملتهم

---

(١) آل عمران ، آية : ١١٨
(٢) المائدة ، آية : ٥١
(٣) المائدة ، آية : ٥١
(٤) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢٠٣/٢ .
(٥) نفس المصدر ، ٢٠٣/٢ .
(٦) يحي بن آدم ، الخراج ، ص٧٠-٧١ .
(٧) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١١٨ [نقلا عن : الطبرى ، تاريخ ، ٢٢٢/٥] .
(٨) آل عمران ، آية : ٦٤

لأعدائهم ، كلها رفق وسماحة ودعوة رغبة فى اعتناقهم الاسلام[(١)]. ونلخص وصايا الخلفاء الراشدين كما عرضناها : دعوة ، ومعاملة فى سمو وعدل ورحمة واحسان ، ثم وفاء وحكم بحق فى غير ظلم وتألف على الاسلام

ـ وصايا الخلفاء الأمويين :

وعرف بنو أمية حق أهل الذمة ، وخاصة نصارى الشام ، فأوصوا بهم . فقد ذكر ابن كثير[(٢)] وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد ، وفيها : "وأن يتوصى بأهل الشام ، وأن يجعلهم أنصاره ، وأن يعرف لهم حقهم" . وظاهر النص عام ، وقصده كما يبدو لى أنه يعنى المسلمين من أهل الشام ، غير أن معاوية وابنه يزيد استعانوا بنصارى الشام ، وأحسنوا معاملتهم . وأرسل عمر بن عبد العزيز الى أحد عماله يقول : "استبرىء الدواوين فانظر الى كل جور جاره من كان قبلى من حق مسلم أو معاهد فرده عليه ، فان كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم"[(٣)]. وأوصى أمير الصائفة : "وفاد من قدرت عليه من المسلمين وأرقائهم وأهل ذمتهم"[(٤)]. وأمر موصيا : "لاتقتلوا راهبا ولاأكارا"[(٥)].

كما حفظ بعض الصحابة وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الذمة ، ودعوا على الوفاء بذمته ، وكرهوا ظلم أهل الذمة ، من ذلك مارواه أبو يوسف[(٦)] عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من أصحاب رسول الله عليه السلام ، أنه مر على قوم قدأقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ،

---

(١) محمد ناصر الجعوان ، القتال فى الاسلام ، ص١٣٢-١٣٣ .
(٢) البداية والنهاية ، ١١٩/٨ .
(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٤٢/٥-٣٤٣ .
(٤) ابن سعد ، نفس المصدر ، ٣٦٩/٥ .
(٥) يحي بن آدم ، الخراج ، ص٤٨ . وسيجد القارىء فى ثنايا الحديث عن معاملة المسلمين لنصارى الشام فى جوانب الحياة المختلفة وصايا أخرى بحسن معاملتهم .
(٦) الخراج ، ص٢٥٧ .

فقال ماشأن هؤلاء؟ فقيل له : أقيموا فى الشمس فى الجزية ، قال : فكره ذلك ، ودخل على أميرهم ، فقال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذب الناس عذبه الله"(١).

وروى عن هشام بن حكيم بن حزام مثل ذلك(٢).

---

(١) لم أجد هذا الحديث . ومعناه كالحديث السابق . انظر قبل : ص١٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

*** عرض مجمل للفتح الاسلامى لبلاد الشام كحركة دعوة :**

سأعرض لفتوحات بلاد الشام[1] دون استقصاء لأخبارها ، ولاتفصيل لحوادثها ، ولاتحقيق أو دراسة ونقد لمروياتها ، الا ماتدعونا أهميته لذلك ، أو تتم به الفائدة ويكون الوضوح .

وآخذ بما رجح لدى ، أو لدى الباحثين السابقين ، عن مسار الفتح ، وأخباره ، وترتيب حوادثه ، والتأريخ لها .

لأن الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، كحركة عسكرية ليست محور دراستنا ، غير أنه يهمنا عرض موجز لها ، لأنها الوسيلة التى أخضعت بلاد الشام للحكم الاسلامى ، والأرضية التى قامت عليها أسس العلاقات بين الحكام المسلمين الفاتحين ونصارى الشام الذين استظلوا على اثر تلك الفتوحات بمظلة الحكم الاسلامى . كما أن تلك الفتوحات قد انبثقت عنها عهود الصلح والأمان التى أعطيت لأهل الذمة ، وهى أحد الأسس التى قامت عليها معاملة المسلمين لنصارى الشام ، اضافة لأحكام أهل الذمة العامة فى الشريعة الاسلامية . زد على ذلك وضوح التصور لتغير وضع بلاد الشام سياسيا وعقديا وحضاريا بانتقاله من الحكم البيزنطى الى الحكم الاسلامى .

لقد جاءت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصارى الشام الى الاسلام ، لعموم رسالته ، ثم جاءت غزواته وسراياها الى بلاد الشام قياما بواجب الجهاد فى سبيل الله الهادف الى ازالة العقبات التى اعترضت طريق الدعوة والمتمثلة فى الحكومات الكافرة التى لم تستجب لدعوته السلمية ،

---

(١) عن مصادر الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، انظر : كوركيس عواد ، مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص٢٥-٦٤ .
وانظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٥-١٧٦ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٣٨٧-٤١٨،٤٣٤-٤٤٤،٥٩٨-٦١٣ ، ٤/٥٠-٥٢،٥٦-٦٠ .

وسبيلا آخر لاعلاء كلمة الله ، وتحقيقا لمبدأ الموالاة فى الدعوة والجهاد[١]، والتى كانت بمثابة مقدمات لفتح بلاد الشام[٢].

وقد قام خلفاؤه رضى الله عنهم ، بدينه صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا سبيله ، وأتموا مابدأه ، فبعث أبو بكر الصديق الجيوش لجهاد النصارى بالشام ، وتم فتح عامة بلاد الشام فى خلافة عمر بن الخطاب[٣]. يبين هذا رد معاذ بن جبل رضى الله عنه على الروم وكان مفاوضا لهم عن المسلمين فى فحل لما سألوه : ماالذى أدخلكم فى بلادنا وتركتم الحبشة وأرض الفرس؟ لما قال :"فان السبيل فيكم وفيهم واحد ، لأن الله تبارك وتعالى قال لنا فى كتابه : {**ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ليجدوا فيكم غلظة**}[٤]فكنتم أقرب الينا منهم ، فقدمنا نحن اليكم ، وقد بعث صاحبنا الى أولئك الذين بالعراق من الفرس طائفة أخرى يقاتلونهم كما نقاتلكم ، ونحن نرجو أن يفتح الله علينا وعليهم ان شاء الله عز وجل"[٥].

---

(١) انظر الآيات الدالة على الموالاة فى الدعوة والقتال قبل : ص٧٨ .

(٢) بحث احسان عباس فى المؤشرات والارهاصات التى تومىء الى حدوث فتوحات بلاد الشام ، سواء الدعوة السلمية ، أو الغزوات النبوية ، أو البشارات والنبوءات ، أو الاقطاعات؟ وخلص الى أنها دلت على أن فتح الشام أمرا حتمى الحدوث ، وان كان قد ظل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مجرد حقيقة محتملة ، وأن أعماله العسكرية كانت فى مجملها ردود فعل ، الا أن أبا بكر الصديق هو الذى نقل الفتح من مرحلة الاحتمال الى مرحلة الضرورة . وأن المؤشرات التى حدثت زمن الرسول عليه السلام أدت الى اذكاء الروح المعنوية للمسلمين عند الفتح . (فتح بلاد الشام "مؤشرات وارهاصات" ، م٢ ، ص١٣-٢٤).

(٣) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٢/١ .

(٤) التوبة ، آية : ١٢٣

(٥) ابن أعثم ، الفتوح ، ١٤٤/١-١٤٥ ، وانظر كتاب خالد بن الوليد الى ملوك فارس يدعوهم الى الاسلام ، فان استجابوا ، اجتازهم المسلمون الى غيرهم . مما يدل على وضوح مبدأ الموالاة . (الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٧٠/٢) .

وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام ، فذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عددا كبيرا من بشاراته ونبوءاته عليه السلام ، ومن ذلك نبوءته بفتح قصور الروم وهو يحفر الخندق حين زحفت الأحزاب الى المدينة(١). كما أن من الآثار الدالة على علمه صلى الله عليه وسلم بفتح بلاد الشام ، وأنه حادث لامحالة باذن الله ، أنه أقطع بعض القطائع فى بلاد الشام وهى تحت حكم الروم لبعض أصحابه ، وهم تميم الدارى وأخيه ، وأبى ثعلبة الخشنى ، والأزرق الغسانى(٢).

وكان بعض نصارى الشام على علم بأن المسلمين يفتحون الشام ، ومنهم هرقل امبراطور الروم(٣)، وجبلة بن الأيهم(٤).

وبعض علمائهم كالراهب الذى مر عليه عمر بن الخطاب فى أحد رحلاته الى بلاد الشام فى الجاهلية فعرف من صفته أنه الذى يفتح بلاد الشام فطلب منه أن يكتب له أمانا له ولديره ، وهو صاحب دير العدس فكتب له ماأراد ولم يكن عمر مصدقا بما يقول ، فلما قدم الفاروق الشام بعد فتحها ، أتاه ذلك الراهب بأمانه وطلب أن يوفى له عمر بما فيه ، فأباه ، الا بشرط : ضيافة المسلمين وهدايتهم الطريق ، وتمريض المريض ، فقبل ، فوفى له بعهده(٥). وان صحت هذه الرواية ، فان عدم امضاء عمر للكتاب الا بتلك الشروط ، لأنه لم يكن ملزما بالوفاء ، حيث كتبه فى الجاهلية .

فلما استخلف أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت بواكير عمله تدل على التزامه بواجب الامامة فى حراسة

---

(١) أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام) ، دار النفائس ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٢٧ . وانظر : ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٤٤-١٤٩ .

(٢) صالح درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١١٦،١١٧ .

(٣) انظر قوله لأبى سفيان لما جاءه كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام : "فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ماتحت قدمى هاتين" . أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٣٦ .

(٤) انظر قبل : ص٧٦ .

(٥) ابن منظور ، نفس المصدر ، م٩ ، ج١٨ ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

الدين وسياسة الدنيا به ، واعلاء كلمة الله دعوة وجهادا . ففى خطبته التى أعلن فيها سياسته بين أهمية الجهاد وحث الناس عليه كوسيلة لنشر الدعوة الاسلامية[١]. وأنفذ بعث أسامة بن زيد . وكان صلى الله عليه وسلم قد عقد لواء لأسامة بن زيد بن حارثة فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فى آخر يوم من صفر سنة (١١هـ/٦٣٢م) ، وأمره أن يغير على أبنى[٢]، والداروم[٣]، وقيل : الى آبل الزيت[٣]، حيث قتل أبوه وغيره فى غزوة مؤتة ، غير أن البعث تأخر عن الخروج لمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظل معسكرا فى الجرف[٥]حتى وفاته عليه السلام ، فلما تولى أبو بكر سير أسامة فى آخر شهر ربيع الأول الى الجهة التى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ولم يقبل مشورة بعض الصحابة بابقاء الجيش لحاجة المسلمين له فى مواجهة حركة الردة ، فبث أسامة الخيول فى قضاعة وحارب بمن معه ومن ثبت على اسلامه منهم من ارتد عن الاسلام ، ثم أغار على آبل وأبنى ، فنصر وغنم وعاد سالما بعد نحو من أربعين يوما[٦].

---

(١) جميل المصرى ، تاريخ الدعوة الاسلامية ، ص٢٤١ .

(٢) أبنى : موضع بالشام من جهة البلقاء ، وفى كتاب نصر : أبنى قرية بمؤتة . (ياقوت معجم البلدان ، ٧٩/١) .

(٣) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر بينها وبين البحر مقدار فرسخ فتحها المسلمون سنة ١٣هـ . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٤٢٤/٢) . وقال فى تعريف : داروما : احدى المدن بفلسطين ولعلها الداروم (نفسه) .

(٤) آبل الزيت : بالأردن من مشارف الشام . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٥٠/١) .

(٥) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١٢٨/٢) .

(٦) عن حملة أسامة بن زيد ، انظر : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٠٠-١٠١ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٢٦-٤٢٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٧٦/٢-٧٧ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٨٤/٣-١٨٦،٢٢٣-٢٢٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢١٥/٢، ٢٢٦-٢٢٧ ؛ المقدسى ، البدء والتاريخ ، م٢ ، ج٥ ، ص١٥٢ ، ٢٤١/٤ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٧٢-١٧٤،١٧٥،١٧٨ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص١١-١٢ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٤٤٩/١ .

ونتج عن ذلك اخافة مرتدى العرب عامة[١]، ومرتدى عرب أطراف الشام من قضاعة الذين بث فيهم أسامة خيله ، فهربوا من وجهه ، ولجأوا الى دومة[٢]، ووقوع هيبة المسلمين فى قلوب الروم ، فبعثوا حامية ترابط بالبلقاء ، حتى قدمت جيوش الفتح[٣]. الى جانب تحقيق هدفها الذى من أجله بعثت . كما ولاشك أن تلك الحملة بعد القضاء على حركة الردة قد مهدت الطريق للفاتحين الى بلاد الشام ، فقد قضى الصديق على ردة قبائل أطراف الشام ، بتوجيه بعض الألوية التى استهدفت ذلك ، فقد وجه خالد ابن سعيد بن العاص الى الحمقتين من مشارف الشام ، وعمرو بن العاص الى جماع قضاعة ووديعة والحارث ، وشرحبيل بن حسنة الى قضاعة بعد اليمامة[٤]، فكانت حملة أسامة حلقة ربطت بين أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم الحربية ، وحروب الردة فى عهد أبى بكر ، ومن ثم فتوح الشام[٥].

وبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردة[٦]، وأعاد سلطان الدولة الاسلامية على جزيرة العرب ، استأنف الدعوة الى الله ، ووجه الجيوش لفتح بلاد فارس مطلع سنة ١٢هـ/٦٣٣م ، وماكاد يتم الفاتحون السيطرة على العراق العربى بقيادة خالد بن الوليد ، حتى وجه همه لحرب الروم وفتح

---

(١) يقول ابن الأثير : "فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه" . الكامل ، ٢٢٧/٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٤٣/٣ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٧٢-١٧٣ .

(٣) أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص١٥٥ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٢٤٩/٣ .

(٥) أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٥٦ .

(٦) عن حروب الردة ، انظر : الواقدى ، كتاب الردة مع نبذة مختصرة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيبانى ، رواية ابن أعثم الكوفى ، تحقيق يحي الجبورى ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م الطبرى ، نفس المصدر ، ٢٢٧/٣-٣٤٢ .

بلاد الشام[١]. وكان أبو بكر يحدث نفسه بفتح الشام ولم يطلع على ذلك أحدا ، فجاءه شرحبيل بن حسنة[٢]، وسأل الصديق هل يفكر بفتح الشام ، فأخبره أنه يحدث نفسه بذلك ، وسأله عن سبب سؤاله ، فأخبره أنه رأى رؤيا والصديق يجاهد أعداء الله بالشام ، وقص عليه الرؤيا ، ففرح بها أبو بكر وعبر رؤياه أنها بشرى بفتح الشام ، وأنه نعى الى أبى بكر نفسه[٣].

وفى (٣٠ ربيع الأول سنة ١٢هـ/١٢-١٤ يونيه ٦٣٣م) دعا أبو بكر كبار الصحابة أهل الشورى والحل والعقد ، وعلى رأسهم عمر وعثمان وعلى والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ووجوه المهاجرين والأنصار وأخبرهم بعزمه جهاد الروم بالشام ، وسألهم المشورة ، فوافقوه.، وأبدوا رأيهم فى الخطط المناسبة بفتح بلاد الشام ، وبشروه بالنصر والتأييد[٤].

فجمع أبو بكر المسلمين وخطبهم ، ودعاهم لجهاد نصارى الشام وغزو الروم ، وأمرهم بالتجهز للخروج ، وأيده عمر ، فكان خالد بن سعيد بن

---

(١) انظر : أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص١٥٩-١٦٠ .

(٢) شرحبيل بن عبد الله بن المطاع الغوثى الكندى ، وهو شرحبيل بن حسنة ، وحسنة أمه وقيل انها تبنته . حليف بنى زهرة ، له صحبة ، وهو من مهاجرة الحبشة ، وكان واليا على الشام لعمر على ربع من أرباعها ، وهو الذى فتح طبرية وكان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصر . توفى بالشام سنة ١٨هـ عن ٦٧ سنة . (ابن حجر ، تهذيب ، ٢٨٥/٤) .
وقال الذهبى : كان أحد الأمراء الأربعة الذين أمرهم أبو بكر الصديق (الخلفاء الراشدون من تاريخ الاسلام ، ص٧٢) .

(٣) أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٦٠-١٦٢ .

(٤) أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٦٢-١٦٥ . والمصادر لاتؤرخ لحادث الرؤيا والمشورة . وانما لتوجيه الجيوش مطلع سنة ١٣هـ . وهذا تاريخ تقريبى ، اجتهادا من أحمد عادل كمال بناء على بعض القرائن . انظر : الطريق الى دمشق ، ص٢٤٩-٢٥٩ .

العاص[1] أول من أجابه[2]. وكان أبو بكر قد استنفر المسلمين وكتب اليهم يدعوهم لجهاد الروم ، فلما اجتمعوا اليه بالمدينة وقد عسكروا فى الجرف ، عقد أول لواء لخالد بن سعيد ، ثم عزله بمشورة عمر بن الخطاب عن القيادة وجعله ردءا للمسلمين بتيماء[3].

وعقد أبو بكر الألوية لأمراء الجند ووجه الجيوش لفتح بلاد الشام ، وذلك يوم الخميس مستهل شهر صفر سنة ١٣هـ/٦٣٤م ، فعقد لأبى عبيدة عامر بن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ؛ وعين لهم الطرق التى يسلكونها ، ووجهة كل منهم ، ثم أوصاهم ، وودعهم ، وجعل رضى الله عنه يمدهم بالامداد ، حتى ظن أنهم اكتفوا ، وأنهم لايريدون أن يزدادو رجلا واحدا ؛ وقد أعانهم بخالد بن الوليد فى نصف جيش العراق ، وظل يكاتبهم ويسدى اليهم الرأى والمشورة[4].

ويمكن تقسيم الفتوحات فى بلاد الشام على مرحلتين :

الأولى : اصطدامات متفرقة خاضها الأمراء الأربعة ، وكذلك خالد بن الوليد كل فى طريقه حين وطئوا أرض الشام ، كوقعة وادى عربة ، والداثنة ، وفتح مآب ، وفتح تدمر وغيرها .

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى أحد السابقين الأولين ، وخامس من أسلم ، وممن هاجر الى الحبشة وهاجر مع جعفر بن أبى طالب زمن خيبر الى المدينة ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على صنعاء ، وأمره أبو بكر على بعض الجيش فى غزو الشام ، استشهد يوم أجنادين . (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٢٥٩/١-٢٦٠) .

(٢) أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص١٦٥-١٦٧ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٨/٣، ٣٨٩ ؛ أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٦٨-١٧٠ .

(٤) عن توجيه أبى بكر رضى الله عنه الجيوش لفتح الشام ، انظر : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١١٩ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٣٣-٤٣، ٥٢ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٥-١١٧ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص٢٨٤ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٣٨٧/٣-٣٩٤ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٠٠/٢-٢٠١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٧٥/٢-٢٨١ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٣٥-٣٦ ؛ أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص١٦٨ ومابعدها .

والثانية : معارك كبرى خاضها المسلمون ضد الروم بعد اجتماعهم فى جيش واحد ، وبدأت بفتح بصرى[(١)].

والمتتبع لسير الفتوحات الاسلامية ، ومراحلها يلاحظ أن أبا بكر فى المرحلة الأولى حرص على نشر الاسلام بين قبائل العرب المتنصرة فى جنوب بلاد الشام أولا ، وخاصة فى الأرياف والبوادى ، كما يتضح من توجيهه خالد بن سعيد الى تيماء ودعوته من حوله الى الاسلام والانضمام اليه ، وألا يغزو الروم الا بأمره ، وكذلك أمره أبو عبيدة بن الجراح أن يبدأ بفتح القرى والسواد وألا يحاصر مدينة الا بعد أمره . وذلك دليل على الموالاة فى الدعوة والجهاد ، وتقديم العرب على غيرهم ، واشارة الى معرفة المسلمين بأحوال بلاد الشام من خلال علاقتهم التجارية مع أهل تلك البلاد فى الجاهلية ؛ وأن الصديق عمل على تجنب صدام الروم لأول وهله لأن المدن الشامية الكبرى فى عمق الشام كانت مستقر القوى الرومية العسكرية ، وأهل الشام من غير العرب ، وليقوى المسلمون بما فتحوه من أرض عرب الشام ومن انضم اليهم منهم وليؤمن طرق الامداد ويحمى ظهر المسلمين عند تقدمهم ، كما عين لهم طرق سيرهم ووجهة كل منهم . وكل ذلك يدل على وضوح الهدف ، ومعرفة البلاد التى يراد فتحها ودعوة أهلها ، سكانيا وجغرافيا وسياسيا ، وأن حركة الفتح حدثت وفق تخطيط مسبق ، استهدف نجاح الدعوة وتحقيق النصر[(٢)].

غير أن مصادر الفتوحات تقدم لنا روايات مختلفة متناقضة وبالأخص عن خط سير الجيوش وترتيب المعارك وفتح بعض المدن وتاريخها .

---

(١) شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٢م ، ص٣٧-٤٤ .

(٢) انظر : نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٥١-١٥٢،١٦٤-١٦٦ ؛ نقولا زيادة ، التطور الادارى لبلاد الشام ، ص١٢٣ .

يقـول أحمد عادل كمـال [١] وهـو يبين منهجـه فى كتـابه الطـريق الى دمشـق : يشكـو الكتاب من كثرةالاختلافـات والتناقضـات فى الـروايات التى رواهــا رواة فتـوح الشـام ، وفتــوح الشـام حربا لهــا جانب استراتيجــى وتكتيكــى . فعلى المستـوى التكتيكـى لم نكد نجد خلافـا يتعـذر علاجه ، بل العكـس هـو الغالب ، فان الـروايات تكمـل بعضها بعضـا وتتمـه أكثر ممـا تناقضه . أما على المستوى الاستراتيجى ، فقد كانت هناك بالفعل خلافات فى الروايات حول المسارات وأى المعارك قبل ، وأيها كان بعـد . وتبين لنا أن هناك معارك أساسية وأخرى جانبية تصل لمستوى المنــاوشات . ومن الصنف الأخير العــربة [٢] وداثن [٣] ومـآب وشيزر [٤] والزراعـة [٥] والقسطل [٦]

---

(١) انظـر : ص٤٧-٥١ ؛ ووافقـه جاسـر أبو صفيـة ، فى ترتيـب الحوادث الأولى على النحـو المذكور ، وهو يعمل على الوصول الى التاريخ الأرجح لمعـركة اليرموك ، وفق ماذهب اليه جمهور المؤرخين . انظر : معركة اليرموك دراسـة تاريخية نقدية ، بحث ضمـن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، النـدوة الثانية ، بلاد الشـام فى صدر الاسلام ، الجامعـة الأردنية وجامعة اليرمـوك ، عمـان ، ١٩٨٧م ، م٣ ، ص١٢٣-١٣٠ .

(٢) عربة : موضع فى أرض فلسطين ، بها أوقع أبو أمامة الباهلى بالــروم لما بعثه يزيد ابن أبى سفيان . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/٩٦) .

(٣) داثن : ناحيـة قـرب غزة بأعمال فلسطين بالشـام ، وبها أوقـع المسلمـون بالروم ، وهى أول حرب بينهم . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٢/٤١٧) .

(٤) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حمـاة يوم . (ياقوت نفس المصدر ، ٣/٣٨٣) .

(٥) الـزراعة : عـدة مواضع بالشام مـن فلسطين والأردن . (ياقـوت ، نفـس المصدر ، ٣/١٣٥) .

(٦) القسطـل : موضع بين حمص ودمشـق ، وقيل : هو اسم كـورة هناك ، وقسطل : موضع قرب البلقاء من أرض دمشـق فى طريق المدينة . (ياقـوت ، نفس المصدر ، ٤/٣٤٧) . وأراه الأخير ، لأنه على طريق الفاتحين الى الشام .

والمعرة (١) وأفامية (٢) وسبسطية (٣) وغيرها . أما المعارك الأساسية وخاصة الأولى منها والتى وقعت فيما بين عام ١٣هـ وعام ١٥هـ ، فيما بعد التقاء الجيوش فى بصرى ، نستطيع أن نستخلص أن المعارك الأساسية التى حددت استراتيجية فتح الشام ومساره هى الخمس التى وقعت فى أجنادين (٤)، وفحل (٥)، ودمشق ، وحمص ، واليرموك (٦). وأنها وقعت على سفوح اقليم الجبال الشرقية أدنى الغور ماعدا اجنادين فى الجنوب ، فلما اندحرت القوات البيزنطية الأساسية هناك اجتاز المسلمون جبال لبنان الى المدن الساحلية فتم فتحها بعد معارك أخرى بين القوتين .

ولايسعنا الا أن نرى أن اختلاف الروايات حول مسار الفتح لم يعدله ذلك الأثر الاستراتيجى ، فسواء كان ترتيب المعارك أجنادين ثم فحل ثم دمشق ، أو كان أجنادين ثم دمشق ثم فحل فاننا فى نهاية المطاف نجد نفس النتيجة كما لو جمعنا س + ص + ع ، أو س + ع + ص . وطبقا للروايات نجد شبه اجماع على ترتيب مسار فتح الشام يعتبر من خرج عنه فى بعض أجزائه شذوذا عنه على النحو التالى : بصرى ، أجنادين ، فحل ، دمشق ، حمص ، واليرموك .

---

(١) المعرة : بالشام معرة مصرين ، وهى : بليدة وكورة بنواحى حلب ؛ ومعرة النعمان ، وهى : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٥/١٥٥-١٥٦) .

(٢) أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام من كور حمص ، وتسمى "فامية" . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١/٢٧٧) .

(٣) سبطية : يقال أنها مدينة قرب سميساط وتعد من أعمالها فى أعلى الفرات ، والمشهور : أنها بلدة من نواحى فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان ، وهى من أعمال نابلس . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٣/١٨٤) .

(٤) أجنادين : موضع بالشام من نواحى فلسطين ، من أعمال الرملة من كورة بيت جبرين . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١/١٠٣-١٠٤) .

(٥) فحل : موضع بالشام ، كان فيه وقعة للمسلمين مع الروم . وكان يوم فحل يسمى يوم الردغة أيضا ويوم بيسان . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٤/٢٣٧) .

(٦) اليرموك : واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الأردن . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٥/٤٣٤) .

ونستطيع أن نعرض الآن لحوادث الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ، على ضوء ماقدمناه من أقوال الباحثين [(١)] في ترتيب تلك الفتوحات ، ومارجح لديهم من الأخبار .

فالطبرى [(٢)] ينقل أن هرقل لما بلغه دخول الجيوش الاسلامية الأربعة بلاد الشام عزم أن يحارب كل جيش على حدة ، لكثرة رجاله . فأرسل لكل واحد جيشا كبيرا ، فكتب المسلمون لبعضهم البعض ، وبعثوا الى الخليفة أبى بكر يستشيرونه .

فرأى عمرو بن العاص اجتماع الجيوش الأربعة ، ووافق رأى الصديق مارأى عمرو ، فاتعدوا على الالتقاء فى اليرموك . فأمر هرقل جنده بالاجتماع لهم .

ويقول أحمد عادل كمال [(٣)]: أن الرواه يتفقون على أن جيوش المسلمين التقت عند بصرى ، فحارب المسلمون الروم مجتمعين فى المعارك الأساسية الأولى ، وهى : بصرى ، أجنادين ، فحل ، دمشق ، حمص ، اليرموك . وقد التقى خالد بن الوليد الذى أمره أبو بكر بالقدوم الى الشام بالمسلمين عند بصرى ، ففتحها الله على يديهم صلحا فى ربيع الأول سنة (١٣هـ/مايو ٦٣٤م) .

ويقول ابن خياط وغيره [(٤)]: أن بصرى [(٥)] أول مدينة فتحت صلحا فى الشام .

---

(١) وقدم سعيد عاشور عرضا موجزا لفتح بلاد الشام ، انظر بحثه : الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامى لبلاد الشام ، ص٢١٢-٢١٨ .

(٢) تاريخ الأمم ، ٣٩٢/٣-٣٩٣ .

(٣) الطريق الى دمشق ، ص٤٨ .

(٤) تاريخ ابن خياط ، ص١١٩ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٤١٠/٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٨٦/٢ ؛ القلقشندى ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، ٨٥/١ .

(٥) بصرى : هى قصبة كورة حوران من أعمال دمشق بالشام . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٤١/١) .

غير أن الطبرى[١] يفيد أن أول صلح كان بالشام صلح مآب .

والصحيح أن لاخلاف ، فمآب أول بلدة صالح أهلها المسلمون ، لكنها فسطاط وليست بمدينة كما يقول الطبرى[٢]. بينما كانت بصرى أول مدينة . ويستدرك حسن بن على الحارثى[٣] على من قال أن بصرى أول مدينة تفتح صلحا فى الشام ، بأن خالد بن الوليد قد صالح أهل تدمر[٤] وهو فى طريقه الى الشام ، فتكون بصرى أول مدينة شامية تفتح صلحا بجند دمشق ، لافى الشام عامة . وأرى أن المقصود عند المؤرخين المسلمين أن بصرى أول مدينة فتحت فى الشام صلحا ، أى بعد اجتماع المسلمين فى جيش واحد ، ولم يلتفتوا لفتوح أبى عبيدة قبل ذلك ومنها مآب ، ولافتوح خالد ومنها تدمر . والله أعلم .

ثم سار الجيش الاسلامى الى الروم الذين عسكرت جموعهم فى أجنادين[٥]، فحدثت معركة أجنادين فى جمادى الأولى سنة (١٣هـ/٦٣٤م)

---

(١) تاريخ الأمم ٤٠٦/٣ ، وانظر : ابن حبيش ، غزوات ، م٢ ، ص١٨٢-١٨٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٣١/٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، رسالة ماجستير فى الحضارة والنظم الاسلامية ، لم تنشر ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، مكة ، ١٤٠٨هـ ، ص٢٩٨ .

(٤) تدمر : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام ، صالح أهلها خالد بن الوليد فى طريقه من العراق الى الشام . (ياقوت ، نفس المصدر ، ١٧/٢-١٨) .
وكان خالد بعد أن فوز من قرار الى سوى يريد الشام ، أغار على أهل سوى واكتسح أموالهم والمصيخ ، وصالحه أهل أرك ، وحاصر تدمر ولم يقدر عليها ثم تركها فصالحه أهلها عند انصرافه ، وظفر بالقريتين ، وأوقع بأهل حوارين ، وصالحه بنو مشجعة فى قصم ، وأغار على غسان فى مرج راهط وأوقع بأهل الغوطة . ثم نزل على بصرى الشام ففتحها . (انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٠٧/٣-٤١١) .

(٥) كتب ناصر الدين الأسد ، بحثا عن أجنادين ، مصادرها ، ورواياتها ، خبرها وتاريخها دراسة تحليلية . وخلص أن الاختلاف بين المرويات لايمكن الوصول الى حقيقته ، وسلم بأن تلخيص مافى مصادر جمهور المؤرخين بنبذ رواية سيف عنها =

قبل وفاة أبى بكر بأربع وعشرين ليلة ، وهى أول وقعة عظيمة بالشام بين المسلمين والروم ، وكان النصر فيها للمسلمين . ثم مرج الصفر فى جمادى الآخرة سنة (١٣هـ/١٨ أغسطس ٦٣٤م) ، ثم وقعة فحل بيسان فى ذى القعدة من سنة (١٣هـ/يناير ٦٣٥م) . ثم فتحت دمشق صلحا فى (رجب سنة ١٤هـ/ سبتمبر/أيلول ٦٣٥م) بعد حصار شديد دام نحو أربعة أشهر(١).

ثم فتحت بعلبك فى (ربيع الأول سنة ١٥هـ/مايو - أيار ٦٣٦م) صلحا ومنها الى حمص التى تركها هرقل الى انطاكية ، ففتح المسلمون حمص صلحا فى (ربيع الآخر سنة ١٥هـ/يونيه ٦٣٦م)(٢).

ولما دخل المسلمون حمص وجه أبو عبيدة منها طلائعه فى اثر القوات الرومية المنهزمة ، نحو حلب ، وأخرى تجاه الجزيرة . وكتب أبو عبيدة بالنصر والفتح الى عمر ، فأمره عمر بضم قواته اليه ، وايقاف الفتوحات حتى نهاية العام(٣).

وكان الروم قد لاذ المنهزمون منهم بهرقل فى أنطاكية ، وخرجت طائفة من فرسانهم وعظمائهم وذوى الأموال والغناء ممن كان واطن الشام فدخلوا قيسارية(٤)، وتحصن أهل فلسطين بايلياء(٥).

= تكون كما بيناه فى المتن . انظر : وقعة أجنادين دراسة تحليلية للمصادر والروايات بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ص٢٨٥-٣٢١ .

(١) عن وقعة فحل وفتح دمشق ، انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤٣٤-٤٤٣ .

(٢) عن مدينة حمص وفتحها ، انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٣/٥٩٩-٦٠١ ؛ سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢١٩-٢٥٤ .

(٣) انظر عن تفاصيل هذه الفتوحات : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٠-١٤٠ ؛ أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص٢٦٠-٤١٢ ؛ جاسر أبو صفية ، معركة اليرموك ، ص١٢٨-١٣٠ .

(٤) لعل هذا يفسر لنا سر صمود قيسارية أمام محاولات المسلمين لفتحها وقتا طويلا ؛ آخذين بالاعتبار وصول الامدادات اليها عن طريق البحر وان حاصرها المسلمون برا .

(٥) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٩ .

وقد استأثرت معركة اليرموك وقائد المسلمين فيها خالد بن الوليد باهتمام كثير من الباحثين المهتمين بالفتوحات الاسلامية عامة ، وتاريخ بلاد الشام خاصة ، باعتبارها أحد المعارك الحاسمة ، ولما أبداه قائدها من العبقرية العسكرية ، وماتوفر للمسلمين من عوامل أدت الى نصر غير متوقع عند من يقيسون النصر بالموازين المادية لكلا الفريقين .

فأحمد عادل كمال أفرد لها فى كتابه الطريق الى دمشق بابا من مئة وخمس صفحات(١)، فصل الحديث عنها وأبدى آراءه فى كثير من أخبارها وماختلف فيه المؤرخون وأبان ماغمض وفسر رموزه .

ولجاسر أبو صفية بحث بعنوان "معركة اليرموك : دراسة تاريخية نقدية"(٢). أشار فيه الى أهمية المعركة ، وأهم الروايات حولها ، وتأريخ المؤرخين لها ، وقول جمهور المؤرخين فى تسلسل حوادث فتح الشام حتى اليرموك وبالتالى التاريخ الأرجح الذى اختاره ، وهو شهر رجب سنة ١٥هـ . وقد اختاره أيضا أحمد عادل كمال . وكتب عنها عرفان شهيد بحثا بعنوان أسرار النصر العربى فى فتوح الشام : معركة اليرموك(٣)، وركز على دور خالد القيادى فيها وعبقريته العسكرية مقارنة ببعض مشاهير القادة العالميين على مر التاريخ .

وجملة القول عن معركة اليرموك من خلال هذه الدراسات ، أنه لما بلغ هرقل خبر الانتصارات الاسلامية المتتالية وماتعرضت له جيوشه من هزائم أمام المسلمين الذين وصلوا حمص . أراد الخروج من الشام ، لكن بعض قومه دعوه للدفاع عن سورية ، فقد وصل اليه وفد أهل قيسارية وفلسطين يخبرونه بقاءهم على طاعته ويستنصرونه ، فعزم على البقاء ، وكتب

---

(١) ص٤٠٣-٥٠٧ .
(٢) م٣ ، ص١٢٣-١٣٥ .
(٣) بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٣ ، ص١٣٧-١٤٧ .

الى أهـل دين النصـرانية فى أن يحشـروا اليـه الجنـد مـن جميع أقطـار امبراطوريته من القسطنطينية ورومية وأرمينية وغيرها ، واجتمع اليه من ظل على طـاعته مـن متنصرة العـرب من غسان ولخم وجذام وبلى وعـاملة وعلى رأسهم جبلة بن الأيهم ، فاجتمع له مئتى ألف (على خلاف فى العدد) ، عقد لهم الألوية ، وجعل قيادتهم لباهان الأرمنى .

ولما بلـغ المسلمون نبأ تجييـش هرقل لقوى النصرانيـة فى وجه الفاتحين المسلمين رأوا الانسحـاب من البلاد التى تم فتحهـا الى اليرمـوك فى الجنـوب الأقـرب الى جزيرة العرب ، حمـاية لظهرهم ، ولضمـان وصـول الامدادات اليهم ومنعا لقطع الطريق عليهم والالتفاف من خلفهم ، وأعـدوا للقاء عدته ايمانا وصبرا واعـدادا وتخطيطـا ، سلاحهم الايمان ، وناصـرهم الرحمن . وفى اليرمـوك التقـى المسلمون وعـددهم ٤٦ ألـف (على خلاف) فيهـم ألـف من أصحـاب رسول الله صلى اللـه عليه وسلم منهم مئة مـن أهل بدر ، والروم ومن حالفهم من أهل دين النصرانية ، فى معركة حاسمة ستحدد مصير الفتح بعدها . وعلى نهج الاسلام حرص المسلمون على دعوة النصارى قبل القتال ، فأبوا الاسلام ، ولم يرضـوا الجزية ، فكـان القتـال ، وذلـك فى رجب سنـة ١٥هـ[١]، وأمير النـاس أبو عبيـدة بن الجراح الـذى أعطـى القيـادة لخالد بن الوليد . ودارت رحى المعركة فى قتال لم يعرف له المسلمون مثيلا ، فطحنت الحرب برحاهـا قـوى الكفـر ، فهـزم اللـه الروم وحلفـاءهم مـن أهـل دين النصرانية ، ونصر عباده المؤمنين ، ومالنصر الا من عند الله[٢].

وعليـه فان معركة اليرموك تعد من المعارك الفاصلـة فى تاريخ الاسلام لما ترتب عليهـا مـن سقـوط الشـام فى أيدى المسلمين ، وبدء انهيـار سلطـان

---

(١) بذلـك أرخ جاسـر أبو صفيـة ، اعتمـادا على مـاتوصل اليه مـن أقـوال جمهـور المؤرخين ، انظر بحثه : معركة اليرموك ، ص١٢٣-١٣٠ .

(٢) عـن معركة اليرموك انظر : البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ص١٤٠-١٤٣ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٣٩٤ ومابعدها .

امبراطورية الروم على بلاد الشام(١). ويصفها عرفان شهيد(٢)بمعركة الاسلام الكبرى فى فتوح الشام التى لولاها لأصابت الفتوح نكسة كبير أودت بكثير من مكاسب الاسلام ومغانمه الحربية فى الشام والعراق ، ويشير الى اهمال المؤرخين الغربيين لليرموك رغم تسليم المؤرخين المسلمين بأهميتها ، وأن من كتب عن المعارك الحاسمة من الغربيين والمستشرقين يهمل اليرموك وخالد بن الوليد ، ويذكر بلاط الشهداء وعبد الرحمن الغافقى وهى هزيمة للمسلمين ولاتقاس عسكريا ولاتاريخيا باليرموك .

ويحق لنا القول أن معركة اليرموك كان لها مابعدها ، وأن النصر الاسلامى الكبير فى معركة اليرموك الحاسمة مكن للمسلمين فى بلاد الشام ، وجعلهم سادة الموقف ، ورجح الكفة العسكرية فى صالحهم ، وسلمت مقاليد أمر البلاد بيد المسلمين ، الذين أخذوا يفتحونها مدينة تلو الأخرى ، ويبسطون سلطانهم على أرضها وقد فتحت أبوابها لهم . وان كان المسلمون قد وجدوا مقاومة ودفاعا وهم يفتحون بعض المدن ، فانه لم يكن شيئا يذكر مقارنة بما لقوه قبل اليرموك . كما أن تلك المقاومة وتلك الحروب ، كانت فى الغالب دفاعات محلية من أهل البلاد سرعان ماتنهار أمام المسلمين وبالأكثر تجد مددا روميا كما حدث فى قيسارية(٣). الا ماكان سنة ١٧هـ ، من اجتماع الروم ونصارى الشام وأهل الجزيرة على حرب المسلمين ، وحصر أميرهم أبو عبيدة فى حمص ، وشغل أهل الأجناد عنه ، بعد أن أذن للجند بالانسياح . فضم أبو عبيدة اليه مسالحه ، وأقبل عليه خالد بن الوليد من قنسرين وكتب الى عمر بن الخطاب يطلب المدد ، وقد حصرهم الروم ، فخرج عمر من المدينة الى الشام لنجدته ، كما كتب الى سعد بن أبى وقاص

---

(١) جاسر أبو صفية ، معركة اليرموك ، ص١٢٣ .

(٢) معركة اليرموك ، ص١٣٧-١٣٨ .

(٣) أفادت قيسارية من موقعها البحرى ، حيث ظلت تتلقى الامدادات من الروم عن طريق البحر ، الى جانب عوامل أخرى ساعدت على استعصاء فتحها حتى سنة ١٩هـ انظر بعد : ص١٥٧ .

فى العراق ببعث القعقاع بن عمرو لنجدة أبى عبيدة فى أربعة آلاف فارس ، وأمره بارسال الجند الى الجزيرة لاشغال أهلها عن مخالفة الروم والعودة الى ديارهم ، فلما انفض أهل الجزيرة عن الروم ، حاربهم أبو عبيدة فنصره الله قبل وصول المدد . وكان عمر قد نزل الجابية(١).

فالمصادر تفيد أن هرقل امبراطور الروم لما بلغه هزيمة جيشه فى اليرموك وهو بانطاكية ودخول المسلمين دمشق ثم حمص بعد اليرموك غادر انطاكية الى الرها بالجزيرة ، فلما وجد المسلمين قد شرعوا فى فتوحات الجزيرة وتقدمت جيوشهم نحوه ، وجاءه خبر هزيمة الروم بقيادة ميناس فى حاضر قنسرين واستيلاء المسلمين عليها ، ترك الرها الى شمشاط(٢)، فلما فتح المسلمون الرها ، ارتحل الى القسطنطينية ، وقد يئس من الوقوف فى وجه الفتح الاسلامى ، وابقاء بلاد الشام تحت سلطانه ، وأيقن أن بلاد الشام قد أصبحت فى قبضة المسلمين ، ومابقى عليهم الا استكمال فتوحاتها فخرج مودعا بمقولته المشهورة : "السلام عليك ياسورية ، سلام مودع ، لايرى أنه يرجع اليك أبدا"(٣).

---

(١) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٥٠-٥٢ .

(٢) شمشاط : مدينة بالروم على شاطىء الفرات ، شرقيها بالوية ، وغربيها خرتبرت ، وهى من أعمال خرتبوت . وهى غير سميساط ، فكلاهما على الفرات ، لكن الأولى فى طرف أرمينية ، والأخيرة من أعمال الشام . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٦٢/٣) .

(٣) انظر عن خروجه الى القسطنطينية : الواقدى ، فتوح الشام ، ٧/٢ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٣٤-٢٣٧ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠٢/٣-٦٠٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٥١،٢٩٩-٣٠٠،٣٧٠-٣٧٢ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان ، الجزء الأول (١-٢٠٣هـ) ، تحقيق عبد الله الجبورى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ١٠٣/١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٤/٧ ؛ ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص١٧٤ . (على اختلاف فى لفظ الوداع ، وسنة خروجه ، والمدينة التى خرج منها الى القسطنطينية) .

يذكر أحمد عادل كمال[١]، أنه بعد انتصار المسلمين فى معركة اليرموك سار خالد بن الوليد فى أعقاب فلول الروم المنهزمة الى دمشق ، فلما أقبل عليها خرجوا اليه وطلبوا ان يعطوا على صلحهم الأول ، فأعطاهم ذلك ، ثم اتجه خلف الروم نحو حمص ، فلما وصلها طلب أهلها تجديد صلحهم ، فأبقاهم خالد على ماهم عليه ، ودخلها ينتظر أمر أبا عبيدة.

وكان أبو عبيدة بعده قد سار الى دمشق ، ووجه عماله على البلاد التى تحت سلطان المسلمين ، وأرسل الى أهل ايلياء يدعوهم الى الاسلام ، وبعث عمرو بن العاص الى فلسطين وشرحبيل بن حسنة الى الأردن ، وترك يزيد بن أبى سفيان على دمشق ، وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب وسار هو الى حمص فى خطة ترمى لقطف ثمار النصر الاسلامى الكبير فى اليرموك ، وهذا ماتحقق فعلا . فقد خرج يزيد بن أبى سفيان من دمشق الى مايواجهها من الساحل ففتح صيدا ، وعرقة ، وجبيل ، وبيروت . بينما اتجه عمرو بن العاص الى فلسطين ، ففتح سبسطية ، ونابلس ، واللد ونواحيها ، ثم يبنى ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ورفح ، ويافا ، وقيل الذى فتح يافا معاوية بن أبى سفيان[٢].

كما فتح عمرو بن العاص عسقلان ، وانتقض أهلها بعد ذلك ، ففتحها معاوية فى ولايته ، وقد افتتح عمرو غزة زمن أبى بكر وحاصر قيسارية سنة ١٣هـ ولم يتم له فتحها ، وقيل : وحاصرها بعد فتح بيت المقدس غير أنه خرج الى مصر فاتحا وهى مستعصية عليه[٣].

أما شرحبيل بن حسنة ففتح الأردن فتحا يسيرا ، وقد دخل أكثره فى طاعة المسلمين اثر معركة فحل بيسان[٤]، فافتتح سوسية ، وأفيق ، وجرش وبيت راس ، وقدس ، والجولان ، وغلب على سواد الأردن ، وجميع أرضها.

---

(١) الطريق إلى دمشق ،ص٤٩٤-٤٩٥ .

(٢) أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ،ص٥١١-٥١٣ ؛ وانظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٤ .

(٣) نفسه ، ص٥١٣-٥١٥ .

(٤) عن فتح بيسان وطبرية على يد شرحبيل بن حسنة ، انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ٤٤٣/٣-٦٠٥،٤٤٤ ؛ أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص٥١٥ .

ويذهب أحمد عادل كمال أن فتوحات هؤلاء القادة قد تمت فى وقت واحد فى النصف الثانى من العام الخامس عشر[(١)].

أما أبو عبيدة فخرج من دمشق الى حمص ، ومنها بعث خالدا الى قنسرين وقاتل الروم ومتنصرة العرب من تنوخ فى حاضر قنسرين ، فانتصر عليهم ، ثم صالح المسلمون أهل قنسرين ، فأسلم بعض تنوخ وبقى بنو سليح منهم على النصرانية ، ثم انتقضت قنسرين ، فأرسل اليهم أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندى ففتحها صلحا ، ثم أسلموا بعد ذلك بيسير ولم يظل على النصرانية الا من شذ عن جماعتهم[(٢)].

ثم افتتح حاضر حلب صلحا ، وبه عرب متنصرة من تنوخ وغيرهم ، ثم أسلموا بعد ذلك ، وفتح حلب صلحا ، واتجه الى انطاكية مقر هرقل ، فهزم جمعا لقيه قبل أن يصلها ، ثم حاصرها فافتتحها صلحا ، لكنها انتقضت ، فبعث اليهم حبيب بن مسلمة وفتحها على الصلح الأول[(٣)]. وقد أمر عمر أبا عبيدة أن يترك بها مرابطة من أهل النيات والحسبة وأن يجرى عليهم العطاء . ثم تتبع أبو عبيدة فلول الروم فى شمال الشام ، وبعث قواده فى عدة اتجاهات ففتح الله عليهم فافتتحوا قرى الجومه وسرمين وتحوان وتيزين ودير طابا ودير الفسيلة وخناصرة ، وافتتح جميع أرض قنسرين وانطاكية وقورس وجميع أرضها ، وحلب الساجور ومنبج ودلوك وفتح عراجين وقالس وقاصرين وبالس حتى بلغ أبو عبيدة الفرات[(٤)].

وقد ولى على كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة من المسلمين ، وشحن النواحى التى يتخوف منها[(٥)].

واستخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت ، وسار الى فلسطين لفتح بيت المقدس ، فافتتح عبادة اللاذقية عنوة ثم أعطى أهلها

---

(١) الطريق إلى دمشق ، ص٥١٥ .

(٢) عن فتح قنسرين ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٠٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠١-٦٠٢ ؛ أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص٥١٥-٥١٦ .

(٣) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥١-١٥٢ ؛ أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ص٥١٨-٥١٩ .

(٤) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٤-١٥٥ .

(٥) أحمد عادل كمال ، نفس المصدر ، ص٥٢٠ .

الأمان ، وافتتح مدينة "بلدة" ، وانطرسوس[١]. وكان عمرو بن العاص قد أتم فتح فلسطين ماعدا بيت المقدس ، وقيسارية ، وقد ضرب الحصار على بيت المقدس ، فنزل عليه أبو عبيدة ، فطلب أهلها من أبى عبيدة أن يصالحهم على ماصالحت عليه مدن الشام على أن يكون المتولى لعقد الصلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فكتب أبو عبيدة الى الخليفة بذلك ، فقدم عمر الشام ونزل الجابية وقد كتب الى أمراء الجيوش الاسلامية أن يوافوه فيها ، فأتوه . وجاءه أهل بيت المقدس فصالحوه ، وكتب لهم الأمان ، ثم أسكنها الجند ، ودخلها رضى الله عنه ، واتخذ المسجد وصلى فيه[٢]. وكان فتح بيت المقدس فى ربيع الآخر سنة (١٦هـ/مايو - أيار ٦٣٧م)[٣].

ولئن كانت لدمشق أهميتها الحربية لحصانتها ، فقد كان لايلياء قداستها ومكانتها الدينية والروحية ، ولذلك يقول جيفوند : أنه بعد فتح بيت المقدس أصبح المسلمون سادة على فلسطين وبلاد الشام[٤].

أما قيسارية فقد ظلت محاصرة ، واستعصى على المسلمين فتحها .

وفى سنة ١٨هـ/٦٣٩م ، وقع طاعون عمواس ، فهلك فيه معظم المسلمين الفاتحين وعلى رأسهم أمير أمراء الشام أبو عبيدة عامر بن الجراح . وكان قد استخلف معاذ بن جبل ، فلحق به . فولى عمر الشام يزيد بن أبى

---

(١) أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، ص٥٢٢ .

(٢) عن فتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٤-١٤٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٠٦/٣ ومابعدها ؛ وانظر أحمد عادل كمال ، نفس المرجع ، ص٥٢٣-٥٢٨ .

(٣) جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية ، م٣ ، ص٢٩٤ .

(٤) يقول زكريا القضاة : أن الروايات اختلفت فى سبب قدوم عمر ، هل كان لطلب أهل بيت المقدس ، أم لطلب عمرو بن العاص بعد أن عرف من أهل الكتاب أن الفتح لايكون الا على يدى عمر ، أم أنه قدم دون دعوة من أحد فتم الفتح أثناء وجوده ، فتسلمها . كما يذكر اختلاف الروايات فى التاريخ لفتح بيت القمدس أهو سنة ١٥هـ أو ١٦هـ أو ١٧هـ . الا أنها تتفق على فتحها صلحا على يد عمر . انظر : معاهدة فتح بيت المقدس - العهدة العمرية - ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص٢٧٢ .

سفيـان فطعن ولحق بصاحبيه أواخر سنـة ١٨هـ/٦٣٩م بدمشـق . فولى الخليفة عمر معاوية بن أبى سفيان مكان أخيه .

وفتـح اللـه على يدى معـاوية فى (شـوال سنـة ١٩هـ/سبتمبر/اكتـوبر ٦٣٧م) مـدينة قيسـارية عنوة ، لحصـانتها ، وموقعهـا البحـرى ، حيث ظلت تتلقـى المدد عن طريق البحر من الروم ، كما كانت مـدينة كبيرة عامرة بها مئات الآلاف من روم ومرتزقة ويهود ، وبها حامية كبيرة الى جانب مـن لاذ بهـا من فلول الروم الذين فـروا من وجه المسلمين وتحصنـوا بها ، وقد بلغ سبيهـا الذين بعث بهـم معاوية الى المدينـة أربعة آلاف(١). ففرح المسلمـون بذلك الفتح لأنها كانت آخر معقل للـروم فى الشام(٢)، وبسقوطها أصبحت بلاد الشام ديارا اسلامية وكان أحد اليهود قد دل المسلمين على طريق دخلوا منه الى قيسارية ففتحوها(٣).

ويقـول بعض المؤرخين(٤)أن أرض بلاد الشـام قد فتحت كلهـا عنوة ماخلا مدنها فانها فتحت صلحا .

ويشير حســن بن على الحارثى(٥)عنــد تحديده لأرض الصلـح فى اقليم الشام ، الى أنه قد وقع خلاف بين الفقهاء حول تحديد أرض الصلح والعنوة فى اقليم الشام . وقال : الحق أن غالبية مدن الشام فتحت صلحا ، بينما فتح بعضهـا عنوة ، أما أرضها فقـد غلبوا عليها عنوة . وهـذا صحيح ، فان مدن الشام لم تفتح كلها صلحا ، وانما فتح بعضها عنوة كقيسارية على سبيل المثال.

---

(١) عـن تفـاصيل الفتوحات بعد اليرمـوك ، انظر : أحمد عادل كمـال ، الطـريق الى دمشق ، ص٤٩٤-٥٣٥ .

(٢) ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤٢٥ .

(٣) وانظر عن فتح قيسارية : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٥-١٤٨ .

(٤) ابن زنجويه ، الأمـوال ، ٢٨٠/١-٢٨١ ؛ ابن كثير ، البـداية والنهـاية ، ٢٥/٧ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢١٠ .

(٥) المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٢٨٦-٢٨٧ .

وقد تم فتح بلاد الشام[1] فى نحو سبع سنوات (١٣-١٩هـ/٦٣٤-٦٤٠م) بسط المسلمون على اثرها سلطانهم على بلاد الشام ، وأعلوا كلمة الله فوق أرضها ونشروا الاسلام بين أهلها ، وجعلوها ولاية اسلامية تابعة لدولة الاسلام ، وأضحى أهلها رعايا فى ظل الحكم الاسلامى .

---

(١) وانظر عن فتوح الشام : شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى ، ص٢٥-٥٥ .

* شروط عهود الصلح التى أعطاها المسلمون نصارى الشام:

تعد شروط الأمان التى حوتها عهود الصلح الاسلامية لأهل بلاد الشام من الأسس المنظمة للعلاقة بين الحكام المسلمين ونصارى الشام الى جانب أحكام أهل الذمة فى الشريعة الاسلامية .

وتتمثل أهمية الشروط التى عوهد عليها أهل الشام فى كون بلاد الشام قد فتحت غالبية مدنها صلحا، وقد أعطى المسلمون لكل مدينة عهدا مجملا أو مفصلا ، لكنها اذا جمعت كمل بعضها البعض ، وظهرت أكثر شمولا ، وكون مجموع شروطها أسس العلاقات بين الحكام المسلمين وأهل الذمة : كما أن الشروط العمرية التى عول عليها الفقهاء فى استخراج كثير من أحكام أهل الذمة فى الاسلام ، والتى تنسب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان قد اشترطها على نصارى الشام ، واذا كنا نعلم أن بلاد الشام قد تم فتحها زمن أبى بكر وعمر ، فجاء فتحها سابق لغيرها من أرض أهل الكتاب ؛ فان شروط صلحها تعد مثلا يحتذى به فى ماأعطى من عهود لأهل البلاد التى فتحت بعد بلاد الشام ، كمصر وغيرها ، الى جانب العهود النبوية التى استمد منها الخلفاء الراشدون أسس معاملتهم لأهل الذمة ، وان كانت محدودة ، مجملة الشروط .

وبما أن فعل الخلفاء الراشدين سنة(١)، فان العهود الشامية أساسا لما جاء بعدها ، وسنة يقتدى بها الفاتحون المسلمون بعدهم ، كبنى أمية وبنى العباس ومن تلاهم . كل هذا جعل عهود الصلح التى أعطاها المسلمون لأهل الشام ، جديرة بالدراسة والبحث .

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "... ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة" . من حديث العرباض بن سارية . انظر : أبو داود سنن أبى داود مع عون المعبود ، ٣٥٩/١٢-٣٦٠ ؛ الترمذى ، سنن الترمذى مع تحفة الأحوذى ، ٤٣٨/٧ ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ١٦/١ ؛ الدارمى ، سنن الدارمى ، ٤٣/١-٤٤ ؛ ابن حنبل ، مسند أحمد بن حنبل ، ١٢٦/٤،١٢٧ . حديث صحيح . انظر : محمد ناصر الألبانى ، ارواء الغليل فى تخريج أحاديث منار السبيل باشراف محمد زهير الشاويش ، الناشر ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ١٠٧/٨-١٠٨ .

ولقد اهتم عدد من الباحثين بدراسة عهود الصلح والأمان عامة ، تحقيقا ، وتحليلا ، ونقدا . فمنهم من درس العهود النبوية[(١)]، ومنهم من بحث في العهود زمن الخلفاء الراشدين والأمويين[(٢)]، وآخرون اهتموا بعهود الصلح عامة[(٣)].

والدارس لعهود الصلح يعترضه صعوبات شتى يأتى فى مقدمتها الثقة بنصوص عهود الصلح ، والتضارب فى الروايات حول تأريخها ، وترتيبها ، والاختلاف فى شروط العهد الواحد من مصدر الى آخر ، بل فى المصدر الواحد أحيانا بين رواية وأخرى ، فى اللفظ ، وفى المضمون زيادة ونقصانا ، أو فى صلح بلد اختلفت عليه المصادر هل فتح صلحا أو عنوة ، وهى صعوبات يجد الباحث نفسه أمامها ، فيرجح مايمكن ترجيحه ، ويحجم عن مايجد تعارضه بينا ، ويستبعد المادة التى لاحل للاختلاف عليها[(٤)].

ومن تلك الصعوبات الاختلاف بين نصوص العهود من مدينة الى أخرى ، وخاصة فيما يلزم به أهل الصلح . وهو مايحدث أحيانا فى اقليم واحد ، والقائد الذى أملى العهدين واحد ، والتوفيق بين نصوص عهد لمدينة صولحت أكثر من مرة ، فلايعلم أذلك الاختلاف نتيجة لوجود أكثر من

---

(١) انظر : عبد السميع عبد البارى الصائغ ، المعاهدات النبوية ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، بمكة ، ١٣٩٨-١٣٩٩هـ ؛ عتيق عبد الرحمن المفتى ، دراسة للمعاهدات فى العهد النبوى ، مجلة المؤرخ العربى ، عدد (١٦) ، ١٤٠١هـ ، اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، العراق ؛ جاسر أبو صفية ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام ؛ ابراهيم زيد الكيلانى ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام "دراسة نقدية" .

(٢) حسن بن على الحارثى ، المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين "دراسة وتحليل" ؛ وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح ؛ زكريا القضاة ، معاهدة فتح بيت المقدس "العهدة العمرية" .

(٣) يس محمد يحى ، عقد الصلح بين الشريعة الاسلامية والقانون المدنى "دراسة مقارنة" دار الفكر العربى ، ١٩٧٨م .

(٤) وداد القاضى ، نفس المصدر ، ص١٩٤-١٩٦ .

صلح لتلك المدينة أو هو اختلاف على النص ذاته ، كالاختلاف على صلح دمشق(١).

ومع تلك الصعوبات فان عددا من الباحثين كما أسلفنا تعرضوا لدراسة العهود ، وبدراستهم لموثوقية نصوص عهود الصلح ، والروايات الاخبارية عن مضامينها ، وهى فى الحقيقة حجر الأساس الذى سنبنى عليه منهجنا فى الافادة للمادة التاريخية التى حوتها تلك العهود ، ومدى الركون عليها كحقيقة تنظم العلاقة بين المسلمين ونصارى الشام .

تقول وداد القاضى(٢): الحقيقة أن العامل الذى يجعل القطع بموثوقية العهود أمرا متعذرا حتى الآن ، هو أن أصولها لم تصلنا حتى ولو واحد منها وذاك مايمكن فى حالة حدوثه مقارنة الأصل بالنصوص المحفوظة عنه فى المصادر ، وهو ماسيقطع الشك أو يثبته .

وتنقل النتائج التى توصل اليها البرشر نورث من خلال دراسته هذه القضية ، وقال عن تلك العهود : انها وان كانت لاتمثل نقلا نصيا حرفيا لأصول العهود المبرمة زمن الفتح ، الا انها غير موضوعة ، غير أن روايتها تنوقلت شفويا على الأكثر خلال فترة زمنية طويلة ، فحدث الخلل فيها . وهى بشكل عام يمكن أن تعطى صورة تقريبية لخصائص المعاهدات المكتوبة وشكلها فى عصر الفتوحات المبكر .

وأضافت : أنه بمقارنتها لنصوص العهود المحفوظة مع بعض أصول وثائق ادارية وصلت على ورق البردى لفترة متأخرة عن زمن الفتوح الأولى

---

(١) انظر : ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ٢٠٤/١-٢١٠ .

(٢) مدخل لدراسة عهود الصلح ، ص٢٠٠-٢٠٣ . [نقلا عن :

Albrechr North, Quellenkritische stubien zu themen, formen une tendenzen fruhislamischer geschichtsuberlie ferung, tiel I : themen ünd formen selbstverlang des orient alischen seminars der universitat bonn, Bonn, 1973, sp. pp. 60-71. 68.71 .

فيما بين سنتى (٨١-١١٠هـ/٧٠٠-٧٢٩م) . وجدت أوجه تشابه كبيرة ، تعزز الوثوق بعهود الصلح التى بين أيدينا ، عن الفتوح المبكرة . وأنها ليست مزورة أو موضوعة ، وأنها من حيث الخصائص العامة لها يمكن أن تكون صورة طيبة عن المادة الأصيلة المفقودة ، أما من حيث اللفظ الحرفى فالوثوق به موضع شك كبير(١).

أما الأخبار فهى مادة مساعدة للمادة الرئيسية التى حوتها نصوص العهود ، والأخبار اما حكمية أو وصفية أو وثيقية . فهى ذات قيمة لايمكن اغفالها فى دراسة عهود الصلح ، لأن مافيها موثوق مفيد معا باستثناء الأخبار الحكمية التى قد ينتابها الشك . كما أنها تحوى قدرا كبيرا من المعلومات يتجاوز مافى نصوص عهود الصلح . وتعرفنا على ابرام عهود صلح بين المسلمين وأهل بعض البلدان بلاشارة أو ذكر محتويات تلك العهود ، ولولاها لما عرفنا ذلك ، ولما عرفنا ماحوته تلك العهود من الشروط ، لأن نصوصها لم تصلنا . والذى يمكن قوله أن نصوص العهود أعلى مرتبة من الخبر ، غير أنه لايمكن الاستغناء عنه ، ولاالاستغناء بواحد عن الآخر(٢).

وبدراسة جاسر أبو صفية للعهود النبوية(٣)، تبين له سقوط أسانيدها ، واختلاف رواياتها فى المصادر الاسلامية ، فى اللفظ والمضمون ، وخلو كتب السنة من رواية نصوصها .

وذهب ابراهيم الكيلانى ، الى نحو ماذهب اليه سابقه(٤).

ويقول ترتون(٥): "الغالب على العهود الأصلية التى أعطيت للبلاد المفتوحة أن قد جر النسيان عليها ذيوله ، فلما تذكرها الناس فيما بعد عمد

---

(١) وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص٢٠٣-٢٠٦ .
(٢) وداد القاضى ، نفس المرجع ، ص٢٠٦،٢٤٣-٢٤٤ .
(٣) المراسلات النبوية ، ص٦٥ ؛ وانظر ماكتبناه عن العهود النبوية قبل : ص١٠٣-١٠٥
(٤) المراسلات النبوية ، ص٨٦-٨٧ .
(٥) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٤٦ .

المؤرخون الى تفسيرها فى ضوء أوضاعهم المتأخرة زمنيا" . ويشكك صالح الحمارنة [١] فى صحة الشروط التى حوتها المصادر المتأخرة ، بقوله : "هذه الشروط المتأخرة غير المتسامحة والتى وردت عند بعض المؤرخين المسلمين المتأخرين فعندنا الكثير مما ينقدها ، حتى أن الماوردى نفسه يذكر أن لكل قوم صلحا ربما خالف سواه" .

والحال هكذا ، وقد فقدنا الثقة فى صحة نصوص العهود التى وصلتنا من ناحية تطابقها الحرفى واللفظى مع أصولها التى أعطيت لأهل البلاد المفتوحة ، ومنهم نصارى الشام ، مع بقاء الثقة فى صحة نسبتها ومضامينها ، الا ماأثبتت الدراسات النقدية تزويره أو تحريفه [٢]، مع الايمان بما اعتراها من خلل يؤكد حدوثه ذلك الاختلاف بين المرويات التى حفظت نصوص تلك العهود ، وخاصة اختلاف مروية عن أخرى حول نص عهد واحد . ذاك اذا أضيف اليه أنه قد سبقنا بدراسات تناولت عهود الأمان بالبحث استقصاء وتحقيقا وتحليلا ونقدا ، عامة أو خاصة ، من حيث الشكل أو المضمون ، سندا ومتنا ، وأخص رسالة حسن بن على الحارثى [٣]، وبحث زكريا القضاة [٤]. فانى وجدت الفائدة تتم باستخراج شروط الأمان التى

---

(١) المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٦ .

(٢) ذكر ابراهيم الكيلانى : أن الوضع والافتعال واضح فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل "مقنا" . انظر : المراسلات النبوية ، ص٩٨-١٠١ ؛ كما ذكر ذلك جاسر أبو صفية ، المراسلات النبوية ، ص٨٠-٨٢ ، والعهد النبوى المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى زعم النصارى أنه كتبه لعموم النصارى سنة ٢هـ . انظر : (شفيق الجاسر ، تاريخ القدس ، ص١٦٧-١٦٨) . وقد أورد نصه ونقده . فتبين له وضعه . وانظر : جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص١٥٩-١٦٠ . وهو يصحح كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى رهبان دير سانت كاترين بجبل سيناء ، وكذلك كتابه لبنى حبيبة وأهل مقنا من اليهود . مع نقد بعض ماورد فيها بينما أنكر عبد الباقى قصة صحة هذه العهود الثلاثة . انظر بحثه : تحقيق بعض الوثائق النبوية من العهود التى أعطاها الرسول لليهود والنصارى ، ص١٢٥-١٣٠ .

(٣) المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، وقد عقد لاستقصاء عهود الصلح التى أعطاها المسلمون لأهل الشام فصلا ، استقصى فيه تلك المعاهدات وأورد نصوصها ومضامينها . انظر : ص٢٧٥-٤٢٩ . غير أنه لم يذكر الشروط العمرية .

(٤) معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧١-٢٨٣ .

حوتها عهود الصلح سواء من نصوصها المحفوظة فى المصادر ، أو المرويات الاخبارية عن مضامينها ، وجمعها .

لأنه بنزع الثقة عن صحة حرفية النص ، وان صحت نسبته ومضمونه فان النصوص لاتزيد أهمية عن الأخبار خصوصا فى ضوء الاختلاف عليها من مصدر لآخر زيادة ونقصانا .

وتقول وداد القاضى[(١)]: بوضعها فى مرتبة أعلى من درجة الخبر ، بحيث لاتصل الى مرتبة تقديس النص . وتعلل ذلك بقولها : "لأن العهود هذه قد لاتكون صورةطبق الأصل من العهود المكتوبة زمن الفتوح الا أنها صورة تقريبية منها ، بينما الخبر - فى أحسن الأحوال - لايرقى الى أكثر من أن يكون مستمدا من "كتب التعهد" ، تلك الكتب التى كان أهالى الأراضى المفتوحة يكتبونها للمسلمين جوابا على عهدهم لهم ، كما قدرت" . ثم عرضت لأهمية الخبر وعدم امكانية الاستغناء عنه[(٢)].

وكانت قد قدرت افتراضا على ضوء كتاب الصلح الذى جاء كتعهد على لسان نصارى الشام ، الذى كتبه عبد الرحمن بن غنم ، أن النصارى أو أهل الصلح كانوا اذا كتب لهم المسلمون عهدا ، التزموا لهم بكتابة تعهد يقرون فيه بما اشترط عليهم ويتعهدون بالالتزام بها . وماذهبت الى ذلك الا اعتمادا على صيغة الكتاب التى جاءت كتعهد موجه من أهل الصلح الى الخليفة أو عامله[(٣)].

---

(١) مدخل الى دراسة عهد الصلح ، ص٢٠٦ .

(٢) نفسه ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

(٣) نفسه ، ص٢١٩-٢٢٠ . وقد ناقضت نفسها ص٢١٨ بقولها أن عمر بن عبد العزيز اضطر الى ارسال شخص الى الرها ليرى العهد لدى أسقفها . نقلا عن : أبو عبيد الأموال ، ص٢٩٨ : فكان من الأولى عودة عمر بن عبد العزيز الى تعهد أهل الرها فى حالة اذا كان هناك تعهدات تكتب من أهل البلاد للمسلمين ، وكان المسلمون بلاشك سيحتفظون بها ، الا أنه فى الحقيقة لم يكن لها وجود كما قدرت الباحثة وداد القاضى فيما يبدو .

والحق أن هذا الاستنتاج مشكوك فيه ، فليس هناك مايؤكد هذا الافتراض . وأما صيغة الخطاب فى كتاب دمشق ، فلعله كتاب وجهه أهل البلد الى المسلمين عند الفتح الثانى بعد اليرموك ، يطلبون فيه تجديد صلحهم الأول . ومن هنا جاء بصيغة التعهد على لسان أهل البلد ، أما كتاب عبد الرحمن بن غنم لعمر على لسان عموم نصارى الشام ، فقد صح عندنا أن عمر أخذه عليهم بعد تمام فتح الشام ، فجاء على لسانهم اعتمادا على ماشرطه المسلمون عليهم فى عهود الصلح الأولى[(١)].

بل أن مجيئه على لسان أهل البلد ، لايعد حجة بل طعنا فى صحة هذا العهد ، اذ أنه فى العرف العام لايفرض المغلوب على نفسه الشروط ، بل الغالب[(٢)]. وليس فى عهود الصلح الاسلامية مثيل لذلك ، فأهل البلد يطلبون الصلح ، والمسلمون يفرضون الشروط ، خاصة وأن المصادر لم تحفظ لنا الا نصوص عهود أربعة من عهود الصلح المعطاة لأهل بلاد الشام[(٣)]، وهى : عهد صلح (دمشق)[(٤)]، و(بعلبك)[(٥)]،

---

(١) وأورد ابن عساكر نصه على أنه من أهل دمشق الى أبى عبيدة . انظر : ابن منظور مختصر تاريخ ابن عساكر ، ٢٠٥/١-٢٠٦ . وانظر مناقشتنا للشروط العمرية بعد ، ص :٢٠٨-٢١٢ .

(٢) زكريا القضاة ، معاهدة بيت المقدس ، ص٢٨٠ .

(٣) لم تجد وداد القاضى الا الأربعة عهود المذكورة آنفا عند جمعها لنصوص عهود الصلح ، انظر : مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص١٩٦-١٩٨ ؛ وبتتبعى لعهود الصلح الشامية ، عند حسن بن على الحارثى ، وجدت أنه لم يجد نصوصا الا للأربعة العهود آنفة الذكر أيضا ، عدا ذكره لنص عهد "قصم" وقد أشار عند تعريفه به ، أنه مختلف عليه هل هو من الشام أم من ضواحى العراق . ورجح أنه بلد شامى . انظر : المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٢٩١-٤٢٩، ٢٩٣-٢٩٤ . (وللاختلاف عليه، ولخلوه من ذكر الحقوق والواجبات ، تركناه) .

(٤) انظر نص عهد (دمشق) فى : أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٦٦-٢٦٧ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٤٧٣/٢ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٨ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩١-٢٩٣ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٠٤ (رواية الأوزاعى) ص٢٠٥-٢٠٦ (رواية عباس بن سهل بن سعد) ؛ مجير الدين الحنبلى ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،، ٢٥٠/٢ .

(٥) انظر نص عهد (بعلبك) ، فى : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٦ ؛ ابن عساكر تاريخ دمشق ،

و(ايلياء)[(١)]، و(لـد وسـائر فلسطين)[(٢)]، ممـا يدعم أهميـة الاعتمـاد على المرويات الخبرية[(٣)]. آخذين بعين الاعتبار ، ماوقع من اختلاف حول تلـك الشروط سواء فى النصوص أو الأخبار مبينين ملاحظات النقاد عنها فيما يهم الموضـوع وتتم به الفـائدة ، وكـذلك ماتوصلنا اليه مـن ملاحظـات نقدية ، واستبعـاد مـاثبت وضعه أو تحريفـه ، لتقدم لنا هذه الشـروط مجتمعـه أسس العلاقات بين الدولة الاسلامية وأهل الذمة عامة ونصارى الشام خاصة ، ثم أنهـا ستقـودنا بلاشـك الى مقـارنتها بالشـروط العمرية ، وذاك سيسـاعدنا فى الحكم على صحة الشروط العمرية عند دراستها .

ولم أذهـب الى هـذا النهج الا لما خلـد فى نفسـى مـن خلال القـراءة المتأنية لشروط الأمان نصا وخبرا وماحولها من دراسات نقدية من أن شروط الأمـان التى يعطيهـا المسلمـون لأهل الذمة كانت واضحـة عنـد أئمة المسلمين

---

(١) انظـر نص عهـد (ايليـاء) فى : اليعقـوبى ، تاريخ اليعقـوبى ، ١٤٧/٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمـم ، ٦٠٧/٣-٦٠٩ ؛ ابن البطـريق ، التـاريخ المجمـوع على التحقيـق والتصديق ، ص١٦ . (نقله عنه : زكريا القضاة ، معاهـدة بيت المقدس ، ص٢٧٤) ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤١٦ ؛ مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القـدس والخليل ، ٢٥٣/٢-٢٥٤ ؛ وأورد حسـن بن على الحارثى ، نص عهـد زعم النصارى أن عمر بن الخطاب أعطاه لأهل ايلياء نشرته البطريركية الأرثوذكسية فى أورشليم عام ١٩٥٣م/١٣٧٣هـ . توجد نسخة منه فى كنيسة القدس الأورشليمية من الأصـل الذى يزعمون أنه محفـوظ فى مكتبة الروم بالفنار مـن أعمال استانبول . انظـر : المعاهدات فى عصر الخلفـاء الراشدين ، ص٤٠٩-٤١٣ . وانظـر أيضا عنه : زكـريا القضـاة ، نفس المرجع ، ص٢٧٦-٢٧٨ . وقـد أورد نصـه ونقـده فتبين له وضعـه أو ظهـور التحريف والـزيادة والالحاق عليه ان صـح أصلـه . لذلك آثرنا استبعاده وعدم الركون اليه .

(٢) انظـر نص عهـد (لد وسائر فلسطين) فى : الطبرى ، نفس المصـدر ، ٦٠٩/٣-٦١٠ ؛ ابن حبيـش ، نفـس المصدر ، م٢ ، ص٤١٦-٤١٧ . (وانظـر نصـوص هـذه العهود بملحق رقم : ١،٢،٣،٤) .

(٣) عند استخراجنا للشروط من نصوص العهود السابقة الذكـر ، سنكتفى بذكر العهد الـذى استخرجناه منه لأننا وثقنـا نصوص تلك العهود آنفـا . أما اذا كان الشرط مستخرجا من المرويات الخبرية فاننا سنوثق المعلومة بذكر العهد الذى تضمن ذلك الشرط ، والمصادر التى أوردته .

وقادتهم ، من حيث الحقوق والواجبات . وأنه لم يكن بالضـرورة كتابتها فى عهـد الأمان ، وأن على أهل العهـد القيام بواجباتهم تجاه المسلمين والـدولة الاسلاميـة ، سـواء كتـب ذلـك فى عهـدهم أو لم يكتب ، كمـا أن المسلمين ملزمون بحقوق أهل الذمة سواء كانت قد كتبت فى عهدهم أم لا . يدل على ذلـك أن معظم عهود الأمان التى وصلـت الينا كانت مختصـرة مجملة . وأرى أن كتـابة العهـد كان لاعطـاء الأمـان لأهل الذمة ، واثبـات توقيـع الصلـح وسـريانه ، واقـرارهم بالخضـوع للـدولة والصغـار للمسلمين . أمـا الحقـوق والواجبات ، فأمر معروف وملزم للطرفين سواء دونت فى العهد أو لم تدون ، لذلك نجد على سبيل المثال ، عهد الرها ينص على اعطاء أهلها الأمان "اذا أدوا الحق الذى عليهم"(١)هكذا وبدون تفصيل . مما يعنى أن الحق معروف وواضـح وليس من اللازم كتـابته فى العهد . أما العلـة فى ذكر بعض شروط الصلح سواء كانت تمثل واجبات أو حقوقا فى بعض عهود الأمان ، فان ذلك يرجع الى شخصيـة القائد ، وطبيعـة الفتح وظروف البلـد ، فبدءا هناك بنية أسـاسية للعهد معروفة عند المسلمين وهى مستمدة من عهـود النبى صلى الله عليه وسلم فى شىء من البساطة وعدم التكلف . تقول وداد القاضى(٢): أن عهـود الصلـح التى وصلتنا متشـابهة فى معناها الخارجى ، بسيطـة التركيـب ، بدون مايراد قوله بأيسر طريقة وأكثرها توثيقا وتأكيدا وتبيانا معا . ثم يأتى ذكر شىء من الشروط فى مضمون العهد ، اما عن طريق القائد رغبة منه فى التـأكيد على بعـض الواجبات أو الحقـوق لأهميتها . كـواجب الجزية الـذى غالبا لايخلو منه عهد . وهـو ركيزة الصلـح وسبب اعطـاء الأمـان . اذ يقول تعالى : {... **حتـى يعطوا الجـزية عن يد وهـم صاغرون**}(٣). وحق الأمان على النفـس والمال والدين ، أو لطلـب أهل البلد تدوين حق لهـم يروا أهميـة

---

(١) انظر نصه فى : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٧٩ .
(٢) مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص١٩٣،٢٢٨ .
(٣) التوبة ، آية : ٢٩

ذكره ، فيدونه القائد . وبلاشك فانه يعطيهم ماهو حق لهم فى الاسلام ولايتعارض مع الأسس العامة فى معاملة غير المسلمين ، أما اذا تعارض مع حقوقهم فى الدين ، فانه لايعطيهم ، اذ أن تلك الشروط يتم التفاوض عليها قبل توقيع الصلح . فكثيرا مارفض المسلمون صلحا عرض عليهم يخالف الدين ، كالصلح على شىء من المال أو الأرض ، دون فتح وخضوع بدفع جزية وصغار ، كما حدث فى اليرموك وغيرها(١). أو ذكر شرط اشترطه أهل البلد ، ليس من الحقوق العامة ، غير أن اعطاءهم ذلك فيه مصلحة للمسلمين ، أو دعت اليه طبيعة الفتح ، أو كان من باب تألف أهل البلاد على الخضوع لسلطان المسلمين ، واعتناق الاسلام(٢)، كاشتراط بعضهم ألا يهدم سور مدينتهم أو الابقاء على أرحائهم وحرية تجارتهم ، وغير ذلك(٣). وهذا من الحقوق الخاصة التى وان أعطيت لأهل بلد فليست حقا لأهل غيره من البلاد .

وقد يشترط المسلمون على أهل البلد شرطا يخصهم دعت اليه طبيعة الفتح ، كاشتراط خالد تخريب سور قنسرين(٤)، واخراج اللصوت من ايلياء(٥). وهذا ماأعطى العهود تمايزا فى بعض مضامينها بعضها عن بعض ، مع تشابهها فى البنية العامة ، واتفاقها على الواجبات والحقوق العامة فى الاسلام سواء ذكرت أو لم تذكر(٦).

---

(١) انظر ماعرضه قائد الروم على خالد بن الوليد من الأموال مقابل الخروج من الشام : ابن أعثم ، فتوح ، م١ ، ج١ ، ص١٩٠ .

(٢) انظر قول أبى يوسف فى تألف أبى عبيدة نصارى الشام باعطائهم ماسألوه ، قبل : ص١١٧ .

(٣) كاشتراط أهل دمشق ألا يهدم سور مدينتهم (عهد دمشق) ، واشتراط أهل بعلبك الابقاء على أرحائهم وحرية تجارتهم (عهد بعلبك) .

(٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٠١/٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٢/٢ .

(٥) الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠٧/٣-٦٠٩ (عهد ايلياء) .

(٦) تقول وداد القاضى : "على أن العهود الاسلامية ظل لكل واحد منها فى الفترة الأولى تميزه رغم انها جميعا كانت تتبع الأنماط التعبيرية ، فضلا عن الأفكار العامة نفسها" . انظر : مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص٢٤٦ .

وتتكون عهود الأمان من حيث البنية والشكل العام من ثمان وحدات فى العهد الأكمل هى : وحدة البسملة ، والمرسل والمرسل اليه (الطرفان) ، وشروط الصلح ، والشهود ، والكاتب ، والتسجيل ، والتأريخ والخاتم (١).

وتقول وداد القاضى (٢) أن وحدة شروط العهد (الصلح) ، تمثل الوحدة الأكبر فى بنية عهد الصلح ، وهى وحدة شديدة التركيب ، تتكون هى نفسها من ست وحدات داخلية فى العهد الأكمل ، وهى :

وحدة التحديد الجغرافى لمن تعنيهم شروط الصلح ، والتحديد السكانى وحقوق المصالحين ، وواجبات المصالحين ، وضمانات الصلح ، والعقوبات . وكما أن لب بنية عهد الأمان ، شروط الصلح فان لب شروط الصلح ومحورها الحقوق والواجبات ، وعمود الحقوق الأمان ، بينما عمود الواجبات الجزية (٣).

شروط الأمان مستخرجة من نصوص عهود الصلح والروايات الاخبارية عنها :

علمنا أن عهود الصلح تتكون من ست وحدات ، سنترك الشروط الخاصة بالتحديد الجغرافى ، والسكانى لأننا هنا سنجمع شروط الأمان فى وحدة متكاملة على مستوى اقليم بلاد الشام علها تقدم لنا الصورة التقريبية للشروط الاسلامية على نصارى الشام فى شكلها الحقيقى ، متجاوزين بذلك النطاق المحلى للبلد الواحد جغرافيا وسكانيا . وبهذا سنذكر شروط الأمان الممثلة للوحدات المتبقية من الوحدات المكونة لبنية العهد فى صورته الكاملة وهى :

(أ) الحقوق .

(ب) والواجبات .

---

(١) وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص٢٢٢-٢٣٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص٢٢٨-٢٣٦ .

(٣) وداد القاضى ، نفس المرجع ، ص٢٢٨،٢٣٨،٢٣٩ .

(ج) والضمانات .
(د) والعقوبات[١].
(أ) الحقوق[٢]:
(١) الأمان على دمائهم (أنفسهم)[٣].
وقد يفصل ، فيقال : وذراريكم[٤]. وقد يعين ، ويحدد أو يعمم ،

---

(١) سنبدأ باستخراج الشروط التى حوتها نصوص العهود المحفوظة ، ونذكر العهد الذى تضمن ذلك الشرط ، دون ذكر مصدره ، فقد قدمنا (ص : ١٦٥-١٦٦) مصادر نصوص العهود ، ثم نذكر الشروط التى تضمنتها المرويات الاخبارية عن عهود الصلح التى لم تحفظ بالنص . ونشير الى العهد الذى تضمن ذلك الشرط ، ومصادره .

(٢) قدمت حقوق أهل الصلح على الواجبات فى النصوص المحفوظة لعهود بلاد الشام وهى صورة مثلى لسمو معاملة المسلمين الغالبين للنصارى المغلوبين ، تتجلى فيها الانسانية وسمو الهدف ، فالرسول صلى الله عليه وسلم رحمة ، والرسالة عامة ، والفاتحين دعاة ، وهذه المعاملة تألفا ، تستهدف نشر الاسلام تحقيقا لهدف الفتح الاسلامى ، صورة ليس لها شبيه فى تاريخ العالم .

(٣) ورد فى نص عهد : (دمشق) ، و(بعلبك) ، و(ايلياء) ، و(لد سائر فلسطين) .

(٤) ورد فى عهد : (دمشق) ، من رواية عبد الله بن المغيرة ، ذكره ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٦٩/١ .
وورد فى المرويات الخبرية ، فى عهد : (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ص١٢٠ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٢٨ ؛ وفى عهد : (فحل) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٢٢٢ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٨٩ ؛ وفى عهد : (بعلبك) ، ذكره قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦ ؛ وفى عهد : (حمص) ، ذكره الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ ابن حبان السيرة ، ص٤٧٥-٤٧٦ وغيرها ؛ وفى عهد : (حلب) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٤ (قال : أنفسهم وأولادهم) ؛ وفى عهد : (انطاكية) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٥/٢ (قال بلفظ العموم : فأمنهم) ؛ وفى عهد : (طبرية) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٠ (قال : أنفسهم وأولادهم) .

فيقـال : لفلان بن فلان وفلان وأهـل مدينتهم رومهـا وفـرسها وعـربها ولرؤسائها وسكانها الروم والنصارى[١].

(٢) الأمان على أموالهم[٢].

وقـد يأتى مفصلا فيقال : ولـدوا بهم ، وكل شىء لهـم خارج المدينة من المواشى ، ولأرحائهم .

وضمـن المسلمون لأهل الأمـانات أموالهم ، فاشترطـوا أن يؤدى كـل مؤتمن ماستأمن عليـه من الأموال لأصحـابها[٣]. وورد عن هذا الشـرط فى المرويات الخبرية : وألا تهدم حيطانهم[٤].

(٣) الأمان على كنائسهم[٥]، ولبيعهم[٦]،

---

(١) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، كما أورده ابن عساكر .

(٢) ورد فى نص عهـد : (دمشق) ، و(بعلبـك) ، و(ايلياء) ، و(لـد وسائر فلسطين) . وأكد عليه فى الأخيرين بالقول : ولاينتقص شىء من أموالهم . وورد فى المرويات الخبرية فى عهد : (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ص١٢٠ ؛ وفى عهد : (فحل) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصـدر ، ص١٢٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ وعهد : (بعلبك) ، ذكره قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦ وعهـد : (حمص) ، ذكره الأزدى ، تاريخ فتـوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن خيـاط ، تاريخ ابن خيـاط ، ص١٣٠ ؛ البلاذرى ، نفـس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ وغيرهـا ؛ وعهـد : (حلب) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ ؛ وعهـد : (طبرية) ، ذكـره البلاذرى ، نفـس المصـدر ، ص١٢٣ ؛ قـدامة ، نفـس المصـدر ، ص٢٩٠ .

(٣) كما فى نص عهد : (بعلبك) . وورد فى مروية خبرية عـن عهد : (حمص) الأمان على أرحائهـم . ذكره البلاذرى ، نفـس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ ؛ ووافقـه قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(٤) فى عهد (فحل) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٢ ؛ قـدامة ، نفس المصدر ص٢٨٩-٢٩٠ .

(٥) ورد فى نص عهـد : (دمشق) ، و(بعلبـك) ، و(ايلياء) ، و(لـد وسائر فلسطين) . وورد هـذا الشرط فى المرويات الخبرية فى عهد : (حمص) ، ذكـره الأزدى ، نفس المصدر ، ص١٤٦ ؛ ابن خياط ، نفس المصدر ، ص١٣٠ ؛ البلاذرى ، نفـس المصدر ص١٣٦-١٣٧ ؛ و(حلـب) ، ذكره البلاذرى ، نفـس المصـدر ، ص١٥٢ ؛ قـدامة ، نفـس المصـدر ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكـامل ، ٣٤٤/٢ ؛ و(طبرية) ذكـره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٠ ؛ و(اللاذقية) ذكـره ابن الأثير ، نفـس المصـدر ، ٣٤٢/٢ . وانظـر التعـريف بهـا بعـد ص٢٠١ .

(٦) البيـع : جمـع بيعة ، يقول أهـل اللغـة والتفسير أنها متعبـد النصـارى ، الا ابن عبـاس قـال : "البيـع مساجد اليهـود" . ابن القيم ، أحكـام أهـل الـذمة ، ٦٦٨/٢-٦٦٩ .

ودياراتهم[١] وصلاتهم[٢] ألا تهدم أو تسكن[٣]، وعلى صلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، ولاينتقص منها ولامن حيزها ، ولامن صليبهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم[٤].

وورد عن هذا الشرط فى بعض المرويات الخبرية استثناء شىء من هذا الحق الذى تضمنه هذا الشرط صلحا ، ومن ذلك : مصالحة المسلمين بعض نصارى الشام على مقاسمتهم كنائسهم[٥]. أو استثناء جزء من بعض كنائسهم يتخذه المسلمون مسجدا[٦].

بينما ورد فى بعض المرويات الخبرية استثناء موضع لمسجد المسلمين فى

---

(١) انظر تعريفها بعد : ص٢٠١ .

(٢) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، رواية ابن عساكر ؛ وعهد : (ايلياء) ، رواية ابن الجوزى . والصلاة أو الصلوات أو الصلوت : بيوت للعبادة يبنيها النصارى فى البرارى يصلون فيها فى أسفارهم تسمى صلوتا فعربت صلوات ، وقال ابن عباس الصلوات كنائس النصارى ، وفى تفسير شيبان عن قتادة : والصلوات لليهود . انظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٦٩،٢٧٠ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) ورد فى نص عهد : (دمشق) ، انظر : ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ص٢٢٨ ؛ و(ايلياء) ، و(لد وسائر فلسطين) ، انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠٧-٦٠٩ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤١٦،٤١٧ .

(٤) ورد هذا التفصيل فى نص عهدى : (ايلياء) ، و(لد وسائر فلسطين) . انظر : الطبرى ، نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ وابن حبيش ، نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٥) ورد فى عهد : (دمشق) على قول من قال بفتحها صلحا على المقاسمة ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٩ م من رواية الهيثم بن عدى ، غير أنه ذكر نفى الواقدى لمصالحة أهل دمشق على المقاسمة ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٥ ؛ و(بعلبك) ، انظر : قدامة ، الخراج ، ص٢٩٦ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر م١ ، ج١ ، ص٢١١ ؛ و(طبرية) ، انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/١٤٠-١٤١ ؛ و(حلب) ، انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ (أورد بلفظ التضعيف قال : زعم بعض الرواة) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢/٣٤٤ (بلفظ : قيل) .

(٦) عهد : (حمص) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ وعهد : (حلب) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢ ؛ وعهد : (بيت لحم) ذكره ياقوت ، معجم البلدان ، ص٥٢١ .

البلد الذى صولح أهله(١).

وقد اتخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه موضع الصخرة بالمسجد الأقصى فى بيت المقدس مسجدا ، لكن ذلك لم يرد فى صلح (ايلياء) . يقول أبو عبيد : "أفلست ترى أن عمر حاز المسجد للمسلمين ، وحال بين أهل الذمة وبينه ، فهم على هذا الى اليوم لايدخلونه ، وانما كانت البلاد صلحا ، فلم يجعل عمر المسجد داخلا فى الصلح ، لأنه ليس من حقوقهم"(٢).

وألا يحدثوا كنيسة(٣)، وألا يعمروا بيعهم(٤).

(٤) الأمان على مساكنهم (دورهم) ، أن تهدم أو تسكن(٥)داخل المدينة وخارجها(٦).

بينما ورد عن هذا الشرط فى بعض المرويات الخبرية : ومصالحتهم على أنصاف منازلهم (٧)فى المدائن ومايحيط بها مما

---

(١) ورد فى عهد : (حلب) ، ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٤/٢ ؛ وعهد : (طبرية) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٠ .

(٢) انظر قبل : ص١١٨ .

(٣) عهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ .

(٤) عهد : (حمص) ، ذكره الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ . وكذلك مثيل فى العهود التى أعطيت لغير بلاد الشام ، ففى صلح (الرقة) سنة ١٨هـ : "وعلى أن لايحدثوا كنيسة ولابيعة ولايظهروا ناقوسا ولاباعوثا ولاصليبا" . انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٧٤ . وقد نصت على ذلك فى الشام الشروط العمرية .

(٥) ورد فى عهد : (دمشق) ، و(بعلبك) .
ووورد فى المرويات الخبرية ، فى عهد : (طبرية) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ .

(٦) فى عهد : (بعلبك) .

(٧) عهد : (دمشق) ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٩ (قال : وزعم الهيثم بن عدى ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٤٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٥٠/٢ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٥١ ؛ و(بعلبك) ذكره ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢١١ ؛ و(حمص) ذكره ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٩٢/٢-٢٩٣ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٥٣/٧-٥٤ ؛ و(حلب) ذكره البلاذرى نفس المصدر ، ص١٥٢ من زعم بعض الرواة ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٣٤٤/٢ و(طبرية) ؛ الأزدى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٠ ؛ و(بيسان) ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤٠/٢-١٤١ ؛ و(طبرية) ؛ الطبرى ، نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٢٩٦/٢ .

يصلها[١]. وقيل صولحوا على فضول الدور والمساكن وأسواقها يسكن فيها المسلمون[٢].

(٥) والأمان على سور مدينتهم لايهدم[٣].

وعن هذا الشرط ورد فى بعض المرويات الخبرية ، اعطاء الأمان بمعنى أعم وأشمل وهو : الأمان على مدينتهم[٤].

وبالمقابل نجد اعطاء الأمان على شرط اخراب المدينة[٥].

(٦) الأمان على حرية العمل . كأخذ الأمان على تجارتهم ، والاتجار بها حيث أرادوا من البلاد الاسلامية[٦].

(٧) حق البقاء أو الارتحال[٧].

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٤٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٥٥ .

(٢) انظر : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١٨١،١٨٠/٢ (طبعة دار الفكر) .

(٣) ورد فى عهد : (دمشق) .

ووردفى المرويات الخبرية فى عهد : (حلب) ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٣٠٤ . ولهذا مثيله فى عهد (دبيل) ، انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٩٩ .

(٤) ورد فى مروية خبرية فى عهد : (حلب) ، ذكره ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٤/٢ ، وأضاف (وحصنهم) ؛ و(قيسارية) ، ذكره ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص٢٤٦ ؛ و(ايلياء) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٤ بلفظ : "على ماأحاط به حصنهم" .

(٥) ورد فى مروية خبرية فى عهد : (قنسرين) ، ذكره الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠١/٣ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٣٤٢/٢ . وأراه يقصد تخريب السور ، ولعل طبيعة الفتح هى التى استدعت اشتراط ذلك ، لاضعاف قدرة المدينة الدفاعية ، خشية من انتقاضها على المسلمين ، فقد ذكر البلاذرى أن أهل قنسرين نقضوا العهد بعد الفتح ففتحها المسلمون مرة ثانية . انظر : نفس المصدر ، ص١٥٠ .

(٦) ورد فى نص عهد : (بعلبك) .

(٧) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، و(ايلياء) .

ووردفى المرويات الخبرية فى عهد : (فحل) ، ذكره الأزدى ، فتوح الشام ، ص١٤٠ .

غير أن بعض المؤرخين[١] أورد مرويات خبرية تذكر اشتراط أهل ايلياء فى عهد صلحهم ، ألا يسكن معهم أحد من اليهود ، وأن المسلمين اشترطوا على أهل ايلياء اخراج الروم واللصوت .

وقد بالغ ستيفان ليدر ، (Stefan Leder) فى الأمر ، فقال : ان معاهدة بيت المقدس اشترطت أن لايسكن اليهود مع النصارى فى بيت المقدس وأن اليهود آنذاك لم يكن لهم وجود فى بيت المقدس ، وأن اليهود عادوا الى سكنى القدس فى حماية العرب الفاتحين ويقول أن المؤرخ سيبوس (Sebeos) يتحدث عن مشروع لهم لاعادة بناء هيكل سليمان سنة ١٨هـ/٦٣٩م وأن كايتانى (Caetani) يذكر أن المسلمين عينوا حاكما يهوديا لبيت المقدس وأن ذلك ربما حدث سنة (٦٦١م/٤١هـ) ، ويضيف : ان هذا ان دل على شىء فانما يدل على مدى التعاون بين اليهود والمسملين . غير أنه يستدرك ويقول ولكن هذه الأخبار لم تؤيد بعد من قبل مؤرخين آخرين ولذلك فنحن لانميل الى الأخذ بها ، لكنه يعود ويناقض نفسه ، فيرى أن الموقف الايجابى لليهود تجاه الفتح الاسلامى دفع الحكام المسلمين الى السماح لهم بالعودة الى القدس[٢] .

وأشار الى ماذكره بعض المؤرخين المسلمين من استعمال اليهود كخدم لتنظيف المسجد الأقصى ، والى السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز تجاه يهود القدس . كدليل على عودتهم الى القدس بعد الفتح الاسلامى[٣].

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠٧-٦٠٩ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤١٦ .

(٢) Stefan Leder : The attitude of jews and their role towards the arab-islamic conquest of bilad al-sham, the fourth international conference on the history of bilad al-sham, proceeding of the second syposium, Amman 1987, p. 170-178 .

(٣) IBID : o. 178 .

وهذا الشرط عندى لايصح ، لما يلى :

أولا : وكما قال ستفيان ليدر عن القول الذى أورده ، أن هذه الأخبار لم تؤيد من مؤرخين آخرين ، فانى لم أجد لها ذكرا عند أحد من المؤرخين المسلمين .

ثانيا : أنكر فى صحة هذا الشرط ، لأنه يتنافى مع مبدأ العدل الذى يقيم عليه المسلمون عهودهم وحكمهم . فكيف يخرج المسلمون اليهود من مدينتهم ، ارضاء لرغبة النصارى الذين يمثلون جمهور السكان فى ايلياء ، كما أنه لايقبل قوله أن اليهود لم يكن لهم آنذاك وجود فى القدس ولكنهم عادوا فى حماية العرب . فاذا كان المسلمون قد أعطوا النصارى ذاك الشرط فليس لهم أن يخلوا بشىء من شروط العهد ، وماكانوا ليصنعوا ذلك ، لأنه قد عرف عنهم الوفاء بالعهود ، فكيف يقبل أن المسلمين قد خانوا عهدهم فى عهد عمر بن الخطاب ، اذ أنه أرخ لذلك بسنة ١٨هـ/٦٣٩م . واذا كان لليهود وجود فى القدس عند الفتح ، فلم يكن المسلمين ليخرجوهم منها دون جرم ، فهذا لايتفق مع العدل ، كما أن الأحرى بالمسلمين ألا يفعلوا ذلك مع قوم تعاونوا معهم ، والذى ذكر فى المصادر الاسلامية أن المسلمين جازوا اليهود على بقائهم على الولاء بعد انسحابهم من حمص[١]، ودلالة أحدهم المسلمين على الطريق الذى نفذوا منه الى قيسارية عند فتحها[٢]، واستخدامهم كأدلاء وعيون[٣]، بحفظ ذلك لهم ، ورفع الجزية عن السامرة منهم لقاء تعاونهم .

وبالأخبار التى اوردها عن وجودهم فى القدس بعد الفتح ، ودلالة الواقع التاريخى على ذلك ، فانه يجعلنا نعتقد جازمين ، أن ذلك الشرط غير صحيح ، والا لما دخل اليهود القدس . والذى أراه أن ذلك الشرط من دس النصارى ، اذ أن نصارى الشام وبالأخص أهل بيت المقدس لم ينسوا

---

(١) انظر بعد : ص٢٤٤،٤٩٥ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٧ .

(٣) انظر بعد : ص١٥٧ .

عداءهم لليهود وهو عداء قديم ، منذ أن وقف اليهود فى وجه المسيح عليه السلام ودعوته واتباعه ، ونتيجة لتعاون اليهود مع الفرس فى ضرب النصرانية والنصارى لما استولوا على الشام وخاصة بيت المقدس ، قبيل الفتح الاسلامى ، وكان لهم يد طولى فى قتل النصارى وتخريب وتدمير مدينتهم ومابها من دور العبادة ومقدسات النصارى ، وقد نجح النصارى فى أن يصدر الامبراطور هرقل أمرا يمنع اليهود من سكنى القدس بعدما استردها من الفرس (١). فأرادوا ترسيخ ذلك الأمر واستمراريته ، فزعموا اشتراطهم ذلك على المسلمين ، ودسوه فى عهد صلحهم باضافته اليه ، اذ لم يؤثر عن عمر ابن الخطاب أنه أخرج اليهود من بيت المقدس أو منعهم من سكناها (٢).

أما ماذكر من مشروع لبناء هيكل سليمان ، وتعيين حاكم يهودى ، فان ذلك قولا مبتدعا فلامصادر أخرى تسنده ، ولاواقع تاريخى يثبته ، ولم يعرف أن المسلمين فى صدر الاسلام ولوا حاكما غير مسلم فى الشام أو غيرها وهو بلاشك من ترويج اليهود وتزويرهم ، ودعاوى اليهود ومزاعمهم حول بيت المقدس ، ليس هذا مكان الحديث عنها .

أما الشرط على أهل ايلياء باخراج الروم واللصوص منها ، فهو أمر مشكوك فيه أيضا ، اذ ورد فى نص العهد مايخالفه ويناقضه ، فى شأن الروم "فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مامثل ماعلى أهل ايليا من الجزية" . كما أن الروم ترك لهم الخيار فى البقاء أو الخروج ، كما فى عهد (بعلبك) وغيرها . أما اللصوص فقد أعطى المسلمون الأمان لعامة أهل البلد وهم على الكفر والكفر أعظم . ثم بعد العهد من أحدث حدثا فعليه عقوبة احداثه . والمسلمون لم يشترطوا مثل هذا الشرط على أهل بلاد الشام الأخرى ، وكل

---

(١) انظر قبل : ص٤٤ .

(٢) زكريا القضاة ، معاهدة بيت المقدس ، ص٢٧٦ .

بلد بها من أهل الريبة والفساد مثلها(١).

(٨) حق اعطائهم هدنة لمدة محدودة من الزمن ، لترتيب أوضاعهم ، والاختيار بين البقاء أو الجلاء الى أرض الروم . فمن أراد البقاء ببلده وعلى دينه كان له ذلك ، على أن يؤدى ماعليه من الواجبات ، ومن أراد الخروج كان له ذلك وله الأمان حتى يبلغ مأمنه(٢).

(٩) حق الاسلام والمساواة بعده ، فمن أسلم فله ماللمسلمين وعليه ماعلى المسلمين(٣).

(١٠) ألا يكلفوا فوق طاقتهم(٤).

وورد فى بعض المرويات الاخبارية عن مضامين العهود ، ذكر لبعض الحقوق لم ترد فى نصوص العهود وهى :

(١١) ألا يمنعوا أعيادهم(٥).

(١٢) ألا ينزل المسلمون عليهم مدينتهم ، ويظل عاملها وأصحابه خارجها يخرجون له سوقا فيه كل شىء فى مدينتهم ، يوصلون اليه جزيتهم وخراجهم(٦).

---

(١) ولذلك جاء فى بعض عهود الصلح خارج بلاد الشام ، الزام حكام المدن التى صالحوها بكف أهل الريبة وليس اخراجهم ، فقد ورد فى عهد (قومس) : "وأن تكف أهل أرضك" . انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٥١/٤ ، وفى عهد (طبرستان) : "على أن تكف لصوتك ، وأهل حواشى أرضك ، ولاتؤى لنا بغية" انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ١٥٣/٤ .

(٢) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، و(ايلياء) . وورد فى المرويات الخبرية ، عن عهد : (انطاكية) ، ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٥/٢ ؛ و(بالس وقاصرين) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ورد فى نص عهد : (بعلبك) .

(٤) ورد فى نص عهد : (ايلياء) .

(٥) عهد : (دمشق) ، ذكره ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٢٦ ؛ الذهبى ، الخلفاء الراشدون ص٥١ .

(٦) عهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ ؛ و(حمص) ، ذكره الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠٠/٣ ؛ ابن حبيش ، غزوات ، م٢ ، ص٢٩٢-٢٩٣ .

ولايخرجون من مدينتهم[(١)].

(١٣) أن يترك النظر فى أحوال أهل المدينة والاصلاح بين أهلها للبطريق[(٢)].

(ب) الواجبات :

(١) اعطاء الجزية[(٣)].

وقد تضمنت نصوص العهود ذكرها مجملا ، فلم تنص على قدرها ، وانفرد عهد ايلياء بتحديد وقت أخذها بالحصاد .

وورد عن هذا الشرط فى المرويات الخبرية : تحديد قدر الجزية بدينار وجريب عن كل حالم ، أبدا، ان أيسروا أو أعسروا فى السنة[(٤)].

---

(١) عهد : (حمص) ، ذكره ابن أعثم ، الفتوح ،م١٧١/١ .

(٢) عهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ .

(٣) ورد فى نص عهد : (دمشق) ، فى روايتى البلاذرى وقدامة ولم يذكر فى الروايات الأخرى عنه ؛ وعهد : (بعلبك) ، فى رواية البلاذرى ، وجاء فى رواية ابن عساكر بلفظ : "واعطاء الذى عليهم من السبيل" ؛ وعهد : (ايلياء) ، فى روايتى الطبرى وابن حبيش فحسب ؛ وعهد : (لد وسائر فلسطين) .
ووورد ذكر فرضه مجملا فى بعض المرويات الخبرية عن عهد : (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٠ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٨٨ ؛ و(فحل) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٢ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٠ ؛ (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر ١٤٣/١ ؛ و(حمص) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ (جاء بلفظ الخراج ، وأراه يقصد الجزية والخراج) . ووافقه قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦-٢٩٧ ، و(حلب) ذكره الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٥١/١ ؛ و(حماه) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٢/٢ ؛ و(بالس وقاصرين) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٣٤٥/٢ ؛ و(ايلياء) ، ذكره ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٥ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٩-٣٠٠ (قال : على أداء الجزية والخراج) .

(٤) عهد (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٠ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٨٨ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٣٣ (قال : على كل رأس) ؛ =

وخلا وزيتا لقوت المسلمين(١).

وقيل : دينارين وشيء من طعام(٢).

وفي قول : أربعة دنانير على كل محتلم(٣)، ودينارين على نسائهم(٤).

وقيل أيضا : صولح بعضهم على أربعة دنانير ، وبذلك أمر عمر وفي موضع آخر كتب عمر(٥).

وقيل : صولح بعضهم على دينار وجريب .

وبعضهم على حسب الغني والفقر ، كلا على قدر طاقته ، ان زاد ماله زيد عليه ، وان نقص ، نقص(٦).

وتشير بعض الروايات الى فرض جزية جماعية على أهل البلد قلوا أو كثروا(٧).

= والظاهر أن الجريب خراج أرض ، يدل على ذلك المروية التالية عن عهد : (دمشق) ذكر بلفظ "ودينار عن كل رأس ... وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب عن كل جريب أرض . انظر : الطبري ، تاريخ الأمم ، ٤٤٠/٣ ؛ الكتبي ، عيون التواريخ ، ٥١١/١-٥١٢ ؛ و(حمص) ، ذكره الطبري ، نفس المصدر ٦٠٠/٣ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٢٩٢-٢٩٣ ؛ و(انطاكية) ، البلاذري ، نفس المصدر ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٥/٢ ؛ و(طبرية) ذكره الطبري ، نفس المصدر ، ٤٤٤/٣ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٢٥٥ . وغيرها من المدن التي صالحت على صلحها .

(١) عهد : (دمشق) ، ذكره البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٣١ .

(٢) عهد (دمشق) ، ذكره ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٥١/١-١٥٢ .

(٣) عهد : (دمشق) و(حمص) ، ذكره ابن أعثم ، الفتوح ، ص١٣٠،١٧١ .

(٤) عهد : (دمشق) ، ذكره ابن أعثم ، نفس المصدر ، ص١٣٠ .

(٥) عهد : (حمص) ، ذكره الواقدي ، فتوح الشام ، ١٣٠/١ ؛ وعهد : (قوم من الروم حول قنسرين) ، نفس المصدر ، ١١٢/١-١١٣ .

(٦) عهد : (دمشق) ، و(مدن الأردن) ، وعهد : (حمص) ، ذكره الطبري ، تاريخ الأمم ، ٦٠٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٩٢-٢٩٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٣/٧-٥٤ .

(٧) عهد : (دمشق) ، ذكره ابن عساكر ، نفس المصدر ، ١٧٩/١-١٨٠ ؛ وعهد : (اللاذقية) ، ذكره ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٢/٢ .

ويذكر أن المسلمين صالحوا أهل بعض المدن الشامية على مبلغ من المال مقدم عند الصلح ، ثم بعد ذلك يدفعون الجزية سنويا(١).

ومثل ذلك ماروى من أن خالدا صالح أهل تدمر فرضخوا(٢) لهم(٣).

وقيل أن صلح تدمر كان على مال أخذه خالد بن الوليد منهم وفرقه فى أصحابه(٤).

ويفيد البلاذرى أن المسلمين أسقطوا الجزية عن بعض أهل الشام مقابل قتالهم مع المسلمين ، فقال عن صلح الجراجمة : "فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين ، وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ، وأن لايؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم

---

(١) عهد : (دمشق) ، ذكره ابن أعثم ، الفتوح ، ١٣٠/١ "قال : على مائة ألف دينار ، والجزية بعد ذلك على كل محتلم أربعة دنانير فى كل سنة ، وعلى نسائهم ديناران" .
وعهد : (حمص) ، انظر : نفس المصدر ، ١٧١/١ "قال : سبعين ألف عاجلة ، وعلى أداء الجزية عن كل محتلم فى كل سنة أربع دنانير" .
وعهد : (قيسارية) . انظر : نفس المصدر ، ٢٤٦/١ . "قال : ويقدموا عشرين ألف دينار نقدا، ويقدموا الجزية"؛ ويوافقه الواقدى ، فى مصالحة المسلمين لبعض أهل البلاد على قدر من المال يأخذونه عند توقيع الصلح ، غير أنه لم يشر الى فرض الجزية السنوية . قال ذلك فى حديثه عن :
عهد : (جوسية) ، فتوح الشام ، ١١٠/١ .
وعهد : (عين الجوز) ، انظر : نفس المصدر ، ١٤٥/١ .
وعهد : (حمص) ، انظر : نفس المصدر ، ١١١/١ .
وعهد : (قنسرين) ، انظر : نفس المصدر ، ١١٥/١،١٤٥ . وقد ناقض نفسه فى روايتيه عن صلح (قنسرين) فى قدر الصلح .
وعهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر ، ١٤٣/١ .

(٢) رضخوا لهم : أعطوا المسلمين قليلا من مالهم غير مقدر . والرضخ : العطاء ، ورضخ له من ماله ، أعطاه ، والرضيخة : القليل من العطية . ويقال : راضخ فلان شيئا اذا أعطى وهو كاره . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : رضخ) .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٩ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٨٧ .

(٤) ابن أعثم ، نفس المصدر ، ص١١٣ .

حربا فى مغازيهم"(١).

ويسترعى خبر البلاذرى اسقاط الجزية عن الجراجمة لمشارطتهم على أن يكونوا أعوانا وعيونا ومسالح للمسلمين ، انتباه الباحث . فكيف تسقط الجزية عن الكافر ، وهى شرط الصلح الأول ، وسبب عقد الذمة ، والشرط الذى أمر الله به لرفع القتال عمن لم يسلم من الذين لايؤمنون ، وفرضه كفا للقتال عنهم اذا أدوه ، ودليلا على صغارهم ، وهو ماجاء فى قوله تعالى }**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**{(٢)، والحق أن لهذا الصلح وان لم يحفظ نصه ، مايماثله ليس من عهود الصلح التى أعطيت لبلاد الشام ، وانما فى الأقاليم الأخرى . فقد نص عدد من عهود الصلح الأخرى على اسقاط الجزية عن الذميين اذا اشتركوا فى الدفاع عن دار الاسلام ، فورد فى نص عهد أذربيجان : "ومن حشر فى سنه وضع عنه جزاء تلك السنة"(٣).

وفى صلح أرمينية : "وعلى أهل أرمينية ... ، أن ينفروا لكل غارة ، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا ، على أن توضع الجزاء عمن أجاب الى ذلك الا الحشر ، والحشر عوض عن جزائهم، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ماعلى أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوما كاملا ، فان حشروا وضع ذلك عنهم ، وان تركوا أخذوا به"(٤). وكان صاحب الباب قد طلب من المسلمين اسقاط الجزية على أن ينصروا المسلمين ويقوموا بما يحبون ، فكتب هذا العهد له ولأهل أرمينية . ونص عهد جرجان على : "ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا من

---

(١) فتوح الشام ، ص١٦٤ . وانفرد الواقدى باسقاط الجزية عن بعض من أعان المسلمين كأدلاء وعيون فى بلاد الشام . انظر : ١١٦/٢، ١١.

(٢) التوبة ، آية : ٢٩

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٥٥/٤ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ١٥٦/٤-١٥٧ .

جزائه"(١). وقد عرض عبد الكريم زيدان لأقوال العلماء فى أى شىء وجبت الجزية ، واستشهد بالواقع التاريخى ومانصت عليه بعض عهود الأمان من التزام بالمنعة لأهل الذمة ورجح أن ذلك دليلا على أن الجزية بدلا عن الحماية، فاذا ساهم الذميون فى الدفاع عن دار الاسلام سقطت عنهم الجزية(٢).

وقد أجمل القرطبى فى تفسيره(٣)، أقوال العلماء وخلافهم حول ماوجبت الجزية عنه ، فذكر أن علماء المالكية قالوا : وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر ، وقال الشافعى : وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار ، وأنها دين مستقر فى الذمة فلايسقطه الاسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية : انما وجبت بدل النصر والجهاد ، واختار قولهم القاضى أبو زيد وزعم أنه سر الله فى المسألة . وقال : وقول مالك أصح لقوله عليه السلام "ليس على مسلم جزية"، قال سفيان : معناه : اذاأسلم الذمى بعدما وجبت عليه الجزية سقطت عنه . وقال : قال علماؤنا ، وعليه يدل قوله تعالى : {**حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**}، لأن بالاسلام يزول هذا المعنى . وقال بعض الحنفية بقولنا .

وخلاصة قوله أن بعض الحنفية ، قالوا أنها بدلا عن النصر والجهاد دون غيرهم .

وقال ابن كثير(٤): {حتى يعطوا الجزية} ، أى ان لم يسلموا .

وجل قول هؤلاء الأئمة أن الجزية فرضت كشرط لعقد الصلح مع الكفار كفا عن قتالهم كما أمر الله حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون اذا بقوا على كفرهم ولم يسلموا ، وتسقط باسلامهم فليس على مسلم جزية .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٥٢/٤ .
(٢) انظر تفاصيل ذلك فى : أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٤٣-١٤٦،١٥٥-١٥٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، ١١٣/٨-١١٤ ، تفسير آية (٢٩) من سورة التوبة .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ، ١٣٦/٢ ، تفسير آية (٢٩) من سورة التوبة .

ومـع مانصت عليه بعض عهود الصلح من اسقاط الجزية مقـابل العون للمسلمين فان بعضها الآخر نص على اشتراط عون الكفار للمسلمين ونصرتهم ولم يسقط عنهم الجزية مقابل ذلك ، ومنها عهد : (مرو الروذ) وفيه : "وان عليـــك نصـرة المسلمين وقتـال عـدوهم بمن معـك مـــن الأسـاورة ان أحب المسلمـون ذلك وأرادوه ، وان لـك على ذلك نصرة المسلمين على مـن يقاتل من وراءك من أهل ملتك"(١). وعهد تفليس ، وجاء فيه : "ولنـا نصيحتكم وضلعكم(٢)على عدو الله ورسوله والذين آمنوا ، فيما استطعتم"(٣). فكيف تسقط عن بعض من أعان وتؤخذ من آخرين؟!

وقد اشترط المسلمون على أنفسهم المنعة لأهل الـذمة ، وان لم يقدروا على ذلك فانهم لايأخذون منهم الجزية ، كما فى صلح الحيرة وغيره(٤)، وان أخذوهـا ردوهـا ان لم يستطيعـوا منعة أهل الذمة حتى لـو لم يذكـر ذلك فى صلحهم ، كما ردت جزية أهل دمشق وحمص لما انسحب المسلمون منها الى اليرمـوك حين زحفـت جموع النصـرانية على المسلمين ، فلم يستطيعـوا منعـة أهلها(٥)، لكنهـم لم يسقطوها عمن قـاتل معهم ، والمرويات الاخبـارية تقدم لنـا دلائل كثيرة على قتـال كثير مـن النصـارى فى الشـام مـع المسلمين ضـد الروم(٦). غير أنهـم لم يسقطوا عنهـم الجزية ، أضف الى ذلـك أن عمر بن الخطـاب لم يسقط الجزية عـن الغساسنة بالشام ، وهـــم مـن نصارى العرب ،

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣١٠/٤-٣١١ .

(٢) ضلعكم : قوتكم أى فى المعونة والنصر على الأعداء . (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ضلع) .

(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٦٧-٢٦٨ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨٨-٢٩٠ . وفى صلح (بانقيا) ، انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٣٦٧/٣-٣٦٨ ؛ وصلح (ماه بهراذان) ، انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ١٣٧/٤ ؛ و(ماه دينار) ، الطبرى ، نفس المصدر ، ١٣٧/٤ .

(٥) انظر ، بعد : ص٢٤٤ .

(٦) لأمثلـة أكثر ، انظـر بعـد : الفصـل السـادس ، موقف نصـارى الشـام مـن الحكم الاسلامى ، ص٤٩٢-٤٩٤ .

أهل الكثرة والقوة والشوكة .

يقول اليعقوبى : أن جبلة بن الأيهم ، جاء عمرا وطلب أن يأخذ منه الصدقة ، كالعرب ، ويسقط عنه الجزية أنفة ، فقال عمر : بل الجزية والا فالحق بمن هو على دينك ، فخرج فى ثلاثين ألفا من قومه ، الى أرض الروم وندم عمر على ماكان منه فى أمره(١).

وروى أبو عبيد أن عمرا قال له : اختر منى احدى ثلاث : "اما أن تسلم ، ... ، واما أن تؤدى الخراج ، واما أن تلحق بالروم . قال : فلحق بالروم"(٢). وقد عاتبه عبادة بن الصامت ، وقال لو أخذت منهم الصدقة وتألفتهم على الاسلام ، ولعل ذلك هو الذى دفع عمر الى أخذ الصدقة مضاعفة من نصارى تغلب وأخذها جزية باسم الصدقة(٣). فقد روى البلاذرى الاجماع على أن سبيل مايؤخذ من مال بنى تغلب سبيل مال الخراج لأنه بدل من الجزية(٤).

ونجد أن أبا عبيدة أطعم السامرة فى الشام أرضهم ولم يسقط عنهم الجزية(٥)، أى أخذ الجزية وأسقط خراج الأرض . واتخذ نفس السياسة مع أهل شيزر عندما صدقوا ولاءهم للمسلمين ، وقاتلوا بطريقهم الذى بعثه امبراطور الروم اليهم ، فنقض صلحهم مع المسلمين ، وأساء فيهم السيرة ، فقتلوه ، وعادوا الى الذمة . فجازاهم المسلمون باسقاط الخراج عمن أسلم سنتين ، وعمن أقام على دينه سنة ، وألزمه الجزية(٦). وهنا يتبين وضوح الفرق بين الجزية والخراج عند المسلمين ، وان لم تنص العهود بذلك .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، ١٤٧/٢ .
(٢) الأموال ، ص٣٨-٣٩ .
(٣) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٢-٤٤٣ .
(٤) فتوح البلدان ، ص١٨٧ .
(٥) انظر بعد : ص١٨٨ .
(٦) الواقدى ، فتوح الشام ، ١٥٢/١-١٥٣ .

واسترشادا بفعل أبى عبيدة وتأويل النصوص والأحكام التى عرضناها نرجح أن المسلمين لم يسقطوا عن الكفار جزية رؤوسهم ، وانما أسقطوا جزية الأرض أى (الخراج) كما فعل أبو عبيدة مع السامرة وأهل شيزر . ذلك أن لفظ الجزية جاء فى معظم نصوص عهود الأمان معبرا عن الواجبات المالية (جزية ، وخراجا ، وغيرها) . فلم يرتبط ذكر الجزية والخراج الا فى عهدين "بعلبك ، ودبيل"(١)، وماعداها تذكر الجزية فحسب ، معبرة عن الجزية والخراج .

ولفظ الجزية يطلق على خراج الأرض ومايؤخذ من الذمى من مال لزمه بعقد الذمة ، كما ورد استعمال لفظ الخراج بمعنى الجزية على ألسنة الفقهاء أيضا(٢). وكما جاء فى قول عمر لجبلة بن الأيهم ، واما أن تؤدى الخراج ، يعنى الجزية(٣). وقد جاء هذا التعبير المتبادل بين اللفظين فى بعض عهود الصلح ، فلفظ الخراج فى عهد مرو الروذ جاء معبرا عن جزية الرأس وخراج الأرض(٤). وجاء لفظ الخراج بمعنى الجزية فى عهد قبرص(٥). وفى عهد هراة جاء لفظ الجزية معبرا عن الخراج(٦)، مع وضوح المقصود والفرق بين ضريبة الرأس والأرض ، وان عم اللفظ .

وعليه فانى أرى أن المسلمين انما كانوا يسقطون خراج الأرض الذى جاء فى معظم العهود وبلفظ الجزية ، أما جزية الرأس فشرط أمر الله به على الذين لايؤمنون ، يعطوها عن يد وهم صاغرون ، لكف القتال عنهم . وحق على المسلمين أن يحفظوا حق الله وشرطه ليبقى دليلا على صغار

---

(١) وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح ، ص٢٤٠ .

(٢) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٣٧-١٣٨،١٥٨-١٥٩ .

(٣) انظر قوله فى الصفحة السابقة .

(٤) انظر نص العهد فى : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٣١٠-٣١١ .

(٥) انظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٢٣ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٤ ؛ قدامة الخراج ، ص٣٠٦ .

(٦) انظر نص العهد عند البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٣٩٦ .

الكافرين ، وعلو كلمة الله والمؤمنين(١).

(٢) اعطاء الخراج(٢).

وقد ورد عن هذا الشرط فى المرويات الخبرية : تحديد قدر الخراج بجريب عن كل جريب أرض(٣).

وكما قدمنا عن شرط الجزية ، فقد جاء فى كثير من المرويات تقديرها بدينار وجريب ، وظن كثير من الباحثين أن تلك جزية الرأس ، والراجح أن الدينار جزية الرأس ، والجريب خراج الأرض . يوضح ذلك ماورد فى الطبرى عن ذلك اذ قال عن عهد (دمشق) وكانت معظم البلاد قد صالحت على ماصالح أهل دمشق قال : "ودينار على كل رأس ... وجرى على الديار ومن بقى فى الصلح جريب عن كل جريب أرض"(٤). وماأورده عن صلح طبرية وبيسان ، وقوله : "وعن كل رأس دينار كل سنة ، وعن كل جريب

---

(١) اقترنت الجزية بمعنى الصغار فى عهدى : (قومس) ، انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٥٢/٤ ؛ وعهد (دبيل) ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٩٩ .

(٢) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، مقرونا بالجزية ، فى رواية البلاذرى فحسب ، ولم تنص عليه العهود الأخرى .
وقد ورد ذكره فى بعض المرويات الخبرية عن عهد : (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٧ ؛ و(فحل) ،ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ و(بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ ابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص٢١١ ؛ و(حماه) ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٢/٢ ؛ و(ايلياء) ، ذكره قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٩-٣٠٠ ؛ و(حمص) ، ذكره ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٣/٧-٥٤ ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٦-١٣٧ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ وعهد : (شيزر) ، و(المعرة) ، و(فامية) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٧ .

(٣) عهد (دمشق) ، ذكره الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٤٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٥٠ ؛ وعهد : (طبرية) ، و(بيسان) ، وبقية مدن الأردن على صلحهما ، ذكره الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٤٤/٣ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٤٠/٣ .

أرض جريب بر أو شعير ، أى ذلك حرث"(١).

وورد بمعناه لابلفظه كما عند البلاذرى ، قال : "دينارا وجريب حنطة وخل وزيت لقوت المسلمين"(٢). وابن عساكر وقال : "دينارين وشىء من طعام"(٣).

وتشير بعض المرويات الى فرض الخراج الجماعى بمبلغ مقدر على كامل أرض أهل البلد ، كفرض مائة وسبعين ألف دينار على أرض حمص(٤).

ويروى البلاذرى(٥)، أن المسلمين أسقطوا الخراج عن بعض أرض الشام ، وذلك أن أبا عبيدة بن الجراح صالح السامرة بالأردن وفلسطين ، وكانوا عيونا وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم ، وكذلك اسقاطه عن أهل شيزر لمدة محدودة(٦).

(٣) عليهم عشور تجارتهم ، آمنين عليها أينما اتجروا بها من أرض المسلمين(٧).

(٤) عليهم السمع والنصح والطاعة ، فلاينتقضوا ، ولايحدثوا ، ولايؤوا محدثا(٨).

وجعلت عهود الصلح الأمان والذمة مشروطة بدفع الجزية(٩)، وألا

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٤٤/٣ .

(٢) فتوح البلدان ، ص١٣١ .

(٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٠٦ .

(٤) ذكره الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤١/٢ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٧٥-٤٧٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٨٧/٢ .

(٥) فتوح البلدان ، ص١٦٢ .

(٦) انظر قبل : ص١٨٥ .

(٧) ورد فى نص عهد : (بعلبك) ، رواية ابن عساكر .

(٨) ورد فى نص عهد : (دمشق) رواية ابن عساكر من قول ابن سارقة ؛ و(بعلبك) ، رواية ابن عساكر .
ورود فى المرويات الخبرية عن عهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ . (ذكر النصح ، وألا يحملون على المسلمين سلاحا ، ولايحدثون حدثا) .

(٩) ورد فى نص عهد : (دمشق) روايتى البلاذرى ، وقدامة ؛ وعهد : (ايلياء) ، رواية الطبرى ، وابن حبيش .

يحدثوا حدثا[١].

وورد فى بعض المرويات الاخبارية عن مضامين العهود ذكر لواجبات لم ترد فى نصوص العهود ، وهى :

(٥) جعل ماكان من الأرض للملوك ومن صوب معهم فيئا[٢]. وولوا أهل البلاد معاملة تلك الأرض[٣].
(٦) ألا يكاتبوا الروم[٤].
(٧) أن يكونوا عيونا للمسلمين ، يبحثون عن أخبار الروم ، ويخبرون بها المسلمين[٥].
(٨) لايتركون جاسوسا يتجسس على المسلمين[٦].
(٩) اعانة المسلمين بالميرة والعلافة واخراج الأسواق ، اذ نزل المسلمون لحرب بالقرب منهم[٧].
(١٠) بناء القناطر على الأنهار واصلاحها[٨].

---

(١) ورد فى نص عهد : (دمشق) ، رواية ابن عساكر من قول ابن سراقة ؛ وعهد : (ايلياء) ، رواية اليعقوبى .
(٢) ورد فى عهد : (دمشق) ، ذكره الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٤٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٥٠/٢ ؛ و(طبرية) ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٠ .
(٣) ورد فى عهد : (حمص) ، ذكره الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠٠/٣ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٩٢/٢-٢٩٣ .
(٤) ورد فى عهد : (بعلبك) ، ذكره الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٣/١ .
(٥) ورد فى عهد : (حلب) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٥١/١ ؛ (و(دلوك ورعبان) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٥/٢ ؛ و(الجراجمة) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٤ .
(٦) ورد فى عهد : (حلب) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٧) ورد فى عهد : (حلب) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ و(بعلبك) ، ذكره الواقدى ، نفس المصدر ، ١٤٣/١ .
(٨) ورد بلفظ عام فيما شرط على نصارى الشام فى صلحهم . ذكره : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨١ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

(١١) ضيافة المسلمين يوما وليلة[١].

(١٢) تموين الجيش بالغذاء ، وهو تكليف وقتى لحاجة الجند لايدخل فى الصلح الدائم[٢].

(١٣) أن يكونوا أعوانا للمسلمين ، ومسالح[٣].

(١٤) وأشارت بعض الروايات الى مصالحة المسلمين لأهل بعض البلاد على أشياء ولم يذكروها[٤]. أو القول بمصالحة كثير من البلدان على مثل صلح غيرها[٥].

ولما نقض الجراجمة صلحهم سنة ٨٩هـ/٧٠٧-٧٠٨م فى خلافة الوليد ابن عبد الملك وجه اليهم مسلمة بن عبد الملك[٦]، فافتتح مدينتهم على

---

(١) فى عهد : (حمص) ، ذكره الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٢٨٧ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص١٧١ ؛ و(تدمر) ، ذكره قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٨٧ ؛ و(دير طايا ودير الفسيلة) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٤ .

(٢) فى عهد : (بصرى) ، ذكره البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٧ .

(٣) ورد فى عهد : (الجراجمة) ، ذكره البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٦/٢ .

(٤) ورد فى عهد : (طبرية) ، ذكره الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٤٤/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٥٥/٢ .

(٥) انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٦٠١/٣ (عن مصالحة قنسرين على صلح حمص) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٥/٢ (عن مصالحة منبج على صلح انطاكية) ؛ بل ويذكر مصالحة مدينة على صلح مدينة أخرى هى صولحت على صلح غيرها . انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥ (عن مصالحة دلوك ورعبان على صلح منبج) . وقدمنا أن منبج صولحت على صلح انطاكية .

(٦) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الأمير القائد ، من أبطال عصره من بنى أمية ، له فتوحات مشهورة ، وغزا القسطنطينية زمن أخيه سليمان بن عبد الملك ، وولاه يزيد بن عبد الملك امرة العراقين ثم أرمينية ، وغزا الترك والسند ومات بالشام ، قال الذهبى : كان أولى بالخلافة من سائر اخوته ، ومات سنة ١٢٠هـ .
انظر : الزركلى ، الأعلام ، ٢٢٤/٧ .

صلح احتوى الشروط التالية(١):

(١) أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام .

(٢) أن يجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى أهلهم القوت مدان من قمح وقسطان من زيت .

(٣) ألا يكرهوا ولاأحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية .

(٤) أن يلبسوا لباس المسلمين .

(٥) أن لايؤخذ منهم ولامن أولادهم ونسائهم جزية .

(٦) أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة .

(٧) أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم مايؤخذ من أموال المسلمين .

(٨) اخراب مدينتهم .

وأرى أن ماأجرى عليهم من أموال ، ومعاملتهم فى عشور التجارة كالمسلمين ، هو من باب تعويضهم عن أموالهم وأرضهم لما حكم المسلمون باخراب مدينتهم وانزالهم مواطن أخرى .

وأما اسقاط الجزية وأراها كما قدمت جزية الأرض أى خراجها ، ونفلهم سلب من قتلوه فى غزوهم مع المسلمين ، فانه شرط قد كان لهم فى صلحهم الأول زمن الخلفاء الراشدين .

أما عدم اكراههم على الاسلام ، فذاك مبدأ اسلامى محفوظ بدون شرط ، ويأتى اعطاؤهم حق لبس زى المسلمين ، من باب المصلحة العامة ، وقد أجازه بعض العلماء(٢).

وكان اخراب مدينتهم ونقلهم عنها ، لئلا يتمردوا مرة أخرى ، وقد حق للمسلمين ذلك لما نقضوا العهد الذى عقدوه زمن الخلفاء الراشدين .

---

(١) عن صلح الجراجمة زمن الوليد بن عبد الملك ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ص١٦٥-١٦٦ .

(٢) انظر بعد : ص٤٤٦ .

(ج) الضمان :

بعد ذكر شروط الصلح يأتى ذكر الضمان ، وجاء ذكره فى بعض نصوص عهود الشام على النحو الآتى :

"لهم بذلك عهد الله ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء ، والمؤمنين ، لايعرض لهم الا بخير ، اذا أعطوا الجزية"(١)، فعلق الضمان بأداء الواجب وذكر رأس الواجبات وعمودها وهو أداء الجزية ، لأنه شرط ايقاف الجهاد وسبب مصالحة الكفار كما فى قوله تعالى : {... **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**}(٢).

(د) العقوبة :

لم تتضمن نصوص عهود الصلح لبلاد الشام المحفوظة نوع عقوبة المخل بالعهد ، وناقض الصلح ، غير أنها نصت على مشروطية حق الأمان والذمة باعطاء الجزية وألا يحدثوا حدثا كما ذكرنا(٣). ولكن لم تنص على عقوبة من برئت منه الذمة ، لخيانة أو عدم قيام بواجب .

وينفرد الواقدى(٤)بمروية خبرية عن عهد حلب يذكر فيها عقوبة من نقض العهد وهى : أن لاعهد لهم ولاذمة . ومن أصابه المسلمون وقد أخلف ماعاهد عليه ، قتل ، واستحل ماله وولده .

وبوقفة تأمل وتمحيص لنصوص عهود الصلح التى حفظتها المصادر ووصلت الينا واعتمدناها فى دراستنا لعهود الصلح وشروط الأمان آنفا .

نرى فيما يخص (عهد دمشق)(٥): أن نصه جاء موجزا مجملا بسيطا ، اهتم بأساس العقد حقوقا وواجبات . فذكر الأمان على النفس والمال

---

(١) ورد فى نص عهد : (دمشق) ، رواية البلاذرى ، وقدامة ؛ و(ايلياء) ، رواية الطبرى وابن حبيش .

(٢) التوبة ، آية : ٢٩

(٣) انظر : رابع الواجبات ، ص٢٦ .

(٤) فتوح الشام ، ٢٥١/١ .

(٥) انظر نص عهد دمشق بمروياته المختلفة فى بعد : ملحق رقم ١ .

والكنائس والدور ، وهو عمود الحقوق . وذكرت لهم بعض الروايات الأمان على سور مدينتهم ، وهذا شرط خاص بهم .

مقابل أداء الواجبات ، ونص على عمودها وهى الجزية فحسب ، بينما أشارت بعض رواياته اشتراط ألا يحدثوا حدثا ، أو يؤوا محدثا ، كشرط لاستمرارية العهد ، وبقاء الأمان ، وعقد الذمة .

وبالنظر الى مروياته ، نجد ماأورده أبو عبيد نقله ابن زنجويه ، وجاء النص ناقصا ، فقد ذكر الأمان على الدماء ، والأموال ، والكنائس . ثم قال أبو عبيد : وذكر فيه كلاما لم أحفظه . وذكر الشهود والتاريخ ، وهو سنة ١٣هـ ، فجاءت رواية البلاذرى تحمل نصا كاملا ، وافق فيها رواية أبى عبيد وزاد الأمان على سور المدينة ، وألا يسكن شىء من دورهم ، واشترط عليهم الجزية ، وأعطوا العهد والذمة ، لكنه لم يذكر الشهود ولاالتاريخ ، وروايته غير مسنده ، وقد نقلها عنه قدامة ، ولعلها رواية سراقة التى رواها أبو عبيد ، بينما يورد ابن عساكر ثلاث مرويات واحدة لابن سراقة وهى التى رواها أبو عبيد ونقلها عنه ابن زنجويه ، زاد فيها على ماورد عند أبى عبيد : الأمان على المساكن وألا تهدم أو تسكن ، مالم يحدثوا حدثا ، أو يؤوا محدثا غيلة ، لكنه لم يذكر الشهود والتاريخ ، وروايتين أخريتين ، واحدة عن الأوزاعى ، والثانية عن عبد الله بن المغيرة ، والروايتين لم تذكرا الأمان على الدور ، ولااشتراط عدم الاحداث ، والأولى ذكرت الشهود لكنها وضعت يزيد بن أبى سفيان مكان أبى عبيدة بن الجراح كما جاء فى رواية أبى عبيد عن سراقة ، وهم أبو عبيدة ، وشرحبيل بن حسنة ، وقضاعى بن عامر ، وأرخت للصلح برجب سنة ١٤هـ/٦٣٥م ، ولم تؤرخ له الثانية . وهذا التاريخ هو الراجح لدى جمهور المؤرخين ، وان كنا نرى ذكره فى نص عهد الصلح ألحق به فيما بعد ، لأن عمر لم يأمر بالتأريخ بالهجرة النبوية الا سنة ١٦هـ/٦٣٧م[1]. والثانية ذكرت الشهود ووصفت

(١) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٨/٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٦٧/٢ .

يزيد بن أبى سفيان مكان قضاعى بن عامر ، ولم تؤرخ للصلح . ونلاحظ أن جميع الروايات تتفق على أن الذى كتب عهد الصلح خالد بن الوليد ، وان ذكر البلاذرى وقدامة القول بأن أبا عبيدة أمضاه .

كما يلاحظ أن الاختلاف بين المرويات يسير جدا ، ولعل ماوقع من ذلك بسبب اعتماد المسلمين فيما رووه على الحفظ(١). وهذا ماصرح به أبو عبيد عند ايراده لرواية ابن سراقة ناقصة ، أنه ذكر كلاما لم يحفظه .

أما عهد : (بعلبك)(٢)، فقد أورده البلاذرى برواية غير مسندة ، وابن عساكر من رواية اسماعيل بن عياش . وظهر أكثر تفصيلا فى كلا الروايتين من عهد دمشق ، وزاد عنه ، بالأمان على دورهم خارج المدينة أيضا وعلى أرحائهم ، وحرية الاتجار فى أى بلدان المسلمين ، واعطاءهم مهلة يرتبون فيها أمورهم ويختارون بين البقاء أو الارتحال على أن للمسلمين فيهم كل نفس حرة مسلمة ، وذكر البلاذرى فرض الخراج مع الجزية .

بينما انفردت رواية ابن عياش ، بالأمان على الدواب والماشية ، والسمع والنصح والطاعة ، وفرض العشور على التجارة ، واستخلاص الأمانات التى لأهل بعلبك الباقين على الصلح ممن يريد الارتحال من أهل مدينتهم .

ويلاحظ الاختلاف بين الروايتين فى عدة مواضع ، فان اتفقتا على أبى عبيدة كمعط للعهد ، فانهما يختلفان فى ذكر من ناله بزيادة ابن عساكر التفصيل فيمن أخذ عليه العهد ، كما ذكر ابن عساكر الشهود والختم ولم يذكرهم البلاذرى ، وأن رواية ابن عساكر عن ابن عياش جاءت مطولة وأكثر تفصيلا وبها زيادات لم يوردها البلاذرى ، مما يدل على الالحاق والادراج فيها مع مرور الزمن .

---

(١) لأن المسلمين كانوا يتركون عهد الصلح بيد أهل الذمة ، ويبدو أنهم كانوا يكتبونه من نسخة واحدة ، فلايبقى بيدهم صورة أخرى له . وهذا ماحدا بعمر ابن عبد العزيز أن يكلف رجلا بالنظر فى عهد الرها عند أسقفها الذى كان يحتفظ به ، فأمضاه . انظر : وداد القاضى ، مدخل لدراسة عهود الصلح ، ص٢١٨ .

(٢) انظر نص عهد : (بعلبك) ، بعد : ملحق رقم ٢ .

أما عهد : (ايلياء)[١]، فلدينا له عدة روايات أوردها اليعقوبى ، والطبرى ، وابن البطريق ، وابن حبيش ، وابن الجوزى .

وقد جاءت مجملة ، عند اليعقوبى ، وابن البطريق ، بينما جاءت مطولة فى شىء من التفصيل عند الطبرى الذى نقل عنه النص كما يبدو ابن حبيش[٢].

وابن الجوزى كأنما أوجز ماأورده الطبرى ، غير أنه جعل أحد الشهود على بن أبى طالب وهو فى الصحيح لم يحضر الشام مع عمر فقد استخلفه على المدينة[٣].

واذا تأملنا تلك الروايات ، نجد اليعقوبى وابن البطريق فى روايتيهما للعهد ، نجدها تنص على الأمان على الأنفس والأموال والكنائس ، لاتسكن ولاتخرب وهذا عمود الحقوق ، وزاد اليعقوبى شرط الأمان بعدم احداث حدث عام ، فلم ينص على حقوق أخرى ، ولاعلى شىء من الواجبات حتى الجزية وهى عمودها ، بينما نجد الطبرى ، يوافقهما فى ذلك ويزيد شرط الكنائس تفصيلا ، فأضاف وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، ولاينتقص منها ، ولامن حيزها ، ولامن صليبهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، غير أنه يضيف شروطا أخرى ، فمن الحقوق ألا يسكن معهم أحد من اليهود ، ومن الواجبات : اعطاء الجزية على أن تؤخذ وقت حصادهم ، واخراج الروم واللصوت من مدينتهم . وأضاف تخييرهم ومن فى مدينتهم من غيرهم فى البقاء على تلك الشروط ، أو الارتحال آمنين ، ولهم بذلك العهد والذمة . ويلاحظ ، غرابة شرط اخراج الروم ،

---

(١) انظر نص عهد ايلياء ، بعد : ملحق رقم ٣ .

(٢) لاحظت أن المرويات التى رواها كل من الطبرى وابن حبيش ، بينها اتفاق شبه تام ، مما يبين أن ابن حبيش قد نقل عن ابن جرير الطبرى ، أو استقى الروايات من مصادره .

(٣) لاحظ ذلك ، زكريا القضاة ، انظر : معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

واللصوت ، وألا يسكن أحد من اليهود معهم(١).

ولزكريا القضاة(٢)، بحثا عن معاهدة بيت المقدس ، وقد نقد نصوصها ومن ذلك ملاحظته تأريخ العهد بسنة ١٥هـ/٦٣٦م ، وأن المسلمين لم يؤرخوا بالهجرة النبوية الا سنة ١٦هـ/٦٣٧م ، مما يدل على الالحاق بالوثيقة الأصلية.

أما عهد (لد وسائر فلسطين)(٣)، فقد أورده الطبرى ، وابن حبيش . وهما متطابقان تماما مما يوحى بنقل ابن حبيش عن الطبرى ، وقد جاء نص العهد عندهما ناقصا مبتور الآخر ، وصدره ، ماثل عهد ايلياء ، الا شرطهم ألا يسكن معهم أحد من اليهود ، ويرجح أن باقى العهد كأوله مطابق لعهد ايلياء ، حيث توقف الطبرى بعد ذكر فرض الجزية عليهم على قول : "وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره" ، ولعله يقصد مثل شرط ايلياء الى آخره . ويقول حسن الحارثى(٤): أن ابن كثير وضح المقصود من عبارة الطبرى بقوله : أن عمر بن الخطاب صالح أهل ايلياء ثم كتب لأهل لد ومن هناك من الناس كتابا آخرا وضرب عليهم الجزية ودخلوا فيما صالح عليه أهل ايلياء .

وبنظرة عامة لنصوص عهود الصلح هذه ، يتبين أنهاجاءت مجملة غير مفصلة ولاكاملة الجوانب ، غير أنها مع ذلك نصت كلها على أهم شرط يهم أهل الذمة من حقوقهم وهو الأمان ، بينما خلا البعض منها من ذكر ماعليهم من واجبات حتى أهمها وهو شرط الجزية ، الذى يمثل شرط قيام الصلح . وان ذكر بعض حقوق أهل الصلح فان تلك العهود لم تشر الى أكثرها ، وان نصت على بعض الواجبات فقد أهمل أكثرها .

---

(١) انظر ماأوردناه تجاه هذه الشروط ، قبل : ص١٧٤-١٧٨ .

(٢) انظر : معاهدة فتح بيت المقدس "العهدة العمرية" ، وبالأخص نقدها لنصوص المعاهدة ، ص٢٧٥-٢٧٦ .

(٣) انظر نص العهد ، بعد : ملحق رقم ٤ .

(٤) المعاهدات فى زمن الخلفاء الراشدين ، ص٤٢٦-٤٢٧ .

وهذا ليس نتيجة سهو الرواة ، أو خطأ النساخ فحسب ، فلاشك أن لهم دور فيما حدث من تباين بين مرويات تلك العهود ، فمنهم من سمع ووعى أو قرأ فحفظ ، ومنهم من نسى شيئا أو زاد آخر أو خلط بين مضامين عهدين . غير أن عدم تكامل العهود واحتواءها على أحكام أهل الذمة فى الاسلام ، حقوقا وواجبات ، يدل على أن المسلمين لم ينظروا للعهد على أنه وثيقة التشريع الذى سيعامل بما فيه أهل الذمة فحسب ، بل كانوا يرونه كما أرى رمزا لحدوث الصلح وفق شرط الجزية ، ورمزا للأمان ، وتعهدا بالالتزام ، وعهدا بالوفاء ، وعقدا للذمة ، وأن ماذكر فيه من شروط لاتمثل كل حقوق أهل الذمة ولاجميع واجباتهم ، أما الحق الذى لهم وعليهم ، فقد كان واضحا لدى المسلمين ، الا أنهم كانوا لايرون ضرورة لتدوينه فى نص العهد . لذلك غلب على العهود ذكر أهم شرطين ، الأمان لهم والجزية عليهم ، ثم نلاحظ أن غالب ماجاء من تفصيلات محدودة ضمن بعض العهود ، أنما تمثل الحقوق الخاصة لاالعامة فى الغالب ، وهى كما أرى التى فاوض أهل البلد المسلمين عليها ، فأعطوهم اياها عن رضا وتسامح ، تألفا لهم ، أو لمصلحة المسلمين ، وكونها لاتخالف مبادىء الدين فى معاملة غير المسلمين(١).

لذا لانعجب أن نجد فيما عرف بالشروط العمرية شروطا لاتحويها هذه العهود وتفصيلا لمجمل ورد بها دعت الحاجة الى اضافته أو تبيانه . وقد ظن كثير من الباحثين ، عدم صحة الشروط العمرية لما رأوه من مخالفتها لعهود الصلح الأولى ، وأن ماجاء فيها تشددا على أهل الذمة واذلالا لهم ، وجورا وماذلك الا لعدم ادراكهم هذه الحقيقة ، فراحوايتهمون أئمة المسلمين وفقهائهم بالكذب بقولهم أنهم هم الذين وضعوا تلك الشروط ونسبوها لعمر بن الخطاب ، وماهى الا صيغ فقهية وضعت لمعالجة أوضاع تالية لزمن

---

(١) انظر نصوص عهود الصلح المعطاه لأهل الشام ، بعد : الملاحق .

الفتح (١).

ونقيض قول المؤرخين ، قول الامام ابن كثير رحمه الله (٢)، فى تفسيره لقوله تعالى : {**عن يد وهم صاغرون**} ، إذ قال أى عن قهر لهم وغلبة وهم ذليلون حقيرون مهانون ، فلهذا لايجوز اعزاز أهل الذمة ولارفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء فى صحيح مسلم : "**ولاتبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، واذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروهم الى أضيقه**"(٣). ولهذا اشترط عليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى اذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ فى رواية عبد الرحمن بن غنم . وأورد ابن كثير رحمه الله نص الشروط العمرية فى تفسيره .

والعجب أنهم يرون ذلك ، وهم يعلمون أن معاملة المسلمين لأهل الذمة عامة ، والنصارى خاصة ، تمت وفق أحكام أهل الذمة فى الاسلام ، والحق الذى لهم وعليهم ، سواء ورد فى عهود الصلح الأولى أو لم يرد ، وذكر فى الشروط العمرية أو لم يذكر ، فان كثيرا من أحكام معاملتهم لم تحويها حتى الشروط العمرية نفسها ، إذ لم تحو فرض الجزية وأحكامها ، والخراج ومقاديره وأحكامه ، والعشور ، وحكم الاستعانة بهم ، وغير ذلك (٤).

---

(١) انظر الشروط العمرية ، نصها ، ونقدها ، وماجاء من أقوال الباحثين المنكرين لصحتها ، بعد : ص٢٠٠ ومابعدها .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، م٢ ، ص١٣٦ ، تفسير آية (٢٩) من سورة التوبة .

(٣) مسلم ، صحيح مسلم ، ١٧٠٧/٤ ؛ أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ، ١١١/١٤ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد ، ٢٦٣/٢، ٢٦٦، ٣٤٦، ٤٤٤، ٤٥٩، ٥٢٥ ، ٢٣٣/٤ ، ٣٩٨/٦ .

(٤) انظر ماكتبناه عن معاملة المسلمين لنصارى الشام ، اداريا ، وماليا ، ودينيا ، واجتماعيا ، وسترى أن كثيرا مما عوملوا به وأحكام معاملتهم فى تلك النواحى لم تنص عليها عهود الصلح الأولى ، ولاالشروط العمرية . انظر : بعد الفصل الثالث والرابع والخامس .

تقـول وداد القاضى : "وهذه العهـود شهادة ناصعة على أن المسلمين لم يستغلـوا مركز القوة المطلقة الذى كانوا فيه ، وظلت النزعـة الانسانية غالبة على عقودهم مع أهالى الأراضى المفتوحة ، وفى ذلك عظة لأقوام أتوا بعدهم وسوف يأتون"(١).

---

(١) مدخل لدراسة عهود الصلح ، ص٢٤٨ .

* الشروط العمرية :

مع نصوص عهود الصلح الأولى التى أعطاها المسلمون الفاتحون لأهل الشام عند فتح بلادهم ، والمرويات الاخبارية عن مضامينها ، التى قدمنا الحديث عنها آنفا ، حوت بعض المصادر التاريخية والفقهية ، نص عهد أخذه الخليفة عمر بن الخطاب على نصارى الشام ، أشار اليه وأورد نصه عدد من المؤرخين والفقهاء ، بأكثر من رواية ، اختلفت فيمن كتب له ذلك العهد ، وفى اللفظ والمضمون ، فى نطاق محدود جدا ، يتبين معه أن تلك المرويات لذلك النص ، وان اختلفت فيمن كتب له ذلك العهد ، تعتبر وثيقة واحدة(١). وهذا العهد هو ماعرف واشتهر بـ "الشروط العمرية" .

وقد عول الفقهاء على هذا العهد ، وعدوه القانون الثابت المنظم للعلاقة بين أهل الذمة والمسلمين ، وأخذوا يجتهدون فى نصوصه ، ويحللون بنوده ، ويؤولونها ، ويرون وجوب تطبيقها، ويوصون الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين بالالتزام بها(٢). والحق أنها ليست القانون الأوحد فى معاملة أهل الذمة ، وانما هى أحد الأسس الثابتة الى جانب الأسس الأخرى من أحكام أهل الذمة فى الاسلام ، الواردة فى القرآن والسنة وفعل الخلفاء الراشدين .

يقول توفيق اليوزبكى : وأقدم من أورد نص العهد المعروف "بالشروط العمرية" ، أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م(٣).

---

(١) سنناقش هذا الاختلاف بعد ، انظر : ص٢٠٨ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة ، ص١٣٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص١٢٧-١٢٨ .
أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف القرشى الفهرى الأندلسى الطرطوشى ، الامام العلامة القدوة الزاهد شيخ المالكية فقيه أديب من الحفاظ ، من أهل طرطوشة بالأندلس ، وكان الطرطوشى يعرف فى وقته بابن أبى رندقة . تفقه ببلاده ثم حج وزار عددا من بلدان المشرق وتلقى العلم فيها على يد مشايخها ، نزل بيت المقدس مدة ، ثم تحول الى الاسكندرية ، وتخرج به أئمة ، حيث تولى التدريس بها حتى مات ، وله عدد من المصنفات منها كتاب "سراج الملوك" . وكانت وفاته سنة ٥٢٠هـ . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٩/٤٩٠-٤٩٦ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ٧/١٣٣-١٣٤ .

ونصـه : روى عبد الرحمن بن غنم قـال : كتبنا الى عمـر بن الخطـاب رضـى الله عنه لما صالح نصـارى أهل الشام : "بسم اللـه الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين مـن نصارى مدينـة (ــ) ، أنكـم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنـا ، وذرارينـا ، وأمـوالنا ، وأهـل ملتنا ، وشـرطنا لكم على أنفسنا ، ألا نحدث فى مـدائننا ولافيمـا حولهـا ، ديرا(١)، ولاكنيسة(٢)، ولاقلية(٣)، ولاصومعة(٤)راهـب ، ولانجدد ماخرب منهـا ، ولامـاكان مختطا منها فى خطـط المسلمين فى ليل ولانهـار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليـال نطعمهم ولانؤوى فى كنـائسنا ، ولافى منـازلنا جاسـوسا ، ولانكتمـه عـن المسلمين ، ولانعلم أولادنا القرآن ، ولانظهر شرعنا ، ولاندعوا اليه أحدا ، ولانمنع أحدا

---

(١) الدير : للنصارى خاصة ، يبنوه للرهبان ، خارج البلد ، يجتمعون فيه للرهبانية ، والتفرد عن الناس . (ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٦٦٨/٢) . والدير ، جمعه أديار ، وهو دير النصارى ، أو خان النصارى ، وصاحبه ، يسمى ديار وديرانى . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : درر) .

(٢) الكنيسـة : كنيسة اليهود ، وجمعهـا كنائس ، وهى معربة أصلهـا كنسـت . وقال الجوهـرى : والكنيسة للنصارى . (ابن منظـور ، نفس المصـدر ، مـادة : كنس) ، وقال ابن القيم : هى لأهل الكتابين . (انظر : نفس المصدر ، ٦٦٩/٢) .

(٣) قليـة : وقلاية ، ويبنيهـا رهبـانهم مرتفعة كالمنارة ، والفـرق بينهـا وبين الدير أن الـدير يجتمعون فيه والقلاية لاتكـون الا لواحد ينفرد بنفسـه ، ولايكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه ومايحتاج اليه . (ابن القيم ، نفس المصدر والجزء والصفحـة) ، واسمها عنـد النصارى قلاية، وهى تعـريب : كلاذة ، وهى كالصومعة من بيوت عبادتهم . (ابن منظـور ، نفـس المصـــدر ، مـادة : قلا) .

(٤) الصـومعة : قـال ابن عباس : الصـوامع يكـون فيها الرهبـان ، وقـال الأزهرى : سميت صومعة لتلطف أعلاها . قال ابن القيم : هى كالقلاية تكون للراهب وحده ومنهـم مـن فـرق بين الصـومعة والقلاية بأن القلاية تكـون منقطعـة فى فلاة مـن الأرض ، والصـــومعة تكـــون على الطـــرق . (ابن القيم ، نفـــس المصـــدر ، ٦٦٨/٢-٦٦٩) . وقـال ابن كثير : هـى المعابد للرهبان ، وقـال قتادة : هى معابد الصـــابئين ، وفى رواية عنـــه : صـــوامع المجـــوس . (مختصـــر تفسير ابن كثير ، ٥٤٧/٢).

من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان أراده ، وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولانتشبه بهم ، فى شىء من لباسهم فى قلنسوة [(١)]، ولاعمامة ، ولانعلين ، ولافرق شعر ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانتكنى بكناهم ، ولانركب السروج ، ولانتقلد بالسيوف ، ولانتخذ شيئا من السلاح ، ولانحمله معنا ، ولاننقش على خواتمنا بالعربية ، ولانبيع الخمور ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ، ونلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير [(٢)]على أوساطنا ، ولانظهر صلباننا وكتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولاأسواقهم ، ولانضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ، ولانرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى حضرة المسلمين ، ولانرفع أصواتنا مع موتانا ، ولانظهر النيران فى شىء من طرق المسلمين ، ولاأسواقهم ، ولانجاورهم بموتانا ، ولانتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ، ولانطلع على منازلهم ، فلما أتيت عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه : ولانضرب أحدا من المسلمين [(٣)]، شرطنا ذلك على أنفسنا ، وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ، وضمناه على أنفسنا ، فلاذمة لنا ، وقد حل منا مايحل من أهل المعاندة والشقاق ، فكتب عمر رضى الله عنه أن أمض ماسألوه وألحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ماشرطوه على انفسهم أن

---

(١) القلنسوة ، والقلسوة ، والقلساء ، والقلنساه ، والقلنسية : من ملابس الرؤوس معروفة . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : قلس) .

(٢) الزنانير : الزنار والزنارة ، ماعلى وسط المجوسى والنصرانى ، وهو مايلبسه الذمى يشده على وسطه . (ابن منظور ، نفس المصدر ، مادة : زنر) .

(٣) جاء فى بعض المرويات أنه زاد فيه شرطين هما : "ألا يشتروا من سبايانا ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده" . انظر : ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٢٥٧-٢٦١ . وفى نص الطرطوشى هذا ورد الشرط الأول فى الأصل ثابتا ، وهو قوله : "ولانتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين" . وجاء الشرط الثانى زيادة ، وذلك كما جاء فى مرويات النص عند ابن عساكر . (انظر : ملحق رقم : ٥) .

لايشتروا شيئـا مـن سبـايا المسلمين ومـن ضـرب مسلمـا عمـدا فقـد خلـع عهده"(١).

وسنقـف عند بعض الشروط التى تستلفـت النظر ، آخذين بشـرح ابن القيم لهـا ، ففـى شـرحه للشـروط العمـرية ، قال عن شـرط "ولانعلم أولادنا القـرآن" : صيانة للقرآن أن يحفظه الكافر به ، أما سمـاعه اياه فنعم ، اقامة للحجة عليه ولعله أن يسلم(٢).

وأمـا منعهم من التكلم بكلام العـرب ، فتمييزا لهـم ، ولما فى تكلمهم بها من المفاسد ، كجدلهم فيها ، واستطالتهم على المسلمين بها(٣).

وفيمـا ورد مـن شـروط تلـزمهم عـدم التشبـه بالمسلمين فى الملبـس والمركب وغير ذلك ، قال : هذا أصل الغيار ، تقدمت به سنة الرسول صلى اللـه عليه وسلم، وجرى عليهـا الأئمة فى كل عصر ومصـر . فعـن أبى القاسم الطبرى أنه روى عـن الـرسـول عليـه السلام مـايدل على وجوب استعمـال الغيـار لأهل الملل الذين خالفوا شريعته ، صغارا وذلا وشهـرة وعلما عليهم ليعـرفوا مـن المسلمين ، فعـن ابن عمر رضى الله عنـه أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "**بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله لايشرك به ، وجعـل الصغـار والـذل علـى مـن خالـف أمرى ، ومـن تشبـه بقـوم فهو منهم**"(٤).

---

(١) الطـرطوشى ، سـراج الملـوك ، المطبعـة الـوطنية ، الاسكنـدرية ، ١٢٨٩هـ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ وانظر نماذج من نصوص هذا العهد بصيغه المتعددة وطرقه المختلفة بعد : ملحق رقم : ٥ .

(٢) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٧٥/٢ .

(٣) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٦٦/٢-٧٦٧ .

(٤) هـذا الحديث بلفظه ذكره الألبـانى عن الهروى فى "ذم الكلام" ، ق٥٤/٢ ، ورواه أحمد فى مسنده ، ٥٠/٢ ، بلفظ : "بعثت بين يدى الساعة بالسيـف حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الـذل والصغار على من خالـف أمرى ، ومن تشبه بقـوم فهو منهم" . وهو بهذا اللفـظ حديث صحيـح . انظر : محمد ناصر الألبانى ، ارواء الغليل ، ١٠٩/٥ ، ٤٩/٨ .

وأمـر عمر بن الخطاب ألا يتشبهـوا بالمسلمين ، وعمـر بن عبـد العزيز مثله ، وهذا مذهب التابعين وأصحاب المقالات من الفقهـاء ، لما فى ذلك من الفـوائد ، منها أن يمتازوا ، فلايعامل الذمى بأحكام تخص المسملين كـالمبادأة بالسلام وغير ذلـك ، ولما فى بعـض ذلـك مـن عز لهـم وقـد أذلهـم اللـه ، كركوب السرج وهى من آلات الخيل ، وهـم ممنوعون مـن ركوبها ، وتقلد السيـوف وحمل السلاح ، فبـالسيف الناصر والكتاب الهـادى عز الاسلام ، قال تعالى : {**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ...}(١). وهو قضيب الأدب ، ففـى صفة الرسول صلى اللـه عليه وسلم فى الكتب المتقـدمة "بيـده قضيب الأدب" . فـالسيف ينصر به الدين ، ويذل الله به الكـافرين ، والذمى ليس من أهل حمله والعز به ، كما قال عمر بن الخطاب : "لاتعـزوهم وقد أذلهم الله ، ولاتقربوهم وقد أقصاهم"(٢). ورأى أن المقصودين بالمنع أهل المدائن والمخـالطين للمسلمين فى أمصـارهم ، حماية للمسلم ، واذلالا للكـافر ، لكـن ذلـك فيما يبدو لم يكن عامـا ، وخصوصا لأهل الثغـور منهـم ، فقد صولح الجراجمة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسـالح فى جبل اللكام ، وأن يعطـوا سلـب من قتلوه مـن عدو المسلمين اذا غـزوا مـع المسلمين(٣). وهذا يدل على أنهم كانوا يتخذون السلاح ويحملونه ، ولعـل ذلك مقتصرا على وقت الغزو ، لكنهم ممنوعون من حمله فيما عدا ذلك .

وأما ماكان من منعهم من بعض شعائر دينهم كضرب النواقيس بصوت عال ، واظهار النيران والخمـر والاتجار به من بلد الى بلـد وفى الأمصار التى مصـرها المسلمون ، واظهار صلبـانهم خارج كنائسهم ومنـازلهم ، فى أسواق

---

(١) الحديد ، آية : ٢٥

(٢) انظـر عـن ذلـك ابن القيم ، أحكـام أهـل الـذمة ، ٢/٧٣٥-٧٣٧،٧٤٦،٧٤٩، ٧٥٧-٧٦١ .

(٣) انظـر قبل : ص١٩٠ ؛ وعن مجمـل صلح الجراجمة انظر أيضا : البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ص١٦٤ .

المسلمين وطرقهم ، واظهار الخنازير ، ورفع الصوت بالقراءة فى صلواتهم بالكنائس فى محضر المسلمين ، ورفع أصواتهم مع موتاهم ، ومجاورتهم المسلمين بموتاهم ، وغير ذلك، فانه من باب أنهم منعوا من اظهار دينهم ، وهذا اظهار لدينهم ، وفيه أذية بالمسلمين وقد أمروا بتوقيرهم . الا ماكان فى صلحهم فيوفى لهم به(١).

وقد أورد عدد من المؤرخين الشروط العمرية بنصها .

فأورد ابن عساكر(٢)عددا من المرويات لعهد عمر لنصارى الشام ، منها رواية مسروق بن الأجدع من طرق متعددة ، ورواية عن شهر بن حوشب فيها مضمون رواية مسروق نفسه .

ونقل ابن منظور(٣)عهدا أعطى لأبى عبيدة ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم ، وآخر كتب لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام ، كتبه عبد الرحمن بن غنم من نصارى مدينة (كذا وكذا)(٤).

كما نقلها ابن تيمية(٥)من رواية مسروق أيضا ، على أنه عهدا أخذه عمر على نصارى الشام عامة .

أما ابن القيم ، فقد ذيل كتابه أحكام أهل الذمة بالشروط العمرية وشرحها ، كما صرح بذلك فى قوله : "سيذكر فى آخر الجواب الشروط العمرية.وشرحها"(٦).

---

(١) انظر شرح تلك الشروط ، وماأورده الشارح من أدلة وأحكام حول ذلك عند : ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٧١٥-٧٢٠،٧٢٥-٧٢٩،٧٧٤-٧٧٥ .

(٢) انظر نصوصها فى الملحق رقم : ٥ .

(٣) مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .

(٤) نفس المصدر ، والمجلد ، والجزء ، ص٢٢٧-٢٢٨ .

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/١٠٣ .

(٦) ١/٢٥ . وانظر الشروط العمرية لديه : ٢/٦٥٧ حتى آخر الكتاب .

وقد صدر حديثه عن الشروط ، بايراد ثلاث مرويات ، الأولى : تمثل نص عهد كتبه أهل الجزيرة الى عبد الرحمن بن غنم ، فكتب به الى عمر(١). والثانية : تمثل عهدا كتبه أيضا عبد الرحمن بن غنم لعمر حين صالح نصارى الشام ، ولم يعين مدينة بذاتها(٢). والثالثة : لعهد كتبه عبد الرحمن بن غنم لعمر حين صالح نصارى الشام ، من نصارى "مدينة كذا وكذا"(٣).

وابن كثير فى تفسيره ، أورد رواية عبد الرحمن بن غنم التى كتبها لعمر من نصارى "مدينة كذا وكذا"(٤). وكذلك مجير الدين الحنبلى(٥)، أورد نفس الرواية وهى فى هذين المصدرين غير مسندة .

كما نقلها عدد من الفقهاء والعلماء والمؤرخين المتأخرين(٦).

كما ورد فى المصادر التاريخية والفقهية كثير من المرويات الاخبارية عن الشروط العمرية ، أخبرت عن وقوعها ، ونسبتها الى عمر ، وحوت مضامينها وذكرت شروط عمر على نصارى الشام عامة ، حتى لقد روى بعضهم كأبى يوسف مروية خبرية عن الشروط العمرية حوت جل مافى نص العهد الذى رواه الطرطوشى وان لم يورد النص كاملا(٧).

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٦٥٧-٦٦١ .
(٢) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢/٦٦١-٦٦٢ .
(٣) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢/٦٦٢-٦٦٣ .
(٤) انظر النص فى : مختصر تفسير ابن كثير ، م٢ ، ص١٣٦ ، فى تفسير آية ٢٩ من سورة التوبة .
(٥) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ١/٢٥٤-٢٥٥ .
(٦) انظرهم عند : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة ، ص١٢٧-١٢٨ .
(٧) انظر بعض تلك المرويات فى المصادر التالية على سبيل المثال لاالحصر ، وسنفيد من مضامينها فى النقاط ذات العلاقة بتلك المعلومات :
أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨١-٢٨٢،٢٩٤-٢٩٥ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١/٣٦٦-٣٧٠،٣٧٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٢٦ ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص١٢٦-١٢٧ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٨،٢٣٠،٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/١٠٣-١٠٤ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢/٧٤٣،٧٤٤ .

ووجود مضامين الشروط العمرية فى المرويات الخبرية بالمصادر المتقدمة التى أشرنا الى بعضها آنفا دليل على وجود الشروط العمرية وصحتها ، وأنهم كانوا يأخذون منها وينقلون عنها ويستشهدون ببعض شروطها ، وان لم نجدها بنصها الكامل الا فى وقت متأخر عند الطرطوشى ومن جاء بعده . والا فمن أين جاء أولئك العلماء الأئمة من الفقهاء والمؤرخين بتلك الشروط أأتفقوا على الكذب والتزوير والوضع ونسبتها الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما صرح بذلك أو لمح بعض المستشرقين ومن حذا حذوهم من المؤرخين المحدثين ، حاشا لله أن يكون ذلك . وأعتقد أن النص الكامل للشروط العمرية كان معروفا ، ومحفوظا ، ومدونا ببعض المصنفات القديمة ، التاريخية والفقهية التى فقدت وضاعت ، وكان يأخذ عنها من اطلع عليها ، ثم وجدنا النص كاملا بعد عند الطرطوشى ، ولم يكن الطرطوشى على فقهه وأدبه وفضله وزهده، ليضع ذلك النص ، وانما استقاه من مصدر أو مصادر اطلع عليها ، ففقدت ولم تصلنا ، فكان أول مصدر حفظ نص الشروط العمرية من المصادر التى وصلت الينا ، لكنه لم يكن أول مصدر حوى الشروط العمرية ، فقد سبقه كثيرون ومنهم من حفظه بنصه فأخذ النص عنه الطرطوشى ، ومنهم من حفظ الشروط العمرية بفحواها لانصها ، وقد وصلنا عدد من هذا النوع من المصادر كما قدمنافى الصفحة السابقة .

يقول ابن القيم مؤكدا صحة الشروط العمرية ، وتناقل المسلمين لها مشافهة وكتابة والعمل بها : "وشهرة هذه الشروط تغنى عن اسنادها ، فان الأئمة تلقوها بالقبول ، وذكروها فى كتبهم ، واحتجوا بها ، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفى كتبهم وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها"(١).

ويقول ابن تيمية(٢)ان أحكام الشروط العمرية جارية على أهل

---

(١) أحكام أهل الذمة ، ص٢٦٣ .

(٢) نقل قوله : ابن القيم ، نفس المصدر ، ص٣٩١ .

الـذمة ولو لم يشترطها امام الوقت ، لأن الأئمة تلقوهـا بالقبول واحتجوا بها وأنفـذها بعـد عمـر بن الخطـاب الخلفـاء الـذين لهم ثنـاء حسـن فى الأمـة ، وعملوا بموجبها .

وذكر ابن القيم[١]أن أهـل العلم على خلاف هل يكتفى بشـرط عمر ، أو يلزم اشتراط امام العصر ذلك ، وصحح قول من اكتفـى بشرط عمر أبدا وقرنا بعد قرن .

وبالنظر فى هذه الروايات ، ومقارنتها ببعض ، يتبين أنها مرويات لعهد واحد وان تعدد رواتها وطرقها ، لتطابقها شبه التام ، فالاختلاف بينها يسيرا فى اللفظ والمعنى ، وهو لايتعدى خلاف لفظى محدود ، أو فى ترتيـب البنود أو نقص شرط أو زيادة آخر لاأكثر فحسب .

ويقـوى رأينا أن كاتب وراوى ثلاثة نصـوص منهـا ، وهى التى جاء واحد منهـا على أنه عهد من نصارى الشام ، والثانى مـن نصارى مدينة كذا وكـذا ، والثـالث من أهل الجزيرة وطبـق على نصـارى الشـام . كـان رجل واحد هـو عبد الرحمن بن غنم . بينما الرابعة التى ذكـر بأنها نص عهد أهل دمشق لأبى عبيدة بن الجراح ، تطابق عهد أهل الجزيرة لعبد الرحمن بن غنم وحيـث أن عهود دمشق الأولى[٢]، تخالـف تمامـا هـذا العهد ، فانا نرى أنه صورة أخرى للروايات التى كتبهـا عبد الرحمن بن غنم . بل أن العهـد كما روى لم يختص بمن أقام بدمشق بل قيل : وأرضها وأرض الشـام من الأعاجم فعمت الشام كله . ولم يكن المسلمون ليقبلوا بمصالحة أهل دمشق عن نصارى الشام عامة ، كما أنهم فى الواقع صالحوا كل أهل بلد على حدة[٣].

وعليـه فـانى أرى هذا العهـد المعروف "بالشروط العمـرية" صحيحـا ، وأن المسلمين خلال فتـوحهـم لبلاد الشام ، وقد فتحـت جل مدنها صلحا ، كانوا يفاوضون أهل بلاد الشـام على شروط الصلح ، ويبينـون لأهـل البلد

---

(١) أحكام أهل الذمة ، ٧١٤/٢ .

(٢) انظر شروط عهود الصلح قبل : ص١٦٩ ومابعدها ، ونصوصهـا بعد ، ملحق رقم:١

(٣) انظر شروط عهود الصلح قبل : ص١٦٩ ومابعدها .

مالهم من حقوق وماعليهم من واجبات فاذا تراضوا على الصلح وفق تلك الشروط ، أعطوهم الأمان ، وعقدوا لهم الذمة ، وكتبوا لهم كتابا . وكما رأينا مما حفظ من نصوص تلك العهود ومضامينها(١)، أنها كانت مجملة موجزة . وأن المسلمين لم يضمنوها كل مالأهل الذمة وماعليهم . ولاأشك فى أن هناك من يرى أن أهل الذمة لاينالون حقوقهم ، ولايطالبون بواجباتهم ان لم يتضمنها عهدهم ، وكثير من العهود خلت من كثير من ذلك ، وذلك قول ليس صحيح فالمسلمين يعطون أهل الذمة مالهم من حقوق وإن لم يتضمنها عهدهم ، وكذلك يلزمون بواجباتهم وإن خلا عهدهم من ذكرها .

ويبدو أنه خلال فترة استكمال الفتوحات فى بلاد الشام ، وباختلاط المسلمين بأهلها ، لمسوا أن أهل الشام وخاصة النصارى وهم جمهور أهل البلد ، لم يستوعبوا كل تلك الشروط ، وأن فى ممارستهم لحياتهم اليومية جنبا الى جنب ، وخاصة فى الناحية الدينية والاجتماعية ، مايخالف شروط المسلمين ويتنافى مع الدين الاسلامى ، ويقف حجر عثرة أمام تحقيق غايات الفتح وأهدافه ، الى جانب مافيه من الضرر والأذية بالمسلمين .

فلما تم فتح الشام ، وحضر عمر بن الخطاب اليها ، لتفقد أحوالها ، وترتيب أوضاعها الادارية والمالية ، لمس الحاجة الى ايضاح شروط العهد وتفصيلها لأهل البلاد ، ولعل المسلمون بالشام هم الذين بينوا له تلك الحاجة ودعوه لذلك . فاشترط على النصارى ، وأخذ منهم عهدا بتلك الأمور ، وركز على ماكانت الحاجة الى تفصيله أكبر ، وقد خلت الشروط العمرية أيضا من ذكر بعض أحكام معاملتهم ومالهم من حقوق أو ماعليهم من واجبات . ولعل هذا سبب مجيء ذلك العهد ، على لسان أهل البلد وهم يشترطون على أنفسهم ، فيقولون : "انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ، ألا نحدث ..."(٢). وكأنهم يشيرون الى قدوم المسلمين الأول للفتح وسؤالهم الأمان ، وماشترط عليهم المسلمون ، فيؤكدون ذلك الشرط بشكل تفصيلى . ويضع شروطا وأسسا لأمور لم يتعرض لها المسلمون أثناء الفتح ، أو ظلت معلقة(٣).

---

(١) انظر نصوص عهود الأمان بعد : الملاحق .
(٢) انظر نص العهد قبل : ص٢٠١-٢٠٣ .
(٣) مثل فرض جزية موحدة على أهل الشام ، وحكم أرضهم ومسحها ، ووضع الخراج عليهم ، وتحديد الأرزاق ، وأمر الضيافة ، وغيرها . (انظر بعد : الفصل الرابع ، السياسة المالية) .

ولعل هذا ماسبقنى الى فهمه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله[١]، اذ يقـول : "ثم قـدم ـ أى عمر بن الخطـاب ـ مرةثانية الى أرض الشـام لما تم فتحـه ، فشارط بوضع الخراج ، وفـرض الأموال ، وشـارط أهـل الذمة على شروط المسلمين ، فأتم بها المسلمون بعده . وقد ذكرها أهل السير وغيرهم ، فروى سفيان الثورى ، عن مسـروق عن عبد الرحمن بن غنم قـال : كتبـت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه ..." وأورد نص العهد المعروف بالشروط العمرية .

بقـى الوقوف على الخلاف فيمن كتب على نفسه تلـك الشروط ، فأرى أن القـول بأنهم أهل الجزيرة ليـس صحيحا ، ولعله جاء مـن باب الالتباس على الـرواة أو النساخ ، ومصدر ذلك الالتباس أن فـاتح الجزيرة هو عياض ابن غنم[٢]، ومـن كتب لعمر بن الخطاب تلك الشروط على أهـل العهد هو عبد الرحمن بن غنم[٣]، فظـن الراوى أو الناقل أو الناسخ أنه عيـاض بن غنم فـاتح الجزيرة فـاختلط عليـه الأمر فجعل العهد لأهـل الجزيرة . ويقـوى

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٣/١ .

(٢) عيـاض بن غنم بن زهير بن أبى شـداد ، أبو سعـد الفهـرى ، ممـن بايع بيعـة الرضوان ، واستخلفه قرابته أبو عبيدة بن الجراح ، لما احتضر على الشام ، وكان حبرا صـالحا زاهدا سخيا ، وهو الذى افتتح الجزيرة صلحـا ، أقره عمر على الشام قال ابن سعد : شهد الحديبية ، وكان أحد الأمراء يوم اليرموك ، قيل عاش ستين سنة ، ومات سنة عشرين بالشام .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٢٥٤/٢-٢٥٥ .

(٣) عبـد الرحمن بن غنم بن سعد الأشعـرى ، الفقيه ، الامـام ، شيـخ أهل فلسطين ، ثقـة ، بعثه عمر الى الشام ليفقـه الناس ، لازم معاذ بن جبـل الى أن مات فروى عنـه وتفقه به ؛ كان أبوه صحـابيا ، وولد عبد الرحمـن على عهـد الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، وقد اختلـف فى صحبته ، وقال أبو مسهـر هـو رأس التابعين ، كان بفلسطين ، وتفقه به عامة التابعين بالشام ، وكان صادقا ، فاضلا كبير القدر . قيل توفى سنة ٧٨هـ .
انظـر : ابن سعـد ، الطبقات الكبرى ، ٤٤١/٧ ؛ ابن حجـر ، تهـذيب التهذيب ، ٢٢٥/٧-٢٢٦ ؛ الذهبى ، نفس المصدر ، ٤٥/٤-٤٦ .

ماذهبنا اليه أن ابن القيم بعـد ايراده الخبر ونص العهـد ، ذكـر أن عبـد الـرحمن أنفـذ ذلك ، وأقر مـن أقـام من الروم فى مـدائن الشـام على هـذا الشرط ، فقال مدائن الشام ولم يقل الجزيرة كما صدر به العهد .

وهـذا يقودنا الى أن عبد الرحمن بن غنم كما عـرف من ترجمته كان فى الشام حين قدوم عمر بن الخطاب ، اذ علمنا أن يزيد بن أبى سفيـان بعد فتـح دمشق سأل عمر بن الخطاب أن يرسل له من يفقـه الناس ، فبعث اليه بعدد من الفقهاء(١). وفى ترجمة عبد الرحمن بن غنم أن عمر بعثه الى الشام ليفقـه الناس ، وأنه كان ملاصقـا لمعاذ بن جبل وأخذ عنـه ، ومعاذ مات فى طاعون عمواس . فهذا يدل على أنه بعـث الى الشام قبـل ذلك . وحيـث أنه كان ملاصقا لمعاذ ومعاذ رفيـق أبى عبيـدة الذى لايفـارقه ، وحيـث أن عبـد الـرحمن بن غنم كمـا ترجم لـه كان من أهل الفضل والقـدر ، فـانه بذلك يكـون مـؤهلا لأن يكون الـرجل الـذى كتب لعمر شـرطه على النصـارى ، لعلمه وقدره ووجوده على مسرح الأحداث ، وواضح أنه كـان ممن استقبل عمـر لما قدم الشام مع أبى عبيـدة ووجوه المسلمين . ويرجح لـديناأن العهد كتبـه عبد الرحمن لعمر فى حضـوره أرض الشام للمرة الثـانية كما قال ابن تيمية(٢)لعموم نصارى الشام ، ويسرى على غيرهم ماشترط عليهم ، ويبدو أن عمرا أملاه الشروط التى ينبغى أخذها عليهم ، فاشترطوها على أنفسهم ، فأتى عمر(٣)بالكتـاب ، وقيل أنه زاد فيـه : "ألا يشتروا مـن سبايانا ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده"(٤)فأمضاه لهم ، وأخذ عليهم العهـد بما فيه . كمـا أملاه الخليفـة وزاد فيـه وأمـره بامضـائه . وهـذا واضـح مـن قـول

---

(١) انظر قبل : ص١٢٠-١٢١ .

(٢) انظر قوله فى الصفحة السابقة .

(٣) جاء بهذا اللفظ فى عدد من المرويات ، ولم يقل كتب اليـه كما فى البعض ، انظر ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٧ ؛ وانظر نصوص الشروط العمرية بعد : الملاحق ، ملحق رقم : ٥ .

(٤) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٦٦١/٢ .

عبدالرحمن فى صدر ذلك العهد وهو : "كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام ، وشرط عليهم ..."(١). أى أنه كتب لعمر شرطه على النصارى . كما أن عبد الرحمن لم يكن أميرا أو قائدا(٢)، حتى يكاتبه النصارى وهو يرسل الى عمر بذلك .

أما علة مجيئه بصيغة أنه عهد على أهل دمشق ، أو مدينة كذا وكذا ، فيبدو لى أن العهد كان لعموم نصارى الشام ، وكتب باسم أهل المدائن الكبرى ، كدمشق ، وحمص ، وايلياء وغيرها . ولعل راو يهمه أمر دمشق فرواه باسمها وهى احدى المدن المذكورة فيه ، وآخر آثر ألا يعدد المدن بأسمائها فقال : مدينة كذا وكذا ، أى مدينة كذا ، ومدينة كذا ، والله أعلم .

ومما يسند قولنا بصحة هذا العهد ، أنه مثل ماكان لعهود الصلح الأولى التى أعطيت لأهل بلاد الشام مرويات اخبارية حوت مضامين تلك العهود ، فان هذا العهد العام المعروف بالشروط العمرية زخرت المصادر بعدد كبير من المرويات الاخبارية ، التى أشارت الى الشروط التى حواها ، وأخذها عمر على نصارى الشام ، ولم تنص عليها عهود الصلح الأولى(٣).

بل نجد من الكتاب من ذكر مضامين عهد عمر ، وعرض واجبات الذمى بشكل مفصل قبل أن يظهر نص العهد(٤).

والظاهر أن من أنكر صحة الشروط العمرية جاء انكاره لها على أساس انكاره لما حوته من شروط اجتماعية تتعلق بالغيار ، وشروط دينية لم تكن موجودة بعهود الصلح الأولى ، وقد قدمنا علة عدم وجود تلك

---

(١) انظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح ، ١٠٣/١ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٦٦١/٢ .

(٢) انظر ترجمته فى الصفحة التالية .

(٣) انظر ، قبل : ص١٦٩-١٩١ ؛ وبعد : ملحق رقم : ٤،٣،٢،١ .

(٤) ذكر الماوردى (ت٣٧٠هـ) ، مايتضمنه عقد الجزية من الشروط المستحقة والشروط المستحبة ، انظر : الأحكام السلطانية ، ص١٢٦-١٢٧ . (والماوردى ، عاش قبل الطرطوشى الذى كان أول من أورد نص الشروط العمرية) .

الشروط فى عهود الصلح الأولى . ولكن غاب عن هؤلاء المنكرين أن شروط عمر بن الخطاب رضى الله عنه تجاه نصارى الشام من الناحية الاجتماعية والدينية ، لم تكن الشروط العمرية مصدرها الوحيد ، فان عمرا قد أصدر عددا من الأوامر والوصايا فيما يتعلق بالغيار وبعض الأمور الاجتماعية والدينية لدى النصارى فيما له علاقة بالمسلمين ، وحماية دين الاسلام .

والحق أن تلك الأوامر والوصايا تعد دليلا آخر على صحة الشروط العمرية ، خصوصا أنها حفظت فى عدد من المصادر المتقدمة ، فاذا أنكروا الشروط العمرية لما حوته من شروط اجتماعية ودينية ينكرونها بحجة أن نص الشروط العمرية لم يظهر إلا مصدر متأخر ، مع أن تلك الشروط ظهرت بعض مضامينها وشروطها فى مصادر متقدمة ، فهل لهم أن ينكروا أيضا أوامر عمر ووصاياه التى حوت ماحوت الشروط العمرية فيما يخص الناحية الاجتماعية والدينية .

ومما ورد من أوامر عمر فى المصادر الاسلامية (١) تجاه نصارى الشام من الناحية الاجتماعية مجملا أن تجز نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكف ، وأن يركبوا عرضا ، وأن لايركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق فى أوساطهم ويظهروها ، وألا يتشبهوا بالمسلمين فى لبسهم ومركبهم وهيئتهم ، أو فى شىء من أمورهم، ليعرف زيهم من زى أهل الاسلام، كما ترك لهم شرب الخمر ولكن منعوا من الاتجار به واظهاره واظهار الخنازير بين المسلمين ، وأمر بقتل الخنازير .

ومن أوامره من الناحية الدينية الأمر بهدم كل كنيسة مستحدثة بعد الفتح الاسلامى ، ومنع استحداث الكنائس ، أو اظهار الصلبان خارج الكنائس بين أظهر المسلمين وفى أمصارهم ، وقال : لاخصاء فى الاسلام

---

(١) انظر تلك المصادر وماحوته من أوامر تخص الحياة الاجتماعية ، بعد : موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الاجتماعية ، ص٢٥٣-٢٥٤،٤٤٢-٤٤٣ .

ولاكنيسة [١].

ومع قولنا بصحة هذا العهد ، فانا لانثق فى حرفية نصه ، ونعتقد وقوع بعض الخلل فيه ، غير أنه فى أضيق الحدود ، لما يلمسه المقارن لمروياته المختلفة من التطابق شبه التام ، ويلاحظ ذلك الخلل ، فى مناسبة ذلك العهد ، من كتبه ، ومن شرطه ، وعلى أى أهل البلاد أخذ . وهذا ماناقشناه آنفا ، أما الخلاف فى مضمونه فهو يسير جدا .

وبمقارنة نص عهد الشروط العمرية الذى أوردناه [٢]، بما حوته شروط نصوص عهود الصلح الأولى التى أعطاها المسلمون لأهل بلاد الشام عند الفتح ، والمرويات الاخبارية عنها [٣]، تبين لنا الاتفاق بينهما فى الأصول العامة ، وهى اعطاؤهم الأمان على النفس والمال والدين . لكنه زاد عنها فى تفصيل مجملها ، وأضاف شروطا لم تتضمنها وهى الخاصة بالملبس ، والمركب وحماية المسلم ، ودينه . وغيرها . والقول بما فيه من تفصيل وزيادة واضافات لم تتضمنها عهود الصلح الأولى عند الفتح ، لاينافى القول بصحة ذلك العهد ، لأننا قدمنا أن العهود الأولى جاءت موجزة مجملة ، وانما هى رمز لتمام الفتح وقيام الصلح ، وأخذ الأمان ومايتبعه من حقوق ، والالتزام بالواجبات ، سواء ذكرت أو لم تذكر ، فجاء هذا العهد مفسرا لمجمل ، ومثبت لشىء لم يدون ، وذاكرا لما دعت اليه الحاجة . كما أنه لم يشتمل على كل الحقوق ، ولم يحو كل الواجبات ، لأن الحق الذى لأهل الذمة أو عليهم ، واضح لدى المسلمين سواء دون أو لم يدون فى عهود الصلح الأولى أو هذا العهد . وإذا كان خلو عهود الصلح الأولى من تلك الشروط لايعنى عدمها . فإن مافى نص عهد الشروط العمرية من شروط لم تذكر فى عهود الصلح الأولى لايدعو لانكاره ، كما أن خلو عهد الشروط العمرية من بعض الشروط حقوقا كانت أو واجبات كالجزية والخراج ، لايعنى عدم تلك الشروط أو يبطل صحة عهد الشروط العمرية ، وبعض عهود الصلح الأولى التى خلت من ذلك :

---

(١) انظر هذه الأوامر والوصايا مفصلة ومصادرها ، عند حديثنا عن الناحية الدينية بعد : ص٣٨٠ .

(٢) انظر قبل : ص٢٠١-٢٠٣ .

(٣) انظر قبل : ص١٦٩ ومابعدها ؛ والملاحق رقم : ٤،٣،٢،١ .

وبعد أن عرضت نص عهد الشروط العمرية ، وصححت نسبتها الى عمر بن الخطاب ، وبينت الدلائل المؤيدة لصحتها ، ونقدنا لها ، نورد آراء بعض المورخين المنكرين لصحتها لنعرف وجهة نظرهم وضعف ماركنوا اليه من حجج .

فقاسم عبده قاسم(١)، عند دراسته لعقد الذمة ، وشروطه المستحقة والمستحبة ، يرى أنها تؤلف صورة "الشروط العمرية" . وان العهد لم يظهر بشكله النهائى الا فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكان قبل ذلك مجهولا ويرى صحة أصوله ، وأن عمر قد وضعها متسقة مع الشريعة الاسلامية . مع الاعتقاد بكثرة الادراج فى أصوله الأولية من قبل الفقهاء الذين غالوا فى التفرقة بين المسلمين وأهل الذمة ؛ ويؤكد رأيه أن تلك الشروط التى تنسب الى عمر بن الخطاب لم ترد بهذا التقسيم فى كتابات المؤرخين المتأخرين .

أما ترتون(٢)فبعد أن أشار الى نصوص عهد عمر ، نقد صيغة كتابة العهد ، وكيف يشترط المغلوبون على أنفسهم الشروط التى يرتضونها ليوادعهم الغالب(٣)، وأخذ عليه منع النصارى من تعليم أولادهم القرآن(٤)، والخلاف على اسم من ينسب اليه العهد ، والبلد الذى كتب له وأن الصواب أنه لم يكتب لدمشق ، وانما نسى اسم البلد الذى كتب له فادعى أنه لأهل دمشق . ومخالفته لعهود الشام المتميزة بالبساطة والايجاز . وعلى ضوء ذلك شك فى صحة نسبته الى عمر ، خصوصا أن هناك صورة أخرى من العهد يقال أنهم انتهوا اليها بعد مفاوضات تمت بين عمر وأبى

---

(١) أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى ، ص٢٦-٢٧ ؛ وكتابه الآخر : اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار الفكر ، القاهرة ، باريس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص٨٥-٨٦ .

(٢) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٩-١٧،٤٤،٥٤،١٠٦-١٠٨،٢٥٧-٢٥٨ .

(٣) لعله من باب بناء اللفظ على ماتم قبله ، وكأنهم يقولون : أننا طلبنا منكم الأمان عند الفتح ، فاشترطتم علينا ، فشرطنا على أنفسنا مااشترطتم علينا .

(٤) انظر شرح ابن القيم لهذا الشرط قبل : ص٢٠٣ .

عبيدة من ناحية وبين البطريرك قسطنطين من جانب آخر[(١)]. ويقول : فأى هذه العهود هو الذى عرف بالشروط العمرية[(٢)].

ويرى أن الفقهاء كانوا يضعون نماذج للمعاهدات والعهود ، كالذى ورد فى كتاب الأم للشافعى[(٣)]، فلعله من هذا الباب ، كما أن عهود الفاتحين لاتتفق معه وتخالف ماحرمه الفقهاء على أهل الذمة ، ويرى أن ذلك دليلا على أنهم لم يكونوا يعلمون عنه شيئا[(٤)]، وأنه لم يكن معروفا خلال القرن الأول للهجرة ، وأن الحكام والرعايا لم يكونوا يسيرون وفق قانونه[(٥)].

---

(١) اشترط عليهم عمر فى ذلك العهد : (على الموسر دفع ثمانية وأربعين درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهما ، وعلى المدقع اثنى عشر درهما ، وعلى ألا يحدثوا كنيسة ، ولا يرفعوا صليبا بين ظهرانى المسلمين ، ولايضربوا ناقوسا فى جوف كنيسة وعلى أن نشاطرهم منازلهم فيسكن فيها المسلمون ، وعلى أن آخذ الحد القبلى من كنائسكم لمساجد المسملين فانها أوسط فى المدائن ، وعلى ألا يعبر أحدهم بخنزير بين ظهرانى المسلمين ، وعلى أن يقروا ضيوفهم ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق الى رستاق ، وعلى أن يناصحوهم وألا يغشوهم ، وعلى أن لايتمالوا مع عدو لهم ، والا استحللنا سفك دمائهم وسبى أبنائهم ونسائهم ، لهم بذلك عهد الله وعقد وذمة المسلمين) .
انظر : ترتون ، أهل الذمة ، ص١٤ ؛ وانظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة ، ص١٢٩-١٣٠ .

(٢) توصلنا الى أن تلك النصوص كلها لعهد واحد ، انظر مناقشتنا لذلك قبل : ص٢٠٨ ومابعدها .

(٣) ترتون ، نفس المرجع ، ص١٧ .

(٤) صحيح أن الفاتحين لبلاد الشام بالذات لم يكونوا يعرفون عنه شيئا ، لأن هذا العهد كتب بعد تمام الفتح . ولكنهم يعرفون مالهم وماعليهم تجاه أهل الذمة ويفاوضونهم عليه ، وان لم يثبتوه بكتب الصلح .

(٥) لاأرى له دليلا على ذلك . الا أن نصه لم يظهر الا متأخرا ، وليس ذلك دليلا على عدم وجوده . وان اشتراط الجراجمة أن يلبسوا لبس المسلمين ، دليل على وجود شرط المنع الذى حوته الشروط العمرية ، وكان الجراجمة شرطوا ذلك فى العديد الذى أعطاه الوليد بن عبد الملك لهم ، وهذه قرينة على وجود الشروط العمرية ومعرفة النصارى لها فى القرن الأول الهجرى . انظر شروط عهد الوليد لهم قبل ص١٩٠-١٩١ .

ويخلص ترتون الى القول أن الاشارة الى عهد عمر جاءت فى عصر متأخر ، وأنه كان مجهولا فى القرن الأول ، وفى القرن الثانى ظهرت بعض نصوصه ، وفى آخره ظهر العهد بصورته التقليدية[١].

ويضيف قائلا : ويظهر أن عمر بن عبد العزيز أول من وضع بعض نصوص هذا العهد ، وأنه وضع فى المدارس الفقهية ، فنسب الى سميه عمر ابن الخطاب[٢].

وناقش توفيق اليوزبكى[٣]عهد عمر المعروف بـ(الشروط العمرية) ، وعرض لنصوصه وأول من أورده ومن نقله ، وأقوال الباحثين فيه بين مصدق بها وبين منكر ، وأنكر صحته ، واحتج بأقوال بعض منكريه ممن سبقه كترتون[٤]، ومحقق كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم[٥]، وجرجى زيدان[٦]، الذى يرى أن نصوصه تؤدى الى اذلال النصارى على عكس سيرة عمر معهم القائمة على العدل والرفق ، وكذلك الخربوطلى[٧]، ويستند الى الاختلاف بين نصه وشروط المتوكل[٨]، فى الشك فى صحته .

وحيث أن عهد الشروط العمرية خص نصارى الشام دون غيرهم ، يرى اليوزبكى أن ذلك ليس من عدل عمر ، ولايتماشى مع وصايا

---

(١) وقال معه بذلك قاسم عبده قاسم ، ولعل القصد ظهوره بصورته التقليدية من حيث المحتوى ، أما نص العهد فأقدم من قدمه الطرطوشى كما ذكر توفيق اليوزبكى ، انظر قبل : ص٢٠٠ .

(٢) فرضية ليس لها مايسندها ، واتهام لعمر بن عبد العزيز ، الذى عرف بالاتباع لسيرة عمر بن الخطاب ومنهج الخلفاء الراشدين ، وقدح فى فقهاء المسلمين رحمهم الله .

(٣) تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٧٣،١٢٣-١٢٤،١٢٧،١٣٨،١٤٧ .

(٤) نفس المرجع ، ص١٣٠-١٣٢ .

(٥) نفس المرجع ، ص١٣٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص١٣٥ .

(٧) نفس المرجع ، ص١٣٥-١٣٦ .

(٨) نفس المرجع ، ص١٢٣ .

ومعاهدات الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بأهل الذمة(١).

ويضيف أن المتقدمين من المؤرخين لم يشيروا الى الزام أهل الذمة بالغيار(٢)، مما يدل على الادراج على أصوله التى وضعها عمر . وأن الفقهاء وضعوا بعض شروطه ، وذلك سر اختلافهم على ماينقض العهد(٣).

وخلص الى احتمال أن ذلك العهد وضع فى الشام زمن عمر بن عبد العزيز ، ونسب خطأ الى عمر بن الخطاب(٤). لكنه يعود وينقل عن عدد من المؤرخين(٥)أنه وضع فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، ويقول : مهما يكن فان الكثير من أهل الذمة كانوا يجهلونه أو لم يكونوا يلتزمون به(٦).

ثم يناقض نفسه بنقل اشارة ابن زير القاضى الى عهد عمر بن الخطاب وأن بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين ، حاولوا الرجوع اليه فى معاملة النصارى ، ومنهم عمر بن عبد العزيز ، والمتوكل(٧). ونقله أيضا لقول جرجى زيدان(٨): اننا فى حيرة من صحة نسبة العهد الى عمر ، فالعهد وارد

---

(١) الصحيح أن الشروط العمرية وإن أخذت على نصارى الشام ، فان المسلمين اتبعوا مافيه فى معاملة أهل الذمة عامة .

(٢) هذا غير صحيح ، فقد ذكره : أبو يوسف ، الخراج ، ص٧٢ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص

(٣) فى قوله تناقض ، فقد أنكر صحة هذا العهد وهنا يثبت صحة أصوله ويقول بالادراج عليه . كما أن ماشتملته كتب الفقهاء من أحكام هى تفسير وشرح وايضاح ، وقياس على بنود العهد ، وأسس وأحكام أهل الذمة فى الاسلام . ولم نجدهم قد زادوا فى نصه . انظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٧٣ .

(٤) فرضية ليس لها مايقويها ، وقد سبقه اليها ترتون الذى نقله توفيق اليوزبكى فى نفس المرجع ، ص١٣٧ .

(٥) نفس المرجع ، ص١٣٦-١٣٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص١٤٧ . وقد قدمنا أن شرط الجراجمة لبس زى المسلمين دليل على علمهم به ، أما عدم الالتزام الكامل للنصارى بما فيه ، ففى ظل تسامح بعض الخلفاء الأمويين ، وتجاوز النصارى ماعاهدوا عليه المسلمين مستغلين الفتن التى شغل بها المسلمين .

(٧) نفس المرجع ، ص١٣٣ .

(٨) نفس المرجع ، ص١٣٢-١٣٣ .

فى كتب المسلمين بنصه ، فلايحتمل أن يضعه الطرطوشى لما عرف عنه من زهد وتقوى ترفعانه عن الكذب ، كما أن أكثر مواد هذا العهد واردة فى كتب الفقه فى أحكام أهل الذمة ، منها ماكتب قبل الطرطوشى (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) ، كما جاء ذكره فى كتب السياسة والنظم ، فقد أورد الماوردى (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الذى عاش قبله بسبعين سنة شروط عقد الذمة بقسميها المستحق والمستحب .

ويتبعهم زكريا القضاة[١]فى التشكيك فى صحة الشروط العمرية ، فعرض لرواياتها عند ابن عساكر ، وابن القيم ، ومجير الدين الحنبلى ، ثم عرضها للنقد . فضعف اسنادها ، لانقطاعه فى بعض الروايات ، واشتماله على مجهولين وضعفاء ، لذا لم يقتنع بقول ابن القيم : أن شهرتها تغنى عن اسنادها[٢]؛ لما حوته من تضارب على من كتبها ، وبأمر من كتبت ، ولأى بلد ، ولغرابة أن يأتى الشرط من أهل البلد على أنفسهم . وماوقع فى المتن من اختلاف تمثل فى : أن رواية ابن القيم الأولى اشتملت على شرطين ألحقهما الخليفة عمر وهما : منع الذميين من شراء سبايا المسلمين ، وخلع عهد الذمى اذا ضرب مسلما . بينما خلت الروايتان الأخريتان له من هذين الشرطين ، أما ابن عساكر فلم يتعرض للشرط الأول ، وجعل الشرط الثانى أصليا فى النص ولم يذكر أن عمر زاده عليهم[٣].

كما استغرب توجيه كتب الصلح من عبد الرحمن بن غنم . وأن متن تلك الشروط فيها مالايقبل ، كقولهم : "ولانظهر شركا فى نادى

---

(١) معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧٨-٢٨٣ .

(٢) انظر قول ابن القيم قبل : ص٢٠٧ .

(٣) يعد هذا الاختلاف بسيطا بالنسبة لطول المعاهدة التى كان الاتفاق فى بقية بنودها شبه تام . ولعل سبب وقوع الخلل فى هذين الشرطين دون غيرهما ، لأنها ألحقت زيادة من الخليفة عمر بآخر الكتاب ، فتنبه لها بعض الرواة وحفظوها وكتبها النساخ ، أو فاتت بعض الرواة أو النساخ أو أحدهما ، فحدث الخلل . وفى رواية الطرطوشى وهو الأقدم . قال زاد شرطا واحدا هو : "ولانضرب أحدا من المسلمين" .

المسلمين"(١). فكيف يعترفون بالشرك . وقولهم : "ولانعلم أولادنا القرآن" . والله يقول : {**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون**}(٢). فأى جريمة فى ذلك ، وكيف يقبل المسلمون هذا الشرط وهم ماخرجوا الا لنشر الاسلام . الى جانب الشروط المتعلقة بالملبس والمركب وأخرى لم تنص عليها المعاهدات الأولى(٣).

وخلص الى القول : أن ماورد فى هذه الشروط لم يتعرض له المؤرخون القدامى ، كالواقدى والبلاذرى والطبرى ، لذا فانها صياغات تفصيلية تعالج أوضاعا لم تكن موجودة زمن الفتح وانما ظهرت فى فترات لاحقة ، مما يدعو الى الاعتقاد بكثرة الادراج على النص الأصلى للمعاهدة .

ويضيف : وأيا كان أمر الشروط العمرية ، فان أحدا من المؤرخين لم ينص على أنها هى معاهدة فتح بيت المقدس ، أو أنها تنطبق عليها(٤)، بل أن لبيت المقدس معاهدة خاصة اشتهرت باسم العهدة العمرية(٥).

والحق أننا نوافقه فى أن الشروط العمرية ليست هى معاهدة فتح بيت المقدس ، ولاعهدا لمدينة بذاتها من مدن الشام ، لكننا نذهب الى أبعد منه ، بأن الشروط العمرية عهد صحيح أخذه عمر بن الخطاب على نصارى الشام عامة وليس على أهل بيت المقدس (ايلياء) .

وللأسف أن هؤلاء الباحثين(٦)الذين أنكروا صحة الشروط العمرية لم

---

(١) ورد فى نص الطرطوشى وهو الأقدم : "ولانظهر شرعنا" .

(٢) التوبة ، آية : ٦

(٣) بينا سبب احتواء هذا العهد شروطا لم تنص عليها العهود الأولى . انظر قبل : ص١٩٧-١٩٨،٢٠٩،٢١٤ .

(٤) اعتقد بعض المؤرخين المحدثين أنها عهد عمر لأهل ايلياء . انظر : شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٠٩-١١٦ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة ، ص١٣٥-١٣٦ .

(٥) انظر عنها : زكريا القضاة ، معاهدة فتح بيت المقدس (العهدة العمرية) .

(٦) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٢٢-١٢٣،١٢٦-١٢٧،١٢٩ ؛ توفيق اليوزبكى نفس المرجع ، ص١٣٧-١٣٨ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٨-١٣٩ ؛ شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص١٧٢-١٧٣ ؛ سلام شافعى

يقم انكارهم على حجة بينة ، تنفى تلك الشروط ، وتؤكد صحة ماذهبوا اليه . وغاية مااعتمدوا عليه استنتاج عقلى وقرائن واهية ، فانهم أنكروها ، لخلو العهود الأولى من ذكرها ، وقد بينا أن تلك العهود لم تكن تنص على كل مااشترطه المسلمون على أهل الذمة ، وأن خلوها من بعض الشروط لايعنى انتفاءها(١)، وكذلك قولهم أن الزام النصارى بالغيار والتشدد عليهم كان ليعرفوا من المسلمين ، وأن زمن عمر لم يكن به حاجة لذلك فان كل فريق كان له زيه الخاص ، وهذا القول يحتاج الى دليل ، والصحيح أنه ان ظل كثير من نصارى الشام خاصة وأهل الذمة عامة ، ملتزمين بزيهم ، فانه بلاشك أن محاكاة المسلمين فى زيهم قد تسربت الى البعض منهم تدريجيا ، لما عرف من تقليد المغلوب للغالب والضعيف للقوى ، خاصة اذا كان مثلا حميدا ، يبهر من حوله ، كما بهر النصارى بشخصية المسلم آنذاك .

وقولهم أن قصد عمر بذلك اذلالهم يتنافى مع حميد سيرته وحسن معاملته للنصارى ووصاياه أن يعاملوا بالحسنى ، فان ذلك مردود بغاية عمر من أمره وهو التمييز بين المسلمين وغيرهم ، حفظا للحقوق والواجبات وتحقيقا لبعض المصالح التى لاتتم الا بذلك . وقولهم أن تلك الشروط الاجتماعية لم تذكر فى المصادر غير اشارة لها عند أبى يوسف وابن عبد الحكم ، والحق أنها عدة مصادر نصت على أمر عمر بذلك ، كما قدمنا(٢)؛ كما أن أولئك الباحثين وقد أنكروها عن غير بينة ، لم يحددوا متى شرطت حقيقة ، واختلفوا على تقدير ذلك افتراضا ، أو على ضوء بعض القرائن والنصوص التى أشارت الى الزامهم غير النصارى بالغيار ، فمنهم من نسبها الى عمر بن عبد العزيز ، أو هارون الرشيد أو المتوكل .

= محمود سلام ، أهل الذمة فى مصر فى العهد الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص٢١٣ (قال : ان البعض يرى أنها من وضع الخلفاء ، ولم يبين رأيه أهو يؤكد نسبتها لعمر أو أنه مقتنع بقول من أنكرها) .

(١) انظر قبل : عهود الصلح ، ص١٦٦-١٧٠،١٩٦-١٩٧ .

(٢) انظر الاحالة الى تلك المصادر ، قبل : ص٢١٣ .

وجملـة قولهم أنها اشترطـت بعد عهد عمر بن الخطـاب ، لما بدأ أهل الذمة تقليد المسلمين فى زيهم . والحقيقة أن تلك النصـوص تدل على حرص أولئـك الخلفـاء على تنفيذ أوامـر عمر بن الخطاب والتزام أهـل الـذمة بها ، لأنهم أول من أمر بها .

والشـــروط العمـرية ، التى نصـــت على اشتراط الفـــاروق الغيـار على النصـارى وأهل الذمة عامة صريحة ، وأوامره الأخرى فى هـذا الشأن تؤكد صحتها ، وتثبت نسبتها لعمر بن الخطاب(١).

كمـا أن اشتراط نصـارى الجراجمـة ، فى صلحهـم مـع المسلمين زمـن الـوليد ابن عبد الملك أن يلبسوا ملابس المسلمين ، دليـل على أن ذلك كان ممنوعا(٢). والمعروف أن من سبق الوليد بن عبد الملك مـن خلفاء بنى أمية عرف بالتسامح مع أهل الذمـة ، ولم يؤثر أن أحدا من بنى أميـة قبـل الوليد ألـزم نصارى الشام بشىء مـن تلك الشروط ، مما يدعـونا للقـول أن ذلك المنع حدث قبل العهد الأموى ، أى فى زمن عمر بن الخطـاب ، الذى نصت المصـادر على منعـه تشبه أهـل الـذمة بالمسلمين ، واصـداره الأوامـر الكفيلة بتمييز أهـل الذمة ، وتميز المسلمين ، وبما يحفظ حقـوق كل فئة ، ويعين على حفظ الاسلام ، وعلو كلمة الله ، وحماية المسلمين ، وعزتهم(٣).

---

(١) انظر أوامره من الناحية الاجتماعية ، بعد : ص٤٤٢-٤٤٣ .

(٢) انظر شـروط صلح الجراجمة زمـن الـوليد بن عبد الملـك ، قبـل : ص١٩٠-١٩١ .

(٣) وفيمـا قدمناه من أقوال العلماء ، ومنـاقشاتنا للشروط العمـرية ، وايراد مـايثبت صحتها ، ردا على أقوال المنكرين لصحة الشروط العمرية .

* عقد الذمة (١):

هو عقد يكتسب بموجبه غير المسلم من أهل الكتاب حق الاقامة الدائمة فى دار الاسلام فى حماية الدولة الاسلامية ، مقابل دفع الجزية ، ولقاء القيام ببعض الواجبات العقدية أو العرفية (٢)، وجريان أحكام الاسلام عليه (٣)؛ مالم يحدث ماينقضه (٤).

وقيل : هو اقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة (٥).

وقد تحدد وضع الذمة وتنظم بالقرآن والسنة القولية والفعلية ، وبسابقات الصحابة والخلفاء الراشدين من بعده (٦).

ويسمى من يعقد لهم عقد الذمة بـ"أهل الذمة" ، وسموا بذلك لأنهم دفعوا الجزية ، فأخذوا الأمان ، وأصبحوا فى ذمة المسلمين . والأصل فى هذا

---

(١) الذمة فى اللغة : العهد ، والعقد ، والأمان ، والضمان . وفى الحديث : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم" . قال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قوله هذا عليه السلام . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ذمم) . ويقول ابن القيم : الكفار اما أهل حرب أو أهل عهد ، وأهل العهد ثلاثة أصناف : أهل ذمة ، وأهل هدنة ، وأهل أمان . ولفظ : الذمة ، والعهد ، والصلح ، يتناول هؤلاء كلهم ، ولكن صار فى اصطلاح كثير من الفقهاء أن عبارة : "أهل الذمة" . تعنى من يؤدى الجزية . (انظر : أحكام أهل الذمة ، ٤٧٥/٢-٤٧٦) .
واصطلاحا : هو الأمان المؤبد . (محمد عبد الهادى المطردى ، عقد الذمة فى التشريع الاسلامى ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان ، ليبيا ، مصراتة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ/١٩٨٧م ، ص٢٥) .

(٢) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٢٥-٢٦ .

(٣) ابن القيم ، نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٥-٤٦ ؛ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٢٢ .

(٤) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٢ .

(٥) اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤٥-٤٦ ؛ محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٢٦ .

(٦) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٢ .

العقد ، قوله تعالى : {**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**}(١). فكانت شرائع الاسلام تقضى اذا أراد المسلمون فتح أحد البلاد أن يدعوا أهله الى الاسلام ، فمن استجاب قبل منه وكان من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم ، وطبقت عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، وهذا ماسار عليه أمراء المسلمين فى معاملة أهل الذمة(٢)، فسماهم الفقهاء بأهل الذمة لأن عهد الأمان عقد لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله(٣). وجماعة المسلمين(٤). على الجزية التى تؤخذ منه(٥).

وقد شرع عقد الذمة بعد فتح مكة ، فى السنة التاسعة للهجرة ، عندما نزلت آية الجزية المتضمنة عقد الذمة . أما ماكان قبل ذلك من عهود بين النبى صلى الله عليه وسلم ، والمشركين فالى مدة(٦)، لاعلى أنهم داخلون فى ذمة الاسلام وحكمه(٧).

---

(١) التوبة ، آية : ٢٩

(٢) محمد المطرودى ، عقد الذمة ، ص٢٧،٢٨،٢٩ .

(٣) شفيق جاسر ، تاريخ القدس ، ص١٦٤ ؛ محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٢٨-٢٩ .

(٤) يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٧ ؛ عبد الكريم زيد الملا ، أحكام الذميين والمستأمنين ص٢٢ .

(٥) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٢٩-٣٢ .

(٦) فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر سنة ٧هـ ، وعقد معهم صلحا ، أصبح مثالا يحتذى . (انظر : محمد المطرودى ، عقد الذمة ، ص٣٢-٣٣) . ولم تفرض عليهم الجزية ، لأنها لم تشرع حتى ذلك الوقت ، وكان صلحهم على نصف الأموال . (انظر : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٨٢-٨٣) .

(٧) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٢٢-٢٣ ؛ شفيق يموت ، أهل الذمة فى مختلف أطوارهم وعصورهم ، ص٤٩ ؛ بمحمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٢-٣٣،٣٤ .

والحكمة من مشروعية عقد الذمة كف القتال عن الحربى اذا دفع الجزية ، لاحتمال دخوله فى الاسلام ، عن طريق مخالطته المسلمين واطلاعه على شرائع الاسلام ، وليس المقصود من عقده تحصيل المال(١). ويتولى عقده الامام أو نائبه(٢)، بايجاب وقبول(٣)، ويعاقد المسلمين عن أهل الذمة رؤساؤهم برضى العامة(٤).

ماينقض عقد الذمة : عقد الذمة يلزم المسلمون الوفاء به ، ولايملكون نقضه ، وهو عقد ليس لازم فى حق أهل الذمة ، ويمكنهم نقضه(٥). واختلف العلماء فيما ينتقض به العهد ومالاينقضه .

وقد رجح عبد الكريم زيدان(٦)، ومحمد المطرودى(٧)، رأى الأحناف فيما ينقض العهد ، وقد حصروها فى ثلاثة أمور : اسلام الذمى ، ولحاقه بدار الحرب ، وارتكابه جريمة البغى على الدولة الاسلامية .

لكن بعض الفقهاء توسعوا فى نواقضه ، وذكر ابن القيم(٨)أقوال الأئمة فى ذلك بالتفصيل . فعند مالك والشافعى وأحمد أنه ينتقض بمنع الجزية ، وامتناعه عن اجراء ماحكم به عليه من أحكام الاسلام ، أو الاجماع على قتال المسلمين ، وان لم يشترطوا ذلك عليهم لمخالفة مقتضى العقد(٩).

---

(١) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٢٣ .
(٢) عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع ، ص٢٣ ؛ محمد المطرودى ، عقد الذمة ، ص٢٦-٢٧ .
(٣) عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع والصفحة .
(٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٣١-٢٣٢ .
(٥) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٥ .
(٦) نفس المرجع ، ص٦٢٥ .
(٧) نفس المرجع ، ص٣٦ .
(٨) لمعلومات أكثر تفصيلا عن أقوال الأئمة فيما ينقض العهد ، انظر : أحكام أهل الذمة ، ٢/٧٩٥-٨٩٠ .
(٩) محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٦ .

وينتقض عند أحمد وأصحابه بالتكلم فى الله تعالى ، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم[(١)]، وكذلك ذكر كتابه ودينه بما لاينبغى[(٢)].

ويضيفون الزنا بمسلمة ، أو مساعدة جواسيس الأعداء ، وفتنة المسلم عن دينه[(٣)].

وذكر بعضهم ثمانية أمور تنقض العهد هى : أن يجمعوا على قتال المسلمين ، أو يزنى أحدهم بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه ، أو يقطع على المسلم الطريق ، أو يؤوى جاسوسا للمشركين ، أو يعين على المسلمين ويكاتب المشركين يدلهم على أخبار المسلمين ، أو يقتل مسلما أو مسلمة عمدا[(٤)].

أما حكم من نقض العهد : يقول ابن تيمية[(٥)]هناك أصل متفق عليه هو : "أن كل من فعل محرما أو ترك واجبا استحق العقوبة" . ويختلف الفقهاء فى حكم ناقض العهد ، لاختلافهم على ماينقضه . يقول أبو عبيد : من أحدث من أهل الذمة حدثا حل دمه ولم تقبل منه استتابة[(٦)].

وقيل : الحكم فيمن نقض العهد القتل أو الاسلام ، ولايقبل منهم الجزية بعد النقض ، وقيل يستقبل بهم الأمر[(٧)]. ويقول الماوردى[(٨)]: اذا

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ص٧٩٥ ؛ شفيق جاسر ، تاريخ القدس ، ص١٦٦

(٢) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٨ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٦٦ .

(٣) محمد المطرودى ، عقد الذمة ، ص٢٧ .

(٤) ترتون ، نفس المرجع ، ص١٨ ؛ شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص١٦٦ .

(٥) السياسة الشرعية ، ص٥٠-٥٢ .

(٦) الأموال ، ص٢٣٢-٢٣٦ ؛ ونقله عنه : ابن زنجويه ، الأموال ، ٤٣١/١-٤٣٦ ؛ وانظر : ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٩٥/٢ ومابعدها ؛ شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص١٦٦ .

(٧) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٢٨ .

(٨) الأحكام السلطانية ، ص١٢٧ ؛ وانظر : محمد المطرودى ، نفس المرجع ، ص٣٧ .

نقـض أهـل الـذمة عهـدهم لم يستبـح بذلـك قتلهـم ولاغنم أمـوالهم ولاسبى ذراريهـم مالم يقاتلوا ووجب اخراجهم من بلاد المسلمين آمنين حتى يلحقـوا مأمنهم من أدنى بلاد الشرك ، فان لم يخرجوا طوعا أخرجوا كرها .

ويقول محمد المطرودى (١): أركان عقد الذمة خمسة : صيغـة ، وعاقد ومعقود له ، ومكان ، ومال .

---

(١) عقد الذمة ، ص٣٨ .

الفصل الثالث
السياسة الإدارية تجاه نصارى الشام
في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* خضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى وأحكام الملة .

* طبيعة الحكم الاسلامى وتميزه بالعدل والوفاء والرحمة والاحسان والتسامح فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

* دور نصارى الشام فى الادارة فى عصر الخلفاء الراشدين.

* دور نصارى الشام فى الادارة فى العصر الأموى .

* أثر تعريب الدواوين على نصارى الشام .

* دور نصارى الشام فى سك العملة الاسلامية ، وأثر تعريبها وتعريب القراطيس والطراز عليهم .

الفصل الثالث
السياسة الادارية تجاه نصارى الشام
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* خضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى وأحكام الملة :

بسط المسلمون سلطانهم على بلاد الشام تدريجيا مع سير الفتوحات الاسلامية ، ولما تم فتحها استظل نصارى الشام عامة فى ظل الحكم الاسلامى.

تقول نجدة خماش[١]: وأول بوادر التنظيم الادارى تعيين الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه القادة الذين وجههم لفتح بلاد الشام ولاة على البلدان التى كلفوا بفتحها . ثم جمع عمر بن الخطاب أمر الشام كله حربا وسلما لأبى عبيدة عامر بن الجراح[٢]. وعمد أبو عبيدة الى تعيين وال على كل مدينة يتم فتحها[٣]؛ وعلى كل كورة عاملا ، ويضم اليه جماعة من المسلمين ، ويشحن النواحى التى يتخوف منها[٤]. وحين فتح الله الشامات ولى أبو عبيدة من قبله واليا على كل جهة ، وهو أمير على الشام كله ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة ، فهو الذى يوجه القادة ، ويعين العمال ويلى القضاء ، ويوافق على عقود الصلح التى يبرمها قواده ، حتى مات رضى الله عنه بطاعون عمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م[٥].

---

(١) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤١٧-٤١٨ .

(٢) انظر عن تولية أبى عبيدة أمر الشام : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤٣٤،٤٣٥-٤٣٦

(٣) استخلف أبو عبيدة على ماتم فتحه من بلدان الشام ، يزيد بن أبى سفيان على دمشق ، وعمرو بن العاص على فلسطين ، وشرحبيل بن حسنة على الأردن ، وعبادة بن الصامت على حمص .
انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٧ . وانظر لأمثلة أخرى : الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٤٢-٢٤٣،٢٤٨ .

(٤) انظر : الأزدى ، نفس المصدر ، ص٢٤٣-٢٤٤ ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥

(٥) انظر عن ذلك : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٥٥ ؛ الأزدى ، نفس المصدر ص٢٥٤،٢٦٧ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٢٣١ .

وأثناء سير الفتوحات الاسلامية للبلدان الشامية ، اتخذ المسلمون بعض السياسات العامة والتدابير المالية والادارية ، منها ماأخذ صفة الديمومة ، والبعض جرى عليه التعديل ، أو تم الغاؤه(١).

ويفيد عدد من الروايات أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام بتنظيم بلاد الشام اداريا وماليا فى قدومه بلاد الشام المرة الأخيرة ، غير أنها اختلفت فى تاريخ قدومه ذاك ، لاختلافها على عدد مرات قدومه وتاريخها وأسبابها . تشير أكثر الروايات الى قدوم عمر سنة ١٦هـ/٦٣٧م لفتح بيت المقدس ، وقيل بل كان ذلك سنة ١٥هـ/٦٣٦م ، وقيل سنة ١٧هـ/٦٣٨م(٢). ويفيد البعض منها قدومه للمرة الثانية سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، وعودته من سرغ (٣)لتفشى الطاعون (٤)، وأخرى أشارت الى قدومه الجابية تلك السنة(٥)، بينما تفيد رواية أنه قدم الشام سنة ١٦هـ/٦٣٧م مرتين ، وسنة ١٧هـ/٦٣٨م مرتين لم يدخل الشام فى الأولى منها للطاعون(٦).

---

(١) تشير الروايات الى عهود الصلح الاسلامية مع أهل مدن بلاد الشام ، بين سنة ١٣-١٦هـ ، وهى تمثل اجراءات أولية كان بعضها مؤقتا وبعضها له صفة الدوام . لكن تنظيم الادارة جاء بعد زيارة عمر بن الخطاب للشام سنة ١٦هـ . انظر : عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٥٩ .

(٢) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠٧ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٤ ؛ م٩ ، ج١٨ ، ص٢٦٢،٢٦٤ ؛ زكريا القضاة ، معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧٢ .

(٣) سرغ : هو أول الحجاز وآخر الشام بين المدينة وتبوك من منازل حاج الشام ، بينها وبين المدينة ثلاثة عشر ليلة ، وقال مالك بن أنس هى قرية بوادى تبوك ، وهى آخر عمل الحجاز الأول ، وهناك لقى عمر بن الخطاب أمراء الأجناد ، ومن أخبره بطاعون الشام فرجع الى المدينة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٢١١-٢١٣) .

(٤) ابن خياط ، نفس المصدر ، ص١٣٥ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٤/٥٦-٥٨ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤/٥٨-٥٩،٦٣،٦٥ .

(٦) الطبرى ، نفس المصدر ، ص٥٩ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م٩ ، ج١٨ ، ص٢٦٢ .

وينقل ابن عساكر عن الواقدى قدوم عمر بن الخطاب الجابية سنة ١٦هـ/٦٣٧م ، وعودته من سرغ سنة ١٧هـ/٦٣٨م وانكاره ماعدا ذلك(١). ويذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب قدم الجابية سنة ١٧هـ/٦٣٨م لنجدة أبى عبيدة لما حصره الروم فى حمص(٢). كما يفيد أن من أسباب قدوم عمر بن الخطاب الى الجابية سنة ١٧هـ قسمة مواريث موتى طاعون عمواس(٣). وقد اختلف فى تاريخ حدوث طاعون عمواس فقيل سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، وقيل سنة ١٨هـ/٦٣٩م(٤). واذا صح مانقله الطبرى عن قدوم عمر ابن الخطاب الجابية مرتين ، الأولى لنجدة أبى عبيدة سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، والثانية لقسمة المواريث فانه يرجح عندنا أن عمر قدم الشام أربع مرات ، دخلها ثلاثا ، ورجع فى احداها بسبب الطاعون ، فكانت الأولى لفتح ايلياء سنة ١٦هـ/٦٣٧م ، والثانية نجدة لأبى عبيدة لما حصر سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، والثالثة التى رجع فيها من سرغ لما علم بتفشى الطاعون فى بلاد الشام وكانت على الراجح فى النصف الاول من سنة ١٨هـ/٦٣٩م ، والرابعة فى أواخر سنة ١٨هـ/٦٣٩م ، وهى التى نظم فيها عمر بن الخطاب أمور بلاد الشام. وقد نص ابن عساكر على قدومه سنة ١٨هـ/٦٣٩م من أجل ذلك(٥).

ورجحنا ذلك لحدوث الطاعون بالشام على الراجح سنة ١٨هـ/٦٣٩م ، فقد نصت بعض الروايات على ذلك كما قدمنا ، وكانت شدته التى مات فيها الناس شهرى محرم وصفر ، فارتفع عن الناس فى الأمصار ، واستقر بالشام وطال مكثه بها(٦). ويظهر أن الطاعون تفشى فى الشام بعد العراق ومصر ، ولذلك طال مكثه بها . ولما يروى أن أبا عبيدة قدم المدينة ممدا أهلها عام الرمادة(٧)، ولحدوث عام الرمادة بالمدينة فى السنة ذاتها(٨). وقيل فى آخر

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م٩ ، ج١٨ ، ص٢٦٤ . وذكر الطبرى أنها أربع ولم يؤرخ لها ، انظر : نفس المصدر ، ٦٠٧/٣ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٥٣/٤-٥٥ .
(٣) الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٨/٤-٥٩ .
(٤) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٥،١٣٨ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٨/٤،٦٠ .
(٥) ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٤ .
(٦) الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٨/٤ (وأرخ له فى هذه السنة سنة ١٧هـ) .
(٧) الطبرى ، نفس المصدر ، ١٠٠/٤ .
(٨) ابن خياط ، نفس المصدر ، ص١٣٨ ؛ الطبرى ، نفس المصدر ، ٩٦/٤ ؛ ابن منظور نفس المصدر ، م٩ ، ج١٨ ، ص٢٦٤ .

سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، وأول سنة ١٨هـ/٦٣٩م[١].

فان هذا يدعونا الى القول أن قدوم عمر نجدة لأبى عبيدة عندما كان محصورا فى حمص كان فى أوائل سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، وفى آخرها وأول سنة ١٨هـ/٦٣٩م حدث قحط عام الرمادة ، وتلاه فى نفس السنة طاعون عمواس فرجح لدينا أن قدومه الأخير الى بلاد الشام كان فى أواخر سنة ١٨هـ/٦٣٩م بعد ارتفاع الطاعون عن بلاد الشام . ويقوى صحة ترجيحنا مانقله عبد العزيز الدورى من قول ميخائيل السورى : أن عمر أمر باحصاء "فيما يختص بمال الرأس (الخراج) فى كل أنحاء البلاد وأن ضريبة الرأس فرضت على المسيحيين فى عام (٦٣٩-٦٤٠م/١٨هـ)[٢]. ومانقله من قول ثيوفانس : "أنه فى العام الثلاثين من حكم هرقل[٣] أمر عمر فى كل البلاد والأرض التى خضعت له أنه تمسح وتوصف ليس فقط بالنسبة للرجال بل كذلك احصاء الأشجار المثمرة والزروع"[٤]. وبمقارنة تاريخ ميخائيل السورى لأمر عمر وجدناه يوافق سنة ١٩-٢٠هـ ، وأن تاريخ ثيوفانس يوافق سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م ، وان كان تاريخهما لأمر عمر بالاحصاء والمسح لاالقدوم عمر ؛ غير أن عمرا بلاشك أمر به عند قدومه الشام أو فى أعقابه ، لأن تنظيم البلاد اداريا وماليا ، وفرض الجزية والخراج ، كان يتطلب الاحصاء والمسح .

ويذكر أن الخليفة عمر لما قدم الشام المرة الأخيرة ، قام بتنظيم أمورها ورتب شئونها ، وتفقد أحوالها ، فأخذ شروطه على النصارى ، التى عرفت بالشروط العمرية ، وأوقف أرض الشام ، وأقرها بيد أهلها ، ورفع عنهم

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٩٨/٤ .

(٢) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٦ . انظر : نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٠ . وقد جعلت نجدة خماش تأريخ السريانى للحدث يوافق سنة ٢٠هـ .

(٣) حكم هرقل سنة ٦١٠هـ ، وهذا يعنى أن الأمر حدث سنة ٦٤٠م . (انظر : السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص١١٥)

(٤) عبد العزيز الدورى ، نفس المرجع والصفحة ؛ وانظر : نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .

السبى ، وفرض على رؤوسهم الجزية ، وعلى الأرض الخراج ، وأمر باحصاء الناس ومسح الأرض ، وقدر الجزية والخراج ، كما فرض الأرزاق والأعطيات ، وقسم الغنائم ، وجند الأجناد ، وسد الثغور ، وسمى الشواتى والصوائف ، وأخذ يدور بها ويسمى ذلك بكل كورة(١).

وكانت بلاد الشام فى العهد البيزنطى ولاية واحدة مقسمة الى ثلاث مقاطعات وهى سورية(٢) وفينيقيا(٣) وفلسطين ، وقد وجد المسلمون هذه

---

(١) ابن منظور تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٤ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٢/١-١٠٣ ؛ عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب ص٤٦٦ ؛ نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤١٢-٤١٣ .

(٢) سورية ، موضع بالشام بين خناصرة وسلمية . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٨٠/٣) ؛ وقال ابن كثير عند حديثه عن عرض الامبراطور هرقل لما جاءته الدعوة الى الاسلام على قومه أن يتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو يعطوا الرسول صلى الله عليه وسلم الجزية ، أو يصالحوه باعطائه أرض سورية ويحتفظ الروم بالشام : "وكانت أرض سورية فلسطين والأردن ودمشق وحمص ومادون الدرب سورية ، وماكان وراء الدرب عندهم فهو الشام" . (انظر : البداية والنهاية ، ٢٦٧/٤) ؛ وقيل : سورية اسم غلب اطلاقه على القطر الشامى منذ عهد قديم ، وأنه اسم الشام الأول . (انظر : ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٤٠-٤١ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٧-٤٠) . والمقصود هنا ولاية سورية البيزنطية لاالشام كلها . وقد ذكر نقولا زيادة : أن سورية تنقسم الى ولايتين فى أواخر العصر البيزنطى ، سورية الأولى وتشمل شمال سورية جنوب ولاية كيليكيا ، وتمتد من الساحل الى الولاية الفراتية شرقا وتشمل أنطاكية والسويدية وحلب وقنسرين ؛ أما سورية الثانية فتمتد الى جنوب الأولى من الساحل عبر أواسط بلاد الشام الى الصحراء تقريبا ، وكانت أفامية مركزها الادارى ، وتشمل شيزر وحماة والرستن والرصافة . انظر : التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، ص١١٨ .

(٣) فينيقيا : كانت مقسمة الى ولايتين فى العهد البيزنطى ، فينقيا الساحلية ، الممتدة على الساحل الشامى من بانياس الى جبل الكرمل ، وتضم فى الداخل سلسلة الجبال الغربية ، وكانت صور عاصمتها ، وأهم مدنها طرابلس وبيروت وصيدا وعكا وقيسارية وبانياس ؛ وفينيقية اللبنانية (الداخلية) ، وأهم مدنها دمشق وهى العاصمة وحمص وبعلبك وتدمر . انظر : نقولا زيادة ، نفس المرجع ، ص١١٩ .

التقسيمات البيزنطية فاهتدوابها فى ترتيب ادارة البلاد ؛ غير أن عمر قسمها الى أربعة أجناد وهى جند حمص ، ودمشق ، والأردن وفلسطين ، مراعيا طبيعة البلاد والتراث الادارى والضرورات العسكرية ، وانتشار القبائل ومواطنها(١)، فأسكنها الجند لحمايتها وقبض أعطياتهم منها(٢).

وقسم عمر الشام الى أجناد أربعة لاكما وجدها المسلمون عند فتحهم لها ، ولكن استوحى تقسيمه من تنظيم البيزنطيين لها ، بما يحقق غاية الدولة الاسلامية من ذلك التقسيم ويلائم ظروف البلاد والفاتحين(٣). ولما لم يكن لدى المسلمين فى بدء أمرهم فى بلاد الشام أسطول كانت مراكز الأجناد بالشام كلها مدنا داخلية ، وهى حمص ودمشق وطبرية(٤)(الأردن) ولد(٥) (فلسطين)(٦). ويقول نقولا زيادة(٧): أن المعسكرين الرئيسيين للجيوش العربية كانا فى الجابية ، وحول لد فى المنطقة التى بنيت فيها الرملة فيما بعد.

ثم اهتم المسلمون بشحن السواحل بالمقاتلة ، واقطاعهم الاقطاعات ، واجراء الأعطيات عليهم ، واسكانهم فيما جلا عنه أهله ، وبناء المساجد

---

(١) نجدة خماش ، الادارة فى العصر الأموى ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص٣٦-٣٧ ؛ بينما يذكر نقولا زيادة ، أن بلاد الشام فى أواسط القرن كانت مقسمة الى ثمانية أقسام ادارية ، وهى : سورية الأولى ، والثانية ، وفينيقية الساحلية ، وفينيقية اللبنانية (أو الداخلية) ، وفلسطين الأولى ، والثانية والثالثة ، والعربية . انظر : التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، ص١١٨-١٢٠ .

(٢) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٣٧ .

(٣) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٣٨ .

(٤) طبرية : بلدة مطلة على بحيرة طبرية ، يطل عليها جبل الطور ، وهى من أعمال الأردن فى طرف الغور تقع بين عكا وبيت المقدس ودمشق . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/١٧-٢٠) .

(٥) لد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين . (انظر : ياقوت ، نفس المصدر ، ٥/١٥) .

(٦) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤١٣،٤١٥-٤١٦ .

(٧) تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام ، ص١٦٩ .

وتكبيرها لهم ، وكان هذا من أسباب انتقال الناس الى السواحل(١).

وتقول نجدة خماش(٢): وبقيت قضايا أهل الذمة فى الأمور المدنية والجنائية والقضائية مرتبطة برؤسائهم الروحيين ، الا اذا كانت القضية تمس المسلمين .

وفى بحث آخر تقول : وبما أن النظام القضائى الذى طبق فى الدولة الاسلامية كان يقوم على أساس الشريعة ، فانه يخص المسلمين ، وارتبطت قضايا أهل الذمة فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين ، الا اذا كانت القضية تمس المسلمين ، غير أنها تعود الى القول : وقد كان بامكان أهل الذمة أن يحتكموا الى القاضى المسلم وله أن يحكم بينهم بالعدل لأن أهل الذمة لم يكونوا مجبرين على تطبيق أحكام قضائهم اذا وجدوا فى ذلك حيفا ، وكان حكم الاسلام عليهم أنفذ ، وتذكر ماروواه الكندى أن قاضى مصر كان يقضى بين المسلمين فى المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ؛ وتعقب بالقول : واذا كان هذا مايفعله القاضى فى مصر ، فلاشك أنه كان متبعا كذلك فى الشام وان لم يكن لدينا مثال على ذلك(٣).

وعطفا على ماقدمناه ، فان المسلمين قد بسطوا بالفتح سلطانهم على بلاد الشام ، وصار لهم الولاية العامة وقد شارطوا نصارى الشام على جريان أحكام الاسلام عليهم ، فأصبحت شريعة الاسلام قانون الدولة السارى على رعاياها مسلمهم وكافرهم ، وماترك لرؤسائهم الروحيين لم يتعد أمورهم الدينية ، أو المدنية من معاملات ، أو علاقات اجتماعية ، كعقد زواج ، أو عقود مالية مما ليس فيه حكم ، وأما تقاضيهم الى زعمائهم الروحيين ، فقد ذكر عبد الكريم زيدان(٤)أن ذلك كان من باب التحاكم لاالقضاء الملزم

---

(١) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤١٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص٤١٨ .

(٣) نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩٥ .

(٤) انظر قوله بالصفحة التالية .

فان رضوا بحكم زعيمهم والا تقاضوا الى القاضى المسلم وحكم الشرع نافذ لايرد ، لعلو كلمة الله وحكمه فى دار الاسلام .

وحيث أن المسلمين جاهدوا نصارى الشام لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله ، وبما أن المسلمين صالحوا أهل البلاد على جريان أحكام الاسلام عليهم ، فقد جاء الحكم الاسلامى لنصارى بلاد الشام ، اعلاء لكلمة الله ، وبسطا لسيادة الدولة الاسلامية وولاية المسلمين على غيرهم ، وتحكيما لشرع الله فى الأرض وأهلها ، مسلمهم وكافرهم .

يقول عبد الكريم زيدان (١): والقاعدة فى الأحكام الجنائية سريانها على جميع الجرائم فى دار الاسلام ، سواء كان مرتكبها مسلما أو ذميا أو مستأمنا (٢)، وللدولة الاسلامية الولاية التامة ، وقد التزم الذمى بأحكام الاسلام ، مما يجعل تنفيذ أحكام الشريعةممكنا ؛ والأحكام المقررة لغير المسلمين فى جميع مسائلهم هى أحكام الشريعة الاسلامية ، وهذا ماصرح به جميع الفقهاء بلااستثناء ، وهو الصواب ؛ ولعموم الشريعة فى حق كافة الناس ، ولأن الاسلام دين وقانون ودولة وسيادة ، والقانون ممثل بأحكام المعاملات بمعناها الواسع يسرى على جميع أهل دار الاسلام ، لما للدولة من سيادة وولاية ؛ ويخلص عبد الكريم زيدان الى القول : فرجح لدينا خضوع الذميين لولاية القضاء العامة فى دار الاسلام ، أما رجوع الذميين لرؤسائهم من أهل ملتهم فى خصوماتهم ، فهذا يحمل على سبيل التحكيم لاالقضاء الملزم .

ويقول ابراهيم سليمان عيسى (٣): لقد اختلف الفقهاء فى اقامة الحدود

---

(١) انظر : أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٦٣٤،٦٣٨-٦٣٩ .

(٢) المستأمن ، هو الحربى الذى طلب الأمان من المسلمين ، وهو عقد أمان مؤقت بعكس عقد الذمة للذميين ، فانه مؤبد ، وبمقتضاه يكون الحربى المستأمن فى دار الاسلام آمنا مادام الأمان قائما . انظر : عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع ، ص٤٦-٥٦ .

(٣) معاملة غير المسلمين فى دولة الاسلام ، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص١٦٦-١٦٧ .

على غير المسلمين من أهل الكتاب ، فقال الامام مالك : لايقام حد الزنا على الـذمى ولكنه يدفع الى أهل دينـه ليقيموا عليه مايعتقـدون من العقوبة ، لما روى عن عمر وعلى رضى الله عنهما لما سئلا عن ذميين زنيـا ، فقالا يدفعان الى أهل دينهما ، وكذا الحكم اذا شرب الذمى الخمـر ، ووافقه على ماذهب اليه محمد بن الحسن من الحنفية ، وروى عن ابن القاسـم أنه اذا تحاكم أهل الـذمة الى حاكم المسلمين ، ورضى الخصمان به جميعا ، فلايحكـم بينهما الا برضى من أساقفتهما، فان كره أساقفتهما فلايحكم بينهمـا . وكذلك ان رضى الأساقفة ولم يرض المتحاكمان أو أحدهما لم يحكم بينهما .

وذهـب الحنفيـة والشـافعية والحنـابلة الى وجوب اقـامة حد الـزنا على الـذمى ، واستـدلوا بما روى أن رسـول الله صلى اللـه عليـه وسلم أقام حد الزنا على اليهوديين الزانيين وكانا ذميين ، ولأن الذمى من أهل دارنا وملتزم بأحكـامنا فيمـا يرجع الى المعـاملات ، وهو يعتقد حرمـة الـزنا كما يعتقدها المسلم ، فيقـام عليه حد الزنا كمـا يقام على المسلم . وهـذا الخلاف واقع فقط فى حد الـزنا ، أما حد الشرب فـالأئمة الأربعة متفقون على عـدم اقـامته على الذمى ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "**اتركوهم ومايدينون ، الخمر لهم كالخل لنا ، والخنزير لهم كالشاه لنا**"(١).

أما القذف والسرقة فهما من حقوق العباد ، وهذا الخلاف فى حد الزنا اذا كـان جلـدا ، أما اذا كان رجمـا فلايقـام عليه عند الحنفيـة والمالكيـة ، ويقام عليه عند الشافعية والحنابلة .

ويذكر توفيق اليوزبكى(٢): أن أحكام الاسلام تنطبق فى الجرائم على جميـع مـن فى دار الاسلام ، الا أنه فى بعـض جزئيـاتها اختلافـا قليلا بين

---

(١) لم أجد هذا الحديث فى مظانه .

(٢) تاريخ أهل الذمة ، ص٨٤-٨٥ .

الفقهـاء بالنسبـة الى الـذميين ؛ فقـد استثنى جميـع الفقهـاء عقـوبة شـرب الخمر(١)، وأكل لحم الخنزير لأن أهل الذمة لايؤمنون بحرمتها .

وقيـل : سار النصارى فى أحوالهم المدنية وفق شـرائعهم ، وكان لهم قاضيهم الخاص بهم ، الا أن هنـاك حالتين كان القاضى المسلم يحكـم فيهما ، الأولى : اذا أبدوا رغبتهـم فى أن يفصـل القاضى بينهـم ، والثـانية : وهـى الاجبـار ، اذا كان أحد طرفى الخصـومة مسلما ، أو كـان أمر يتصل بحد أو تعزير(٢)، وهناك استثناء فيما يخص حد الزنا اذا كان بين نصـرانيين ، فكان يترك لأهل دينهما(٣).

ومـن أمثلة جريان أحكام الاسلام على نصـارى الشـام فى عصر الخلفاء الراشدين ، ودليله قول أبى يوسف(٤): فأما الذمى اذا استكره المرأة المسلمة على نفسها ، فعليه من الحد ماعلى المسلم فى قول فقهائنا ؛ ومن ذلك أن رجلا من النصارى استكره امرأة مسلمـة على نفسها ، فرفع ذلـك الى أبى عبيـدة ، فقـال : "ماعلى هذا صالحنـاكم" فضرب عنقه ؛ وأن رجلا مـن أهـل الذمة ، من نبط الشام نخس بامرأة على دابة ، فلم تقـع ، فدفعهـا فصـرعها ، فانكشف عنها ثيابها ، فجلس يجامعها ، فرفع ذلك الى عمر بن الخطـاب رضى الله عنه فأمر به فصلب ، وقال : ليس على هذا عاهدناكم .

ويذكر روبرت شيك (Robert Schik) قلة عدد النصارى الذين قتلوا فى العصر الأموى مقارنة بمن قتل فى العصر العباسى ، وأن هنـاك أمثلة ممن

---

(١) يقـول الماوردى : اذا جاهر رجل من أهل الذمة باظهار الخمـر أدبه المحتسب على اظهاره . (الأحكام السلطانية ، ص٢١٦) . وذلك لأن أهل الـذمة صولحوا على ألا يظهروه .

(٢) مـن ذلـك على سبيل المثال والمقـارنة ، فـأحكام الاسلام على أهـل الـذمة سواء : ماذكر من صلب عمر بن الخطاب ليهودى شامى بالجابية لاعتـدائه على عرض امرأة مسلمـة ومحاولة قتلها . انظر : (أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٣٢-٢٣٦ ؛ ابن زنجويه الأموال ، ٤٣٦،٤٣١/١ ؛ ابن القيم ، أحكام ، ٧٩١/٢-٧٩٢) .

(٣) عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ، المطبعة الاسلامية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م ، ص١٤٤-١٤٥ .

(٤) الخراج ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

قتـل مـن النصـارى فى بيـت المقـدس سنـة ٩٦هـ/٧١٤-٧١٥م بعـد محاكمـة شرعية (١).

وهـذا يوضح أن أحكام الاسلام كانت جارية على النصـارى فى العصر الأموى ، وأن أعدادا منهم قتلوا بمقتضى أحكام شرعية (٢).

وكـانت مهمـة الوالى المسلم بالـدرجة الأولى ، حمـاية أهـل ولايتـه ، وجبـاية الجزية والخراج ، وأبقى المسلمون لرؤساء أهـل كل مدينة مكانتهم فى ادارة شئون أهل ملتهم من أهل الذمة ، ويذكر أن الخليفة أمر قواده أن يبقـى أهل كل بلد يمارسون حياتهم حسب قوانينهم وتقـاليدهم اذا ماأرادوا مادامت لاتتعارض مع الشريعة الاسلامية (٣). ونقل القرضاوى قول ديورانت أن المسلمين تركـوا لأهـل الـذمة التمتع بحكم ذاتى يخضعـون فيـه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم (٤).

ويكـون رئيـس أهـل الذمـة حلقـة الوصل بينهـم وبين المسلمين (٥).

ومن ذلك اشتراط المسلمين على أهل الذمة أن يتـولى رؤساؤهم تقسيم ماصولحوا عليه من الأموال ، وجبايتها من أقوامهم ، وماعلى المسلمين سوى

---

(١) Robert Schick : Op. Cit. p.43 .

(٢) وفى كتـاب من عمرو بن العاص الى عمـر بن الخطاب رضى اللـه عنهمـا ، مايشير الى تطبيق أحكام الاسلام على أهل الذمة . اذ ورد فيه على لسـان عمرو : "وبالله الذى لايحلف بأعظم منه انى أقيم الحد فى صحن دارى على الذمى والمسلم" . انظر : ابن المبرد ، محض الصـواب فى فضـائل أمير المؤمنين عمـر بن الخطـاب ، ٢/٨٣٩-٨٤٠ .

(٣) نجدة خمـاش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٢٣١ ؛ توفيق اليـوزبكى ، تاريخ أهل الـذمة ، ص١٢٦ ؛ عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلـس ، ص٨٥ . ذكر أن سلطتـه فى المسـائل المدنيـة . (ومـاأورده عـن نصـارى الأندلـس ، لكـن السيـاسة الاسلامية عامة ، وأوردناه للمقابلة والمقارنة) .

(٤) غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٥١-٥٢ .

(٥) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع والصفحة ؛ عبادة كحيلة ، نفس المرجع ، ص٨٦ .

قبضها(١). وترك لهم تنظيم جماعتهم داخليا ، وكان البطريرك(٢) يعين بالانتخاب من أهل ملته ، فيتوجه الى الوالى بوصفه ممثل الخليفة ، ليعطى تعيينه الصبغة الرسمية ، مما يدل على اعتباره من موظفى الدولة ، ولم يكن الولاة يتدخلون فى تعيين أو انتخاب البطاركة الا اذا طلب منهم النصارى ذلك(٣). وكان البطرك يحضر مراسيم ولاية كل خليفة أو وال جديد(٤). والحق أن المسلمين كان لهم حق التدخل فى تعيين البطاركة لولايتهم العامة ، وخاصة اذا استدعت المصلحة العامة ذلك، فقد خلا الكرسى البطركى لكنيسة بيت المقدس منذ الفتح الاسلامى بوفاة البطرك صفرونيوس سنة (٦٣٨م/١٧هـ) حتى تم تعيين البطرك يوحنا الخامس عام (٧٠٦م/٨٧هـ)(٥).

ويبدو أن المسلمين كان لهم دور فى ذلك ، فقد كانت كنيسة بيت المقدس على المذهب الملكانى ، وهو مذهب الامبراطور ، وولاؤهم للقسطنطينية فربما أراد المسلمون فى بادىء أمرهم قطع العلاقة بين نصارى الشام ودولة الروم . فلما استقرت أمورهم ، وعظمت دولتهم ولم يخشوا من ذلك الارتباط الدينى ، أذنوا لهم بتعيين البطرك .

ويظهر أن المسلمين كان يهمهم أن تكون الكنيسة ذات ولاء سياسى للمسلمين ، لأهميتها فى تنفيذ سياساتهم ؛ يقول ترتون(٦): وكانت الكنائس

---

(١) انظر : صلح الحيرة ، أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨٨-٢٩٠ ؛ وصلح مرو الشاهجان ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٣٩٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٤٠٢ ؛ وانظر بعد : ص٢٥٩-٢٦٠ .

(٢) البطريرك : مقدم النصارى . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : بطرك) .

(٣) قاسم عبده ، أهل الذمة فى مصر العصور الاسلامية ، ص٣٣ . وكان قومس نصارى الأندلس يعين من قبل المسلمين . انظر : عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ، ص٨٦ .

(٤) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٧ .

(٥) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦١-٦٢ .

(٦) أهل الذمة فى الاسلام ، ص١١٩-١٢٠ .

تستعمل لأغراض أخرى غير الأغراض الدينية ، فتقرأ فيها المراسيم الحكومية من ذلك مانقله عن محتوى بعض أوراق البردى وهو : "عليك حين تتسلم هذه الرسالة أن تجمع كبار أهل البلد وشرطه ، واقرأ عليهم هذا الكتاب ، ومرهم بكتابة نسخة منه الى كل محلة لتقرأ على ساكنها ، وأذعها فى بيعهم" .

والى جانب تحميلهم جزءا من المسئولية الادارية ، نجد أن المسلمين عاهدوهم على تحمل المسئولية الأمنية ، وذلك بألا يؤوا محدثا (الجانى)[1]، وأن يتحملوا دية المسلم اذا قتل فى أرضهم[2].

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص٩١ ؛ وانظر عهود الصلح ، قبل : ص١٨٨ .

(٢) ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٦٦/١-٣٧٠ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٧٩/٢-٧٨٨ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

* طبيعة الحكم الاسلامى وتميزه بالعدل والوفاء والرحمة والتسامح فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

ـ طبيعة الحكم الاسلامى فى عصر الخلفاء الراشدين :

التزم المسلمون فى حكمهم مع النصارى بالعدل والرحمة والتسامح والوفاء ، فعاشوا فى سلام فى ظل الحكم الاسلامى حتى وجدوا حياتهم كرعايا للدولة الاسلامية خيرا من حياتهم تحت سلطان الدولة البيزنطية ، وهم أهل دين واحد ، ولغة مشتركة . ففى مجال العدل لانجد فيما وصلنا مايدل على جور الحكام والقضاة المسلمين ، بل غدت عدالتهم مثلا . وليس أقرب الى الأذهان فى عصر الخلفاء الراشدين من حضور الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه مع نصرانى الى مجلس القضاء ، فى درع له وجده مع ذلك النصرانى ، فحكم القاضى شريح بالدرع للنصرانى ، لأن الخليفة لم يكن لديه بينة . فمشى النصرانى قليلا ثم عاد وقال : "أشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين قدمنى الى قاضيه ، وقاضيه يقضى عليه ، ثم أسلم ، ففرح على باسلامه ، وأهداه الدرع وفرسا ، وشهد معه قتال الخوارج(١).

ويروى الواقدى(٢): أن أبا عبيدة رضى الله عنه صالح أهل قنسرين وكانوا قد وضعوا حدا لأرضهم عبارة عن عمود عليه صورة هرقل ، ففقأ أحد المسلمين عن غير عمد عين هرقل فى صورته تلك ، فاعتبر الروم ذلك غدرا من المسلمين ، فسمح لهم أبو عبيدة أن يرسموا له صورة ويفقأوا عينه فيها ، لئلا يقال غدر المسلمون بعد عهد ، ففعلوا ذلك .

ومن باب العدل وحسن المعاملة مأمر به الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما أجلى النجرانية من اليمن الى من وقعوا به من أهل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢٠١/٣ (وهذا المثال لايخص نصارى الشام ، ولكنه مثال للسياسة العامة تجاه النصارى وغيرهم من أهل الذمة) .

(٢) فتوح الشام ، ١١٦/١-١١٧ .

الشام والعراق ، أن يوسعهم من حرث الأرض ، وماعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن(١).

كما التزموا مبادىء دينهم ، وأوامر خلفائهم ، فنجد أحد المسلمين يتجنب قتل امرأة حملت عليه فى قتال المسلمين للروم عند دمشق(٢)، وتسامح عمر بن الخطاب مع نصرانى رد عليه وهو يخطب فى الجابية ، وفاء لعهده(٣). ونهى عبادة بن الصامت مسلما من قتل ذمى أوقعه وجماعة من المسلمين فى شرب الخمر ، وفاء للذمة(٤). وعفة المسلمين عن أخذ أموال أهل ايلياء بدون حق ، وقد أخرجوا زينتهم ومتاعهم اختبارا للمسلمين أيسلبون أموالهم اذا رأوها ، فما كان من المسلمين الا أن حمدوا الله الذى أورثهم أرض قوم فى مثل هذا النعيم ، فلما رأى النصارى ذلك منهم قال أحدهم : "هؤلاء القوم الذين وصفهم الله فى التوراة والانجيل وانهم لايزالون على الحق ولايقر بهم أحد ماداموا على ماهم عليه"(٥).

ومن باب الوفاء بالعهد التزام حماية أهل الذمة ، وفك أسراهم(٦). ووفاء أبى عبيدة لأهل دمشق بالأمان الذى أعطاهم ، وقد وجد خالدا اقتحمها عنوة ، فأجراها صلحا(٧).

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٧٧ . وسيجد القارىء أمثلة عديدة على سمات طبيعة الحكم الاسلامى فى ثنايا الحديث عن معاملة المسلمين لنصارى الشام فى الجوانب المختلفة ، وانما نذكره هنا أمثلة معدودة على ذلك .

(٢) ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص١٢٩ .

(٣) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤٠٢ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص٢٢٠-٢٢١ .

(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، ١٦/٢-١٧ .

(٥) الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٤٢/١ .

(٦) ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٣٤/١-٣٣٥ .

(٧) ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٤١/٢-٢٤٢ .

واعـادته رضـى الله عنـه ، الأموال التى جبـاها مـن أهل حمص [١]، ودمشق [٢] اليهـم، عنـدما وجد المسلمين غير قـادرين على حمـاية أهلهـا ، لما انسحبـوا الى اليرمـوك ، ممـا أوقـع أكبر الأثر فى نفـوس أهلهـا ، وراحوا يقـولون : ردكم الله الينا ، ولعـن الله الذين كانوا يحكمـوننا مـن الروم ، والله لو كانوا هم ماردوا علينا أموالنا ، بل غصبونا وأخذوا مـاقدروا عليه منـا ، وهذا دعاهم الى الترحيـب بالمسلمين عندما عادوا اليهـم بعد انتصارهم على الـروم فى اليرموك ، فـأخرجوا المقلسون يلعبون أمـام جيـوش المسلمين فرحا بمقدمهم ، وقالوا نحن على العهـد الـذى بيننـا وبينكـم ، فـأعطاهم المسلمون ذلك .

ويظـل المسلمون على تسامحهم ، حتى مع من نقض العهـد ، فان كثيرا ممن صالح المسلمين نقضوا عهودهم ، يوم أقبلت جيوش الروم الى اليرموك على أمل النصر فيها ، مما أضاع بعض ثمار الفتوحات التى أحرزهـا المسلمون قبل اليرمـوك [٣]. فنجـد المسلمين يعفـون ويتسـامحون مـع مـن نقـض عهده وخرج عليهـم ، ونراهم بعد أن يفتحوا البلد مرة أخرى ، يصـالحون أهلها على الصلـح الأول ، ولايقـومون بأعمـال تأديبية أو انتقـامية . ومـن ذلـك انتفاض قنسرين [٤]، وأنطاكية [٥]، وطبرية [٦]، وعسقلان [٧]. ومن التسامح معهم تركهم يدخلون المساجد للتحاكم ولأغراض أخرى [٨].

---

(١) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٥٥-١٥٦ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٣ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٣٠٢-٣٠٣ .

(٢) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١٦٠،٢٣١ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٣٠٦

(٣) محمد البطاينة ، فتح فلسطين ، ص٣٨ .

(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٠ .

(٥) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢-١٥٣ .

(٦) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٣ .

(٧) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٨ .

(٨) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٧ .

ومن حسن المعاملة ، ماروى من حسن استقبال الخليفة عمر فى الجابية لبطريرك ايلياء صفرونيوس عند توقيعه العهد معه[(١)]، وتواضعه فى دخوله ايلياء ، فيذكر أنه قدم له برذون ليركبه فلم تعجبه مشيته وكان فيها خيلاء وهو يتهملج فتركه ، وركب الجمل ، فى ملبس خشن ، ومعه غلامه ، والعباس بن عبد المطلب[(٢)]عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس ، وكان جميلا ، فلما أقبلوا على سور المدينة ، كان دور الغلام فى الركوب فأركبه عمر ، ومشى آخذا بمقود الجمل ، فأخذ البطاركة يسلمون على العباس يظنونه الخليفة وهو يشير الى أمير المؤمنين ، فلما وصل على هذا الحال أكبروه ، وسجدوا له ، فقال : لاتسجدوا للبشر اسجدوا لله . فتعجب القسس والرهبان وقالوا : "مارأينا قط أشبه بما وصف من الحواريين من هذا الرجل" . وبكى صفرونيوس وقال : ان دولتكم باقية على الدهر ، فدولة الظلم ساعة ودولة العدل الى قيام الساعة[(٣)].

وأى أناس كان أولئك الفاتحون وهم الغالبون ، وكان لهم أن ينزلوا فيما جلا عنه أهله من المنازل ، وهو الراجح ، أو كما قيل : على مقتضى الصلح بمقاسمتهم المساكن[(٤)]. نراهم يولون قسمتها فى دمشق سمرة بن

---

(١) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٩٥-٩٦ .

(٢) العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، قيل أنه أسلم قبل الهجرة ، كتم اسلامه ، وخرج مع قومه الى بدر ، فأسر يومئذ ، فادعى أنه مسلم ، قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الفتح ، وأجار أبا سفيان بن حرب ، فلايعد من الطلقاء ، وكان العباس شريفا مهيبا عاقلا جميلا ، وله مناقب كثيرة ، كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وتثبت من الأنصار وبيعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وثبت معه فى حنين . ولد قبل عام الفيل بثلاث سنين ، ومات سنة ٣٢هـ .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٧٨/٢-١٠٣ .

(٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م٩ ، ج١٨ ، ص٣٣٢-٣٣٣ ؛ شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص٩٤،٩٥ .

(٤) ناقش حسن الحارثى الخلاف بين المؤرخين حول القول بمقاسمة أهل بعض المدن فى مساكنهم ، وصحح أن المسلمين لم يقاسموهم منازلهم وانما سكنوا فى فضول منازلهم مما هو متروك أو جلا عنه أهله . انظر : المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣٢٠-٣٢٢،٣٥٤ .

فاتك[١] رضـى الله عنه ، وفى حمـص السمط بن الأسـود الكندى[٢]، وفى الفتح الثانى ابنه شـرحبيل[٣]، فنجـد سمرة يضرب مثلا فى حسن المعـاملة ، فاذا ماقسم دارا واحدة أسكن الرومى فى العلو ، وترك المسلم فى السفل لئلا يضر المسلم بالـذمى[٤]. وأراه اقتـدى بفعـل الرسول صلى اللـه عليـه وسلم عنـدما نزل ضيفا على أبى أيوب الأنصـارى رضى الله عنـه فى بيته فى يثرب عند قدومه اليها ، اذ جعله فى العلو ونزل عليه السلام فى السفل لئلا يتأذى أبو أيوب بزواره عليه السلام[٥].

---

(١) سمـرة بن فاتك ويقال ابن فـاتكة الأسدى ، ويقال اسمـه سبرة ، وروى عنه أن النبى صلى اللـه عليه وسلم قـال : "نعم الرجل سمرة لـو أخذ مـن لمته وشمر من مئزره فبلغه ذلك ففعل" . انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٨٠/٢ .

(٢) السمـط بن الأسود الكندى والـد شرحبيل ، شهد اليرمـوك ، وكـان قد ثبت هو وولـده شرحبيل على السلام فى الردة ، وقد استعمل عمر ولـده على المدائن وهو بالشام ، فكتب اليه السمط ألايفرق بينهما ، فألحقه بابنه . انظر : ابن حجر ، نفس المصدر ، ١١٥/٢ .

(٣) شـرحبيل بن السمـط الكنـدى قيـل لـه صحبة ، وشهد القـادسية ، ونزل حمـص فقسمهـا منازل ، وشهد صفين مع معاوية رضى الله عنه ، ومـات فى صفين وقيل بعد ذلك . انظر : ابن حجر ، نفس المصدر ، ١٤٣/٢-١٤٤ .

(٤) أحمـد بدر ، الاقطاع فى بلاد الشـام خلال القرنين الأول والثـانى للهجـرة ، بحث ضمـن أعمـال المؤتمر الـدولى الـرابع لتـاريخ بلاد الشام ، بلاد الشــام فى العهـد الأمـوى ، القسـم العـربى ، عمـان ١٩٨٩م ، م١ ، ص٣٧٢-٣٧٣ ؛ أحمـد بدر ، الدور الادارى لطبقة الصحابة ، ص٣٨٠ .

(٥) قـال ابن اسحق : حدث أبو أيوب الأنصـارى وهو الذى نزل الـرسول صلى الله عليـه وسلم فى بيته حتى بنى مسجـده ومساكنه قال : لما نزل على رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم فى بيتى ، نزل فى السفل ، وأنا وأم أيوب فى العلـو ، فقلت له : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى ، انى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتى ، فأظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكـون فى السفـل ، فقـال : ياأبا أيوب ، ان أرفـق بنا وبمن يغشانا ، أن نكون فى سفل البيت . انظـر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، القسم الأول ، ص٤٩٨ .

وقد حظى الذميون بالعدل والرحمة والتسامح على مدى عصر الراشدين ، ووفى لهم بما عوهدوا عليه ، وبالمقابل التزم نصارى الشام بما شرط عليهم ، وأدوا ماعليهم من جزية وخراج وغير ذلك(١).

ـ طبيعة الحكم الاسلامى فى العصر الأموى :

وفى العصر الأموى حظى نصارى الشام بدرجة أكبر من التسامح ، والتزم الأمويون فى معاملتهم الوفاء والعدل والرحمة ، وقد شهد عدد من المؤرخين(٢) بما حازه نصارى الشام من تسامح وحسن معاملة من الحكام الأمويين ، وضربوا الأمثلة المختلفة على ذلك(٣).

غير أن البعض منهم(٤) صور ذلك التسامح وكأنه حرية مطلقة ، والحق أن ذلك التسامح لم يتجاوز حدود المباح فى معاملة غير المسلمين ، الا فيما ندر ، وقد يكون الداعى اليه تألفهم على الاسلام ، فقد ظل الأمويون فى الغالب ملتزمين أحكام الشريعة ، وماصولح عليه نصارى الشام . ولعل مادعى أولئك المؤرخين الى المبالغة فى ابراز تسامح بنى أمية مع نصارى الشام هو واقع الدولة الأموية الذى فرض عليها قدرا أكبر من التعاون والتسامح مع نصارى الشام ، ذلك أن الدولة الأموية اتخذت من دمشق عاصمة لها ، وغدت بلاد الشام مركزا للدولة الاسلامية ، ومعناه أن الحكام الأمويين

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة ، ص١٠٧ .

(٢) القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٥١-٥٢ ؛ ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٥٣ ؛ اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٣٨ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢١٤ ؛ صالح حمارنة ، المسيحية فى الشام ص٥٥٤ ؛ جورج عطية ، الجدل الدينى المسيحى الاسلامى فى العصر الأموى وأثره فى نشوء علم الكلام ، ص٤٠٧-٤٢٦ ؛ المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، م١ ، ص١١-٢٦ ، عمان ، ١٩٨٩م ، ص٤٠٨ .

(٣) يرى القارىء عددا كبيرا من الأمثلة فى ثنايا حديثنا فيما تبقى من فصول هذه الرسالة .

(٤) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع والصفحة ؛ جورج عطية ، نفس المرجع والصفحة وغيرهما .

اختاروا أن يعيشوا فى مجتمع غالبه من النصارى وقليله المسلمون ، وأرض هى مهد النصرانية ، ومنبر لحضارة اليونان والرومان ، الذين حكموا ذلك الاقليم قبل الفتح الاسلامى لقرون عديدة ، مما استوجب معاملة نصارى الشام بالحسنى والعمل على تألفهم على الاسلام وولائهم لدولته ، كما عمل معاوية بن أبى سفيان لما تزوج من ميسون الكلبية(١)، ليكسب ولاء قبيلة كلب وهى من أكبر قبائل الشام شأنا آنذاك ، وليضمن بنو أمية وحدة الجبهة الداخلية لمركز الدولة الاسلامية ، وليكون أهل الشام مسلمهم ونصرانيهم دعامة للبيت الأموى الحاكم . وهذا مانجح فيه الأمويون ، الا فى فترتين : الأولى : انقسام أهل الشام بعد معاوية بن يزيد ، وأدى ذلك الى انتقال الحكم من البيت السفيانى الى البيت المروانى(٢)، والثانية : بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وأدى ذلك الى سقوط دولة بنى أمية(٣).

ومن صور ذلك التسامح وحسن المعاملة ماحظى به نصارى الشام عند الحكام الأمويين الأولين ، وخاصة معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ، وكذلك عبد الملك بن مروان وابنه هشام ، فقد اعتمد معاوية عليهم وقربهم منه وجعلهم فى خدمته وخاصة أصهاره اليمنيين ، واستعان بهم فى الادارة فكان سرجون بن منصور على الديوان ، واتخذ ابن أثال النصرانى طبيبا له ، وكان هو وغيره من أطباء الحكام ، يلازمون الخلفاء فى حلهم وترحالهم ؛

---

(١) ميسون بنت حميد بن بجدل الكلبية ، شاعرة من شواعر العرب ، تزوجها معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه ، ونقلها من البدو الى دمشق ، فكانت تكثر الحنين للبادن ، وتنشد فى ذلك الشعر ، فطلقها معاوية وألحقها بأهلها ، وأخذت ابنها يزيد معها الى ديار قومها كلب ، فنشأ فصيحا .
انظر : عمر رضا كحالة ، أعلام النساء ، ١٣٦/٥-١٣٧ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ٣٣٩/٧ .

(٢) عن انقسام أهل الشام وأثره على مجريات الأحداث آنذاك ، انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٥٠١/٥-٥٤٤ .

(٣) وانظر أثر الفتنة التى أدت الى مقتل الوليد بن يزيد وبالتالى تفتت الجبهة الشامية على سقوط الدولة الأموية ، انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ١٦٢/٧ ومابعدها .

يزورونهم فى قصورهم ، ويجلسون على موائدهم ، ويسامرونهم ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم أحيانا فى حروبهم وأسفارهم ، وكان الخلفاء يقربونهم ويمنحونهم العطايا السخية ، ويعودونهم فى منازلهم عند مرضهم ، ويحضرون أحيانا الصلاة عليهم عند موتهم(١).

ويبدو أن من الخلفاء من كان حريصا على الاهتمام برعاياه من النصارى ، وتفقد أحوالهم ، فيذكر شفيق جاسر محمود(٢)، أن معاوية كان يتردد على القدس ، فزار الجلجلة (٣)وصلى هناك ، ثم قصد الجشمانية (٤)وهبط منها الى قبر مريم بنت عمران وصلى هناك ، وقيل أن ذلك حدث وهو خليفة .

وأضاف : أن زيارته للمقدسات المسيحية انما تدل على تقدير تلك المقدسات والتسامح مع المسيحيين . وأرى أن تلك الزيارة كانت لتفقد أحوال رعاياه ، وأن صلاته عند تلك المقدسات كانت لله تعالى ، لاتقديسا لها ، وانما لصلاة حل وقتها ، أو وقت يستحب فيه التنفل .

كما يذكر بارتولد(٥)أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أم الصلاة باحدى كنائس النصارى ؛ ويظهر أن ذلك حدث خلال زيارة تفقدية لرعاياه من النصارى ، فحان وقت الصلاة فصلى بمن يرافقه من المسلمين فيها .

يقول صالح الحمارنة : وحذا عدد من الحكام الأمويين حذو معاوية ، وخاصة ابنه يزيد ، الذى كان ميالا اليهم وكان أكثرهم تسامحا وتقريبا

---

(١) انظر عن ذلك : صالح حمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٤ ؛ جورج عطية الجدل الدينى ، ص٤٠٨ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦٣ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤١٧-٤١٨ . وانظر بعد : ص٦٥١-٦٥٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٩٥ .

(٣) الجلجة : لم أجد لها تعريفا .

(٤) الجشمانية : لم أجد لها تعريفا .

(٥) عمر بن عبد العزيز ، وتضارب الأخبار حول شخصه ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ملحق ببحثه الموسوم بـ"الصقالبة ..." ، المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العصر الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، ص٢٥٣-٢٨٤ .

للنصارى ، لكون أمه مسيحية ، ولنشأته فى كنف أمه وأخواله المسيحيين فى البادية ، ومخالطة المسيحيين فى دمشق ، فكان يعطى الصدارة فى قصر الحكم الى حلفائه من المسحيين بعد أمراء الأسرة الحاكمة (١)، وكان من رفاقه المفضلين ، يوحنا الدمشقى ، والشاعر الأخطل النصرانيان (٢).

والى حد كبير كان عبد الملك متسامحا مع النصارى عادلا معهم (٣)، ويروى الجاحظ (٤) قصة دخول الشاعر جرير والشاعر الأخطل النصرانى على عبد الملك بن مروان ، وأنه لم يسمع من جرير مدحه له ، واكتفى بسماع مدحه الحجاج ، وأن عبد الملك طلب من الأخطل أن يمدحه فمدحه ، فأثنى عليه عبد الملك ، وأمره أن يركب الشاعر جرير ، فأراد ذلك ، ولكن من كان حاضرا من قبيلة مضر قوم جرير لم يرضوا ذلك ، وقالوا حنيف مسلم لايركب ولايظهر عليه نصرانى ، فاستحى عبد الملك ومنعه . ثم مدحه جرير عند منصرفه ، بقصيدته التى منها :

وأنتم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فأعجبه شعره ، وأثنى عليه ، وأجازه . وقد أورد ترتون (٥) رواية ابن رشيق لهذه القصة ، غير أنه ذكر أن الأخطل النصرانى ركب ظهر جرير وهو مسلم ، مع أن الأخطل لم يتورع عن المجاهرة بالنيل من الاسلام وأهله ؛ وقد انتقد ابن رشيق هذه الغاية من المسامحة من قبل عبد الملك ، وقال : لولا شعره لقتل ، وقد نال من الدين وهجا الأنصار ؛ لكن ترتون يرى رأى ابن رشيق دليلا على العزلة الفكرية التى ابتلى بها الاسلام وأن الناحية

---

(١) أرى أن فى هذا القول مبالغة ظاهرة ، فيزيد وان قرب النصارى ، الا أن تقديمهم على المسلمين بهذا الشكل أمر غير معقول ، ولم يكن المسلمون يسكتون عليه ويرضون به . وانظر موقفهم من مثل هذا التصرف فى الصفحة التالية .

(٢) انظر بحثه : المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٤ .

(٣) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤٠٨ .

(٤) الجاحظ ، كتاب التاج فى أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكى باشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، طبعة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ، ص١٣٢-١٣٤ .

(٥) أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٨٢ .

الفكـرية كانت آخذه فى التدهور ، ويرى تسمية ماورد فى شعـر الأخطل من الطعن فى الاسلام وأهله هجوما ، تفاهة . ولاعجب فى أن يدافـع ترتون عن الأخطل النصرانى وهو من أهل دينه .

ومما يدل على حظوة الأخطـل عند عبد الملك مـاروى مـن أنه دخل عليـه يوما وعنده الجحـاف بن حكيم السلمـى [١]، وهجـاه أمامه ، فقـال له الجحاف : "لقد ظننت ياابن النصرانية أنك لم تكن لتجترىء على ولـو رأيتنى مأسورا" ، فاشتد خوف الأخطل ، فأجاره عبد الملك [٢].

أمـا هشام فقد ذكر أن كنيسة دمشق كانت غير بعيـدة عن مقر الخليفة فأمر ببناء دار بجوار داره لاقـامة البطرك ليسمع الصلاة والعظـة ، وأنه كـان يقـول له : "اذا بدأت الصلاة بالليـل تنالنى راحة عظيمـة ويزول عنى الهـم بأمـر المملكـة ، ثم يأتينى النـوم براحة" ، غير مـاعرف عنـه مـن عطف على النصارى فى الأقاليم الأخرى [٣].

وان صحـت رواية بناء هشام دارا للبطـرك بجواره ، فـانما تأويل ذلك تألفه على الاسلام ، أو تقريبه لضمان ولائه ، أما التعليـل الوارد فى الخبر ، فلاشك أنه موضوع وهو خبر من مستشرق نصرانى ، نقلا عـن مؤرخ نصرانى أريد به الطعـن فى قادة الأمة لتشويه صورتهم فى مخيلة المسلمين ، اذ لايقبـل العقل والمنطق قبول ذلك عن خليفة كهشام وماجاء ذلـك عمن هو دونه من الخلفاء أو من كان أكثر تسامحا وتقريبا للنصارى .

ومـن مظاهر التسامح ماذكـر من الاذن للنصارى بدخول المسـاجد رغم منعهـم فى بعـض الأحيان ، فقـد كان الذميون يتحاكمون الى القـاضى المسلم

---

(١) الجحاف بن حكيم السلمى : فاتك ثائر شاعر ، كان معاصرا لعبـد الملك بن مروان وغزا تغلب بقومه فقتل منهم كثيرين ، فاستجاروا بعبد الملك ، فأهدر دم الحجاف فهرب الى الروم وأقام سبع سنين ، ومات عبد الملك ، فأمنه الوليد بن عبد الملك ، فرجع . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١١٣/٢ .

(٢) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٥١ .

(٣) ترتون ، نفس المرجع ، ص١١٢ .

فى المسجد ، ولطالما قام الأخطل مقام الحكم لقبيلة بكر بن وائل فى المسجد ، كما أذن لسفارة رومية بزيارة جامع دمشق زمن عمر بن عبد العزيز(١).

ويقول ترتون(٢)معلقا على تسامح الحكام مع النصارى : كان سلوك الحكام فى الغالب أحسن من القانون المفروض تنفيذه على أهل الذمة .

ونلحظ أن المؤرخين نقلوا لنا صورا من تسامح بعض الحكام ، ولم يذكروا عن الآخرين شيئا ، بل وصف بعضهم بالشدة على النصارى كعمر ابن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك(٣).

وقد علق الخربوطلى على ذلك بأن التسامح تأثر باختلاف الخلفاء والعصور ، والأوضاع السياسية وخاصة بين المسلمين والروم ، وموقف أهل الذمة منها(٤).

والحق كما قدمنا أن ذلك التسامح لم يخرج عن المباح فى الشريعة ، وماعوهد عليه نصارى الشام الا فيما ندر ولعل ذلك من باب تألفهم على الاسلام ، أو استمالتهم للولاء للدولة الاسلامية ، كما أن وصف بعضهم بالشدة فيه مبالغة أو عدم فهم لروح الشريعة الاسلامية ، فهذه الشدة لم تخرج عن العدل وتطبيق الشريعة والزام النصارى بما شورطوا عليه ، الا فيما ندر ولعل لذلك أسبابه ، لكن بعض المؤرخين بالغوا فى ذلك رغبة منهم فى تشويه تاريخ الاسلام . يقول القرضاوى(٥)فى سبيل غاية بعض المؤرخين تشويه تاريخ التسامح الاسلامى مع أهل الذمة تذرع بعضهم بحوادث جزئية فى بعض البلاد وبعض الأحيان ، نتيجة لظروف خاصة تحدث فى كل البلاد حتى الآن ؛ وقد هيأ التسامح للنصارى الوصول الى مراكز تسلطوا من

---

(١) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٩٠ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٧ .
(٢) نفس المرجع ، ص٢٥٦ .
(٣) انظر : جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤٠٨ .
(٤) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٧ .
(٥) غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٦٢-٦٤ .

خلالها على المسلمين ، وجمعوا الثروات الضخمة ، كثروة اثناسيوس الذى استغل منصبه ومكانته لدى أمير مصر عبد العزيز بن مروان ، فتسلط على المسلمين أنفسهم ، وكان يأخذ من كل جندى مسلم دينارا ، وأحيانا تظهر روح الحزم والشدة تجاه النصارى عندما يظهرون الفرح بانتصار الروم على المسلمين .

وكان للتعصب الدينى أثره فى قبول بعض المؤرخين للروايات الضعيفة وابرازها رغبة منهم فى تشويه التاريخ الاسلامى ، والنيل من المسلمين والسعى وراء أهوائهم .

ومن ذلك جنوح ثيوفانس ، فقد نقد لطفى عبد الوهاب يحيى[١]حولية ثيوفانس ، ووجده قد نقل بعض الروايات الضعيفة التى تخبر عن تشدد بعض الخلفاء الأمويين مع نصارى الشام ، ومن ذلك أن أسقف أفامية أحرق حيا فى السنة السادسة من خلافة معاوية بن أبى سفيان (٦٦٥-٦٦٦م/٤٥-٤٦هـ) ؛ والعقاب الذى أنزله الوليد بن يزيد بن عبد الملك باثنين من رجال الدين المسيحى ، فدحض الخبر الأول لأنه لم يجد له ذكرا فى المصادر الاسلامية ولاماكتبه المؤرخان المسيحيان اللذان تناولا تاريخ الدولة الأموية ، وهما سعيد بن البطريق ، وابن العبرى ، وكان حريا بهما وهما من رجال الدين المسيحى ، ولاهتمامهما بشئون الكنائس ورجال الدين ، أن يتوقفا عند هذا الحدث ؛ كما ضعف الآخر ، لأنه من حديث العنعنة ، ولم يكن بالمشاهدة ولم يأخذه عن شاهد حدث ؛ وأضاف لطفى عبد الوهاب يحيى : أن الفترة التى كتبت فيها حولية ثيوفانس ، كانت فترة تطرف دينى فى الدولة البيزنطية وتوجس البيزنطيين من العرب ، كما أن ثيوفانس من المتطرفين الدينيين ، فالعرب عنده وكما جاء فى كتاباته ، هم أعداء الله ، والمنكرون للمسيح ،

---

(١) حولية ثيوفانس : مصدر بيزنطى عن بلاد الشام فى العصر الأموى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، م١ عمان ، ١٩٨٩م ، ص٢١-٢٢ .

والبرابرة ، مما يوصلنا الى سبب قبول ثيوفانس لعدد من الأخبار الضعيفة عن المسلمين مع ماعرف عنه من الدقة ، وذلك لاتفاقها مع غاية فى نفسه ، ومع المسلمات التى فى أذهان المسيحيين عن المسلمين .

الوفاء والعدل :

قدمنا الحديث عن بعض مظاهر التسامح الذى لقيه نصارى الشام فى العصر الأموى ، لغلبة روح التسامح على التشدد ، واشتهار تلك الصفة عند المؤرخين كما أسلفنا ، غير أنا وجدنا عند عرض صور ذلك التسامح أن بنى أمية لم يخرجوا عن المباح فى معاملة نصارى الشام ، كما نصت عليه الشريعة وتضمنته عهود الصلح الا فيما ندر .

والحق أن بنى أمية التزموا الوفاء بما للنصارى من حقوق ، وألزموهم الواجبات التى لهم وعليهم كما فى عهود الصلح فى غالب الأحوال ، وعاملوهم فى عدل لايشوبه ظلم ولاجحود ، وبالأخص فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى التزم سياسة عمر بن الخطاب فى معاملتهم . وماذكر فى بعض المصادر من بعض الأمثلة النادرة لتشدد بعض الخلفاء الأمويين مع نصارى الشام ، فاما خبر ظهر ضعفه ، أو له مايبرره .

ومما روى فى مجال الوفاء والعدل ، أن عمر بن عبد العزيز كتب الى سالم بن عبد الله بن عمر : "وقد رأيت أن أسير فى الناس بسيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ان قضى الله ذلك واستطعت اليه سبيلا . فابعث لى بكتب عمر وقضائه فى أهل القبلة وأهل العهد ، فانى متبع أثره وسائر بسيرته ان شاء الله تعالى"(٢). وقوله يدل على أن سيكون فى معاملته لنصارى الشام ، وأهل الذمة عامة متبع لامبتدع ، سائر بسيرةعمر فيهم ، وقد قامت سياسته على الشريعة وماتشارط المسلمون والنصارى عليه .

---

(١) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى ، الامام الزاهد الحافظ التقى الورع مفتى المدينة ، أمه أم ولد ، وهو تابعى ثقة ، كثير الحديث ، ومات سنة ١٠٦هـ فى أصح الأقوال . الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٤/٤٥٧-٤٦٧ .

(٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٠٧ ، (طبعة عالم الكتب) ؛ ابن الجوزى ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص١٤٩-١٥٥ .

ووفـاء بالعهـد ، منع عمر بن عبـد العزيز الزيادة على أهـل أيلـة عما صالحهم عليه الرسول عليـه السلام(١). وكذلك أمره باخراج من سكـن من المسلمين فى منـازل أهل قنسرين ، وفى هذا يقول الوليـد بن هشام المعيطى : ولانى عمر بن عبد العزيز قنسرين ، وقد فتحت صلحا فشكـا اليه أهل الذمة المسلمين أنهم نزلوا منازلهم فكتب الى : "أن انظر مـن كان فى منازل أولئك الذين كانوا من أهلها حين صولحوا فأخرج من كان فى منـازلهم عنهم . قال فنظرت فاذا أولئك قليل ، فسألونى الكف عن ذلك فكففت"(٢).

ويظهـر لى أن المسلمين لم يغتصبـوها مـن أهلهـا وأن مـن نزل مـن المسلمين فى منـازل أولئـك قـد وجدها خالية بعد الفتـح لـزيادتها عن حاجة أهلها ، فلما طالبوهم بها لم يتأكد لهم أنهم أهلها على وجه الحقيقة فتمسكوا بها ، ظنا منهم أنها مما جلا عنه أهله ، فلما شكوا الى عمـر بن عبد العزيز عمـل بالظاهر ، أو ظهر له مـالم يثبت عند غيره ممن سبقـه ، فأمر بارجاعها لأصحابها . فلما رأى النصارى عدله والعمل على تنفيـذ أمره رضوا بذلك ، وكفاهم اظهار العدل عن نوال الحق .

وقد تمتع أهل الذمة عامة ، ونصارى الشام خاصة ، بالعـدل فى العصر الأمـوى ، وبالأخص فى عهـد عمر بن عبد العزيز ، الـذى نسـب اليه بعض المؤرخين الغـربيين فرض قيود على المسيحيين ، فانه عنـدما استلم الخلافة دعى جميـع ولاته الى الاجتماع فى القدس ، وأخذ عليهم العهـد فى مسجدها على الطاعة واقامة العدل بين الناس(٣). فتمتع النصارى مثل المسلمين بعدل عمر ابن عبـد العزيز ، وان ألزمهم بالواجبات الشرعية ، فـان ذلك تم دون أن يلحق الحيف بهم(٤). وقد عمل رحمه الله على رفع المظالم مـن أول يوم فى خلافتـه ، فلمـا نادى بذلـك ، قام اليه رجل ذمى مـن حمـص ، فشكى اليه

---

(١) بارتولد ، عمر بن عبد العزيز ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، ص٢٧٩ .
(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠١ .
(٣) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢١١ .
(٤) بارتولد ، نفس المرجع ، ص٢٦٩ .

اغتصاب العباس بن الوليد بن عبد الملك أرض له ، والعباس جالس فقال : أقعطنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لى بها سجلا ، فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، أردد عليه ضيعته ، فردها عليه(١). وحينما أراد أمراء بنى أمية أن ينساحوا فى البلدان ، أخذ عليهم ، ألا يفسدوا على أهل الذمة ، وألا يتناولوا أحدا من الأمة(٢).

وضرب أحد عمال البريد أربعين سوطا لأنه سخر دواب النبط لتحمله حتى وصل اليه وقال له : "أتسخرون فى سلطانى"(٣)، وذلك يعنى منعه السخرة وقد أمر برفعها عن أهل الذمة(٤). وخاصم مسلمة بن عبد الملك أهل دير اسحق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة ، لاتجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدى ، ولكن وكل بخصومتك من شئت والا فجاثى القوم بين يدى ، فوكل مولى له بخصومته ، فقضى عليه بالناعورة(٥). وقد ادعى رجل نصرانى على هشام بن عبد الملك فى صنيعة له الى عمر كان أقطعه عبد الملك اياها ، ومعه سجل من الوليد وسليمان ، فأقعد هشام مع النصرانى ، وهدد هشام بالعقوبة عندما انتهر الرجل فى مجلس عمر ، وكان يريد أن يوكل وكيلا فى خصومة النصرانى ، فأباه عمر ، وحكم بخرق السجل ورد الصنيعة الى النصرانى(٦). ونرى هنا تناقضا بين الخبرين السابقين فى الظاهر ، ففى الأول دعى عمر مسلمة الى أن يوكل وكيلا ، وفى الثانى منع هشام عندما أراد ذلك ، ويبدو لى أنه منعه من ذلك بعد جلوسه للحكم وانتهاره النصرانى ، وتهديد عمر له ، ولم يكن ليمنعه من ذلك لو فعله ابتداء . وأعاد عمر أراضى كثيرة لأصحابها من أهل الذمة بعد أن ضمت لأملاك الأمويين ، وأعيد الكثير من الكنائس والديارات ،

---

(١) ابن الجوزى ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٢٦ .
(٢) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص١٧ .
(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٧٤/٥ .
(٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٨٨ (طبعة عالم الكتب) .
(٥) ابن الجوزى ، نفس المصدر ، ص٩١ .
(٦) مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص٦٠ .

فاعتبره رهبان النصارى صديقا لهم(١).

وكان عمر يحمى النصارى من أنفسهم ، فيذكر أن الكهنة والسحرة اتفقوا على تدبير مؤامرة لسم البطرك أنبا سيماون ، فسموه ، حتى أوشك على الهلاك ، فلما سمع عمر بذلك أمر بانزال العقاب الصارم بهم ، وزج بهم فى السجن ، حتى عفى عنهم البطرك ، فأطلق سراحهم(٢). وعرف رجال عمر حرصه على العدل ودفع الظلم ، فأضحوا يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم ، فقد روى أن عمر بن المهاجر صاحب حرس عمر تأخر يوما فسأله عن سبب ذلك ، فقال : "كنت خارجا أرفع مظلمة عن رجل من أهل الكتاب"(٣). ولما شكى عمر شكاية الموت أرسل الى نصرانى ليشترى منه موضع قبره ، فقال له النصرانى : واللـه ياأمير المؤمنين انى لأتبرك بقربك وبجوارك ، فقد حللتك ، فأبى الا أن يبيعه ، فباعه اياه بثلاثين دينارا ، فأعطاها اياه(٤). وماأراد النصرانى منح عمر تلك الأرض الا حبا فيه ، واجلالا له ، وتبركا به ، لما عرفوه عنه من الصلاح والعدل . ويذكر أن أحد الرهبان بكى عند موت عمر ، وقال عنه : كان نورا فى الأرض فطفىء(٥). وكان الرهبان يسمون قبره قبر الصديق(٦). فهذا موقف معاصريه من النصارى وقولهم فيه ، فأينه من قول المتأخرين .

ويروى من عدل هشام بن عبد الملك أن رجلا نصرانيا شج غلاما لمحمد بن هشام بن عبد الملك ، فغضب ، وكان يريد الانتقام ، فسأل أحد المسلمين فيما يصنع ، فقال : ترفعه الى القاضى ، فلم يرضه ذلك ، فقال

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٢ .

(٢) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص١٩ .

(٣) نادية حسنى صقر ، نفس المرجع ، ص١٨-١٩ .

(٤) ابن الجوزى ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص٣٢٢-٣٢٣ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١٠ ، ج١٩ ، ص١٢٥ .

(٥) ابن الجوزى ، نفس المصدر ، ص٣٣١ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، ص١٢٧ .

(٦) ابن الجوزى ، نفس المصدر والصفحة .

خصى له : أنا أكفيك ، فضرب النصرانى ، فبلغ ذلك هشام ، فضرب هشام الخصى وشتم ابنه(١).

مما سبق ذكره عن تسامح بنى أمية ، وماوجده النصارى من الوفاء والعدل ، انما يدل على التزام الأمويين بالشرع الاسلامى وماصولح عليه أهل الذمة فى معاملة نصارى الشام . وأن ذلك العدل المشتمل على روح التسامح والتعاون أرضى النصارى وجعلهم يحيون فى أمن واستقرار ورخاء ، ودفعهم ذلك الى الولاء للدولة الاسلامية ، والعمل فى خدمتها فى مناحى الحياة المختلفة . وقد ساعد ذلك على سلامة الجبهة الشامية مركز الدولة من حوادث الاضطراب والتمرد وخاصة من النصارى الا على نطاق ضيق(٢). غير أن بعض المؤرخين لاحظوا أن مانعم به النصارى فى الشام من تسامح ساعدهم على ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وسلام ، وبالتالى الى تأخر انتشار الاسلام بينهم(٣).

ولقد حاز تسامح بنى أمية على رضا النصارى ، وفى هذا يقول رنسيمان أن عهد الأمويين كان فترة رخاء لسوريا وفلسطين ، وأن الخلفاء الأمويين اشتهروا بالكفاءة النادرة والتسامح الدينى الشديد ، وأنه قد دخل فى عهدهم فى ادارة القدس مسيحيون يتحدثون اليونانية ، وأن المسيحيين لم يكن لديهم مايأسفون عليه نتيجة انتصار الاسلام ، فقد أصابوا من الثراء مايزيد على ماكانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين الذين كانوا متهطرقين ظالمين للأرثوذكس ، ولذلك ازدادت سعادة المسيحيين الأتقياء فى ظل الحكم الاسلامى(٤).

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٠٢/٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٢٥٥/٤ .

(٢) انظر بعد : حركات نصارى الشام ، ص٥١٩ .

(٣) انظر بعد : ص٣٩٣-٣٩٤ .

(٤) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢١٤ [نقل قول : رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ٤٤/١] .

*** دور نصارى الشام فى الادارة فى عصر الخلفاء الراشدين:**

ولما فتح المسلمون بلاد الشام ، أبقوا على الأجهزة الادارية الصغرى كما كانت باللغة اليونانية وظلوا يستعملون النقد البيزنطى[(١)].

وأفادوا من الأجهزة الادارية الخاصة بأمور الجباية ، ولكن بعد تبسيطها وتسييرها وفق أحكام الملة الاسلامية ، وجعل الاشراف المركزى عليها مباشرة من قبل المسلمين . ويظهر أن الجباية فى القرى ظلت بيد مجالس القرى ؛ أو لجان كما يبدو (من برديتانصتان)[(٢)]، واصطفوا الموظفين الذين ظلوا فى الشام بعد الفتح[(٣)]، وقيل عين أبو عبيدة على خراج حمص أحد أبناء المنطقة[(٤)]. واذا استأنسنا بالأخبار عما كان يتم فى العراق فى نفس الفترة نجد ذلك صحيحا ، فقد أورد ابن زنجويه[(٥)]، أن حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف لما بعثهما عمر الى العراق لوضع الجزية على أهل السواد ومسح أرض الخراج ، حشرا أهل الذمة وأحصوهم ، وختموا على رقابهم ، ثم قررا الجزية على كل انسان أربعة دراهم فى الشهر أى ثمانية وأربعون فى السنة ، ثم حسبا أهل كل قرية ، ومايكون عليهم من المال ، فدعيا بدهقان كل قرية وأخبروه بما على قريته ، وألزموه بتوزيعها بينهم ، وجبايتها ، وتقديم جميع ماعلى أهل قريته للمسلمين . كما اشترط ذلك فى صلح

---

(١) نقولا زيادة ، الأسطول العربى فى أيام الأمويين ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٠م ، ص٧٢ ؛ وانظر بعد ، دور نصارى الشام فى سك العملة الاسلامية ، ص٢٩٧ ومابعدها .

(٢) عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٥٩ .

(٣) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٩ .

(٤) سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢٤٢ . ولم أجد لذلك ذكرا فيما اطلعت عليه من المصادر ، ومعلومتها غير موثقة .

(٥) انظر : الأموال ، ١٨٣/١-١٨٥ .

الحيرة[١] ومرو الشاهجان[٢]. ويتضح من الوثائق البردية أن الادارة العربية كان يغلب عليها دور المحافظة ، وكانت حريصة على استمرار الادارة بأوضاعها السابقة ، ولوحظ من خلالها أن القائمين بالأعمال الادارية استمروا فى كثير من الحالات يأتون من أهل البلاد المسيحيين حتى بعد مرور أكثر من قرن على الفتح الاسلامى[٣]. وذكر ألرخ ريبستوك ، وجود ديوانين فى سورية للخراج أحدهما التدوين فيه بالعربية ، والثانى التدوين فيه باليونانية ، وكان هذا فى بداية الحكم الاسلامى فى بلاد الشام ، أى قبل قرار عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين .

وعلى الرغم من مضى بضعة عقود على قرار تعريب الدواوين زمن عبد الملك فان هشام بن عبد الملك أصدر قرارا ألا يستعان بأهل الذمة فى الدواوين[٤]، مما يدل على استمرارهم فى الادارة حتى خلافته .

وقد نظم أهل الذمة أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلا يهودا ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى . ولاعجب فى أن يقوم أهل الذمة بكثير من الأعمال فى دار الاسلام ، فان جمهور الرعية فى بلاد الشام كانوا نصارى ، ولاشك أن المسلمين كانوا بحاجة اليهم فى بدء الأمر لخبرتهم وعلمهم بالكتابة ومعرفتهم بأحوال بلادهم ، ولانشغال

---

(١) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨٨-٢٩٠ .

(٢) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٣٩٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٤٠٢ .

(٣) مصطفى العباد ى، أضواء من الوثائق البردية على الادارة الأموية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، القسم العربى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص٤٦-٤٧ ؛ نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٣٩ .

(٤) Ulrich Rebstock : Observations on the diwan al-kharaj and the assessment of taxes in umayyad syria, the fourth international conference on the history of bilad al-sham, proceedings of the third symposium, Amman, 1989, p.231-232 .

المسلمين بالفتح ، وبتوطيد سلطانهم فى البلدان التى تم فتحها ، وكان ذلك وراء الاعتماد عليهم بهذا الشكل(١). وينقل أن عمر بن عبد العزيز قال : "ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم فى ذلك مدة قضاها الله"(٢).

وينبغى عدم التعميم فمجموعة من الوثائق البردية من خربه المرد بالقرب من القدس فى فلسطين ، توضح أن المسئولين عن الادارة المحلية بها يكاد أكثرهم من العرب المسلمين فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى(٣). ولعل هذا راجع الى أثر حركة التعريب التى قامت زمن الخليفة عبد الملك بن مروان .

ويقرر الماوردى(٤)هذه الحقيقة بقوله : "وأما ديوان الاستيفاء وجباية الأموال فجرى هذا الأمر فيه بعد ظهور الاسلام بالشام والعراق على ماكان عليه من قبل ، فكان ديوان الشام بالرومية لأنه كان من ممالك الروم ، وكان ديوان العراق بالفارسية لأنه كان من ممالك الفرس ، فلم يزل أمرهما جاريا على ذلك الى زمن عبد الملك بن مروان ، فنقل ديوان الشام الى العربية سنة احدى وثمانين" .

ولاشك أن ذلك كان يتم وفق أحكام التشريع الاسلامى ، وماوضعه المسلمون من تدابير واجراءات مالية وادارية ، وان ظل العمل فى دواوين الشام بلغة أهل البلد حتى عربت الدواوين .

ويقول مصطفى العبادى(٥): أن الوثائق البردية تقدم لنا صورة مختلفة عما فى كتابات المؤرخين القدماء التى صورت أن الفتوحات قد أحدثت

---

(١) نجدة خماش ، الدواوين المركزية فى الشام فى العصر الأموى ، ص٣٦ .
(٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٤٠ .
(٣) مصطفى العبادى ، أضواء على الوثائق البردية ، ص٤٦-٤٧،٥٠ .
(٤) الأحكام السلطانية ، ص١٧٤-١٧٥ .
(٥) نفس المرجع ، ص٤٤ .

تحولا جذريا شاملا ، فان الوثائق البردية تصور أن التغيير تم تدريجيا ، ولايكاد تتضح معالم التغيير الشامل الا بعد قرن أو قرن ونصف من تمام الفتح .

ونستدرك عليه أن التغيير قد بدأ منذ الفتح ، ثم بدا واضحا بعد نحو من نصف قرن من الفتح بحركة التعريب ، واكتمل فى أواخر الدولة الأموية.

ومأخال شيئا ظل على حاله بعد ذلك ، الا دين من احتفظ بدينه وذلك من باب : "لااكراه فى الدين"وصورة الحياة الاجتماعية والثقافية الخاصة بأهل الذمة التى أخذت فى التقلص باعتناقهم الاسلام وتفشى العربية بينهم . أما الحياة العامة فى البلاد المفتوحة التى أضحت جزءا من دار الاسلام فقد تغيرت بخضوعها للحكم الاسلامى ، الذى يمثل دينا ، وقانونا ولغة ، وحضارة ، وحياة جديدة .

الاستعانة بنصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين :

وأفاد عدد من المرويات الاخبارية أن عهود الصلح اشترطت على نصارى الشام اعانة المسلمين فى بعض الأمور وهى : أن يكونوا عيونا وأعوانا ومسالح ، وأدلاء للمسلمين ، وأن يعينوهم بالميرة والعلافة واخراج الأسواق ليتزود منها المسلمون بما يحتاجون اليه ، ومعاملة أرض الفىء ، وزراعة أرض الشام التى أقرت بأيديهم على أن يؤدوا الخراج عنها(١).

كما تحفظ لنا المصادر كثيرا من الأخبار التى تذكر استعانة المسلمين بنصارى الشام فى كثير من الأعمال زمن الخلفاء الراشدين .

فتذكر الاستعانة بهم كأدلاء لمعرفتهم بالبلاد(٢)، ورسلا لمعرفتهم لغة

---

(١) انظر ماورد من شروط الصلح فى المرويات الاخبارية ، قبل : ص١٨٩-١٩٠ ، والسياسة المالية ، ص٣٤٢،٣٣٨ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٥٨/١ ، ١١٢٦/٢ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٦،١٩٥ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٥٤٥/٢-٥٤٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٧٦،٢٢٨/٢ .

قومهم[١]، وعيونا على أعدائهم[٢]، ومترجمين[٣].

والاستعانة بهم فى القتال ، واتخاذهم أعوانا ومسالح وحشودهم فى عسكر المسلمين .

من ذلك أمر الخليفة عمر أبا عبيدة أن يستعين بنصارى عرب الشام يقول ابن حبيش[٤]: كتب عمر الى أبى عبيدة بعد فتح حمص يقول : "أن أقم فى مدينتك - حمص - وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فانى غير تارك البعثة اليك بمن يكانفك ، ان شاء الله" .

وماروى عن قتال نصارى الشام مع المسلمين ضد الروم فى كثير من المعارك كاجنادين وفحل واليرموك وغيرها[٥]. وحشد عمرو بن العاص أهل الأردن بسلاحهم مع عسكر المسلمين ، معلنا الخروج لفتح ايلياء ، وهو يريد الاجتماع مع بقية الجيوش الاسلامية فى اليرموك[٦]. والاستعانة بالنصارى كبحارة فى السفن الاسلامية وصناعتها ، والقتال مع المسلمين فى البحر ، كما

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ١٤٧،١٣٣/١ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٢٦،٨٧- ١٦٦،١٢٧ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١١٤/١-١٤٩،١١٥-١٥٠ ؛ ابن حبيش الغزوات ، ٢٢٧/٢-٣٦٠،٢٨٨،٢٦٩،٢٥٧،٢٢٨-٣١٢-٣٧٦ .

(٢) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١٧٤،٤٤ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١١٤/١-١١٥ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٢٧،١٩٤/٢-٢٢٨ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢١٣ .

(٣) الواقدى ، نفس المصدر ، ٥٢/٢-٥٥ .

(٤) نفس المصدر ، ٢٩٣/٢ . وقد أورد المحقق فى حاشيته ، أن الخبر قد ورد عند الطبرى فوجدته صحيحا ، انظر : تاريخ الأمم ، ٦٠٠/٣-٦٠١ .

(٥) انظر لمعلومات أوسع عن موقف نصارى الشام من الفتح الاسلامى ، وميل بعضهم الى المسلمين وقتالهم معهم ، بعد : الفصل السادس ، ص٤٩٢-٤٩٣ .

(٦) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١٦٢-١٦٥ ؛ ابن أعثم ، نفس المصدر ، ١٨٠/١ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٣٠٩/٢ .

حدث فى ذات السوارى وغيرها[١]. وهذا الخبر صرح بمشاركة قبط مصر ، غير أن الأسطول كان قسم منه قد جاء من الشام ولاشك أن تلك السفن الشامية قد قاد بعضها وحملت ممن يقوم على أمرها بعض نصارى الشام ، ولاننسى أن المسلمين قد صالحوا الجراجمة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين ومسالح لهم بجبال اللكام مقابل اسقاط الجزية عنهم[٢].

وتسخيرهم فى هداية الطريق ، وارشاد الضال ، وركوب دوابهم فى الطرق التى يسيرون فيها دون صرفهم عن وجهتهم التى يريدونها[٣]. واستشارتهم فى الأمور التى لهم خبرة بها ، والافادة من أنظمتهم القديمة بما لايتعارض مع الاسلام ، ومن ذلك سؤال عمر بن الخطاب الرجل الذى كان على أرزاق الروم فى الشام عن قدر ماكانوا يرزقون به جندهم ، وتقدير الأرزاق على ذلك القدر[٤]. والافادة من السبى فى الخدمة ، والكتابة ، وأعمال المسلمين ، كما صنع عمر بن الخطاب مع سبى قيسارية ، وكانوا أربعة آلاف ، أنزلهم الجرف ، وقسمهم ، فجعل قسما لأيتام الأنصار ، وجعل بعضهم فى الكتاب ، وآخرين فى أعمال المسلمين[٥].

بل أن عمر بن الخطاب اشترط على أهل الذمة ، اصلاح القناطر[٦].

---

(١) ابن أعثم ، الفتوح ، ٣٥٦/١ ؛ نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٤١ ؛ نجدة خماش ، الجيش الشامى فى العصر الأموى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، القسم العربى ، م١ ، ص٣٦٣-٣٦٦ ؛ وانظر عن ذلك أيضا حديثنا عن دورهم فى صناعة الأسطول بعد ص٥٩١-٥٩٨ .

(٢) انظر شروط عهود الصلح قبل : ص١٩٠ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨١-٢٨٢ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٥-١٩٦ .

(٤) ابن زنجويه ، الأموال ، ٥٤٥/٢-٥٤٦ .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٧ .

(٦) انظر قبل : ص١٨٩ .

ولم يستنكر عمر الاستعانة بهم فى شىء من ذلك ، فيروى أن أبا عبيدة كتب له مع نصرانى من أنباط الشام ، فلم يستنكر ذلك ودعاه الى الاسلام ، فأسلم علي يديه(١)وكان المسلمون يعطون من أعانهم من نصارى الشام أجرا ويرضخون لهم من الأموال(٢). ويذكر الواقدى(٣)أن المسلمين قاموا بطرح الجزية عن بعض من أعانهم كأدلاء وعيون(٤).

أما الحكم فى الاستعانة بأهل الذمة ، فقد أفرد ابن القيم عدة مباحث فى كتابه أحكام أهل الذمة(٥)عن حكم الاستعانة بهم ، من الكتاب والسنة وفعل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وعلماء الأمة ، وجملة قوله فى ذلك هو منع الاستعانة بهم ، لمنع الاسلام توليهم ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخليفته ، ومواقف بعض الخلفاء الذين أخذوا بذلك ، ومنهم عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، والمنصور ، والمهدى ، والرشيد ، والمأمون ، والمتوكل ، والمقتدر بالله ، والراضى بالله ، والآمر بأمر الله ، وقد أورد أقوالهم وأوامرهم فى هذا الشأن . وكان ختام قوله : "ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعا من توليهم ، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فانه منهم ، ولايتم الايمان الا بالبراء منهم ، والولاية تنافى البراءة فلاتجتمع البراءة والولاية أبدا ، والولاية اعزاز فلاتجتمع هى واذلال الكفر أبدا ، والولاية صلة ، فلاتجامع معاداة الكافر أبدا" .

---

(١) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٢٦-١٢٧ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص١٤٩-١٥٠ .

(٢) الأزدى ، نفس المصدر ، ص٨٧ ؛ ابن أعثم ، نفس المصدر ، ٣٥٦/١ ؛ ابن حبيش الغزوات ، ٢٢٧/٢-٢٢٨ .

(٣) فتوح الشام ، ١١٦/٢ .

(٤) وانظر لمعلومات أوسع وأمثلة أخرى على الاستعانة بهم هذا الفصل والذى يليه عن دورهم فى الادارة والمال ؛ وعن دورهم فى الحياة الاقتصادية ، والعمرانية ، والعلمية ، انظر بعد : الفصل السابع والثامن .

(٥) انظر قوله مفصلا : ٢٠٨/١-٢٤٤ .

ويقول ابن القيم[(١)]: أن الامام أحمد قال : "لايستعان بهم فى شىء" .
ومما أورده من حكم الاسلام فى منع توليهم قوله تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين**}[(٢)].

وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أورد ابن القيم[(٣)] قوله عليه السلام ، لمشركين أراد الغزو معه : "فانا لانستعين بالمشركين على المشركين"[(٤)]. غير أن ابن القيم يرجع فيقول : فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه استأجر دليلا يدله على طريق الهجرة وكان مشركا ، فأمنه ودفع اليه راحلته هو والصديق[(٥)].

كما يورد ابن تيمية[(٦)] من صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن غلاما يهوديا كان يخدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فمرض ، فعاده الرسول عليه السلام ، فأسلم على يديه . كما أن أبا بكر لم يستعملهم ولم يأمر باستعمالهم[(٧)].

---

(١) أحكام أهل الذمة ، ٢٠٨/١-٢٠٩ .
(٢) المائدة ، آية : ٥١ ؛ وانظر ابن القيم ، نفس المصدر ، ص٢١٠-٢١١ .
(٣) نفس المصدر ، ٢٠٩/١-٢١٠ .
(٤) ابن حنبل ، مسند الامام أحمد ، ٤٥٤/٣ ؛ البيهقى ، سنن البيهقى ، دار الفكر ، بيروت ، ٣٧/٩ . وقد ذكره ابن حجر فى التلخيص وسكت عليه ، انظر : تلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير ، عنى بتصحيحه وتنسيقه والتعليق عليه ، السيد عبد الله هاشم المدنى ، المدينة ، سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ١٠٠/٤ .
(٥) نفس المصدر ، ٢٧٥/١ .
(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٨٧/٣ ، ٩٢/٤ .
(٧) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢١١/١ .

ويذكر الكتانى أيضا أن تبيع الحميرى ابن امرأة كعب الأحبار كان دليلا للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يسلم حتى توفى عليه السلام ، وكان جميل الأشجعى دليله الى خيبر استأجره بعشرين صاعا ، ففعل ، ثم أسلم ، وكان دليله لما أراد عليه السلام الدنو من أرض الشام مذكور العذرى[(١)]. ولاأعلم عن العذرى هل كان ممن أسلم أم كان كافرا .

والمرويات تخبرنا عن موقف عمر بن الخطاب بشكل أوضح ، ويروى لنا ابن القيم مجموعة منها ، ويقول : أنه كان له عبد نصرانى ، فقال له : أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين ، فانه لاينبغى لنا أن نستعين على أمرهم بمن ليس منهم فأبى فأعتقه[(٢)]، وذكر له غلاما نصرانيا كاتب حافظ له بصر بالديوان ، فقيل له لو اتخذته كاتبا ، فقال : لقد اتخذت اذا بطانة من دون المؤمنين[(٣)]. هذا عن نفسه ، وقد كتب الى بعض عماله بمنع تولية المشركين أمور المسلمين ، فقد كتب الى أبى هريرة : "فلاتستعن فى أمر من أموز المسلمين بمشرك"[(٤)]. وكتب الى سائر عماله : "أما بعد ، فانه من كان قبله كاتب من المشركين فلايعاشره ولايوازره ولايجالسه ولايعتضد برأيه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستعمالهم ولاخليفته من بعده"[(٥)].

وكتب أحد عمال عمر بن الخطاب اليه يستشيره فى استعمال الكفار ذوى الخبرة المالية الذين احتاج المسلمون اليها لكثرة الأموال ، فكتب اليه :

---

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، مطابع الشركة العامة ، ٣٤٨/١-٣٤٩ .

(٢) أحكام أهل الذمة ، ٢١١/١ ؛ وانظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٣ ؛ ابن زنجويه الأموال ، ص١٤٥ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص١٣٩ .

(٣) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ٤٣/١ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٠٢/٤ ؛ ابن الأثير الكامل ، ٣٠/٣ .

(٤) نفس المصدر ، ٢١٢/١ .

(٥) نفس المصدر ، ٢١١/١ .

"لاتدخلوهم فى دينكم ، ولاتسلموهم مامنعهم الله منه ، ولاتأمنوهم على أموالكم ، وتعلموا الكتابة فانما هى للرجال"(١). وكتب اليه معاوية بن أبى سفيان أن فى عمله كاتبا نصرانيا لايتم أمر الخراج الا به ، فكرهت أن أقلده دون أمرك ، فكتب اليه : "... ، أما بعد ، فان النصرانى قد مات ، والسلام"(٢). أى اذا مات النصرانى ألن تجد من يقوم بعمله .

ولم تقبل نجدة خماش(٣)هذه الرواية على أساس أن الدواوين فى بلاد الشام كانت حينئذ بالرومية ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب نصرانى واحد فقط بل أعداد كبيرة من رجال القلم والملاحة والصناعة وكلهم من المسيحيين وأرى أن ذلك لايبطل صحة الرواية ، فان كل أولئك لم تكن لهم ولاية عامة على المسلمين ، ولعل من استشار معاوية فيه الخليفة عمر كاتب أراد أن يوليه شيئا من أمور المسلمين لخبرته ومعرفته ، ولعله سرجون بن منصور الرومى الذى كان صاحب أمر الخليفة معاوية وولاه الدواوين فى خلافته .

واستنكر عمر على أبى موسى استكتابه نصرانيا ، وقال له : ولم استكتبت نصرانيا ، ألا اتخذت حنيفا ، لاأكرمهم اذ أهانهم الله ، ولاأعزهم اذ أذلهم الله ، ولاأدنيهم اذ أقصاهم الله ، وذكر أبو موسى بأمر الله بعدم توليهم(٤).

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢١١/١ .

(٢) ابن القيم ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) الشام فى صدر الاسلام ، ص١٤١-١٤٢ .

(٤) ابن قتيبة الدينورى ، عيون الأخبار ، ٤٣/١ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص١٣٨-١٣٩ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢١٠/١-٢١١ ؛ ابن المبرد ، محض الصواب فى فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الجزء الأول ، تحقيق عبد العزيز محمد الفريح ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، الجامعة الاسلامية بالمدينة ، ١٤١٥هـ ص٤٨٣ .

غير أن جميل المصرى[(١)] يذكر أن عمر بن الخطاب طلب الى يزيد بن أبى سفيان أو معاوية أن يبعث اليه "برومى يقيم لنا حساب فرائضنا" ؛ وقال "فكان والحالة هذه يستعين بأهل الكتاب من غير العرب فى أمور المال فقط لخبرتهم فى ذلك ولمراقبة قادة المسلمين لهم ولعدم قدرتهم فى التأثير فى الأمور السياسية لعجمتهم ، ولم يمنع هذا عمر رضى الله عنه من تولية الذمى العمل الذى يتقنه اذا آنس فيه كفاءة لاتتوافر لمسلم فى محيطه فقد ولى مثلا أبا يزيد الطائى وهو عربى صدقات قومه وكان نصرانيا"[(٢)].

كما تعرض لحكم استعمال أهل الذمة فى الوظائف والولايات وكتابة الدواوين ابن النقاش فى كتاب خصه بهذا الموضوع تحت عنوان "المذمة فى استعمال أهل الذمة"[(٣)]. وقد اعتمد فى كتابه على ماجاء فى ذلك من القرآن والسنة وآثار السلف وعمل بعض الحكام المسلمين ، وهو فيما حواه كتابه يكاد يكون مطابقا لما فى كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية ، ويرجح أنه أخذ عنه واعتمد عليه[(٤)].

وعنوان الكتاب يحدد طبيعة الموضوع ، فاختص بدراسة ماقدمناه ، ولم يفصل حكم الاستعانة بهم فى مجالات الحياة الدنيا ، كما أن عنوانه يجمل رأى المؤلف ، وفى كتابه قدم رأى جمهور أهل العلم الذى يؤيد رأيه[(٥)].

وقد صدر جوابه بحكم الاستعانة بهم فى ذلك ، بقوله : "اعلم أن الحكم الشرعى فى ذلك أنه لايجوز ، وعلى ذلك اجماع المسلمين . ولانجد أحدا من علماء الاسلام الا ذاكرا تحريم ذلك اما بلفظ التحريم أو بلفظ

---

(١) أثر أهل الكتاب ، ص٢٣٣ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) تحقيق عبد الله ابراهيم محمد بن على الطريقى ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .

(٤) انظر قول المحقق ، ص٢٦-٢٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص٩ .

الكراهة"[١]. ثم أخذ فى عرض الأدلة من الكتاب والسنة وذكر مافعل الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون من لدن الصحابة حتى زمنه[٢].

وقد أجاز الماوردى[٣] تولى الذمى الوزارة التنفيذية دون التفويضية . وقوله هذا مرجوح ، وجمهور أهل العلم على خلافه[٤]. فهى من الولايات العامة التى له فيها سلطان على المسلمين . غير أنه فى مكان آخر لايجيز لهم العمل فى الولايات العامة الخاصة بجباية الفىء ، وهى دون الوزارة التنفيذية ، ولكنه أجاز استخدامهم فى الولايات الخاصة المتعلقة بجباية الفىء اذ يقول : أن صفة عامل الفىء على ثلاثة أقسام ، الأول : أن يتولى تقدير أموال الفىء وتقدير وضعها ، والثانى : أن يكون عامل الولاية على جباية ماستقر من أموال الفىء كلها . وهذان القسمان تكون الولاية فيهما للمسلم والثالث : أن يكون خاص الولاية ، فان كانت معاملته فيه مع أهل الذمة كالجزية ، وأخذ العشور ، جاز أن يكون ذميا ، وان كانت معاملته فيه مع المسلمين كالخراج الموضوع على رقاب الأراضى اذا صارت فى أيدى المسلمين ففى جواز كونه ذميا وجهان[٥].

ويقول عبد الكريم زيدان[٦]: أن الأخبار الواردة عن عمر بمنع الاستعانة بهم محمولة على وقائع معينة لم ير عمر من المصلحة استخدامهم فى شئون الدولة ، لاأنه كان يرى حرمة فى استخدامهم ، واستشهد بفعل عمر فى اشراك أهل الذمة بجعل بعض سبى قيسارية فى الكتابة وأعمال المسلمين .

---

(١) ابن النقاش ، المذمة فى استعمال أهل الذمة ، ص٤٣ .

(٢) انظر ماقدمه خلال كتابه من الأدلة والأمثلة ، ومنها ماقدمناه عن كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية فى الصفحات السابقة ، فلم نر فائدة من تكراره .

(٣) الأحكام السلطانية ، ص٢٤ .

(٤) انظر بعد : ص٢٧٣ .

(٥) الماوردى ، نفس المصدر ، ص١١٣-١١٤ .

(٦) أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٨٠-٨١ .

وأجمل رأيه فى موقف الاسلام وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وحكام المسلمين بعد عرضه له ، فقال : من هذا العرض يتضح أن اختلاف الذميين مع المسلمين فى العقيدة لم يكن حائلا دون اشراكهم فى ادارة الدولة وتكليفهم بوظائفها . واستشهد بدلالة القرآن على جواز الاستعانة بهم فى قوله تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر**}(١). وهو لم ينه عن ذلك مطلقا ولكن قيده بالقيود التى اشتملت عليها الآية الكريمة ، ومعناه جواز أن تسند اليهم الوظائف التى دون البطانة فى المركز والأهمية . ومن السنة جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فداء بعض أسارى بدر تعليم أولاد الأنصار الكتابة ، وتوجيهه سنة ٦هـ عينامن خزاعة كان كافرا يخبره عن قريش ، مما يدل على جواز اسناد الوظائف العامة فى الدولة الى الذميين ماداموا غير أعداء من أهل الكفاءة والثقة والأمانة والاخلاص ، كجباية الجزية ، وأخذ العشور(٢).

غير أن هناك وظائف يشترط أن يكون متوليها مسلما وهى ماغلب عليه الصبغة الدينية ، وقام على أساس العقيدة أو يتصل بها ، كالخلافة ، والولاية ، والقضاء ، وقيادة الجيش ، والولاية على الصدقات ونحو ذلك ، لأن الذمى لايشارك المسلم فى أمور الديانات ولاالعقيدة الاسلامية أو يقوم عليها(٣).

---

(١) آل عمران ، آية : ١١٨

(٢) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٨٢-٧٨،٨٣-٧٩ ؛ وانظر : نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة ، ص٣٤-٣٦ ؛ شفيق يموت ، أهل الذمة ، ص١٠٦-١٠٧ ؛ وذكر توفيق اليوزبكى ، قتال قوم من اليهود مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأسهمهم . انظر : تاريخ أهل الذمة ، ص١١١ . [نقلا عن : شرح المالكى لصحيح الترمذى ، ٤٨/٧] .

(٣) عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع ، ص٧٨-٧٩ ؛ نادية صقر ، نفس المرجع ، ص٣٤-٣٦ ؛ يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٢٣-٢٤

ومعلوم أن الوظائف العامة فى نظر الشريعة الاسلامية ليست حقا للفرد على الدولة وانما هو تكليف تكلفه به الدولة ، وللامام سلطة اسناد الوظائف لمن يراه أهلا لها من الأفراد ، وواجب عليه أن يقوم به اذا عهد به اليه ، والدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لرجلين من بنى عمه طلبا أن يوليهما: "انا والله لانولى هذا العمل أحدا سأله أو واحدا حرص عليه" . كما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى موسى رضى الله عنه(١).

ويذكر توفيق اليوزبكى(٢)أن بعض الفقهاء أجازوا لأهل الذمة تولى وظائف الدولة ، ومنهم الماوردى ، وأبو يعلى ، والحسن البصرى ، واختلاف الأئمة فى ذلك ، فابن القيم منع استعمالهم فى شىء من ولايات الدولة ومرافقها ، وأجاز غيره استكتابهم اذا رأى الامام فى ذلك مصلحة ، ولايمنعون الا فى حالتين : الأولى : الوظيفة التى تتضمن تنفيذ أحكام شرعية أو اقامة حدود دينية ، والثانية : الوظيفة التى فيها تعاظم على المسلمين واحتمال ايذائهم واذلالهم ، وايثار قومه من أهل الذمة للقرابة ، أو غش الدولة وافشاء أسرارها .

وقال : ويبدو أن الماوردى وأبو يعلى وضعوا آراءهم المستمدة من مبادىء الشريعة وواقع الأمة آنذاك فأجازوا استخدامهم فى الوظائف التى لايشترط فى متوليها الاسلام ، أما ابن القيم فوضع آراءه استنادا الى أحكام السلف ، وواقع الأمة فى عصره ، الذى امتاز بحدةالنزاع المذهبى ، وتعرض دولة الاسلام لهجمات الدول المسيحية ، وتحدى بعض الذميين للمسلمين ، مما دفعه الى المغالاة فى منع استعمالهم .

ولنا أن نستدرك على توفيق اليوزبكى قوله : أن ابن القيم اعتمد على أحكام السلف ، وكأنه يراها تخالف مبادىء الشريعة التى اعتمد عليها

---

(١) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٧٧-٧٨،٨٠،٨١ .
(٢) تاريخ أهل الذمة ، ص١٠٦-١٠٧ .

الماوردى وأبو يعلى ، والحق أن أحكام السلف انما هى مستمدة من مبادىء الشريعة ولاتخرج عنها ، وماجاء فى بعض أحكامهم من منع لأهل الذمة فله وجوه أخرى يفسر بها .

ويقول عبد الله ابراهيم الطريقى[1] مجملا حكم الاستعانة بالكفار ، أن المحاربين منهم لايستعان بهم الا فى حالات نادرة ، وأن المعاهدين ومنهم أهل الذمة فينظر فيما تكون فيه الاستعانة وفى النتائج المترتبة عليها ، فانه لاتجوز الاستعانة بهم فى الأمور الشرعية كالقضاء والحسبة والتعليم الشرعى مطلقا باجماع الأمة ، وثمة مسائل اختلف فيها أهل العلم كالجهاد وجباية الزكاة وكتابة المصحف وبناء المساجد ، وذلك لأنها ليست دينية محضة ، أما ان كان فى أمور دنيوية فالأصل جوازه فيما يتعلق بالأفراد ، بحيث يجوز لهم الاستعانة والاستفادة من خبرات الكفار سواء أكانت علمية أم صناعية مهنية أم تجارية ، أم رأيا ومشورة أم نحو ذلك ؛ وقد جاءت الأمثلة المتضافرة فى ذلك ، مثل استئجار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أريقط دليلا له الى المدينة فى هجرته اليها ، ومثل تكليف أسارى بدر من المشركين بتعليم صبيان الأنصار الكتابة ؛ ولذلك جازت معاملة الكافر فى البيع والشراء والاجارة والمزارعة والمشاركة ونحو ذلك .

أما فيما يتعلق بمصالح الأمة عن طريق الدولة الاسلامية فانه ينظر فى نوع الولاية التى يتولاها الكافر ، فان كانت وظائف ليس فيها سلطة على المسلمين فالأصل عدم المنع ولاسيما عند الحاجة ، أما الوظائف أو الولايات الكبيرة فالأصل عدم جواز التولية لما فيها من التسلط على المسلمين ، ولأنه يشترط فيمن يتولاها العدالة ، والكافر ليس كذلك ؛ وقد أجاز بعض أهل العلم تولية الكافر الوزارة التنفيذية ، غير أن ذلك مرجوح ، وجمهور أهل العلم على خلافه .

---

(١) انظر : المذمة فى استعمال أهل الذمة ، مقدمة المحقق ، ص١٠-١١ .

وهـذه النصوص والأخبار الـواردة فى حكم الاستعـانة بأهـل الذمة قد صرح بعضها بالمنع وبعضها لم يكن صريحا ، وقدمنا تفسير بعض العلماء لتلك الأحكام ، وأن منها ماهو محمول على الكراهة لاالحرمـانية ، أو من باب منع استعمـالهم فى الـولاية العـامة ، وليس منع استخدامهـم فى مصـالح المسلمين فيمـا ليـس فيه عليهم ولاية ، ولايلحـق بهـم الأذى والضـرر مـن استخدام الـذميين فيـه ، أو أن ذلك المنـع اختـص بوقائع معينـة وكـان فيـه مصلحة المسلمين .

ونحن فى هـذه الـدراسة نرصـد الواقع التاريخى ، وبصـرف النظـر عن حكـم الاستعانة بالذميين ، فـان الأخبار التاريخية أفادت استعـانة المسلمين فى فترة البحـث بأهـل الذمة ، فى كثير مـن مجالات الحيـاة ، وقـدمت لنـا أمثلة ووقائع تاريخية عن استعانة المسلمين بنصارى الشام فى زمـن عمر بن الخطاب وغيره ، ومـن ذلـك استعمـالهم كـأدلاء وعيـون ورسـل وأعـوان ومسـالح ومقاتلين ونواتية وموظفى ادارة وكتاب وجباة ، وصنـاع وزراع ومعماريين وأطباء ومترجمين وخدم وضرابون للعملـة ، وغير ذلك(١). وهو واقع كان عمـر رضى الله عنه يعلمه ، ومنـه ماكان بأمره ، بل أن بعـض وجوه تلك الاستعـانة اشترطـه المسلمون على نصـارى الشام وأهل الـذمة عـامة فى عهود صلحهم(٢).

ـ دور نصارى الشام فى الادارة فى العصر الأموى والاستعانة بهم :

وفى العصـر الأموى استمرت العلاقـة بين المسلمين الحاكمين ونصـارى الشـام المحكـومين بخضوع النصـارى للمسلمين ، كما كـان الحال عليـه زمن الخلفـاء الـراشدين ، فـالولاية التـامة للمسلمين ، وقـد جرت على النصـارى أحكام الملة الاسلامية بمقتضى الولاية وعقد الصلح ، فأضحت كلمة الله هى

---

(١) انظـر أمثلة الاستعانة بنصارى الشام فى حديثنا عن الاستعـانة بهم فى هذا الفصل ، وكذلك دورهم فى الحياة الاقتصادية والعمرانية والعلمية بالفصلين السابع والثامن.

(٢) انظر ماحوته شروط عهود الصلح من ذلك ، قبل : ص١٨٩-١٩٠ .

العليا وشريعة الاسلام تطبق على أهل دار الاسلام مسلمهم وكافرهم . غير أنه بدا لنا أن المسلمين قد تركوا للنصارى الاحتكام الى رؤسائهم فيما يخصهم من أمورهم المدنية ، الا اذا طلبوا تحكيم الشرع الاسلامى فيما شجر بينهم لاختلافهم ولعدم رضى أحد الطرفين بالحكم . والمأسوف عليه أن المصادر لاتقدم لنا معلومات اخبارية عما كان يرجع فيه الى رؤسائهم ، وماكان يلجأ فيه الى القضاء الاسلامى . ومن النتف المتوفرة بين يدينا عن خضوع نصارى الشام لأحكام الملة فى العصر الأموى ماذكر أن أسقف دمشق الخلقدونى[١] اتهم عند الخليفة الوليد بن عبد الملك بأنه جدف[٢] فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقطعوا لسانه ونفوه الى السجن[٣]. ومن دلائل النفوذ الاسلامى على نصارى الشام أن المسلمين منعوا تنصيب بطركا لكنيسة انطاكية مدة أربعين سنة ، حتى عهد هشام بن عبد الملك الذى أعاد شغل كرسى البطركية الأنطاكية ، وبتدخل مباشر منه فى اختيار البطرك ، اذ اشترط تعيين راهب بسيط هو اسطفان الذى كان صديقا له[٤].

ومن صور احتكام أهل الذمة الى المسلمين عند اختلافهم القصة التى أوردها الرحالة أركولف والتى قال عنها محمود عمران[٥] فى دراسته النقدية

---

(١) نسبة الى مجمع خلقدونية ، والخلقدونيون هم الذين اعتقدوا مقرراته ، التى أقرت عقيدة التثليث ، بخلاف من رفضها ، وهم من عرفوا باليعاقبة . انظر قبل : التمهيد ، ص٤٦-٤٩ .

(٢) جدف : له معان كثيرة ، ومنها الرمى ، والقطع ، والاسراع ، والكفر ، والمقصود هنا لعله رمى الرسول صلى الله عليه وسلم بالسباب ، أو أسرع فيه بالشتم ، والله أعلم . (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : جدف) .

(٣) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٣٨ .

(٤) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٤ .

(٥) كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام فى عصر الراشدين ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، المجلد الثالث ، ص٣٢٩-٣٣٠ .

لكتابات الرحالة أركولف : أنها أقرب الى الأسطورة ، وفحواها ان صحت ، أن أحد اليهود استولى على منديل المسيح عليه السلام ، وأخفاه ، ومع السنوات ظهر هذا المنديل ، وكان ذلك أثناء زيارة أركولف للشام ، وعندما ذاع هذا الخبر ، انقسم الناس الى فريقين نصارى ويهود ، وطالب كل فريق بملكية المنديل ، واحتكم الفريقان الى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه الذى أخذ المنديل وأشعل نارا ليلقى به فيها ، ولكن المنديل طار واتجه الى فريق النصارى . والمعروف أن اليهود لايؤمنون بعيسى عليه السلام ومحبين له حتى يتمسكوا بمنديله ، وهذا يورثنا الشك فى هذه الرواية .

ومن أمثلة خضوع النصارى الى حكم رؤسائهم المحليين ماروى من أن أحد القسس حبس الشاعر الأخطل النصرانى فى كنيسة دمشق ، لأنه يشتم الناس ويهجوهم ، ولما سئل الأخطل عن سبب هذا الخضوع الذى يظهره للقس بالرغم من مهابة الناس له واكرام الخليفة لشخصه ، جعل يقول : "انه الدين ، انه الدين"(١). وماأخال القس عاقبه على هجائه المسلمين فالمسلمون أحق أن يأخذوا بحقهم منه ، وان كان الخليفة عبد الملك قد حماه من ذلك ، فلعله نال بشعره من بعض النصارى فشكاه الى القس ، فعاقبه .

وفى العصر الأموى انقسمت الشام الى خمسة أجناد هى : جند فلسطين والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين . وكانت قنسرين تابعة لحمص فى عصر الراشدين ، ففصلت جندا مستقلا بذاته وأضيفت اليها حلب حتى نهاية الدولة الأموية ويتبعها انطاكية ومنبج(٢)، واختلف فيمن جعل قنسرين جندا ، فقيل معاوية بن أبى سفيان ، وقيل : ابنه يزيد ؛ وكانت الجزيرة

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٠ ؛ نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ص٢٩٥ .

(٢) منبج بلد قديم من جند قنسرين وقيل : من الجزيرة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٠٥/٥-٢٠٧ ؛ البكرى ، معجم ماستعجم ، ص١٢٦٥) .

تابعة لحمص ، فلما أصبحت قنسرين جندا ارتبطت الجزيرة بقنسرين اداريا ، حتى عهد عبد الملك الذى فصل الجزيرة وجعلها جندا(١).

ولم تعد دمشق فى عهد بنى أمية مجرد قصبة لجند دمشق كما كان فى عصر الراشدين ، فقد أصبحت عاصمة للدولة الاسلامية ، لذلك وقعت الشام تحت الادارة المباشرة للخليفة مع وجود موظفين آخرين انحصرت مهماتهم بادارة الأجناد فقط ، وكان الى جانب الخليفة موظفون اداريون يساعدونه فى القيام بأمر الدولة بشكل عام ، بما فيها اقليم الشام(٢).

يقول ابن العديم : وحلب للخلفاء من بنى أمية لمقامهم بالشام ، وكون الولاة فى أيامهم - أى فى أجناد الشام - بمنزلة الشرط لايستقلون بالأمور والحروب(٣).

وكان الخليفة هو الذى يولى ولاة الأجناد ، وهم يولون من قبلهم عمالا على المدائن والقرى ، كما كانوا أحيانا يولون عمال الخراج من قبلهم وأحيانا تتم ولاية صاحب الخراج من قبل الخليفة ، والوالى مسئول أمام الخليفة ، والعامل مسئول أمام الوالى . وكانت مهمة الوالى الرئيسية حفظ الأمن والنظام وتعيين العمال فى ولايته ومراقبتهم ومحاسبتهم ، أما عمال النواحى والقرى فليس لدينا نصوص عن مهماتهم ، غير أن بعض الدلائل تشير الى أن مهمتهم الأساسية جباية الأموال(٤).

والحق أننى أرى مهمة عمال النواحى الرئيسية ليست جباية الأموال ، فان تلك المهمة هى وظيفة عامل الخراج ، كما أن جمعها من أهل القرية أو المدينة كانت توكل الى رؤسائها المحليين ، اذ يورد ابن عساكر أن كل

---

(١) انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، الجزء الأول (١-٤٥٧هـ) ، المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ، ص٢٩،٤١ ؛ نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٨٥ .

(٢) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص٤١ .

(٤) انظر : نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٢٩٦-٢٩٨ .

قرية كانت مسئولة عن دفع الخراج متضامنة[1]. أنه يشرف على جمع الضرائب فى مقر عمله وتسليمها لعامل الخراج ، الى جانب مهماته الأخرى فانه يمثل الوالى ومهماته فى مركز عمله ، كما أن الوالى يمثل الخليفة ، لكن ولاية ولاة الأجناد بالشام لم تكن واسعة كولاة الأقاليم الأخرى ، فلم يكونوا يستقلون بالأمور والحرب[2].

وبتتبع حديث نجدة خماش[3] عن أولئك الموظفين الذين يساعدون الخليفة فى القيام بشؤون الحكم للدولة الاسلامية بما فيها الشام ، ورجال الادارة فى أجناد الشام ، وأهمهم المستشارون ، وأصحاب الدواوين ، والولاة على الأجناد ، وعمال الخراج ، تبين لنا أن القائمين بالأمر كانوا كلهم من المسلمين عدا ولاية سرجون بن منصور الرومى النصرانى ، ثم ابنه منصور بن سرجون على دواوين الخراج ، ومن تحت ولايتهم من بنى ملتهم ككتاب فى الدواوين[4]. فقد كان يتولى شؤون الخراج فى الشام موظفون من أبناء المنطقة يتقنون الرومية بالاضافة الى العربية ، ويشرف عليهم رئيس يعرف بصاحب الخراج أو كاتب الخراج ، وكان صاحب دواوين الخراج فى الشام سرجون بن منصور ومن بعده ابنه حتى عربت الدواوين زمن عبد الملك[5].

تقول نجدة خماش[6]: ليست لدينا اشارات الى وجود دواوين للخراج فى مراكز الأجناد بالشام بينما لدينا رواية الى أن الديوان المركزى فى دمشق كان يضم على الأرجح دواوين (بمعنى السجلات) لخراج كل جند

---

(١) نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩ . [نقلا عن : ابن عساكر ، تاريخ دمشق ٥٩٣/١،٥٩٦) .

(٢) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٢٩٦ .

(٣) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٢٩٩ .

(٤) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٢٩٩ .

(٥) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .

(٦) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .

على حده ، قنسرين وحمص والأردن وفلسطين ، ويذكر الجهشيارى أن ابن أثال النصرانى كان على ديوان حمص ، وأنه قتل عندما خرج من ديوانه فى دمشق .

ويفهم من قولها أن عمال الخراج فى الأجناد كانوا فى الغالب مسلمون ، فليس بين أيدينا اشارة الى أنهم كانوا نصارى ، وكانوا يجمعون الأموال من المدن والقرى ، باستلامها من زعماء أهل البلاد المحليين ، الذين كانوا يبلغون بقدر ماعلى أهل قريتهم أو مدينتهم من قبل عامل الخراج ، ويكلفون بجبايتها ، ثم يسلمونها الى الديوان المركزى بدمشق ، وبالذات الى فرع الديوان المعنى بجندهم . تقول نجدة خماش[1] بما يؤيد ذلك : يورد ابن عساكر أن كل قرية كانت مسئولة عن دفع الخراج متضامنة ، فاذا أسلم الذمى أسقطت الجزية عن رأسه ، وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها اذا ترك أرضه ، ولذلك كان من مهمات عامل الخراج مراعاة أهل الذمة فى كل عام لتثبيت من بلغ ، واسقاط من أسلم أو مات ، واسقاط خراج كل أرض تحولت الى عشرية ، وتسجل تلك التغييرات وترسل الى الديوان المركزى فى دمشق ، اذ ليست لدينا اشارات الى وجود دواوين للخراج فى مراكز الأجناد ، وانما وجود فروع لكل جند من الأجناد بالديوان المركزى فى دمشق . ويبدو من برديتا نصتان (بين سنة ٥٤-٥٧هـ/٦٧٤-٦٧٧م) فى العصر الأموى ، أن مسئولية القرية عن دفع الجزية بالنقد والنوع مشتركة وأن مجلسا أو لجنة من وجهاء القرية تتولى جمع الضرائب[2]. وبناء على ذلك فان الزعماء المحليين كانوا جباة وليسوا أصحاب ولاية ، يجمعون ماقدره عمال الخراج المسلمين ، بينما وجد النصارى ككتاب فى الديوان المركزى فى دمشق ورئيسهم منهم ، وأرى أنهم ليسوا أصحاب ولاية ، فانهم مجرد حاسبين ، يضبطون الواردات

---

(١) الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩ . [نقلا عن ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٥٩٣/١، ٥٩٦].
(٢) عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٧ .

والصادرات وليس لهم تقدير الخراج وأمر المساحة ، والأمر فى تصريف أموال الخراج لولاة الأمر ، أما الأموال فتحفظ فى خزائن بيوت الأموال ، وتلك لم تعد تابعة لديوان الخراج فى العصر الأموى ، وانما يعين من يقوم بالاشراف عليها(١)؛ وكان يوكل الى صاحب الشرطة أمرها أحيانا(٢).

غير أننا لانستطيع أن ننفى وجود النصارى كموظفين صغار فى الدواوين الأخرى تحت ولاية أصحابها من المسلمين . كما أن ذلك لايلغى ثبوت الاستعانة بالنصارى فى مجالات أخرى سيأتى ذكرها .

ونخلص مما قدمنا أن النصارى وان عملوا فى الدواوين فانما كانوا موظفين صغارا ليس لهم فى أعمالهم الولاية على المسلمين ، الا ماكان من أمر سرجون بن منصور وابنه وحفيده . فقد أفاد عدد من المصادر(٣)أن سرجون بن منصور الرومى استعمله معاوية بن أبى سفيان على الديوان ، وأنه كان كاتبه وصاحب أمره كله . والحق أن استعماله كاتبا ، وعلى الديوان ، والكاتب بمثابة الوزير والمستشار ، حتى أصبح صاحب أمر معاوية كله ، فيه ولاية على المسلمين ، نظرا فى أمورهم ، وعملا فى تصريف شئونهم ، وذلك مانهى عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ولعل سرجون هذا هو الكاتب الذى استأذن معاوية عمرا فى استعماله عندما كان أميرا على بعض بلاد الشام فى خلافة عمر ، فمنعه .

ويقول جورج عطية(٤)، عند حديثه عن يوحنا الدمشقى : "شغل جده سرجون بن منصور مركزا مرموقا فى حكومة دمشق (الدولة الأموية) ، كعامل على دمشق وكان قد لعب دورا مهما فى استسلام المدينة للعرب

---

(١) على سبيل المثال جعل أمر الخاتم والخزائن وبيوت الأموال زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك ، لمطير مولاه . انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، رسالة ماجستير لم تنشر ، ص٤٤١ .

(٢) نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩١ .

(٣) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص٢٢٨ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٣٠/٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٦٢/٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢/٨ .

(٤) الجدل الدينى ، ص٤١٤ .

المسلمين ، وفى تواتر الادارة الأمـوية ، وورث ابنه منصـور والد يوحنا هذا المنصـب ، ثم أورثه الى يوحنـا" . وهذا الخبر يفيد أن سـرجون كـان عاملا لدمشق أيضا ، غير أن المصادر الاسلامية لاتذكر ذلك .

وأشار الى هذا الدور حسـان حلاق[(١)] الـذى قال : "فعهد معاوية الى سرجون بن منصور ، ثم الى ابنـه منصـور بن سـرجون مـن نصـارى الشـام بادارة دواوين المال . وكان منصور الأول والد سرجون على المال فى الشـام منذ عهد هرقل وذلك قبل الفتح العربى" .

وأوضحه جميل المصرى[(٢)] الـذى قال : ان منصور ساعد المسلمين فى فتـح الشـام بأنه أبى أن يمد رجال هـرقل بالمال والمؤن والـذخائر ـ واتخذه معـاوية مستشارا ـ وبعد وفـاته اتخذ معاوية ابنه سـرجون مستشـارا ، وكتب على ديوان الخراج ، فكـان كـاتبه وصـاحب أمـره ، وكـان ذا أثر فى تسيير سيـاسة الـدولة الأموية زمن معـاوية وابنـه يزيد ومنهـا فتنـة مقتـل الحسين وحوادث عهـد يزيد الأخرى . أمـا دوره فى تواتر الادارة الأمـوية ، وعمله على بقـائها وتوارث أبنـاء البيـت الأموى الحكم فيهـا ، فقـول غير صحيح ، وان ذكـر مايفيد اخلاص هذه الأسرة لبنى أمية ، فـان سرجون بن منصور ، أشار على يزيد بن معاوية لما خرج عليه الحسين بن على[(٣)] رضى الله عنه ،

---

(١) تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى (الحياة المالية والاقتصـادية والادارية) دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص١٧٣ .

(٢) أثر أهل الكتاب ، ص٤٨٠ .

(٣) الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى سبط الرسول صلى الله عليه وسلم وريحانته ولـد فى شعبان سنة ٤هـ ، وقيل سنة ٦هـ ، وقيل سنة ٧هـ ، لـه رواية عن الرسول عليه السلام ، وروى عنه جماعة ، خرج مع أبيه الى الجمل وصفين ، وشهد معه قتال الخوارج ، وكان معه حتى قتل ، ومع أخيه الحسن حتى سلم الأمر الى معاوية فتحـول مع أخيه الى المدينة ، حتى مات معاوية ، ثم خرج الى العـراق لما أرسل له أهل الكوفة بالبيعة بعد موت معاوية ، فقتل فى كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١هـ. انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٣٣٢/١-٣٣٥ .

أن يعـزل النعمـان بن بشير[(١)] عـن ولاية الكوفة ، ويوليهـا عبيـد اللـه بن زياد[(٢)] أمير البصرة لقدرته على مواجهة الموقف ، فقبل رأيه وهو لعبيد الله كاره[(٣)]. وقيل : أن معاوية هو الذى نقل النعمان من الكـوفة الى حمص ، وجمع الكوفة مع البصرة لعبيد الله بن زياد[(٤)].

كمـا أن استعمـال أسرة سـرجون بن منصور فى خدمـة الـدولة طوال تلك الفترة دليل على مكانتها عند الأمويين ، فقـد ذكر خليفة بن خياط[(٥)]، أن سـرجون بن منصـور كان كـاتبا لمروان بن الحكم ، وعلى ديوان الخراج والجند زمن عبد الملك بن مروان .

وتنقل نجدة خماش ماذكره الجهشيارى أن ابن أثال النصرانى كان على ديوان حمـص مـن قبل معاوية ولـه بحمص قصر يعرف به ، وأن هشـام بن عبـد الملك قلد كاتبه تاذرى بن أسطين ديوان حمـص[(٦)]. ولعلـه كاتبه على

---

(١) النعمـان بن بشير بن سعد الأنصـارى الخزرجى ، له صحبـة ، كان أول مولود فى الاسلام من الأنصار ، استعمله معاوية على الكوفة ، ولما مات معاوية بن يزيد بن معـاوية دعا الى ابن الزبير ، ثم دعـا الى نفسه ، فواقعه مـروان بن الحكم ، فقتل النعمان سنة ٦٥هـ .
انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ص٣/٥٥٩ .

(٢) عبيـد الله بن زياد بن أبيه ، وال مـن الشجعان ، جبار ، خطيـب ، ولد بالبصرة سنـة ٢٨هـ ، ولاه معاوية خراسـان سنة ٥٣هـ ، ثم ولاه البصـرة سنة ٥٥هـ ، وقاتل الخوارج ، ثم أقـره يزيد فى ولايتـه سنـة ٦٠هـ ، وكـان مقتـل الحسين بن على فى كربلاء فى أيامه وعلى يده ، وبعـد موت معاوية بن يزيد بن معـاوية ، بايعه أهل البصـرة ثم نكثـوا ، فخرج الى الشـام ، ثم عاد فى جيش يريد العـراق ، فـالتقى جيـش المختـار بن أبى عبيد الثقفـى بقيـادة ابراهيم بن الأشتر فى الخازر مـن أرض الموصل فهزم عبيد الله وقتل سنة ٦٧هـ .
انظر : الزركلى ، الأعلام ١٩٣/٤ .

(٣) ابن حجر ، نفس المصدر ، ٣٣٣/١ .

(٤) ابن حجر ، نفس المصدر ، ٥٥٩/٣ .

(٥) تاريخ ابن خياط ، ص٢٦٣،٢٩٩ .

(٦) الدواوين المركزية ، ص١٠ ؛ الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩ ؛
Ulrich Rebstock : Op. Cit, p. 231-232 .

ديوان الخراج ، فقد كان يكتب لهشام سعيد الأبرش وكان الغالب على أمره[١]. كما كتب البطريق بن النكا أو ابن البكا أو ابن بطريق من أهل فلسطين لسليمان[٢]. وعليه فان قول توفيق اليوزبكى[٣] بأن الحكومة الأموية تركت معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين ، وأنه قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة ، أراه أمرا مبالغا فيه عطفا على ماقدمناه من القول . اذ لم نجد من النصارى فى بلاد الشام من تولى مناصب ذات ولاية وأهمية فى ادارة الدولة الأموية سوى أسرة سرجون وابن أثال وابن بطريق وتاذرى فحسب ، ومن عمم القول فانه لم يقدم لنا أمثلة غير ذلك ، فان المسئولين عدا هؤلاء فى الادارة الأموية ببلاد الشام بدءا من قصر الخلافة ككتاب ومستشارين ، وكذلك أصحاب الدواوين المختلفة الرسائل والبريد والخاتم والجند والخراج وبيوت الأموال وغيرها ، وكذلك ولاة الأجناد وعمال المدائن والقرى كانوا من المسلمين . وان كان هناك وجود لهم فى تلك الدواوين فانما كموظفين صغار تحت ولاية رؤسائهم من المسلمين .

كما قال ترتون[٤]: "ففى زمن الحكام الأوائل من بنى أمية كانت الروابط بين الفاتحين والشعوب الخاضعة لهم روابط مودة وصداقة ، وكان معظم الموظفين الصغار من جماعة الذميين" . مع تحفظنا على قوله "مودة وصداقة" .

غير أن وجودهم الظاهر فى الادارة الأموية ، كان فى الادارة المالية ، لخبرتهم ولابقاء المسلمين على تلك الدواوين ، التى ظلت قائمة بأيدى أهلها والتدوين فيها بلغتهم وفق النظام الاسلامى ، حتى عربت الدواوين . يدل

---

(١) نجدة خماش ، الادارة فى العصر الأموى ، ص٣١٣ .
(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٩ ؛ نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٣٥١-٣٥٢
(٣) تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٦-١٤٧ .
(٤) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٥٣ .

على ذلك قول سرجون بن منصور للكتاب النصارى فى ادارته لما عربت الدواوين : "اطلبوا المعيشة من غير هذه الصنعة ، فقد قطعها الله عنكم"(١). لأن الاعتماد عليهم كان فى الادارة المالية ، أما الدواوين الأخرى فهى ذات نشأة عربية ، كالرسائل والخاتم والبريد والجند وغيرها ، ورؤساؤها من المسلمين العرب ، فلايعقل أن يكون كتابها نصارى . وانظر لقول سليمان بن سعد معرب ديوان الشام لعبد الملك عندما سأله أعنده قدرة على تعريبه ، فقال : "لو شئت لحولت الحساب الى العربية"(٢)، مما يدل على أن ماعدا ديوان الخراج المعتمد على الحساب كان بالعربية .

ويؤكد ماذهبنا اليه قول الماوردى(٣): وأما ديوان الاستيفاء وجباية الأموال فجرى هذا الأمر فيه بعد ظهور الاسلام بالشام والعراق على ماكان عليه من قبل ، فكان ديوان الشام بالرومية ، ولم يزل الأمر جاريا على ذلك حتى زمن عبد الملك بن مروان فنقل ديوان الشام الى العربية . فخص الماوردى بالتعريب دواوين المال لأنها التى ظلت بعد الفتح تكتب بلغة أهل البلاد وبأيديهم .

لقد خطت الدواوين فى عهد معاوية خطوات سريعة الى الأمام ، لاستفادته من الحضارات القديمة ولتغير ظروف الدولة الاسلامية التى اضطرته الى الأخذ بتلك الحضارات ، لاسيما الادارية منها . فقام معاوية بانشاء دواوين جديدة ، وعمل على تطويرها وأضحى لكل منها اختصاصه بناحية من شئون الدولة . ولم يقتصر وجود الدواوين على مقر الخلافة ، وانما كان لها فروع فى الولايات ، كانت فى الحقيقة استمرارا للدواوين المحلية التى كانت موجودة قبل الفتح ، وظلت تستعمل فيها لغات أهل البلاد ، ويتولى العمل فيها كتاب من أهل البلاد المفتوحة ؛ وكانت الدواوين فى البلد

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٩٧ .

(٢) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص١٨٥-١٨٦ .

(٣) الأحكام السلطانية ، ص١٧٤-١٧٥ .

الواحد تكتب باللغة العربية وبعضها بلغة أهل البلد ، فكان بالشام ديوانان أحدهما باللغة العربية لاحصاء الناس وأعطياتهم والآخر لوجوه الأموال بالرومية ، فجرى الأمر على ذلك الى أيام عبد الملك ، وكانت السمة الغالبة على الدواوين سواء فيما يتعلق بأشخاصها أو لغاتها سمة أهل البلد ، حتى أمر عبد الملك بتعريب الدواوين (١). وأول مادون ديوان الخراج بدمشق الشام على ماكان عليه قبل الاسلام (٢).

لقد حظيت الادارة باهتمام معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان ، ومن دلائل حرصهما على ضبطها ودقة معلوماتها ، ماذكر أن معاوية جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يدور على المجالس كل صباح ليسأل اذا كان مولود قد ولد فيهم ، أو ضيف حل بهم ، فيكتب أسماءهم وأسراتهم ويذهب الى الديوان ليثبتهم فيه ، وعمل ذلك عبد الملك ولكن ليس على المسلمين فحسب وانما على أهل الذمة ، حيث أمر بأن يدون كل شخص اسمه واسم والده وأولاده وممتلكاته وذلك فى مكان ولادته (٣).

الاستعانة بنصارى الشام فى العصر الأموى :

لقد أقام معاوية بن أبى سفيان الدولة الأموية ، واتخذ دمشق ببلاد الشام عاصمة لها ، وكان المسلمون يمثلون أقلية فى الشام بين جمهور أهلها وكانوا فى الغالب نصارى ، وكان أهل الشام أصحاب حضارات قديمة ، وهذا مادعى معاوية ومن جاء بعده ، الى حسن معاملتهم ، والتعاون معهم ، والاستعانة بهم ، حرصا على كسب ولائهم لضمان وحدة بلاد الشام وسلامة أمنها ، باعتبارها مركز الدولة ، وللافادة من حضارات تلك البلاد وماوصلت اليه من تطور فى مجالات الحياة ، مما كان المسلمون بحاجة اليه وليس قيه مايتعارض مع دينهم ، وللافادة أيضا من خبرة أهلها . فلم يكن

---

(١) انظر : حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص١٧٣-١٧٤ .
(٢) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص١٧٥ .
(٣) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص١٦٩ .

لمعاوية ولالمن جاء بعده أن يستغنوا عن نصارى الشام ، وفيهم أصحاب الحرف والكتاب والأطباء وغيرهم ، فاستعملوهم وقربوا النابهين منهم(١).
وقد تواترت الأخبار ، وشهد الواقع التاريخى على استعمال النصارى فى الشام زمن بني أمية فى كثير من الأحوال ، بما لايجعل الحاجة ملحة لضرب الأمثلة والأدلة على ذلك . يقول ابن القيم : أن الخلفاء الذين لهم ذكر حسن فى الأمة كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدى والمأمون ، درجوا على ماطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر فى عدم استخدام أهل الذمة فى أعمال المسلمين(٢). وهذا دليل على أن الأمويين استعانوا بالذميين عدا عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

كما شهد عمر بن عبد العزيز باستعانة من سبقه بأهل الذمة للحاجة اليهم عندما قال : "أن المسلمين استعانوا فى بادىء الأمر بأهل الذمة لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكانت لهم فى ذلك مدة قد قضاها الله"(٣).

ومن الأمثلة علي الاستعانة بهم فى المجالات المختلفة ، استعمالهم كأطباء ، ومنهم ابن أثال طبيب معاوية ، وأبى الحكم الذى كان طبيبا لمعاوية أيضا ، وأرسله مع ابنه يزيد عندما ولاه الموسم ، وطبيبا آخر أرسله يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المرى نحو الحجاز(٤)، واستعمالهم مترجمين للعلوم القديمة(٥).

كما استعين بهم كسفراء أو رسل الى الروم لأنهم أهل لغة واحدة ، فقد كان الرسول بين معاوية والامبراطور قنسطانز الثانى لما هم بغزو الشام خلال الفتنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، غلام لمعاوية يدعى :

---

(١) نجدة خماش ، الادارة فى العصر الأموى ، ص٣٥١ .
(٢) ابن قيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢١٢/١ .
(٣) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٤٠ .
(٤) انظر بعد : ص٦٩٢-٦٩٤ .
(٥) انظر بعد : ص٦٩٤-٧٠٤ .

"فناق الرومى"(١).

كما استعين بهم فى الجيش عند الغزو خارجيا ، وقمع الفتن داخليا ، بل أن عمر بن عبد العزيز أصر على حضور الذميين فى معظم الجيوش ، وخاصة فى مناطق الثغور(٢). وقد استعان مروان بن الحكم بمائتى رجل من أهل أيله لحفظ الأمن فى المدينة(٣)، ولاأراهم الا ممن كان قد أسلم من أهل ايلة . ويشار أيضا الى مرافقة خمسة من الصقالبة لأبى ذر لما حمله معاوية من الشام الى المدينة(٤). وان كان المعروف أن الصقالبة من النصارى ، غير أن الاسلام فشى بين النصارى فى الشام عامة ، ولعل هؤلاء كانوا ممن أسلموا والرواية لم تنص بنصرانيتهم ولااسلامهم . واستخدموا فى القصور للحجابة والحراسة(٥)، واستعين بهم فى صناعة السفن ، وبحارة فى الأسطول ، وفى الزراعة والعمارة والعلوم وغير ذلك(٦).

---

(١) عمر عبد السلام تدمرى ، ثغور بلاد الشام ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص٣٢٥-٣٢٦ .

(٢) انظر : نجدة خماش ، الجيش الشامى ، ص٣٦١-٣٦٣،٣٥٣ ؛ نجدة خماش ، الدواوين المركزية ، ص١٧ ؛ صلاح الدين عثمان هاشم ، الصقالبة ببلاد الشام فى زمن الأمويين مع القاء نظرة على الدراسات الاسلامية عن الدولة الأموية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص٢٢٩-٢٣٢ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى الشام ، ص٥٥٥ .

(٣) صالح الحمارنة ، نفس المرجع والصفحة ؛ ترتون ، أهل الذمة ، ص١٩٩-٢٠٠ .

(٤) صلاح الدين عثمان هاشم ، نفس المرجع ، ص٢٢٨ .

(٥) صلاح الدين عثمان هاشم ، نفس المرجع ، ص٢٣٢-٢٣٤ .

(٦) انظر لمعلومات أوسع وأمثلة أشمل عن الاستعانة بهم ودورهم فى مجالات الحياة المختلفة اقتصاديا وعمرانيا وعلميا فى الفصلين الأخيرين .

* أثر تعريب الدواوين على نصارى الشام :

وبناء عليه فان حركة التعريب تعد منعطفا فى مدى اعتماد الدولة على النصارى فى الادارة . ومع أهمية حركة التعريب فان الحديث عنها مفصلا شأن الباحثين فى الادارة ، والذى يهمنا فى هذا البحث هو هل كان للنصارى دور فى قيام تلك الحركة؟ ومأأثرها على نفوذهم فى الادارة الاسلامية ببلاد الشام .

أمر عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين ، يقول البلاذرى(١): "ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان ، فلما كانت سنة احدى وثمانين أمر بنقله ..." . وقد أفرد حسن حلاق حركة التعريب بكتاب(٢)، استقصى ماورد فى أهم المصادر حول الموضوع ، وأقوال بعض الباحثين وآرائهم فى حركة التعريب وفى بحثه غنى عن الرجوع لتلك المصادر الا فيما نرى أهميته . وورد فى بحثه : رغب عبد الملك بن مروان فى تعريب الادارة والدواوين خاصة بعد أن قام بتعريب النقود كضرورة لارساء قواعد الدولة على أسس متينة قوية ، وتولى عبد الملك بنفسه الاشراف على التعريب فى بلاد الشام ، وأمر عماله على الأقاليم بتعريب دواوين الولايات(٣).

وذكر ابن خياط عمال عبد الملك بن مروان فقال(٤): "الخراج والجند سرجون بن منصور الرومى فمات سرجون ، فولى سليمان بن سعد(٥) مولى

---

(١) فتوح البلدان ، ص١٩٦ .

(٢) تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى ؛ ينظر لمعومات أوسع عن هذا الموضوع .

(٣) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص١٨٣،١٨٥ .

(٤) تاريخ ابن خياط ، ص٢٩٩ .

(٥) سليمان بن سعد الخشنى بالولاء ، أول من نقل الدواوين من الرومية الى العربية وأول مسلم ولى الدواوين كلها فى العصر الأموى ، وكانت النصارى تلى الدواوين فى الشام قبله ، وهو من أهل الأردن ، انتقل الى دمشق ، فولى الديوان لعبد الملك بن مروان وعرض على عبد الملك أن ينقل الحساب من =

خشين - حى من قضاعة - وهو أول من ترجم ديوان الشام بالعربية" . فأتم سليمان تعريب ديوان الشام قبل انقضاء السنة(١).

ويقول ابن الطقطقا(٢): "كان عبد الملك لبيبا عاقلا ملكا جبارا ، قوى الهيبة شديد السياسة ، حسن التدبير للدنيا ، فى أيامه نقل الديوان من الفارسية الى العربية ، واخترعت سياقة المستعربين" .

غير أن استكمال حركة التعريب فى الولايات قد استغرق وقتا طال بعد خلافة عبد الملك ، حتى أن ديوان خراسان لم يتم تعريبه الا سنة ١٢٤هـ(٣). ويعلل بعض المؤرخين سبب التعريب بدوافع كان وراءها النصارى . فالجهشيارى والصولى يذكران أن عبد الملك وجد من سرجون توانيا وتثاقلا وتفريطا وتقصيرا ، ادلالا منه على الخليفة لشعوره بحاجته اليه والى صناعته ، فطلب من سليمان بن سعد وكان كاتب الرسائل ، أن ينقل الديوان الى العربية ففعل ، وولاه جميع الدواوين(٤)، بينما يذكر البلاذرى(٥)أن أحد كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه ، وأمر سليمان بنقل الدواوين . غير أن خليفة بن خياط(٦)ذكر أن سرجون مات زمن عبد الملك فولى سليمان الديوان ، فقام بترجمة الديوان . وفى قوله مايوحى بأن نقل الديوان تم

= الرومية الى العربية ، فأمره بذلك ، فحوله ، فولاه جميع دواوين الشام ، واستمر حتى أيام الوليد وسليمان ، وعزله عمر بن عبد العزيز لهفوة بدت منه .
انظر : الزركلى ، الأعلام ، ٣/١٢٦ .

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٩٧ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ص١٢٢ .

(٣) انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ج١ ، ص٤٤-٤٥ .

(٤) نجدة خماش ، الدواوين المركزية ، ص١١-١٢ ؛ نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٦) انظر قوله فى الصفحة السابقة .

بعد وفاة سرجون ، غير أنه يروى أن عبد الملك عرض الديوان المعرب على سرجون ، فغمه ودعا قومه الى البحث عن المعيشة من غير صنعة الكتابة[(١)].

وعلى كل فان من الباحثين من رأى أن عبد الملك لم يقم بالتعريب لتلك الأسباب وان صحت ، بل أن الدوافع الحقيقية كانت تتعلق باستكمال شخصية الدولة وبنيانها[(٢)]. منها فيما يخص موضوعنا ، تحرير النظم الادارية من الخضوع للسيطرة العنصرية ، أو الشعوبية المحلية ، مما يؤكد سيادة الدولة سياسيا على البلاد المغلوبة[(٣)].

أما نتائج تعريب الدواوين وآثارها على نصارى الشام ، فلعل أولها مااستشعره سرجون بن منصور الذى لمس أن التعريب يعنى خروج صنعة الكتابة فى الديوان من أيدى النصارى الى العرب[(٤)]. وكان طبيعيا فى نظر فيليب حتى أن يعقب تغير لغة الكتابة تغيير الموظفين[(٥)].

والواقع أن أمر عبد الملك بالتعريب ، لايعنى اخراج الكتبة النصارى من الديوان ، ومنعهم من العمل ، بل الزامهم الكتابة باللغة العربية ، فقد ظل النصارى يكتبون فى الدواوين ، يتبين ذلك من قول ابن العبرى[(٦)]عن الوليد بن عبد الملك : "ومنع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية لكن بالعربية" . غير أن التعريب بلاشك أدى الى خروج عدد من

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٩٧ .
(٢) انظر تلك الأسباب عند : حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص٢٠١، ١٨٣،١٨٤،١٨٥ ؛ نجدة خماش ، الدواوين المركزية ، ص١١-١٢ .
(٣) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص٢٠١ .
(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٩٧ .
(٥) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص١٨٤ .
(٦) تاريخ مختصر الدول ، ص١٩٥ ؛ وانظر :
Healey, J.F : Syriac sources and the umayyad period, the fourth international conference on the bilad al-sham, proceedinos of the third symposium, Amman, 1989, p. 8 .

الكتاب النصارى من الديوان ، وهم الذين لايعرفون اللغة العربية ، أما المجيد لها فقد ظل على عمله . وقد ساعد ذلك على حلول المهرة من المسلمين مكانهم ، ويفيد خبرا أن صالح بن عبد الرحمن(١) متولى تعريب ديوان العراق تتلمذ على يديه عدد من كتاب العرب على أصول الكتابة فى الديوان ، مما يعنى أن حركة التعريب رافقها حركة تدريب للعناصر العربية الاسلامية لتحل محل النصارى وغيرهم من الكتاب الأعاجم(٢). والظاهر أن ذلك الحلول تم تدريجيا .

ومن النتائج التى أدت اليها حركة التعريب أن اللغة العربية أصبحت اللغة الرسمية فى الدولة ، وانتشرت ، وصارت لغة الفكر والحضارة وبادر الأعاجم الى تعلمها ، وقد ساعد ذلك على تقلص نفوذ أهل الذمة بعد أن انتقلت مناصبهم الى أيدى المسلمين ، وانقراض لغتهم(٣).

كما أن شعور سرجون لم يصدق ، اذ يروى أن سرجون استمر فى عمله حتى مات ، ثم خلفه ابنه ، واستمرت الحكومة على استعمال النصارى فى الدواوين ، وممن اشتهر باجادته العربية الى جانب اليونانية من نصارى

---

(١) صالح بن عبد الرحمن التميمى بالولاء ، أول من حول كتابة دواوين الخراج بالعراق من الفارسية الى العربية ، وأصله من سبى سجستان ، نشأ فى بنى النزال فصيحا ، اتصل بالحجاج ، وجعله فى كتابة ديوانه ، ثم قلده أمر الديوان ، وكان يكتب بالفارسية ، فنقله صالح الى العربية سنة ٨٧هـ ، ووضع صالح للكتاب والحساب اصطلاحات بالعربية استغنوا بها عن المصطلحات الفارسية ، وولاه سليمان خراج العراق ، ثم استعفى عمر بن عبد العزيز بعد عام من خلافته فأعفاه ، وقيل : عزله ، وفى خلافة يزيد بن عبد الملك أرسل أمير العراق عمر ابن هبيرة يطلب صالح ليسأله عن الخراج وكان آنذاك بالشام ، فبعثه يزيد وأوصى عمرا به ، فلما وصل ابن هبيرة قتله ، وكان جميع كتاب العراق فى عصره تلاميذ له .
انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١٩٢/٣ .

(٢) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص١٨٧ .

(٣) انظر أهم النتائج التى توصل لها : حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص٢٠٢ .

الشام يوحنا الدمشقى الذى شغل منصبا رفيعا فى الدولة حتى اعتزل فى أوائل عهد هشام وقيل غير ذلك(١). كما استعمل سليمان وهشام كتابا من النصارى(٢). وفى اصدار عمر بن عبد العزيز أمره بمنع النصارى من العمل فى الدواوين الا من أسلم منهم(٣)، وأمر هشام بن عبد الملك ألا يستعان بأهل الذمة فى الدواوين(٤)، دليل على وجودهم فى الدواوين بعد التعريب حتى خلافته ، وذلك فى الدواوين التى عربت وهى الشام ، ومما لايحتاج الى حجة استمرارهم فى الدواوين التى لم تكن قد عربت آنذاك كخراسان ، وتقدم لنا الوثائق البردية اشارات على أنه منذ النصف الثانى للقرن الأول نجد أنفسنا أمام موظفين مسلمين فى الادارات المحلية فى خربة المرد بوسط فلسطين مع استمرار تواجد الموظفين المسيحيين فى جنوب فلسطين(٥). وقد أشار ترتون الى ظهور المسلمين آنذاك فى الادارات المحلية والوظائف الصغيرة(٦). وهذا يعنى أن التعريب الذى حدث فى النصف الثانى من القرن الأول أدى الى وجود الموظف المسلم مكان المسيحى ، ولكن ليس فى جميع الوظائف والأماكن ، بل تم على مراحل تدريجيا . وتشير أوراق البردى أيضا أن الأوراق المعربة تماما تعود الى سنة (٧٠٩م/٩١هـ) ، وأن آخر ورقة بردى تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى سنة (٧١٩م/١٠١هـ)(٧). وهذا يعنى استمرار الكتاب النصارى فى الدواوين الى آخر خلافة عمر بن عبد العزيز بل وتجاوزهم أمر التعريب ، وأنهم كانوا يكتبون بالعربية وبلغتهم .

ويذكر

---

(١) انظر قبل ، ص٢٨٠-٢٨١ ، وبعد : ص
(٢) انظر قبل : ص٢٨٣ .
(٣) انظر : الصفحة التالية .
(٤) انظر قبل : ص٢٦٠،٢٩٥ .
(٥) مصطفى العبادى ، أضواء على الوثائق البردية ، ص٥٠ .
(٦) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٤ .
(٧) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٢٨٨ .

حسان حلاق[١] أن البرديات أشارت أن الكتاب النصارى فى مصر ظلوا يكتبون باللغة اليونانية الى جانب العربية كلغة ثانية بعد التعريب . ولعل مثل هذا كان يحدث فى بلاد الشام .

وهكذا تبين لنا أن حركة التعريب أدت الى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى جميع الدواوين ، غير أنها وان خففت من نفوذ النصارى فى الدواوين ، وبالذات المالية منها ، لخروج من لايعرف العربية . فان عددا كبيرا منهم ظل فى الدواوين ، فاستمر نفوذهم ، ويبدو أن بعض العمال استعان بالنصارى فى مناصب عليا يكون صاحبها ذو ولاية على المسلمين ، فعظم سلطانهم ، وامتد أذاهم الى المسلمين ، وهذا ماحدا عمر بن عبد العزيز الى منعهم من العمل فى الدواوين ، حتى لايلقى المسلمون على أيديهم وهم أهل الصغار هوانا وذلة، بعد أن أعزهم الله بالاسلام .

يفيد عدد من المصادر[٢] أن عمر بن عبد العزيز أمر بعزل أهل الذمة عن الأعمال واستبدالهم بعمال من المسلمين ، ومنع ولاته استعمالهم ، مبينا أن استعمال الخلفاء لهم قبله كان لخبرتهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم مدة قضاها الله ، وأوضح لعماله فى كتب أرسلها لهم ، أن الله أعز المؤمنين بالاسلام ، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم ، فنهاهم عن تولية أهل الذمة أمور المسلمين ، لئلا يهان المسلمون بعد أن أكرمهم الله على أيدى النصارى ، وأن الخير فى أهل القرآن ، وأمر أحد عماله وقد بلغه أن فى عمله كاتبا نصرانيا ، أن يدعوه الى الاسلام ، فان أسلم فانه من المسلمين ، وان أبى فلايستعين به ، فأسلم وحسن اسلامه ؛ ونهى عاملا له

---

(١) تعريب النقود والدواوين ، ص١٩٢-١٩٣ .

(٢) انظر : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٤٠ ؛ الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، مؤسسة قرطبة ، ص٦٩ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن عبد العزيز ، ص١٢٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٦٥/٤ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ٢١٢/١-٢١٣ .

أن يتخذ أحدا على غير دين الاسلام فى شىء من مصالح المسلمين(١).

ويذكر ساويرس بن المقفع(٢)أنه كتب الى أهل مصر : "من أراد أن يقيم فى حاله وبلاده فيكون على دين محمد مثله ومن لايريد يخرج من أعمالى ..." ، والتخيير بين الاسلام أو الخروج من العمل خبر ذكرته المصادر الاسلامية ، الا أنه زاد الخروج من البلاد ، وهى زيادة لاشك موضوعة ، لم يذكرها غيره ، ولم يكن لعمر أن يخرجهم من بلادهم ان لم يسلموا ، كما وأن المصادر لم تذكر أنه أخرج ولو نصرانيا واحدا من بلده ، لتمسكه بالنصرانية ، واكتفى باخراجه من العمل .

وظن بعض الباحثين(٣)، أن عمرا أمر بعزل من له ولاية من النصارى على المسلمين ، اعتمادا على قول الكندى(٤): "ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمين عليهم" . باعتبار المواريث من أمور الدين لايتولاها الا مسلم . والصحيح أن كلمة مواريث الواردة فى النص لاتعنى الارث وقد كتبت خطأ ولعله من خطأ النساخ . والمقصود منها فى الحقيقة "الموازيت"، وأن كلمة موازيت ، مشتقة من "ميزوتروس" ، وهى كلمة يونانية تعنى فى ادارة مصر "مشايخ ورؤساء القرى" ، وهى من الألفاظ القديمة فى الادارة المصرية منذ ماقبل الفتح ، واستمر العرب فى استعمالها حتى بعد حركة التعريب(٥). والمقصود نزع رؤساء القرى من النصارى واستعمال المسلمين بدلا منهم .

وذكرت سيدة كاشف(٦)أنه مع أمر عمر بن عبد العزيز بنزع الموازيت عن كور مصر ، فان بردية تاريخها سنة ١٧١هـ/٧٨٧-٧٨٨م تشير الى ذكر مازوت قبطى .

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢١٤/١ .
(٢) كتاب سير الآباء البطاركة ، باريس ، ١٩٠٣م ، ص١٥٢-١٥٣ .
(٣) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٣٦ .
(٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص٦٩ .
(٥) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص١٩٤ .
(٦) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤٠م ، ص١٧٩-١٨٠ .

ولاشك أن سياسة عمر بن عبد العزيز قد ساعدت على تقليص نفوذ النصارى فى ادارة الدولة ، وأدت الى اعتناق بعضهم الاسلام حرصا على أعمالهم ، وكانت أوامره لعماله فى هذا الشأن صريحة وواضحة وحازمة . يقول ترتون[١]: والواقع أنه كان شديد التمسك بتطبيق ذلك المبدأ فى جميع نواحى الدولة الاسلامية . ويقول ساويرس بن المقفع[٢]بعد أن ذكر أمره : "فسلموا له النصارى مابأيديهم من التصرفات وتوكلوا على الله وسلموا خدمتهم للمسلمين وصاروا عبرة لكثير ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم" . وان كان فى قوله تهويل ، فانه يدل على أن أمر عمر كان له أثره الواضح فى زمنه على الأقل .

غير أن سياسة عمر بن عبد العزيز فى هذا الشأن كما يبدو لم يدم أثرها ، فالدلائل كثيرة على استمرار النصارى فى ادارة الدولة بعده ، ولعل ذلك كون الخلفاء بعده لم يسيروا على نهجه . وقد قدمنا ذكر بعض الدلائل[٣]، ومن ذلك أيضا كتاب هشام بن عبد الملك لخالد القسرى يلومه على افراطه فى الاستعانة بغير المسلمين وتسلطهم على المسلمين[٤]، وترك الوليد الثانى أمر الجباية الى رؤساء أهل الملل الأخرى[٥].

ويروى المقدسى (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) أن أكثر الأطباء والكتبة بمصر والشام نصارى[٦].

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٣ .

(٢) سير الآباء البطاركة ، ص١٥٢-١٥٣ .

(٣) انظر قبل : ص٢٨٢ .

(٤) ترتون ، نفس المرجع ، ص٢٤ .

(٥) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٦ .

(٦) نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩-٣٠٠ .

ويقول مصطفى العبادى [١] في بحثه القائم على دراسته للوثائق البردية أن القائمين بالأعمال الادارية استمروا فى كثير من الحالات من المسيحيين حتى بعد مرور أكثر من قرن على الفتح العربى ، مع وجود أمثلة على تولى المسلمين للادارات المحلية منذ النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

غير أن الأمثلة التى ذكرها تبين أن أولئك الموظفين كانوا يعملون فى الادارة المالية كما ذكرنا . وقوله هذا يشير الى أن الوثائق تثبت بقاء بعض المسيحيين فى الادارة حتى بعد حركة التعريب وأمر عمر بن عبد العزيز ، كما تشير الى ظهور العنصر العربى المسلم فى الادارة ولاشك أن بعض أولئك المسلمين الذين ظهروا فى الادارة كانوا من نصارى الشام الذين اعتنقوا الاسلام فاستمروا فى أعمالهم .

وفى ضوء ماقدمناه ، فان استعمال بنى أمية للنصارى فى ادارة الدولة كان فى الغالب فيما ليس فيه ولاية على المسلمين ، كما استعين بهم فى مثل ذلك زمن الخلفاء الراشدين [٢]، الا ماذكر من ولاية سرجون بن منصور وغيره من الأمثلة المحدودة التى ذكرناه فى حديثنا آنفا .

---

(١) أضواء من الوثائق البردية ، ص٤٦-٤٧ .

(٢) انظر حديثنا عن استعمال نصارى الشام زمن الخلفاء الراشدين فيما ليس فيه ولاية على المسلمين ، قبل : ص٢٥٩-٢٦٥ .

* دور نصارى الشام فى سك العملة الاسلامية وأثر تعريبها عليهم :

لم تكن حركة التعريب قاصرة على تعريب الدواوين ، فقد سبق ذلك تعريب السكة(١)، وكان لنصارى الشام دور فى ضرب العملة قبل التعريب ، وتأثروا بتعريبها .

ففى بادىء الأمر أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم العملات التى كان عرب الجزيرة يتعاملون بها فى الجاهلية ، وتركها على حالها ، وهى الدينار الذهبى البيزنطى ، والدرهم الفضى الفارسى والنقود الحميرية ، وكانوا يتعاملون بها وزنا لاعدا كدنانير ودراهم ، وكان الدينار البيزنطى يحمل صورة الامبراطور ونقشه ، والدرهم الفارسى يحمل صورة كسرى ونقشه(٢). وأقرها كذلك أبو بكر رضى الله عنه ، والخلفاء من بعده حتى زمن عبد الملك بن مروان الذى ضرب النقود الاسلامية الخالصة سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م ، وألزم الناس بها ، ومنع ضرب عملة على غير سكة المسلمين ، أو التعامل بالعملات الأجنبية(٣).

---

(١) السكة : لفظ السكة كان يطلق على الطابع أو الصنجة من الحديد أو الزجاج التى ينقش عليها صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على النقود فتطبع تلك الرسوم والكتابة عليها وتظهر واضحة مستقيمة ، ثم أطلق لفظ السكة على أثرها من النقوش الظاهرة على النقود ، ثم انتقل الى وظيفة القيام على ذلك ، وقيل هى الحديدة التى تضرب عليها النقود ، لذلك سميت النقود بمختلف أنواعها تسمى : "السكة" .

انظر : عبد الرحمن فهمى ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات (فجر السكة العربية) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٢٧-٢٨ .

(٢) انظر : عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٢٨-٣٠ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٢ .

(٣) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص٣٣،٤٤،٤٠ ؛ عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٣١،٣٦ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٨٣،٢٨٥ .

وفيما يخص النقود البيزنطية ، فمنها مايأتى من الدولة البيزنطية عن طريق التبادل التجارى ، ومنها ماظل يضرب على النمط البيزنطى فى الأقاليم التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل فتحها كالشام .

يقول هبرت : أن الفاتحين المسلمين أبقوا على دور الضرب البيزنطية ، وبالتالى ظل العمال النصارى يسكون فيها العملة البيزنطية للحكام المسلمين ، والشائع أن المسلمين بعد فتحهم الشام ظلوا يستخدمون العملة البيزنطية ، وهى الدنانير الذهبية المعروفة بالدنانير الهرقلية . فظل الضرابون النصارى الشاميون بعد الفتح يسكون بدور الضرب تلك ، عملة محلية تقليدا للعملة البيزنطية(١). ودور الضرب التى كانت موجودة فى بلاد الشام أثناء الفتح وظلت قائمة بسك العملة بعده ، كانت فى دمشق وبعلبك وحمص وطبرية ، وهذا يتضح من امضاء الصناع على هذه العملة(٢).

ان قول هبرت السالف يفسر لنا بعض التعديلات ذات الصبغة العربية والاسلامية على العملة البيزنطية المتداولة فيما قبل سك عبد الملك النقود العربية الاسلامية الخالصة ، اذ لم يكن فى منال المسلمين فعل ذلك على العملة البيزنطية التى تدخل الدولة الاسلامية عن طريق التجارة . لقد ظل الدينار الذهبى البيزنطى يضرب فى الشام ويتداوله المسلمون بعد الفتح ، فهناك قطع من نقود سكت سنة ١٧هـ/٦٣٨م فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مكتوبة باليونانية ، واسم دار الضرب (دمشق) ، دون تغيير النقوش المرسومة على النقد البيزنطى(٣).

وكذلك أقر عمر رضى الله عنه مع الدينار الفلوس البرونزية ، وقد وصلت الينا كميات من الفلوس البرونزية التى تحمل صورا لهرقل مع

---

(١) Hebert R.J : The early coinage of bilad al-sham, p.135. (العملة الاسلامية الأولى فى بلاد الشام ، بحث من أعمال الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام فى صدر الاسلام ، ١٩٨٥م) .

(٢) Hebert. R.J : Op. Cit, p.137 .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٤ .

الشارات المسيحية كالصليب ، لكن الطراز النقدى ذاك ، أخذ المسلمون فى تعريبه واتخذ الطابع الاسلامى تدريجيا ، فلم تلبث الحروف العربية أن ظهرت على الفلوس مثل كلمة "جايز" أو كلمة "طيب" ، ثم ظهرت البسملة وبعدها كلمة التوحيد التى نجدها على الفلوس من طراز هرقل ، وهرقل قسطنطين ، وهرقليوناس ، وكذلك على الدنانير من نفس الطراز(١).

ومع اقرار المسلمين فى بادىء أمرهم للعملات الأخرى ، قام عدد من الخلفاء والعمال بضرب نقود صبغت بالصبغة العربية الاسلامية كمحاولات مبكرة للتعريب ، الا أنها ظلت تضرب على النمط البيزنطى والفارسى ، ولم تخل من التأثيرات المسيحية والمجوسية ، أو أنها ظلت محدودة وقاصرة أن تلبى حاجة الأمة والدولة فتداولها الناس جنبا الى جنب مع العملات الأجنبية الأخرى المضروبة داخل الدولة الاسلامية ، والآتية من خارج حدودها .

ومن هذه المحاولات ، ماذكر من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب سنة (١٨هـ/٦٣٩م) الدراهم على نقش الكسروية وشكلها ، غير أنه زاد عليها "الحمد لله" ، وفى بعضها "لااله الا الله وحده"(٢). وقيل : انما كان ذلك سنة ٢٠هـ/٦٤١م ، وقد أحيط بصورة كسرى عبارات اسلامية كتبت بالعربية ، منها "بسم الله" و"الله ربى"(٣).

وكذلك فعل عثمان ومعاوية رضى الله عنهما ، وكان نقش عثمان "الله أكبر" ، غير أننا نفتقر لنماذج من كلا النوعين(٤). والذى نقبله أن هذا الضرب على نقش الكسروية انما كان فى الهيئة والوزن ، مع الغاء صورة كسرى ، فلايظن أن عمرا رضى الله عنه سيضيف اسمه وعبارات

---

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٣٦ .
(٢) عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٣٦،٣١ .
(٣) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٤ .
(٤) عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع والصفحات .

اسلامية الى جوار صورة كسرى ، خصوصا وأن تلك الدراهم كما يذكر أحمد السباعي ضربت بالمدينة ، وظل الناس يتعاملون بها حتى زمن عبد الله بن الزبير(١).

وتذكر ثريا حافظ عرفة(٢)، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ضرب الفلوس على طراز العملة البيزنطية الهرقلية سنة ١٧هـ/٦٣٨م ، مسجلا اسمه عليها بحروف عربية ، وقد وصل الينا فلس منها ، وهو أقدم ماوصل الينا من الفلوس العربية .

بينما يقول هبرت(٣)، أن أول عملة برونزية ضربت ببلاد الشام فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حوالى سنة ٢٠هـ/٦٤١م على النمط البيزنطى ، كما ضرب عثمان رضى الله عنه نقودا على النمط البيزنطى ، مضافا اليها بعض العبارات الاسلامية بالخط الكوفى .

غير أن انستاس الكرملى(٤)يشير الى ضرب حدث بالشام سبق عملة عمر بن الخطاب فيذكر أن خالد بن الوليد ضرب قبل ذلك نقودا فى طبرية بالشام سنة ١٥هـ/٦٣٦م أو ١٦هـ/٦٣٧م ، على رسم الدنانير البيزنطية تماما ، وعليها الصليب والتاج والصولجان ، وكتب عليها اسم خالد باليونانية ، وأن ذلك كان من أسباب عزله .

كما سك معاوية رضى الله عنه دراهم مؤرخة بسنة ٤١هـ/٦٦١م و٤٣هـ/٦٦٣م ، تحمل اسمه بالفهلوية "معاوية أمير المؤمنين"(٥).

---

(١) تاريخ مكة ، مطبوعات النادى الأدبى ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص١٢٦

(٢) الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٤ .

(٣) Hebert, R.J : TOp. Cit, p.137 .

(٤) النقود العربية الاسلامية وعلم النميات ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ص٩٩ .

(٥) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٨٥ .

لكننا ونحن نرصد تلك المحاولات المبكرة (الأولى) ، لتحرير النقد الاسلامى من النفوذ البيزنطى الاقتصادى ، وتعريبه باضفاء الصبغة العربية الاسلامية عليه ، بدلا من النقش البيزنطى ، نجد أنفسنا أمام مرحلة جديدة ، وهى نقش صورة الخليفة على العملة التى ضربها بدل صور الامبراطور ، وقد نسبت تلك العملات الى معاوية رضى الله عنه وعبد الملك بن مروان .

فقد وصلنا بعض الدراهم والفلوس التى ضربها معاوية رضى الله عنه وعليها اسمه وصورته[١].

ويقول عبد الرحمن فهمى[٢]، وبالامكان نسبة بعض الفلوس التى ضربت بايلياء بفلسطين وعليها صورةالخليفة مفروق الشعر على جبينه ويحمل السيف بيمينه الى معاوية رضى الله عنه .

بينما نجد محمد أبو الفرج العش يذكر فلوسا ضربت قبل عبد الملك ابن مروان وعليها صورة الخليفة لكنه لم ينسبها الى خليفة بعينه[٣]. ونسبة عبد الرحمن فهمى تلك الفلوس الى معاوية أمر استنتاجى لكن يعززه قوله فى الصفحة السابقة أنه قد وصلنا فلوس ضربها معاوية عليها اسمه وصورته.

ويذكر عبد الرحمن فهمى أيضا[٤]أن المقريزى أورد أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان أول من ضرب دنانير عليها صورته متقلدا سيفه ، غير أنها لم تصلنا ، والاحتمال الصحيح استبعاد ذلك ، لأنها لو ظهرت لكانت مثار نزاع بين معاوية والبيزنطيين كما حدث فى عهد عبد الملك . وقد نقدت رواية المقريزى تلك وأنكرت صحتها ودحضت بالبراهين ، بأنها رواية

---

(١) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٧م ، ص٢٩ .

(٢) فجر السكة العربية ، ص٣٧ .

(٣) النقود العربية الاسلامية مصدر وثائقى للتاريخ والفن ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام المنعقد بالجامعة الأردنية ، الدار المتحدة للنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م ، ص٢٨١ .

(٤) نفس المرجع ، ص٣٦-٣٧ ؛ انستاس الكرملى ، النقود العربية الاسلامية ، ص٣٩

ضعيفة غير مسندة ، وأوردها مؤرخ متأخر لم يذكرها غيره ، كما أن قوله مخالف لاجماع المؤرخين أن عبد الملك بن مروان كان أول من ضرب الدنانير الذهبية[١].

كما ينسب الى الخليفة عبد الملك بن مروان دينار ذهبى نقشت عليه صورة الخليفة مكان صورة هرقل وولديه ، وهو واقف وبيده سيفه علامة الامامة ورمز الجهاد فى سبيل الله ، كما أن رأسه تغطيها ملحفة (كوفية) تتدلى على كتفيه فى ثنيات أشبه بالشعور المتجعدة المسدلة ، وللخليفة لحية طويلة قد أطلقها لتتفق وتعاليم السنة الاسلامية ، وتحيط بالصورة البسملة والشهادتين مع بقاء بعض التأثيرات المسيحية[٢]. وقد سك هذا الدينار سنة ٧٤هـ/٦٩٣-٦٩٤م ، وهذا الدينار لايزال فريدا فى العالم ، وقد ضرب على نمطه دنانير فى السنوات ٧٥ و٧٦ و٧٧هـ/٦٩٤،٦٩٥،٦٩٦م[٣]. وذكر أن بعض الصحابة بالمدينة كرهوا تلك العملة ، واعترضوا عليها لوجود نقش صورته عليها[٤]. وقد ناقشت ثريا حافظ عرفة[٥]أقوال عدد من الباحثين المهتمين بعلم النقود والنميات بشأن نقش صورة عبد الملك على ذلك الدينار سواء كانت صورة حقيقية أو رمزية غير أنها لم تخرج بنتيجة واضحة ، وعدت وضع عبد الملك صورته على الدينار تحديا لامبراطور بيزنطة فى أعقاب مشكلة القراطيس[٦].

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٦-٢٨٧ ؛ وانظر : محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية والاسلامية ، ص٢٧٩-٢٨٠ .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٤٣،٤٤-٤٦ ؛ وانظر قراءة الدنيار وصفته ، ص٢٨٧،٢٨٨ ؛ انستاس الكرملى ، النقود العربية والاسلامية ، ص٤١ .

(٣) عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٤٨ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٨٧،٢٨٩ .

(٤) محمد أبو الفرج العش ، نفس المرجع ، ص٢٧٣ ؛ عبد الرحمن فهمى نفس المرجع ، ص٤٨ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٨٧،٢٨٩ ؛ عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص٣٤ .

(٥) انستاس الكرملى ، نفس المرجع ، ص٤١ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٣٠٧ .

(٦) انظر : الحياة الاقتصادية ، ص٣٠٦-٣٠٩ .

وكان عبد الملك فيما بين سنتى (٧٢-٧٤هـ/٦٩١-٦٩٤م) بدأ يتدرج فى تعديل العملة المضروبة على النمط البيزنطى نحو الصبغة العربية الاسلامية (التعريب) ، فضرب فى أول الأمر عملة على السكة البيزنطية وعدل فى هيئتها وبعض حروفها وغير أشكال الصلبان وأضاف اليها عبارة التوحيد بالخط الكوفى(١). وصفة ذلك التدرج أن الدنانير البيزنطية التى تعامل بها المسلمون فى فجر الاسلام ، خضعت فى بلاد الشام لتطور تدريجى ، فبدأت الشارات المسيحية تختفى من فوق تيجان الأباطرة ، وكذلك من فوق عصا المطرانية ، وتظهر الكتابات العربية وصورة الخلفاء ، الى أن أصبحت الدنانير الذهبية عربية خالصة فى عهد عبدالملك بن مروان(٢).

كما يوجد نقد ذهبى سابق لدينار عبد الملك عليه ثلاث تماثيل (صور) ولكلا النقدين أمثال من النقود النحاسية التى ضربت فى فلسطين(٣).

وقد عد عبد الرحمن فهمى(٤) تجرؤ عبد الملك على سك ذلك الدينار ووضع صورته مكان هرقل وولديه ، هو السبب الحقيقى لاثارة النزاع بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية ، اذ لم يجرؤ أحد من المسلمين قبل عبد الملك على ذلك ، فلم يكن أباطرة الروم يسمحون أن تسك العملة الذهبية على غير طرازهم ، وهو ماجعل جستنيان الأول يستنكر ضرب ملك الفرنجة سكة ذهبية باسمه وصورته ، ولم يكن ملك الفرس يجرؤ على ذلك وان فعله

---

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٤٣ ؛ وانظر أيضا :
Michael L-Bates : The coinage of syria under the umayyads, 692-750 A,d, p.204-207 .
من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، الندوة الثالثة ، القسم الانجليزى ، عمان ، ١٩٨٩م .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٥ .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٨٧ .

(٤) انظر : فجر السكة العربية ، ص٣٤-٣٥،٤٢-٤٧ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ص٢٩٦ .

فلن يقبل سكته الشعوب التى يتاجر معها ، بينما كان له الحرية فى نقش اسمه وصورته على العملة الفضية . وكان الروم يعدون ذلك مبدأ وقاعدة يجب احترامها ، لذلك عارض جستنيان سك عبد الملك عملته الذهبية على غير طراز الروم ، وألغى المعاهدة المبرمة مع المسلمين والتى وقعت سنة ٦٧هـ/٦٨٦-٦٨٧م لمدة عشر سنوات ، وقد تقرر فيها أن يدفع عبد الملك للروم اتاوة سنوية قدرها ألف قطعة ذهبية ، مقابل نقل الروم للجند الجراجمة من الشام الى أرض الروم ، فتجدد العداء بين الطرفين[(١)].

ولما استقرت أحوال الدولة الاسلامية زمن عبد الملك بن مروان خصوصا بعد القضاء على مناوئه عبد الله بن الزبير رضى الله عنه سنة ٧٣هـ/٦٩٢-٦٩٣م وبعد تقدمه نحو التعريب بخطوات تدريجية ، أصبحت الحاجة ماسة لوضع نظام ادارى موحد لكل الولايات الاسلامية التى توحدت من جديد فى ظل الدولة الأموية ، سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو المالية ، من أجل أن يتحقق للدولة الاسلامية استقلالها المالى ، وتحررها من النفوذ البيزنطى الاقتصادى ، ولضمان سلامة العملة ، وتوفير عوامل النمو الاقتصادى واستقراره ، وانتشار الرخاء ، والغاء ماسك قبل على أيدى بعض المناوئين للدولة الأموية كعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وقطرى بن الفجاءة الخارجى ، فقام عبد الملك بن مروان بفحص النقود والأوزان والمكاييل ، وضرب السكة العربية الاسلامية الخالصة سنة ٧٧هـ/٦٩٦-٦٩٧م فى دار الضرب بدمشق وقد جاءت خالية من التأثيرات الأجنبية كالشارات المسيحية والصور الآدمية وأوجب عبد الملك التعامل بها ، وألغى ماعداها من النقود الرومية وغيرها ومنع سك عملة على غير عملة المسلمين . وأنشأ دارا لضرب السكة[(٢)].

---

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة الاسلامية ، ص٤٧،٤٢-٤٣ .

(٢) انظر : عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٣٨-٣٩ ؛ حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص٣٣-٣٤،٥١-٥٥،٤٠-٤٦،٣٦ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛ انتساس الكرملى ، النقود العربية والاسلامية ، ص٤٠،١٠٠ ؛ وانظر أيضا :

Michael. L.Bates : Op. Cit. p. 195,206 .

ويرى عدد من المؤرخين أن السبب وراء سك عبد الملك بن مروان العملة الاسلامية الخالصة هو النزاع بينه وبين الامبراطور جستنيان حول مشكلة القراطيس(١).

ومن الباحثين من تلمس أسبابا أخرى متعددة(٢).

ويذكر المؤرخ البيزنطى ثيوفانس(٣)الذى كتب حولياته بعد سك عبد الملك العملة بنحو قرن من الزمان ، أن العملة التى سكها عبد الملك بن مروان ورفضها الامبراطور جستنيان ضربت قبل نهاية سنة ٧٢هـ/٦٩١-٦٩٢م ، أى بعد انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير واستعادته العراق فى شهر جمادى الأولى أو الثانية سنة (٧٢هـ/٦٩١م-٦٩٢م) ، حيث أن عبد الملك باستيلائه على العراق وقعت فى يده دور الضرب الهامة فى الكوفة والبصرة، فاستعان بمن فيها من العمال المهرة فى سك عملته الذهبية .

وبعد سك عبد الملك بن مروان العملة الاسلامية الخالصة ، ظلت تسك العملة الاسلامية حتى نهاية الدولة الأموية بدور الضرب فى دمشق والأردن وحمص وقنسرين وفلسطين(٤).

غير أن هناك من يذكر أن النقود الذهبية بعد التعريب لم يسمح الخليفة عبد الملك بن مروان بضربها فى غير مصر والشام ، فانحصر انتاج الدنانير العربية فى دار السك بدمشق والفسطاط(٥).

---

(١) انظر : عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٣٩-٤١ ؛ انستاس الكرملى ، النقود العربية والاسلامية ، ص٤١ ؛ وانظر أيضا :
Michael, L.Bares : Op. Cit, p.204-205 .

(٢) انظر : ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٩٣-٢٩٧ ؛ انستاس الكرملى ، نفس المرجع ، ص٤٣ .

(٣) Michael, L.Bares : Op. Cit, p.202 .

(٤) Michael, L.Bares : Op. Cit, p.201 .

(٥) عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٤٥ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٣٠٣ .

أمـا عن تعريب الدراهم ، ففى سنة ٧٩هـ/٦٩٨م ، أى بعـد سنتين من سك الدينار الذهبى الاسلامى الخالص ، سكت الدراهم الفضية الاسلامية(١). ولكـن ظهـور درهم عربى خالـص ضرب فى البصرة سنـة ٤٠هـ/٦٦٠-٦٦١م فى عهـد الخليفـة على بن أبى طـالب رضـى الله عنه ، أبطـل الظـن بأن الدرهم الذى ضرب سنة ٧٩هـ كان أقدم درهم عربى خالص(٢).

هـذا ويمكـن القـول بأن فترة الاصلاح المالى التى تحررت فى ختـامها السكة الاسلامية من التقليد البيزنطى والفارسى على يد عبد الملك بن مروان تمامـا استغـرقت مـن سنـة ٧٣ أو ٧٤هـ حتى سنـة ٧٧هـ/٦٩٢م أو ٦٩٣م حتى ٦٩٦م(٣).

وحين ظهـر الدينار الاسلامى الخالص احتلت الكتـابات العربية وجهى الـدينار واختفت الدنانير المصـورة ، وأصبحنا نقرأ فى هـامش الوجه ، عبارة "محمـد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الـدين كله" ، وفى المركز شهادة التوحيد "لااله الا الله وحده لاشريك له" ، وعلى الوجه الثانى فى الهـامش كتـب "بسـم اللـه ضـرب هـذا الدينر سنة سبـع وسبعين" ، وفى المركز كتب : "الله أحد الله صمد لم يلد ولم يولد"(٤).

ويرى محمد أبو الفرج العـش(٥)أن تعريب النقود الذهبية مـر بخمس مراحل نحو التعريب التام ، وتتبـع تدرج التعـريب بزوال الأثر المسيحـى المتمثـل فى شاراته ولغتـه ورسـومه ، ودخول الكتـابة العـربية والعبـارات الاسلاميـة والصور الممثلة لبعـض الخلفاء ، ثم جاء الـدينار العربى الاسلامى الخالـص ، كمـا تتبع مراحل تطـور النقـود النحاسية (الفلـوس البيزنطيـة) ، وقسمها الى ثمان مراحل ، انتهت بظهور الفلس العربى الخالص . وأن تعريب الـدرهم الفارسى التقى مع تعـريب العملة البيزنطية التـام فى نفـس الفترة .

---

(١) عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٤٧،٥١ ؛
Michael, L.Bares : Op. Cit, p.208 .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٣٠٣ .

(٣) عبد الرحمن فهمى ، نفس المرجع ، ص٥٢ .

(٤) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص٣٧ .

(٥) انظر : النقود العربية الاسلامية ، ص٢٧١-٢٧٥ .

وقد ذكرنا قبل[1]أن درهما عربيا خالصا سبق تعريب عبد الملك ، وأنه حدث سنة ٤٠هـ/٦٦٠-٦٦١م فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ووجه ذلك أن بعض الخلفاء والحكام ربما نجحوا فى ضرب عملة عربية خالصة ، غير أنها كانت محدودة وغير متكاملة ، لاتسد حاجة الدولة والأمة ، ولم يسع ضاربها الى الزام الناس بها ، والغاء ماعداها ، كما فعل عبد الملك . بينما يذكر ميشيل باتس[2]أن سك العملة فى بلاد الشام ، الذهبية ، والفضية ، والنحاسية (الفلوس) ، مر بثلاث مراحل ، الأولى : من سنة (٧٢-٧٤هـ/ ٦٩٢-٦٩٤م) ، وهى المرحلة العربية البيزنطية ، التى سكت فيها العملة على النمط البيزنطى ، والثانية : من سنة (٧٤-٧٧هـ/٦٩٤-٦٩٧م) خلت من النمط البيزنطى ، والثالثة : وهى عملة اسلامية خالصة من سنة (٧٧-١٣٢هـ/٦٩٧-٧٥٠م) وسبق هذه المراحل الثلاث سك عملة فى الشام على النمط البيزنطى .

ونحن نستطيع تقسيم سك العملة الاسلامية من حيث قيام نصارى الشام بسكها وخروجهم من العمل فى صنعتها على مرحلتين ، الأولى : عمل النصارى بسك العملة التى يتداولها المسلمون منذ فتح الشام حتى تعريب عبد الملك التام للسكة سنة ٧٧هـ/٦٩٦م ، سواء كان ماضربوه عملة بيزنطية مقلده لما اعتادوا ضربه قبل الفتح ، أو عملة بدأ العرب المسلمون الفاتحون يحاولون صبغها بالصبغة العربية الاسلامية وذلك بكتابة بعض العبارات الاسلامية عليها باللغة العربية ، ورسم صورة الخليفة عليها ، مع محاولة الغاء الأثر البيزنطى المسيحى . وهذه المرحلة لم تشر المصادر الى أن النصارى قاموا بصنعة السكة فيها ، لكن صفتها الموسومة بالنمط البيزنطى والأثر المسيحى يجعلنا ننسب صنعتها لنصارى الشام الذين ظلوا يعملون فى دور الضرب التى ورثها المسلمون بالشام بعد الفتح[3].

---

(١) انظر الصفحة السابقة .

(٢) Michael, L.Bares : Op. Cit, P.196 .

(٣) انظر قوله قبل : ص٢٩٨ .

أما العملة العربية الاسلامية الخالصة التى ضربها عبد الملك سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م فـان المصادر والمراجع لم تشـر الى دور لنصارى الشـام فى سكها ، كما أن صفتها وزوال النمط البيزنطى والأثر المسيحى فيهـا يدعونا للقول ، أنها ضربت بأيدى صناع من المسلمين ، وأن النصارى قد أقصـوا من دور السكة لما عـربت النقـود ، الا من أسلم منهـم . وقـد ذكرنا أن عبـد الملـك أفاد من الصناع المهرة الذين كانوا فى دور الضرب بالكوفة والبصـرة لما استولى عليها بعد القضاء على مصعب بن الزبير(١)، فاستعان بهم على سك عملته المعربة ، ونعتقد جازمين بأنهم كانوا من الموالى فكونوا مع مـن أسلم من نصارى الشام يدا مسلمـة عاملة استغنى بها عبد الملك عن النصارى . وكمـا أفاد المسلمون فى مرحلة الانتقال تلك من نصارى الشام فى سك العملـة ، والابقاء على دور الضـرب التى كـانت قائمة عنـد الفتـح ، فانهم أيضا أفـادوا مـن تطور صنعة السكـة التى وصل لها البيزنطيـون ، وذلك باستخدام الصنـج الـزجاجية بدل الحديدية لـدقتها كمـا كان يصنع البيزنطيـون(٢). ويبدو أن تعريب السكــة كان كتعريب الدواوين ، فانه وان كان قد حدث زمن عبد الملك من مروان فقـد أخذ استكماله وقتا بعـد عبد الملك ، وخصوصا فى الأقـاليم البعيدة عن مركز الدولة ، فيذكر أن النقـود ظلـت تضـرب فى المغـرب ويكتـب عليهـا بحروف لاتينية ذات معنى عربى ، أوائل القـرن الثانى الهجرى(٣). مما يعنى أن اليـد العاملة فى السكة هناك كانت من غير العرب حتى ذلـك الحين . غير أن تعـريب النقود وحرص الأمـويين على الـوزن الشـرعى لها(٤)، وضبطها والاشـراف عليها ، كان يتولاه من يتقن تلك الصنعة مـن المسلمين ، ولاشك أنهـم كـانوا مـن متنصرة العـرب الـذين أسلمـوا أو مـن دعـاهم اسلامهـم ووظائفهم الى تعلم العربية .

---

(١) انظر ذلك ، قبل : ص٣٠٥ .

(٢) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص٧٥ .

(٣) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص٦٧-٦٩ .

(٤) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص٧٦-٧٨ .

بقى لنا تعليق أخير ، وهو أننا وان سلمنا بأن الذين قاموا بسك العملة بالشام قبل تعريب عبد الملك لها سنة ٧٧هـ/٦٩٦م كانوا من نصارى الشام مع اعتقاد وجود بعض المسلمين بينهم ، لاستمرار سك العملة البيزنطية بالشام ، وبقاء الأثر المسيحى على العملات التى حاول الحكام السابقون لعبد الملك اضفاء الصفة العربية الاسلامية عليها ، فاننا لانقر أن تلك العملات التى ظهرت عليها صورة معاوية وعبد الملك من الدنانير والدراهم ، قد ضربت بأمرهما . وفيما يخص الدينار الذى نسب الى معاوية وعليه صورته ، فقد سبقنا الى نقده وأنكر صحة نسبته بعض الباحثين(١). أما فيما يخص مانسب الى عبد الملك فانه لايقبل أن يضرب عبد الملك تلك العملات وعليها صوره وقد أرخت سنة ٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧هـ/٦٩٣،٦٩٤،٦٩٥،٦٩٦م ، مع أنه كما رأينا قد بدأ حركة تعريب النقود منذ سنة ٧٢هـ/٦٩١-٦٩٢م ، وعمل تدريجيا على زوال الأثر المسيحى ، والتحرر من النمط البيزنطى . وكون هذه النقود قد وصلتنا فان وجودها حقيقة ، ولكن وجه ذلك عندنا أن ضرب تلك الصور عليها كان قد تم على يد العمال النصارى ، فهما منهم أن مايريده عبد الملك من التعريب هو ازالة الأثر المسيحى والبيزنطى ، ولكن بما يعادله من النمط العربى الاسلامى . وربما كانت تلك النقود قد ضربها الروم ونشروها فى دار الاسلام كنوع من الحرب الاقتصادية والسياسية ، فانهم كانوا يعلمون أن الاسلام يحرم التصوير(٢)، وأن المسلمين سيرفضون تلك العملة التى عليها صورة عبد الملك ، وبالتالى عدم الثقة فى عملته التى لمس الروم أن عبد الملك شرع فى الوصول الى اتمام تعريبها ، وبالتالى تمسك المسلمين بالعملة البيزنطية ، الى جانب مافى ذلك من اضطراب اقتصادى .

وكيف يمكن قبول القول بأن معاوية وعبد الملك نقشوا صورهم على تلك العملة مع علمهم بحرمانية التصوير فى الاسلام ، فى ذلك الوقت الذى

---

(١) انظر قبل : ص٣٠١-٣٠٢ .

(٢) حرم الاسلام تصوير ذات الأرواح ، انظر ماكتبناه حول ذلك ، قبل : ص

لازال المسلمون متمسكين بأهداب الاسلام بكل قوة وهم دعاته وحماته . ومما يصحح رأينا أننا سنجد أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/ ٧١٩-٧٢٤م) ، أصدر مرسوما أمر فيه بمحو الصور حتى من الكنائس المسيحية(١)، فهل سيكون يزيد بن عبد الملك أحرص على ذلك من معاوية رضى الله عنه وعبد الملك .

وقد سبق تعريب السكة والدواوين تعريب القراطيس والطرز ، غير أنا تناولناها بالدراسة حسب الأهمية والأثر ، وتعريب القراطيس والطرز يعنى ابطال شارة التثليث المسيحية وهى : "أبا وابنا وروحا قدسا" ، برمز التوحيد : "شهد الله أنه لااله الا هو" ، وكل أثر مسيحى على الطراز من ثوب وستر وغير ذلك ، فقد أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بابطال طراز الروم على القراطيس والطرز من ثوب وستر فى سائر الولايات الاسلامية ، والزام الصناع بذلك ، ومعاقبة من وجد عنده شىء من ذلك بعد أمره(٢).

ويفهم من الزام الصناع ذلك الابقاء عليهم مع الزامهم التعريب ، مع الاعتقاد الجازم بدخول العنصر العربى والمسلم فى تلك الصنعة للتعريب والمراقبة والاشراف .

ولم تقف حركة التعريب فى العصر الأموى على الدواوين والنقود ، فقد تجاوزتها الى تعريب الانجيل وبعض الكتب الدينية وبعض المكاتبات بين البطاركة وأهل ملتهم خارج الدولة الاسلامية ، ليطلع المسلمون عما اذا كان فى هذه الكتابات الدينية مايمس الاسلام وأهله بسوء(٣).

لقد اضطرت حركة التعريب نصارى الشام الى التخلى عن أعمالهم للعرب ومن يتقن العربية من المسلمين الأعاجم ، كما أدت الى تعلم بعضهم العربية للاحتفاظ بأعمالهم ، وقد ساعد ذلك على انتشار الاسلام .

---

(١) عن رسوم الخليفة يزيد انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٢٦٥-٣١١ .

(٢) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين ، ص٣٦-٣٨ ؛ عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية ، ص٣٩-٤١ .

(٣) حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص١٩٤-١٩٥ .

والحق أن حركة التعريب كانت تحريرا لادارة الدولة الاسلامية واقتصادها من النفوذ النصرانى ، سياسيا واقتصاديا ، ومن التأثيرات النصرانية العقدية واللغوية والفنية والتنظيمية .

الفصل الرابع
السياسة المالية تجاه نصارى الشام
في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* الجزية

* الخراج

* الأرزاق

* الضيافة

* العشور

الفصل الرابع
السياسة المالية تجاه نصارى الشام
في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

الاجراءات المالية التى اتخذها المسلمون تجاه نصارى الشام قائمة على أحكام الاسلام فى معاملة أهل الذمة عامة ، قرآنا وسنة ، وماجتهد فيه الصحابة رضوان الله عليهم ، من أوامر ومن أحكام تلبى الحاجات التى ظهرت ، وفعل الخلفاء الراشدين سنة متبعة . وهنا سنقتصر على ذكر سياساتهم المالية تجاه نصارى الشام ، تاركين ذكر السياسة المالية العامة فى معاملة أهل الذمة ، الا مادعت اليه حاجة البحث .

* **الجزية :**

فرض الله تعالى الجزية(١) على الذين لايؤمنون من أهل الكتاب(٢)، وقد أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب مثل نصارى

---

(١) الجزية من الجزاء ، وهى : حق فرضه الله تعالى للمسلمين على رؤوس أهل الذمة صغارا ، يضعها ولى الأمر على رقابهم ، ليقروا بها فى دار الاسلام ، ويكف عنهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين . (انظر : الماوردى ، الأحكام السلطانية ص١٢٤-١٢٥) . ويقول ابن القيم : هى الخراج المضروب على رؤوس الكفار اذلالا وصغارا . (انظر : أحكام أهل الذمة ، ٢٢/١) . ويقول عبد الكريم زيدان : الجزية جمعها جزى وجزى وجزاء ، وهى خراج الأرض ومايؤخذ من الذمى ، وهى عبارة عن المال الذى يعقد للكتابى عليه الذمة ، والجزية مالزم الكافر من مال لأمنه واستقراره تحت حكم الاسلام وصونه ، ويضيف زيدان :أن المراد بالجزية : هو المال المقدر المأخوذ من الذمى ، فهى ضريبة على الرؤوس يلتزم الذمى بأدائها الى الدولة الاسلامية فى ميعادها المعين متى ماتوفرت شروط وجوبها ولم يوجد مايسقطها . انظر : أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٣٧-١٣٨ .

(٢) انظر : التوبة ، آية : ٢٩

نجران [١]، ومن فى حكمهم مثل مجوس [٢] البحرين [٣]، كما أخذها الخلفاء الراشدون [٤]. فثبتت بالكتاب ، والسنة ، والاجماع . وأخذها من غير المسلم أمر مشهور ثابت فى شرع الاسلام ، وعليه انعقد اجماع الأمة [٥]، وسبب وجوبها عليهم عقد الذمة [٦].

وعقد المسلمون لنصارى الشام الذمة واشترطوا عليهم اعطاء الجزية ، وقد مر تقدير الجزية على أهل الشام بمرحلتين ، الأولى : عند عقد الصلح لكل مدينة إبان الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام ؛ والثانية : بعد أن سيطر المسلمون على بلاد الشام ، حيث نظم الخليفة عمر بن الخطاب الأمور الادارية والمالية لبلاد الشام . وظهر لى أنه أبقى أهل الصلح على ماصولحوا عليه ، وجعل على من فتحت أرضهم عنوة الجزية بقدر موحد على جميع

---

(١) قال الزهرى : أول ماأخذت الجزية من نصارى نجران (ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣/١) ؛ وانظر ماقدمناه عما فرضه عليه السلام عليهم ، قبل : ص١٠٤-١٠٥ .

(٢) المجوس : هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة ، وقيل المجوس فى الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات ، والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين والأيم والأين . القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، تفسير آية ١٧ سورة الحج ، ٢٣/١٢ ؛ والرازى ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، حاشية ١ ص١٢٠ ، قال فيها عن المجوس : اللفظة مرت قبل وصولها الى العربية بنقل من اللغة الفارسية الى الآرامية . والمجوس جيل معروف ، والمجوسية دين قديم وانما زرادشت جدده وأظهره وزاد فيه ، وهو معرب أصله منج كوش معرب مجوس ؛ وكان رجل صغير الأذنين كان أول من دان بدين المجوس ودعا الناس اليه ، فعربته العرب . والمجوسية نحلة ، وفى الحديث : "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه أى يعلمانه دين المجوسية" . ابن منظور ، لسان العرب مادة : مجس ، ٢١٣/٦-٢١٥ .

(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص٣٩-٤٠ .

(٤) انظر عهود الصلح التى تضمنت فرض الجزية على أهل الذمة بالشام زمن الخلفاء الراشدين ، قبل : ص١٧٩-١٨٧ .

(٥) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٣٨ .

(٦) عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع ، ص١٣٩ .

أهل بلاد الشام ، عدل به التقدير الأول الذى وضعه قادة الفتوح، وكان فى الغالب على قدر ماصولح عليه أهل المدن التابعين لها أو القريبة منهم .

ومن خلال دراستنا لعهود الصلح الأولى وماحوته عن شرط الجزية ، سواء فى النصوص المحفوظة أو المرويات الاخبارية عنها وجدت شبه اجماع على أن المسلمين صالحوا نصارى الشام على الجزية وجعلوا قدرها دينارا وجريبا(١)من طعام بر أو شعير عن كل حالم فى السنة أبدا ، ان أيسروا أو أعسروا . وأضاف البلاذرى : وخلا وزيتا . وقال ابن عساكر : دينارين وشىء من طعام . بينما قال ابن أعثم أربعة دنانير على كل محتلم ، ودينارين على نسائهم . مخالفين بهاتين المرويتين القدر الذى قال به الجمهور . وروى بعض المؤرخين أن البعض صولح على دينار وجريب والبعض على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص . كما تشير بعض المرويات الى فرض جزيةجماعية على أهل البلد مقدرة بقدر ثابت لايزاد ان كثروا ولاينقص ان قلوا . وذكر الواقدى وابن أعثم والبلاذرى أن المسلمين صالحوا بعض البلدان على أداء قدر من المال مقدم عند توقيع الصلح ثم يعطون الجزية سنويا(٢).

---

(١) الجريب : من الطعام والأرض مقدار معلوم ، فهو من الأرض عشرة أقفزة ، كل قفيز عشرة أعشار ، وقيل : الجريب من الأرض نصف الفنجان ، وهو مبزر الجريب المكيال المعروف ، والجريب المكيال : قدر أربعة أقفزة ، وقيل : الجريب قدر مايزرع فيه من الأرض .
انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : جرب .
يقول محمد ابراهيم البنا : الجريب بالمقاييس الحديثة ثلث فدان ، مصرى ، والفدان المصرى ٤٢٠٠,٦/٥ متر . انظر : حاشية (١) ، ص٨٧ من كتاب الخراج لأبى يوسف .

(٢) انظر : فرض الجزية على نصارى الشام ، وقدرها ، والعهود التى حوت ذلك ، والمصادر التى حفظت لنا تلك العهود ومروياتها ، وتوثيقنا لذلك ، قبل : عهود الصلح ، ص١٧٩-١٨٧ .

وقد رجحنا أن الدينار الذى فرضه المسلمون هو قدر جزية الرأس ، أما الجريب فهو قدر خراج الأرض(١). كما نرجح أن القدر الذى فرضه المسلمون على نصارى الشام بادىء الأمر هو دينار واحد لاكما ذكر ابن أعثم وابن عساكر ، لشبه الاجماع على ذلك ، ولأن له سابقة وهو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد فرض على أهل الذمة باليمن دينارا على كل حالم(٢).

يقول عبد العزيز الدورى(٣): ويلاحظ مما ذكر فى عهود الصلح الأولى مع بعض المدن كبصرى ودمشق وحمص أن المسلمين أخذوا من أهلها الى جانب الجزية مبالغ نقدية أو عينية لمواجهة نفقات المقاتلة ، وأنهم ردوها على أهل دمشق وحمص عندما استدعت ضرورة الحرب الانسحاب من تلك المدن . ومن صلح بصرى يتضح أن أبا عبيدة صالح أهلها على شىء من طعام وزيت وخل لمشتى المسلمين كاجراء مؤقت ، غير الجزية المقدرة بدينار وجريب كتنظيم ثابت . وهو يشير بالمبالغ النقدية التى ذكرها ، الى ماأورده الواقدى وابن أعثم من أن المسلمين صالحوا بعض أهل البلاد على قدر من المال نقدى وعينى عند توقيع الصلح غير الجزية السنوية(٤).

والصحيح أن عددا من المؤرخين أشاروا الى وضع مئة وسبعين ألف دينار على أرض أهل حمص خراجا(٥). وذكر البلاذرى أن المسلمين ردوا

---

(١) انظر قبل : ص١٧٩-١٨١،١٨٧-١٨٨ ؛ وبعد : ص٣٣٦-٣٣٨ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٣٤-٣٥ .

(٣) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٠-٤٦١،٤٦٥-٤٦٦ .

(٤) انظر قبل : عهود الصلح ، شرط الجزية ، ص ؛ عبد العزيز الدورى ، نفس المرجع ، ص٤٦١-٤٦٢ .

(٥) انظر : الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤١/٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٧٥-٤٧٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٨٧/٢ .

خراجهم عليهم لما انسحبوا الى اليرموك[١]. ولعل ذلك ماقصده الواقدى وابن أعثم ، غير أنهما خالفا غيرهما فى قدر ذلك الصلح وطبيعته .

وترى نجدة خماش[٢] تفسيرا آخر للخلاف بين المرويات على ماصولح عليه أهل البلد الواحد ، كما ورد حول صلح حمص ، بأن ذلك الخلاف يعود لتطور مراحل الفتح ، وأن كل رواية تمثل مرحلة من مراحله ، فترى أن رواية البلاذرى عن أبى مخنف بمصالحتهم على مئة وسبعين ألف دينار تمثل الصلح الذى عقده السمط بن الأسود الكندى معهم قبل فتح دمشق ، أما روايات تحديد الصلح بفرض الجزية والخراج وتقديره بدينار وجريب على البعض والبعض الآخر على قدر الطاقة فيمثل الصلح الذى تم بعد فتح دمشق .

وهو تفسير منطقى لكنه يخالف ماصرحت به كثير من المرويات[٣] أن الصلح على مئة وسبعين ألف لايمثل مرحلة سابقة لفتح أبى عبيدة لحمص بعد دمشق ، وانما ماصالح أبو عبيدة عليه أهل حمص بعد فتح دمشق . وهو مايعيدنا الى مايرجح لدينا من أن المسلمين صالحوا حمص على مئة وسبعين ألف أخذوها عند عقد الصلح ، اما أن تكون خراجا مقدما عند توقيع الصلح ، خارجا عن جزية الرأس وخراج الأرض الذى قدر عليهم سنويا بدينار وجريب للبعض منهم ، وعلى قدر الطاقة للآخرين . أو هو محسوب من الجزية والخراج ، ولكنه جبى مقدما للحاجة العسكرية . وقد أخذ من غيرها من المدن كبصرى ودمشق وغيرها[٤].

وقد صولح بعض النصارى على مضاعفة الصدقة بدل الجزية ، كما

---

(١) انظر قبل : ص٢٤٤ .

(٢) الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٣٧-٤٣٩ .

(٣) انظر : ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤١/٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٧٥-٤٧٦ .

(٤) انظر القول بأخذها من بصرى ودمشق ، فى الصفحة السابقة .

فعل عمر بن الخطاب مع قبيلة تغلب النصرانية فى الجزيرة[(١)]، وجرى على حكمهم من كان منهم فى بلاد الشام ، وغيرهم من نصارى تنوخ وبهراء . يقول الماوردى[(٢)]: "فان صولحوا على مضاعفة الصدقة عليهم ضوعفت كما ضاعف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مع تنوخ ، وبهراء ، وبنى تغلب ، بالشام"[(٣)].

وسبيل مايؤخذ من أموال بنى تغلب سبيل مال الخراج لأنه بدل من الجزية[(٤)]. لذلك عد أبو عبيد أخذ عمر الصدقةمضاعفة من بنى تغلب جزية وذلك عند حديثه عن أخذ الجزية من عرب أهل الكتاب ، فقال : "وقد فعل ذلك عمر ببنى تغلب"[(٥)].

كما كلف المسلمون بعض أهل البلاد بالتزامات أخرى مع الجزية والخراج ، فشرطوا عليهم اعانتهم بالميرة والعلافة واخراج الأسواق[(٦)]، وضيافة المسلمين يوما وليلة[(٧)].

وبعض هذه الالتزامات دعت اليه ضرورات الحرب وعدم الاستقرار ، كاخراج الأسواق فتوقفت بزوال دواعيها ، وبعضها أخذ صفة الدوام بعد

---

(١) أنف بنو تغلب بالجزيرة أن يعطوا الجزية صغارا وهم عرب ، وهددوا عمر بن الخطاب باللحاق بالروم ، فأخذ منهم الصدقة مضاعفة بدل الجزية على ألا ينصروا أولادهم ، فقبلوا . غير أنهم نقضوا العهد بتنصيرهم أولادهم ، وعزم على بن أبى طالب على قتالهم غير أنه مات قبل أن يتم له ذلك . انظر : أبو يوسف ، الخراج ص٢٤٩-٢٥١ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٣٦-٣٨ .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص١٢٦ .

(٣) تنوخ وبهراء من قبائل قضاعة القحطانية ، أما تغلب فهى من قبائل ربيعة المضرية نزارية عدنانية . انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٤٥٣،٤٤٠-٤٤١،٣٠٢-٣٠٧، ٤٨٣،٤٨٥-٤٨٦ .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص١٨٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص٣٦ .

(٦) انظر قبل : عهود الصلح ، ص١٨٩ .

(٧) انظر قبل : عهود الصلح ، ص١٩٠ .

اجراء تعـديل عليـه فى تنظيمـات عمـر الأخيرة ، فـالميرة دخلـت فى بند الأرزاق(١)، والعلافة مع الضيافة(٢).

وبعد أن سيطر المسلمون على بلاد الشام ، واستقـر الوضع فيها ، نظم عمـر بن الخطاب أمور الشام ، ومنها التـدابير المالية(٣)، وهذا التنظيم يمثـل المرحلة الثانية والثابتة لما استقر عليه وضع الجزية على نصارى الشام ، يقول الدورى (٤): وقـد استدعى هذا التنظيم احصـاء لسكان بلاد الشـام ، ويذكـر ميخـائيل السورى أن عمر بن الخطاب أمر باحصاء فيمـا يختص بجزية الرأس فى كـل أنحاء البلاد ، وأن ضـريبة الـرأس فـرضت على المسيحيين فى عـام (٦٣٩-٦٤٠م/١٨هـ) ، ويقول ثيوفانس أنه فى العام الثلاثين مـن حكم هرقل أمر عمر باحصاء السكان ومسح الأراضى فى كل البلاد .

ووجد عمـر فى تنظيمـه الأخير قـدر الجزية ، فجعلهـا على أهـل الشام (أهل الذهب)(٥)أربعة دنانير(٦)، وجعلهم طبقات لغنى الغنى ، واقلال المقل وتوسط المتـوسط(٧)أربعـة على الطبقـة العليـا ، وديـنـارين على الـوسطى ، ودينار على الدنيا(٨).

وأورد ابن عساكر رواية غير مسنده قال : "وقيـل : صالحوهم على من فيهـا مـن جمـاعة أهلها على جزية دنانير مسمـاة ، لاتزاد عليهـم ان كثروا ، ولاتنقص منهم ان قلوا"(٩).

---

(١) انظر بعد : ص٣٥٧-٣٦٠ .

(٢) انظر بعد : ص٣٦٥-٣٦٧ .

(٣) انظـر قيـام عمـر بتنظيم أمور الشـام ، قبـل : السيـاسة الادارية ، ص٢٣٣-٢٣٤ .

(٤) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٦ ؛ نجدة خماش ، الادارة ، ص٤٤٠ .

(٥) لتعاملهم بالدينار الذهبى البيزنطى .

(٦) انظـر : أبو عبيـد ، الأمـوال ، ص٤٩،١٩١-١٩٢ ؛ البلاذرى ، فتـوح البلـدان ، ص١٥٧،١٣٠-١٣١ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٦٨/١-٣٦٩،١٥٦ ؛ قـدامة ، الخراج ص٢٢٥-٢٢٦،٢٩٥ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣٣/١ .

(٧) البلاذرى ، نفـس المصـدر ، ص١٣٠-١٣١ ؛ قـدامة ، نفـس المصـدر ، ص٢٩٥ .

(٨) قدامة ، نفس المصدر ، ص٢٢٥-٢٢٦ .

(٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٨ .

وكان اليهود بالشام كالذمة للنصارى ، يؤدون اليهم الخراج ، فدخلوا فى الصلح معهم(١).

وليس للجزية قدر محدد ولاسنة لايتعداها المسلمون ، وانما هى على قدر الطاقة . يقول أبو عبيد(٢): فهذا عندنا مذهب الجزية والخراج ، انما هى على قدر الطاقة من أهل الذمة ، بلاحمل عليهم ، ولاضرر بفىء المسلمين ، ليس فيه حد مؤقت ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض على أهل اليمن دينارا والدينار يومئذ عشرة دراهم أو اثنى عشر درهما ، وهو دون مافرضه عمر على أهل الشام والعراق ، وانما زاد عمر عليهم بقدر طاقتهم ويسارهم ، ولو عجز أحدهم عن دينار لحطه من ذلك ، ولو علم عمر أن فى قدر الجزية سنة مؤقتة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتعداها الى غيرها .

وقد سئل مجاهد لم وضع عمر على أهل الشام من الجزية أكثر مما وضع على أهل اليمن؟ فقال : لليسار(٣). ويكفينا دليلا على حقيقة ثرائهم قول بطرس ضو فى ماكان عليه أهل الشام من الثروة واليسار ، يقول : "كان المجتمع المسيحى السورى فى القرن الرابع والخامس والسادس وأوائل السابع للميلاد على مستوى رفيع جدا من الثروة والغنى ورفاهية العيش ، ووفرة الوسائل المالية والاقتصادية" ، وأضاف : وكانت مصادر ثروتهم الزراعة والصناعة والتجارة(٤).

وتأكيدا لمبدأ القدرة فى تقدير الجزية كتب عمر فى أهل الذمة : "أن من لم يطق منهم فخففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه ، فانا لانريدهم لعام ولالعامين"(٥). وقد أشار معاذ على أبى عبيدة ألا يصالح قائده عياض بن غنم

---

(١) قدامة ، الخراج ، ص٢٩٥ .

(٢) الأموال ، ص٥١-٥٢ .

(٣) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥١ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣/١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

(٤) تاريخ الموارنة ، ٣٨٤/١ .

(٥) ابن منظور ، نفس المصدر والجزء ، ص٢٢٩ .

أهل الرها على مال محدد ، وانما على قدر الطاقة . وعلل ذلك بانه ان عجزوا عن الأداء ماكان للمسلمين قتلهم ولم يكن بد من ابطال ماشرط عليهم ، وان بروا فقد أدوها على غير الصغار الذى أمر الله به فيهم(١).

قال أبو عبيد : ويرى الحسن بن صالح وغيره ألا يزاد على مافرض عمر وان أطاقوا أكثر منها ، وينقص عنهم اذا عجزوا عن أدائها . وقال : والذى اخترناه أن عليهم الزيادة كما يكون لهم النقصان بزيادة عمر على مافرضه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وللزيادة التى زادها هو نفسه حين كانت ثمانية وأربعين درهما فجعلها خمسين عندما وجدهم يطيقون ذلك(٢).

والراجح أن عمر جعل قدر الجزية أربعة دنانير ، على من صولح على الجزية ولم يحدد قدرها عند الصلح ، وكذلك أهل الأرض الذين فتحت أرضهم عنوة ، وسائر أرض الشام فتحت عنوة ، فرفع عنهم السبى ، وأقرهم عمر على أرضهم التى أوقفها لعامة المسلمين ، ففرض عليهم الجزية . أما من صولح على قدر معين فانه أخذ منهم ذلك القدر الذى فى صلحهم ولم يزد عليهم . يقول أبو عبيد(٣) عن ابن شهاب الزهرى : "أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من أهل العهد ماصالحهم عليه ، لايضع عنهم شيئا ولايزيد عليهم ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر فى أمورهم ، فان احتاجوا خفف عنهم ، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم" . ولايحل لنا الزيادة على أهل الصلح المحدد بقدر معين لقوله عليه السلام : "انكم لعلكم تقاتلون قوما فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ، ويصالحونكم على صلح فلاتأخذوا منهم فوق ذلك ، فانه لايحل لكم"(٤). وقال : أنه يرى فى قوله لايضع عنهم شىء ماداموا مطيقين ، ولو

---

(١) أحمد بدر ، الدور الادارى للصحابة ، ص٣٨١ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٥٠،٥١ ، وانظر ، ص١٨٩-١٩١ .

(٣) نفس المصدر ، ص١٩٠ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٨٩،١٩٠ . والحديث لم أجده فى مظانه .

عجزوا خفف عنهم بقدر طاقتهم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم انما اشترط أن لايزاد عليهم ، ولم يشترط أن ينقصوا اذا كانوا عاجزين عن الوظيفة(١).

وبناء على ماتقدم يظهر جليا يسر قدر الجزية المفروضة وارتباطها بقدرة الذمي ، حتى لاتعجزه ولاتضر بفيء المسلمين ، واعفاء من عجز عنها بل وكفالة المحتاج من بيت مال المسلمين .

يقول الأزدي : كتب أهل دمشق الى هرقل : "والقوم - يعنون المسلمين - قد أعطونا الأمان ورضوا منا من الجزية باليسير"(٢).

أما وقت جبايتها في بلاد الشام فبعد حصد حصادهم وجمع غلاتهم ، جاء ذلك في عهد ايلياء(٣)، وماروى عن سعيد بن عامر بن خديم(٤)عامل عمر على حمص تأخير جباية الخراج الى غلاتهم رفقا بهم(٥).

وعن حديث ابن خديم ، قال أبو مسهر : "ليس لأهل الشام حديث في الخارج غير هذا"(٦).

وقال أبو عبيد : "ولم نسمع في استيداء الخراج والجزية وقتا من الزمان يجبى فيه غير هذا"(٧).

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩١ .

(٢) تاريخ فتوح الشام ، ص١٠٦ .

(٣) انظر نصه بعد : ملحق رقم : ٣ .

(٤) سعيد بن عامر بن خديم بن سلامان القرشي الجمحي من كبار الصحابة وفضلائهم أسلم قبل خيبر وهاجر فشهدها ومابعدها ، ولاه عمر بن الخطاب حمص بعد عياض ابن غنم ، وكان مشهورا بالخير والزهد ، أحبه أهل الشام ، ومات بها سنة ٢٠هـ وقيل سنة احدى وعشرين ، وهو وال على بعض نواحي الشام لعمر . انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٢/٤٨-٤٩ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٤-٥٥ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١/١٦٧ .

(٦) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٥ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

وذكر عبد الكريم زيدان أوقاتا أخرى لاستيدائها بشكل عام[(١)].

وتجب الجزية على الذكور المدركين ، وأسقطت عن الذرية من النساء والأطفال ، ومضت السنة بذلك وعمل به المسلمون ؛ فقد كتب عمر الى أمراء الأجناد : أن يضربوا الجزية على من جرت عليه المواسى ولايضربوها على النساء والصبيان ؛ كما جاء في كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى معاذ باليمن أن على كل حالم دينار ، فخص الحالم من الرجال دون النساء والأطفال ، وهو المحفوظ والمثبت عنه عليه السلام الذى لاذكر للحالمة فيه . أما ماروى فى بعض كتبه : الحالم والحالمة ، فوجهه أن يكون ذلك فى أول الاسلام اذ كان نساء المشركين وولدانهم يقتلون مع رجالهم . وقد كان ذلك ثم نسخ[(٢)].

ويضيف عبد الكريم زيدان : سقوطها عن المجانين ، والزمن ، والعمى ، والشيوخ الفانين ، والعبيد ، والفقراء ، والرهبان[(٣)].

وقد انتهج المسلمون الرفق بأهل الذمة فى جباية الأموال ، يقول ابن القيم : "ولايحل تكليفهم مالايقدرون عليه ، ولاتعذيبهم على أدائها ، ولاحبسهم وضربهم"[(٤)].

وتمثل الرفق بهم فى ألا يكلفوا فوق طاقتهم ، وألا يعذبوا فى جبايتها فقد أتى عمر بمال كثير من الجزية ، فقال انى لأظنكم أهلكتم الناس قالوا لا ، والله ماأخذنا الا عفوا صفوا . قال : فلاسوط ولانوط[(٥)]، قالوا : نعم ، قال : الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولافى سلطانى[(٦)].

---

(١) انظر عن ذلك : أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٤٢-١٤٣ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٥-٤٨ ؛ وانظر : ابن زنجويه ، الأموال ، ١٥٦/١، ١٥٧ .

(٣) انظر تفصيل ذلك فى : أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٣٩-١٤٢ .

(٤) أحكام أهل الذمة ، ٣٤/١ .

(٥) نوط : تعليق ، ومعنى حديث عمر : أى بلاضرب ولاتعليق (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : نوط) .

(٦) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٤ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٣٥/١ .

ويروى أن عمر رضى الله عنه فى طريق عودته من الشام مر بقوم قد أقيموا فى الشمس يصب على رؤوسهم الزيت يعذبون لعدم أدائهم الجزية فسأل : مايقولون ، قالوا : يقولون لانجد ، فأمر باخلاء سبيلهم وقال : لاتكلفوهم مالايطيقون ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لاتعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة"(١)(٢).

وماأورده ابن زنجويه(٣)أن أبا عبيدة بن الجراح تناول رجلا من أهل الأرض ، فكلمه خالد بن الوليد فقالوا لخالد أغضبت الأمير ، فقال : انى لم أرد أن أغضبه ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ان أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة ، أشدهم عذابا للناس فى الدنيا"(٤).

ولاأرى أبا عبيدة نال من ذلك الرجل الا فى أمر استحق العقوبة ، وهو أمين الأمة .

وماروى عن مرور سعيد بن زيد(٥)على قوم أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، يعذبون لعدم أدائهم الجزية ، فكره ذلك ، ودخل على أميرهم ، وقال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "**من**

---

(١) انظر تخريج الحديث قبل : ص١٣١ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥٨ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٣٧/١ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٦٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤٧/٢ .

(٣) الأموال ، ص١٦٥/١ .

(٤) خرج بلفظ آخر ، انظر قبل : ص١٣١ .

(٥) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشى العدوى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأمه فاطمة بنت بعجة الخزاعية كانت من السابقين الى الاسلام ، وهو من السابقين الى الاسلام ، هاجر وشهد أحدا والمشاهد بعدها ، ولم يكن بالمدينة زمن بدر لذلك لم يشهدها ، كان غائبا بالشام وأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم قبل عمر بن الخطاب ، وكان اسلام عمر عنده فى بيته ، وكان من فضلاء الصحابة شهد اليرموك ، وفتح دمشق ، مات بالعقيق وحمل الى المدينة ، وقيل توفى بالكوفة سنة ٥٠هـ ، وقيل سنة ٥١هـ ، وقيل سنة ٥٢هـ . انظر : ابن حجر ، الاصابة ٤٦/٢ .

عذب الناس عذبه الله"(١).

وماذكره أبو عبيد(٢)، عن هشام بن حكيم بن حزام(٣)مر على قوم يعذبون فى الجزية بفلسطين ، فقال هشام : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ان الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس فى الدنيا"(٤).

كما روى أن هشام بن حكيم بن حزام وجد عياض بن غنم وهو على حمص شمس أناسا من النبط(٥)فى أداء الجزية ، فقال له هشام ماهذا ياعياض؟ انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ان الله يعذب الذين يعذبون فى الدنيا"(٦).

وروى أن عياضا بن غنم رأى ذلك ، فذكر لصاحبهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم(٧).

غير أن أبا عبيد يقول : قال الزهرى عن عروة بن الزبير : ان هشاما هو الذى قال ذلك لعياض بن غنم(٨).

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥٧ . والحديث خرج بلفظ آخر قبل : ص١٣١ .

(٢) الأموال ، ص٥٣ .

(٣) هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد القرشى الأسدى ، كان فاضلا مهابا ، يأمر بالمعروف فى رجال معه ، واستشهد بأجنادين . انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٦٠٣/٢ .

(٤) خرج بهذا اللفظ ، قبل : انظر : ص١٣١ .

(٥) النبط : جيل ينزلون السواد ، وقيل : سواد العراق ، وفى الصحاح : كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين ، وسموا بذلك لاستنباطهم مايخرج من الأرضين ، وكان بالشام نبطها . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : نبط .

(٦) ابن زنجويه ، الأموال ، ١٦٤/١ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣٥/١ ؛ وانظر تخريج الحديث قبل : ص١٣١ بلفظ آخر .

(٧) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٣ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٦٤/١-١٦٥ .

(٨) نفس المصدر والصفحات .

وهـذه الأخبار تشير الى قيـام بعض الأمراء بتعـذيب بعـض أهل الذمة الـذين امتنعوا عن أداء الجزية . ويغلب على الظن أنهـم انما صنعوا ذلك الا لعلمهـم بقدرة أولئك الذميين على الأداء . ومـع ذلـك وجدوا مـن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نبههم الى حديثه عليه السلام بعذاب من يعـذب الناس ، ولعل بعضهـم لايعـرفه ، أو سمعه وغفـل عنـه ، أو قـاده اجتهـاده الى فعل ماصنع مع علمـه بالحديث(١). وهذا يدل على الرفـق بهم على أسـاس تقديم مبادىء الـدين الداعية الى السمـو والـرحمة على مصلحة المسلمين . ولاشك أنهم تركوا ذلك لأمر عمر باخلاء سبيلهـم ، وحسن الظن بصحـابة رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم ، الـذين اذا ذكـروا بأمـر اللـه ورسوله عليه السلام ، التزموا ماأمروا وانتهوا عما نهوا .

ومــن باب الـرفق بهـم تأخير جبـاية الأمـوال الى وقــت حصـادهم وحصول غلاتهم(٢).

وللتخفيـف عنهـم أيضـا كـان المسلمـون يأخذون العـروض فى الجزية ولايلزمونهم النقد ، أو بيع متاعهم ، وانما يقبلون ماقدموه بقيمته من الجزية وتلك سنة الرسول عليه السلام ، وفعل عمر وعلى(٣).

وقـد روى أن عمـر بن الخطـاب أمـر بختم رقاب أهـل الـذمة ، بقصد احصـائهم ، وضبط تقدير الجزية والخراج عليهم ، عنـدما يحشرون ، لفرض أو جباية ، حتى يعرف من تم احصاؤه ، أو أدى ماعليـه من سواه ، فروى

---

(١) أورد أبو عبيد رواية تبين أن عياضا بن غنم قد سمع حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم . اذ قـال لما نصحـه هشام بن حكيم : "قد سمعـت مـاسمعت ، ورأيت مارأيت" . انظر : الأموال ، ص٥٤ .

(٢) انظر قبل : وقت جباية الجزية ، ص٣٢١-٣٢٢ .

(٣) انظـر : أبو عبيد ، نفس المصـدر ، ص٥٥-٥٦ ؛ ابن زنجويه ، الأمـوال ، ١٥٧/١، ١٦٦-١٦٩ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٣٥/١-٣٦ .

عن أسلم مولى عمر : "أن عمر كان يختم فى أعناق رجال أهل الجزية"(١)، وأنه "كتب الى أمراء الأجناد أن يختموا على رقاب أهل الذمة"(٢)، وقد فعل ذلك حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف بأهل السواد(٣).

وفى رواية عن حبيب بن أبى ثابت ، أن عثمان بن حنيف ، ختم علوج السواد فى الجزية عندما حشرهم ، فلما فرغ من عرضهم ، دفعهم الى الدهاقين ، وكسر الخواتيم(٤). وعليه فان الختم غير دائم وانما هو عند حشرهم وعرضهم وفرض الجزية عليهم أو أخذها منهم ، ليعرف من أحصى ومن أدى ، ثم تكسر .

يقول ترتون : "لم يكن ختم رقاب الذميين على الدوام ، وقد ختم أهل السواد زمن عمر بن الخطاب ، كما أمر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص بختم رقاب أهل مصر فى وقت جباية جزية الرؤوس ، وليس من الثابت أن الختم كان يتعلق بدفع الخراج ، ولايتصور دوام الختم ، وليس لدينا دليل على استمراره ، بل يشير أبو يوسف ، أن ختم الأعناق كان يستعمل عند دفع الجزية ثم تكسر ؛ وقد ورد فى تاريخ سريانى أن مسلمة بن عبد الملك ، وموسى بن مصعب زمن المنصور ، وضعا الأختام على رقاب الرجال ، وهذا أمر شاذ ليس له مثيل ولم يكن قاعدة متبعة ، ويشير ساويرس بن المقفع فى كتابه سير البطارقة الاسكندرانيين مرة واحدة الى الختم ؛ ومن الحق أن لانحمل المسلمين وزر هذا العيب ، فقد كانوا مقلدين

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٦٣ ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٦٦ ؛ ابن زنجويه نفس المصدر ، ١/١٨٣-١٨٥ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٩ .

(٢) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/١٠٤ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢/٧٦٢ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص٨٩،٩١ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٦٣ .

للبيزنطيين ؛ غير أنه كانت تفرض غير هذه المعاملات ، ففى زمان سليمان بن عبد الملك وسم أسامة بن زيد عامله على مصر رهبان مصر فى يسراهم ، اسمه وديره وتاريخه ، وتشدد وعاقب من وجده بغير وسم ، وفى ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى على مصر زمن هشام بن عبد الملك أحصى نصارى مصر وختم رقاب الجميع من سن ١٢-١٠٠ ، ودونهم فى السجلات ومن لم يوسم عوقب بأشد العقوبات بتر اليد وغرامة كبيرة[١].

الجزية فى العصر الأموى :

فيما يخص الجزية المفروضة على نصارى الشام تفيد الأخبار بأن خلفاء بنى أمية لم يخرجوا عما كان عليه العمل زمن الخلفاء الراشدين ، ومايجوز لهم شرعا ، فاستمرت الجزية المأخوذة منهم على القدر الذى فرضه عمر بن الخطاب ، فلم يزيدوا عليهم ، ولم ينقصوها عنهم . فمعاوية أراد الزيادة على أهل مصر[٢]، وزادها عبد الملك على أهل الجزيرة[٣]، وزادها ولده هشام على أهل مصر[٤]. غير أنهم لم يفعلوا مثل ذلك على أهل الشام .

ويذكر جان موريس فاى (Jean Naurice Fiey)[٥]، نقلا عن ميخائيل السريانى ، أنه فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، قام أبو الأعور السلمى باحصاء الفلاحين المسيحيين الذين تجبى منهم الجزية فى كل بلاد الشام ، ولم تكن أخذت منهم من قبل . وقوله ان صح يدل على أن معاوية أعاد النظر فى قدر الجزية المفروضة على نصارى الشام ، زيادة أو نقصا ، أو لاحصائها - فى ضوء اسقاط من أسلم من نصارى الشام وكانوا كثر . ولكن

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٣٢ ؛ وانظر عن ذلك أيضا : نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٦٤-٦٥ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٠ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص٩٦-٩٧ .

(٤) صالح حمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٥ .

(٥) The um ayyads in syriac sources, p. 15 .

قوله فيه مالايقبل ، وهو القول بأن الفلاحين لم يكن قد أخذت منهم الجزية من قبل ، فقد أخذها المسلمون من كل الفئات والطبقات منذ الفتح وكما اتضح من تنظيم عمر بن الخطاب المالى لبلاد الشام ، إلا من كانت تسقط عنه من أهل الذمة(١).

كما يذكر أن يزيد بن معاوية عدل قدر الجزية وزادها على فئة محدودة من أهل الشام ، وهم اليهود السامرة فى الأردن وفلسطين ، ووضع على أرضهم الخراج ، وهم من غير النصارى . وقد كان أبو عبيدة قد صالح السامرة بالأردن وفلسطين وكانوا عيونا وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم(٢). ويبدو من النص أن أبا عبيدة لم يضع عليهم قدرا محددا من الجزية ، بل تركها على قدر الطاقة وقد نزلوا على الجزية ولم يسم عليهم شيئا ، وأسقط الخراج عنهم جزاء عونهم المسلمين . فلما كان عهد يزيد بن معاوية وضع الخراج على أرضهم ، وجعل على رأس كل واحد منهم بالأردن دينارين ووضع الخراج أيضا على أرضهم بفلسطين وجعل على رأس كل واحد منهم خمسة دنانير(٣).

وليزيد أو غيره حق الزيادة اذا كانوا يطيقون أكثر من ذلك ، والنقص اذا عجزوا عن القدر المفروض عليهم من الجزية ، وذلك اذا كانت قد فرضت عليهم على قدر الطاقة ، أو نزلوا على الجزية ولم يسم لهم عند الصلح قدرا معينا .

أما فى حالة مصالحتهم على قدر معين ، فانه لايجوز الزيادة ، ويجوز التخفيف عند العجز(٤).

وأما فرض الخراج على أرضهم ، فانه خروج على ماصولحوا عليه ، وقد فعله أبو عبيدة ، وأقره عمر ، وكان من الوفاء الالتزام به . وقد رأت

---

(١) انظر من كان المسلمون يسقطون الجزية عنهم من أهل الذمة قبل : ص٣٢٣ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٢ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٢-١٦٣ .

(٤) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص١٨٣-١٨٥ ؛ وانظر قول أبى عبيد فى ذلك ، قبل ص٣٢١-٣٢٢ .

نجدة خماش (١)أن المبلغ الذى فرضه يزيد يجمع جزية الرأس وخراج الأرض ؛ مع أن النص واضح أنه فرض الخراج على الأرض وبلاشك على قدر مثائلها فى الشام ، وفرض الجزية على أهل الأردن دينارين ، وعلى أهل فلسطين خمسة دنانير ؛ ويفيد البلاذرى أن أهل قرية بيت ماما بنابلس شكوا الى المتوكل عجزهم عن أداء الخمسة دنانير ، فجعلها ثلاثة(٢). مما يدل على أنهم كانوا مطيقين لها زمن بنى أمية . غير أن البلاذرى يذكر بأن عمر بن عبد العزيز كان لايزداد على أهل أيلة على ثلاثمائة دينار شيئا(٣). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد صالح صاحب أيلة على أن جعل له على كل حالم بأرضه فى السنة دينارا فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار(٤). وأرى هذا الخبر يفيد أن الخلفاء من بنى أمية غير عمر بن عبد العزيز كانوا يأخذون أكثر من ثلاثمائة دينار . ولعلهم كانوا يأخذون بزيادة عددهم عن العدد الذى كانوا عليه زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . ووفى بنو أمية للجراجمة باعفائهم من الجزية لما جاء فى صلحهم مع أبى عبيدة باسقاطها عنهم ، مع أنهم لم يستقيموا للولاة ، وخرجوا على المسلمين أكثر من مرة ، ومالئوا الروم ، وحاربوا معهم المسلمين ، بل أن الوليد بن عبد الملك الذى وضع نهاية لتمرد الجراجمة عن طريق قائده وأخيه مسلمة بن عبد الملك ، فأخرب مدينتهم وفرقهم فى البلاد ، اضطر لقوة شوكتهم الى عقد الصلح معهم على شروط كان منها مافيه مصلحتهم ، ومنها : "ألا يؤخذ منهم ولامن أولادهم ونسائهم جزية"(٥). غير أن بعض العمال أخذ من الجراجمة الذين نزلوا بانطاكية الجزية، فرفعوا ذلك الى الواثق ، فأمر باسقاطها عنهم(٦).

وقد قدمنا ترجيح أن ماأسقط عنهم كان جزية الأرض (وهى الخراج) لاجزية الرأس(٧).

---

(١) انظر قولها فى بحثها : الدواوين المركزية ، ص٨ .
(٢) فتوح البلدان ، ص١٦٣ .
(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٧١ .
(٤) البلاذرى ، نفس المصدر والصفحة .
(٥) انظر شروط صلحهم ، قبل : ص١٩١ .
(٦) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٦ .
(٧) انظر قبل : ص١٨١-١٨٧ .

ويبدو أن ذلك حدث فى العصر العباسى ، ولبنى العباس مواقف أخرى منهم[(١)].

والتزم عمر بن عبد العزيز ، أحكام الاسلام فى أمر الجزية ، فأمر بفرضها على من أطاقها ، واسقاطها عن العاجز عن أدائها ، وأن يجرى عليه من بيت مال المسلمين مايصلحه ، مستنا بفعل عمر بن الخطاب[(٢)]. وأن ترفع عمن أسلم[(٣)]، فليس على مسلم جزية ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفعل عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز[(٤)]. قال عمر بن عبد العزيز : "من شهد شهادتنا ، واستقبل قبلتنا ، واختتن ، فلاتؤخذ منه الجزية"[(٥)]، وكان اسقاط عمر بن عبد العزيز للجزية عمن أسلم من أجل أعماله ، فهو اقامة للدين ، ونشر لدين رب العالمين ، ورفع الظلم عمن أسلم من أولئك النصارى ، بأداء بعضهم الجزية بعد اسلامهم . قال أبو عبيد : "انما احتاج الناس الى هذه الآثار ـ الدالة على اسقاط الجزية عمن أسلم ـ فى زمان بنى أمية ، لأنه يروى عنهم ، أو عن بعضهم : أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا ، يذهبون الى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد : يقولون : فلايسقط اسلام العبد عنه ضريبته"[(٦)].

وقد تبين لى أن بعض العمال الأمويين منذ عهد الحجاج بن يوسف الثقفى فرضوا الجزية على من أسلم فى بعض ولايات الدولة الاسلامية الشرقية خاصة ، وللأسف عادوا لأخذها منهم بعد خلافة عمر بن عبد العزيز حتى أواخر عصر الدولة الأموية[(٧)].

---

(١) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٦ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٥٧-٥٨ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١/١٦٩-١٧٠ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص١٨٧ ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحات .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٩-٦٠ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٦٠ .

(٦) نفس المصدر ، ص٦٠ .

(٧) انظر تتبعنا لهذه القضية فى رسالتنا لنيل درجة الماجستير الموسمة بـ"الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك" ، ص٥٥٢-٥٦٤ .

وأخذ الجزية ممن أسلم أمر عظيم ، يقول يزيد بن أبى حبيب : "أعظم ماأتت هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال : قتلهم عثمان واحراقهم الكعبة ، وأخذهم الجزية من المسلمين" ؛ وقد روى عنه مايثبت أخذ بنى أمية اياها(١).

غير أن هذا البحث لم يقدم لى دليلا ولو واحدا أنها أخذت ممن أسلم من نصارى الشام . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز فرض على رهبان الديارات الجزية ، على كل راهب دينارين(٢). وأنه أمر باحصائهم ، فأحصوا ، وأخذت منهم الجزية ، وهى أول جزية أخذت من الرهبان(٣).

يقول أبو عبيد(٤): "ولاأرى عمر فعل هذا الا لعلمه بطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك لهم ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم" . والجزية لم تسقط فى الأصل عن الرهبان الا لانقطاعهم عن الدنيا ، وأن ليس عندهم مايملكونه فيؤدون منه الجزية ؛ أما اذا كانوا أهل غنى ويسار أخذت منهم الجزية(٥). وقد توافرت لنا بعض المعلومات أن أهل الديارات من الرهبان أضحى أهل ملتهم يوقفون عليهم الأوقاف ، ويجرون عليهم الأموال ، حتى عظمت أموالهم وثرواتهم ، ولعل ذلك كما قال أبو عبيد هو الذى دعى عمر الى أخذ الجزية منهم(٦).

ويخبرنا ابن القيم(٧)أن عمر بن عبد العزيز ألزم نصارى تغلب الجزية ولم يقبل منهم الصدقة ، يقول : "ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه أبى

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٠-٦١ .

(٢) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٦٣/١ .

(٣) صالح حمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص٥٢ .

(٥) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥٣-٢٥٤ .

(٦) انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٥٦٩ .

(٧) أحكام أهل الذمة ، ٧٨/١-٧٩ .

عليهم - أى تغلب - الا الجزية ، وقال : لاوالله الا الجزية والا فقد آذنتم بالحرب" ؛ وأضاف : ولعله رأى أن شوكتهم ضعفت ، ولم يخف منهم ماخاف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذى كان مشغولا بقتال الكفار وفتح البلاد ، فلم يأمن أن يلحقوا بعدوه فيقوى بهم ، وقد أمن عمر بن عبد العزيز ذلك ؛ وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لئن بقيت لهم لأقتلن مقاتلتهم ، ولأسبين ذريتهم ، فانهم نقضوا العهد ونصروا أولادهم ؛ وعلى هذا فلاتجرى هذه الأحكام التى ذكرها الفقهاء فيهم ، فانهم ناقضون للعهد ، ولكن العمل تم على جريانها عليهم ، فلعل بعض الأئمة جدد لهم صلحا ، على أن حكم أولادهم ، كحكم سائر أهل الذمة والله أعلم(١).

وان صحت هذه الرواية فانه قد أخذت الجزية منهم وممن ضوعفت عليهم الصدقة من نصارى العرب بالشام وهم تنوخ وبهراء(٢).

كما عدل عمر بن عبد العزيز الجزية المفروضة على نصارى نجران ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أجلاهم من نجران ، فنزلوا الشام والعراق ؛ فلما ولى معاوية بن أبى سفيان أو ابنه يزيد شكوا اليه تفرقهم وموت من مات واسلام من أسلم منهم ، فوضع عنهم مائتى حلة تتمة أربعمائة بالتى أسقطها عنهم عثمان رضى الله عنه ، فلما ولى الحجاج ، اتهمهم بممالئة ابن الأشعث ، فردهم الى ألف وثمانمائة حلة ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز شكوا اليه نقصانهم ، فأمر باحصائهم ، فوجدهم على العشر من عدتهم الأولى ، فرأى أن صلحهم جزية على رؤوسهم ، وليس على أرضهم ، وجزية الميت والمسلم ساقطة ، فألزمهم مائتى حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم ؛ فلما ولى يوسف بن عمر العراق أيام الوليد بن يزيد ، ردهم الى أمرهم الأول ، عصبية للحجاج(٣).

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٨/١-٧٩ .

(٢) انظر قبل : ص٣١٧-٣١٨ .

(٣) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٧٨-٧٩ .

*** الخراج :**

على غرار الجزية مر فرض ضريبة الخراج ببلاد الشام[١] بمرحلتين ، اجراء مؤقت خلال سير الفتوحات الاسلامية ، وتدابير مالية أخذت صفة الدوام فرضت فى تنظيمات عمر الأخيرة التى أعقبت نهاية الفتوح الشامية ، واستقرار الوضع فى بلاد الشام فى ظل الحكم الاسلامى . وقبل أن نخوض فى التفاصيل فإن ندرة المعلومات التى حفظتها المصادر عن ضريبة الخراج التى فرضت على أرض الشام جعل الصورة غير واضحة فى نظر بعض الباحثين ، وأوقعتهم فى آراء خاطئة ، وتقديرات جانبها الصواب ، ووضع فرضيات قائمة على الشك ، لااليقين ، واضطر بعضهم الى التعويل على ماورد عن الخراج فى سواد العراق ، وظن أن ماتم فى الشام شبيه بما اتخذ فى العراق ، مع أن فرض الخراج ومسح الأرض الخراجية يرجح أنه تم فى الشام قبل العراق[٢]. انظر ماتقوله نجدة خماش : "ان كل الروايات المتعلقة بالفتح بالشام تشير الى الأرزاق الى جانب الجزية ، ولاتوجد اشارات واضحة الى مافرض فى الخراج ، وربما كانت هذه الأرزاق تشكل الضريبة على الأرض فى هذه الفترة المبكرة ، كما أن الروايات المتعلقة بما فرض من الخراج بعد ذلك غير متوفرة ، ولكن استنادا الى رواية الماوردى التى تشير الى أن عمر بن الخطاب راعى فى كل أرض ماتحتمله فى الشام ، والى رواية يوردها أبو يوسف والتى تتعلق بالتعديل الذى حدث فى عهد عبد الملك ، نستنتج أن الاجراءات التى تمت فى الشام قد تكون شبيهة بتلك التى تمت فى سواد العراق..."[٣].

---

(١) الخراج ، ماوضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها . انظر : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٢٧ .

(٢) قدرت نجدة خماش تنظيم الخراج ، ومساحة أرضه بالشام قبل العراق ، انظر : الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص٤٤٥-٤٤٦ .

كما أن التعارض الظاهر بين بعض المرويات على ماتم عليه صلح بعض البلدان الشامية جعل البعض يحاول التوفيق بينها ، ورأى أن بعضها يشير الى ماصولحوا عليه أولا ، والبعض الآخر عما تم بعد التنظيم ، غير أنه وللأسف توصل الى آراء متضاربة أيضا ، ولم يصل الى نتائج مقنعة . فنجد عبد العزيز الدورى (١)يشير الى أن الصلح الأول مع أهل بصرى أخذ المسلمون فيه طعام لمشتى المسلمين ، وهو اجراء مؤقت لتموين المقاتلة ، ثم يشير الى أن بعض الروايات أفادت أن أهل بصرى صولحوا على : أن يؤدوا عن كل حالم دينار وجريب حنطة كل سنة ، وقال : "هذه الروايات تشير الى التنظيم الثابت لبصرى"(٢). بينما يذكر فى موضع آخر ماأورده البلاذرى عن الأوزاعى : "أنه فرض بموجب الصلح بادىء الأمر جزية قدرها دينار وجريب على كل جمجمة ، ثم جاء تنظيم الضرائب بعد سنة ١٦هـ"(٣). ثم يقول : "ومع أن عهود الصلح عقدت مع أحد الأمراء الأربعة ، خالد وأبى عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، الا أنها سارت على نهج واحد ، وهو فرض الجزية على أهل المناطق المختلفة ، وكانت الجزية ابتداء على دينار وجريب على كل جمجمة"(٤).

وبناء على ماتقدم نجد الدورى عد ماأخذه المسلمون من اشياء عينية ، هو ماصولح عليه أهل البلاد أولا كما تم فى بصرى ، وأن ضريبة الدينار والجريب تشير الى التنظيم الثابت ، ثم ناقض نفسه وقال : أن ضريبة الدينار والجريب هو قدر الجزية الذى فرضه المسلمون بادىء الأمر وليس فى التنظيم

---

(١) انظر بحثه : تنظيمات عمر بن الخطاب "الضرائب فى بلاد الشام" ، ص٤٥٩-٤٦٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص٤٦٠-٤٦١ [نقلا عن : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٣ ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٣٨/١ ؛ قدامة ، الخراج ، ص١٣٤ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، طبع دى خويه ، ٢١٢٥/١،٢١٢٧] .

(٣) نفس المرجع ، ص٤٦٢ [نقلا عن : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٤ ؛ قدامة ، الخراج ، ص١٣٨] .

(٤) نفس المرجع ، ص٤٦٥ .

الثابت الذى حدث سنة ١٧-١٨هـ/٦٣٨-٦٣٩م(١).

وبدراستنا لعهود الصلح وجدنا أن كثيرا منها يذكر أن المسلمين فرضوا الخراج على أرض بلاد الشام(٢). وذكرت بعض المصادر قدر الخراج الذى فرضه المسلمون على الأرض كما ذكرت قدر الجزية ، فقد أورد الطبرى(٣) عن صلح دمشق من رواية سيف قوله : "وكان صلح دمشق على المقاسمة ، الدينار والعقار ، ودينار عن كل رأس ، فاقتسموا الأسلاب ، فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد ، وجرى على الديار ومن بقى فى الصلح جريب من كل جريب أرض ، ووقف ماكان للملوك ومن صوب معهم فيئا" . وذكر أن صلح طبرية وبيسان على صلح دمشق ، وقال عنه : "وعن كل رأس دينار كل سنة ، وعن كل جريب أرض جريب بر أو شعير ، أى ذلك حدث"(٤).

كما ذكرت بعض المصادر(٥): أن المسلمين فرضوا على أهل حمص ضريبة جماعية على جميع أرض حمص ، وقدرها مائة وسبعين ألف دينار .

وقد أورد عبد العزيز الدورى رواية سيف عن صلح دمشق ، وطبرية وبيسان ، وقال : "ويبدو سيف هنا متأثرا بالأسلوب المتبع فى السواد فى فرض ضريبة محددة على الرأس ، وأخرى على وحدة المساحة من الأرض فاعتبر الدينار والجريب ضريبتين بينما هما ضريبة الرأس"(٦). بينما قال عن رواية لابن عساكر عن مصالحة خالد لأهل دمشق على دينارين وشىء من

---

(١) انظر : قبل : ص٢٣٣-٢٣٤،٣١٦،٣١٩ .

(٢) انظر ماورد عن الخراج فى عهود الصلح قبل : ص١٨٧-١٨٨ .

(٣) تاريخ الأمم ، ٤٤٠/٣ ، وانظر : ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٥٠ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٤٤/٣ .

(٥) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٦ ؛ ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤١/٢ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٧٥-٤٧٦ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٨٧/٢ .

(٦) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦١-٤٦٢ .

طعام : "اذ يشير القسم الأول منها ـ الدينارين ـ الى الجزية ، فى حين يشير القسم الثانى ـ وشىء من طعام ـ الى مافرض على الأرض فى الريف"(١). وكلاهما واحد فالشىء من الطعام فى رواية ابن عساكر يبدو أنه يعنى الجريب فى رواية الطبرى عن سيف ، ويعنى ماأورده البلاذرى عن بعض الرواة ، أن صلح دمشق : ألزم كل رجل دينار وجريب حنطة وخل وزيت(٢). غير أن ابن عساكر خالف الآخرين فى قدر جزية الرأس فجعلها دينارين على البعض وعلى قدر الطاقة على الآخرين(٣).

فناقض الدورى نفسه بنفسه ، كما أن قوله بأن الضريبتين هما ضريبة رأس ، رأى أورده بلاحجة تسنده . والنص صريح لايترك برأى لايقوم على سند . غير أن نجدة خماش بدت أكثر واقعية منه عندما عدت مافرض من طعام مع الجزية هى الأرزاق على غير يقين ، وظنت أن تكون هذه الأرزاق هى ضريبة الخراج ، اذ قالت : "فربما كانت هذه الأرزاق تشكل الضريبة على الأرض ـ أى الخراج ـ فى هذه الفترة المبكرة"(٤). ونحن نرجح صحة ظنها ، وهو أن مافرض مع الجزية والمقدر بجريب من حنطة أو شعير عن كل جريب أرض أى ذلك حرث ، وزيتا وخلا كما ذكر البلاذرى ، هو خراج الأرض لاكما يعتقد الدورى أن الطعام والنقد ضريبة واحدة هى الجزية . ذلك لأن عهود الصلح كما قدمنا ذكرت فرض ضريبة الخراج على أهل الأرض ، والنصوص التى ذكرها الطبرى بفرض جريب حنطة أو شعير عن كل جريب أرض واضح وصريح ، كما أن المصادر لاتقدر الخراج بشىء غير ماذكر مما يقوى رأينا بأن ماذكر هو الخراج كما صرحت به رواية سيف وذكرته الروايات الأخرى بدون تفصيل . ثم لو سلمنا جدلا أن الجريب ليس خراجا فأين ضريبة الخراج ، وقد صولح أهل البلاد على الخراج كما

---

(١) عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٢ .

(٢) فتوح البلدان ، ص١٣١ .

(٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ث٢٠٩-٢١٠ .

(٣) الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٥-٤٤٦ .

قالت عهود الصلح ، كما أن المسلمين منذ أن شرعوا فى فتوحات بلاد الشام اتخذوا اجراءا مؤقتا كما يبدو ، وهو ترك أراضى بلاد الشام بيد أهلها ، واقرارهم فيها، على أن تفرض الجزية على رؤوسهم ، والخراج على أرضهم مع أن تلك الأراضى فتحت عنوة ، فكانت غنيمة حكمها أن تقسم بين الفاتحين ، ويسبى أهلها . فأقر ذلك وهو مايشهد به الواقع ، وسار عليه الفاتحون ، وليس فى المصادر مايقول بغيره . وقد انتهج المسلمون اقرار أهل الأرض بأرضهم على أداء الجزية والخراج . فلاشك اذا أن الخراج قد فرض مع الجزية ويغلب عندى أنه ذلك الجريب الذى لازم الدينار ، والذى نصت رواية سيف بأنه على الأرض ، وأضافت عليه رواية البلاذرى الخل والزيت.

وقد اتخذ هذا القرار المؤقت كما يبدو لى على أثر فتح فحل (١)، عندما فتحت صلحا وسائر أرض الأردن عنوة ، فاختلف المسلمون فى أمرها ، فقالت طائفة : نقسمهم ، وقالت أخرى نتركهم ، على أن يقروا فى الأرض فيقوموا على عمارتها على أن يؤدوا الجزية ، فكتب بذلك أبو عبيدة الى عمر ابن الخطاب . فأجابه : أن رأيه أن يقر أهلها فى الأرض على عمارتها ، وتحمل الجزية عليهم ، ويكف عنهم السبى (٢). ولأن المسلمين كانوا حيال اجراء مؤقت ، فانهم لم يمسحوا الأرض ولم يقدروا الخراج بقدر ماتحتمله ، وانما أجروا أهل الأرض مجرى أهل المدن فيما صولحوا عليه (٣) من الجزية وجعلوا عليهم الخراج جريب طعام على كل جريب أرض ، حتى يتم الفتح ويتخذ المسلمون اجراء نهائيا تجاه تلك الأرض وأهلها .

---

(١) كان تاريخ فتح فحل سنة ١٣هـ . انظر قبل : ص١٤٩ .

(٢) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٤٠-١٤١ .

(٣) يقول أبو يوسف : "فأما القرى والرساتيق فان أحدا منهم لم يدع ولم يمتنع الا أن أهل كل كورة كانت اذا فتحت مدينتهم يقولون : نحن اسوة أهل مدينتنا ورؤسائنا" . انظر : الخراج ، ص٩٥ .

ويظهر أن ذلك الاجراء لم يرض بعض الفاتحين وعلى رأسهم بلال بن رباح رضى الله عنه[(١)]، وطالبوا الخليفة بقسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر[(٢)]، وقيل : كلموا فى ذلك أبا عبيدة بعد تمام الفتح فكتب به الى عمر[(٣)].

ويبدو أن ذلك جعل الخليفة عمر يفكر فى قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أشار عدد من الروايات أن الخليفة عمر بن الخطاب لما قدم الجابية من بلاد الشام أراد قسمة أرض الشام التى فتحت عنوة ، فأشار عليه معاذ بن جبل أن لايقسمها ويرى فيها مايجعلها تسع أول الناس وآخرهم[(٤)].

ويروى عبد الله بن أبى قيس أو ابن قيس الهمدانى أنه سمع عمر يكلم الناس فى قسمة الأرض بالجابية وقول معاذ له ، وأن الخليفة صار الى قول معاذ[(٥)].

---

(١) بلال بن رباح مولى أبى بكر ويكنى أبا عبد الله ، وكان من مولدى السراة ، ويقال : أنه حبشى ، وأمه حمامة ، كان رضى الله عنه من السابقين فى الاسلام الذين عذبوا فى الله ، قال عليه السلام : بلال سابق الحبشة شهد بدرا ، وشهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة ، أحد أول سبعة أظهروا اسلامهم ، وهو مؤذن رسول الله عليه السلام وأول من أذن ، شراه أبو بكر وأعتقه ، وخرج مجاهدا مع بعوث الشام ، حتى مات هناك . وكان موته سنة ٢٠هـ ، وفى وفاته أقوال ، أحدها بداريا ، وقيل : بدمشق .
انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣/٢٣٢-٢٣٩ ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ١/٣٤٧-٣٤٩ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٧٣ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٣-٢٣٤ .

(٣) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٤-٤٤٥ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٧٤-٧٥ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١/١٩٥-١٩٧ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٦ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٧٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١/١٩٥-١٩٧ .

ويظهر أن الاختلاف على ذلك جعل الخليفة يرجىء اتخاذ الأمر فيه ، فرجع المدينة ، وشاور الصحابة ، وتفيد عدد من المرويات ، أن عليا قد أشار عليه بايقاف أرض العنوة ، وكذلك معاذ وكان على رأى عمر أيضا عثمان وطلحة رضى الله عنهما[١].

كما استشار عددا من المهاجرين الأولين فاختلفوا فى أمرها ، ثم استشار عددا من الأنصار فوافقوه[٢].

ويذكر أن عمرا ظل يراجع بلالا ومن معه ممن يطالب بقسمتها وهم يكاتبونه ويراجعونه حتى يئس منهم ، فدعا الله أن يكفيه بلالا ومن معه ، فما حال عليهم الحول ومنهم عين تطرف[٣].

ويرجح أن عمر لما يئس منهم ودعا عليهم اتخذ قراره بعد مشورة أهل الحل والعقد فى المدينة دون انتظار موافقة من خالفه الرأى .

لكن متى كان ذلك؟

للأسف لم تحدد المصادر متى ناقش عمر قضية أرض الشام من مرات قدومه بلاد الشام وتاريخها . وفى عدد من الروايات لسيف عن خروج عمر الأخير إلى بلاد الشام سنة ١٧هـ/٦٣٨م - كما يرى - ذكر قيام عمر ببعض التنظيمات الادارية وغيرها ، ومنها فرض الأرزاق ، وتسمية الصوائف والشواتى ، وسد الفروج ، وتفقد أحوال الكور ، وتولية بعض العمال وعزل آخرين ، وقسمة المواريث[٤]، وقسمة الغنائم ، والأمر بالأعطيات[٥].

---

(١) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٨٦-٨٧ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٧٤،٧٥ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢٦٦ .

(٢) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٥ .

(٣) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٧٣ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ص٢٣٣ .

(٤) أرى المقصود مواريث شهداء الجهاد ، لامواريث من مات بالطاعون ، لأن قسمتها تمت فى قدومه الأخير .

(٥) انظر تلك الروايات لدى : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٣/٤-٦٦ .

ويظهر أنه خلط فى أخباره بين قدوم عمر الأول والأخير . فـانما كانت هذه الأعمال فى قدومه الأول بعد فتح بيت المقدس . ويدل على ذلـك ذكره لاستخلاف على على المدينـة ، ومـرافقة العباس عم الـرسول صلى اللـه عليه وسلم له ، وهذا كان عند قدومه الأول(١). غير أنه لم يشر فيها الى موضوع الأرض ، ومادار حولها ، أو فرض الجزية الموحدة .

ويظهـر أن مناقشة هذه القضية فى الجابية تمت فى قـدومه الأول ، لكنه رجع ولم يأخذ فيـه قرارا الا بعد ذلك ، بسبب مطالبـة بعض الصحابة بتقسيم الأرض بين الفاتحين . كما أن عمر فى قدومه الثانى نجدة لأبى عبيدة لم يجتمع بالقادة فى الجابية ، وكان قدومه الأخير بعد طاعون عمـواس ، وقد مات فيه أبو عبيدة ومعاذ(٢). والروايات تذكر أن معاذا هو الذى رد عمر عن قسمة الأرض ، فهذا يرجح أن ذلك الحوار تم فى قدومه الأول . لكن اتخاذ القرار النهـائى تأخر وقتا ليس بالقصير . ولعل الذى ساعد على تأخره محاولـة عمر أن يتم ذلـك عن رضى من يريد القسمـة الى جانب حوادث سنتى ١٧-١٨هـ/ ٦٣٨-٦٣٩م وهـى حصـر أبى عبيـدة ، وعام الرمادة ، وطـاعون عمـواس . ويبـدو أن عمـر حاول ارضـاء بلال ومـن معـه عنـد قـدومه الأخير سنـة ١٨هـ/٦٣٩م فلم يفلـح فكان دعـاؤه عليهم ، واصداره القـرار على أثر ذلك . ويصحـح ذلك عندنا أن بلالا مات سنـة ٢٠هـ/٦٤١م(٣). وفيـه دلالة على أن عمر اتخذ قراره مطلع سنة ١٩هـ/٦٤٠م ، بعد عودته من الجابيـة للمرة الأخيرة التى كـانت أواخر سنة ١٨هـ/٦٣٩م . ويقوى صحة التاريخ لهـذا القرار كما نرى ، تاريخ ميخـائيل السـورى لأمر عمر باحصاء النـاس ومسـح الأرض ، وهـو القائم بلاشك على قرار عمر بايقاف أرض العنوة فى الشـام وكذلك فى العراق ومصر ، بسنة ١٩-٢٠هـ/٦٤٠-٦٤١م ، وتاريخ ثيوفانس لأمره ذاك بسنة ١٩هـ/٦٤٠م(٤).

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠٧-٦١٣ .

(٢) ابن خيـاط ، تاريخ ابن خيـاط ، ص١٣٨ ؛ الطبرى ، نفـس المصـدر ، ٤/٦٠ .

(٣) انظر ترجمته قبل : ص٣٣٩ .

(٤) انظر قوليهما قبل : ص٢٣٢ .

وكـان رأى عمر أن تحبس عين الأرض وقفا على الفـاتحين وعـامة المسلمين ، خوفـا أن يأتى آخر النـاس ، وليـس لهـم شـىء ، وأن يتنـافس المسلمـون فيما بينهم على الميـاه ان قسمت الأرض بينهـم ، فأقر أهل الأرض فيهـا ، وجعلهـم ذمـة لارق عليهـم ، وضـرب على رؤوسهـم الجزية ، وعلى الأرض الخراج . ولم يقسم الأرض بين المسلمين ، وجعلها وقفا(١).

يقول أبو عبيد : تتابعت الآثار فى أرض العنوة حكمين : حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر اذ جعلها غنيمة فخمسهـا وقسمها ، وبذلك أشـار بلال على عمر فى بلاد الشـام بعد فتحها ، وكذلـك أشـار به الزبير بن العـوام على عمرو بن العاص بعـد فتح مصر . والحكـم الآخر حكـم عمر فى السـواد أن جعلـه فيئا موقوفـا على المسلمين مـاتناسلـوا ، ولم يخمسـه ، وهو الرأى الذى أشار به عليه على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل ، وكلا الحكمين فيه قدوة ومتبع ، وليس فعل النبى براد لفعل عمر ، ولكنه اتبع آية الغنيمة واتبع عمر آية الفـىء(٢). واختـار أبو عبيد رحمـه الله : النظـر للامام فى اختيـار أحد الحكمين ، وقـال عن عمر وهو يحدث بفعـل الرسول صلى الله عليـه وسلم فى خيبر ويقول : "لـولا آخر الناس لفعلـت ذلك" أن ذلك يبين أن هذين الحكمين جمعا اليه ، ولولا ذلك ماتعدى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرفها(٣).

وقـد استلـزم قرار عمر هـذا بشـأن أرض العنوة ، الـذى قضـى بعدم قسمتهـا وايقـافها الى تحويلهـا أرض خراجيـة ، وهذا استـدعى القيـام بمسح

---

(١) انظـر : أبو عبيـد ، الأمـوال ، ص٧٢-٧٤ ؛ البلاذرى ، فتـوح البلـدان ، ص٢٦٥-٢٦٦،٢٦٨، ٢١٩-٢٢٠ . (وقـراره شامل لكل من فتحـت أرضه عنوة ، فى العراق ، والشام ، ومصر) .

(٢) نفس المصدر ، ص٧٥-٧٧ .

(٣) نفس المصـدر ، ص٧٦،٨٠ . ولمعلـومات أكثر تفصيلا عن حكـم الأرض العنـوة . انظـر : أبو عبيد ، نفس المصـدر ، ص٦٩-١٢٢ ؛ الماوردى ، الأحكـام السلطانية ، ص١١٩-١٢٠ .

أرض الشام ، وتقدير الخراج عليها . وقد أفاد ميخائيل السورى ، وثيوفانس أن عمرا أمر باحصاء أهل الذمة فى كافة البلاد التى تم فتحها ، وكذلك مسح الأراضى المفتوحة ، ومنها بلاد الشام ، فى سنة ١٩هـ/٦٤٠م(١). وقد كلف رضى الله عنه بعض الرجال أهل الخبرة والدراية ، بالقيام بتلك العملية ، وقد قدمت المصادر معلومات جيدة عما تم فى سواد العراق(٢)، غير أنها للأسف لم تقدم لنا شيئا عن مسح أرض الشام ، ومن قام بذلك ، وماقدر عليها من خراج .

لكن الماوردى وأبو يوسف يقدمان نصين ، ممكن أن تلقى بصيصا من نور على ماقدر من خراج على أرض الشام . ثم أن من الممكن تلمس ملامح صورة الوضع فى بلاد الشام بمقارنته بما تم فى العراق ، ولاشك أن هناك تشابها فيما عومل به أهل البلدين ، وأرضهم ، اذ أن السياسة الاسلامية العامة واحدة ، وأن عملية المسح والتقدير فى كليهما تمت فى عهد عمر بن الخطاب وفى وقت متقارب ان لم يكن واحدا .

ونص الماوردى يبين القاعدة التى سار عليها المسلمون فى تقدير الخراج وهى : أن يضرب على الأرض بقدر ماتحتمله .

يقول الماوردى : فأما قدر الخراج المضروب فيعتبر بما تحتمله الأرض ، فان عمر رضى الله عنه حين وضع الخراج على سواد العراق فى بعض نواحيه قدرا معينا راعى ماتحتمله الأرض من غير حيف بمالك ولااجحاف بزارع ، وضرب عمر على ناحية أخرى غيرها غير هذا القدر ؛ ثم قال بالنص : "وعمل فى نواحى الشام على غير هذا" . فعلم أنه راعى فى كل أرض ماتحتمله ؛ لاختلاف الأرضين من ثلاثة أوجه : جودة الأرض ، ونوع الزرع ، ونوع السقيا ، ومنهم من عد وجها رابعا ، وهو : قربها وبعدها عن

---

(١) انظر أمر عمر باحصاء الناس ومسح الأراضى فى سائر البلاد ، قبل : ص٢٣٢ .

(٢) عن مسح السواد وتقدير الخراج على أرضه ، انظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص٧٢ ومابعدها ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥ ومابعدها .

البلدان والأسواق[١].

ونفهم من كلام الماوردى أن عمرا لما قدر على الأرض ماتحتمله ، قدر على الشام غير ماقدر على العراق ، وأن العراق نفسه قد حمل بعضه غير ماقدر على بعض نواحيه الأخرى .

أما نص أبى يوسف فانه عن اعادة عبد الملك بن مروان احصاء أهل الجزيرة واعادة تقدير الجزية على رؤوسهم والخراج على أرضهم ، بعد اعادة مسحها[٢]. يقول أبو يوسف : "ثم حمل على الأموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب دينارا ، وعلى كل مائتى جريب مما بعد دينارا ، وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب دينارا وعلى كلإ ألفى أصل مما بعد دينارا ، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب دينارا ، وعلى كل مائتى شجرة مما بعد دينارا ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم واليومين وأكثر من ذلك ، ومادون اليوم فهو فى القرب . وحصلت الشام على مثل ذلك ، قال : وحصلت الموصل على مثل ذلك"[٣].

وهذا يعنى أن عبد الملك قدر الخراج فى الشام بالنظر الى القرب والبعد ، ونوع الزرع وثمنه ولم يراع فى ذلك نوع الأرض ، ونوع السقيا ، وأنه جعل على الأرض القريبة ضعف ماعلى البعيدة . وقد عمل فى الشام كما عمل فى الجزيرة . لكن هل سار عبد الملك على الكيفية التى سار عليها عمر فى تقديره الخراج على الشام والجزيرة ، وانما أعاد احصاء أهل الجزيرة فزاد عليهم فى الجزية لتقديره أنهم يحتملون الزيادة[٤]، وأعاد مسح

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص١٢٩-١٣٠ .

(٢) الخراج ، ص٩٦-٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص٩٧ .

(٤) كانت جزية أهل الجزيرة التى فرضها عليهم عياض بن غنم دينارا ومدين قمح وقسطى زيت وقسطى خل ، فجعلها عبد الملك أربعة دنانير . انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٩٦-٩٧ .

الأرضين وقدر عليها نفس القدر السابق أو زاد عليه وبالكيفية الأولى ، وهو مانجهله . أم أنه غير الكيفية والقدر . ولانعلم يقينا أكان عبد الملك متبعا فعل عمر فيما صنع ، أم أنه مبتدعا ، ولكن بالنظر الى ماذكره الماوردى ، أن عمر عمل فى نواحى الشام غير ماعمل فى العراق ، وبالنظر الى أن كيفية عبد الملك القائمة على القرب والبعد ونوع الزرع ، تخالف ماعلمناه من فعل عمر فى السواد القائم على نوع الأرض ، والسقيا ، والزرع ، أو كما قيل : بفرض ضريبة خراجية موحدة بصرف النظر عن تلك الاعتبارات ، يجعلنا نرى أن عبد الملك متبعا لامبتدعا وانما أعاد التقدير بما يحتمله الناس والأرض فى زمنه ، ولعل قصد الماوردى فى عمل عمر فى الشام بغير ماعمل فى العراق ، النظر للقرب والبعد ، الذى اعتمده عبد الملك كما ذكر أبو يوسف ، والله أعلم .

وتقول نجدة خماش[١]: ويبدو أن هذه الفريضة ليست الخراج ، لقلتها ، وانما هى اضافة عليه ، ويؤيد ذلك عبارة أبى يوسف ، حملت الشام مثل ذلك ، وحملت الموصل مثل ذلك . وهى فرضية لاحجة عليها ، وحديثه عن الغاء قدر الجزية الأول ، وفرض قدر جديد واضح .

وتشير نجدة خماش الى أن مافرض فى الشام شبيه بما فرض فى سواد العراق[٢]، وفى قول الماوردى الذى ذكرناه[٣]رد على ذلك ، فانه أوضح أن عمر عمل فى الشام غير مافعل فى العراق .

ويقوى ذلك أن عبد العزيز الدورى قال : أنه لم تفرض على أرض الشام ضرائب ثابتة كالسواد ، لأن الزراعة فى بلاد الشام تعتمد فى الغالب على الأمطار لاالرى المنظم[٤]. فيظهر أن هناك تشابها فى القواعد ، كتحديد

---

(١) الدواوين المركزية ، ص٨ .
(٢) الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٤٦ .
(٣) انظر قوله فى الصفحة السابقة .
(٤) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٠ .

قدر الخراج بما تحتمله الأرض ، مع وجود الاختلاف فى الكيفية لاختلاف ظروف الأقاليم عن بعضها البعض .

ويذكر أن المسلمين أسقطوا الخراج عن بعض أهل الشام ، كالسامرة وأهل شيزر لحسن ولائهم للمسلمين ، وعونهم اياهم(١).

وتقدير الخراج على الأرض على قدر ماتحتمله ، فيزاد عليها وينقص عنها حسب الطاقة ان كانت فتحت عنوة ، أما الأرض التى فتحت صلحا ، فلاخلاف بين الأئمة أنه لايجوز تغيير ماستقر عليه الصلح(٢). وقد امتنع عمر ابن الخطاب من الزيادة على أرض أخبر أنها تحتمل أكثر مما عليها من الخراج ، وفاء بالعهد الذى صولح أهلها عليه ، فكان لاسبيل عليهم وراءه(٣).

وقد علمنا أن أرض الشام قد فتحت عنوة ، فأقرها عمر بيد أهلها ، وجعلها وقفا للمسلمين ، وحفاظا عليها فانه رضى الله عنه منع بيعها وشراءها ، فتشير عدد من الروايات الى منع عمر وعلى بيع أرض العنوة(٤). وكره بعض العلماء بيع أرض العنوة(٥)، بينما لم ير بعضهم بأسا فى بيعها(٦) أما أرض الصلح الخراجية فلم ير العلماء بأسا فى بيعها وشرائها باعتبارها ملك يمين أهلها(٧). ويرى أبو عبيد : أنها مادامت ملكهم ، ولهم حق بيعها ،

---

(١) انظر قبل : ص١٨٥،١٨٨ .

(٢) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص١٨٣-١٨٥ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص١٨٩-١٩١ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣١ .

(٣) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٩٠ .

(٤) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ص٩٩-١٠٠ ؛ يحي بن آدم ، الخراج ، ص٥٦ .

(٥) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٠٥-٢٠٦ ؛ يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٢٣،٥١-٥٢ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٦-٢٣٧ .

(٦) انظر : يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٢٣ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٦ .

(٧) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٠٥-٢٠٦ ؛ يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٢٣ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٦-٢٣٧ .

فانها اذا أسلم صاحبها تكون عشرية(١). وجماع القول فى اختلاف العلماء قول أبى عبيد : "فقد تتابعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج"(٢)، وقوله "فأرى العلماء قد اختلفوا فى أرض الخراج قديما وحديثا ، وكلهم امام الا أن أهل الكراهة أكثر ، والحجة فى مذهبهم أبين والله أعلم"(٣).

وكذلك قول قدامة : جماع القول أن بعض أهل النظر كره شراء أرض العنوة ، واجتمع الكل على اطلاق شراء أرض الصلح(٤).

وماجرى به العمل فى الواقع ، فى عهد الخلفاء الراشدين بما ذكر عن موقف عمر وعلى هو منع بيع أرض العنوة . وعليه فانهما لم يسقطا الخراج عن الأرض التى فتحت عنوة باسلام صاحبها . وكانا يخيرانه ببقائها تحت يده فتسقط عنه جزية رأسه ويؤدى الخراج ، أو يقبضها المسلمون(٥). واذا أجر الذمى أرضه لمسلم ، فالخراج عليه وليس على المسلم شىء(٦). وقيل : لمسلم أن يزكى زرعه بالعشر أو نصفه(٧). وقيل : ليس على الذمى خراج ولاعشر ولاعلى المسلم شىء(٨). أما المسلم اذا شرى أرضا خراجية ، فيلزم بأداء الخراج والصدقة(٩). أما الذمى اذا شرى الأرض العشرية من مسلم ، ففيها أقوال أربعة : أولا : تتحول أرض خراج ، ثانيا : يضاعف عليه العشر ، ثالثا : وقيل عليه العشر على حاله ، رابعا : ليس عليه شىء لاعشر ولاخراج

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص١٠٢ ، ونقله عنه : ابن زنجويه فى كتابه الأموال ، ٢٣٣/١-٢٥٦
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الخراج ، ص٢١٠ .
(٥) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١١١-١١٦،١٩٠ ؛ يحي بن آدم ، الخراج ، ص٥١،٥٧-٥٨ .
(٦) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص١٦٢-١٦٤ .
(٧) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص١٦٠ .
(٨) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٢٩ .
(٩) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١١٥-١١٦ .

ورجح أبو عبيدة القول الأخير(١).

وأرض الشام جلها خراجية ، لأن المسلمين غلبوا عليها عنوة ، الا نزرا يسيرا منها كان عشريا ، وأصله كما يقول مكحول : "كل عشرى بالشام فهو مما جلا عنه أهله ، فأقطعه المسلمون ، فأحيوه ، أو كان مواتا لاحق فيه لأحد ، فأحيوه باذن الولاة"(٢). أو مات عنه أهل قتلوا فى الحرب مع المسلمين ، فصارت تلك الأرض صوافى موقوفة على المسلمين ، ثم جعلها بعض الخلفاء قطائع ، حتى أقطعت جميعها ، وأول من أقطع منها فى الشام ، عثمان رضى الله عنه(٣). والصحيح ، أن أول من منح الاقطاع فى الشام عمر بن الخطاب ، تنفيذا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، باقطاع تميم الدارى أرضا بالشام ، واقطاعه قوما سألوه أرضا لمربط خيلهم بأرض اندركيسان فزرعوها ، فانتزعها منهم وأغرمهم لما زرعوا فيها(٤). ويبدو أنها مواتا ، فان عمر كان حريصا على الحفاظ على أرض الخراج ، فانه نزع ضيعة اتخذها عمرو بن العاص فى بيت جبرين بفلسطين(٥)، ويبدو أن أمره بألا يبتدر المسلمون فى الشام الى القرى ويتركوا المدائن ، كان حماية للأرض الخراجية ، لتبقى بيد أهلها فيؤدون عنها الخراج(٦).

والحكم فى الصوافى للامام(٧)، وانما تجوز فى عفو البلاد التى لاملك لأحد عليها ، ولاعمارة توجب ملكا لأحد(٨).

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص١١٦-١١٩ ؛ ونقل قوله ابن زنجويه ، الأموال ، ٢٦٣/١-٢٦٥ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص١٥٧ .

(٣) انظر لمعلومات أوسع : ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٩-٢٤٢ .

(٤) أحمد بدر ، الاقطاع فى بلاد الشام ، ص٣٦٩-٣٧١ .

(٥) أحمد بدر ، نفس المرجع ، ص٣٧٣ .

(٦) أحمد بدر ، نفس المرجع والصفحة .

(٧) يحي بن آدم ، الخراج ، ص٢٣ .

(٨) أحمد بدر ، نفس المرجع ، ص٣٦٩ .

والأراضى التى كانت بأيدى أبناء الصحابة وقالوا أنها كانت قطائع قديمة لآبائهم ، أصلها أن المسلمين لما صالحوا أهل دمشق وحمص كرهوا أن يدخلوها قبل ان يتم ظهورهم ، فعسكروا فى مرج بردى مابين المزه وبين مرج شعبان جنبى بردى ، وكانت مروجا مباحة ليست لأحد ، فأقاموا بها حتى قهروا المشركين وأذلوهم ، وأحيا كل قوم محلتهم وهيئوا فيها بناء فرفع ذلك الى عمر فأمضاه لهم ، وأمضاه من جاء بعده(١).

أما جملة الأموال المستحقة على أهل الذمة فانها تضبط فى ديوان الخراج ، فيسجل فيه مايرد من مال الفيء ، ومساحات الأراضى الخراجية ، وتدوين أهل الذمة بكل بلد ، وماستقر عليه عقد الجزية ، فان اختلف قدر الجزية باليسار والاعسار سموا وذكر عددهم ، ليختبر حال يسارهم واعسارهم كل عام ، وان لم تختلف جاز الاقتصار على ذكر العدد ، ويتابع ذلك فى كل عام ، فيثبت من بلغ ، ويسقط من دخل فى الاسلام ، أو مات واذا تحولت الأرض الخراجية الى عشرية أثبت ذلك فى الديوان حتى يسقط خراجها عن أهل القرية(٢)، وذكر الماوردى قيام ديوان السلطنة بما ذكرته نجدة عن الجزية(٣).

الخراج فى العصر الأموى :

خرجنا من دراستنا لما استقر عليه أمر أرض الشام ، وضريبة الخراج على أهلها زمن الخلفاء الراشدين ، بأن أرض الشام قد فتحت عنوة ، فلم يقسمها عمر بن الخطاب بين الفاتحين غنيمة ، وانما جعلها فيئا لعامة المسلمين وحبس رقبتها ، وتركها بيد أهلها ، وأقرهم فيها بعد أن رفع عنهم السبى على أن يؤدوا الخراج ، ثم أمر بمسحها وقدر الخراج عليها بما تحتمله الأرض ورجح عندنا أن ذلك التقدير تم على أساس قرب الأرض وبعدها ونوع

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٤٢ .
(٢) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٥٤ .
(٣) الأحكام السلطانية ، ص١٧٩ .

الـزرع وكميته وثمنه ، وقـد أمدنا أبو يوسف بنص عـن مسح عبد الملك ابن مروان أرض الشام كما عمل به فى أرض الجزيرة والموصل ، وأنه قدر عليها الخراج بما تحتملـه الأرض على قـدر القـرب والبعد ، ونوع الـزرع ، وعـدد أصـول الشجر وثمنه ، ورجحنا أن يكون عبد الملك أتبـع تقدير عمر ، وأن عمر قدر الخراج فى الشام على القرب والبعد ونوع الـزرع وثمنه ، وانما كان فعـل عبـد الملـك اعـادة لمسـح الأرض واعـادة التقـدير على نفـس القـاعدة السابقة(١). ولعلـه قـد قام بذلك رغبـة منـه فى زيادة الخراج ، لاعتقـاده أن الأرض تحتمـل أكثر مما كان يؤخذ منها ، أو تلبية للحـاجة الى اعادة المسح والتقـدير للأرض الخراجيـة ، لما أصـاب ضبط الخراج فيهـا مـن اضطراب ، بسبـب تقـادم الزمان على المسح الأول ، وتعـرض تلك الاقـاليم لآثار الفتن الداخلية ، وتعرض بعضها للاقطاع أو البيع . ولعل ذلك أصاب أهلها بشىء من الجور ، وتحملهم مالايطيقـون . ونستشـف من أمـر عمـر بن عبـد العزيز عامله على الكوفة أن يقوم باعـادة مسح أرض الكوفة وتقـدير الخراج عليهـا بما تطيق ، لما أصاب أهلها من شدة وجور(٢)؛ أنه لو كان قد رأى جور فى مسح عبد الملك لأرض الشام وتقديره الجديد للخراج عليها لسارع الى اعادة التقـدير ورفع الضيم ، فلم يكـن عمر بن عبد العزيز ليرفـع الظلم عـن البعيد ويدع القريب منه .

ويذكـر الصولى : "أن خراج الشـام على عهد عمـر بن الخطـاب رضى اللـه عنـه كان خمسمائة ألـف دينـار ، فلما أفضى الأمـر الى معـاوية قطـع الوظائف على أهل المدن ، فوظف على أهل قنسرين أربعمـائة وخمسين ألف

---

(١) انظر مناقشتنا لذلك قبل : ص٣٤٤-٣٤٥ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٥٧-٥٨ .

على الجمـاجم ، من ذلك الثلثان ، وعلى أهل دمشق أربعمـائة وخمسين ألف دينـار على الجماجم من ذلك الثلثـان ، وعلى الأردن مـائة وثمانين ألف دينار على الجمـاجم ، مـن ذلـك الثلثـان ، وعلى فلسطين مثـل ذلـك ، ثم جعـل يصطفى الأرض الجيدة ويدفعها الى الرجل بخراجها وعلـوجها ، والخراج على أصله لاينقص منه شيء"(١). وقد ذكر اليعقوبى(٢)قدر الخراج زمن معاوية ، دون أن يذكـر اعـادة التوظيـف أو التقدير ، ووافق الصـولى فى قـدره على بعض البلدان ، وخالفه فى قدر خراج فلسطين وجعله أربعمائة وخمسين ألف دينـار ، وذكر خراج حمص ثلاثمائة وخمسين ألـف دينـار ، وهو مالم يذكره الصولى .

ثم لم تبق الأرض الخراجية ببلاد الشام على حالها ، فمنها ماأسقط عنه الخراج ، ومنهـا ماتعرض للاقطـاع ، ومنها مابيع . فيـذكر أن معـاوية رضى اللـه عنـه كلم فى ناس من أهـل الـذمة فأسقط عنهم الخراج ولم يأخذ منهـم العشر(٣). لكـن الخبر لم يبين هـل تلـك الأرض بالشام أم لا . غير أن الخبر من الراجح أن يكون صحيحا ، لخبر آخر يسنده ، بأن الحسن بن على رضى اللـه عنـه ، كلم معاوية فى أهـل الحفـن وهى قرية مارية أم ابراهيم بن النبى صلى اللـه عليه وسلم بصعيد مصر ، فوضع عن أهلها الخراج ولم يأخذ منهـم العشر(٤). وعلـق المحقـق خليل محمـد هـراس(٥)، أن ذلـك يدل على أن للامام حق اسقاط الخراج عمن يرى اسقاطه عنهم .

بينما نجد يزيد بن معاوية يفرض الخراج على أرض السامرة فى الأردن وفلسطين وقد أسقط الخراج عنهم أبو عبيدة لعونهم المسلمين(١).

---

(١) مـاجدة فيصل زكريا ، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظـالم ، ص٢٣٨ [نقلا عن : الصولى ، أدب الكاتب ، ص٢١٦-٢١٧] .

(٢) تاريخ اليعقوبى ، ٢/٢٣٣-٢٣٤ .

(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٢٠ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢١ .

(٥) محقق كتاب الأموال لأبى عبيد ، انظر : حاشية (٣) ، ص١٢٠ .

(٦) انظر قبل : ص١٨٨ .

والحق أن أرض الخراج فى الشام لم تبق على مساحتها التى تمت بعد تمام الفتح زمن عمر بن الخطاب وماقدر عليها من الخراج . فانه لسؤال بعض الأمراء والقادة والأشراف الخلفاء أن يقطعوهم أراض بالشام ، ولهوى شخصى ، أو دواعى الحاجة اليهم ، وحرص الدولة على رضاهم واستمالتهم أو تقديرا لبعض الظروف التى أدت اليها الأوضاع السياسية كنزوح جملة من الأمويين الى الشام ، أو جماعات من الأعراب ، أو الرغبة فى شحن الثغور وترتيب المقاتلة فيها ، وغير ذلك من الأسباب ، دفعت الخلفاء الأمويين الى اقطاع أولئك القطائع وكانت فى البدء من أرض الصوافى . فلما انتهت تلك الصوافى ، اضطروا للاقطاع من الأرض الخراجية التى باد عنها أهلها ، فلما انتهت أذن بعض الخلفاء ببيع الأرض الخراجية ، ارضاء للأشراف الذين مازادتهم القطائع الا قوة وثراء وجاها ، فاضطرت الدولة الى الاستمرار فى ارضائهم ، باقطاعهم القطائع من أرض الشام والتى جاءت بأنواع مختلفة ومن مصادر متباينة ، وذلك بلاشك قد أثر على الأرض الخراجية ، وان كان قد ساعد على نمو الزراعة واستصلاح الأرض وعمارتها وعمل بعض الخلفاء على منع بيع الأرض الخراجية كعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك ، وحماية عوائدها ، الا أن جهودهم وان أثمرت وقتيا ، لم يكتب لها الدوام ، واستمر النيل من أرض الخراج حتى نهاية الدولة الأموية .

وفى بدء الأمر حرص الخلفاء الأمويين الأول ، معاوية ، ويزيد ، ومعاوية ، ومروان ، على الحفاظ على الأراضى الخراجية بالشام ، فلم يكن يقطع منها ولايؤذن ببيعها حتى عهد عبد الملك بن مروان ، فانه لما وجد أرض الصوافى بالشام التى كان الخلفاء يقطعون منها قد انتهت ، أقطع من الأرض الخراجية التى باد أهلها ، فلما تولى ولداه الوليد وسليمان أذنا ببيع

---

(١) عن الاقطاع وأثره على أرض الشام ، انظر : أحمد بدر ، الاقطاع فى بلاد الشام ، ص٣٦٨-٣٨٩ .

الأرض الخراجية على أن يدخل ثمنها بيت المال وأعانه اهل الخراج على دفع خراج سنتهم اذا لم تكن لديهم قدرة على دفعه ، وثبت ذلك فى الدواوين ، وأسقط الخراج عن تلك الأراضى وعن أهل القرى التابعة لها من النصارى وأصبحت هذه الأراضى عشرية . ولما استخلف عمر بن عبد العزيز ، أمضى تلك الأشرية ، لأن الولاة لم ينهوا عن بيعها ، ولاختلاط الحقوق فيها ، وأصدر أمرا سنة مئة هجرية بامضائها ، ومنع بيع الأرض الخراجية ، وأن من اشترى شيئا بعد سنة مئة فبيعه مردود ، ويعاقب البائع والمشترى برد الأرض الى النبطى وأخذ ثمنها وادخاله فى بيت مال المسلمين ، وسمى سنة مائة المدة(١).

ويذكر ابن زنجويه أن عمر بن عبد العزيز سأله عراك بن مالك أرضا بالبلقاء بما فيها من حق ، فأعطاه اياها عمر بذلها وصغارها ، وهذا كالكراء وليس الشراء ، يؤيد ذلك أن عمر بن عبد العزيز أعطى نعيم بن عبد الله أرضا من أرض السواد بجزيتها(٢). فعمر أعطاهما تلك الأراضى على أن يؤديا عنها الخراج ، ويبدو أنها من الأرض التى باد عنها أهلها ، فأقطعهما اياها ، على ألا تكون عشرية ، وانما كالكراء يؤديان عنها الخراج ، فان عمر كان يرى أرض الخراج فيئا ولهذا منع بيعها(٣). ولهذا أصدر أمره بذلك سنة مئة ، وأمر عماله بمنع ذلك(٤)، بل ومنع بيع آلة الزرع ، لئلا يبطل الخراج بعدم القدرة على الزرع(٥). وطبق أمر المنع ، فقد كتب اليه عامله على الغوطة أن بعض المسلمين قد ابتاعوا من أرض الخراج ، وهم يؤدون عنها العشر ، فكتب اليه : أن تلك أرض وقفها أول المسلمين على

---

(١) انظر : ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٩-٢٤٢،٢٣٥ .
(٢) الأموال ، ٢٥١/١ .
(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٢١-١٢٢ .
(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٢ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٦٨/١ .
(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٢ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

آخرهم . فامنع ذلك البيع(١). وسار يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك على نهجه ، فمنعا بيع الأرض الخراجية(٢). وقد رد هشام أرضا شراها خالد بن عبد الله القسرى من أرض الخراج ، وأغرم عامله على الغوطة أربع مائة دينار لبيعها دون اذنه ، وجلد وكيلى القسرى مئة مئة ، وأن يطاف بهما جزاء لمن اشترى أرضا بغير اذن أمير المؤمنين ، وذلك لما وجده من أمر عمر بن عبد العزيز بمعاقبة البائع والمشترى(٣). ثم اشترى الناس أشرية كثيرة ، حتى جاء المنصور العباسى وعدل ماكان بعد المئة على أمر عمر بن عبد العزيز(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز : "أيما قوم صولحوا على جزية يعطونها ، فمن أسلم منهم كانت أرضه لبقيتهم"(٥). وفى ذلك خلاف(٦). وكان يرى اذا وقعت الأرض الخراجية بيد المسلم أن يؤدى الخراج والزكاة(٧). لذلك كتب الى عامله على فلسطين ، فيمن كانت بيده أرض بجزيتها من المسلمين ، أن يقبض منها جزيتها (الخراج) ، ويأخذ الزكاة مما بقى بعد الخراج(٨). وأمر عمر فى المسلم يزرع فى أرض الخراج ، العشر والخراج ، وفى رواية : أن ميمون بن مهران كتب الى عمر بن عبد العزيز فى مسلم زرع فى أرض ذمى . فكتب اليه عمر : خذ من الذمى ماعليه أو ماعلى أرضه وخذ من المسلم مما حصل فى يديه العشر(٩).

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٥-٢٣٦ .
(٢) ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٩-٢٤٢ .
(٣) ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٥ .
(٤) ابن منظور ، نفس المصدر والمجلد والجزء ، ص٢٤٢ .
(٥) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠٤ ؛ يحي بن آدم ، الخراج ، ص٤٧ .
(٦) اختلف الفقهاء فى حكم ذلك ، فمنهم من يجعل أرض الصلح اذا أسلم صاحبها عشرية ، ومنهم من يبقيها خراجية ، انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٠٤-٢٠٦ .
(٧) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١١٤ .
(٨) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة .
(٩) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص١٦٢ .

وكان عمر بن عبد العزيز فى جل عمله متبعا أمر عمر بن الخطاب ، مبطلا لما أحدث من أعمال أهل الجور ، يقول مبشر بن أبى الفرات : "كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز ، فكنت أختم على بيادر[1]أهل الذمة ، فجاءنى كتاب عمر بن عبد العزيز ، أن لاتفعل ، فانه بلغنى أنها كانت من صنائع الحجاج ، وأنا أكره أن أتأسى به"[2].

وقد كان أمره هذا من حسن المعاملة ، والرحمة عند الجباية ، ويبدو أن جباة الخراج منذ زمن الحجاج كانوا يخرصون على بيادر أهل الذمة ، فيقدرون المحاصيل تقديرا تقريبيا غير دقيق ، وذلك عند جمع المحصول ، وبعد التذرية وعند جمع الخراج يحاسبونهم على ذلك التقدير التقريبى الذى غالبا مايكون أكثر من الواقع وفيه ظلما وجورا على أهل الذمة[3].

وكانت تتم عملية جباية الخراج وضبطه ، كما توضحها رواية لابن عساكر : أن كل قرية كانت مسؤولة عن دفع الخراج متضامنة ، فاذا أسلم الذمى أسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها اذا كان قرر ترك أرضه ، ولذلك كان من مهمات عامل الخراج على ماأعتقد ، مراعاة أهل الذمة فى كل عام لتثبيت من بلغ واسقاط من دخل الاسلام أو من مات ، كما أن كل أرض خراجية ، اذا تحولت لسبب من الأسباب الى عشرية ، يثبت ذلك فى الديوان ليسقط الخراج عن تلك الأراضى وعن أهل القرى التابعة لها من النصارى وأغلب الظن أن هذه التغييرات كانت تسجل وترسل الى ديوان الخراج المركزى فى دمشق ، اذ ليست لدينا اشارات الى وجود دواوين للخراج فى مراكز الأجناد ، بينما

---

(١) البيادر : جمع بيدر ، فسره الجوهرى بأنه الكدس من القمح ، وهو : الموضع الذى يداس فيه الطعام . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : بدر .

(٢) ابن الجوزى ، عمر بن عبد العزيز ، ص١٠٨ . وورد اسم عامله مصححا فى الحاشية "يزيد بن الفرات" .

(٣) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة ، ص٦٤ .

لدينا رواية أن الديوان المركزى فى دمشق كان يضم على الأرجح دواوين (سجلات) خراج قنسرين ، وحمص ، وفلسطين والأردن ، فيذكر الجهشيارى أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان حمص ابن أثال النصرانى ، وأنه قتل عندما خرج من ديوانه فى دمشق(١). ويقتصر عدم وجود دواوين خاصة بالخراج فى أجناد الشام لوقوعها تحت الاشراف المباشر للخليفة والديوان المركزى ، أما باقى الولايات فبها فروع للدواوين المركزية الموجودة بالعاصمة دمشق .

---

(١) نجدة خماش ، الأجناد وادارتها ، ص٢٩٩ .

* الأرزاق :

حرص المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى فى بلاد الشام على تأمين حاجة الجيش الاسلامى الفاتح من الأرزاق ومايلزم تموينه بالحاجات الضرورية .

فقد صالح المسلمون بعض أهل البلاد الشامية على شىء من الطعام ، وخل ، وزيت ، وميرة ، وعلافة ، واخراج الأسواق اليهم . وكان من ذلك مادعت اليه حاجة الجيش الطارئة ، وعدم الاستقرار ، فاشترطه المسلمون على أهل البلاد فى حينه ولكنه لم يأخذ صفة الديمومة ، فلم يكتب فى عهدهم ، وزال بزوال دواعى فرضه ، وذلك بانتهاء الفتوحات ، واستقرار المسلمين ، واجراء التنظيم المالى الثابت والزام الطرفين فيها بما لهم من الحقوق وماعليهم من الواجبات .

لقد أخذ المسلمون من أهل بصرى طعاما وخلا وزيتا ، فجاء صاحبها الى عمر وسأله أن يكتب عهده بذلك ، فكذبه أبو عبيدة وقال : انما صالحناه على شىء يتبع به المسلمون لمشتاهم ، ففرض عليهم عمر الجزية على الطبقات والخراج على الأرض(١). مما يدل على أن ماأخذ ليس الحق المالى الدائم للمسلمين على أهل الذمة ، وانما شرط فرضوه عليهم ، لحاجة الجيش اليه فى مشتاه ، ثم لايؤخذون به بعد ذلك ، وانما شرط الصلح المالى هو الجزية والخراج ، وهو الذى قرره عمر عليهم . وسار المسلمون على هذه السياسة لتوفير الميرة للجند والعلافة للدواب ، واخراج الأسواق للمسلمين ، ليشترى منها المسلمون مايحتاجونه من تموينات .

كما ورد فى رواية للواقدى(٢)، أن أهل حلب صولحوا على اعانة المسلمين بالميرة والعلافة واخراج الأسواق . والتزام أهل بعلبك باخراج

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٦-١٥٧ .
(٢) انظر قبل : ص١٨٩ .

الأسواق للمسلمين على أن لايدخلون عليهم مدينتهم[١]. والزام عمرو بن العاص أهل الأردن باخراج الأسواق اليهم[٢].

والحق أن هذه الشروط ، ربما كان الداعى لها ، حرص المسلمين على الاصلاح ، واراحة أهل البلاد ، وحماية أموالهم من معرة الجيش لينال مايحتاجه ، فكانوا يقيمون لأنفسهم المعسكرات خارج المدن أثناء سير الفتوحات ، اراحة لهم من مضايقة الجند لهم ، ويأمرونهم باخراج الأسواق اليهم ، ليتزدوا منها بما يحتاجونه عن طريق الشراء ، ويأخذون أرزاقهم الوقتية من أهل البلاد عن رضا ومصالحة . بينما كان بعضها كشرط ثابت فى عهد الصلح له صفة الدوام كما فى عهد دمشق[٣].

ويستند فرض الأرزاق والضيافة على سوابق من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما فى صلح نجران وأهل اليمن ، ودومة الجندل وتبالة وجرش وأيلة[٤]. فلما خرج المسلمون من الجزيرة العربية كانت تلك الفروض أكثر ضرورة لتموين الجيش فى بلاد بعيدة عن مركز دولته التى لاتملك القدرة على تموين جندها بكل مايحتاجه[٥].

وبعد أن استقر أمر الشام ، ونظم عمر شئونها ، كان من الاجراءات المالية التى اتخذها ، أنه فرض على نصارى الشام مع الجزية أرزاق المسلمين .

فعن أسلم : أن عمر ضرب الجزية على أهل الشام ، أو قال : أهل الذهب ، أربعة دنانير ، وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين ، وثلاثة اقساط

---

(١) انظر قبل : ص١٧٨ .

(٢) ابن أعثم ، الفتوح ، ١/١٨٠ .

(٣) انظر قبل : ص١٧٠ ومابعدها ، وبعد : ملحق رقم : ١ ؛ وانظر أمثلة أخرى على مافرضه المسلمون خلال سير الفتوحات قبل تنظيم عمر الأخير ، عند : فالح حسين الفروض العينية (الضيافة والأرزاق كمصدر لتمويل جيش الفتح) ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، م٢ ، ص١٨٢-١٨٤ ؛ نقولا زيادة ، تموين الجيوش العربية ، ص١٧٢ .

(٤) فالح حسين ، نفس المرجع ، ص١٧٥-١٧٨ .

(٥) فالح حسين ، نفس المرجع ، ص١٧٨ .

زيت ، لكـل انسان كل شهر ، ... ، قال : ولاأدرى كـم ذكر من الودك(١) والعسل(٢). ويروى أن ذمـة الشـام شكـوا لعمـر أنهـم لايجدون مـايرزقونه المسلمين مـن العسل ، وأن عنـدهم شرابا يصنعونه مـن العنب شبه العسل ، فأذن به عمر(٣).

ويذكـر فالح حسين(٤)أن عمـرا فرض الأرزاق على نصـارى الشـام لما زار الجابيـة ، وأخذ على أمـراء الشام ضمان تلك الأرزاق لقـوت المسلمين ، ولم يزل ذلـك الـرزق الـذى فـرض لـرفق المسلمين مستمـرا حتى قطعـه ولاة السـوء . ويذكـر أن عمـر قـدرها على قـدر مـاكان يأخذه الـروم مـن أهـل الشام(٥).

وهذه الأرزاق تكليف جماعى على أهل القرية جميعـا ، وفرضت على أهل القرى دون أصل المدائن لأنهم أصحاب الزرع والمحاصيل(٦). وأوجد عمر من أجل ذلك الأهراء(٧)، تجمع فيها الأرزاق ثم توزع على المسلمين ،

---

(١) الـودك : الدسم ، وقيل : دسـم اللحم ودهنه الذى يستخـرج منه . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ودك .

(٢) أبو عبيـد ، الأموال ، ص٤٩،١٩١ ؛ ابن زنجويه ، الأمـوال ، ١/١٥٦-١٥٨،٣٦٨-٣٦٩ (وفى رواية قـال : وأربعـة أقسـاط مـن زيت . وأضـاف فى رواية ، قـوله : والكسوة التى كان أمير المؤمنين يكسوها الناس . ولم يقل بذلك غيره . وفى رواية أخرى قال : فرضت على أهل مصر . ولعله الصحيح) ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ١/١٣٠،١٥٧ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٢٦ ؛ ابن القيم ، أحكـام أهل الذمة ، ١/٣٣ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) أحمد بدر ، الدور الادارى للصحابة ، ص٣٩٥ .

(٤) فالح حسين ، الفروض العينية ، ص١٨٥-١٨٧ .

(٥) انظر قبل : ص٢٦٤ .

(٦) فـالح حسين ، نفـس المرجع ، ص١٨٦ ؛ نجدة خمـاش ، الادارة ونظـام الضـرائب ص٢٤٢ .

(٧) الاهـراء : المخازن ، وقال فـالح حسين : جمع هرى وهى مـأخوذة من اللاتينية ، ويبـدو أنهـا عربت فى فترة الاسلام ، وأصلهـا Huriun أو Horreum . انظر : نفس المرجع ، ص١٨٩ .

وقد ولاها عمر سنة ١٧هـ/٦٣٨م فى الشام رجلا يدعى عمر بن عنبسة السلمى [١]. وكانت تجرى شهريا بانتظام وتوزع على المسلمين كل شهر بانتظام ، وقد أفادت البرديات أن الأرزاق ظلت تجبى حتى نهاية القرن الأول الهجرى [٢].

الأرزاق فى العصر الأموى :

وفى العصر الأموى استمر فرض الأرزاق ، وأخذها على القدر الذى فرضه عمر ، وان كان قدامة [٣]، والبلاذرى [٤]وهو يتحدث عن الجزيرة ، بعد أن ذكر فرض الأرزاق قال : ثم خفف عنهم ، وروايتهما توحى بالغاء الأرزاق ، فان الوثائق البردية تثبت أن ضريبة الأرزاق استمرت طوال العصر الأموى ومابعده الى أمد بعيد . يقول فالح حسين [٥]: ان بعض المصادر توحى بالغاء الأرزاق ، ومن ذلك ماذكره قدامة أن ذلك كان فى أول الأمر ثم رفع عنهم وأراه صار فى الخراج الواجب ، وماأورده البلاذرى أن ذلك فرض لرفق المسلمين بالجزيرة ثم خفف عنهم نظرا من عمر للناس ، مما دعى البعض الى القول باعادة النظر فى جبايتها ، والصحيح أن الأرزاق لم تلغ ، واستمر أداؤها حتى نهاية القرن الأول بالتأكيد . ويستشهد بقول (DegoeJe) أن اصلاح عمر المقصود هنا هو اقرار الأرزاق بعد أن كان الأمر دينارا وجريبا جعله عمر جزية الطبقات والأرزاق وكذلك مانفيده من البرديات الأموية التى تتحدث عن الأرزاق فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى واستمرار فرضها وجبايتها .

---

(١) فالح حسين ، الفروض العينية ، ص١٨٨-١٨٩ ؛ أحمد بدر ، الدور الادارى للصحابة ، ص٣٨٠ .

(٢) فالح حسين ، نفس المرجع ، ص١٨٥،١٩١ .

(٣) الخراج ، ص٢٢٦ .

(٤) فتوح البلدان ، ص٢٨٢ . وقد ذكر فى ص١٧٨ ، أن معاوية أدخل الأرزاق فى الجزية أى جعلها نقدا ، ولعله التخفيف الذى أراده ، وليس الالغاء .

(٥) نفس المرجع ، ص١٨٩-١٩١ .

كما ذكر الدورى [١]، أن برديات نصتان ، من العصر الأموى (بين سنة ٥٤-٥٧هـ/٦٧٣-٦٧٧م) ، تشير الى جباية أرزاق المقاتلة ، فريضة عينية ، وهى مديان من القمح وقسطان من الزيت على كل رجل ، الى جانب الجزية النقدية ، وأنها كانت تجبى كل شهرين ، وقد تتأخر ، فتجبى الأرزاق لشهرين بالنوع ، ولشهرين تليها بالنقد ، وفق الثمن الذى تقدره الادارة لتلك الأرزاق . ويقول فالح حسين [٢]: أننا نجد الشىء نفسه فى مصر ، وهو فرض الأرزاق العينية ، اضافة للنقد ، وأن بردية عربية تعود الى سنة (٧١٠م/٩١-٩٢هـ) تفيد فرض الأرزاق العينية ، والأمر بجبايتها ، وهو دليل على أن فرض الأرزاق بعد استقرار الفتح على يد عمر استمر بانتظام ، وكان يوزع على الجند بانتظام كل شهر .

وقد كان عمر قد فرض الضيافة [٣] مع الأرزاق ، واستمر أخذها الى مابعد العصر الأموى ، فقد ذكر مؤلف سريانى أن المأمون أصدر أمره بتخليص النصارى من واجب تهيئة المأوى فى بيوتهم للجنود ، وذلك دليل على صحة من قالوا كابن القيم ، باشتراط المأوى الى جانب الأرزاق والضيافة واستمرارها حتى زمن المأمون [٤]. والأصل وجود الشرط ، وهذا الخبر يدل على بقائه حتى زمن المأمون .

ومما يؤكد استمرار فرض الأرزاق فى العصر الأموى ومابعده أن عبد الملك بن مروان لما ابتنى حصن المصيصة سنة ٨٤هـ/٧٠٣م على يد ابنه عبد الله بن عبد الملك ، وشحنها فى سنة ٨٥هـ/٧٠٤م ، وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هريا [٥]. وماذكره البلاذرى أيضا عند حديثه عن تمرد أهل حمص

---

(١) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٧ .
(٢) الفروض العينية ، ص١٨٥ .
(٣) انظر بعد : ص٣٦٣ .
(٤) فالح حسين ، نفس المرجع ، ص١٨٠ .
(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٩ .

زمن المعتصم العباسى ، وأن الجيش أوقع بأهلها ، ودخلها عنوة سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م ، وكان فيها خلق من النصارى واليهود ، حيث قال :"وبحمص هرى يرده قمح وزيت من السواحل وغيرها مما قوطع أهله عليه ، وأسجلت لهم السجلات بمقاطعتهم"(١). والنص صريح وواضح بفرض ضريبة الأرزاق وجمعها من الكور فى هرى بجند حمص ، حتى يتم تقسيمها على مستحقيها .

---

(١) فتوح البلدان ، ص١٤٠ .

* الضيافة :

أصل فرض الضيافة على أهل الذمة من السنة ، ممثلة فيما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بشرطه على نصارى نجران ضيافة رسله ، وفعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه(١).

فكانت الضيافة من الأمور التى اهتم بها قادة الفتوح فى بلاد الشام ، وتبين من دراستنا لعهود الصلح الأولى التى أعطيت لنصارى الشام أن الضيافة كانت شرطا فى عدد من تلك العهود ، ومنها عهد : حمص وتدمر وديرطايا ودير الفسيلة ، وقد حددت فيها بيوم وليلة ، أو دون تحديد(٢).

وحين وضع عمر تنظيماته الأخيرة بعد استقرار الوضع فى الشام ، كان مما صالح عليه نصارى الشام ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام يطعمونهم مما يأكلون ، مما حل من طعام أهل الكتاب(٣).

وفى بعض الروايات فرضت الضيافة على أهل الذمة يوما وليلة(٤)؛ ولكنها جاءت بلفظ العموم ولم تخص بالذكر أهل الذمة فى بلاد الشام ، ويبدو أنه قول من حفظ أمر عمر بالضيافة على أهل السواد لابلاد الشام . وقد ناقش هذا الخلاف ابن القيم رحمه الله ، وقال : فبعضهم شرط عليه ثلاثة أيام وهم نصارى الشام والجزيرة ليسارهم ، وبعضهم كأهل السواد

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٧٩/٢-٧٨١ ؛ وانظر قبل : ص١٠٥ ، وماقدمناه عند دراستنا للأرزاق ، ص٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) انظر قبل : عهود الصلح ، شرط الضيافة ، ص١٩٠ ؛ وشرط الاعانة بالميرة والعلافة ص١٨٩ .

(٣) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٩١،٢٨١-٢٨٢ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٩،١٩١ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٥٦/١-١٥٨،٣٦٨-٣٦٩ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣١،١٥٧ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٠٦-٢٠٧،٢٢٩ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٣٣/١ ، ٧٧٩/٢-٧٨٨ لمعلومات أشمل .

(٤) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٦٩/١-٣٧٠،٣٧١ .

يوما وليلة مراعاة لحالهم(١). والضيافة قدر زائد على الجزية ، لاتلزمهم الا بشرط ، وشرط عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكفى من جاء بعده(٢). وكان يخفف عن أهل الذمة للضيافة فى أمور أخرى(٣). وفرضت على أهل السواد دون أهل المدن(٤). ولم يشترط عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدر الطعام ، والادام ، والعلف ، وانما يرجع فيه الى عادة كل قوم وعرفهم ، بما يطيقونه ولايشق عليهم(٥). لذلك لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام ، وشكى اليه أهلها أن المسلمين يكلفونهم من الدجاج والشاة مالايطيقون ، قال : لاتطعموهم الا مما تأكلون(٦).

وألزم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أهل الذمة ايواء الضيف ، وجعل عقاب من لم يؤهم براءة الذمة منه(٧). واشترط عليهم أن ينزلوا فى فضول منازلهم ، وفى كل متروك جلا عنه أهله ، وفى كنائسهم ، ليكنهم عن الحر والبرد ، والضيف محتاج للمأوى كحاجته لطعامه ، وعلف دابته(٨). وان كانت بعض العهود الأولى نصت على ألا تسكن كنائسهم ، بينما روى أن بعضها تضمن شرط مقاسمتهم الكنائس(٩)، وكذلك الأمان على مساكنهم ألا تسكن(١٠).

ولعل المقصود من الأمان هو منع السكن الدائم ، أو أن الضيافة كانت تتم فيما يلحق بكنائسهم من دور ، للرهبان ، أما شرط المقاسمة فإننا قد رجحنا عدم صحته ، وأنه اعتمد على رواية فتح دمشق صلحا على المقاسمة وقيس عليها ماصولح على صلحها . أما الأمان على المساكن فالمقصود من هم ينزلونها فلايخرجوا منها ، وإنما ينزل المسلمون فى المتروك وماجلا عنه أهله ، أو ضيوفا على من به دون اخراج لهم او ايقاع الضرر بهم .

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٨٥/٢ .
(٢) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٨٦/٢-٧٨٧ .
(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٦ .
(٤) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٨٢/٢ .
(٥) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٨٦/٢ .
(٦) ابن زنجويه ، الأموال ، ١٥٧/١-١٥٨،٣٧٠-٣٧١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٩ .
(٧) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٧١/١ .
(٨) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٨٧/٢ .
(٩) انظر قبل : عهود الصلح ، شرط الأمان على الكنائس ، ص١٧١-١٧٣ .
(١٠) انظر قبل : عهود الصلح ، شرط الأمان على الدور والمساكن ، ص١٧٣-١٧٤ . وانظر مناقشة القول بمقاسمتهم الكنائس بعد : ص٣٧٨-٣٧٩ .

والسكن فى الكنائس والديارات ضيافة مؤقتة محدود بثلاثة أيام فى القرى دون المدن ، وفى المنازل لعابرى السبيل كذلك أيضا . أما السكن الدائم ففيما جلا عنه أهله وكل متروك بالمدن دون القرى ، لأن عمر فى الأصل نهى المسلمين من سكن الأرياف .

وتقول نجدة خماش لقاء هذا الشرط لم يكن بد من وجود مواضع فى الديارات لمبيت الزوار وعابرى السبيل ، فلما كثروا بنيت دور وحجر خاصة الى جانب الأديار ينزل فيها الضيوف ، وذكرت عددا من الأديرة المشهورة فى الشام آنذاك(١). وقد يبدو للبعض أن هناك تناقضا فى المعلومات بين اعطاء المسلمين نصارى الشام الأمان على كنائسهم ودورهم ألا تسكن ، ثم يشترط عليهم ايواء الضيوف فى منازلهم وكنائسهم . ولاخلاف فان المسلمين أعطوا الأمان بذلك لمن صالحوهم من أهل الشام وهم أهل المدن ، بينما فتحت أرض الشام عنوة بما فيها من قرى ومنازل وكنائس وأديرة ، فأضحت ملكا للمسلمين وحق على أهلها السبى غير أن المسلمين امتنوا على أهلها بأن أعطوهم الحرية ، ورفعوا عنهم السبى ، وأقروهم على أرضهم ، التى لم يقتسمها المسلمون ، وأوقفوها ، وأضحت رقبتها ملك يمينهم . فكان لهم أن يشترطوا على أهلها مايشاؤون . ولكنهم حكموا بالعدل ، وشرطوا مايطيق الناس ، وقدموا الرحمة على المنفعة . فكان مما اشترطوه الضيافة ، وقد قدمنا أنها انما شرطت على أهل الأرياف دون المدن ، وبهذا ينتفى التضارب.

ومن الضيافة ماشرطه عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أهل الذمة أن يصيب المسلمون من ثمارهم وتبنهم الشىء اليسير ، مما اشترط عليهم وصولحوا عليه ، وألا يحملوا شيئا من ذلك(٢). فقيل : يأكل يومه من ثمارهم غير مفسد ؛ اذ يروى عن سعيد بن وهب(٣)قال : "كنت بالشام

---

(١) انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٣-١٣٤ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٢،١٩٦-١٩٧ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٧١/١،٣٧٦، ٣٧٨-٣٧٩،٣٨٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

(٣) سعيد بن وهب الهمدانى الكوفى ، من كبراء شيعة على ، أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولزم عليا ، حتى قيل له القراد للزومه اياه ، وحدث عنه وعن جماعة من الصحابة ، وروى عنه ، وثقه ابن معين ، وكان عريف قومه ، مات سنة ٧٦هـ ، وقال ابن سعد : مات بالكوفة سنة ٨٦هـ . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٨٠/٤ .

فجعلت لاآكل من الثمار شيئا ، فقال لى رجل من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان مما اشترط عمر على أهل الذمة أن يأكل ابن السبيل يومه غير مفسد"(١).

وروى ابن زنجويه أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يمرون على الثمار فيأكلون فى أفواههم(٢). وروى قيس بن صيفى(٣)، يعلف بقرة من ثمارهم ، فلما سئل عن ذلك قال : كان أبو موسى الأشعرى يسمعنا نجارشهم(٤)فلا ينهانا(٥).

يقول أبو عبيد(٦): "وانما وجوه هذه الأشياء عندى التى كان المسلمون يأخذون أهل الذمة بها أنها كانت شروطا عليهم مشترطة حين صولحوا على الجزية ، فكان المسلمون يستجيزون أخذهم بها ؛ اذ كان يوفى لهم بعهدهم وذمتهم . هكذا يحكى عن شريك ، والحسن بن صالح ، وقد روى عن مالك نحو منه" . وقال : "لايحل للمسلمين من مال أهل الذمة فوق ماصولحوا عليه"(٧)، وبه قال ابن عباس(٨). ويروى أنه لما سئل رضى الله عنه : أنا نتزل على أهل الذمة فمنا من يذبح الشاة ، ومنا من يذبح الدجاجة ، قال : فما تقولون؟ قال : يقولون حلال . قال : أنتم تقولون

---

(١) ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٧٢/١ .

(٢) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٧٢/١ .

(٣) قيس بن صيفى بن الأسلت الأنصارى الأوسى ، كان أبوه من صالحى الأنصار فلما مات خطب ابنه قيس امرأة أبيه ، فذكرت ذلك للنبى عليه السلام ، فأنزل الله عز وجل {ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الا ماقد سلف} . انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٢٥١/٣-٢٥٢ .

(٤) نجارشهم : الجرشى ، الاصابة من الشىء . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : جرش .

(٥) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٧٧/١ .

(٦) الأموال ، ص١٩٦ .

(٧) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة .

(٨) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة .

كما قال أهل الكتاب : {**ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**}(١). لايحل لكم من أموالهم الا بطيب أنفسهم(٢). يقصد مما لم يصالحوا عليه .

لذلك تبرأ عمر من معرة(٣)الجيش (٤). وأمر للذمى بقيمة عنبه عندما جاءه شاكيا من اسراع الناس الى الأخذ من عنبه(٥). ونهى أبو هريرة وابن عباس رجلا يريد الغزو أن ينال من مال أهل الذمة(٦).

كما تحرز بعض المسلمين من الأخذ من أموالهم . اما لعدم علمهم بشرط الضيافة وحق عابر السبيل عليهم ، أو خشية أن يأخذ شيئا من غير طيب نفس صاحبه . فيروى أن عبادة بن الصامت مر بقرية من قرى الغوطة فأمر غلامه أن يقطع له سواكا من صفصاف على نهر بردى ، فمضى ليفعل ، ثم أرجعه ، وقال : إلا يكن بثمن ، فانه سييبس ، فيعود حطبا بثمن(٧).

وحدث سعيد بن عبد العزيز ، قال : "كان أبو الدرداء ينزل القرية من قرى أهل الذمة ، فلايزيد على أن يشرب من مائهم ، ويستظل بظلهم ، وترعى دابته فى مراعيهم ، فيأمر لهم بالشيء أو بالأفلس"(٨).

---

(١) آل عمران ، آية : ٧٥

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٦،١٩٧ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٨٢/١ .

(٣) المعرة : الأذى ، ومعرة الجيش : أن ينزلوا بقوم فيأكلون من زروعهم شيئا بغير علم . وهذا الذى أراده رضى الله عنه ، بقوله : اللهم انى أبرأ اليك من معرة الجيش . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : عرر .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٩٩ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة .

(٦) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٩٨-١٩٩ .

(٧) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٩٨ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٨٤/١-٣٨٥ .

(٨) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة ، ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٨٤/١ .

ـ الضيافة فى العصر الأموى :

يرى عبد العزيز الدورى [١]، ونجدة خماش [٢] أن تلك الالتزامات المالية من رزق وضيافة ، كانت بدء الأمر ، ثم رفعت بعد الاستقرار والتنظيم.

وقد أوضحنا أن المسلمين فرضوها منذ البدء ، وخلال الفتوحات حسب الحاجة لتموين الجيوش ، وقد نصت على ذلك بعض العهود ولم تذكرها عهود أخرى ، وتم ذلك أثناء الفتوح بأقدار مختلفة وغير منتظمة .

ثم أن عمر بن الخطاب قرر الضيافة بقدر محدد على كل اقليم حسب ظروف الاقليم وناتجه الغذائى وقدرة أهله وذلك بعد استقرار الوضع الذى أعقب عام الفتح وهو التنظيم الأخير الذى أخذ صفة الدوام . اذ أن الدلائل تشير الى استمرار الزام النصارى بواجب الضيافة خلال العصر الأموى ، وقد قدمنا [٣] قول فالح حسين فى رده على من قال بالغاء الأرزاق والضيافة وتأكيد استمراريتها لوقت بعيد بعد الفتح ، حتى مابعد العصر الأموى ، وأن المأمون أمر بتخليص النصارى من واجب تهيئة المأوى للجند فى بيوتهم . بل أن نجدة خماش [٤] نفسها تذكر أنه لما كان المسلمون أوجبوا فتح أبواب الكنائس والأديرة لضيافة المسلمين ، فقد استدعى الأمر وجود مواضع فى الديارات لمبيت الزوار وعابرى السبيل ، ثم كثر الأضياف والمتنزهون فى الأديرة ، لاسيما الأمراء وحاشيتهم ، فكان لابد من بناء دور وحجر خاصة لهم الى جانب الأديار ، ينزل فيها كل من يغشاها من الناس المسافرين ، وتقام لهم الضيافات على أقدارهم ، ثم ذكرت عددا من الأديرة التى انتشرت فى بلاد الشام ، وكانت مقصدا للمتنزهين ، ومأوى للمسافرين

---

(١) تنظيمات عمر بن الخطاب ، ص٤٦٧ .

(٢) الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٥٤ .

(٣) انظر قبل : الأرزاق ، ص٣٥٩،٣٦٠،٣٦١،٣٦٢ .

(٤) الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٣ .

وعابرى السبيل ، لجمالها وحسن مواقعها ، وأن بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين اتخذوا بعضها نزلا ومتنزها ، كدير خالد بن الوليد (صليبا)[١].

ويبدو أنه قد غاب عنها تحول بعض تلك الأديرة الى ملكية المسلمين كقطائع ، وهى التى جلا عنها أهلها ، أو ماتوا عنها ، فانه وان اشترط على النصارى ايواء وضيافة عابر السبيل من المسلمين ، الا أنه من غير المقبول القول بأن عددا من خلفاء المسلمين فى صدر الاسلام اتخذوا من أديرة النصارى متنزها يعيشون فيه بينهم ، وقد يكون ذلك حدث فى فترات متأخرة من أهل الخلاعة والفجور ؛ ولعل الصحيح أنهم اتخذوا من الأديرة التى جلا عنها أهلها وأصبحت صوافى واقطعت لبعض المسلمين متنزها، اذ لم تعد دار عبادة للنصارى ولامقاما لهم . وقد بين أحمد بدر[٢] حصول بعض أشراف المسلمين على بعض تلك الأديرة كقطائع ، فذكر أن من أنواع القطائع كنائس بدمشق كانت لبعض النصارى فهربوا الى أرض الروم فلما تركوها أقطعت لبعض المسلمين ، ومنها الكنائس التى طالب النصارى بها زمن عمر بن عبد العزيز فأمر باعادتها لهم ، ولما ولى يزيد بن عبد الملك ردها لأهلها من المسلمين[٣].

وكذلك بعض الأديرة حول دمشق ، التى ارتبطت أسماؤها بأسماء بعض المسلمين مما يرجح أنها أقطعت لهم ، كدير أبان الذى ينسب لأبان ابن عثمان بن عفان عند قرحتا ، ودير بشر عند حجير بغوطة دمشق ، ودير بجدل الذى ينسب الى سعد بن مالك بن بجدل الكلبى[٤].

يقول محمد كرد على : واشترط العرب على أهل الذمة أن يؤوا جندهم ثلاثة أيام على الأغلب ويطعموهم من طعامهم ، عناية من الفاتح بجنوده ، وحتى لاتتبرم الرعية بنزولهم ان لم يكن لهم حق النزول ، وكانوا

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٣-١٣٤ .

(٢) انظر : الاقطاع فى بلاد الشام ، ص٣٨١ .

(٣) انظر بعد : ص٤١٧-٤١٨ .

(٤) أحمد بدر ، نفس المرجع والصفحة .

لأول أمرهم يختارون النزول فى الخيام والمضارب ، فاذا كلب الشتاء ينزلون فى المدن والقرى ، ويأوون الى دور الروم الذين رحلوا بقدوم الفاتحين (١).

وكما قدمنا فان الضيافة استمر فرضها الى مابعد العصر الأموى ، وقد اقتصرت على أهل السواد (الأرياف) دون أهل المدن ، باعتبار المسلم فيها عابر سبيل يحتاج المأوى والضيافة حتى يصل مأمنه .

---

(١) خطط الشام ، ١٠/٥ .

*** العشور :**

من الضرائب التى فرضت على نصارى الشام عشور التجارة ، وأول من وضع العشر فى الاسلام عمر بن الخطاب[(١)]. وقد ورد فى عهد بعلبك أنه شرط على أهلها عشور تجارتهم[(٢)].

والأصل فى العشور ابطال الاسلام أخذها من المسلمين ، وذم العاشر والتغليظ فى أمر المكس وحرمته ، وعلة ذلك أن له أصل فى الجاهلية ، فقد كان ملوك العرب والعجم يأخذون من التجار العشور اذا مروا عليهم ، لذلك أبطله الاسلام ، ويبين ذلك كتب الرسول صلى الله عليه وسلم الى بعض أهل الأمصار : "أنهم لايحشرون ولايعشرون" . وجاءت فريضة الزكاة عوضا عن ذلك ، وهى ربع العشر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "**ليس على المسلمين عشور ، انما العشور على اليهود والنصارى**"[(٣)]، وكان عمر يأخذ من التاجر المسلم ربع العشر ، ومن الذمى نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ؛ وكان مذهب عمر فى ذلك أنه كان يأخذ من المسلمين الزكاة وهى ربع العشر ، ومن أهل الحرب العشر تاما لأنهم يأخذونه من تجار المسلمين ، والذى يأخذه من أهل الذمة وهو نصف العشر فانما يأخذه منهم لأنه صالحهم على أخذه مع الجزية والخراج ، لأن عثمان بن حنيف عندما مسح السواد وقدر عليهم الجزية والخراج جعل على تجار أهل الذمة نصف العشر ، فيما اختلفوا به من أموالهم ، فأجازه عمر ؛ وكان مالك يقول : انما صولحوا على أن يقروا ببلادهم ، فاذا مروا بها للتجارة أخذ منهم كلما مروا مرة واحدة فى الحول .

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٤٢ .

(٢) انظر قبل ، شروط عهود الصلح ، ص١٨٨ .

(٣) رواه أبو داود وأحمد والترمذى ، بلفظ : "انما العشور على اليهود والنصارى ، وليس على المسلمين عشور" . انظر : أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ، ٢٩٩/٨ ؛ الترمذى ، جامع الترمذى مع تحفة الأحوذى ، ٢٧٧/٣ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ، ٤٧٤/٣ ، ٢٢٢/٤ ، ٤١٠/٥ .

فكان أخذ عمر نصف العشر من أهل الذمة لمصالحته اياهم على ذلك ؛ وكان ابن شهاب الزهرى يتأول فعل عمر بأن العشر كان يؤخذ منهم فى الجاهلية ، فأقرهم عمر على ذلك ؛ قال أبو عبيد : والوجه الأول بأخذه صلحا ، أشبه بعمر وأولى به ، وبه كان يقول مالك بن أنس(١).

ولم يؤخذ العشر فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولاخليفته الصديق ، لأنهما لم يشرطا ذلك على أهل الذمة فى زمنهما ، وانما فتحت بلاد العجم زمن عمر ، وشرط عليهم ذلك ، فكان عمر أول من وضع العشر فى الاسلام(٢).

والحنفية تقول بمشروعية العشور ، ودليل شرعيتها السنة والاجماع ؛ أما السنة : فان عمر بعث أنس بن مالك لجباية العشور فقال أنس : ياأمير المؤمنين تقلدنى المكس؟ فقال له عمر : قلدتك ماقلدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قلدنى أمور العشور وأمرنى أن آخذ من المسلم ربع العشر ، ومن الذمى نصف العشر ومن الحربى العشر ، وهذا الأثر لم يذكره أهل الحديث مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وانما ذكروه عن عمر كما فى الأموال لأبى عبيد . وأما الاجماع ، فان عمر نصب العشار ، وأمرهم بأخذ العشور بمحضر من الصحابة ، فلم ينكر عليه أحد منهم ، فكان اجماعا(٣).

ويعشر نصارى تغلب ونصارى نجران كسائر أهل الذمة ، يؤخذ منهم نصف العشر(٤)، قال زياد بن حدير : "أمرنى عمر أن آخذ من نصارى بنى تغلب العشر ، ومن نصارى أهل الكتاب نصف العشر"(٥)، ولاتعشرهم فى

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٤٢ .

(٢) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٧١-٢٨٠ ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٢٣٥-٢٣٩،٦٤٠،٦٤١،٦٤٢ ؛ يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٦٤،١٦٩ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ١٥٤/١-١٥٧ .

(٣) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٧٧ .

(٤) أبو يوسف ، نفس المصدر ، ص٢٧٣ ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٦٣٥ ؛ يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٦٤،٦٥ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٦٤٠ .

السنة الا مرة(١)، وكان عمر قد ولى زياد بن حدير عشور العراق والشام ، فأراد أن يعشر فرسا لرجل من نصارى تغلب مرتين فى سنة واحدة ، لما مر عليه أخرى بعد التعشير الأول ، فشكا ذلك الى عمر بن الخطاب ، فأمر العاشر أن لايؤخذ منهم العشر الا مرة واحدة فى الحول(٢).

واختلف الفقهاء فى فرض العشر على جميع أنواع التجارة أو بعضها ، وفى أخذه مرة واحدة فى السنة ، أو كلما مر بالعاشر ، وهل يؤخذ ممن عليه دين ، ومن قال أنه ليس لى ، أو أن هؤلاء الجوارى أمهات أولادى ، وهل يقبل قوله أو يحلف ويصدق(٣).

وقد أورد أبو عبيد عددا من الروايات ، فى الخمر والخنزير هل يؤخذ فى الجزية والخراج ، وهل يعشر ، واتضح منها أن فعل الخليفة عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، ألا يؤخذ الخمر والخنزير فى الجزية والخراج ، وانما تؤخذ أثمانها بعد بيعها من قبل أهل الذمة ، ورجح ألا تؤخذ عشورها(٤). وقال أبو يوسف : اذا مر أهل الذمة على العاشر بخمر أو خنازير قوم قيمة ذلك من قبل أهل الذمة وأخذ منهم نصف العشر(٥). وقد كتب عمر بن عبد العزيز الى أحد عماله : "بلغنى أنك تأخذ من الخمر العشور فتبقيه فى بيت مال الله ، فاياك أن تدخل بيت مال الله الا طيبا"(٦). وقيل بل يؤخذ العشر على جميع عروض التجارة(٧). ولايؤخذ منهم الا مرة واحدة فى السنة ، ولايؤخذ فى أقل من مائتى درهم(٨). وكتب

---

(١) يحي بن آدم ، الخراج ، ص٦٤ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) انظر اقوال العلماء فى ذلك عند : قدامة ، الخراج ، ص٢٤٢-٢٤٣ ؛ وانظر : أبو يوسف ، نفس المصدر ، ص٢٧١ ومابعدها .

(٤) الأموال ، ص٦٢-٦٥ .

(٥) نفس المصدر ، ص٢٧٩،٣٧٣ .

(٦) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٨٠/٥ .

(٧) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٧٦ .

(٨) يحي بن آدم ، نفس المصدر ، ص٢٤-٢٥ .

عمر بن عبد العزيز الى رزيق بن حيان وكان على جواز مصر : "من مر بك من أهل الذمة فخذ مما يديرون فى التجارات من أموالهم ، من كل عشرين دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك ، حتى تبلغ عشرة دنانير ، فان نقصت ثلث دينار فلاتأخذ منه شيئا ، واكتب لهم بما تأخذ كتابا الى مثله من الحول"(١).

ويجعل مايؤخذ من عشور بنى تغلب وأهل العهد وأهل الحرب بمنزلة الفىء كالخراج والجزية ، ومايؤخذ من المسلمين من العشور سبيل الصدقة(٢).

والسنة أن ليس على أهل الذمة اذا أقاموا فى بلادهم التى صالحوا عليها الا الجزية ، مثل أن يتجر الذمى الشامى فى جميع الشام ، الا أن يتجروا فى بلاد المسلمين ويختلفوا فيها ، فيؤخذ منهم العشر(٣). ويبدو أن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر طبق فى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى خلافة عمر بن عبد العزيز ، أما فى العصر الأموى والعصور الأخرى فكان العشر يؤخذ منهم وان اختلفوا فى العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين ؛ ويعلق المقريزى بأن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر لم يطبق الا فى عهد عمر بن عبد العزيز وانما العمل على أن يؤخذ منهم العشر وان خرجوا فى السنة مرارا من كل ماتجروا به قل أم كثر(٤).

وليس بين يدينا روايات تشير الى ضرائب اضافية أخرى فرضها المسلمون على نصارى الشام فى عصر الراشدين أو الأمويين(٥).

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٤١ ؛ ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ١٥٤/١-١٥٧ .

(٢) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٢٤-٢٥ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٠٩ .

(٣) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .

(٤) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة والمصدر .

(٥) انظر : نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٣١٠ ؛ الأجناد وادارتها ، ص٣٠١ .

الفصل الخامس
موقف المسلمين ازاء نصارى الشام
من الناحية الدينية والاجتماعية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* الناحية الدينية :

- الموقف من الناحية الدينية فى زمن الخلفاء الراشدين .
- الموقف من الناحية الدينية فى العصر الأموى .
- اشراف الدولة الاسلامية على المناصب الدينية .
- الحرية الفكرية والجدل الدينى .
- التسامح الدينى مع نصارى الشام فى العصر الأموى .
- الوفاء للنصارى بما صولحوا عليه من الناحية الدينية .
- الزام نصارى الشام بما صولحوا عليه من الناحية الدينية .

* الناحية الاجتماعية :

- الموقف من الناحية الاجتماعية فى عصر الخلفاء الراشدين .
- التعايش بين المسلمين والنصارى فى بلاد الشام .
- أثر نصارى الشام فى الحياة الاجتماعية للمسلمين .

الفصل الخامس
موقف المسلمين ازاء نصارى الشام
من الناحية الدينية والاجتماعية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* الناحية الدينية :

ـ الموقف من الناحية الدينية فى عصر الخلفاء الراشدين :

أفادت عهود الصلح الأولى(١)، التى أعطاها المسلمون لنصارى الشام ، أن المسلمين عقدوا لهم الذمة على اقرارهم على دينهم وسائر ملتهم ، وأعطوهم الأمان على ألا يكرهوا على تركه ولايضار أحد منهم ، والأمان على كنائسهم وبيعهم ودياراتهم ، ألا تهدم أو تخرب أو تسكن ، أو ينتقص منها أو من حيزها ، وعلى صلبانهم وألاينتقص منها ولايمنعوا من أعيادهم ، مالم يحدثوا حدثا ينتقض به العهد ، وذلك فى حدود بينت فى الشروط العمرية ، وفصلت فى أحكام أهل الذمة .

غير أن عهود الصلح بالمقابل لم تنص أو تتضمن الاذن لهم بالزيادة واستحداث غير ماهو معمور ، أو مرمته . بل أنه يفهم من اعطاء الأمان بألا تهدم أو تنتقص دور عبادتهم ، عدم التعمير أو الزيادة . ويبدو أن ذلك كان واضحا عند المسلمين ، ولم يروا حاجة لكتابته فى عهود الصلح الأولى ، وان كنا قد وجدنا رواية للواقدى عن صلح بعلبك ، اشترطت ألا يحدثوا كنيسة(٢)، ورواية أخرى للأزدى عن صلح حمص ألا يعمروا بيعهم(٣).

وأرى أن ذكرها هذين الشرطين عند الواقدى والأزدى من باب التباس الأمر ، فذكر المؤرخان بعض الشروط العمرية على أنها من شروط الصلح الأولى ، لأن ذلك لم يذكر فى المصادر التاريخية الموثوقة التى ذكرت

---

(١) انظر : قبل : ص١٧١-١٧٣ .

(٢) انظر عهود الصلح قبل : ص١٧٣ .

(٣) انظر عهود الصلح قبل : ص١٧٣ .

شروط عهود الصلح الأولى ، وإنما ورد هذان الشرطان فيها ضمن الشروط العمرية .

ويقول حسن الحارثى[١]: ويفهم من قول لأبى يوسف عما صالح ، أبو عبيدة عليه أهل الشام حين دخلها ، وقد جاء بلفظ العموم لسائر أهل الشام وليست موجهة لأهل بلد بعينه ، أن تلك الشروط كان معمولا بها مع أهل البلاد التى فتحت صلحا بالشام قبل معركة اليرموك ، واعتمدت فى معاملة مافتح بعد ذلك . ومما جاء فيه مما يخص الناحية الدينية : "أن أبا عبيدة بن الجراح صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن يترك كنائسهم وبيعهم ، وعلى أن لايحدثوا بناء بيعة ولاكنيسة ، ... ، ولايرفعوا فى نادى أهل الاسلام صليبا ، ... ، ولايضربوا نواقيسهم قبل أذان المسلمين ولافى أوقات أذانهم ، ولايخرجوا الرايات ، فى يوم عيدهم ، ... ، فقالوا لأبى عبيدة : اجعل لنا يوما من السنة نخرج فيه صلباننا بلارايات ، وهو يوم عيدنا الأكبر[٢]، ففعل ذلك بهم وأجابهم اليه" ؛ ثم نفى حسن الحارثى نسبة هذا النص الى صلح دمشق كما قال محمد حميد الله[٣]. وقد قدمنا أنه كان واضحا عند المسلمين مالرعاياهم من أهل الذمة وماعليهم ، ولعل هذه الشروط قد أوضحت لهم عند الفتح وخلال المفاوضات التى تسبق عقد الصلح . غير أنى أرى أن تلك التفاصيل وان اشترطت وبينت لهم ، الا أنها لم تكتب فى عهود الصلح الأولى ، بدليل عدم وجودها فيما وصل الينا من نصوص عهود الصلح الأولى ، وعدم اشارة المرويات التى أخبرت عن

---

(١) المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣١٢-٣١٣ .

(٢) عيد المسيحيين الأكبر ، هو عيد الفصح ، وهو يوم الفطر من صومهم ، ويزعمون أن المسيح قام بنفسه بعد الصلب بثلاثة أيام، وخلص آدم من الجحيم ، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرها الخميس ، ثم صعد الى السماء ، وفيه توقد المشاعل ، ويسمى عيد القيامة ، لقيامة المسيح من موته يوم الفصح كما يزعمون . انظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٢٩٠-٢٩١ .

(٣) نفس المرجع ، ص٣١٤-٣١٥ .

مضامين عهود الصلح اليها ، سواء التى وصلت الينا نصوصها أو التى لم تصل الينا نصوصها ، وأنها انما كتبت عليهم وفصلت فى شرط عمر العام عليهم بعد تمام الفتح ، وهو ماعرف بالشروط العمرية .

وتفيد بعض المرويات الخبرية المتعلقة بمضامين عهود الصلح الأولى ، أن المسلمين صالحوا بعض أهل بلاد الشام على مقاسمة الكنائس(١). وذكر ابن عساكر أن فى شرط عمر بن الخطاب على نصارى الشام ، أن يأخذ الحيز القبلى من كنائسهم لمساجد المسلمين(٢). ولم يرد ذلك فيما وصل الينا من نصوص عهود الصلح . وقد عرض حسن الحارثى(٣)الى مناقشة هذا القول ، وبعد أن عرض لما ورد من أخبار بمصالحة أهل دمشق على المقاسمة وأقوال من رد ذلك ، بين أن أمر فتح دمشق قد التبس على المسلمين ، أتم صلحا أم عنوة ، غير أن المعمول به لدى المسلمين الفاتحين أنه متى فتحت بلدا من البلدان فكان بعضها عنوة وبعضها صلحا ، ولايعرف الصلح من العنوة ، أمضى فتح جميع البلد على الصلح مخافة التقدم على الشبهة وهو ماجرى فى أمر دمشق ، كما تواترت روايات المصادر على ذلك ؛ وأضاف : يتضح أن القول بمصالحة المسلمين أهل دمشق على المقاسمة الكنائس والمنازل والأموال والرؤوس . انما اعتمد على أن دمشق فتح نصفها عنوة والنصف الآخر صلحا ، وأن المسلمين أخذوا نصف كنيسة ماريوحنا مسجدا ، وكذلك مفاوضة المسلمين لهم قبل الفتح على المقاسمة . غير أن ذلك لايقوم أمام ماتواترت عليه الأخبار باجراء كل دمشق صلحا ، بل أن اجراء فتح دمشق صلحا أصبح من السوابق التاريخية التى اعتمد عليها الفقهاء فى اجراء الصلح على البلد الذى تم فتح بعضه صلحا وبعضه عنوة كما يقول أبو عبيد بن سلام ؛ ويرجح أن من قال بالمقاسمة من الرواة انما استنتج ذلك من القول بفتح

---

(١) انظر عهود الصلح قبل : ص١٧٢ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، ١٨١/٢ (طبعة دار الفكر) .

(٣) انظر تفاصيل ذلك فى رسالته : المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣١٩-٣٢٥ .

نصفها صلحا ونصفها عنوة ، وتكرر القول بالمشاطرة فى عهود صلح أهل البلاد التى فتحت على صلح دمشق(١).

كما أخذ المسلمون بعض الكنائس ، أو أجزاء منها ، فى مدن بلاد الشام ، كدمشق ، وحمص وطبرية وبيت لحم وغيرها ، وجعلوها مساجد ، وذلك برضى أهل البلاد وقبولهم لما اشترط المسلمون ذلك عليهم فى صلحهم(٢). ولم يكن ذلك قصرا على دور العبادة النصرانية ، فان عمر اتخذ موضع الصخرة مسجدا بايلياء(٣). ويظهر أن السبب وراء أخذ بعض دور العبادة القديمة أو أجزاء منها مساجد يقف عند وقوعها فى منتصف المدن على عادة المسلمين فى جعل مساجدهم وسط المدينة ، أو لعدم تفرغهم للبناء وانشغالهم بالجهاد ، أو أنهم كانوا يرون أخذها مساجد لعبادة الله وحده لاشريك له وذكره فيها ، فى مواضع دور العبادة القديمة التى أضحى أهلها يشركون بالله فيها ، صلاحا ، ودعوة ، واظهارا للحق واعلاء لكلمة الله ، وعسى أن يميل أهلها الى الاسلام ، بقربهم من المسلمين واطلاعهم على صلاتهم ، وسماع القرآن . ولعلهم اتخذوا من فعل الرسول عليه السلام سنة ، عندما أمر ببناء مسجد موضع اللات بالطائف لما هدمها(٤).

ويبدو أن نصارى الشام تعدوا حقوقهم ، وحدود المباح لهم دينيا ، ولعلهم شرعوا فى استحداث بعض الكنائس ، واظهار بعض الشعائر الدينية الممنوعة ، مما جعل الحاجة ملحة لتوضيح ذلك لهم ، فضمن عمر بن الخطاب شروطه على نصارى الشام ، المعروفة "بالشروط العمرية" شروطا تفصيلية لبعض الجوانب الدينية ، لاتخرج عن الأسس ، ولاتخالف ماحوته

---

(١) حسن الحارثى ، المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣٨٦،٣٨٩ .

(٢) انظر ذلك قبل : ص١١٨،١٧٣ ؛ حسن الحارثى ، نفس المرجع ، ص٣٢٣،٣٥٤،٣٨٩

(٣) عن ذلك ، انظر : شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٩٥-١٠١ .

(٤) انظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٢٧٢/١-٢٧٣ ؛ حسن الحارثى ، نفس المرجع والصفحات .

عهود الصلح الأولى(١).

كما أصدر عمر عددا من الأوامر والتوجيهات فى هذا الشأن ، فأمر أن تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع استحداث الكنائس ، وألا يظهر صليبا خارجا من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه(٢)، وقال : لاكنيسة فى الاسلام ولاخصاء(٣). أى فى أمصار المسلمين ، متبعا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال : "لاخصاء فى الاسلام ولاكنيسة"(٤). ومثله قول طاووس : لاينبغى لبيت رحمة أن يكون عند بيت عذاب ؛ قال أبو عبيد : أراه يقول : لاينبغى أن تكون مع المساجد فى أمصار المسلمين(٥). وفيما تقدم من منع عمر لاستحداث الكنائس رد على ترتون الذى أنكر منع الذميين من بناء الكنائس ، حتى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م أو ١٧٠هـ/٧٨٦-٧٨٧م(٦).

كما وجه عمر المسلمين فى الشام وهو يخطبهم فى الجابية بقوله : واياى أن يرفع بين أظهركم الصليب(٧). وعليه ، لم يجز ابن عباس لأهل الذمة بناء دور العبادة فى الأمصار التى مصرها المسلمون ، وأن لهم مافى صلحهم فى أمصارهم(٨). وفصل ابن القيم فقال : مااستحدث فى أمصار المسلمين ، يزال اتفاقا ، وماكان موجودا بفلاة الأرض ثم مصر المصر حوله لايزال(٩).

---

(١) انظر ماتضمنه نص الشروط العمرية فيما يخص الناحية الدينية ، قبل : ص٢٠١-٢٠٣ .

(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٨ ؛ وانظر : أبو عبيد ، الأموال ، ص١٢٤ .

(٣) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٣ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٢٦٩/١-٢٧٠ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر والجزء والصفحات

(٥) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٢٦٩/١-٢٧٠ .

(٦) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٥٣-٥٤ .

(٧) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٤-١٢٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٢٧٠/١-٢٧١ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص١٥٤، ٢١٧ .

(٨) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٦-١٢٧ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٩ .

(٩) أحكام أهل الذمة ، ٦٧٧/٢ .

وقال أبو عبيد : الأمصار التى مصرها المسلمون هى من أسلم عليها أهلها ، أو اختطه المسلمون ، أو فتح عنوة فقسم بين الفاتحين ، وهذه لايظهر أهل الذمة شىء من شرائعهم فيها . وأما التى لهم فيها سبيل الى ذلك ، فهى البلاد التى صولحوا عليها ، أو فتحت عنوة وأقروا بها[(١)]. وقال : وانما وجوه هذه الأحاديث التى منع فيها أهل الذمة من بناء الكنائس ، والصلبان والخنازير والخمر ، أن يكون ذلك فى أمصار المسلمين خاصة[(٢)]. وبناء عليه قال الماوردى : "ولايجوز أن يحدثوا فى دار الاسلام بيعة ولاكنيسة ، فان أحدثوا هدمت عليهم ، ويجوز أن يبنوا مااستهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة"[(٣)].

ونقل ابن القيم قول الجوينى فى النهاية ، بجواز مرمة كنائسهم[(٤)]. ويقول ترتون أن البطرك النسطورى أبرم اتفاقا مع المسلمين تضمن اشتراط أن يمد المسلمون للنساطرة يد المساعدة فى تجديد كنائسهم القديمة[(٥)]. ولاأرى ذلك صحيحا ، فلن يقدم المسلمون يد العون لإعمار دور يشرك فيها بالله .

وقد أبقى المسلمون دور العبادة بيد النصارى فى أرض الشام التى فتحت عنوة ، ومنها الكنائس التى بقيت قائمة فى الغوطة ، وغيرها خارج دمشق[(٦)]. وذلك لأن الصلح جرى كما يقول أبو يوسف[(٧)]: "على أن لاتهدم بيعهم ولاكنائسهم داخل المدينة ولاخارجها ، ... ، وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم - أى عيدهم الأكبر وهو الفصح ، ... ، على ألا يحدثوا بناء بيعة ولاكنيسة ، فافتتحت الشام كلها والجزيرة الا أقلها على هذا فلذلك تركت البيع والكنائس ولم تهدم" . ونص أبو يوسف يفيد أن تركها

---

(١) انظر : الأموال ، ص١٢٦-١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص١٢٦-١٢٧ .

(٣) الأحكام السلطانية ، ص١٢٧ .

(٤) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٠٣/٢ .

(٥) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٤٠ .

(٦) حسن الحارثى ، المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٣١٧ .

(٧) الخراج ، ص٢٨١ .

بيـدهم داخل المدينـة وخارجهـا كـان بمقتضى الصلح . والمعـروف أن أرض الشـام بما فيها معابدهم التى بها خارج المدن فتحت عنـوة ، وانما كان الصلح على معظم مدن الشام ، وكان ابقاء الكنائس خارج المدن بيـد أهلها ، تجوزا من المسلمين باقرار أهلها فيهـا كمـا أقروا فى أرضهـم ، لاعـن صلـح اقتضى ذلك كما يقول أبو يوسف .

وقد بين ابن القيم[1]، أن الأئمة الأربعـة اختلفوا فى حكـم ابقاء معابد أهـل العنوة بيدهم ، وذكر أن بعضهـم لايجيز تركها لهـم ، ومنهم من يرى جواز اقرارهم فيها اذا اقتضت المصلحة ذلك ، كما أقـر النبى صلى الله عليه وسلم أهـل خيبر فيهـا ، وكمـا أقـر الخلفـاء الـراشدين الكفـار على المسـاكن والمعابد التى كانت بيدهم ، وأضاف : وقول من يقول بجواز اقرارها بأيديهم أوجه وأظهـر ، فانهم لايملكون بذلـك الاقرار رقاب المعـابد بل الانتفاع بها ، ويجوز للمسلمين انتزاعهـا منهـم اذا اقتضـت المصلحـة ، كمـا انتزع أصحاب الـرسول صلى اللـه عليه وسلم ، خيبر مـن اليهـود ، ومحاولـة المسلمين أخذ كنائس العنوة التى بخارج دمشق التى أقرت بأيدى أهلها منذ الفتح حتى زمن الـوليد بن عبد الملك عندما أبوا اعطـاء المسلمين زمـن الـوليد بن عبد الملك الكنيسة التى بجانب الجامع لادخالها فيه لتوسعته ، ولـو وجب ابقاؤها بيدهم وامتنـع هـدمها ، لما أراد المسلمـون انتزاعها منهم ، وتعـويض النصـارى بها مقـابل كنيسة ماريوحنا ، ولـو أراد الامام عند الفتح هـدم دور العبـادة فيما فتـح عنـوة جاز باجماع المسلمين ، ولم يختلفـوا فى هـدمهـا وانما اختلفـوا فى جواز ابقـائها ، ولايجوز فيمـا فتـح عنوة استحداث شـىء مـن دور العبادة .

وقد ذكر ابن تيميـة[2]أن هـدم دور عبادة النصارى وابدالهـا بمساجد يذكـر فيهـا اسم الله ويعبـد لايشـرك به شيئا يعد صلاحا ، وأن تلـك هـى العلة فى جواز الهدم .

---

(١) انظـر قوله مفصلا فى كتابه ، أحكام أهل الذمة ، ص٢،٦٨٣،٦٨٤،٦٨٩-٦٩٠،٦٩٨

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/٢٧٢-٢٧٣ .

ونقل ابن القيم(١) قول ابن تيمية : أن الكنائس ببر الشام من أرض العنوة ، ماكان منها محدثا وجب هدمه ، وماشتبه فيه القديم بالمحدث وجب هدمهما جميعا ، لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز ، ومالايتم الواجب الا به فهو واجب ، وأما ماكان قديما فيجوز هدمه ويجوز اقراره بأيديهم حسب مايراه الامام من المصلحة ، وأما ماكان قد صولحوا عليه مثل مافى داخل المدن ، فلايجوز أخذه ماداموا موفين بالعهد ، الا بمعاوضة ، أو طيب نفس ، كما فعل المسلمون عند أخذهم الكنيسة التى أدخلها الوليد بن عبد الملك فى جامع دمشق(٢).

ثم بعد ، فان ابن تيمية أوجب ازالة مااستحدث فى أمصار المسلمين ، وعدم تمكينهم من الاحداث ، انفاذا لشرط عمر عليهم بذلك ، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "**لاتكون قبلتان ببلد واحد**"(٣)، ولقول عمر : "لاكنيسة فى الاسلام" ؛ وقال : وهذا مذهب الأئمة الأربعة فى الأمصار ، ومذهب جمهورهم فى القرى ، ومازال من يوفقه الله من ولاة أمور المسلمين ينفذ ذلك ويعمل به(٤).

غير أن روبرت شيك (Robert Schick) (٥) يقول : ففى الخمس السنوات التى أعقبت الفتح الاسلامى استمر المسيحيون فى بناء الكنائس ،

---

(١) أحكام أهل الذمة ، ٦٨٦/٢-٦٨٧،٦٧٧-٦٨٢ .

(٢) عن حكم الابقاء على دور العبادة وهدمها ، فى الأمصار المختلفة ، انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٨١-٢٩٧ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٦٦٩/٢-٧٠٤

(٣) انظر : الترمذى ، جامع الترمذى مع تحفة الأحوذى ، ٢٧٥/٣-٢٧٦ ؛ أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ، ٣٠٥/٨ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ، ٢٢٣/١ (روى بلفظ آخر عن ابن عباس) .

(٤) نقل قوله : ابن القيم ، نفس المصدر ، ٦٨٥/٢ .

(٥) The Fare of the cristains in Palestine during the byzantine-umayyad transition, 600-750 A.D, p.42-43 .

كما حدث فى بيت جبرين[(١)] والقدس ورحاب[(٢)] وأبيلا[(٣)]، والرملة وتل ماسيوس[(٤)]، وذكر أنه فى سنة ٣٩هـ/٦٥٩-٦٦٠م أعيد بناء كنيسة قصر اليهود وخان الأحمر بعد أن دمرت فى زلزال ذلك العام ، وأشار الى ماإستحدث فى العصر الأموى أيضا ، وأضاف : كما قام المسيحيون أيضا بترميم وتعمير الكنائس القديمة خلافا لما فى الشروط العمرية . ونحن لانقره على أن المسلمين تركوا لنصارى الشام استحداث الكنائس فى عصر الراشدين خلافا لما شرط عليهم عمر . وانما هو يتحدث عن فلسطين ، وقد تم فتحها وبعض بلاد الشام لم تفتح ، فشغل المسلمون بعد فتحها باتمام فتح الشام وتنظيم أموره المالية والادارية ، وتثبيت أقدام المسلمين فى تلك البلاد فلعله فى الخمس سنوات التى أعقبت فتح فلسطين (بيت المقدس) ، استغل النصارى انشغال المسلمين بالفتح ، وأحدثوا تلك الكنائس وهم يعلمون موقف المسلمين من ذلك ، أو عن جهل بذلك ، خصوصا أن عهود الصلح الأولى جاءت مختصرة ولم تفصل حكم الاسلام فى هذا الأمر . ولعل تلك التجاوزات ، هى التى دعت عمر بن الخطاب لتوضيح حكم الاسلام فى الأمور الدينية والاجتماعية لنصارى الشام وغيرها ، فى شروطه على نصارى الشام التى عرفت بالشروط العمرية ، ولعل من قرائن صحة قولنا أننا لانجد أمثلة على تلك التجاوزات فى عصر الراشدين عقب الفترة الأولى للفتح الا سنة ٣٩هـ/٦٥٩-٦٦٠م كما ذكر روبرت شك فى قوله السابق ان صحت روايته ، حيث أنى لم أجد ذكرا فى المصادر الاسلامية لتعمير تلك الكنائس التى أشار الى بنائها فى سنة ٣٩هـ/٦٥٩-٦٦٠م ، وهى من سنوات الفتنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، فان بنيت حقا فان ذلك ليس عن رضى المسلمين وانما لانشغالهم بالفتنة .

---

(١) بيت جبرين : بليد بين بيت المقدس وغزة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٥١٩/١) .
(٢) رحاب : من عمل حوران . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٣٠/٣-٣١) .
(٣) لم أجد له تعريفا .
(٤) لم أجد له تعريفا .

ومن السياسة الدينية ، منع النصارى من الترغيب فى دينهم ، ودعوة المسلمين اليه ، لأنه حرب لله والرسول باللسان ، فالدعوة للباطل تستلزم الطعن فى الحق أى الطعن فى الاسلام ، وبذلك ينتقض العهد . يقول تعالى : {**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر**}(١)(٢).

وبحكم الولاية العامة للمسلمين على نصارى الشام كان للمسلمين الاشراف على اختيار النصارى لرؤسائهم الدينيين ، وتعيين من اختاروه رسميا بمرسوم من الحاكم المسلم ، أو التدخل فى حجب المنصب ، كابقاء كنيسة بدون بطرك لاعتبارات سياسية ، كما أبقيت كنيسة بيت المقدس بدون بطرك منذ سنة ١٧هـ/٦٣٨م حتى العصر الأموى(٣). أو التعيين المباشر من قبل الحاكم المسلم ، وان كنا لانملك أمثلة على ذلك خلال عصر الخلفاء الراشدين لكن نص صلح قبرص بـ"أن يبطرق امام المسلمين عليهم - أى أن يعين بطريقا على نصارى قبرص - منهم"(٤)، دليل على ذلك الحق للدولة ، كما أن وجود أمثلة كثيرة للسلطة الاسلامية على الأمور الدينية للنصارى فى العصر الأموى(٥)، يوحى بأنه كان أمرا متبعا منذ الفتح ، نتيجة للولاية العامة للمسلمين ، وخضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢

(٢) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٧٢٩-٧٣٠ .

(٣) انظر بعد : ص٣٨٨ .

(٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٢٦٢ .

(٥) انظر الصفحات التالية .

ـ الموقف من الناحية الدينية فى العصر الأموى :

اشراف الدولة الاسلامية على المناصب الدينية :

خضع نصارى الشام للحكم الاسلامى بقبولهم اعطاء الجزية ، فتمت بذلك الولاية العامة للمسلمين عليهم ، وأعطيوا فى عقد الذمة الأمان على ملتهم ، ودور عباداتهم ، وأداء شعائر دينهم ، فى نطاق الحدود التى أباحها الاسلام ، وأوضحتها عهود الصلح ، وطبقها الخلفاء الراشدون .

وفى العصر الأموى ، وبحكم الولاية العامة للمسلمين على غيرهم فى دار الاسلام ، خضع نصارى الشام فيما يخص عقائدهم ، وخلافاتهم المذهبية وأنظمتهم الكنسية بما فيها تعيين البطاركة والأساقفة ، لنفوذ الخليفة الأموى . فيذكر عدد من المؤرخين[(١)]، أن النصارى كانوا يحتكمون الى الخليفة فى نزاعاتهم المذهبية ، ويقوم بحل نزاعهم ، وحماية بعضهم من بعض ، لاقرار الأمن فى الدولة الاسلامية ، والسلام بين رعاياها ، فقد احتكم اليعاقبة والموارنة الى الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة ١٧ أى لقسطانز (٦٥٩م/٣٩هـ)[(٢)]، لنزاع حدث بينهم بالقدس ، فقدم الاسقفان اليعقوبيان ، وثوادوروس وسابوخت الى مجلس الخليفة بدمشق ، وجرت بينهما وبين جماعة من الموارنة (الارثوذكس) ، مناقشة فى أمور العقيدة ، فأفحم اليعاقبة السريان ، فأمرهم معاوية بلزوم السكينة ، وأن يؤدوا عشرين ألف دينار ، ومنذئذ دأب أساقفة اليعاقبة دفع ذلك المبلغ سنويا لضمان حماية الدولة لهم

---

(١) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٠٨/١-٢٠٩ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٩٧ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٦-٥٥٧ ؛ ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٠٩ .

(٢) تولى قسطانز الامبراطورية البيزنطية ، سنة ٦٤٢م/٢٢هـ ، وعليه فان سنة ١٧ لحكمه توافق ٦٥٩م/٣٩هـ ، وهذا يعنى أن الحدث تم ومعاوية لم يكن خليفة باجماع المسلمين . انظر عن حكم قسطانز : محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٨١ .

من اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية ، فكان البطرك اليعقوبى يفرض هذا المبلغ على كل الأديرة ، فيؤدونه اليه كل سنة ، ويقوم هو بدفعه الى الخليفة ، لينقاد كل اليعاقبة الى طاعة البطرك خوفا من الخليفة . يقول بطرس ضو(١)، الذى أورد نص هذه المحاورة التى نشرها العلامتان بروكس وشابو كما ذكر معلقا عليها : ويدل هذا النص على تقيد كل الطوائف بالخليفة تستمد منه التثبيت لأحبارها ، وبطاركتها ونظامها ، لقاء ضريبة مالية باهظة ، وكان الخليفة بحكم حق التثبيت ، يتدخل بانتخاب البطاركة والأساقفة ويفرض ارادته فيما يتعلق بالأنظمة الكنسية ، وهكذا كان الروم واليعاقبة والنساطرة منذ الفتح حتى نهاية الحكم العثمانى خاضعين للخليفة ينتظرون منه الفرمان لبطاركتهم وأساقفتهم ، وكان الخليفة أحيانا يفرض مرشحا معينا ، بينما كان الموارنة مستقلين فى شئونهم عن تدخل السلطة . والمقصود بحق التثبيت حق الولاية العامة للمسلمين ، التى تستدعى تعيين رؤساء النصارى الدينيين ، باصدار مرسوم بتعيينهم ، سواء جاء موافقة على انتخابهم لواحد منهم ، أو بترشيح الخلافة له وتعيينه . ويدل على تلك الولاية ، والرجوع للخليفة فى تنصيب الأساقفة ، ومعاقبة الدولة لمن تصرف فى تلك الشؤون دون علمها واذنها ، وان الدولة كانت تراقب رؤساء النصارى الدينيين ، ماذكر من أن قسيس هندى وفد على البطرك سيمون السريانى الأصل يطلب اقامة أسقف لأهل الهند ، فامتنع حتى يستأذن الوالى ، اذ كان الهنود غير خاضعين للمسلمين ، لكن (تاوضروس) رئيس أصحاب (فنظاسياس) رسم له أسقفا ورسم له كاهنين ، غير أن رجال الخليفة مروان بن الحكم أسروهم ، فقطعت أيدى وأقدام الكاهنين والأسقف من خلاف ، وأمر عامله على مصر ابنه عبد العزيز بجلد البطرك (سيمون) وتغريمه وارساله الى دمشق لتجسسه لصالح الهند ، لكن الهندى برأ البطرك(٢).

---

(١) تاريخ الموارنة ، ٢٠٨/١-٢٠٩ .

(٢) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٨٣-٨٤ .

وكـذلك مـاروى أن نصارى قصبـة دمشـق احتكمـوا الى يحي بن حمزة [١] فى خلاف حدث بينهـم وبين رئيسهـم فى دينهـم وجمـاعتهم الـذين طرأوا عليهم من أهل القرى وعتـاقة العرب والغرباء ، مـن خلاف وفرقة ، وأنهـم غلبـوهم على كنائسهـم وهـم أهل العهد وأبناء البلـد ، فـوفى لهـم بعهدهم ، وقضى لهم بكنائسهم ، وقضى لمن نازعهم الـذين طرأوا عليهم بما لهم فى تلك الكنائس من حلية وآنية وغير ذلك [٢].

ولـدينا معلومات كثيرة عـن تولى الدولة حق تعيين البطـاركة أو منع ذلـك ، فان كنيسة بيت المقـدس الأرثوذكسية قد خلا كـرسى البطـركية فيها من البطاركة منذ موت صفـــرونيوس سنـــة (٦٣٨م/١٧هـ) حتى عــــام (٧٠٦م/٨٧هـ) ، وقــد أدار الكنيســة فى هــذه الفترة بطــاركة لم يتمتعـوا بصلاحيـات كاملة بل كانوا نوابا بطـريركيين ، وفى سنـة (٧٠٦م/٨٧هـ) زمن الـوليد بن عبد الملك ، عين يوحنـا الخامس كأول بطـريرك أصيـل للكرسى الأثوذكســى واستمـر أربعين عـاما ، ثم تلاه ثاودوسيـــوس حوالى سنـة (٧٤٥م/١٢٧-١٢٨هـ) حتى سنـة (٧٦٧م/١٥٠هـ) ، غير أن حج النصـارى الى بيت المقدس لم ينقطع طوال الفترات السابقة [٣]. وكان انتساب الملكانيين الى الامبراطـور البيزنطى على أثر مجمـع خلقيدونية (سنة ٤٥١م) سببـا لاتهـامهم بالميـل الى الـروم والتجسس لهـم ومطالعتهم باخبار المسلمين ، وهـو الـذى حمـل الخلفـاء المسليمـن على منـع قيـام بطـاركة لهم فى كراسيهـم الثلاثة ،

---

(١) يحي بن حمـزة الحضـرمى البتلهـى ، قـاضى دمشق وعالمهـا فى عصـره ، كـان من حفـاظ الحديث ، تولى القضاء نحوا مـن ثلاثين سنة ، وحديثـه فى الكتب الستة . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١٤٣/٨ .
وهذا يعنى أن الحادث حدث فى أوائل العصر العباسى ، ولكنـا أوردناه للاستشهاد لقرب العهد .

(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٩٠-٢٩١ .

(٣) شفيق جاسر ، تاريخ القدس ، ص٦١-٦٢ ؛ نجدة خماش ، الشـام فى صدر الاسلام ص١٣٤-١٣٦ .

انطاكية ، وبيت المقدس ، والاسكندرية ، وهو الذى جرأ اليعاقبة عليهم ، اذ غلبوا على جميع كنائس مصر ، وكان اسطفانوس أول بطريرك ملكى لانطاكية عينه هشام لأنه عزيزا عليه ، بعد شغورها أربعين سنة ، وقد سبقت عودتهم الى بطركية بيت المقدس ، والاسكندرية ، وانطاكية(١).

وبالرغم من شك الخلفاء فى الملكانيين ، فان اليعاقبة فى الشام لم يستطيعوا التفوق على الملكانيين كثيرا ، وغاية ماامتازوا به عليهم اطلاق المروانيين لهم حق اختيار بطاركتهم من رجال كنيستهم ، واختصاصهم هؤلاء البطاركة بالكرامة والحظوة ، فانه لما عقد اليعاقبة البطراكية لأسقف أفاميه ماراالياس ، وفد على الوليد بن عبد الملك ، فأحسن لقاءه ، بينما أخذ كنيسة الملكانيين الكبرى فى دمشق ليدخلها فى الجامع(٢). ولما مات (يوليانوس) بطرك أنطاكية لم يسمح الخليفة الوليد بن عبد الملك بتعيين آخر مكانه(٣).

وفى السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك أذن للبطريرك مارلياس فدخل انطاكية فى موكب حافل بعد مضى مائتين وثلاث سنوات على خروج ساويرس رأس الأرثوذكس منها(٤). وفى سنة (١٠٧هـ/٧٢٥م) أرسل الامبراطور ليو الايسورى هدية الى هشام بن عبد الملك ، فآتت أكلها حيث تمكن الخلقدونيون (الملكانيون) من سوق البطركية الى قزما (Kasmos) بعد أن أقاموا بلابطرك سبعا وسبعين سنة(٥). ولما توفى (اثناسيوس) بطرك أنطاكية عمد هشام الى تعيين خليفته واسمه (بحنس) ، كما عين جملة من

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٤-١٣٦ ؛ ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٨٢ .

(٢) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٩٦ .

(٣) ترتون ، نفس المرجع ، ص٨٢ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢١٣

(٤) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٩٧ .

(٥) ترتون ، نفس المرجع ، ص٨٢ .

الأساقفة معه[١]. ولـذلك شواهده من خارج الشام ، فقد ألغـى عبد العزيز ابن مـروان تعيين النصارى لجرجه بطـركا دون اذن الـوالى ، وعين بدلا منه اسحق الملقب بحنا[٢]. وفى سنـة ٧٦هـ/٦٩٥-٦٩٦م مات (يوحنـا السيناوى) فمنع الحجاج النصارى من اختيار جاثليق آخر مكانه[٣]. ويرى البعض أن رضـى الأمويين عن الملكانيين ، واعـادتهم الى كراسيهـم البطـركية بعد المنع الطـويل ، كـان نتيجـة للنزاع الـذى حدث بين الملكـانيين أنفسهـم ، الـروم البيزنطيين ، والـروم البلديين ، على أثر الحركـة اللايقـونية ، مما أزال ريبة هشـام مـن النصـارى الملكـانيين ، فـأذن لهـم باقـامة بطـاركة ملكـانيين مـن البلديين[٤]. غير أن عودة بعضهم قبل الحركة اللايقونية ، كعودة بطرك بيت المقدس زمن الوليد بن عبد الملك ، يجعلنا نعلل ذلـك بأسباب أخرى . يقول شفيق جاسر محمود[٥]: برغم تسامح الأمويين فانهم أخذوا على عاتقهم تعيين بطاركة القدس ، بعد أن كان ذلك من حقوق رؤسائها الـدينيين وذلك رغبة منهـم فى تأكيـد سيادة الدولـة الاسلاميـة فى نطاق دار الاسلام ، ووقـوفا فى وجه السيـادة الشخصيـة التى ادعتهـا البابوية . وفى كـل الحالات فـان تعيين البطـريرك كـان يستدعى موافقـة الخليفة أو الوالى . وبنـاء على مـاتقدم من شواهد ، فانه لم يعد مقبولا قول روبرت شيـك (Robert Schick)[٦]، بأن المسلمين فى العصر الأموى لم يتدخلوا فى الشئون الكنسية وأن المسيحيين هم الـذين اختـاروا بطريارك القـدس بعد وفاة صفرونيـوس سنـة ١٧هـ/٦٣٨م ، وظـل هذا الاتجاه حتى المجمـع الكنسى الذى عقـد سنة ٦١هـ/٦٨٠-٦٨١[٧].

---

(١) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٨٣ .

(٢) ترتون ، نفس المرجع ، ص٨٠-٨١ .

(٣) ترتون ، نفس المرجع والصفحات ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القـدس ، ص٢١٣

(٤) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٩٥،١٣٤-١٣٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص٢١٣ .

(٦) Robert Schick : op. cit., p.44 .

(٧) Ibid : p.44 .

وذكر روبرت شك مايشير الى افادة اليعاقبة من ميل المسلمين اليهم ، فقال : أن المذهب اليعقوبى انتشر بين نصارى الشام ، وأن النصارى فى فلسطين فى العصر الأموى كانوا على المذهب اليعقوبى(١).

ونتيجة للولاية الاسلامية على نصارى الشام فان عددا من النصارى ، وقع تحت طائلة العقاب الشرعى ، فيذكر روبرت شك : أنه قتل عدد من المسيحيين فى بيت الرسل ، سنة ٩٦هـ/٧١٤-٧١٥م بعد محاكمة شرعية لهم ، وفى غزة قتل ستين حاجا سنة ١٠٦هـ/٧٢٤-٧٢٥م ، وقبل ذلك سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م قتل ستون جنديا ، وأن عدد من قتل فى العصر الأموى ، أقل ممن قتل فى العصر العباسى(٢).

ويذكر روبرت شيك أيضا أن الوليد بن عبد الملك أمر أن يقتل كل النصارى الذين كانوا أسرى فى كل كنائس بلاد الشام(٣). ونحن لانعرف السبب الذى استوجب ذلك ، ومن هم هؤلاء الأسرى ، ولماذا كانوا مسجونين فى الكنائس غير أن المقبول أن أولئك الذين قتلوا ارتكبوا جرما جماعيا ، وان لم تعينه الروايات فقتلوا بحكم شرعى عادل ، لأن احدى الروايات ذكرت حدوث ذلك بعد محاكمة شرعية لهم ، وكان القضاء فى الصدر الأول من الاسلام مشهود له بالعدالة والنزاهة ، كما أن حادثةمنها حدثت زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، والثالثة فى العصر الأموى الذى اتسم بالتسامح مع النصارى ، والملاحظ أن تلك الأخبار لم أجد لها ذكرا فيما اطلعت عليه من المصادر العربية .

وأهم ماتذكر المصادر السريانية عن الوليد بن عبد الملك اتهامه بأنه أجبر بنى تغلب على اعتناق النصرانية(٤). والمصادر العربية لاتذكر ذلك ،

---

(١) Robert Schick : op. cit., p.44 .

(٢) Ibid : p.44 .

(٣) Healey, J.F : op. cit, p.8 K Jean maurice fiey : op. cit, p.18 .

(٤) Jean maurice fiey : op. cit, p.17-18 .

والدلائل تشير الى بقائهم على النصرانية بعد الوليد ، فيذكر أن عمر بن عبد العزيز لم يقبل منهم الا الجزية(١). وأن أناسا من نصارى تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز ، وهم متشبهون بالمسلمين ، فألزمهم عدم التشبه(٢). وفى ذلك ، مايبطل صحة الخبر .

ومع ماعرف عن الخليفة الوليد بن يزيد فى المصادر العربية والسريانية من اللهو ، فان المصادر السريانية تذكر مثالا يدل على غيرته على الاسلام ، وذلك أنه أمر بقطع لسان أسقف دمشق الخلقيدونى الذى اتهم أنه أساء للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر بنفيه لليمن(٣).

ويذكر جان موريس فاى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أصدر مرسوما سنة (٨٥هـ/٧٠٤م) بقتل كل من يشرب الخمر(٤). غير أنه لم يوضح أيشمل المسيحيين والمسلمين أم بعضهم . ومع ذلك فالخبر غريب ، ولايستساغ أخذه بالقبول عنه الخليفة الفقيه، فشرب الخمر عند المسلمين يستوجب الجلد ، والنصارى يستحلونه ، وترك لهم المسلمون شربه على ألا يظهروا ذلك بين المسلمين ، ولايتجروا به فى أمصار المسلمين(٥). أضف الى ذلك ، أن ليس لهذا الخبر ذكرا فى المصادر العربية . ومن شواهد الولاية الاسلامية القائمة على حسن المعاملة والتسامح أن عمر بن عبد العزيز أجاز للذمى أن يوصى بالوقف على الكنائس ولأهل ملته من ماله(٦).

ونستطيع اعتمادا على المعلومات المتوفرة بين يدينا أن نقول أن الأمويين مارسوا حق الولاية فيما يخص الناحية الدينية بالتسامح ، والوفاء

---

(١) انظر قبل : ص٣٣٢-٣٣٣ .

(٢) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٤٢/٢ .

(٣) Ibid : p.22 , J.F. Healey : op. cit, p.9 .

(٤) Jean maurice fiey : op. cit,16 .

(٥) انظر ذلك فى الموقف من الناحية الاجتماعية ، بعد : ص٤٣٧-٤٣٨،٤٤٩ .

(٦) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢١١ ؛ بارتولد ، عمر بن عبد العزيز ، ص٢٦٩ .

والمنطق وعلم الكلام ، وأساليبهم ومناهجهم وفكرهم ، من الأقدمين منهم ، أو من عاصرهم من خصومهم ، كيوحنا الدمشقى .

ان موقف الاسلام من مجادلة أهل الكتاب جلى وصريح بنص القرآن وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول الله تعالى : {**ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن**}(١). ولعل موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى مباهلة نصارى نجران وهو بوحى من الله ، يمثل الموقف الأمثل تجاه أى نداء الى الجدل والخصومة من أهل الأديان الأخرى ، فاكتفى عليه السلام بدعوتهم الى المباهلة عملا بقوله تعالى : {**فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**}(٢)، ذلك لأن النفس البشرية غالبا ماتتمسك بما تعتقده وان خالف العقل ودحضته البراهين . ولعل هذا يتفق مع قوله تعالى : {**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ، وماأنت بتابع قبلتهم ، ومابعضهم بتابع قبلة بعض** ...}(٣).

ومن أجل ذلك وضع القرآن مبدأ {**لاإكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى**}(٤). وفى اطار هذا المبدأ تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر الالهى : {**فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولووا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد**}(٥)، ولقد حافظ المسلمون على هذه المبادىء قبل الفتوح الاسلامية وفى الفترة التى أعقبتها مباشرة ، ولكنهم بعد ذلك اندفعوا فى جدال مرير مع أهل الكتاب ، وعللوا ذلك أن المنع كان للمسلمين الأوائل ، أما بعد اتساع الدولة واشتداد شوكة المسلمين ، وانتشار الاسلام

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٤٦

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦١

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٤٥

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٦

(٥) سورة آل عمران ، آية : ٢٠

فقد رأوا أن الجدل مسموح به ، واعتبره بعضهم جهادا فى سبيل الله(١). ومع ذلك فقد عد بعض الباحثين مناظرة نصارى نجران بداية الجدل النصرانى لأهل الاسلام(٢). والواقع أن انسياق المسلمين وراء ذلك كان بفعل تغير الظروف اذ مع اتساع الفتوح عمت الدعوة كثيرا من أهل الكتاب ، فأدى ذلك الى دفاع كل فريق عن عقيدته ، وجهد أهل الكتاب فى ايراد المبررات التى تحول دون قبولهم الاسلام ، فكان تبريرهم مشتملا على نقد الدين الاسلامي . ومن ذلك مثلا قول يوحنا الدمشقى : "أن المانع له من الدخول فى الاسلام ، هو أن المسلمين قد قبلوا الاسلام والقرآن دون شاهد على صحة رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)" ، أى دون أن يأتى محمد عليه السلام بمعجزة ، عند ذلك اضطر المسلمون الى دفع هذه الاتهامات ، واندفعوا يدرسون كتب أهل الكتاب ليجدوا فيها مايمكنهم من الرد على خصومهم ، وهكذا دار الجدل بين المسلمين والنصارى حتى يومنا هذا ، وقد تمخض عن ذلك الجدل عدد من الآثار(٣).

ويمكن القول أن القرنين السابع والثامن الميلادى كانا ذروة الحركات والمذاهب الدينية المسيحية ، وشهدا انبعاث فى العلوم الفلسفية خصوصا فى بلاد الشام والعراق ، وظهر فى الشام عدد كبير من العلماء والمدارس . لكن بفتح المسلمين بلاد الشام أخذت الحركات الفكرية المسيحية اتجاها جديدا ، فمع بداية العهد الأموى اختفت تقريبا الجداليات اللاهوتية العنيفة بين الكنائس المختلفة ، وحلت محلها دراسات فيولوجية(٤)وفلسفية وتاريخية ، وأخذت الأدبيات الجدلية المسيحية تهدف للدفاع عن المسيحية أمام الديانة

---

(١) أبو البقاء ، الرد على النصارى ، حققه وقدم له محمد محمود حسانين ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دراسة المحقق ، ص٢٣-٢٥ .

(٢) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٧ .

(٣) أبو البقاء ، نفس المصدر ، دراسة المحقق ، ص٢٥-٢٦ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٣٣٤/٣ .

(٤) الفيلولوجيا : هو علم يبحث عن أصول الكلمات واشتقاقها ، وهى كلمة يونانية أول من استعملها أفلاطون ، وتعنى "الذى يحب الكلام" أو "الذى يحب الجدل" واتسع مدلولها فى العصر الحاضر فصارت تعنى مجموع المباحث التى تؤدى الى معرفة حياة الشعوب ، وأهم أغراض المعارف الأدبية ، دون العلوم الفلكية والرياضية والطبيعة .
محمد فريد وجدى ، دائرة معارف القرن الرابع عشر ، العشرين ، الطبعة الثانية ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ، ٥٨٠/٧ .

الاسلامية ، التى انتشرت بين المسيحيين بسرعة (١).

والأدب المسيحى الفكرى له تاريخ طويل ، نتيجة الدفاع عن المسيحية ضد الديانات القديمة ؛ والحركات الفلسفية المختلفة ، وللاختلاف بين الطوائف المسيحية ، وقد اشتهرت بلاد الشام بعدد كبير من المفكرين الدينيين وكانوا يرون تفوقهم الفكرى والفلسفى على المسلمين أول التقائهم بهم ، لكنهم اضطروا للدفاع عن دينهم وقاموا بتدريس الفلسفة اليونانية فى مدارسهم ، حيث نشطت حركة الاهتمام بالفلسفة فى أعقاب الفتح الاسلامى وقد حصل ذلك عن طريق المناقشات الشفوية ، ثم تطورت الى دراسات وجدليات طويلة لاتزال قائمة حتى الآن (٢) .

وموضع الجدل هو نقاط الاختلاف بين الاسلام والمسيحية ، سواء فى الأمور الجوهرية والأصول كعقيدة التوحيد أو فى الفروع والتفاصيل (٣).

وقد ساعد المتكلمون على مزج الثقافات للاطلاع على ديانات أهل الذمة ؛ ووجدوا أصحابها قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية ، فأقبل المتكلمون على دراستها للرد على خصومهم الذميين ، وبذلك ساعدوا على ادخال الفلسفة اليونانية الى الاسلام . وقد أشار المقريزى الى أى حد بلغ تهافت المعتزلة على كتب الفلاسفة ، وظهر جليا أثر الجدل الفلسفى المنطقى (٤) اليونانى المسيحى فى فكرهم (٥).

---

(١) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤٠٩ .

(٢) جورج عطية ، نفس المرجع ، ص٤٠٩-٤١٠ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص١٠٢-١٠٣ .

(٣) جورج عطية ، نفس المرجع ، ص٤٠٨ .

(٤) علم المنطق : أحدثه أرسطو طاليس الحكيم وسماه تعليمات ، وقد جرده من كلام القدماء ، وإلا فلم تخل الحكمة من قوانين المنطق قط . وكان مفهوم المنطق عند أرسطو ، فن التفكير الصحيح ومنهجه ، وقد عده أساس الفكر والعلوم ، وموضوعه ، المعانى التى فى ذهن الانسان من حيث يتأدى بها إلى غيرها من العلوم ومسائله البحث عن أحوال تلك المعانى من حيث هى كذلك .
انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٣١٣ ؛ طه باقر ، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، ٥٩٤/٢ .

(٥) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٩٢ ؛ دى لاسى أوليرى ، الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ، نقله الى العربية وعلق عليه اسماعيل البيطار ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص١٠٩ ؛ سهيل قاشا ، نفس المرجع ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٨٢م ، ص٩٧ .

ويمكن أن نعد بعض الحوارات ومادار فى المفاوضات بين قادة المسلمين ورسلهم من ناحية ، والروم وأهل الشام من ناحية أخرى ، خلال حركة الفتح وهم يدعونهم الى الاسلام انما كانت نوعا من أنواع الجدل والمناقشات.

ولنا أن نأخذ رد أحد نصارى الشام على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى خطبته بالجابية ، لما أتى الشام لفتح بيت المقدس نموذجا جدليا شفويا . فيذكر أن عمرا قال فى خطبته : "الحمد لله ، ... ، الذى من أراد أن يهديه من عباده اهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" ، وفى رواية : "ان الله تعالى يضل من يشاء ويهدى من يشاء" . فاذا أحد القسيسين النصارى ممن كان عنده ، ينفض جبته ، ويقول : "معاذ الله ، لايضل الله أحدا يريد الهدى" ، وفى رواية :"الله تعالى أعدل من أن يضل أحدا" ، فبلغ ذلك عمر ، فبعث اليه : "بل الله أضلك ، ولولا عهدك لضربت عنقك" . وفى رواية أنه سأل ماذا يقول النصرانى ، فأخبروه ، فرفع عمر صوته وأعاد مقالته الأولى ، ففعل النصرانى فعله الأول ، فغضب عمر وقال : والله لئن أعادها لأضربن عنقه ، ففهم النصرانى قول عمر وسكت ، ثم عاد عمر فى خطبته فقال : "من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلاهادى له" ، فسكت النصرانى(١).

كما وصلنا من أخبار تلك المناقشات الشفوية ، المناقشة التى حدثت بين عمرو بن العاص رضى الله عنه والبطريرك اليعقوبى يوحنا الأول فى لقاء تم سنة (١٨هـ/٦٣٩م)(٢). وأضاف جورج عطية : أنه تلا المناقشات

---

(١) انظر : الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٤٢/٢ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص٢٢٠-٢٢١ .

(٢) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤١٠ . وقد أورد فحوى المناقشة التى كتبت فى رسالة وجهت من أحد كتاب البطريرك الى كنائس مابين النهرين ، يخبرهم بما دار فيها ، لكنها من أصل يونانى على لسان ذلك الكاتب ، ومضمونها مناقشة عمرو للبطريرك فى العقيدة والشريعة المسيحية ، وقد انتهى الحوار بلانتيجة . وقد آثرنا عدم ايراد نصها ، لعدم الثقة بها ، وأنها ليست فى المصادر العربية فتقارن ، انظر نصها : نفس المرجع ، ص٤١١-٤١٤ .

الشفـوية مناقشات كتـابية . فنرى ابراهيم بيـت هـالة يؤلـف حوالى سنـة (٦٧٠م/٥٠هـ) مقـالة جدليـة بأسلـوب حوار بين مسلم ومسيحـي . ونرى اثنـاسيوس البلـدى ، البطـريرك اليعقـوبى (٦٨٤-٦٨٦م/٦٤-٦٧هـ) يكتـب رسالة بطريركية عن كيفية تصرف المسيحيين بين المسلمين ، ويظهر أن الجدل الاسلامـى المكتوب لم يظهر حتى العصـر العباسى ، فالـوثائق التى لـدينا حتى الآن هـى وثائق مسحيية ، وتعطـى وجهة النظر المسيحيـة ، اذ لايوجد لهـا ممـاثل فى الأدب الاسلامـى فى فترة العهـد الأموى ، فـان أكثر مـاوصلنا فى اللغـة العربية جاء فى العصر العباسى ، ولايمكن الاعتمـاد عليه كليا ، ويذكر جورج عطيـة ، أن مـاوصل حول مـوضوع الجدل هى وثائق فى لغـات غير عربية كالسريانية واليونانية(١).

وكـانت دمشـق عـاصمة الدولـة الأمـوية مسرحا لكثير مـن المنـاقشات الدينية ، مابين المسلمين والمسيحيين ، وبين المسيحيين أنفسهم ، ومنها الحوار الـذى دار بين اليعاقبة والموارنة فى مجلس معاوية بن أبى سفيـان رضى الله عنه(٢). فيـذكر أن سـاويرا سابوخت أسقـف قنسرين اليعقـوبى ، فيلسـوفا ، كان على عهد السفيانيين فى الشـام يمثل الحركة الأدبيـة ، وقد جادل الموارنة بحضرة معاوية رضى الله عنه سنة (٦٥٩م/٣٨-٣٩هـ) وألف مقالات ورسائل عديدة فى الحساب والفلك والاسطرلاب والفلسفة واللاهوت(٣).

ومـن أكبر المناظرات تلك التى سجلها يوحنا الدمشقـى ، وثيودور أبو قرة ، وهى معروفة(٤). كمـا يذكر أن المناظرات بين المسلمين والنصـارى لم تقـف عنـد حدود الـدولة الاسلاميـة ، فيـذكر ابن قتيبـة حوار فكـرى بين الامبراطـور البيزنطى ومعاوية بن أبى سفيـان ، وهو عبـارة عـن عدة أسئلة

---

(١) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤١٠ .

(٢) انظر قبل : ص٣٨٦ .

(٣) محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٩/٤ .

(٤) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٧ .

وجهها الامبراطور لمعاوية ، فاستعان فى اجابته عليها بحبر الأمة عبد الله بن عباس [١]. وكذلك المناقشة الجدلية التى حدثت بين عمر بن عبد العزيز والامبراطور البيزنطى ليو الايسورى [٢].

ومن أمثلة الحوار والجدل الدينى مادار بين خالد بن يزيد بن معاوية ، وبين راهب نصرانى ، ومما دار بينهما : قول الراهب : ألستم تزعمون فى كتابكم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولايبولون ، فقلت له : نعم ومثله فى الدنيا ، مثل الصبى فى بطن أمه يأتيه رزق الرحمن بكرة وعشية ، لايبول ولايتغوط ، فتربد وجهه ، ثم قال : ألستم تزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولاينتقص مما فى الجنة شىء ، فقلت نقول ذلك ، ومثل هذا فى الدنيا ، مثل رجل آتاه الله علما وحكما ، فلو اجتمع جميع الخلق فتعلموا منه مانقص من علمه شىء . وحين نبهه خالد الى زعمهم ان لله ولدا ، قال الراهب : "لاغفر الله لمن قالها ، منها فررنا ، واتخذنا الصوامع" . وهذا يبين بقاء بعض النصارى على الوحدانية وأنهم فروا الى الرهبنة لادعاء النصارى ذلك [٣].

وقد ذكر جميل المصرى ، أن الصراع بدأ بين الاتجاهات الوثنية للنصرانية من خلال فكر بولس ، والمسيحية الموحدة ، وطورد أتباع المسيح الأوائل ، واضطهدوا من اليهود والرومان الوثنيين ، حتى اضطروا الى التخفى فى المغارات والكهوف ، وأنه قد بقى بصيص من الوحدانية عند بعض النصارى رغم ذلك ، وأن هؤلاء الموحدين أسلموا عندما بلغتهم الدعوة الى الاسلام ، ولعل من بقايا هؤلاء الذين أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة مؤتة ، كما أوصى بهم أبو بكر رضى الله عنه

---

(١) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤١/٣-٣٤٢ [نقلا عن : ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ١٩٩/١-٢٠٠] .

(٢) انظر بعد : ص٤٣٠ .

(٣) خليل داود الزرو ، الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى الهجرى ، دار الآفاق ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١م ، ص١٢٤-١٢٥ .

فى فتح الشام ، وكانوا قلة كما يظهر من قصة سلمان الفارسى رضى الله عنه . ولعل طائفة البوجوميل مثال رائع على ذلك ، وقد وجدت هذه الطائفة فى اقليم البوسنة ، وقد رفضت الخرافات المسيحية ، ولم تنصاع لأوامر الكنيسة والبابوية ، واضطهدوا حتى جاء الفتح العثمانى لبلادهم ، فدخلوا فى الاسلام أفواجا عن رضا وقناعة ، لضئالة الفرق بين مذهبهم والاسلام(١).

ومافعلوه من اعتناق الاسلام كان الهدى ، واتباع سبيل الحق ، فليس لمن بقى على الوحدانية من بقايا أهل الكتاب الا الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والا كان من أصحاب النار .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية(٢): وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "**ان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب**"(٣)، وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على دين الله عز وجل . وأما من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : "**والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولايؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار**"(٤).

---

(١) جميل عبد الله المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية (زمن الدولة الأموية) ، دار أم القرى للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص٦٧-٦٨،٧٩-٨٠ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، طبعة مطابع المجد ، ٢٠٥/١ .

(٣) مسلم ، صحيح مسلم ، ٢١٩٧/٤-٢١٩٨ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ١٦٢/٤ (من حديث طويل) .

(٤) خرج الحديث قبل ، انظر : ص٨٦ .

يقـول جورج عطية : ومن أهـم ماوصلنا بعد وثيقـة الحوار بين عمرو ابن العـاص والبطريرك يوحنـا الأول فى أوائل العهـد الاسلامـى ، مـن المنـاقشات المكتوبة ، هـو مـاكتبه بعد فترة طويلـة مـن الـوقت يوحنـا الدمشقى(١)، الذى يعتبر من آباء الكنيسة الشرقية ، كقائد فكـرى فى الدفاع عن العقيدة المسيحيـة ، اذ استخدم الفلسفـة الهلينيـة(٢)، والهيلينستية(٣)، لتفسير العقيـدة المسيحية ، واضعـا الأساس العقلانى بجانب الـدينى فى خدمـة الايمان الأرثوذكسـى ، وله مـؤلفات عديدة يهمنا منها هنـا ماكتبه عن الدين الاسلامـى ، وهـو الفصـل ١٠٠/١٠١ مـن كتـاب "فى البـدع" و"المنـاظرة بين المسيحـى والمسلم" ، عدا بعـض الاشارات والتلاميح فى كتـابات أخرى قليلـة الأهميـة ، ففـى كتـاب "فى البـدع" كـان يوحنـا يعد الاسلام احدى البـدع المسيحيـة ، ويبدو مما كتبـه أن معرفته بالاسلام لم تكـن سطحية وان كانت غافلة عن أمور مهمة ، وهو يتحـدث عن المسلمين كأبنـاء اسماعيل ، ويعتبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم مقدما للمسيح الدجال ، وأنه وقع على كتابى العهد القديم والعهد الجديد فأخذ عنهما أشياء ، وأنه أخذ عن الراهب بحيرا الأريوسى أشياء أخرى ، وذكر مافى القرآن عن المسيـح عليه السلام ، ومن ثم يشكـك فى صحة نبوة محمـد صلى الله عليه وسلم ، باعتبـار أن ليـس لها

---

(١) عن يوحنا الدمشقى ترجمته ومؤلفاته ، انظر بعد : ص٤٠٨-٤١٠ .

(٢) الهلينيـة : حضـارة خرجت الى الـوجود فى أواخر الألـف الثـانى قبـل الميلاد ، واستمرت حتى القرن السابع الميلادى . وقد ظهرت على جانبى بحر ايجه ، واتسعت حتى امتـدت الى أجزاء كبيرة من آسيا وافريقية وأوروبا . ومـن المرجح أن لفظة "الهلينيين" بمعنى سكـان "هيلاس" منطقـة باليـونان ، وأضحـت تدل على "أعضـاء المجتمـع الهلينى" ، والحضارة الهلينيـة ليست ذات جوهر جغـرافى أو لغـوى وإنما اجتمـاعى ثقـافى ، وطريقة متميزة مـن طرق الحياة ، تجسمـت فى منظمـة عليا هى المدينة الدولة ، وهى مزيج الحضارة اليونانية والرومانية .
ولمعلـومات أكثر تفصيلا انظر : أرنولـد توينبى ، تاريخ الحضـارة الهلينية ، ترجمة رمـزى جرجس ، مكتبة الانجلـو المصرية ، ١٩٦٣م ، ص٧-٢١ ؛ طـه باقر ، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، ٥٥٣/٢ .

(٣) الهلنستية (Hellenistque) هى الفلسفة التى ظهرت إبان العصور التى سـادت فيهـا الثقـافة الاغريقية دول البحـر الأبيـض المتوسط ، لأنهـا تحمـل طابع الفلسفة "الهيلينيـة" ولم تكـن هيلينيـة خالصـة كفلسفة العصر السـابق عليهـا . وانتهت فى القرن السادس الميلادى .
محمـد غلاب ، الفلسفة الاغريقيـة ، الطبعة الأولى ، القـاهرة ، ١٩٣٨م ، ص١٣١-١٣٥ .

شهادة أى لم يعلن عنها الأنبياء مسبقا كما فعلوا بالنسبة للمسيح[1]، ويدافع عن عيوب الديانة النصرانية المحرفة ، كالتثليث (الشرك) ، والوثنية بعبادة الصليب ، ويتحدث عن تعدد الزوجات وغير ذلك ، مما يراه فى الاسلام مخالفا للمسيحية ، وهذا الفصل ليس فصلا جدليا بالمعنى المعروف ، أما مايتعلق بالجدل مباشرة فهو مقالته :"المناظرة بين المسلم والمسيحى" ، ولهذه المقالة أهميتها الخاصة لتركيزها على قضايا فلسفية أثيرت فيما بعد فى علم الكلام[2].

وقد أورد جورج عطية نص مقالة يوحنا الدمشقى "المناظرة بين المسلم والمسيحى" ، وهى عبارة عن جدل على صيغة سؤال وجواب بين مسيحى ومسلم تركز على قضايا فلسفية ، أثيرت فيما بعد فى علم الكلام ، وفيها علة الخير والشر ، والقدرة الانسانية ، والقضاء والقدر ، والعدل الالهى ، والقدرة الالهية ، وكلمة الله ، ونطقه ، والنبوة . وبعد أن أورد النص ناقش مدى أثر الجدل المسيحى على المسلمين فى نشوء علم الكلام الاسلامى للتأكد من صحة قول بعض المؤرخين الغربيين ان علم الكلام هو نتيجة للتأثر بالفكر الدينى المسيحى ، فقال : كان العصر الأموى عصر نقل وتحضير ولكن نزعة التفكير الفلسفى ظهرت خلاله بدافع العقائد الدينية والجدل الدينى ، فقد واجه الاسلام عدة مسائل جوهرية منها مسألة الخلافة ، وقدرة الانسان على أعماله ، ومسألة خلق القرآن ، والصفات الالهية ، فظهرت عدة فرق دينية وفكرية ، كالمرجئة ، والخوارج ، والقدرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وظهر عدد من المفكرين ، منهم معبد الجهنى (ت٦٩٩م/٨٠هـ) ، والحسن البصرى (٧٢٨م/١٠٩-١١٠هـ) ، وغيلان الدمشقى (قبل ٧٤٣م/١٢٥-١٢٦هـ) ، وواصل بن عطاء (٧٤٨م/١٣٠-١٣١هـ) ، وقد عاصر هؤلاء جميعا يوحنا الدمشقى . وعند تحليلنا للوثيقة التى تركها يوحنا نرى فيها عددا من النقاط التى أثيرت فى الفرق الكلامية الاسلامية ، وكانت دمشق مركز التنظيرات فى القدر والجبر ، ومنها انتشر هذا التفكير الى أنحاء الدولة الاسلامية ، ويمكن القول أن فى أوائل العصر الأموى كانت العلاقة قوية بين السياسة والنظريات الدينية الفكرية ، وبالتالى فالأرجح أن أصحاب هذه الفرق فى

---

(١) تحدثنا عن علم النصارى وأهل الكتاب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، لما حوته كتبهم من البشارات به ، انظر قبل : ص٧٠-٧٧ .

(٢) الجدل الدينى ، ص٤١٤-٤١٦ .

صراعهم السياسى الدينى كانوا اذا وجدوا فكرة مسيحية صالحة لوجهة نظرهم ، يأخذون بها ويتبنونها . ونحن لانعرف هل كان يوجد علاقة بين غيلان ويوحنا الدمشقى أو غيره من المفكرين المسيحيين ، وأنه يعرف تلك الأفكار المسيحية ، لكن ثمة تقارب بين أفكار القدرية وموقف يوحنا فى الخير والشر ، ومع هذا التشابه فى الطروحات فهناك اختلاف أساسى فى مفهوم القدرة الذاتية أو الاستطاعة ، كما لانستطيع اثبات علاقة بين يوحنا وواصل بن عطاء مؤسس المعتزلة ، مع اتفاق الاثنين فى التشدد فى موضوع العدالة ، بينما كان موقف يوحنا من خلق القرآن أقرب لأهل السنة والجماعة لاالمعتزلة ، وان كان مما لاشك فيه ان كان ليوحنا أثر كبير فى تطور قضية خلق القرآن فى علم الكلام فيما بعد ، خصوصا بواسطة تلميذه ثيودور أبو قرة ، الذى كتب بالعربية فى عصر المأمون وخصوصا فى استخدام الأسلوب والمنهج المنطقى .

ونذكر نقطة هامة لها علاقة بأثر يوحنا فى نشوء علم الكلام وتطوره وهو التشابه فى ترتيب كتب الأصول خصوصا المعتزلية وكتاب يوحنا "فى الايمان القويم" ، والخلاصة "المناظرة بين المسلم والمسيحى" تدلنا على المواضيع التى كانت تهم المفكرين المسيحيين والمسلمين ، لكنها لاتبرهن على أن تطور علم الكلام كان نتيجة للأثر المسيحى ، ومع أن الأفكار والقضايا التى ناقشها وطورها علماء المسلمين موجودة فى الأدبيات المسيحية ، ووجود تشابه بين علم الكلام الاسلامى وعلم اللاهوت المسيحى ، فلايمكننا أن نكبر حجم تأثير علم اللاهوت وخصوصا يوحنا فى علم الكلام ، فلقد أخذ المفكر المسلم طريقا مختلفة مأخوذة من الأصول القرآنية ، واللغة العربية ، ولو نرى الى أبعد من ذلك نرى علم الكلام الاسلامى ترك فى العصور التالية أثرا كبيرا فى علم اللاهوت المسيحى (١).

وقد وضع يوحنا الدمشقى الأساس للنصارى فى مناقشة المسلمين فى عقائدهم ، والدفاع عن النصرانية ، كما بلغ النقاش ذروته عندما رحل

---

(١) انظر نص مقالة يوحنا الدمشقى :"المناظرة بين المسلم والمسيحى" ، وقول جورج عطية السالف فى : الجدل الدينى ، ص٤١٦-٤٢٦ ؛ وأيضا فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٢/٣ .

يوحنا النقيوسى من مصر بعد فتحها الى الحبشة ، وبدأ يرسل رسائله الى أقباط مصر يحاول فيها مناقشة العقائد الاسلامية والحيلولة دون اعتناقهم الاسلام(١).

وكان غرض يوحنا من كتاباته أن تكون شرحا للمسيحية وتبريرا لها ودليلا لهداية النصارى فى مناقشة المسلمين ، ودفاعا عن عقيدتهم ، وربما كان ذلك لعمق ايمانه بالمسيحية وخوفه عليها من الزوال ، عندما رأى المسيحيين يدخلون فى الاسلام أفواجا ، فأراد أن يضع لهم منهجا ثابتا وطريقا واضحا . ومن المحتمل أن تكون مادته من المناظرات التى كانت تجرى أمام الخليفة ، وكان هو يشترك فيها ، مما يدل على معرفته بالاسلام ، وهذا يدل على مدى الحرية الفكرية والدينية التى كان يتمتع بها النصارى بالشام فى ظل الحكم الاسلامى (٢). وقد نقل كثير من مؤلفات يوحنا الدمشقى على يدى المترجمين الى العربية(٣).

ولم يقتصر دور يوحنا فى الدفاع عن المسيحية ومذهبه على مجادلة المسلمين ، بل حارب الهراطقة المتمسكين بفلسفة أرسطو ، وأصلح بعض نظرياته ولاسيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعى وعلم الأخلاق وخلود النفس وأخذ عنه كثيرا من التحديدات وأضاف عليها أشياء كالفرق بين الطبيعة والجوهر والأقنوم ، واستعان بها على انشاء تعابير خاصة بعلم اللاهوت مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة(٤).

كما وقف يوحنا الدمشقى مدافعا عن الايقونات من داخل الدولة الاسلامية لما قامت الحركة اللاايقونية التى قادها الامبراطور ليو الثالث

---

(١) جميل عبد الله المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص٨٨ .

(٢) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٩٨ ؛ جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤١٥-٤١٦ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٤/٣ ؛ وانظر عن مدى الحرية الدينية التى منحها المسلمون لنصارى الشام ، قبل : ص١٩٠ ومابعدها.

(٣) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٨٠ .

(٤) خليل الزرو ، الحياة العلمية ، ص١٢٤ .

الأيسورى ، عندما أصدر أمره سنة (١٠٧-١٠٨هـ/٧٢٦م) بازالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس فى كافة ولايات الدولة البيزنطية ، بعد أن كان الخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصدر مرسوما بكسر الأصنام والتماثيل والصلبان وازالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة سنة ١٠٢هـ/٧٢٠-٧٢١م . غير أن موقف يوحنا الدمشقى لم يكن موجها تجاه المسلمين ولاللتصدى لمرسوم الخليفة يزيد داخل الدولة الاسلامية ، وانما ضد الحركة اللايقونية فى الدولة البيزنطية ، وهو مايبرر افتراض أن مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك لم يكن موجها ضد الايقونات عند النصارى فحسب ، وانما ضد الصور والتماثيل التى يحرمها الاسلام(١).

وربما كان موقف يوحنا الدمشقى ونصارى الشام سلبيا تجاه مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك بعدم قدرتهم على التصدى له ومواجهة الدولة الاسلامية ، وانما انبرى يوحنا فى التصدى لسياسة ليو الايسورى اللايقونية كونه بمأمن فى دار الاسلام أن تطوله يد الامبراطور . فلم تمنع السلطات الاسلامية رعاياها المسيحيين من الادلاء بآرائهم عندما اشتد النزاع والجدل حول مسألة الأيقونات ، على الرغم أنها لم تقر عبادة الايقونات فى أراضيها(٢). وتحررت كنيسة القدس وسائر الكنائس الملكانية تحت حكم المسلمين من نفوذ القسطنطينية ، وماجرى من خلاف حول موضوع الايقونات . وفى ظل الدولة الأموية المتسامحة تحسنت أحوال هذه الكنيسة وقاوم يوحنا الدمشقى السياسة اللايقونية ، ونبغ كعالم لاهوتى فى المدرسة اللاهوتية فى بيت المقدس ، واعتبر من أوائل ناظمى التسابيح وأعلاهم درجة(٣). ويعتبر يوحنا الدمشقى زعيم الكنيسة والمدافع الأساسى عن

---

(١) انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٣٠٠ ومابعدها ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٤/٣ .

(٢) ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، دار الجيل ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، ص٢٩٣-٢٩٤ .

(٣) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦٢ .

الايقونات ، وقد صاغ الأدلة اللاهوتية لاستخدام الايقونات التى اعتمد عليها فى الدفاع عند الأيقونات . وكان يعيش داخل الدولة الاسلامية ، وقضى سنواته الأخيرة داخل الأديرة القريبة من بيت المقدس ، وبهذا كان بمأمن أن تصل اليه يد السلطة الامبراطورية(١).

ويعتبر أيضا يوحنا الدمشقى القائد الفكرى فى الدفاع عن المسيحية ، واستخدم الفلسفة اليونانية والهيلنستية ، لتفسير العقيدة المسيحية ، واضعا هذا الأساس العقلى بجانب الدينى فى خدمة المذهب الأثوذكسى(٢).

وقد دافع عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة ، مع التشديد بأن المعبود ليس هو مادة الصورة بل ماتمثله ، فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور ليو الايسورى يعمل لابطال الأيقونات ، فتعرض لغضب الامبراطور ، وقبل وفاته بوقت قصير ، قام بجولة واسعة فى سورية ، داعيا الى مقاومة مبطلى الايقونات ، وبلغ من جرأته أن قصد القسطنطينية ، معرضا حياته للخطر(٣). ولما قامت حركة تحريم تكريم الأيقونات المقدسة ، باعتبارها عبادة وثنية ، هب يوحنا بكل مالديه من قوة وثقافة يدافع عن التمسك بالسجود للايقونات المقدسة ، موضحا أن هذا السجود انما هو تكريم للأشخاص الممثلة فى الأيقونات ، وليس على الاطلاق عبادة الصور ، وقد وضع أسسا ثابتة ونهائية لتكريم الايقونات ، فعقد الامبراطور قسطنطين مجمعا سنة (٧٥٤م/١٣٦-١٣٧هـ) فى هييرا ، مؤلفا من (٣٣٨) أسقفا ، تخلف عنه بطاركة الاسكندرية وانطاكية والقدس ، ورفض الحاضرون تكريم الايقونات ، واعتبروا مخالف ذلك متمردا على وصايا الله وعدوا مخالفا للعقيدة ، وحرموا أشهر المدافعين عن الأيقونات وهم جاورجيوس القبرصى

---

(١) ج.م.هسي ، العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، الناشر مكتبة سعيد رأفت ، مؤسسة الوفاء للطباعة ، القاهرة ، ص١٣٧ .

(٢) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ٤١٤/١ .

(٣) حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م ، ص١١٧ .

وجرمانوس القسطنطيني ، ومنصور "ذا الاسم المشؤوم الذى يعلم الآراء المحمدية"(١)أى يوحنا الدمشقى ، الا أن مجمع نيقيه الثانى (٧٨٧م/ ١٧٠-١٧١هـ) بعد أن ثبت تكريم الأيقونات ، أعاد لهؤلاء المحرومين فى مجمع هييرا كرامتهم(٢).

ويوحنا الدمشقى هو منصور بن منصور بن سرجون بن منصور ، تنسك وراح يتعمق فى اللاهوت على يد يوحنا بطريرك كنيسة بيت المقدس ، وهناك اتخذ اسم يوحنا ربما تيمنا بأستاذه البطريرك . وقد اختلف المؤرخون فى مولده فقيل حوالى سنة (٦٧٥م/٥٥-٥٦هـ) ، وقيل وهو الأرجح مابين سنتى (٦٥٥/ ٣٤-٣٥هـ و٦٦٠م/٣٩-٤٠هـ) بدمشق من أصل عربى كما يدل على ذلك اسم منصور ، ومن عائلة عريقة وغنية ، عرفت بتمسكها بالنصرانية ومحبتها للعلم وبمكانتها السياسية والاجتماعية ، وكان لها صلتها القوية بالدولة الأموية . وتولى جده وأبوه مناصب رفيعة فى حكومة بنى أمية ، وورث ذلك عن أبيه وكان رفيقا ليزيد بن معاوية ، وقد عمل مدة من الزمن فى ادارة الدولة ، ثم ترك الوظيفة لأسباب مجهولة ، وانصرف للزهد فى دير مارسابا فى فلسطين جنوب بيت المقدس . وقد حصل يوحنا الدمشقى منذ نعومة أظفاره على

---

(١) أولا ، ليس فى الاسلام ، نسبة شىء الى اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لاأمته ولاشريعته ، كما حدث عندهم بنسبتهم الى المسيح أمة ودينا .
والآراء المحمدية كما يقولون ، تنص على تحريم التصوير ، فكان يوحنا يعلمها ، ولكنه لم يتبع الحق ، بل استهواه الباطل ، وأجهد نفسه فى الدفاع عنه ، ولو كان الحق وجد الى قلبه سبيلا لكان ممن أسلم من نصارى الشام ، بحكم اختلاطه بالمسلمين ومعرفته حقيقة الدين ، غير أن الله لم يرد له خيرا . (انظر عن حكم التصوير فى الاسلام : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص ومابعدها) .

(٢) القديس يوحنا الدمشقى ، المئة مقالة فى الايمان الأرثوذكسى ، عربه عن النص اليونانى ، الأرشمندريت ادريانوس شكور ، ق.ب ، (ويمثل الجزء الثالث من كتابه "ينبوع المعرفة") ، منشورات المكتبة البولسية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، المقدمة بقلم ميخائيل أبرص ق.ب ، ص٣٧-٣٨ .

ثقافة أدبية وفلسفية ودينية مهمة ، وكان معلمه راهبا من جزيرة صقلية من أسرى الحرب ، اشتراه والده ثم أعتقه وعهد اليه بتعليم ابنيه يوحنا ، وقزما ابنه الثانى بالتبنى ، فأتقن اليونانية لغة الطبقة الراقية من كبار المتعلمين ، واللغة السريانية لغة الشعب ، ومن المؤكد أنه كان يعرف العربية أيضا لغة عائلته الأصلية ، وكان معلمه وأخوه بالتبنى قد لحقا بحياة الرهبانية فى دير مارسابا فى فلسطين ، ثم لحق بهما يوحنا وقد بلغ الثلاثين من عمره ، فتنسك وأخذ يتعملق فى اللاهوت على يد بطرك بيت المقدس . وأخذ ينزوى فى صومعته فى دير مارسابا يؤلف مع أخيه الترانيم والقوانين الدينية التى لازالت الكنيسة تترنم بها حتى الآن ، وكانت قريحته فياضة حتى دعى بـ"مجرى الذهب" ، واختاره بطريرك بيت المقدس قسيسا دون ارادته ، فزاد من نسكه وانعطف على تصنيف أقواله التى سرت بين النصارى ، وقضى حياته فى النسك والتأليف . وماكاد يموت حتى ذاع صيته ، وأخذ النصارى فى تكريمه وانشاد تآليفه والرجوع الى كتبه اللاهوتية ، وهو مادعى البابا لاون الثالث عشر على اعلانه سنة (١٨٩٠م/١٣٠٧-١٣٠٨هـ) : "معلما للمسكونة" فى مصف سائر آباء الكنيسة الجامعة ، وكان قد توفى على الأرجح سنة (٧٤٩م/١٣١-١٣٢هـ) فى الدير المذكور ، ودفن هناك ، ثم نقلت عظامه فى القرن الثانى عشر الميلادى على مايبدو الى القسطنطينية(١).

أما عن تأليفاته وجدالياته فانه كان يؤلف باليونانية ويحسن العربية ويتكلم الآرامية وله مناقشات مع علماء المسلمين حول حرية الارادة والقضاء والقدر ، وكانت تآليفه كلها باليونانية ، وعربت الى العربية على يد الانبا انطونى (القرن العاشر الميلادى) ، والشماس الملكانى عبد الله بن فضل الأنطاكى (ت١٠٥٤م/٤٤٥-٤٤٦هـ) وغيرهما ، وقد نشر منها القليل ولازال أكثرها مخطوطا ؛ وكان قد وضع عددا من المؤلفات ، ومنها فى علم اللاهوت

---

(١) عن حياته مولدا ونشأة وتعلما وعملا وتنسكا ، انظر : جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤١٤-٤١٥ .

كتاب "ينبوع الحكمة" وهو يأتى فى مقدمة مؤلفاته ، وقد كتبه فى أواخر حياته بعد سنة (٧٤٢م/١٢٤-١٢٥هـ) ، وثلاث مقالات للدفاع عن الايقونات المقدسة ، كتبها بعد صدور مرسوم الامبراطور ليو الأيسورى ضد تكريم الايقونات ، و"المناظرة بين مسلم ومسيحى" . غيرها . ويقع كتاب ينبوع المعرفة فى ثلاثة أقسام ، القسم الثانى منه يتعلق بالبدع ، وفيه مئة بدعة وبدعة آخرها فى رأيه الاسلام الذى عده احدى بدع المسيحية ، كما أن المناظرة بين مسلم ومسيحى ، دافع فيه عن عقيدة التجسد ورفض نظرية القضاء والقدر ، وشدد فيه على ألوهية المسيح ، وحرية الارادة الانسانية ، وله اشارات عن الاسلام فى تآليفه الأخرى ؛ وكان غرضه من وضع كتاب ينبوع الحكمة أن يكون تبريرا للنصرانية ، ودليلا لهداية النصارى فى مناقشة المسلمين . ومن المحتمل أنه استمد مادته من المناظرات التى كانت تجرى أمام الخليفة ، وكان هو يشترك فيها ، مما يدل على معرفته بالقرآن والحديث . ولعل مادعاه الى ترك وظيفته والتزهد وتلك التآليف ، هو عصبيته لدين النصرانية ، وخوفه من زوالها ، عندما رأى النصارى يدخلون فى الاسلام أفواجا ، فأخذ يدافع عن النصرانية ضد مخالفيها من نصارى ومسلمين ، فاعتبرته الكنيستان اليونانية واللاتينية قديسا ، كما أن فى كل ذلك مايدل على ماكان يتمتع به النصارى من حرية فى القول والعبادة فى زمنه(١).

يقول شفيق جاسر محمود(٢): "لقد غالى بعض المستشرقين فى هذا الاعتبار لدرجة أنهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثا للنصرانية السريانية ، فاعتبر يوحنا الدمشقى محمد صلى الله عليه وسلم هرطوقيا ،

---

(١) انظر عن ذلك : جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤١٥-٤١٦ ؛ يوحنا الدمشقى ، المئة مقالة ، (المقدمة) ، ص٣٩-٤٣ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٩٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٢١-١٢٢ .

لامؤسسا لدين جديد ، وخلط بين الاسلام والأريوسية التى نبذت ألوهية المسيح" . والحق أرى أن يوحنا الدمشقى ، كان من أعلم النصارى بحقيقة الاسلام ، وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لعلمه بما فى كتب أهل الكتاب ، ولالتصاقه بالمسلمين وعمله فى دولتهم ، وثقافته ، وعلمه بالقرآن والحديث ، غير أنه كان يعلم أن خير طريق لتشويه صورة الاسلام ، ورد النصارى عن اعتناقه ، القول بأن الاسلام مذهب نصرانى منحرف ، والقول فى الرسول صلى الله عليه وسلم ماقال ، فان عامة النصارى لو علموا حقيقة ذلك الدين الذى يعلمه علماؤهم ، لسارعوا الى اعتناقه خصوصا بعدما رأوا سمو مبادئه ، وسماحة أهله وشرائعه وعدالة دولته ، وقد وصف النصارى يوحنا الدمشقى فى مجمع هيبرا "بالذى يعلم الآراء المحمدية" ولكنه أبى واستكبر ، كان من الخاسرين . فان يوحنا الدمشقى وغيره من المناظرين النصارى لايجادلون عن حق ، ولايقولون حقا ، ولكنهم ضلوا وجادلوا المسلمين تعصبا لدينهم وعداء للاسلام ، وحسدا للمسلمين ، يقول تعالى : {**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق** ...}(١).

وفى مناظرة للرازى لأحد النصارى تمكن من افحام مناظره ، واعترف النصرانى بعجزه ، لكنه تمسك بدينه مكابرة ، ولما سأله عن أساس دينه ومعتمد علمه وايمانه ويقينه ، أخبره أنها مبنية على تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والعمل على عداوة النبى عليه السلام ودينه وأمته ، وكراهة المسلمين وسلطانهم وعلمهم ، والرغبة فى تمزيقهم وهدم سلطانهم واذهاب علمهم ، وافساد تربية أولادهم ، ظاهرا وباطنا ، لذلك ذم الرازى من يوادهم ويؤاكلهم ويعاشرهم صحبة ومودة ، ومن يعزهم ويتخذهم أولياء ويستعين بهم(٢).

---

(١) البقرة ، آية : ١٠٩

(٢) مناظرة فى الرد على النصارى ، تقديم وتحقيق عبد المجيد النجار ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م ، ص٥١-٥٣ .

ومن علماء نصارى الشام الذين أدركوا العصر الأموى وجادلوا المسلمين ، وحاربوا الاسلام بالقلم ، وذادوا عن نصرانيتهم المحرفة ، بولس الأنطاكى ، أسقف صيدا ، الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى ، وكان قد ولد بأنطاكية ، ودخل فى سلك الرهبنة ، ثم سيم أسقفا على صيدا ، وكان من كبار علماء النصرانية آنذاك ، وبدا من كتاباته أنه ملكانى المذهب ، وقد توفى سنة (٧٧٠م/١٥٣هـ) .

ولبولس الأنطاكى كثير من المؤلفات ، منها : محاماة للدين المسيحى فيها بعض العقائد المسيحية ولاسيما التثليث والتجسد ، وكتابه الخمسون ويشتمل على موجز فى اللاهوت ، ومقالة فى مجىء المسيح فند فيها مزاعم اليهود ، ومقالة فى البدع يفند فيها أقوال المبتدعين ، وله خطبة فى تفسير شىء من الانجيل ، وخطبة أخرى فى الايمان القويم ، وكتاب فى الفضائل المسيحية ، وآخر فى الشرع المسيحى كتبه بالعربية ، وأهمها بالنسبة لموضوعنا ، رسالة أنفذها الى أحد المسلمين من صيدا بين فيها مايقوله النصارى فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعوته ، وزعم النصارى بصحة دين النصرانية(١).

وذكر محقق كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح(٢)، أن بولس الأنطاكى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ، معتمدا على قول بولص

---

(١) انظر عن بولس الأنطاكى : يوسف الياس الدبس ، تاريخ سورية ، طبع فى المطبعة العمومية ، بيروت ، ١٩٠٠م ، المجلد الخامس ، الجزء الثالث ، ص٢٦٢-٢٦٣ ؛ منير الخورى ، صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠٠ق.م الى ١٩٦٦م ، طبعة بيروت ، ١٩٦٦م ، ص١٣٥-١٣٦ .

(٢) انظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق وتعليق ، على ابن حسن بن ناصر ، وعبد العزيز بن ابراهيم العسكر ، وحمد بن محمد الحمدان ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ؛ مختصر دراسة المحققين ، ٣٠/١ .

الخورى محقق الكثير من أعمال بولس الأنطاكى ومنها هذه الرسالة ، والصحيح فى تاريخ وفاته ماذكرناه فى الصفحة السابقة .

وتأتى أهمية رسالة بولس الأنطاكى هذه كونها جاءت حاوية لمجمل مطاعن وأقوال النصارى فى محمد صلى الله عليه وسلم ، والاسلام ، وحافلة بمزاعمهم لاثبات صحة مايعتقدونه من دين النصرانية بعد تحريفها ، وقد ظلت تلك الرسالة تحمل تلك الأهمية ، وتمثل موقف النصارى من الاسلام حتى زمن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م) ، الأمر الذى دعاه للاجابة على قوله فيها ، باعتبارها تمثل مجمل أقوال النصارى ومعتقدهم ، ففند مزاعمهم وأبطل عقيدتهم ، وأثبت لهم صحة دين الاسلام(١). بل أن ماورد في هذه الرسالة يعد أساس مطاعن المستشرقين على نبى الاسلام ودينه وأمته فى عصرنا الحاضر ، حتى يكاد المطلع على آرائهم لايجد فيها جديدا عما ورد فى تلك الرسالة .

ان ممارسة نصارى الشام الجدل الدينى تجاه المسلمين وغيرهم داخل دار الاسلام ، فى عز الدولة الاسلامية ، وهيمنة سلطان المسلمين ، وعلو كلمة الله ودينه ، بهذا المستوى الكبير من الحرية الفكرية ، لأكبر دليل على مدى التسامح الذى حظيوا به فى ظل الحكم الاسلامى .

ولقد وجدنا أن الجدل والحوار والمناقشة بين المسلمين والنصارى كان شفويا وكتابيا ، وعرضنا لنماذج من الجدل الذى حدث فى فترة البحث من قبل النصارى ، اذ لم يصلنا شىء من الجدل الاسلامى المكتوب فى ذلك الوقت . وربما كان فيما فقد من كتابات المسلمين فى مجادلة النصارى ، الرد على مأشرنا اليه من جدليات النصارى ، وخاصة يوحنا الدمشقى وبولس الأنطاكى ، لذا جاء ماكتبه المسلمون فى الرد عليهم مما وصلنا متأخرا ، كجواب ابن تيمية على رسالة بولس الأنطاكى .

---

(١) انظر الصفحة التالية .

ومن تمام الفائدة أن أشير الى جواب شيخ الاسلام كنموذج لكتابات المسلمين فى هذا الميدان ، الذى صنف ليكون دعوة للنصارى الى الحق ، وتبيين الحق لهم ، ودفع مطاعنهم على الاسلام ، فى كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" . اذ أنه جاء ردا على مجمل أقوال النصارى القديمة والحديثة التى حوتها رسالة بولص الراهب فى هذا الشأن . وهذا يعنى أنه تعرض لمطاعنهم التى جاء بعضها على لسان نصارى الشام فى فترة البحث أو تضمنتها مصنفاتهم كمصنفات يوحنا الدمشقى التى أشرنا اليها آنفا ، وان سبقت زمن ابن تيمية ، أو كتابات بولص الراهب الذى جاء كتاب الشيخ ردا على رسالته كما يتضح من قول ابن تيمية عن أسباب تدوين كتابه ، اذ قال شيخ الاسلام رحمه الله عن سبب تصنيف كتابه : "وكان من أسباب نصر الدين وظهوره ، أن كتابا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديما وحديثا من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب مايحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب ، ... ، وماذكره فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان وقبل هذا الزمان ، وان كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال ، فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهى مضافة الى "بولص" الراهب أسقف صيدا الانطاكى ، كتبها الى بعض أصدقائه ، وله مصنفات فى نصر النصرانية ، وذكر أنه سافر الى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة (١) وبعض أعمال الافرنج وورمية ، واجتمع باجلاء أهل تلك الناحية ، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم ، وقد عظم هذه الرسالة ، وسماها : (الكتاب المنطيقى الدولة خانى (٢) المبرهن عن الاعتقاد

---

(١) لم أجد لهم تعريفا .

(٢) خان كلمة فارسية تعنى زعيم القوم الكبير وملكهم المقدم فيهم ، والكتاب منسوب اليه على سبيل التعظيم له . (ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج١ ، ج٢ ، ص١٠١ ، طبعةدار العاصمة بالرياض) .

الصحيح والرأى المستقيم)"(١).

وقد استنبط أبو زهرة سببا آخر لتدوين كتاب الجواب الصحيح ، وهو : رغبة الشيخ فى اعلان الاسلام بين النصارى وبيان حقائقه ، مقارنا بما عندهم ، ليتبين لهم الحق ، وبيان حقيقة السيد المسيح عليه السلام ودعوته(٢). وبذكر هذا الكتاب تتم الفائدة ، وبقراءته يحصل الخير والفلاح لمن وعيه وقبل الحق الذى فيه(٣).

---

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ص٩٨-١٠١ .

(٢) ابن تيمية ، نفس المصدر ، مختصر دراسة المحققين ، ص٣٢ .

(٣) حاز الكتاب عناية ثلاثة من الباحثين ، قاموا بتحقيقه لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، ونشر فى (٦) مجلدات ، وقد سبق نشره دون تحقيق ، واعتمدت فى مانقلته من معلومات تهم البحث على النشرة غير المحققة ، ماعدا حديثى هذا عن رد الشيخ رحمه الله على بولص الراهب .

التسامح الدينى مع نصارى الشام فى العصر الأموى :

شهد عدد من المؤرخين[(١)] بما وجده نصارى الشام من التسامح فى العصر الأموى فيما يخص دور العبادة والاحتفال بأعيادهم . غير أن المؤرخ المدقق لايمكنه القول بتسامح بنى أمية بشكل مطلق . فان المعلومات المتوفرة حول ذلك عن العصر الأموى ، وان أشارت الى شىء من التسامح نحو نصارى الشام فى عهد بعض الخلفاء ، ولعله لم يكن بأمرهم أو بموافقتهم أو برضا منهم ، فاستحدث النصارى الكنائس واحتفلوا بالأعياد ورفعوا الصلبان وغير ذلك ، فانا نجد من خلفاء بنى أمية كعمر بن عبد العزيز ، من يلتزم الوفاء لهم بما فى عهدهم ، ويمنع تجاوزهم المباح شرعا ، فيقيم العدل معهم باعطائهم الحقوق والزامهم الواجبات ، حتى لو أدى هذا الى رد ماحصلوا عليه من بعض الخلفاء السابقين ، وذلك بعدم تجاوز ماشورطوا عليه ، فقاموا بهدم مااستحدث من الكنائس ، وتكسير ماظهر من الصلبان والتماثيل والصور ، بل نجد بعضهم مدفوعا لتحقيق ذلك الالتزام بتجاوز حدود الواجبات ويعرض لازالة ماهو حق لهم فيزيله جزاء تجاوزهم ، كمرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك ، الذى لم يقف عند تحطيم التماثيل ومحو الصور وتكسير الصلبان الظاهرة ، فأزال ماكان داخل الكنائس ، ولعله رأى أنهم نقضوا العهد بتجاوزهم ماصولحوا عليه ، فعاقبهم .

وسنعرض لشواهد ماقدمنا من الأخبار والحوادث ، فقد أظهرت الاكتشافات الأثرية فى الأردن وخاصة منطقة مادبا أن المسيحيين وفى ظل الحكم الاسلامى واصلوا استحداث الكنائس ودور العبادة ، ونعموا بحرية التفكير الدينى ، ويدل على ذلك فى العصر الأموى النقوش الفسيفسائية الموجودة فى أرضية الكنائس المتعددة مثل كنيسة العذراء مريم فى مادبا التى

---

(١) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص١٩٠-١٩١ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٠٠-١٠٣،١٤٣،١٣٨ ؛ نادية حسنى صقر ، سياسة عمر ابن عبد العزيز ، ص١٢-١٣ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٧٦-١٧٩

يرجع تاريخها الى عـام (٦٦٢-٦٦٣م/٤٢-٤٣هـ) ، وكنيسة أخرى فى ربة مؤآب ترجع الى عام (٦٨٧م/٦٧-٦٨هـ) ، وماذكره محمد كرد على أنه فى سنة (٦٧٠م/٥٠هـ) فى العصر الأموى أضيفت كنيسة العذراء الى كنيسة الجلجلة فى مدينة القدس(١). وكذلك الاشارات المتعددة عن الأديرة فى كتب الأدب والسير التى بناها النصارى ودورها فى الحياة العامة(٢).

وذكر روبرت شيك أن النصارى استحدثوا ورمموا عددا من الكنائس بفلسطين فى عصر الراشدين(٣)، كما استحدثوا فى العصر الأموى عددا من الكنـائس فبنـوا عـددا منهـا فى معين (Main) ولعلهـا معـان سنـة ١٠١هـ/٧١٩-٧٢٠م ، كما قاموا بتعمير وترميم الكنائس القديمة ، ففى سنة ٩٩هـ/٧١٧-٧١٨م أعيد بناء كنيسة بلدة القواسمة ، وكذلك كنيسة بلدة خربة النيلة(٤). ويقال أن الكنيسة التى كانت خارج باب الفراديس كانت محدثة بنيت بعد الفتح لسرجون بن منصور(٥).

ومن دلائل التسامح الحرية الفكرية التى نالها نصارى الشام فى الدفاع عن عقيدتهم ، ومجادلة المسلمين وغيرهم كما قدمنا فى الصفحات السابقة .

الوفاء للنصارى بما صولحوا عليه من الناحية الدينية :

رافق التسامح الدينى الوفاء للنصارى بما صولحوا عليه من الأمان على مللهم وشعائرهم ودور عباداتهم ، فلم يعرضوا للكنائس والأديرة التى صولحوا عليها ، بل وأقروا بأيديهم دور العبادة فى الأرياف والقرى فى جميع بلاد الشام مع أنها فتحت عنوة ، وكان للمسلمين أخذها ، أو هدمها(٦)، وذلك هو الشاهد الأكبر على تسامحهم وحسن معاملتهم للنصارى

---

(١) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٦،٥٥٧ .

(٢) صالح الحمارنة ، نفس المرجع ، ص٥٥٤-٥٥٥ .

(٣) انظر قبل : ص٣٨٣-٣٨٤ .

(٤) Robert Schick : op. cit, p.24-43 .

(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٤٢-٢٤٣ .

(٦) قال ابن القيم : ان كنائس العنوة يجوز للامام اقرارها للمصلحة ، ويجوز للامام هدمها للمصلحة . انظر : أحكام أهل الذمة ، ٢/٦٩٨ .

كما ردت اليهم بعض الكنائس التى وصلت الى أيدى المسلمين لاشتباه أمرها.

فقد أقام بعد فتح دمشق من بطارقة الروم بدمشق اثنا عشر بطريقا فأقروا فى منازلهم ، وكان لكل بطريق منهم فى منزله كنيسة ، فأقاموا حينا ، ثم هربوا من دمشق ، وتركوا تلك المنازل بما فيها من الكنائس ، فأقطعت لقوم من أشراف دمشق منهم بجدل وابن مدلج العذرى وغيرهما ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أخرج أولادهم منها وردها على النصارى ، فلما مات عمر ردت الى أولاد الذين أقطعت لهم من قبل(١).

يقول عدد من المؤرخين(٢): خاصم حسان بن مالك (بن بجدل) نصارى دمشق فى كنيسة كان أحد الأمراء أقطعه اياها ، الى عمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : ان كانت من الخمسة عشر كنيسة التى فى عهدهم فلاسبيل لك اليها ؛ وذكر أن نصارى دمشق خاصموا بنى نصر فى كنيسة بدمشق ، كان أحد الخلفاء الأمويين أقطعها لهم ، فأخرجهم عمر منها ، وردها الى النصارى ، فلما ولى يزيد بن عبد الملك ردها الى بنى نصر(٣).

ومن هذا الباب ماذكر أن معاوية بن أبى سفيان لما أسن اعتراه أرق ، فكان اذا هوم أيقظته نواقيس النصارى ، فأرسل فتى من غسان الى امبراطور الروم وأمره أن يؤذن فى مجلسه ، فلما فعل هم البطارقة بقتله ، فمنعهم الامبراطور الذى أدرك حيلة معاوية وقال : أراد معاوية أن نقتل هذا على الأذان ، فيقتل من قبله من النصارى على النواقيس ، فأجازه وصرفه ، فلما رآه معاوية قال : "أما والذى لااله الا هو لو قتلك ، ماتركت فيما بين

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٩٠ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠١ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٠ ؛ ابن زنجويه الأموال ، ٣٨٧/١ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٤ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر والمجلد والجزء والصفحة .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر والصفحة ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر والصفحة ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٨٨/١ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر والمجلد والجزء والصفحة . (وقد ورد فى مختصر تاريخ دمشق ، أن الذى أقطعها هو معاوية ، ولم تعينه المصادر الأخرى) .

العريش الى الفرات نصرانيا الا قتلته ، ولاكنيسة الا هدمتها ، ولكن اللعين وفى بالذمة"(١). وأرى هذا الخبر باطلا ، فانه ليس لمعاوية رضى الله عنه أن ينقض ماصالح عليه المسلمون نصارى الشام ، بسبب قتل الامبراطور لرسوله اذ لم يعد نصارى الشام فى سلطان الامبراطورية البيزنطية ، بل رعايا فى دار الاسلام ، وأن غدر الامبراطور ، ليس غدرا منهم ينتقض به عهدهم .

ومما روى من الأخبار عن حرص المسلمين على الوفاء للنصارى بما صولحوا عليه ماذكر أن الوليد بن عبد الملك بعث رجلا ليؤذن فى ايوان امبراطور الروم ، واخباره أن ماحمله على ذلك الاساءة للمسلمين من بقاء شطر كنيسة دمشق الى جانب جامعهم يسمعون نواقيسهم ، ويساءون لمجاورتهم ، فقال الامبراطور صالحونا على عوض ، فصولحوا عنه بنصف كنيسة مريم وكانت شطرين(٢). وهذا الخبر لايقبل الا على أساس أن هدف الوليد بن عبد الملك الاستفادة من العلاقة الدينية والمذهبية بين نصارى الشام والروم ، عسى أن يؤثر الروم على النصارى الملكانيين بالشام أتباع مذهبهم (مذهب الطبيعتين) حيث كانت كنيسة دمشق تابعة لهم ، فيتنازلون عنها .

فان الخبرين السابقين يوحيان بانتظار غدر الامبراطور وقتل رسول الخليفة ، ليكون ذلك مسوغا لنقض عهد نصارى الشام فتهدم كنائسهم ، وهذا لايجوز للمسلمين كما قدمنا ، بل أن المسلمين لايرون مقابلة الغدر بالغدر ، وانما وفاء بغدر ، فان الروم لما غدروا بالمسلمين زمن معاوية رضى الله عنه ، وخانوا العهد ، وفى لهم المسلمون بعهدهم ، ذلك "أن الروم صالحت معاوية رضى الله عنه على أن يؤدى اليهم مالا وارتهن منهم رهنا ،

---

(١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ١٩٨/١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج٢٩ ، ص٢٤٢-٢٤٣ (وقول معاوية الأخير بين علامتى التنصيص ، زيادة فى المختصر ، لم ترد فى عيون الأخبار) .

(٢) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٠٧/١-٢٠٨ .

فجعلهم ببعلبك ثم أن الروم غدرت ، فأبى معاوية والمسلمون أن يستحلوا قتل من فى أيديهم من رهنهم ، وخلوا سبيلهم ، واستفتحوا بذلك عليهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر"(١).

ومن الملاحظ أن الأمويين نادرا ماكانوا يحولون الكنائس الى مساجد ، فيذكر روبرت شيك تحويل ثلاث كنائس فقط ، وهى فى بلدة سماح وأم السراب وأم الجمال ، ويقول أنه لايعرف من قام بذلك أهم أهل الشام الذين اعتنقوا الاسلام ، أم المهاجرون المسلمون الأول ، كما يذكر أن المسلمين أخذوا جانبا من كنيسة القيامة ومن كنيسة المهد فى بيت لحم ، وعلى الرغم من ذلك ظلت هاتين الكنيستين تزاولان مهمتهما ككنائس مسيحية أم . وقد ذكرت فى عهود الصلح اشتراط المسلمين على نصارى الشام أخذ أجزاء من بعض كنائسهم مساجد ، أو استثناء مواضع فى المدن التى فتحت صلحا ليقيم عليها المسلمون مساجد لهم(٢). أما الكنائس الثلاث التى ذكر روبرت شك اتخاذها مساجد فى بلدة سماح وأم السراب وأم الجمال ، فلم أجد لها ذكرا فى المصادر العربية التى اطلعت عليها ، وان صح هذا الخبر الذى رواه ، فلعلها مما جلا عنه أهله ، أو أنها كانت كنائس لمن أسلم من النصارى ، فحولوها بأنفسهم مساجد لهم عندما لم يبق على النصرانية أحد منهم ، وكانت قبائل العرب المتنصرة قد تحولت الى الاسلام برمتها ، وربما كانت من أرض العنوة التى أقرت بيد أهلها وللمسلمين حق انتزاعها اذا ماأرادوا ، فكان للمسلمين مصلحة فى أخذها ، أما الكنائس التى صولحوا عليها فلايعرف انتزاعهم لشىء منها فى عصر الراشدين والأمويين ، الا ماذكر من أخذ شطر كنيسة دمشق وادخالها فى الجامع الأموى ، بعد أن أرضى النصارى ، وعوضوا عنها ببعض كنائس العنوة .

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢١١ .

(٢) Robert Schick : op. cit, p.42 .

انظر ماذكرناه حول ذلك فى عهود الصلح ، قبل : ص١٧٢-١٧٣ .

وقـد اختلف المؤرخون المسلمون فى أمر ادخال شطـر كنيسة يوحنا فى جامـع دمشق لما بناه الوليـد بن عبد الملك ، فقال بعضهـم أنه عـوضهم عنها ببعض كنائس العنوة ، وقال آخرون بل أخذها قهرا وعـوضهم عمر بن عبد العزيز ببعض كنائس العنوة . وزاد الأمر تعقيدا ، أن كثيرا من تلك المصادر تورد عـددا من الروايات المتنـاقضة على القولين ، ممـا أشكـل وضوح وجه الصواب فى نظر الباحث ، وجعله غير قادر على الوصـول الى حقيقة الأمر .

فقد أورد ابن كثير(١)، وابن عساكر(٢)، والعمرى(٣)، والنعيمى(٤)، عددا من الروايات من طرق مختلفة ، وبعضها غير مسنـد ، مجملها أن الوليد ابن عبـد الملـك ، لما عزم على عمـران جامع دمشق وتوسعتـه ، أراد ادخال شطـر كنيسـة يوحنـا فيه ، فكلم النصـارى ، أن يتنـازلـوا عنهـا ، ويعطـوها المسلمون ، وبذل لهم مالا كثيرا ، فأبوا وقيل على أن يعطيهم مقابلها كنيسة توما أو يهدمها وكانت فى العنوة ، فقبلوا ، وقيل بل أبوا ، فـأعطاهم عليها أربعـا غيرها وهى كنيسة حميدة بن درة ، وكنيسة أخرى عنـد سوق الجبن ، وكنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة . وقيل قايضهم فيها بكنيسـة مريم . وقيل : أعطاهم مكانها الكنيسة التى بحمام القاسم حذاء دار أم البنين فى الفراديس ، وقيـل : أراد أن يأخذ الكنـائس التى ليست فى صلحهم ، فتركـوها له ، على أن يترك ماكان من كنائس العنوة بأيديهم . وقيل : لما أبوا أشير عليـه بمسح مدينة دمشق ، فوجد شطر الكنيسـة الشـرق يدخل فيمـا فتـح عنوة ، فقال : حقنـا ، فسعوا اليه يطلبونه ماأراد أن يعطيهم ، فتمنـع ثم أعطاهم . وقيل : أعطـاهم كنائس أخرى . وخلاصتهـا ، أن الوليد أخذهـا ، بعد أن أرضاهم بعوض .

---

(١) البداية والنهاية ، ٩/٧٥-٧٦،١٥١-١٥٢،١٦٧ .

(٢) مختصـر تاريخ ابن عسـاكر لابن منظـور ، م١ ، ج١ ، ص٢٦٠-٢٦١،٣٦١-٣٦٢ .

(٣) الجامـع الأموى بدمشق ، (نصـوص) لابن جبير ، والعمرى ، والنعيمـى ، حققهـا وقدم لها ، محمد مطيع الحافظ ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٤٨-٥١ .

(٤) الجامع الأموى بدمشق ، ص٩٤،١٠١ .

وقال عدد من المؤرخين[١]أراد معاوية بن أبى سفيان ، ثم عبد الملك أن يزيدا كنيسة يوحنا فى المسجد وكلما فيها النصارى ، وبذلا لهم المال العظيم ، فأبوا ، فأمسكا ؛ ثم كلمهم الوليد ، وبذل لهم مالا عظيما ، فأبوا فهدمها قهرا ، وأدخلها فى المسجد ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز شكى اليه النصارى ذلك، فعزم على ردها عليهم ، ان لم يرضوا ، وكتب بذلك الى عامله على دمشق ، فكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا ، مسجدنا بعدما أذنا فيه وصلينا يرد بيعة ، وفيهم الفقهاء ، فأقبلوا على النصارى فقايضوهم بجميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها أو تهدم كل تلك الكنائس ، فرضوا بذلك ، وكتب بذلك الى عمر ، فأقره وأمضاه . وقيل : قال لهم عمر : نرد عليكم كنيستكم ، ونهدم كنيسة توما فانها فتحت عنوة ونبتنيها مسجدا ، فقالوا : ندع لكم الذى هدمه الوليد وتدعون لنا كنيسة توما ، ففعل عمر ذلك[٢]. وقيل : حقق عمر فى القضية ، فوجد الكنائس التى خارج البلد لم تدخل فى الصلح مثل كنيسة دير مران ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما ، وسائر الكنائس التى بقرى الحواجز ، فخيرهم فى رد ماسألوه ، وتخريب تلك الكنائس ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على أن تبقى لهم تلك الكنائس ، ويطيبون نفسا بما أخذه الوليد ، فكتب لهم عمر بذلك أمانا[٣]. وقيل : عوضهم بمال عظيم ، فقبلوه[٤]. وقيل : تأذى المسلمون من مجاورة النصارى لهم فى مكان

---

(١) انظر تفاصيل ذلك عند : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣١-١٣٢ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٤-٢٩٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٩٩/٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٣٨/٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٥٨/٩ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٦٨ ؛ ابن جبير ، الجامع الأموى بدمشق ، ص١٣،١٤ .

(٢) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٩٩/٦ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ١٣٨/٤ ؛ العمرى الجامع الأموى ، ص٦٠ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٦٨

(٣) ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٥٨/٩ .

(٤) ابن جبير ، نفس المصدر ، ص١٣،١٤ .

عبادتهم ، وكرهوا قرع نواقيسهم ، فاشتد ذلك على الوليد وكان يريد عمران المسجد ، فأعطى رجلا ديته ، وأمره أن يؤذن فى الكنيسة العظمى بالقسطنطينية بمحضر الامبراطور ورجاله ، ففعل ، وهموا بقتله ، وسألوه عما دعاه الى ذلك، فأخبرهم ، فصالح المسلمون على عوض عنه نصف كنيسة مريم ، وكانت شطرين(١). وقد تقدنا هذا الخبر فى رواية أخرى(٢). والذى أميل اليه من هذه المرويات ، هو قبول النصارى بالعوض الذى عرضه الوليد عليهم ، بعدما أبوا ، وذلك عندما مسح المدينة فوجد شطر الكنيسة يدخل فيما فتح عنوة ، فأخذه الوليد . لأن ذلك يبرر اقدام الوليد على أخذها ، وهدمها ، وادخالها فى المسجد ؛ ويبرر قبول المسلمين بذلك ، وصلاتهم فى المسجد ، اذ لانجد من العلماء من اعترض على عمل الوليد ، مما يدل على أنه اعتمد على مايسوغ رضاهم . كما أن شكوى النصارى الى عمر قد يكون الداعى لها ، أن النصارى اعتبروا قبولهم العوض زمن الوليد ، من باب الرضى بالأمر الواقع ، وأنه لم يكن لهم الخيار ، فخيرهم عمر فاختاروا ، ولعل فعل الوليد قائم على اعتبار أن دمشق فتح نصفها عنوة ، والنصف الآخر صلحا ، بينما كان عمر يرى أن الصلح جرى على سائر المدينة وان تم فتح نصف المدينة عنوة والاختلاف فى أمر فتح دمشق معروف(٣). ودفع فعل الوليد هذا وبعض سياساته الأخرى تجاه النصارى بعض المؤرخين المسيحيين الى القول بكراهيته للنصارى(٤).

غير أن من الباحثين من يشكك فى مشاطرة المسلمين للنصارى كنيسة يوحنا عند فتح دمشق ، وان الكنيسة والمسجد كانا متقابلين كل منهما قائم

---

(١) العمرى ، الجامع الأموى ، ص٤٨-٤٩ ؛ وانظر عن مناقشة هذا الخبر قبل : ص٤١٩ .

(٢) انظر قبل : ص٤١٩ .

(٣) انظر قبل : ص٤١٩-٤٢٠ .

(٤) Jean maurice fiey : op. cit, p.17 ; J.F.healey : op. cit, p.8 .

بذاته حتى زمن الوليد الذى أخذها وأدخلها فى المسجد . فقد نقل محمود عمران[١] قول أركولف عن دمشق : "وبالمدينة كنيسة كبيرة واسعة بنيت على شرف يوحنا المعمدان ، وبالمدينة بنيت كنيسة (يقصد مسجد) للمسلمين ، وهم يترددون عليه" ؛ ثم قال ان هذه المعلومة تفيد وجود مبنيين ، أحدهما كنيسة يوحنا المعمدان ، والثانى هو مسجد دمشق ، ثم عرض لما فى المصادر العربية عن اختطاط مسجد دمشق ، وهل هو نصف الكنيسة أو الى جانبها ، وكذلك ماورد فى المصادر الأجنبية عن كنيسة يوحنا المعمدان ، وخرج بعد ذلك بالقول :"وأمام هذه الروايات العربية والأجنبية يمكن القول أن المسلمين لم يناصفوا المسيحيين كنيسة يوحنا المعمدان عندما فتحوا مدينة دمشق ، وأن المسجد والكنيسة كان كل منهما قائما بذاته فى عصر الخلفاء الراشدين ..." . ويشاركه ترتون[٢] الرأى بقوله ، والمتفق عليه الآن أن قصة تقسيم كنيسة ماريوحنا بين المسلمين والمسيحيين انما هى داخلة فى باب الأساطير لعدم ورود هذا التقسيم الا عند المؤرخين المتأخرين عن زمن الفتح والعجيب القول أن المسلمين أخذوا القسم الشرقى من الكنيسة وحولوه مسجدا ، لأن وجود المذبح فى هذا القسم وهو أقدس مكان فى الكنيسة يحمل المسيحيين للتمسك به ، كما أن الجانب الشرقى فى المدينة ، لايزال هو الحى المسيحى ، ومن المحتمل أنهم عاشوا هناك ليظلوا على مقربة من مكان تعبدهم ، وقد طمع معاوية وعبد الملك فى أخذ الكنيسة بكاملها ، وحاول الوليد فلم يفلح ، فهدمها ؛ ويذكر أبو الفدا أن الخليفة لم يهدم غير بيعة مجاورة للجامع وداخلة فيه ، كما يذكر حاج غربى وجود الكنيسة والمسجد ، ولم يرو البلاذرى والطبرى أى خبر عنها[٣]؛ ويضيف ترترون قائلا : وتدل

---

(١) كتابات الرحالة أركولف ، ص٣٢٤-٣٢٨ .

(٢) أهل الذمة فى الاسلام ، ص٤٢-٤٤ .

(٣) ورد الخبر فى البلاذرى والطبرى عن فعل الوليد ، غير أنهما قالا أخذ الكنيسة ولم يقولا بمشاطرة المسلمين للنصارى الكنيسة ، أو أن الوليد أخذ شطرها الآخر . انظر : تاريخ الأمم ، ٤٩٩/٦ ؛ فتوح البلدان ، ص١٣١-١٣٢ .

جميع الظواهر على أن كنيسة ماريوحنا كانت فى يد أصحابها ولم يستول عليها المسلمون حتى زمن الوليد ، ثم عوضهم عمر بكنائس الغوطة .

ويؤكد ذلك عالم الآثار كريزويل الذى ناقش ماأوردته المصادر القديمة وأقوال المؤرخين المحدثين ، حول هذه القضية ، وخلص الى القول أن فناء المعبد لاالكنيسة هو الذى أخذ المسلمون نصفه الشرقى ، واحتفظ المسيحيون بنصفه الغربى وفيه الكنيسة التى بقيت بأيديهم حتى أخذ الوليد الفناء بكامله فتحول الفناء بكامله الى المسجد الكبير بعد أن هدم الكنيسة التى كانت قائمة فى الجزء الغربى منه [١]. ونتيجة هذا الاختلاف بين المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، يحار الباحث فى حقيقة هذا الأمر ، والله أعلم .

ويذكر أن الوليد اقتلع قبة نحاسية مموهة بالذهب من احدى كنائس بعلبك ووضعها فوق الصخرة ببيت المقدس ، كما نقل بعض عمد من المرمر والرخام من كنيسة مريم بانطاكية الى المسجد الأموى فى دمشق ، وأمر بهدم احدى الكنائس لأن دق ناقوسها كان يزعجه [٢]. ولعل تلك الكنيسة التى انتزعت منها القبة كانت مما جلا عنه أهله أو مما فتح عنوة ، أو نقض أهلها العهد باحداث حدث ، وفى تلك الحالات ، يجوز للوليد أخذ شىء منها أو أخذها كاملة ، فالخبر لم يصرح أنهاكانت مما صولح عليه أهل بعلبك .

ومثله ، ماذكر من أن هشام أراد بناء جامع فى مدينة الرملة ، فأنبأه البعض أن نصاراها يخفون أعمدة من الرخام فى الرمل استعدادا لتشييد كنيستهم ، فأمرهم هشام بتسليمه اياها ، والا هدم كنيسة اللد ، واستعمل أعمدتها فى بناء مسجده ، فنزلوا عند أمره [٣].

---

(١) الآثار الاسلامية الأولى ، نقله الى العربية عبد الهادى عبلة ، واستخرج نصوصه وعلق عليه أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، دمشق ، مطبعة خالد بن الوليد ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٨٦-١٠٤ .

(٢) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٤٥ ؛ كريزول ، نفس المرجع ، ص٥٧ .

(٣) ترتون ، نفس المرجع ، ص٤٦ .

ويبدو أنه استجاز ذلك بحكم أنهم أرادوا ماليس لهم وهو استحداث كنيسة ، وأما أخذه لتلك العمد ، فلعلها عمد كنيسة فى أرض عنوة ، ومن حقه أخذها .

الزام نصارى الشام بما صولحوا عليه من الناحية الدينية :

ومع ماقدمنا من صور التسامح والحرية المباحة والوفاء والتى منحها المسلمون نصارى الشام ، نجد أولئك كثيرا مايتجاوزون المباح ، ولايلتزمون بماصولحوا عليه ، ويستغلون سياسة التسامح ، وانشغال المسلمين بالفتن ، فى استحداث الكنائس ، واظهار الشعائر الدينية الممنوعة ، فقام بعض الخلفاء المسلمين بتقويم تلك السياسة ، واعادة النظر فى أوضاع نصارى الشام ، فهدم مااستحدث ، وألزم النصارى ماشرط عليهم ، ويفهم ذلك من قول أبى يوسف(١) للخليفة الرشيد عندما أخبره أن المسلمين تركوا البيع والكنائس لم تهدم ، لما جرى من الصلح بين المسلمين وأهل الذمة ؛ أى فى البلاد التى فتحت صلحا ، وقال : "فأما ماأحدث من بناء بيعة أو كنيسة فان ذلك يهدم وقد كان نظر فى ذلك غير واحد من الخلفاء الماضين وهموا بهدم البيع والكنائس التى فى المدن والأمصار ، فأخرج أهل المدن الكتب التى جرى الصلح فيها بين المسلمين وبينهم ، ورد عليهم الفقهاء والتابعون ذلك ، وعابوه عليهم فكفوا عما أرادوا من ذلك ، فالصلح نافذ على ماأنفذه عمر بن الخطاب الى يوم القيامة" .

وقوله يعنى أن الكنائس التى صولح عليها أهلها لاتهدم ، وأن من أراد هدمها ، منعه الفقهاء للوفاء ، فوفوا لهم وتركوها بأيديهم ، كما أن نصه يعنى أن عددا من الخلفاء اهتموا بأمر دور العبادة ، ولاشك فى أن من أراد هدم مافى الصلح ، قد هدم مااستحدث . كما أن قول أبى يوسف : فأما ماأحدث من بناء بيعة أو كنيسة فان ذلك يهدم ، يدل على أن النصارى لم يلتزموا شروط الصلح واستحدثوا عددا من الكنائس ، ويبين حكمها وهو

---

(١) الخراج ، ص٢٩٤-٢٩٥ .

الهدم . ومن أولئك الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، فانه وان وفى لهم بما فى صلحهم ، ورد اليهم كنائس خرجت من أيديهم الى أيدى المسلمين(١)، فان عددا من المصادر تفيد أنه أمر بعدم هدم كنائس الصلح ، وهدم مااستحدث فكتب الى عماله : "لاتهدموا كنيسة ولابيعة ولابيت نار ، ولاتحدثوا كنيسة ولابيعة ولابيت نار ..."(٢). وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله على اليمن عروة بن محمد السعدى : "أن يهدم الكنائس التى فى أمصار المسلمين" . قال وشهدت عروة يهدمها بصنعاء(٣). وقال ابن القيم : وأمر عمر بن عبد العزيز أن تهدم بيع النصارى المستجدة ، فسأل النصارى امبراطور الروم ، مكاتبة عمر فى ذلك ، فكتب اليه : أما بعد ياعمر ، فان هؤلاء الشعب سألونى مكاتبتك لتجرى أمورهم على ماوجدتها عليه وتبقى كنائسهم ، وتمكنهم من عمارة ماخرب منها ، فانهم زعموا أن من تقدمك فعل فى أمر كنائسهم مامنعتهم منه ، فان كانوا مصيبين فى اجتهادهم فاسلك سنتهم ، وان يكونوا مخالفين لها فافعل ماأردت . فكتب اليه عمر : أما بعد ، فان مثلى ومثل من تقدمنى كما قال الله تعالى فى قصة داود وسليمان عليهما السلام {**وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما** ...}(٤)

وجاء أمر عمر لأحد عماله : "فلاتدعن صليبا ظاهرا الا كسر ومحق"(٥). وكتب أيضا : أن يمنع النصارى فى الشام أن يضربوا ناقوسا ، ولايرفعوا صلبهم فوق كنائسهم ، فمن فعل شيئا من ذلك بعد ماقدم اليه ،

---

(١) انظر قبل : ص٤١٨ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٢٣-١٢٤ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٢٦٩/١-٢٧٠ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٥٧٢/٦ .

(٣) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٦٧٦/٢ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٧٨،٧٩ ؛ وانظر : ابن القيم ، نفس المصدر ، ٢١٣/١-٢١٤ .

(٥) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٦٢ .

فان سكنه لمن وجده[١]. وأراه يقصد أن من فعل ذلك ، نقض العهد ، وأن من وجد ذلك من المسلمين له سكن ذلك النصرانى عقابا . يقول روبرت شيك (Robert Schick)[٢]، وأمر المسلمين بازالة الصلبان على الأقل من الناحية النظرية أو الرسمية ، ولكن النقش التذكارى الخاص بكنيسة حمة جادر يثبت وجود الصليب على هذه الكنيسة فى عهد معاوية بن أبى سفيان . كما أمر عمر بن عبد العزيز بمنع دق الناقوس ونهى عن الترتيل بصوت مرتفع أثناء تأدية الصلاة ، وفى خبر يبدو أنه حدث فى زمن متقدم فى دمشق حيث لايمكن التأكد من شخصية الوالى عمرو بن سعد[٣]الذى يذكر أنه أمر برفع الصلبان وانزالها من على الأسوار وازالتها من الأسواق ، ومنع النصارى من اظهار التقديس للصليب أو الظهور به فى الملأ فى الأعياد ، فسارع اليهود فى تنفيذ أمره وتجاوزوا الى ازالة الصلبان من على الكنائس ، فشكى النصارى ذلك اليه ، فمنع التجاوز[٤].

ولاشك أن أوامر عمر بهدم مااستحدث من الكنائس وكسر الصلبان وغير ذلك مما يختص بالناحية الدينية عند النصارى ، جرت مجرى التنفيذ ، مثلما نفذ أمره بهدم الكنائس المستحدثة فى صنعاء ، ونحن للأسف لانملك معلومات أمثلة على تنفيذ ذلك فى غيرها من البلدان ، غير أن عموم أوامر عمر ، وورود بعض الأمثلة على التنفيذ ، يشير الى تنفيذ ذلك فى كثير من

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧١٩/٢ .

(٢) Op. Cit, p.42 .

(٣) عمرو بن سعد ، لم أجد فى ولاة الشام فى فترة البحث أحدا بهذا الاسم ، ولعل المقصود عمير بن سعد الأنصارى الأوسى ، وهو نسيج وحده ، كان من الزهاد ومن أفضل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، شهد فتح الشام ، بعثه عمر بن الخطاب على جيش ، وولاه دمشق وحمص ، وقيل : استعمله على حمص ، وكان عليها حتى مات عمر ، فنزعه عثمان رضى الله عنه وجمع الشام لمعاوية رضى الله عنه . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٠٣/٢-١٠٥ .

(٤) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٠٨-١١٢ ؛ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٦١م ، ٣٠٢/١ .

البلدان ، الا أن قصر مدةخلافة عمر قد تدفعنا للقول انها انتهت ولما يتم له كل ماأراد فى أقطار الدولة الاسلامية جميعا ، وان رجح لدينا أن أثر أوامره على نصارى الشام كان أكبر بحكم وجوده بها ، ووقوعها تحت عينيه.

ومافعل عمر ذلك الا لأن النصارى صولحوا على ألا يحدثوا كنيسة ، ولايظهروا صلبانهم داخل أمصار المسلمين(١).

ولعلنا لم نجانب الحقيقة عندما رجحنا أن الخليفة عمر مات قبل أن يتم تنفيذ أمره ، فقد ذكر كل من ابن عبد الحكم (٢)، والكندى (٣)، والمقريزى (٤)، وابن تغرى بردى (٥)، وساويرس بن المقفع (٦)، أن الخليفة يزيد بن عبد الملك الذى خلف عمر بن عبد العزيز ، أصدر مرسوما سنة ١٠٢هـ/٧٢٠-٧٢١م على أرجح الأقوال ، يقضى بتكسير الأصنام ، وازالة التماثيل الدينية ، ومحو الصور ذات الأرواح ، وكسر الصلبان ، وهدم الكنائس المستحدثة فى سائر الولايات الاسلامية . وقد أفردت فصلا فى الدراسة التى تقدمت بها لنيل درجة الماجستير عن مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك آنف الذكر ، تعرضت لذكره فى المصادر العربية ، والاغريقية ، والسريانية ، واللاتينية ، والأرمنية ، والمراجع الحديثة ، وماقشته ، وتبين أن أمره قد نفذ ، وأن الصور والتماثيل فى الكنائس وغيرها قد تعرضت للازالة والتحطيم ، محوا أو كشطا أو احراقا أو طلاء ؛ وأن ذلك شمل بلاد الشام ، وآثاره واضحة فى فلسطين وشرق الأردن ، وقد نفذ فى

(١) انظر عن ذلك : أبو يوسف ،الخراج ، ص٢٦٢،٢٨١-٢٨٢،٢٨٥-٢٨٦،٢٨٩،٢٩٤-٢٩٥ ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٢٧ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ، مكتبة المثنى ، بغداد ، طبعة جديدة لطبعة ليدن ، ١٩٢٠م ، ص١١٣-١١٤ .

(٣) كتاب الولاة ، ص٧١-٧٢ .

(٤) الخطط ، ٤٩٣/٢ .

(٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ٢٥٠/١ .

(٦) سير الآباء البطاركة ، ٥٣/١ .

جرش بحزم (١).

وقد ذكر بارتولد ، أن المؤلفين النصارى تحدثوا عن مكاتبات جدل حول مسائل العقيدة جرت بين عمر بن عبد العزيز والامبراطور ليون الثالث (الأيسورى) ، وأن المؤرخ ليفوند حفظ لنا متن مكتوبين واحد للخليفة والآخر للامبراطور ردا عليه ، وقد اضطر الامبراطور فى الرد على الخليفة للدفاع عن تبجيل النصارى للصليب والأيقون ضد حجج الخليفة ، وهو الامبراطور الذى قدر له بعد أعوام من ذلك أن يبدأ الحركة اللايقونية فى امبراطوريته (٢). فهل كان كتاب عمر دعوة للامبراطور ليو الى الاسلام ، مبينا فيه فساد العقيدة النصرانية ، وانحرافاتها ، وهل نستطيع أن نفهم من ذلك أن مرسوم يزيد بن عبد الملك خليفة عمر كان صدى لذلك الجدل بحكم قربه من عمر كولى للعهد ، وتفاعله معه ، أو أن عمر عزم على اصدار مرسوم حيال هذا الأمر لكنه توفى قبل أن يتم ماأراد ، فأنفذه يزيد بن عبد الملك ، وهل كان مرسوم ليو بتحريم عبادة الصور المقدسة وازالتها قناعة بحجج عمر ، أم تأثرا بمرسوم يزيد ، أم بهما معا ، كل ذلك ممكن وعسى أن يظهر من المخطوطات والآثار مايجلو وجه الحقيقة . وعلى كل فان فريقا من المؤرخين يؤكد أن ليو الأيسورى كان متأثرا بمرسوم الخليفة يزيد عندما أصدر سنة (٧٢٦م/ ١٠٧-١٠٨هـ) مرسوما يقضى بازالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس فى كافة ولايات الدولة البيزنطية (٣). ومما يضعف القول بأثر اليهود على ليو الأيسورى فى اتخاذ سياسته اللايقونية ، ماروى أن ليو أمر فى سنة (١٠١هـ/٧١٩-٧٢٠م) بتنصير كل اليهود فى دولته (٤). مما يدل على كراهيته لهم ، والحال كذلك فانه لايقبل القول

---

(١) انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، الفصل الثالث ، مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك بتكسير الأصنام والتماثيل والصلبان وازالة الصور وهدم الكنائس المستحدثة ، ص٢٦٦-٣١١ .

(٢) بارتولد ، عمر بن عبد العزيز ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، ص٢٦٩ .

(٣) انظر : عبد الله الشنبرى ، نفس المرجع ، ص٣٠٠ .

(٤) J.F.Healey : op. cit, p.6 .

بتـأثيرهم عليه ، والأرجح أن تأثره فى سيـاسته اللايقـونية كـان بالمسلمين .

بينما يخالف غازى بيشة(١) شبه اجماع المؤرخين العرب وغيرهم ، على صحـة مرسوم يزيد بن عبد الملـك وتنفيذه وأثره ، وذلـك من خلال دراسة آثار تشـويه الصـور فى الكنـائس النصـرانية فى الأردن ، وبالـذات كنيستى اسطفـان فى أم الـرصاص ، وكنيسـة الأكروبول فى معـان ، ومـدى أثر هذه الـدراسة على تفسير الحركة اللايقونية فى بيزنطة ، والنظـريات التى حولها ، وهل هى حركة داخلية من بيزنطة أم بتأثيرات خارجيـة ، فذكر أن ماحدث فى هاتين الكنيستين كان بيد الجماعات المسيحية خلال الحركـة اللايقونية فى بيزنطـة ، وليس على أثر مرسـوم الخليفة يزيد ، لأن نصـارى الشـام انقسموا بين مـؤيد للحـركة اللايقـونية ، ومحارب لهـا كيوحنـا الـدمشقى وتيـودور المقـدسى وثيودور أبو قره ؛ وخلـص الى أن الحركة اللايقـونية حركة نابعة فى جوهـرها مـن داخل بيزنطـة ، وأن تشـويه الصـور فى كنـائس الأردن وفلسطين ظاهرة مسيحية بحتة ، لم يكن للسلطة الاسلامية علاقة بها .

غير أنه يقـول : أن قرار ليو خص الصور المقدسـة ، فاستبدلت بصور حيـوانية عـن الصيـد وسبـاق العـربات ، بينمـا نجد فى الأردن وفلسطين أن التشـويه شمـل كافة الصـور ذات الأرواح دون تمييز(٢). وفى قـوله هذا رد عليـه ، اذ أن الاقتصار على الصور المقدسة فى الامبراطـورية البيزنطية ، بينما شملـت الازالة كل صور ذات الأرواح فى ولايات الدولـة الاسلامية ، دليل على أن مـاحدث فى دار الاسلام ، كـان نتيجة لمرسوم الخليفـة يزيد بن عبـد الملك .

---

(١) انظر : غازى بيشة ، مناهضة الصور وتشويهها فى ضوء الأرضيـات الفسيفسائية فى أم الرصاص وماعين ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العصر العباسى ، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية وجامعـة دمشـق وجامعـة اليرمـوك ، عمـان ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص٤٨٦-٤٩٤ .

(٢) غازى بيشة ، نفس المرجع ، ص٤٨٦-٤٨٧ .

ويهمنا التأكيد على أن مرسوم يزيد كان ناتجا عن حرمة الصور ذات الأرواح والتماثيل فى الاسلام ، وتجاوز النصارى لما شرط عليهم فى عهود الصلح فيما يخص استحداث الكنائس واظهار الصلبان ، وتفشى الصور المحرمة وخاصة المقدسة منها عند النصارى ، وكون أهل الذمة يعيشون داخل الدولة الاسلامية وبين المسلمين خشى الخليفة يزيد بن عبد الملك من تأثر المسلمين بهم ومحاكاتهم اياهم(١).

وقد أكد ذلك جيرو (Gero) فقال : أن حركة يزيد لم تكن موجهة ضد المسيحية والمسيحيين ، وانما لتطبيق وجهة النظر الاسلامية المحرمة للصور ، ولايوجد دلالة قاطعة على أثر اليهود على يزيد فى اتخاذ سياسته اللاايقونية(٢).

وقد كان المسلمون عند تنفيذ قرار يزيد أرحم وأنصف من أباطرة الروم الذين نفذوا الحركة اللاايقونية فى بيزنطة ؛ الذين اضطهدوا الرهبان وقتلوهم وعذبوهم(٣). ولعل السبب فى ذلك أن المصادر العربية وغيرها لم تشر الى وقوف النصارى داخل الدولة الاسلامية فى وجه قرار الخليفة يزيد وربما كان ذلك دليلا على أن قرار يزيد لم يكن موجها للصور المقدسة عند النصارى ، وبدافع عقدى ، وانما لحرمة الصور ذات الأرواح عامة فى الاسلام ، وحماية للمسلمين من أثره ، وعقوبة للنصارى على تجاوزهم ، فكانوا يعرفون ذلك ، فاستكانوا له . غير أن بعضهم ناصب الحركة اللاايقونية الصادرة من بيزنطة لأنها موجهة بشكل خاص لشىء يعتقده بعض النصارى ويقدسونه ، ومنحهم المسلمون حرية الرأى تجاه ذلك ، كما عرفناه من موقف يوحنا الدمشقى الذى دافع عن الايقونات من داخل الدولة

---

(١) عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص٢٧٥، ٢٩٩-٣٠٠ .

(٢) Op. Cot, p.128-129 .

(٣) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٩٥ .

الاسلامية فى حرية تامة[١].

ولكن يذكر أن يزيد بن عبد الملك سمح للنصارى بعد هذا المرسوم باصلاح ماأصاب كنائسهم من تدمير ، وأن سياسته هذه انتهت بوفاته[٢]، وأن تلك الأوامر الصارمة لم يعمل بها طويلا . فقد ابتنى خالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك على العراق كنيسة لأمه النصرانية ، وأذن لأهل الملل الأخرى بابتناء دور عبادة لهم[٣]. ويرى ترتون أن كراهة المسلمين لاظهار النصارى شعائرهم ، ومحاولات بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز منعهم من ذلك ، لم تؤد الى القضاء على كل شيء ، وأن تلك المحاولات تدل على أن النصارى كانوا يجهلون عهد عمر بن الخطاب ، أو أنهم لم يلتزموا به[٤].

يقول روبرت شك : أنه فى سنة ١٣٠هـ/٧٤٧-٧٤٨م هدمت بعض الكنائس بسبب الزلازل ، مثل ماحدث فى مدينة جرش ، وبلا ، وتل كيسون ، وسوسيتا وأم قيس[٥]. وكان قد حدث زلزال كبير فى زمن مروان بن محمد ، يبدو أنه أصاب كل بلاد الشام ، وهلك فيه عشرات الآلاف من السكان ، وانهارت منه عدد من الكنائس والأديرة[٦].

كما لاحظ روبرت شك أنه مع بداية العصر العباسى تعرض كثير من الكنائس المسيحية التى كانت قائمة فى العصر الأموى للهدم والتدمير ، وهذا ماأدى الى انخفاض عدد الكنائس فى فلسطين الى النصف والى هجرة عدد كبير من المسيحيين عن فلسطين ، فانخفض عددهم الى النصف أيضا[٧]. ولم يذكر

---

(١) عن موقفه ، انظر قبل : ص٤٠٥-٤٠٨ .

(٢) S.Gero : op. cit, p.128 ; Robert Schick : op. cit, p.45

(٣) حتى ، تاريخ العرب ، ٣٠٢/١-٣٠٣ .

(٤) أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٢١ .

(٥) Robert Schick : op. cit, p.46 .

(٦) لطفى عبد الوهاب يحيى ، حولية ثيوفانس ، ص٢٥ .

(٧) Robert Schick : Op. Cit, p.37,47 .

الباحث أسباب ذلك . ووواضح أن سبب انخفاض عددهم ، جاء نتيجة اعتناق بعضهم الاسلام .

ويقول جان موريس فـاى (Jean Maurice Fiey)[١]، وهو يتحدث عن الأمويين فى المصادر السـريانية ، أن هـذه المصادر السـريانية كتبـت بعـد سقـوط العباسيين والأمويين معا ، وبعد مقارنته للعصـرين الأموى والعباسى فى المصادر السريانية ، فان صاحب أحد هذه المصادر وهو (Bar Hebraeus) بارهيرا يوس يقارن بين العصرين بقوله : انه لايتردد فى القـول بأن العباسيين كانوا أفضل عند المسيحيين ممن كانوا فى دمشق (الأمويون) .

---

(١) Op. Cit, p.24 .

* الناحية الاجتماعية :

ـ الموقف من الناحية الاجتماعية فى عصر الخلفاء الراشدين :

أدت الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام الى خضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى ، وأصبح أولئك من رعايا الدولة الاسلامية ، وجزءا من مجتمع دار الاسلام . وقد استمد المسلمون أسس علاقتهم بغيرهم ، وأحكام معاملتهم ، من القرآن والسنة ، وفعل الخلفاء الراشدين .

وقد بحث خميس الغامدى (١) أسس الاسلام فى تكوين العلاقات بين المسلمين وأجملها فى : الدعوة الى الاسلام ، وفق مبادىء الدين ، وان لم يستجيبوا لزم معاداتهم وبغضهم وعدم موالاتهم ، وكذلك اخضاعهم لحكم المسلمين وأحكام الملة ، والناس بذلك اما حربيون ، والعلاقة بهم تقوم على الجهاد والمقاطعة كما قال سبحانه : {**إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**}(٢).

واما مسالمين ، جنحوا للسلم والتزموا الحياد ، فيعاملون بالمثل كما قال سبحانه : {**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**}(٣). فان أبدوا شموخا وعلوا على المسلمين ، ورفضوا الدعوة الى الله أو رفضوا اعطاء الجزية فتتحول العلاقة معهم الى علاقة حرب .

واما معاهدون ، وهؤلاء يعاملون بالعدل والوفاء والبر والاحسان .

وفى ضوء تلك الأسس شرع الاسلام أن يعامل أهل الذمة بصلة الرحم ، وحسن الجوار ، وزيارتهم ، وعيادة مرضاهم ، وتعزيتهم ، ورد

---

(١) انظر تفاصيل قوله ، موثقا فى رسالته الموسومة بـ : العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٧١-١٨٣ ؛ وانظر أيضا : ابن النقاش ، المذمة فى استعمال أهل الذمة ، مقدمة المحقق عبد الله ابراهيم الطريقى ص٨-٩ .

(٢) الممتحنة ، آية : ٩

(٣) الممتحنة ، آية : ٨

السلام عليهم ، والاهداء اليهم ، ومخالطتهم والسفر اليهم والاقامة بينهم ، واحترام حقوقهم ، والتسامح مع أهل الكتاب فى اباحة ذبائحهم، ونكاح حرائر نسائهم ، والرفق بضعيفهم وسد خلة فقيرهم ، واطعام جائعهم ، واكساء عاريهم ، ولين القول لطفا ورحمة ، واحتمال أذية الجار احسانا لاخوفا وذلة ، والدعاء لهم بالهداية ، ونصيحتهم فى جميع أمورهم ، وحفظ غيبتهم ، وصون جميع حقوقهم ومصالحهم ، وانصافهم ودفع الظلم عنهم ، والتعامل معهم فى العقود المالية والمصالح الدنيوية من بيع وشراء واجارة ورهن ، والافادة مما عندهم والتعاون معهم فى شئون الحياة الدنيا وفقا للحاجة على ألا يترتب عليه مفسدة ولايكون فيه موالاة ، والاستعانة بهم فى بعض الوظائف العادية غير الشرعية عند الحاجة ، مفيدين من خبراتهم ، مع عدم مودتهم أو تقديمهم على المسلمين . على أن يتخذ المسلمون من كل ذلك وسيلة لنشر الاسلام .

ولقد أقر لهم الاسلام من الحقوق كل شيء لايجعلهم فى مصاف المسلمين ، أو يجعل لهم سلطانا عليهم(١).

وبالمقابل أوجب على من أبيح للمسلمين التعامل معهم من أهل الذمة أداء ماشترط عليهم من الواجبات ، واحترام الاسلام وأهله(٢).

والحق أن حقوق وواجبات أهل الذمة ، قد حظيت باهتمام كثير من العلماء ، جمعوها وفسروها واجتهدوا فيها ، متفقين على أسسها ، مع اختلاف بينهم فى فروعها(٣)، فلم يعد لعرضها عامة ضرورة فى بحثنا هذا ، وسنكتفى بالقاء الضوء على موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الإجتماعية .

---

(١) خميس الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى ، ص١٧٩ .

(٢) خميس الغامدى ، نفس المرجع ، ص١٨١ .

(٣) انظر عن مجمل حقوق وواجبات أهل الذمة : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٢٦-١٢٧ ؛ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٧٠-٢١٠ (وقد تحدث عن حقوق وواجبات المستأمنين أيضا) ؛ يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٩-٤٢ ؛ شفيق يموت ، أهل الذمة فى مختلف أطوارهم وعصورهم ، ص١٣٠-١٥٧ ؛ أبو الأعلى المودودى ، حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية ، دار القرآن الكريم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

لقد جاء موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الاجتماعية قائم على مبادىء الاسلام فى معاملتهم فاصطبغ بالوفاء بالعهود ، والعدل والبر والاحسان ، وحسن المعاملة ، والتسامح ، والرحمة .

فلم يغيروا عادات النصارى القديمة التى صولحوا عليها ، وفاء لعهدهم ومن ذلك ماذكره أبو عبيد : أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، وبينما هو يسير لقيه المقلسون(١) بالسيوف ، والريحان ، فقال عمر : امنعوهم ، فقال أبو عبيدة بن الجراح هذه سنة العجم وانك ان تمنعهم منها يروا أن فى نفسك نقضا لعهدهم ، فتركهم . قال أبو عبيد : المقلسون قوم يلعبون بلعبة لهم بين يدى الأمراء اذا قدموا عليهم ، فأنكرها عمر وكرهها ، ثم أقرها ، لأنها متقدمة لهم قبل الصلح وكذلك كل ماكان من سنتهم ، فوقع الصلح عليه ، فليس لأحد نقضه ، وهو تأويل قول ابن عباس :"وماكان قبل ذلك فحق على المسلمين أن يوفوا لهم به"(٢).

وكذلك الخمر ترك لهم شربه لأنها عادتهم قبل الصلح وعقدت لهم الذمة على ذلك ، لكنهم منعوا من الاتجار فيها أو المجاهرة بها أمام المسلمين لأن ذلك لم يكن مما شرط لهم(٣). بينما نهى عنه وعن الخنازير فى أمصار المسلمين(٤). وأمر عمر بن الخطاب ألا يجاور المسلمون الخنازير وأمرهم بقتلها ونقص أثمانها من الجزية(٥). وحدث ابن عباس أن ليس لأهل الذمة

---

(١) القلس والتقليس : الضرب بالدف والغناء ، والمقلس ، الذى يلعب بين يدى الأمير اذا قدم المصر ، واستقباله بأصناف اللهو ، والتقليس ضرب اليدين على الصدر خضوعا ، والسجود . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : قلس) .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠٠-٢٠١ ؛ ونقل عنه : ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٨٦/١-٣٨٧ ؛ عبد الجبار الخولانى ، تاريخ داريا ، ص٩٦ .

(٣) انظر : أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٤-١٢٧ ؛ ونقل قوله : ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٢٨٢/١ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٤-١٢٥ .

(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٢٧١/١ .

أن يبيعوا الخمر ويقتنوا الخنازير فى أمصار المسلمين(١). ومما ورد فى ذلك وفيما يحفظ للمسلمين تميزهم ، وينزل أهل الذمة منزلتهم ، قول عمر : "أدبوا الخيل ، واياى وأخلاق الأعاجم ، ومجاورة الخنازير ، وأن يرفع بين أظهركم الصليب"(٢). وفى رواية أنه قال فى خطبته بالجابية عندما قدم الشام : "أدبوا الخيل ، وتسوكوا ، وانتضلوا ، وانتعلوا ، وتمعددوا ، واقعدوا فى الشمس ، ولاتجاورنكم الخنازير ، ولايرفع فيكم صليب ، ولاتقعدوا على مائدة يشرب عليها الخمر ، واياكم وأخلاق العجم"(٣).

وقد بلغ عمر أن رجلا من أهل السواد أثرى من تجارة الخمر فكتب : "أن اكسروا كل شىء قدرتم له عليه ، وسيروا كل ماشية له ، ولايؤوين أحد له شيئا"(٤). وقد أحرق على فى قرية بالكوفة كان يباع فيها الخمر(٥).

وذكر أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، مرت عليه قافلة وهو بالشام ، تحمل الخمر ، فعرف أنها للتجارة ، فأخذ شفرة ، فلم يذر راوية الا نقرها ، فشكاه أناس الى أبى هريرة ، ومما قالوه ، أنه يغدو الى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم ، فكلمه أبو هريرة ، فأفهمه أن ذلك وفاء لبيعة الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم فى العقبة ، على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام بالحق حيث كانوا ، لايأخذهم فى الله لومة لائم(٦).

ومافعل عبادة رضى الله عنه ذلك ، الا لأنه ليس من حق أهل الذمة الاتجار به فى أمصار المسلمين وبين البلدان .

وتحقيقا لمبدأ العدل والرحمة والاحسان ، شملت كفالة الدولة الذميين مع المسلمين عند الحاجة والعوز ، لأنهم من رعايا دولة الاسلام ، امتثالا لقوله تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ...}(٧)، فان كفر الكافر

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص١٢٦ .
(٢) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٤-١٢٥ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٢٧٠/١ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن الخطاب ، ص١٥٤ ؛ وانظر قبل : ص١٣٢ .
(٣) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٢٧١/١ ؛ ابن الجوزى ، نفس المصدر ، ص٢٢١ .
(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٥ .
(٥) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٢٥-١٢٦ .
(٦) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٧،١٠/٢ .
(٧) سورة المائدة ، آية : ٨

لايمنع من العدل ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته**"(١)، ولقوله تعالى : {**والله يحب المحسنين**}(٢)، وقال عليه السلام : "**ان الله كتب الاحسان على كل شيء...**"(٣). وقوله عليه السلام "**الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**"(٤).

ومن ذلك : أن عمرا أبصر شيخا كبيرا ضرير البصر من أهل الذمة يسأل الناس ، فسأله عما ألجأه الى المسألة ، فقال : ليس لى مال ، وأنا تؤخذ منى الجزية ، فقال عمر : ماأنصفناك ان أكلنا شيبتك ، ثم نأخذ منك الجزية ، فذهب به الى منزله فرضخ له فى المنزل بشىء ، وأمر خازن بيت المال أن يجرى عليه من بيت المال هو وضرباؤه ، وكتب الى عماله : ألا يأخذوا الجزية من شيخ كبير وأن توضع عنه وعن ضربائه ؛ كما أمره عند مقدمه الجابية من أرض الشام ، وقد مر على قوم مجذومين ، أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت(٥).

ومن باب العدل والاحسان ، أمر عمر أن يوسع أهل الشام والعراق لنصارى نجران لما أجلاهم ، من حرث الأرض وان مااعتملوا من شىء من خريب فهو لهم مكان أرضهم باليمن(٦)، وكان النجرانية بعد اجلاء عمر لهم قد تفرقوا ، فنزل بعضهم الشام ونزل بعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت(٧). ولما استخلف عثمان وجد أن أمر عمر أضر بالدهاقين فى أرضهم ، فأسقط شيئا من جزيتهم عقبى لهم من أرضهم بدل أن يوسع لهم فى أرض العراق والشام مكان أرضهم ، فقد روى البلاذرى أنه كتب الى عامله على الكوفة :"أما بعد فان العاقب والاسقف وسراة نجران ، أتونى

---

(١) البخارى ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٤٤١/٢ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ١٤٥٩/٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٣٦

(٣) خرج الحديث قبل ، انظر : ص١٢٦ .

(٤) الترمذى ، سنن الترمذى مع تحفة الأحوذى ، ٥١/٦ ؛ أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ، ٢٨٥/١٣ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) انظر عن ذلك : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥٩-٢٦٠ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٥٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٦٢/١-١٦٣ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٥ ؛ عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٠٢-١٠٥ ؛ يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص١٦-١٧ .

(٦) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٧٧ .

(٧) البلاذرى ، نفس المصدر والصفحة .

بكتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأرونى شرط عمر ، وقد سألت عثمان بن حنيف عن ذلك فأنبأنى أنه كان بحث فى أمرهم فوجده ضارا للدهاقين يردعهم عن أرضهم ، وأنى قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتى حلة لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم ، وانى أوصيك بهم ، فانهم قوم لهم ذمة"(١).

والحق أن عهود الصلح تعد ركيزة من أسس العلاقات بين المسلمين ونصارى الشام ، غير أن العهود الأولى لم تهتم بالسياسة الاجتماعية والشروط الموجهة لها . ولكن وصولنا الى حقيقة أن تلك العهود الأولى لم تتضمن الشروط المنظمة للعلاقات الاجتماعية والمبينة لكل الحقوق والواجبات ، لايعنى انتفاءها ، أو أن المسلمين يتعاملون اجتماعيا مع النصارى وغيرهم كيفما اتفق ، فهم فى الواقع يسيرون فى هذا الاتجاه وفق منهج الله مستمدا من كتابه وسنة رسوله وفعل الخلفاء الراشدين . وقد حوت الشروط العمرية مجموعة من الشروط الاجتماعية ، بل أنها ركزت على توضيح بعض الجوانب الدينية والاجتماعية فحسب ، وافتقرت الى مجرد ذكر شروط بعض الجوانب الأخرى كالادارية والمالية ، مما يخولنا القول أن الشروط العمرية وقد وسمها البعض بالتشدد والتفصيل هى فى الحقيقة كانت شروطا موضحة لشروط معروفة دعت الحاجة الى بيانها ، ومكملة لشروط قبلها ، وبحاجة لما يتم نقصها ، وأنها لاتزيد عن كونها أساسا فى مجموع أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة التى نستطيع أن نحصرها فى مبادىء الشريعة الاسلامية ، قرآنا ، وسنة ، وفعل الخلفاء الراشدين ، من قول وعمل ، ووصية .وأمرا وعهدا ، ومواقف الحكام المسلمين ، القائمة على تلك الأصول ومااجتهده الفقهاء فيما استجد من أمور . والى جانب الشروط العمرية ، قدمت لنا المصادر مجموعة من المرويات عن توجيهات وأوامر لبعض الخلفاء الراشدين ، فى معاملة نصارى الشام اجتماعيا . وسنعرض الآن لما جاء حول ذلك فى الشروط العمرية ، وتوجيهات وأوامر الخلفاء فى هذا الشأن .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

فقد ألزمت الشروط العمرية[1] نصارى الشام توقير المسلمين ومراعاة حقوقهم ومشاعرهم ، وشرط عليهم عدم التشبه بالمسلمين فى الملبس ، والمركب ، والكنى ، ونقش الخواتم بالعربية ، والتكلم بكلامهم . والحق أنى لاأرى فى ذلك اجحافا بحق أهل الذمة أو ايقاع الضرر بهم ، فانما شرط عليهم الاحتفاظ بهيئتهم وزيهم ، أو أن يرى بعض الباحثين فى بعض تلك الشروط شىء من التشدد عليهم ، فان الغاية منه أن يعرفوا بين المسلمين ، لئلا يؤدى التشابه الناتج عن التشبه الى وقوع الخطأ فى معاملة أحد الفريقين بما تعامل به الفئة الأخرى ، ولتحقيق تلك الغاية لاشك أن ضررا سيقع على المسلمين ومنه عدم انصهار الفئات غير المسلمة فى المجتمع الاسلامى ، وبطء انتشار الاسلام بينهم ، ولاشك أن المسلمين كانوا حريصين على تحقيق ذلك الهدف غير أنهم أيضا كانوا يسعون الى تحقيقه مع الحفاظ على تحقيق العدل وتطبيق الأحكام وصون الحقوق التى قد يضيع شىء منها عند تشبه غير المسلمين بهم.

وكانت غاية عمر من الزام النصارى بالغيار ليعرفوا من المسلمين ، وأصل ذلك أن خالد بن عرفطة[2]، أمير الكوفة جاءت اليه امرأة نصرانية

---

(١) انظر مانصت عليه الشروط العمرية من شروط اجتماعية ، قبل : ص٢٠١-٢٠٣ . وقد اشترطت بعض عهود الصلح الأولى فى غير بلاد الشام بعض الشروط العمرية المتعلقة بالناحية الاجتماعية ، وهذا يسند ماذهبت اليه أن الشروط الاجتماعية لم يكن مصدرها الوحيد الشروط العمرية ، وأن الشروط العمرية ماهى الا مكملة ومفصلة وموضحة لشروط المسلمين على أهل الذمة ، المعروفة لهم وان لم يضمنوها كل عهود الصلح الأولى . فقد نص صلح (أصبهان) عدم سب المسلم وضربه وحمل الراحل مرحلة . انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٤١/٤ . وتضمن صلح (الرى) اشتراط تفخيم المسلم وعدم سبه وضربه ، ومن ضربه يقتل . انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ١٥١/٤ .

(٢) خالد بن عرفطة بن أبرهة القضاعى العذرى ، رضى الله عنه ، له صحبة ، كان خليفة سعد بن ابى وقاص على الكوفة ، مات سنة ٦١هـ ، وقيل : قتله المختار الثقفى بعد موت يزيد بن معاوية أى بعد سنة ٦٤هـ . انظر : ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٩٢/٣ .

فذكرت أن زوجها يضربها على النصرانية ، فضربه خالد وحلقه وفرق بينه وبينها ، فشكاه النصرانى الى عمر ، فحقق فى الأمر ، ولما تبين له ، أقر عمل خالد ، وكتب الى الأمصار : "أن يجزوا نواصيهم ، ولايلبسوا لبسة المسلمين حتى يعرفوا من بينهم"(١).

ولم يلزم النصارى بالغيار فى عهد النبى عليه السلام ، وانما اتبع فيه أمر عمر بن الخطاب(٢)، وكان بدء ذلك خبر خالد بن عرفطة والنصرانى الذى قدمناه آنفا ، يقول ابن القيم : فان قيل : أن أهل الكتاب لم يلزموا بالغيار زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أبى بكر الصديق ، وسنته أحق أن تتبع . قيل : انما اعتمد عمر والحكام من بعده سنته عليه السلام ، فانه أرشد الى مخالفتهم ، والنهى عنهم . لكن الزامهم بالغيار فى زمنه لم يكن ممكنا ، لأن المسلمين لم يكونوا استولوا على أهل الكتاب وقهروهم وملكوا بلادهم . بل كانت معظم بلادهم لهم وهم أهل صلح وهدنة ، فكان المقدور عليه اذ ذاك مخالفة المسلمين لهم قدر الامكان ، فلما فتح الله على المسلمين وغلبوهم ، وجرت عليهم أحكام الاسلام ، ألزمهم عمر الذى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته ، بالغيار ، ووافقه على ذلك جميع الصحابة واتبعه الخلفاء والأئمة بعده ، وانما قصر فى ذلك من الخلفاء من قلت رغبته فى نصرة الاسلام ، واذلال الكفر ، وقد اتفق العلماء على وجوب الزامهم بالغيار وأن يمنعوا من التشبه بالمسلمين فى زيهم(٣). ومن ذلك قول الامام أحمد : "ينبغى أن يؤخذ أهل الذمة بالزنانير يذلون بذلك"(٤). ولم تكن الشروط العمرية هى المصدر الوحيد لالزام عمر أهل الذمة بالغيار ، وعدم التشبه بالمسلمين فى شىء من أمورهم .

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢٣٦/١ .
(٢) ابن القيم ، نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٥٦/٢ .
(٤) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٤٤/٢ .

وانما ورد من طرق متعددة فى عدد من المصادر[1]، أن عمر بن الخطاب أمر فى أهل الذمة وكتب الى عماله على الأمصار بما مجمله على اختلاف فى اللفظ بين المرويات : أن تجز نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكف[2]، وأن يركبوا عرضا ، وأن لايركبواكما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق[3] فى أوساطهم ويظهروها ، وألا يتشبهوا بالمسلمين فى لبسهم ومركبهم وهيئتهم أو فى شىء من أمورهم ، ليعرف زيهم من زى أهل الاسلام . كما تضمنت وصايا عمر مايكفل تميز المسلمين وتمييز النصارى عنهم[4].

كما ألزمهم المسلمون ماجاء فى قول سلمان الفارسى رضى الله عنه ، عندما سئل فيما يحل للمسلمين من أهل الذمة : "من عماك الى هداك ، ومن فقرك الى غناك ، واذا صحبت الصاحب منهم تأكل من طعامه ، ويأكل من طعامك ، ويركب دابتك وتركب دابته ، فى أن لاتصرفه عن وجه يريده"[5].

ونهى عمر بن الخطاب عن بيع رقيق أهل الذمة[6].

---

(١) انظر : أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٦١-٢٦٢ ؛ أبو عبيد ، الأموال ، ص٦٦-٦٧ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٨٥/١-١٨٦ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص١٥١ ؛ ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٣/١-١٠٤ ؛ ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٤٣/٢،٧٤٤،٧٦٢ .

(٢) أكف : الاكاف ، والأكاف من المراكب ، شبه الرحال والأقتاب ، وقيل : أكاف الحمار . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : أكف) .

(٣) المنطق ، والمنطقة ، والنطاق ، كل ماشد به وسطه . (ابن منظور ، نفس المصدر ، مادة : نطق) . وقال أبو عبيد : يعنى الزنانير ، وأوردها فى رواية أخرى بلفظ : الكستيجات (انظر : نفس المصدر ، ص٦٦-٦٧ ؛ وابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٨٥/١-١٨٦) . والزنار : مايشده الذمى على وسطه . (ابن منظور ، نفس المصدر مادة : زنر) .

(٤) انظر قبل : وصايا الخلفاء الراشدين ، ص١٣٢ .

(٥) أبو يوسف ، نفس المصدر ، ص٢٥٩ ؛ أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص١٩٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٧٦/١ . (ولم يذكر أبو عبيد وابن زنجويه قوله : "وأن يركب دابتك" وهو عند أبى يوسف ، وهو أقدم منهما) .

(٦) انظر : يحي بن آدم ، الخراج ، ص٥٢-٥٥ .

ـ الموقف من الناحية الدينية فى العصر الأموى :

نعم نصارى الشام بمجتمع مستقر غالب عمر هذا العصر ، فعاشوا فى أمن واستقرار ورخاء وثراء ورفاهية ، ووجدوا منغالب الحكام الأمويين التسامح والرحمة والعدل والوفاء ، فسعدوا بالحياة فى مجتمع دار الاسلام ، وظل حكومته ، ولم يكن هناك مايدفعهم للندم على فقدان الحكم البيزنطى المسيحى(١). بل أن تسامح بنى أمية مع نصارى الشام ساعد على بقاء المجتمع المسيحى مترابطا ، وأدى الى بطء انتشار الاسلام بين النصارى ، وبقاء النصرانية ، ولغة أهلها ، ومكانتهم فى المجتمع الشامى(٢).

وفيما قدمناه عن حسن معاملة بنى أمية لنصارى الشام وتسامحهم ، أمثلة للعلاقات الاجتماعية ، وصور لذلك المجتمع(٣).

ولقد شحت المصادر بالمعلومات الخاصة بالناحية الاجتماعية فى العصر الأموى ، فيما عدا اجراءات عمر بن عبد العزيز ، ونزر ضئيل عن الخلفاء الآخرين ، وفى ضوء ماتوفر لنا منها نستطيع القول ، أن الخلفاء الأمويين التزموا الوفاء لنصارى الشام ، فيما يخص الناحية الاجتماعية ، وفق مبادىء الدين ، وماشرط فى عهود الصلح ، وفعل الخلفاء الراشدين ، بل ان بعضهم تسامح معهم لدرجة جعلته فى حكم المتهاون . ومن أمثلة الوفاء ، أمر عمر ابن عبد العزيز عامله على قنسرين أن يرد لأهلها الذين صالحوا المسلمين مساكنهم التى نزلها بعض المسلمين ، فلما نظر فى أمرهم وقد وجدها قليلة ،

---

(١) انظر : أحمد اسماعيل على ، تاريخ بلاد الشام فى العصر العباسى ، دراسة سياسية اجتماعية ، دار دمشق ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ص١٥٨ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٦ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، الدار المتحدة للنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م ، ص٢٢٧،٢٢٨ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٤٣ .

(٢) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٤٣-١٤٤ .

(٣) انظر قبل : طبيعة الحكم الاسلامى ، ص٢٤٧-٢٥٨ .

سأله النصارى الكف عن ذلك ، فكف يده (١). وفعل عمر وفاء لهم بحق لهم شرط لهم فى الصلح ، وطلبهم الكف بعد الشكوى ، دليل على الرضى بالعدل ، واكتفاؤهم به عن نوال الحق الذى اضحى بين يديهم .

كما التزموا أحكام الاسلام فى كفالة المحتاج ، اذ تشمل كفالة الدولة كل رعاياها مسلمهم وكافرهم (٢)، فأجرى عمر بن عبد العزيز على الشيوخ منهم من بيت المال اقتداء بعمر بن الخطاب (٣). وكتب الى عامل له : "انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين مايصلحه" (٤). واعانة من عجز منهم ، وتقويته على اعتمال أرضه ، من فائض بيت المال بعد سد حاجة المسلمين (٥). وقد أمر عمر بن الخطاب باعانة من عجز منهم (٦). ولم يقف عمر عند كفالة المحتاج ، واعانة العاجز ، بل رفه عنهم فقد أمر : أن دع لأهل الخراج مايتختمون به الذهب ويلبسون الطيالسة ، ويركبون البراذين وخذ الفضل (٧). كما أمر بمفاداة أسراهم كالمسلمين (٨). ويذكر للوليد بن عبد الملك احسانه على المرضى والمقعدين وأهل السبيل (٩). ويبدو أن

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٠١ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٥٨/١-٣٨٩ .

(٢) انظر : عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١٠٢-١٠٥ .

(٣) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٢ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٦٢/١ .

(٤) أبو عبيد ، نفس المصدر ، ص٥٧-٥٨ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ١٦٩/١-١٧٠

(٥) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٦٤ ؛ ثابت اسماعيل الراوى ، العراق فى العصر الأموى ، من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، منشورات مكتبة الأندلس ، بغداد ، الطبعة الثانية ، مطابع النعمان ، النجف ، ص٣١٢-٣١٣ ؛ عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، ص١٢٩ .

(٦) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٩ .

(٧) ثابت اسماعيل الراوى ، نفس المرجع ، ص١٣٠ .

(٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٥٣/٥ ؛ ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٣٣٦/١-٣٣٧ .

(٩) Jean Maurice Fiey : Op. Cit,p.17 .

خدمـاته تلك شملت المسلمين والنصـارى ، لأن فعله ذاك ذكـر بعين الـرضا عند المؤرخين السريان .

ويرجح أن الزام أهل الذمة بعدم التشبه بالمسلمين فى الملبس والمركب والهيئـة استمر بصفة العموم فى العصر الأموى على مايأمـر به الخليفة الراشد عمر بن الخطـاب(١)، فـان اشتراط الجراجمـة السمـاح لهـم بارتداء لبـاس المسلمين فى الصلح الذى وقعوه مع مسلمة بن عبد الملك زمن الخليفة الوليد سنة ٨٩هـ(٢)دليل على استمرار الزامهم عدم التشبه بالمسلمين . وقد ذكر ابن القيم أنه يجوز ترك بعـض هذه الأحكـام الاجتماعية ، تألفـا لأهل الذمة على الاسلام ، وأن هـذه الأحكـام مـن الغيـار وغيره تختلـف باختلاف الـزمان والمكـان والعجـز والقدرة والمصلحـة والمفسدة ، ولذا لم يغيرهـم النبى عليـه السلام والصديق وغيرهم عمر(٣). غير أن من الواضح تسامح بعـض الخلفاء فى ذلك ، وتجاوز النصارى ذلك الشرط ، ودليله ماروى أن الأخطل الشاعر النصـرانى كان يدخل على عبـد الملك وعليه جبة وحرز مـن الخز وفى عنقـه سلسلة بها الصليب تنفض لحيتـه خمرا(٤). وهـى روايـة ان صحت فانما تدل على تهاون الخليفة عبد الملك لاتسامحه كما يقول القرضاوى(٥).

وكـذلك ماأورده ابن القيم ، أن أناسـا من نصارى تغلـب دخلـوا على عمـر بن عبد العزيز ، وعليهـم العمائم ، فجز نواصيهـم ، وألقى عمائمهم ، وشق رداء كل واحد منهم شبرا يحتزم به(٦).

---

(١) انظر قبل : ص٤٣٧-٤٤٣ .
(٢) انظر شروط هذا الصلح ومناقشته قبل : ص١٩١ .
(٣) أحكام أهل الذمة ، ٧٧٠/٢ .
(٤) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٢٣ ؛ القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمـع الاسلامى ، ص٦٠-٦١ .
(٥) نفس المرجع والصفحة .
(٦) نفس المصدر ، ٧٤٢/٢ .

والحق أن تلك الشروط ، وان قال بعض المؤرخين [١] بعدم وجودها قبل عمر بن عبد العزيز ، فان ماذكرناه قبل [٢] ، وماذكرناه آنفا ، يؤكد وجودها منذ عهد عمر بن الخطاب ، واستمرارها زمن بنى أمية ، وحرص عمر بن عبد العزيز على تطبيقها ، لعدم التزام النصارى بتنفيذها ، وعدم حرص بعض الخلفاء على مراعاتها تسامحا أو تهاونا .

وقد نص على الزام عمر بن عبد العزيز نصارى الشام وأهل الذمة عامة ، بالغيار وعدم التشبه بالمسلمين فى الملبس والمركب والهيئة ، عدد من المصادر ، منها ماذكر أبو يوسف [٣] أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامل له : "ولايركبن يهودى ولانصرانى على سرج ، وليركب على اكاف ، ولاتركبن امرأة من نسائهم على رحالة ، وليكن ركوبها على اكاف ، وتقدم فى ذلك تقدما بليغا ، وامنع من قبلك فلايلبسن نصرانى قباء ولاثوب خز ولاعصب [٤] ، وقد ذكر لى أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم ، واتخذوا الجمام [٥] والوفر [٦] وتركوا التقصيص ، ولعمرى ان كان يصنع ذلك فيما قبلك ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة ، وانهم حين يراجعون ذلك ليعلمون ماأنت ، فانظر كل شىء نهيت عنه فاحسم عنه من فعله . والسلام" . كما ذكر أبو عبيد

---

(١) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٢٦-١٢٧ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٣٠ ومابعدها ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٨-١٤١

(٢) انظر الشروط العمرية قبل : ص٢١٥-٢٢٠ ، والموقف من الناحية الاجتماعية فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص٤٣٥ ومابعدها .

(٣) الخراج ، ص٢٦٢ ؛ وانظر : ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٤١/٢-٧٤٢ .

(٤) العصب : هو البرد الذى يصبغ غلوله وهو اليمانى . والخز ، لباس الأشراف ومن له عز . (ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٦٣/٢) .

(٥) الجمام : الجمة مجتمع شعر الرأس وهو أكثر من الوفرة ، والجمة من شعر الرأس ماسقط على المنكبين . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : جمم) .

(٦) الوفر : الوفرة الشعر المجتمع على الرأس ، وهو ماسال على الأذنين . (ابن منظور نفس المصدر ، مادة : وفر) .

أنه أمر أن يحملوا على الأكف وأن تجز نواصيهم[١]، وذكر مؤرخون آخرون أنه كتب الى سائر البلاد : أن لايركب ذمى من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ، ولايلبس قباء ، ولاطيلسانا ، ولاالسراويل ، ولانعلا لها عذبه ، ولايمشين أحد منهم الا بزنار من جلد ، ولايمشين الا وهو مقرون الناصية ، ومن وجد منهم فى منزلة السلاح أخذ منه[٢].

وكتب الى الشام : أن يشد النصارى مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم[٣]. وكتب فى شأن النصارى ، أن ينهوا أن يفرقوا رؤوسهم ، وتجز نواصيهم ، وأن تشد مناطقهم ، ولايركبوا على السرج ، ولايلبسوا عصبا ولاخزا ، وأن يمنع نساؤهم أن يركبن الرحائل ، فان قدر على أحد منهم فعل ذلك بعد التقدم اليه فان سكنه لمن وجده[٤]. وكتب : فلايركبن يهودى ولانصرانى على سرج ، وليركبن على اكاف ، ولايركبن نساؤهم على راحلة ، وليكن ركوبهن على اكاف[٥].

وكتب الى أمصار الشام : "لايمشي نصرانى الا مفروق الناصية ، ولايلبس قباء ، ولايمشى الا بزنار من جلد ، ولايلبس طيلسانا ، ولايلبس سراويل ذات خدمة ، ولايلبس نعلا ذات عذبه ، ولايركب على سرج ، ولايوجد فى بيته سلاح الا انتهب ، ولايدخل الحمام يوم الجمعة يهودى ولانصرانى حتى تصلى الجمعة"[٦].

---

(١) الأموال ، ص٦٦-٦٧ .

(٢) انظر : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، (طبعة عالم الكتب) ، ص١٤٠ (وخص بالكتاب النصارى) ؛ ابن الجوزى ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١١٩ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٣٠ (مع اختلاف يسير بينهم) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٢/٩ .

(٣) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٦٢/٢ .

(٤) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٤٤/٢،٧٦٢-٧٦٣ .

(٥) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٤٣/٢ . ٢١٢/١-٢١٣ .

(٦) ابن القيم ، نفس المصدر ، ٧٤٢/٢-٧٤٣ .

وقد نفذ عمر رحمه الله ذلك بنفسه ، اذ دخل عليه أناس من نصارى تغلب ، فألقى عمائمهم ، وجز نواصيهم ، وشق رداء كل واحد منهم شبرا يحتزم به ، وقال : لاتركبوا السروج ، واركبوا الأكف ، ودلوا أرجلكم من شق واحد(١).

كما منع عمر بن عبد العزيز الاتجار بالخمر بين الأقاليم وحملها من رستاق الى آخر ، وتصيير ماوجد فى السفن للتجارة خلا(٢). وينقل فلهاوزن نصا عن المؤرخ البيزنطى ثيوفانس أن عمر أمر بمنع شرب الخمور فى المدن(٣). ولعله قصد المجاهرة بشربها فى الأماكن العامة بأمصار المسلمين ، وقد منعوا من اظهار الخمر فيها(٤).

ويذكر أن عبد الملك بن مروان أمر بذبح جميع الخنازير الموجودة فى بلاد الشام وشمالى الجزيرة(٥). ونسب الى يزيد بن عبد الملك الأمر بقتلها فى أرجاء دولته(٦). ولعل النصارى اتخذوا الخنازير فى أمصار المسلمين فأمرا بقتل مافى أمصار المسلمين منها ، لاالتى بأمصار العجم وماأقروا فيه من الأرض ، فأيما مصر مصرته العرب فليس لأهل الذمة أن يظهروا فيه خمرا ، ولايتخذوا خنزيرا ، وأما أمصار العجم التى فتحها المسلمون فلأهلها مافى عهدهم(٧).

---

(١) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٧٤٢/٢ .
(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٣٣-١٣٤ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٢٨٢/١ .
(٣) نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص٢٩٣ .
(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٦،٢٩٧ .
(٥) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٢٠٧ .
(٦) غازى بيشة ، مناهضة الصور وتشويهها ، ص٤٨٩ .
(٧) أبو يوسف ، نفس المصدر والصفحات .

ـ التعايش بين المسلمين والنصارى فى بلاد الشام :

وقد أثمر موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الاجتماعية عن تعايش نصارى الشام مع المسلمين فى مجتمع دار الاسلام ، وقيام الانسجام بينهم فى بر ومودة وألفة وطمأنينة ، وقامت العلاقات على أساس حسن التعامل والتعاون وتبادل المصالح .

وقد ساعد على هذا التعايش مجموعة عوامل ، منها موقف الاسلام من المسيحية ، واعترافه بها ضمن الديانات السماوية السابقة ، وبالأنبياء ومنهم المسيح عليهم السلام ، وتميز معاملة أهل الكتاب ومنهم النصارى عن غيرهم من أهل الذمة واقرار وجودهم فى دار الاسلام ، واحترام الانسان بصرف النظر عن اعتقاده ، ومنحه حق البقاء على دينه دون اكراه(١).

كما أن الديانة المسيحية تدعو أتباعها الى محبة الناس جميعا والتسامح معهم(٢)، وبين ذلك القرآن فى قوله تعالى : {**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**}(٣).

ومانصت عليه أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصايا الخلفاء والأمراء والقادة ، بحسن معاملتهم ، والرفق بهم(٤)، ومأباحته الشريعة الاسلامية فى حقهم من احسان وبر ورحمة وصلة رحم(٥)، والزواج من الكتابية(٦). فقد تزوج على وابنه الحسن والحسين رضى الله عنهم ، ثلاث من بنات امرؤ القيس بن عدى الكلبى ، وكان نصرانيا من أشراف قومه ،

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٢٨،١٤٤-١٤٥ .
(٢) انظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٧٨ .
(٣) المائدة ، آية : ٨٢
(٤) انظر ذلك قبل : ص٩٠-٩٢، ١٢٦-١٣٦ ، ٢٤٢-٢٥٨ .
(٥) انظر قبل : ص٤٣٥-٤٤٠ .
(٦) عن حكم زواج المسلم من الكتابية ، انظر : عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٣٤١-٣٤٥ ، وقد أورد أقوال الفقهاء فى ذلك . وسنشير الى حدوث ذلك من الواقع التاريخى فى زمن البحث وحدوده الجغرافية .

عندما قدم على عمر المدينة يعلن اسلامه ، فأمره عمر على من أسلم من قضاعة (١).

ولاشك أنهن كن على النصرانية ، فلايفترض أنهن كن مسلمات وأبوهن على النصرانية ، ومن المتوقع أنهن أسلمن بعد ذلك ، لاسلام أبيهن وأثر زواجهن من على وابنيه ، وان لم تشر الرواية الى أمر اسلامهن ولامتى تم الزواج ، وانما ذكر الخطبة والموافقة عندما وفد أبيهن على عمر بالمدينة . كما تزوج عثمان رضى الله عنه وهو خليفة سنة ٢٨هـ ، نائلة بنت الفرافصة الكلبية (٢)، فأسلمت قبل أن يدخل بها (٣). وكان سعيد بن العاص تزوج أخت نائلة وهو أمير على الكوفة ، فسأله عثمان أن يزوجه أختها لما علم من حسبها وجمالها ، وكان أبوها نصرانيا ، وأخوها ضب على الاسلام ، وهو الذى زوجها من أمير المؤمنين بأمر أبيه (٤).

وتزوج معاوية بن أبى سفيان ، ميسون بنت بحدل الكلبية (٥)، كما

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م٤ ، ج٨ ، ص٣٥٠-٣٥١ .

(٢) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية ، زوجة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، كانت خطيبة شاعرة من ذوات الرأى والفصاحة ، من نصارى كلب ببادية السماوة بالشام ، أقامت مع عثمان بالمدينة ، ألقت بنفسها على عثمان لتحميه من الثوار لما قتلوه ، فقطعت أناملها ، وأرسلت الى معاوية بالشام بثوب عثمان الذى قتل فيه وبعض أصابعها ، ولما سكنت الفتنة خطبها معاوية لنفسه فأبت ، وحطمت أسنانها ، خوفا أن يبلى حزنها على عثمان ، فتتزوج غيره . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ٣٤٣/٧ .

(٣) ابن حبان ، السيرة ، ص٥٠٤-٥٠٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٦٣/٤ ؛ ابن الأثير الكامل ، ٤٩/٣ ؛ ابن منظور ، نفس المصدر ، م١٣ ، ج٢٦ ، ص٢٢٨-٢٣٠ (وذكر أنه تزوجها على نسائه وهى نصرانية ، ثم أسلمت على يديه) .

(٤) ابن منظور ، نفس المصدر والمجلد والجزء والصفحات .

(٥) الطبرى ، نفس المصدر ، ٣٢٩/٥ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٢٦١/٣ . وانظر ترجمتها قبل : ص٢٤٨ .

تزوج ابنة عمها ، نائلة بنت عمارة الكلبية(١)(٢). ولاشك أن تلك المصاهرة ساعدت على بناء علاقات اجتماعية وثيقة ، خصوصا أن الاسلام يدعو الى صلة الرحم حتى مع الكفار(٣)، وبالتالى أدى ذلك الى التعايش ، واعتناق الاسلام .

كما أباح الاسلام مؤاكلتهم ، وزيارتهم وعيادة مرضاهم والسير فى جنائزهم وتعزيتهم وتهنئتهم(٤)، ويذكر أن أبا الدرداء عاد جارا له نصرانيا(٥). وقد نشأ على أثر تلك العلاقات ، صلات فردية ، وصداقة حميمة بين بعض المسلمين والنصارى ، وكان الأخطل وسرجون وقاسم بن طويل العبادى من أصدقاء يزيد بن معاوية(٦). وقد مر معنا مكانة الأخطل عند الخليفة عبد الملك بن مروان(٧). وكان أعشى تغلب النصرانى صديقا للوليد بن عبد الملك ، ومدح عمر بن عبد العزيز ، غير أنه لم يجيزه باعتبار أنه نصرانى لاحق له فى بيت المال(٨).

ان المسلمين منذ وصولهم فاتحين بلاد الشام لم يفكروا فى عزل الفئات غير المسلمة عن المجتمع الاسلامى ، بل عملوا على احتواء الطوائف غير المسلمة والشعوب غير العربية ، ودمجها فى مجتمع دار الاسلام ، وجعلها

---

(١) نائلة بنت عمارة الكلبية ، تزوجها معاوية بن أبى سفيان ، من ربات الجمال والاحسان ، طلقها معاوية فتزوجها حبيب بن مسلمة ثم النعمان بن بشير . انظر : عمر رضا كحالة ، أعلام النساء ، ١٤٤/٥-١٤٦ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٢٩/٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٦١/٣ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١٣ ، ج٢٦ ، ص٢٢٨ .

(٣) انظر قبل : ص٤٣٥ .

(٤) انظر قبل : ص ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر ، ص٣١ .

(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٢ .

(٦) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٧٦-١٧٧ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٦٣ .

(٧) انظر قبل : ص٢٥٠ ، وبعد : ص٧١٣ .

(٨) ترتون ، نفس المرجع ، ص٩٦-٩٧ .

عناصر صالحة فى المجتمع ، فاعلة فى بناء الدولة الاسلامية ، وخدمة مرافقها بل وحمايتها[(١)]. فانهم قرروا الاختلاط بنصارى الشام ، والسكنى بينهم فيما جلا عنه أهله من المنازل ، أو كان متروكا[(٢)]، بل قيل أنهم شارطوهم على مقاسمة المنازل[(٣)]، واشترطوا عليهم اضافة المسلمين عابرى السبيل فى دور عبادتهم بينما عدها البعض أماكن للتنزه واللهو ، فترددوا عليها[(٤)]، وبنى بنو أمية قصورهم بين ظهرانى أهل البلد فى البوادى ، فكانوا يستقبلون زعماء القبائل البدوية فيها ، ويحلون مشاكلهم ، ويتزوجون منهم ، لكسب ولائهم وقوتهم[(٥)]. وأنزلوا جماعات منهم فى الثغور مع الجند المسلمين[(٦)]. كما اشتركوا فى الأسواق شرط ألا يبيعوا الخمر والخنزير فيها[(٧)]. وأن كان عمر بن الخطاب قد وجه الى سكنى المسلمين فى المدن[(٨)]، وقد رتب المسلمون جماعات من الجند ، وأنزلوا بعض القبائل المسلمة فى الثغور الى جوار من بها من النصارى[(٩)].

---

(١) عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق "لبنان" بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧ ، ص٣٦٢ ومابعدها .

(٢) انظر قبل : ص٢٤٥-٢٤٦ ؛ عادل أبو عمشة ، فتوح الشام فى الشعر العربى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، ص٥٢١ .

(٣) انظر قبل : ص١٧٣-١٧٤ .

(٤) انظر قبل : الضيافة ، ص ؛ وانظر : ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٥٩-١٦٣ .

(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٠٨ .

(٦) قدامة ، الخراج ، ص٣٠٨،٣٠٩ .

(٧) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص١٣٢ .

(٨) انظر قبل : ص٣٤٨ .

(٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٤ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٥ .

كمـا وطن عثمان رضى الله عنه القبائل التى نزحت مـن البوادى من قيـس بشبه الجزيرة العربية ، ومن أسلم من قبائل العـرب فى الشام بعد الفتح وبعـض المقاتلة ، لأسباب اجتمـاعية ، وعسكرية واقتصـادية ، فيمـا نأى عن المدن والقـرى ، والتى لم يكـن لأحد حق فيهـا من المسلمين وأهـل الـذمة ، وانما مـواتا أو ممـا جلا عنـه أهلـه ، فكانت خالية ، فى الأطـراف والثغـور البرية والبحرية ، وأقطعوا القطائع فيها(١).

كمـا وصل فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان عـدد كبير من رجال القبائل بالحجاز ، وأيضا من قبائل وسط شبه الجزيرة العـربية ، وبالذات من قبـائل سليم وعقيل وكلاب ، الـذين استقروا أولا فى الجزيرة ثم بعـد ذلـك اتجهـوا غربا وأخذوايسيطرون على المنطقة التى حول حمـص وقنسرين . وفى عهـد يزيد بن معاوية عين أحد هؤلاء وهو زفر بن الحارث الكلابى ، وكـان وصـول هؤلاء قد حدد مكانة العرب المحليين مـن أهل الشام(٢)، ويفاد من حديثـه أن هـؤلاء الطارئين كـانوا مـن العدد والأهميـة ، مـاهددوا به مكانة العرب المحليين فى الشام منذ ماقبل الاسلام ، ويجعلنـا نرى أن اختلاط تلك القبائل المسلمة بأهل الشام ، أدى الى لغة مشتركة فى التعـايش الاجتماعى ، وسبب فى انتشار الدين الاسلامى .

لقـد أدى ذلك التجاوز والاختلاط فى المدن ، بل وفى الـدار الواحدة أحيانا ، ثم فى البوادى والثغور ، الى التآلف والتعاون والاندماج ، وتبادل التـأثر بعـادات وتقـاليد البعـض . ومـع أن المسلمين أبقـوا النصـارى على تقاليدهم الاجتماعية ، بل ألزموهم عدم التشبه بالمسلمين ، فقد تسربت بعض تلـك التقـاليد والعـادات الى المسلمين ، حيـث أنهـم كـانوا يمارســونها بين

---

(١) عبـد العـزيز الدورى ، العرب والأرض فى بلاد الشـام فى صـدر الاسلام ، المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، الدار المتحـدة للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، ص٢٧-٢٨ .

(٢) Hugh kennedy : The origins of the qays-yaman dispute in Bilad al-sham, p.171 .

ظهراني المسلمين وعلى مرأى ومسمع منهم ، كما تأثر النصارى بعادات وتقاليد المسلمين للسبب ذاته ، حتى أنه يصعب تحديد منشأ بعض العادات والتقاليد والى أيهم تعود(١). وقد ساعد على ذلك أيضا استعانة المسلمين بهم فى كثير من مرافق الحياة ، حتى الخدمة فى المنازل والقصور ، والتعامل والتعاون معهم ، خصوصا أن جزءا كبيرا من مجتمع نصارى الشام كان من العرب ، فسهلت وحدة اللغة ، والجنس ، وبعض العادات والتقاليد ، بين العرب المسلمين والعرب المتنصرة ، سرعة التفاعل والاندماج والتعايش الاجتماعى ، بل وانتشار الاسلام(٢).

ولقد أدى حق اقرار النصارى على ديانتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، وسائر أحوالهم ، مما لايتعارض مع حقوق المسلمين ، وواجباتهم ، والولاية العامة لدولة الاسلام عليهم ؛ الى بقاء الوجود النصرانى ملة وعادة ومجتمعا أو جماعات ، داخل مجتمع دار الاسلام حتى وقتنا الحاضر ، بينما لم تسمح الكنيسة النصرانية ببقاء الوجود الاسلامى ، واجتثته من المجتمعات المسيحية كالأندلس(٣). ولقد شهد عدد من المورخين المستشرقين ، بقدرة الاسلام ، ونجاح المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، على بناء مجتمع مترابط(٤).

اثر نصارى الشام فى الحياة الاجتماعية للمسلمين :

أدى الفتح الاسلامى للأقاليم المحيطة بجزيرة العرب الى تغيير تركيبة مجتمع دار الاسلام ، ونمط الحياة الاجتماعية لأفراده ، وذلك باختلاط عناصر وأجناس ذات عقائد دينية وتقاليد اجتماعية ولغات وحضارات مختلفة

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٧٤ ؛ وانظر قبل : ص
(٢) انظر : توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٧٨ .
(٣) انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٤٤-١٤٥ .
(٤) نقل شهادةماسينيون ، سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٤٩ ؛ وقول ديورانت ، توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص١٢٦ ؛ وآدم متز ، شفيق يموت ، أهل الذمة ، ص٦٣-٦٤ .

بالعرب المسلمين الفاتحين ، الذين يمثلون نواة مجتمع دار الاسلام . وكان من البديهى أن يؤدى ذلك الاختلاط والتعايش بين المسلمين والطوائف غير المسلمة فى دار الاسلام الى تأثير اجتماعى متبادل بين العرب المسلمين ونصارى الشام وهم أحد الفئات التى انضوت تحت ظل الحكم الاسلامى ، واختلطت بالعرب المسلمين .

ولقد آثرت عدم الحديث عن أثر العرب المسلمين فى الحياة الاجتماعية لنصارى الشام ، اذ فرض الواقع التاريخى حقيقة أن أثر العرب المسلمين لم يقتصر على الحياة الاجتماعية ، وانما أحدث تغييرا جذريا فى حياة نصارى الشام وتركيبة المجتمع الشامى ، اذ تحول جمهور نصارى الشام الى الاسلام وأصبحت غالبية المجتمع الشامى مجتمعا عربيا اسلاميا ، الاسلام دينه ، والعربية لغته ، متخلقا بأخلاق الاسلام ، محاكيا عادات العرب وتقاليدهم . أما القلة من نصارى الشام فقد ظلت على دينها واحتفظت بنمط حياتها الاجتماعية وهم بقايا اليعاقبة والملكانيين والنساطرة والموارنة[١]. وان كانت هذه القلة قد تأثرت بلاشك بشىء من عادات العرب وتقاليدهم ، من باب محاكاة المغلوب للغالب[٢]، أو تزلفا وتقربا من المسلمين الحاكمين لكسب رضاهم ، والفوز بالحظوة لديهم ، فى سبيل تحقيق بعض المصالح .

وقد ساعد على تحول غالبية المجتمع الشامى الى العروبة والاسلام الدعوة الاسلامية القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة ، وطبيعتها المسالمة لأهل الذمة التى ضمنت لنصارى الشام الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم فلم يكن هناك اكراه على الدين ، وتم انتشاره سلميا واعتناقه اختياريا . كما ساعد على ذلك القرابات القبلية بين عرب الجزيرة وعرب الشام المتنصرة ،

---

(١) انظر عن تحول نصارى الشام الى الاسلام عدا القلة من هذه الفئات : فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٥٨/٣ .

(٢) انظر : ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص١٠٤ .

ووحدة اللغة وغيرها من الصلات(١)، وكان لاختلاط الفئات فى مجتمع دار الاسلام آثاره العقدية واللغوية والأدبية والاجتماعية وغيرها(٢). وليس أدل على التأثير السريع للمسلمين على نصارى الشام من محاكاتهم للمسلمين فى هيئتهم منذ السنوات الأولى للفتح ، لدرجة أننا رأينا أن الشروط العمرية حرصت على الزام النصارى بزيهم حتى يميز بين الفئتين (٣)، غير أنهم كانوا شديدى الحرص على تقليد المسلمين فى هيئتهم ، مما جعل نصارى الجراجمة بالشام يضعون من شروط صلحهم مع مسلمة بن عبد الملك زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يلبسوا ملابس المسلمين(٤).

أما عن أثر نصارى الشام فى الحياة الاجتماعية للمسلمين ، فقد أدرك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الآثار التى سيترتب عليها اختلاط المسلمين بغيرهم ، والمشاكل الاجتماعية وغيرها التى سيحدثها ذلك الاختلاط . لذلك نراه عمل منذ البدء على حماية المجتمع الاسلامى من الآثار السلبية لذلك ، فعمل على تميز المسلمين ، ومنع جماعتهم من الذوبان فى مجتمعات البلاد المفتوحة ، والاندماج والانصهار مع غير المسلمين ، وفى الوقت نفسه تحقيق التعايش بين المسلمين وغيرهم ، فى حدود ماتبيحه الشريعة ، ويحفظ لكل فئة حقوقها ، ويلزمها بواجباتها . ففى العراق مثلا اختط للمسلمين الفاتحين أمصارا جديدة(٥)، وفى الشام أذن لهم بسكنى المدن ومنعهم من الانسياح فى الأرياف(٦).

---

(١) كان بين عرب الجزيرة وعرب الشام المتنصرة ورومها صلات مختلفة منذ الجاهلية ، كالصلات التجارية ، انظر قبل : التمهيد ، ص٦١-٦٢ .

(٢) شكرى فيصل ، المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١م ، ص٧١ .

(٣) انظر قبل : ص٢٠١-٢٠٣ .

(٤) انظر قبل : ص١٩١ .

(٥) انظر عن بناء البصرة : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٥٩٠-٥٩٧ ؛ وعن بناء الكوفة الطبرى ، نفس المصدر ، ٤/٤٠-٤٨ .

(٦) انظر قبل : ص٣٤٨ .

ولعل ذلك لأن الفرس وان هزموا ظلوا بمدائنهم وأرضهم ، أما الروم فانهم لما هزموا جلا معظمهم عن مدائن الشام الى أرض الروم ، فذهبت الطبقة الحاكمة ذات السيادة والجاه والألفة التى من الممكن أن تؤثر على من حولها ، وظل أهل البلاد الأصليين ، من أهل الأرض والتجارة والمهن ، وهؤلاء أحرى بالتقرب من الحكام الجدد ، والحرص على رضاهم والتأثر بهم ، لاالتأثير عليهم .

ثم جاءت الشروط العمرية على نصارى الشام متضمنة الزامهم بعدد من الشروط الاجتماعية التى تكفل تمييزهم عن المسلمين ، وذلك بتوقير المسلمين ومراعاة حقوقهم ومشاعرهم ، وعدم التشبه بهم فى الملبس والمركب والكنى ونقش الخواتم بالعربية ، والتكلم بكلامهم(١). كما اتخذ المسلمون تجاه نصارى الشام سياسة اجتماعية تحقق تميز المسلمين ، وتمييز النصارى عنهم ، مع الوفاء لهم والعدل فيهم ، والتسامح معهم ، والرحمة والبر بهم ، والاحسان اليهم ، وحفظ حقوقهم ، ومعاملتهم ، والتعايش معهم فى حدود المباح ، على أن يظل المسلمون حكاما يحكمون بأحكام الملة فى أنفسهم وفى غيرهم بدار الاسلام ، ودعاة يحرسون الدين وينشرونه ، ويحمون الدولة الاسلامية ويرعون مصالح المسلمين(٢). وقد تضمنت وصايا عمر نهى المسلمين عن تقليد الأعاجم فى الملبس والمأكل والمركب مما كان محرما(٣)، كما منع المسلمين أن يشهدوا أو يشاركوا النصارى فى أعيادهم وماأظهر من شعائرهم(٤).

والواقع أن تلك الشروط والسياسات والوصايا وان حدت من أثر نصارى الشام فى الحياة الاجتماعية للمسلمين ، الا أنها لم تمنع تماما حدوث

---

(١) انظر قبل : ص٢٠١-٢٠٣ .

(٢) انظر قبل : ص٤٣٥ ومابعدها ، ٤٥٠-٢٢٩،٤٥٤-٢٣٨ .

(٣) انظر قبل : ص١٣٢ .

(٤) انظر : ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٧١٥-٧٢٩ .

بعض المشكلات الاجتماعية ، ووقوع بعض المسلمين فى شىء مما فى حياة نصارى الشام . وفى هذا كتب الخليفة عمر الى أبى عبيدة عامله على الشام : وقد بلغنى أن بادية الأعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها ، ونسيوا نعيم الجنة وقصورها ، ورفلوا فى ثياب الديباج والخز ، وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ، وانهم قد تهاونوا بالصلاة ، ونسوا المفترضات ، فجرد عليهم الخيل ، واغلظ عليهم ، ولاتكن لهم خاملا فيطمعوا فيك ، ومن أخل بما فرض عليه فأقم عليه الحد[(١)]. ويلمس من ذلك أخذ بعض المسلمين ببهرج الدنيا وزينتها ، ومحاكاة النصارى فى المأكل ولبس الحرير . وتفرد الواقدى بهذا الخبر يضعفه[(٢)]، غير أن أخبارا رويت فى المصادر الأخرى الموثوقة فى هذا الشأن[(٣)]، عضدت هذا الخبر ، ودعتنا لعدم استبعاده .

بينما نجد عمرا رضى الله عنه يجيز ماحل من مأكل النصارى ومشربهم[(٤)]، فانه لما فتح ايلياء جاءه راهب بشراب ، وأخبر عمر أنهم يجدونه حلالا فى كتبهم اذ حرمت الخمر ، فدعا به ، وسأله من أى شىء هو فأخبره أنه طبخه عصيرا حتى صار الى ثلثه ، فغرف باصبعه ثم حركه فى الاناء فشطره فقال هذا طلاء ، فشبهه بالقطران ، وشرب منه ، وأمر أمراء الأجناد بالشام أن يرزقوه المسلمين[(٥)].

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٣٧/٢-٣٨ .

(٢) عرف الدكتور محمد بن صامل السلمى ، بالواقدى فى دراسة نقدية ، وذكر أقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، فوجد منها مايوثقه ومنها مايجرحه ، وخلص للقول "والذى يظهر من كلام النقاد فى الواقدى قبول رواياته فى الأخبار والسير ، ولكن لايعارض بها الروايات الصحيحة لأنه ليس بحجة اذا انفرد ، فكيف اذا خالفه غيره ممن هو أوثق منه" . انظر : منهج كتابة التاريخ الاسلامى ، ص٣٥٤-٣٦٠ .

(٣) انظر الصفحات التالية .

(٤) عمر فى ذلك متبع حكم الاسلام فى جواز أكل ماحل من طعام أهل الكتاب . (انظر قبل : ص٤٣٦) .

(٥) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦١٢/٤ .

وذكر ابن حبيش[(١)] أن عمرو بن العاص هو الذى أخبره بذلك العصير فلم ير عمر به بأسا لما ذهب حرامه وبقى حلاله ، وأذن للناس بشربه ، وسمى طلاء لأن عمرا شبهه بطلاء الابل .

كما كان المسلمون يشربون النبيذ الحلو ، وهو أن ينبذ فى الماء تمر أو زبيب ، ليحلو الماء ، فهذا النبذ حلال باجماع المسلمين لأنه لايسكر[(٢)].

وحماية للمجتمع الاسلامى ، فقد منع نصارى الشام من بيع الخمر فى أمصار المسلمين ، والاتجار بها بين الأمصار المختلفة[(٣)].

كما تأثر بعض المسلمين بنصارى الشام فى الملبس والمأكل ، فلبسوا الحرير ، وظهرت عليهم البطنة ، فعاتبهم عمر وعاقبهم ، لحرمة الحرير ، ومافى ذلك من تشبه بالكفار . مثال ذلك ، قدوم وفد بخبر النصر فى اليرموك على عمر وقد لبسوا يلامق[(٤)] ديباج أصابوها فى الغنائم ، فعاتبهم ورماهم بالحجارة ، فوضعوها ثم أتوه ، فاستقبلهم وقد نهاهم عن زى أهل الكفر[(٥)] ولما قدم عمر رضى الله عنه الجابية لقيه الأمراء عليهم الديباج والحرير ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وحثى عليهم بالتراب ، وعاتبهم على ذلك الملبس وماظهر عليهم من البطنة وأمر بما عليهم فمزق ، فاعتذروا ، أنهم فى جهاد ، وانما هى يلامقه وانها من آلة الحرب وعليهم السلاح ، فقال الا أن تلبسوه فى الحرب ، وتنزعوه اذا أردتم الصلاة[(٦)]. ولما دخل ايلياء أتاه رجال من المسلمين وقد لبسوا لباس الروم وتشبهوابهم فى هيئتهم ، فقال

---

(١) الغزوات ، م٢ ، ص٤٠٤-٤٠٥،١٤٩ .

(٢) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص١١٤-١١٥ .

(٣) انظر قبل : ص٤٣٧-٤٣٨ .

(٤) اليلمق : القباء المحشو ، وهو بالفارسية يلمه . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة لمق) .

(٥) الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٥٨ .

(٦) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٠٧/٣ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن حبيش ، نفس المرجع ، م٢ ، ص٤١٤ .

عمر احثوا فى وجوههم التراب حتى يرجعوا الى هيئتنا وسنتنا ولباسنا . وكانوا قد لبسوا أشياء من الديباج ، فأمر بهم فخرق ماعليهم(١).

وقدم رسول أبى عبيدة الى عمر يبشره بفتح الساحل الشامى ، فأتى المدينة وعليه من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسه مطرف خز وذهب ، فلما قابل عمر نظر اليه شزرا ، وقال : ياابن مازن أماكان لك فى رسول الله أسوة حسنة ، وأن هذه ثياب الجبارين ، وعاتبه ، فخرج من عند عمر وباع ذلك وتصدق به على فقراء المدينة ، ثم أتى عمر وقد لبس ثوبا من كرابيس الشام كان تحت ثيابه ، فلما رآه عمر تبسم فى وجهه وسأله عن ديباجه ، فأخبره بما صنع ، فأثنى عليه(٢).

وقد ضرب عمر رضى الله عنه للمسلمين المثل والاسوة الحسنة بنفسه عندما قدم الشام فاتحا لبيت المقدس فى ملبسه ومركبه ، فانه لما قدم أيله دفع قميصا من كرابيس قد انجال مؤخره عن قعدته من طول السير الى الأسقف (البطريق) ، وقال : اغسل هذا وارقعه ، فرقعه وخاط آخر مثله ، فقدم لعمر قميصه وقال : الآخر كسوة لك منى ، فنظر اليه عمر ومسحه ، ثم لبس قميصه ، ورد عليه ذلك القميص ، وقال : هذا أنشفهما للعرق(٣).

وقدم عمر الشام على بعير له وعليه جبة من الصوف وعباءة قطوانية(٤)، فدعاه أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان الى القاء الثوب الذى يلبسه ولبس الأبيض من الثياب وأن يركب الخيل والبغال ليكون أهيب له فى نفوس الروم ، وأن يطعم الناس من خير الطعام ، حيث أن السعر رخيص ، والخير رفيع ، والثياب والدواب كثيرة ، والحال كما يحب ،

---

(١) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٥٣-٢٥٤ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤٠٣-٤٠٤ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ٣٧/٢ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٤/٤ .

(٤) القطوانية : عباءة بيضاء قصيرة الخمل ، كساء قطونى ، وقطوان : موضع بالكوفة . (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : قطا) .

فأباهم عمر ، ونصحهم بالقصد ، وركوب الابل التى نصرهم الله بها فى بدر وترك الخيل الهماليج [١] فما ركبها أحد الا أعجبته نفسه ، وقال : "لاوالله لاأدع الهيئة التى فارقت عليها صاحبى ، ولاأتزين للناس بما أخاف أن يشيننى عند ربى ، ولاأريد أن يعظم أمرى عند الناس ويصغر عند الله" [٢]. ولما شخص عمر رضى الله عنه الى بيت المقدس من الجابية ، رأى فرسه يتوجى [٣] فنزل عنه ، وأتى ببرذون فركبه ، فجعل يتهملج به ، فنزل عنه ، فركب فرسه بعد أن أجمه أياما [٤]. وكان أبو عبيدة أمير الشام من قبل عمر رضى الله عنه على ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون يتوخى الخشونة فى العيش ويتعفف بالمأكل والملبس ، فكان يظهر للناس وعليه جبة الصوف ، وكان من معه يدعوه الى تغيير زيه واصلاح شارته ، كونهم بأرض الشام وحولهم الأعداء ، وهو يقول : ماكنت أترك ماكنت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥].

لقد كان عمر رضى الله عنه السائس والموجه والقدوة ، قولا وعملا بل ان عمرا رضى الله عنه لم يقتصر رأيه على حماية المجتمع الاسلامى من أثر الاختلاط بالأعاجم ، بل أراد أن لايدخل المدينة عليه أحد من السبى ، لكنه غلب ، فقتل على يد أحد العلوج وهو أبو لؤلؤة المجوسى غلام

---

(١) هملج : الهملاج ، من البراذين ، وهو واحد الهماليج ، فارسى معرب ، والهملجة حسن سير الدابة فى سرعة وتبختر . (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : هملج) .

(٢) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٥٣-٢٥٤ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، م١ ، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٣) توجا : الوجا الحفا ، وتوجى الفرس : وجد وجعا فى حافره . (ابن منظور ، نفس المصدر ، مادة : وجا) .

(٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦١٠/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٤٠٣-٤٠٤ ؛ وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٨/٧،٦١ .

(٥) على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ص١٥٨-١٥٩ .

المغيرة بن شعبة[١]. وكان قد دخل المدينة من سبى قيسارية من نصارى الشام أربعة آلاف ، قسمهم عمر على يتامى الأنصار ، وجعل بعضهم فى الكتاب وأعمال المسلمين[٢]. وبلاشك أن عددا كبيرا مثل هذا ، سيكون له أثره فى الحياة الاجتماعية للمسلمين بالمدينة ، خصوصا أن العدد الأكبر منهم قسم على يتامى الأنصار فكانوا فى خدمتهم ومختلطين بهم .

وقدم من الشام مظهر بن رافع الأنصارى[٣]، ومعه جماعة من علوج الشام فلما كان بخيبر ، أقامهم يعملون له فى أرضه ، فقتلوه بتحريض من اليهود فأجلاهم عمر[٤]. كما استخدم رقيق الخمس فى الخدمات الاجتماعية الوليد ابن عبد الملك ، فأعطى كل مقعد خادما ، وكل ضرير قائدا[٥]، وكان عمر ابن عبد العزيز اذا كثر رقيق الخمس جعل لكل مقعدين غلاما يخدمهما ، ولكل أعمى قائدا[٦].

لقد فرض الواقع نفسه ، وأدت الفتوحات الى اختلاط المسلمين بغيرهم فى الأمصار التى فتحوها ، فتعاملوا معهم فى الصناعة والتجارة ، واستخدموهم عمالا فى الأراضى الزراعية ، واحتكوا بهم كمواطنين وجيران كما كانوا معهم فى المعسكرات والجيوش كمقاتلين ومعاونين وخدم وأصحاب تجارات منقولة ، وان كان سبى بلاد الشام قليلا ، لأن معظمها فتح صلحا ، فلقد كان منه ومن الرقيق والأجراء الأحرار ، خدم البيوت والأعمال ، والسرارى وأمهات الأولاد ، وهؤلاء هم الذين يصنعون البيوت ، وينشئون

---

(١) انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٥٢،٣٤٩/٣ .

(٢) انظر قبل : ص٢٦٤ .

(٣) مظهر بن رافع بن عدى الأنصارى ، عم رافع بن خديج ، له صحبة ، ذكره الواقدى فيمن شهد أحدا وعاش الى خلافة عمر ، فقتله أعلاج من عبيده بخيبر حملهم اليهود على قتله . (ابن حجر ، الاصابة ، ٤٢٦/٣) .

(٤) ابن الأثير ن الكامل ، ٣٩٨/٢ ؛ ابن حجر ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٥٣ .

(٦) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .

الأطفال ، ويؤلفون جانبا من الحياة حيث نقلوا اليها فنون الطعام والملابس ووسائل الترف وفنون اللهو ، ولم يعد البيت العربى عربيا صرفا ، حيث احتفظ الخدم والزوجات وأمهات الأولاد بعاداتهم ، فأثروا فى البيت والنسل ، وكان لذلك أثره النافذ فى الحياة الاجتماعية وغيرها من الجوانب كاللغة مثلا حيث ظهر اللحن ، مما أدى الى وضع علم النحو لحماية اللسان العربى ولغته(١). كما أن دخول ألفاظ أعجمية فى الشعر العربى دليل على تجاوز اللغات الأعجمية واللغة اليومية الى اللغة الأدبية(٢). فلم يكتب لسياسته طول بقاء ، ولم تحل دون امتزاج الفئات المختلفة فى مجتمع دار الاسلام امتزاجا كان له صوره المتعددة ، فقد امتزجت الدماء ، واللغات ، والحضارات ، فى مجتمع سرعان ماقاد جمهوره ذلك الامتزاج الى وحدة اللغة والدين(٣). فقد غلبت الحياة رغبات عمر ، واندفع المسلمون يسكنون المدن ويعمرونها ، ويتفننون فى تزيينها ، ويخالطون سكانها الأصليين فى شتى مناحى الحياة . غير أن سياسة عمر وان لم تدم ، فانها جعلت سلوك العرب وتعاملهم مع غيرهم وأخذهم بما عندهم أصبح على بصيرة وعلم بما هم مقبلين عليه(٤).

لقد فتح اختلاط العرب بالأعاجم مجالا للتأثيرات الخارجية ، ونقل الحياة الاجتماعية ومظاهرها الى آفاق عريضة واسعة(٥). فكان الأثر المسيحى

---

(١) انظر : شكرى فيصل ، المجتمعات الاسلامية ، ص٢٤٩،٧٣-٧٤ ومابعدها ؛ على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص٦٨-٧١،٨١ ؛ الحبيب الجنحانى ، التحول الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع صدر الاسلام ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ، ص١٢٥-١٢٩ .

(٢) شكرى فيصل ، نفس المرجع ، ص٤١٦-٤١٨ .

(٣) على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص٦٨-٦٩ .

(٤) شكرى فيصل ، نفس المرجع ، ص٢٤٩ ومابعدها ؛ على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص٦٨-٦٩ .

(٥) شكرى فيصل ، نفس المرجع ، ص٣٧٧ .

البيزنطى واضحا على البلاط والحياة الاجتماعية والعمرانية والادارية فى العصر الأموى ، على الأقل حتى أواخر القرن السابع الميلادى ، الأول الهجرى ، غير أن العرب المسلمين وهم العنصر صاحب السيادة ، عدلوا ماأخذوه بما يلائم دينهم ويتفق وعقليتهم (١)، فغلبت بعض العادات والتقاليد الاجتماعية لدى أهل الذمة التى لاتتنافى مع عقيدة الاسلام على بعض المسلمين (٢). فقلد المسلمون النصارى والفرس فى كثير من أسباب الحضارة والترف ، ففى العصر الأموى عرف المسلمون العرب كثيرا من ألوان الطعام وأدواته (٣). وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور (٤). وأورث تزوج المسلمين من أهل الذمة والتسرى بالاماء بعض صفاتهم وأخلاقهم (٥).

كما أدى الاختلاط بهم وبخاصة فى الأديرة أيام أعيادهم ، الى فساد أخلاقهم .

ومما تأثر به المسلمون بالشام من عادات وتقاليد وأعياد النصارى ، تقدير فصول السنة على أعياد النصارى ، فعيد الفصح وقته النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وبرباره وقت الأمطار ، وعيد الصليب فى وقت قطاف العنب ، وعيد اللدة وقت أوان الزرع ، وجرت الأعياد مجرى الأمثال ، فيقولون : "اذا جاء عيد برباره فليتخذ البناء زمارة" يعنى فليجلس فى البيت ، و"اذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس" ، كما قلد بعض المسلمين العوام النصارى بالشام فى ايقاد النار ليلا فى أول يوم من

---

(١) انظر : : Gero, S : op. cit, p.127 ;
وانظر : على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص٧١ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٧٤،٤٥٢ .

(٣) على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص١٢٦-١٢٧ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢١١ .

(٥) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٦٤-٣٦٥ ؛ على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص١١٥ .

ينـاير ، بينما ظلت الشهور الـرومية هى المتعارف عليهـا فى بلاد الشـام حتى الآن[(١)].

ومـن الآثار الاجتمـاعية السلبيـة التى أخذهـا العـرب المسلمـون عـن نصـارى الشـام وغيرهم الغناء والموسيقـى ، فقـد كان الغنـاء والموسيقـى فى الشـام قـديما ، حتى اذا كان الاسلام ، وكـان غنـاء العـرب لايتعـدى الحداء والانشـاد ، أخذت مـوسيقاهـم تقتبس من الموسيقى الشـامية الـرومية ، كما تقتبـس من الفارسية ، وقال بعضهـم : كان اقتباسها مـن الموسيقـى الفارسية فقط ، وزعم آخرون أن أخذها كان من الرومية أكثر ، ولايعقـل أن يتأخر العـرب فى نقل الموسيقى الى القرن الأول ، وهناك مـايدل على أنها معروفة عندهم قديما منذ الجاهلية[(٢)]. وكانت الموسيقى والغناء من المآثر الفنيـة عند النصـارى ، كونها جزءا من الطقوس الدينية عندهم ، وكـانوا يطلقون عليها الموسيقـى الكنسية ، فشاعت بينهـم صناعة الألحان والموسيقـى وآلاتها ، ولم يقتصر استعمالها عندهم على الأغراض الدينية ، فقد استعملـوها فى أعراسهم ومجالسهم ومآدبهم ، وأول من استعملها فى أعراسهم نصـارى الحيرة ، وكان لجبلة بن الايهم الغسانى عشر قيان ، خمس يغنين بالعيدان الرومية ، وخمس بغناء أهل الحيرة[(٣)].

---

(١) نقـولا زيادة ، جغـرافية الشـام عند جغرافيي القرن الـرابع الهجـرى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنيـة ، الدار المتحدة للنشر ، الطبعـة الأولى ، ١٩٧٤م ، ص١٦٨-١٦٩ ؛ ترتون ، أهـل الـذمة فى الاسلام ، ص١١٤-١١٥ ؛ صـادق أحمـد جودة ، مـدينة الـرملة منـذ نشـأتها حتى عـام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، مـؤسسة الـرسـالة ، دار عمـار ، بيروت ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢٤٧-٢٤٨ .

(٢) انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤/٩٠-٩٤ .

(٣) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص١٠٧-١٠٩ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهـل الـذمة فى العراق ، ص٤٢١-٤٢٢ ؛ محمـد كـرد على ، نفس المرجع ، ٤/٩٣ .

ويقال أن بعض الخلفاء الأمويين اهتموا بالغناء ، وفى عهد معاوية بن أبى سفيان نسمع عن مجالس غناء يحضرها ابنه يزيد(١)، فى بعض الأوساط المسيحية ببلاد الشام(٢).

ومعروف أن يزيد بن معاوية ولد من ميسون الكلبية ، وكانت نصرانية ، فطلقها معاوية ، فتربى يزيد فى البادية عند أخواله من نصارى كلب(٣). ولعل البيئة التى نشأ فيها تركت ذلك الأثر ان صح ، وهو مما اتهم به يزيد بن معاوية وخاصة من وفد أهل المدينة الذى زاره فى الشام فعاد الى المدينة ، وقد قالوا : "قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر

---

(١) يزيد بن معاوية بن ابى سفيان بن حرب بن أمية القرشى ، الخليفة ، عقد له أبوه بولاية العهد من بعده ، فتسلم الخلافة بعد موت أبيه فى رجب سنة ٦٠هـ ، وكانت دولته أقل من أربع سنوات ، وكان معاوية قد تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية فطلقها وهى حامل بيزيد ، يقول الذهبى : له على هناته حسنة وهى غزو القسطنطينية ، وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبى أيوب الأنصارى ، وكان يزيد قويا شجاعا ، ذا رأى وحزم وفطنة وفصاحة وله شعر جيد ، وكان ناصبيا فظا غليظا جلفا ، يتناول المسكر ويفعل المنكر .
ومن حوادث عهده مقتل الحسين بن على فى كربلاء ووقعة الحرة وحصار مكة .
ولما أراد أهل المدينة من محمد بن الحنفية أن يخلع يزيد ، أبى ، فقال ابن مطيع : انه يشرب الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب ، قال : مارأيت منه ماتذكر ، وقد أقمت عنده ، فرأيته مواظبا للصلاة ، متحريا للخير ، يسأل عن الفقه ، قال : ذلك تصنع ورياء .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣٥/٤-٤٠ .
ويلاحظ أن رأى الامام الذهبى غير حسن فى يزيد بن معاوية ، ولم نذكر كل ماقال فيه ، والحق أن هناك من يتهمه كأهل المدينة ، وهناك من يبرئه كابن الحنفية ، والله أعلم بحقيقة أمره .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٩٤/٤ ؛ محمود المقداد ، الموالى ونظام الولاء من الجاهلية الى أواخر العصر الأموى ، دار الفكر ، سورية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢١٨ .

(٣) عن زواج معاوية من ميسون ، انظر قبل : ص٢٤٨ .

الخراب والفتيان" . فكان ذلك من أسباب خلعهم اياه وثورتهم عليه ، ومن ثم حربه اياهم فى وقعة الحرة(١). غير أن هذا القول وغيره مما اتهم به يزيد لم يثبت حقا ولم يتعد كونه تهمة ، وقد أنكر محمد بن الحنفية(٢)أن يكون قد رأى ذلك من يزيد لما زاره فى الشام ، وذلك عندما دعاه الثوار الى خلعه ، فأبى عليهم ، وقال لابن مطيع : "مارأيت منه ماتذكر ، وقد أقمت عنده فرأيته مواظبا للصلاة متحريا للخير ، يسأل عن الفقه ، قال ذلك تصنع ورياء"(٣). فسألهم هل اطلعوا على ذلك قالوا : "انه عندنا لحق وان لم يكن رأيناه"(٤). وقولهم يدل على أنها تهمة واشاعة سمعوها ولم يروها .

ويذكر أيضا أن الوليد بن يزيد(٥)جلب المغنين من

---

(١) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٧٨،٤٨٠/٥ ومابعدها .

(٢) محمد بن على بن أبى طالب ، القرشى الهاشمى المدنى ، أخو الحسن والحسين وأمه خولة بنت جعفر الحنفية من سبى اليمامة ، ولد يوم مات أبو بكر ، وفد على معاوية وعبد الملك ، وكانت الشيعة فى زمنه تتغالى فيه ، وتدعى امامته ، ولقبوه بالمهدى ، ويزعمون أنه لم يمت ، وله أخبار مع أبيه وروى عنه وعن غيره ، وكان ورعا كثير العلم ، مات سنة ٨٠هـ وقيل ٨١هـ ، وانفرد المدائنى بالقول سنة ٨٣هـ ، بالمدينة عن خمس وستين سنة . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١١٠/٤-١٢٩ .

(٣) انظر قول ابن الحنفية فى ترجمة يزيد بن معاوية بالصفحة السابقة .

(٤) انظر : حميد محمد العرينان ، اباحة المدينة وحريق الكعبة فى عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة ، مع ترجمة حافلة ليزيد بن معاوية لمحمد بن ابراهيم الشيبانى ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص١٣-١٤ .

(٥) الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموى القرشى ، ولد سنة ٩٠هـ ، وقيل ٩٢هـ ، عقد له أبوه بالعهد من بعد هشام ، فلما مات هشام أخذ الخلافة ، من أشعر الناس وأجملهم وأشدهم ، كان الزهرى يقدح به ، ويقول يجب خلعه وهو ولى عهد ويذكر عنه أمورا عظيمة ، وهناك أخبار عن فجوره وسخفه وحمقه ومجونه ، وقد قال قتلته لما ثاروا عليه بقيادة ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك : "انما ننقم عليك انتهاك ماحرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك" . وكان مصرعه فى جمادى الآخر سنة ١٢٦هـ . انظر : الذهبى ، نفس المصدر ، ٣٧٠/٥-٣٧٣ .

البلدان [١]، وكان أكثر المغنيات من الروميات والفارسيات ممن اشتهرن بالجمال البارع والصوت الجميل [٢].

وكان بعض العرب لما وقعت بيدهم الثروة ، مالوا الى الترف ، وغلب عليهم الرفه ، وصاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية ، واستحلاء الفراغ واللهو ، وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا الى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، فلحنوا عليهم أشعارهم ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار ذكرهم [٣].

ويذكر أن ابن مسجح أول من غنى الغناء العربى بمكة ، ونقل غناء الفرس وألحانهم الى اللسان العربى ، ورحل الى الشام وأخذ ألحان الروم ، وتعلم الضرب ، ثم عاد الى الحجاز وغنى وعلم غيره فتبعه الناس [٤]. كما نقل عدد من الجوارى الروميات والفارسيات معهن الى الحجاز ماأجدنه فى بيوت الملوك والأمراء من غناء وموسيقى ، وصبغنه بالصبغة العربية [٥].

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٢٢ .
(٢) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤٢٢ .
(٣) أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ، مكتبة وهبة ، القاهرة الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ، ص٢٥٩ ؛ محمود المقداد ، الموالى ، ص٢١٨-٢١٩
(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤/٩٢ ؛ محمود المقداد ، نفس المرجع ، ص٢١٩ .
(٥) على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص١٤٠-١٤١ .

الفصل السادس
موقف نصارى الشام من الدولة الإسلامية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* موقف نصارى الشام من الحكم الاسلامى .

* انتشار الاسلام بين نصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

* حركات نصارى الشام ضد الحكم الاسلامى خلال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

* دور نصارى الشام فى الفتن الداخلية خلال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

* موقف نصارى الشام من الجهاد الاسلامى تجاه البيزنطيين .

الفصل السادس
موقف نصارى الشام من الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* موقف نصارى الشام من الحكم الاسلامى :

الحديث عن موقف نصارى الشام من الحكم الاسلامى تعتريه الصعوبات من عدة أوجه ، أولها : التساؤل هل نتحدث عن موقفهم من الفتح ومن الحكم بعده ، أم نتجاهل موقفهم من الفتح ، والاقتصار على موقفهم من الحكم بعد تمام الفتح .

وقد رأينا أن الأولى الحديث عن موقفهم من الفتح والحكم معا ، حيث أن الفتح يعنى خضوع بلاد الشام للحكم الاسلامى وموقفهم منه يعنى موقفهم من حكم الفاتحين المسلمين ، قبولا أم رفضا ، وان كان لطفى يحيى (١) ميز بين موقفهم من الفتح والحكم ، وقال : ان المفروض دراسة موقفهم من الحكم لاالفتح ، وأن الموقف من الفتح يعبر عن حالة حرب مواقفها طارئة ، مع أنه هو ذاته جعل دراسته حول الموقفين كما يظهر من عنوان بحثه .

وقوله ان كان فيه شيء من الوجاهة ، فانى أقول ، لربما استطاع أهل بلاد الشام التعبير عن موقفهم خلال الفتح ، كونهم يملكون القدرة على اظهاره قبولا أو رفضا وتصديا ، أما بعد تمام الفتح فقد خضعوا لنفوذه ، وان كان لهم التعبير عن موقفهم من الحكم ، الا أنهم أصبحوا أقل قدرة عن التعبير عنه من ذى قبل .

---

(١) لطفى يحيى ، استقبال بلاد الشام للفتح العربى ، الخلفية الثقافية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية ، جامعة اليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، المجلد الثالث ، ص٢٩-٣٠

ثانيهـا : ندرة المعلومات عـن موقف أهل البلاد مـن الحكـم ، اذ أولى المؤرخون اهتمـامهم بالحركـة العسكـرية ولم يعيروا مـوقف أهـل البلاد مـن الفتح والحكم اهتمامهم الا ماندر(١).

وثالثهـا : تفاوت موقف نصارى الشام من الفتح والحكـم ، بين رافض للفتـح وهـو مـوقف الجمهور ، ومـرحب به متعـاون مع الفـاتحين ، وكـانوا الأقليـة ؛ وكذلك رافض للحكـم بعد تمام الفتح متمرد عليـه ، ويمثـل موقف القلـة القليلة فى بعض حقـب ذلك العهد وليس على الـدوام ؛ وقابل للحكم مرحب بالحاكمين وهو موقف الجمهور على مدى العهـدين الراشدى والأموى مما جعل بلاد الشام تحيا طوال تلك المدة فى استقرار وأمن شبه تام ودائم .

ولتتضح حقيقة هذا الموقف ، سنعرض للموقف العـدائى الرافض ، لأنه الأقـوى فى البدء عند الدعـوة والفتح . وقد بينا كيـف رفـض نصارى الشام دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم الى الاسلام ، وتصديهم لغزواته التى استهـدفت اخضاعهم للحكم الاسلامى ، واعلاء كلمة اللـه ، وازالة العوائق من وجه الـدعـوة(٢). واستمـر ذلـك الموقـف تجاه الفـاتحين زمـن الخلفـاء الراشدين ، حتى نصر الله المؤمنين ، وهو ماسنوضحـه فيما بعد ؛ ثم نعرض للموقف الايجابى المرحب بالفتح والمتعاون مع الفاتحين ، وأخيرا نلقـى الضوء على موقفهم بعد تمام الفتح وخضوعهم للحكم قولا وفعلا .

جاء الموقـف الرسمى لنصارى الشـام ممثلا فى الـروم الحاكمين لـذلك الاقليم ومـن فى طاعتهم من أهـل البلاد عـدائيا ومتصـديا للفتـح الاسلامـى ورافضـا لحكم المسلمين لهـم ، فقد أشار عـدد من المؤرخين(٣)أن هرقل لما

---

(١) نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٤٩ .

(٢) انظر موقفهم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل : ص١٠٧-١١١ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمـم ، ٣/٤٠٢-٤٠٣ ؛ ابن أعثم ، الفتـوح ، م١ ، ص٨٤-٨٦ ؛ ابن حبيـش ، الغزوات ، م٢ ، ص٣٩٣-٣٩٤ ؛ ابن الأثير ، الكـامل ، ٢/٢٧٨ ؛ ابن منظـور ، مختصـر تاريخ دمشـق ، م١ ، ج١ ، ص١٩٧-١٩٨ ؛ الكتبى ، عيـون التواريخ ، ١/٥٠٩-٥١١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٤-٥ .

بلغه توجيه أبى بكر الصديق جيوش الفتح ، جمع حكومته وأشار عليهم بمصالحة المسلمين ، لما لديه من العلم بأنهم منصورين[(١)]، فأبوه ، فقرر الحرب وخرج من بيت المقدس الى حمص ، ووجه الجيوش للتصدى للمجاهدين المسلمين ، ومنعها من دخول بلاد الشام . واتخذت الحرب الطابع الدينى من أول وهلة ، عندما قال الروم لهرقل : قاتل عن دينك ولاتجبن وتجبن الناس واقض الذى عليك ، كما لجأوا الى استثارة المشاعر الدينية فى حروبهم ، وقام رجال الدين من شمامسة[(٢)]ورهبان[(٣)]وقسس[(٤)]بتحريض المقاتلين ، وكان أشرافهم يرون أنما يقاتلون دفاعا عن النصرانية ، واستقتلوا على ذلك كما فعلوا فى اليرموك ، فقتلوا[(٥)].

---

(١) انظر علمه بحقيقة الدين الاسلامى وأهله ، قبل : ص٧٦،٨٣،١٣٩ .

(٢) الشماس : والجمع شمامسة من رؤوس النصارى ، وهو الذى يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : شمس) .

(٣) الراهب : المتعبد فى الصومعة من النصارى ، والجمع رهبان ، وفى التنزيل {وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله} . والرهبانية ، من رهبنة النصارى ، وأصلها من الرهبة الخوف ، فترهب الرجل اذا صار راهبا يخشى الله ، فكانوا يترهبون بالتخلى عن أشغال الدنيا ، وترك ملاذها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها ، وتعهد مشاقها ، حتى صار منهم من كان يخص نفسه ويضع السلسلة فى عنقه ، فنفاها النبى صلى الله عليه وسلم ونهى المسلمين عنها ، وفى الحديث : "لارهبانية فى الاسلام" . (ابن منظور ، نفس المصدر ، مادة : رهب) .

(٤) القس والقسيس : رئيس من رؤساء النصارى فى الدين والعلم ، وقيل هو الكيس العالم ، وفى القرآن {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان} . (ابن منظور ، نفس المصدر مادة : قسس) .

(٥) انظر : الواقدى ، فتوح ، ٧١/١-٧٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٩٢/٣-٣٩٤، ٤٠٠ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١٨١/١-١٨٢ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٩٠/٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٨١/٢،٢٨٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٧،٨،١١،١٣ .

ولما أعد هرقل جيوشه لقتال المسلمين صلى من أجلهم النصارى ، ودعوا لهم ، وبخروهم ببخور الكنائس ، ثم رشوا عليهم ماء المعمودية(١). ولاشك أن وراء ذلك الموقف أسبابا أخرى غير العامل الدينى ، ومنها أهمية بلاد الشام بالنسبة للروم(٢)، وقتال العرب المستنصرة الى جانب الروم ، عن عقيدة ، أو عن مصلحة ، أو اكراها ، أو واقعية بالوقوف مع الأقوى(٣). ولعل ذلك عن فهم خاطىء للفتح والظن أنه غزو لاحتلال الأرض وامتلاك الخيرات ، والرفض بروح الاستقلال القبلى عن الخضوع لأى قوة الا فى نطاق المصلحة والتحالفات(٤). ونتيجة لهذا الموقف العدائى قام الروم بحشد جميع القوى ببلاد الشام من العرب والأرمن والنبط ، الى جانبهم فى مواجهة الفتح ، ومنع المسلمين من دخول بلاد الشام واخضاعها للحكم الاسلامى(٥)، وهو امتداد لموقفهم العدائى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم(٦)، ذلك العداء الذى دفعهم الى التحالف مع أعدائهم الفرس فى الفراض(٧)لصد المد الاسلامى(٨). فلما وجه أبو بكر حركة الجهاد الاسلامى

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٩/١ .
وماء المعمودية : ماء بحوض فى الكنيسة ، يوضع فيه ملح وأشياء أخرى ، ويقرأ عليه القسيس أو رئيس الكنيسة بعض آيات من الانجيل، يعمد فيه من أراد التنصر وكذلك أبناء النصارى ، وذلك بأخذ العهد عليه باعتقاد ديانة النصرانية ، ثم بتغطيسه فى ماء المعمودية ، وبذلك يكون المعمد نصرانيا حسب زعم النصارى كما يعتقدون أنه لايدخل الجنة أحد إلا بالتغطيس فى ذلك الماء .
وللمزيد من التفاصيل عن هذه العقيدةالمحرفة ، انظر :
عبد الله الترجمان الأندلسى ، تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب ، تحقيق محمود على حماية ، دارالمعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص٧٥-٧٨ .

(٢) انظر عن أهمية الشام للروم ، قبل : ص٣٥-٣٧ .

(٣) محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٥٧-١٥٩ .

(٤) نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٦٦-١٦٧،١٧٤ ؛ عادل أبو عمشة ، فتوح الشام فى الشعر العربى ، ص٥٠٩ .

(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٦٨-٧١ .

(٦) كان موقف نصارى الشام من الدعوة والفتح الاسلامى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عدائيا ، وتصدوا لغزوات وسرايا رسول الله عليه السلام ، التى وجهت الى تخوم بلاد الشام تحمل دعوة الاسلام ، انظر ذلك قبل : ص٩٣ ومابعدها .

(٧) الفراض : تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرق الفرات ، واجتمعت على خالد ابن الوليد والجيش الاسلامى فيه الروم والعرب والفرس ، فأوقع بهم المسلمون وقعة عظيمة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٢٤/٤) .

(٨) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٨٣/٣-٣٨٤ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ٥٠٦/١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٥٦/٦ .

لفتح بلاد الشام ، وقدم لواء خالد بن سعيد بن العاص الى تيماء ، ضربت الروم البعوث على عرب الضاحية بالشام ، من بهراء وسليح وتنوخ وغسان وكلب ولخم وجذام ، فعسكروا فى البلقاء لحرب خالد بن سعيد بن العاص [١]. وكان الغساسنة أكثر القبائل العربية المتنصرة بالشام مصلحةبارتباطها مع الروم ، لذلك كانت أشد القبائل العربية فى الشام عداء للمسلمين وولاء للروم ، وتزعمت متنصرة العرب ، وجمعهم جبلة بن الأيهم تحت لوائه فى غوطة دمشق لحرب المسلمين ، فحاربوا الى جانب الروم فى مرج الصفر ، وبصرى ، واليرموك ، وحمص .

وفى تدمر وحوارين ، ومرج راهط ، وغوطة دمشق ، وأجنادين ، وكان جبلة قد راسله أبو عبيدة ودعاه الى الاسلام ، وقد وجده هشام بن العاص رسول أبى عبيدة ، قد أعد نفسه لحرب المسلمين ، فلم يجبه ، وبعد هزيمة النصارى فى اليرموك ، عاد جبلة الى موضعه بالغوطة . وراسله يزيد بن أبى سفيان على أن يقطع على أرضه الخراج وعلى أهلها الجزية ، فأنف من ذلك وقال انما يؤدى الجزية العلوج ، وإنما أنا رجل من العرب . ويبدو أن يزيد تركه حتى قدوم عمر الجابية ، حيث أتاه جبلة بها وهو مقيم على النصرانية ، فعرض عليه عمر الاسلام وأداء الصدقة ، فقال أقيم على دينى وأؤدى الصدقة ، فقال عمر ، بل الجزية ، فأنف منها ، فخيره عمر فى الاسلام أو الجزية أو اللحاق بأى بلد شاء ، فلحق بهرقل بانطاكية ، فى جمع من قومه وآخرين من متنصرة العرب من لخم وجذام وبلقين وبلى وعامله وقضاعة ، فقاتلوا مع الروم فى شمال سورية الى جانب من كان فيها من تنوخ وسليح ، فى حمص وقنسرين وحلب وغيرها . ولقى المسلمون مقاومة حتى فى درب بغراس ودرب تفليس فى منطقة الثغور من الروم ومن سار

---

(١) ابن حبيش ، الغزوات ، م٢ ، ص٢٠٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢/٢٧٥-٢٧٦ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٨٦-١٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣/٧-٤ .

معهم من متنصرة العرب من غسان وتنوخ واياد وغيرهم ، الذين عزموا على اللحاق بالروم ، فأوقع بهم المسلمون وأمام انتصارات المسلمين لم يكن أمامهم الا اللحاق بهرقل ، فلحق به جبلة بن الأيهم فى ثلاثين ألفا(١). وعاد بعضهم مع المسلمين ، وقد ثابوا الى الاسلام ، أما اياد فقد تهدد الخليفة عمر امبراطور الروم ان لم يخرجهم ، فأخرجهم(٢). غير أن القوة الحقيقية التى واجهت المسلمين فى بلاد الشام هى قوة الروم ، أما قوة أهل البلد من العرب المتنصرة وغيرهم ، فان كان لها أثرها ودورها غير أنها لم تكن عائقا يمكن أن يقف فى وجه الفاتحين المسلمين دون قوة الروم الحاكمين ، ودليله أن من اجتمع لحرب خالد بن سعيد بن العاص ، تفرقوا لما قدم عليهم ، ولم يصمد له سوى الروم عندما دخل أرض الشام(٣).

ولم يستطيعوا ايقاف زحف المجاهدين المسلمين لما اجتاحت الجيوش الاسلامية أرض البلقاء وأرض الشراة وحوران وأذرعات والثنية والأردن وفلسطين ، استولى المسلمون على معظم تلك البلاد فى يسر(٤). وفى أول لقاء عسكرى بين المسلمين ونصارى الشام فى داثن والعربة ، لم يرد ذكر للعرب المتنصرة ، وكان على رأس الجيش ستة من القواد الروم(٥)، وكانت

---

(١) اختلف المؤرخون فى موقف جبلة ، فقيل أسلم ثم ارتد ، وقيل لم يسلم وأنف من دفع الجزية ، فلحق بهرقل ؛ كما اختلف فيمن خرج معه ، وعددهم ؛ فقيل : دخل فى اياد وقضاعة ولخم وجذام ، وقيل : فى عدد من قومه . انظر : محمد خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة ، ص٢٠١ ؛ وانظر أيضا : اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤٧/٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ١٣٥/١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦٥/٨-٦٩ .

(٢) انظر عن موقف العرب المتنصرة العدائى وفى مقدمتهم الغساسنة : محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٥٧-١٦٣ ؛ محمد خريسات ، نفس المرجع ص١٩٩-٢٠١ .

(٣) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٠٢/٢ ؛ ابن كثير ، نفس المصدر ، ٣/٧-٤ .

(٤) محمد خريسات ، نفس المرجع ، ص١٥٢-١٤٩،١٥٣-١٥١ ؛ نفس المرجع ، ص١٩٩-٢٠١ .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٧ .

قيـادات الجيوش المختلطة دومـا من الروم ، فلم نسمع بقـائد عربى قاد معركة ضد المسلمين(١). ولم يستطـع العرب المتنصرة الذين قابلهـم خالد بن الوليد فى طـريقه من العراق الى الشـام ، من كلب ، وبهراء ، وقضـاعة ، وغسـان وغيرهم ، فى سوى واركه ودومة الجندل وتدمر والقـريتين وحوارين ومرج راهـط وغوطة دمشق ، وغيرهـا ، التصدى له ، وهـزمهم جميعـا(٢). وهذا ماعبر عنه أحد المسلمين عنـدما سـأله الخليفة أبو بكـر عـن حال النـاس بعد دخولهـم الشـام ، فقال : "المسلمـون بخير ، وقد دخلـوا أدنى أرض الشـام ، وقد رعب أهلها منهم ، وقد ذكر لنا أنه قد جمعت لنا الروم جموعا عظيمة ، ولم نلـق عدونا بعد ، ونحن فى كـل يوم نتوكف لقاء العـدو أو نتـوقعه ، وان نحن لم تأتنـا جيـوش من قبل هرقل ، فليسـت الشام بشىء"(٣). وهذا مادعى أهل الشام لما دخل المسلمـون أرضهـم أن يطلبـوا المدد مـن هرقل ، لعـدم قـدرتهم على قتال المسلمين ، وتحالفـوا مـع مـن كـان على دينهـم من العـرب ، فأمرهم هـرقل بالثبات ووعــدهم بالمدد(٤). كما استنجد به أهـل دمشق (٥)، وايليـاء وقيسـارية (٦)، فجمـع هـرقل الجمـوع ووجههـا لقتـال المسلمين ، وهـذا ماحدا القـادة الى مشاورة أبى بكـر الصـديق فيما استجد فى الأمر ، فأمدهم بالرأى والعساكر وخالد بن الوليد(٧).

---

(١) نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٦٩ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١١٨-١١٩ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤١٠-٤١١ .

(٣) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/١٨٥ .

(٤) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٤٣-٤٤ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢/١٩٣-١٩٤ .

(٥) الـواقدى ، فتـوح الشام ، ١/٤٠-٤١ ؛ ابن منظـور ، مختصر تاريخ دمشـق ، م١ ، ج١ ، ص٢٠٨ .

(٦) ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢/٣٠٠-٣٠١ .

(٧) ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢/١٨٣-١٨٥،٢٠٧-٢٠٨ .

ولعل ضعف قوة أهل البلد ، وخاصة متنصرة العرب وعجزها عن الصمود أمام المسلمين ، ناتج عن أثر الدعوة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد انتشر الاسلام بين تلك القبائل ، ووقع بعضها عهود مع النبى عليه السلام(١)، فانقسمت على نفسها ، الى جانب عوامل أخرى سنتحدث عنها بعد(٢).

ويجمل جميل المصرى القول ، أن أهل الكتاب فى الشام وأكثرهم من النصارى ، قدم بعضهم المساعدات للمسلمين أثناء الفتح ، ولكن أكثرهم وقفوا الى جانب الروم فى وجه المسلمين ، وأن هزيمة خالد بن سعيد بن العاص أول لواء وجهه أبو بكر الى تيماء على مشارف الشام كانت بسبب التسهيلات التى قدمها نصارى العرب فى البلقاء للروم ، بعد أن اطمان لهم المسلمون ، وأن نصارى العرب تصدوا للفاتحين عند دخولهم الشام ولم يصالحوهم الا بعد أن يئسوا من مساعدة الروم ، وأن ضعف أثر العرب المتنصرة فى مواجهة الفاتحين لم يكن من باب تسهيل مهمة الفاتحين كما يرى بعض المؤرخين ، وانما نتيجة لأثر غزوات النبى عليه السلام الى تخوم الشام وحملات الفاتحين التى لم يستطيعوا الصمود أمامها ، وذكر أمثلة من مواقفهم العدائية تجاه الفاتحين(٣).

لقد وقف نصارى الشام فى وجه الفتح متفرقين أو متحالفين ، وخاضوا أشد المعارك ، وأقفلوا المدن فى وجه المسلمين ، واستخدموا كل الوسائل لمنع المسلمين من السيطرة على بلاد الشام .

فيذكر الواقدى (٤)منفردا أن هرقل بعث رجلا يدعى (طليعة بن ماران) لاغتيال عمر بن الخطاب فى المدينة ، فلما كمن له فى أحد حيطان

---

(١) انظر ذلك قبل : ص١٠٢-١٠٦ .

(٢) انظر بعد : ص٤٨٧ .

(٣) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص٢٠٥-٢٠٧ .

(٤) فتوح الشام ، ١/٩٣-٩٤ .

المدينة ، رأى عمر وقد أتى ظل شجرة فقام أسفلها ، فاذا بسبع قد طاف به ولحس قدميه وأقام حتى استيقظ ، واذا بهاتف يقول : ياعمر عدلت فأمنت ، فنزل المتنصر ، وقبل يدى عمر ، وأخبره بأمره ، وأسلم على يديه . وفى موضع آخر أورد نفس الرواية غير أنه جعل من أرسل الرجل جبلة بن الأيهم بعلم هرقل ، واسم الرجل فيها (واثق بن مسافر الغسانى)(١).

وذكر أيضا : أن هرقل لما بلغه خبر تولى عمر ، دعا الروم الى العودة الى الدين والحق ، لأن انكسارهم بسبب ذلك ، أو دفع الجزية للمسلمين ، وأخبرهم أن عمرا صاحب الحرب الذى سيجر على الفرس والروم الكرب ، كما يجده فى الكتب القديمة ، فأبوا نصيحته ، وعزموا على الحرب ، فلان لهم ، وبين انما كان يختبر حميتهم لدينهم(٢). غير أننا نشك فى رواية الأولى لتفرده بها ، واختلافها فى موضعين من كتابه ، كما اجتمع الروم ومتنصرة العرب وأهل البلد على حرب المسلمين فى مرج الصفر وبصرى وأجنادين(٣)، وفحل(٤)، وكان أكبر تجمع للعرب المتنصرة الى جانب الروم فى معركة اليرموك(٥)، فقاتل معهم قبائل قضاعة(٦)، ولخم وجذام(٧)، وبلقين وبلى وعامله وغسان(٨)، وقد جعل هرقل متنصرة العرب على مقدمته

---

(١) فتوح الشام ، ١/٢٩٧-٢٩٨ .

(٢) الواقدى ، نفس المصدر ، ١/٩٣-٩٤ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤١٠،٤١٧-٤١٨ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٨٥ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٢٢٥ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١/١١٤ .

(٤) ابن أعثم ، نفس المصدر ، ١/١٤٩ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢/٢٥٧ .

(٥) محمد خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة ، ص١٩٩-٢٠٠ .

(٦) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ص١٣٠ .

(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٠ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٦٥ .

(٨) ابن حبان ، نفس المصدر والصفحة ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ص٢١٢-٢١٣ .

يقودهم جبلة بن الأيهم الغسانى(١)، وجموعا من الأرمن وأهل الجزيرة(٢)، وأهل النصرانية فى كل مكان(٣).

واجتمع الروم والعرب المتنصرة على حرب المسلمين فى قنسرين حيث مواطن تنوخ وسليح ، وقال العرب ، انما حشرهم الروم ولم يكن ذلك من رأيهم ، لكن أهل قنسرين انتقضوا ففتحها المسلمون مرة ثانية(٤).

وفى حمص قاتل الغساسنة وبلقين مع الروم ، واستمر ذلك التحالف حتى أوقع المسلمون بفلول الروم ومعهم أقوام من الغساسنة وتنوخ واياد فى الدروب ، فدخلوا أرض الروم(٥). وفى حلب ، حارب ألف من المتنصرة الى جانب الروم(٦).

لقد لقى المسلمون دفاعا مستميتا من نصارى الشام ، وخاضوا فى سبيل تحقيق الفتح وبسط نفوذ الحكم الاسلامى على الشام ، لتكون كلمة الله هى العليا أعنف المعارك ، وأقسى الحروب ، فى كل اتجاه سلكوه فى بلاد الشام ، وقد استعصى عليهم عدد من المدن ، فاضطر المسلمون الى حصارها زمنا طويلا كقيسارية التى لم يتمكن المسلمون من فتحها الا سنة ١٩هـ/٦٤٠م وقد وجدوا بها سبعمائة ألف من أخلاط أهل الشام ، روما وعربا ويهودا وغيرهم(٧)؛ مما يدل على قوة المقاومة التى واجهها المسلمون

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٠ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤١/٢ ؛ اليافعى مرآة الجنان ، ١٠٣/١-١٠٤ .

(٢) قدامة ، الخراج ، ص٢٩٨-٢٩٩ ؛ ابن حبان ، السيرة ، ص٤٦٥ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٦٩/٢ .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ص١٥٣-١٥٤،١٦٠-١٦٧ .

(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٠-١٥١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٢/٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٤/٧ .

(٥) محمد خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة ، ص٢٠٠ .

(٦) محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٦١-١٦٣ .

(٧) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢٨٠ ؛ البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٧-١٤٨ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦١٣/٣-٦١٤ .

ولم تكن قيسارية المدينة الوحيدة التى صمدت فى وجه المسلمين فان معظم المدن الشامية لم تستسلم وتصالح المسلمين الا بعد حصار طويل ومقاومة شديدة يئسوا بعدها من القدرة على الصمود ، ومنها دمشق ، وحمص ، وبيسان ، وقنسرين ، وحلب ، وانطاكية ، وبيت المقدس وغيرها (١). كما انتقضت عدد من المدن الشامية على المسلمين خلال الفتوحات الاسلامية وبعدها ، مقاومة للحكم الاسلامى وخروجا عليه ، كلما آنست من المسلمين ضعفا ، أو وجدت من الروم الذين لازالوا يكنون لهم الولاء دعما ، ورأت الفرصة سانحة لذلك (٢).

لقد كان الفتح الاسلامى لبلاد الشام ، واخضاعها لحكم المسلمين عسيرا وطويلا فقد استغرق نحو ثمان سنوات خاض فيها المسلمون معارك كبرى ، ووقفوا الأشهر محاصرين المدن الممتنعة ، واضطروا الى فتح عدد منها أكثر من مرة بسبب تمردها وانتقاضها ، فعانوا أكثر من الاسكندر المقدونى الذى استولى على تلك البلاد فى أقل من عام (٣). وبعد فتح المسلمين جل بلاد الشام ، حاول الروم استرجاع مافتحه المسلمون ، فأطبقوا على أمير الفتح وقائد الجيوش أبى عبيدة بن الجراح فى حمص بعد أن أذن للجند بالانسياح ، واستجاشوا من ببلاد الشام من النصارى ، وشغلوا عساكر المسلمين عن أبى عبيدة ، واستعانوا بأهل الجزيرة ، فأمده عمر بن الخطاب بأهل العراق ، وخرج من المدينة الى الجابية يريد حمص لاغاثته ، فحارب أبو عبيدة عدوه قبل أن يصله المدد ، فنصره الله على أعدائه (٤). وكان

---

(١) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٧-١٢٨،١٣٦-١٣٧،١٥١-١٥٣،١٤٤،١٤٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٤٣٤-٤٤٣،٥٩٩-٦٠٢،٦٠٧،٦١٣ .

(٢) انظر خروج أهل بعض المدن الشامية على حكم المسلمين ، بعد : حركات نصارى الشام ، ص٥٢٠-٥٢١ .

(٣) لطفى يحيى ، استقبال بلاد الشام للفتح ، ص٣٠-٣١ .

(٤) انظر عن ذلك : الطبرى ، نفس المصدر ، ٤/٥٠-٥٢ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٢٩٤-٢٩٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٧٧-٧٨ ؛ اسماعيل أبو الفدا ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، ص٣٥-٣٦ .

أهل قنسرين قد انتقضوا لما خرج خالد بن الوليد عنهم لنجدة أبى عبيدة ، وانضموا الى الروم فى حصار المسلمين بحمص ، وكان أشدهم تنوخ الذين نالوا من المسلمين كل منال ، فلما انفض أهل الجزيرة ، وتقوض أمر الروم ندم أهل قنسرين وراسلوا خالد فى الرجوع عن موقفهم ، بالانسحاب وترك حصار المسلمين ، أو البقاء حتى يلتقى المسلمون والروم فيهزمون ، فتركهم للهزيمة ، فلما دارت الحرب ، انهزم أهل قنسرين ، فانهزم الروم معهم ، فاحتوى المسلمون على الروم ولم يفلت منهم أحد ، ونصر الله الاسلام وأهله(١).

وكرروا المحاولة فى العصر الأموى مستغلين الحرب بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، فثار الروم سنة ٧٠هـ/٦٨٩-٦٩٠م ، واستجاشوا على من بالشام ، استضعافا للمسلمين لما يرون بينهم من الخلاف ، مما اضطر عبد الملك الى مهادنة امبراطور الروم على مال يعطيه كل جمعة(٢). ولم يثبت الجراجمة على الولاء للمسلمين ، وخرجوا عليهم زمن عبد الملك والوليد(٣).

وقد عبر بعض نصارى الشام عن موقفهم من الحكم الاسلامى بالخروج من بلاد الشام الى أرض الروم ، فقد خرج بعض نصارى العرب فى أعقاب هرقل الى أرض الروم ، ولقى بعضهم ميسرةبن مسروق العبسى(٤)أول من

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ١/٣٠-٣٢ .
(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٤ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣١٦/٨ .
(٤) ميسرة بن مسروق العبسى ، له صحبة وصلاح ، أحد وفد بنى عبس ، وشهد حجة الوداع ، ثبت وقومه فى الردة ، وشهد اليمامة مع خالد وكذلك فتح الشام فقاتل فى فحل واليرموك وشهد فتح حمص ، وعن الواقدى : أنه أول من اطلع درب الروم من المسلمين .
انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٣/٤٦٩-٤٧٠ .

سلك الدرب غازيا أرض الروم ، فأوقع بهم[١]. ويبدو أن البعض منهم أقام بأرض الروم ، ففى غزوة للمسلمين على أرض الروم سنة ٨٧هـ/ ٧٠٦م[٢]، وقيل سنة ٨٨هـ/٧٠٧م[٣]، واجه المسلمون أعدادا من المستعربة الى جانب الروم ، فأوقع بهم المسلمون ، وقتلوا منهم نحو ألف ، وسبوا ذراريهم[٤].

كما خرج بعض كلب الى أرض الروم فكانوا بها ضاحية[٥]. وحاولت اياد أن تدخل أرض الروم ، فتهدد عمر الروم ان لم يخرجوهم ، فأخرجوهم[٦].

ولما غزا مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية زمن أخيه الخليفة سليمان ، خرج من عسكر الروم رجل طلب المبارزة ، فخرج اليه رجل من المسلمين ، فأسره ، فوجه به الى سليمان ، وتبين أنه من قبيلة اياد ، فدعاه سليمان الى الاسلام ووعده بالعفو عنه واجزال العطاء له ان أسلم ، فتعذر بأولاد له عند الروم ، فوعده بفك أسرهم ، فأبى الرجوع عن النصرانية ، فقتله عندئذ[٧].

كما خرج بعض الروم وأشرافهم من مدينة دمشق بعد الصلح[٨]، كما خرج نحو من ثلاثة آلاف يريدون مصر ، فلقيهم المدد الذى بعثه عمر الى عمرو بن العاص بمصر ، فأوقع بهم[٩]، كما لقى المدد ذاته قسسا

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٤ ؛ وانظر الحديث عن ثوراتهم بعد ، حركات نصارى الشام ، ص٥١٩ ومابعدها .

(٢) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٨ ؛ الفزارى ، السير ، ص٥٢ (الدراسة) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٣٤٦/٢ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٢٩/٦ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ١٠٧/٤ ؛ ابن كثير البداية والنهاية ، ٧٦/٩ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٤٣٦/٦ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ١٠٩/٤ .

(٥) محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٦٣ .

(٦) محمد خريسات ، نفس المرجع والصفحة .

(٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م٤ ، ج٧ ، ص٣٩٠-٣٩١ .

(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ٨٢/١-٨٣ .

(٩) الواقدى ، نفس المصدر ، ٦١/٢-٦٣ .

مسافرين الى مصر وقد قاوم الفتح الاسلامى ، فقتل[(١)]. ولما حصر أهل طرابلس زمن عثمان فروا فى مراكب بعثها لهم امبراطور الروم ليلا ، ولحقوا بأرض الروم[(٢)]. كما أخلى هرقل المدن الثغرية ، وأدخل أهلها معه الى أرض الروم[(٣)]، وجلا أهل بعض المدن الثغرية ، برية كانت أو بحرية ، كأهل طرسوس والمصيصة وأهل مدينة بلدة وجبلة[(٤)]. كما جلا كثير من أهل بالس وصيدا وعرقه وجبيل وبيروت[(٥)].

وقد أذن المسلمون لمن أراد الخروج الى أرض الروم آمنا من أهل البلاد الشامية التى صالحوها ، وخيروهم بين البقاء والجلاء[(٦)]. وقيل : اشترط المسلمون خروج الروم من مدينة بيت المقدس[(٧)].

وتمثل الموقف العدائى لنصارى العرب فى قيامهم بالتجسس لصالح الروم ، فقد نقل خبر مسير جيش يزيد بن أبى سفيان نحو الشام الى هرقل قوم من نصارى اليمن بالشام كانوا بالمدينة[(٨)]، وفى أجنادين بعث قائد الروم رجلا من نصارى العرب يجس له خبر المسلمين[(٩)]. كما أخبر أحد نصارى العرب بطريق دمشق بصفة المسلمين وكانوا بالأردن ، قبل حصارهم دمشق[(١٠)]. وفى اليرموك أرسل قائد الروم رجلا من متنصرة العرب ليأتيه

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٦٣/٢-٦٥ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٣ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٦ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ٢٦٢/١-٢٦٣ .

(٣) ابن حبان ، السيرة ، ص٤٦٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٧٠/٢ ؛ الفزارى ، السير ، ص٥١ (الدراسة) .

(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٨-١٦٩،١٣٩ .

(٥) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥،١٣٣ .

(٦) انظر قبل : ص١٧٤ .

(٧) انظر قبل ، عهود الصلح ، ص١٧٥-١٧٩ .

(٨) الواقدى ، نفس المصدر ، ٩/١ .

(٩) ابن حبان ، نفس المصدر ، ص٤٥١ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٣٢/٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٧ .

(١٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٩٨-١٩٩ .

بخبر المسلمين(١). كما أرسل الدرنجار وكان على ميسرة الروم فى اليرموك بمن يجس له خبر المسلمين من نصارى العرب(٢). وبث صاحب حلب جواسيسه من نصارى العرب فى عسكر المسلمين المحاصرين له ، فكانوا يأتونه بأخبارهم(٣). كما استعان بهم الروم كرسل ومفاوضين ومترجمين ، لمعرفتهم لغة العرب المسلمين . فقد تولى مفاوضة المسلمين فى أجنادين ، رجل من نصارى العرب يدعى داود(٤). كما بعث الروم الى يزيد بن أبى سفيان لما بلغ تبوك أحد متنصرة العرب يدعى القداح يطلب من المسلمين أن يوجهوا بمن يفاوض الروم ، وقام بدور الترجمة بين رسول المسلمين والروم(٥). وقبض المسلمون على رسول من نصارى العرب وجهه صاحب عزار(٦) الى صاحب الراوندان(٧) يستنجد به على المسلمين ، وقد علم بمسيرهم اليه من جاسوس له من نصارى غسان كان مندسا فى جيش المسلمين(٨). وكانت غسان أكثر القبائل المتنصرة خدمة للروم فى التجسس ، وقبض على بعضهم فى حلب فضربت أعناقهم(٩). كما قاموا بتخذيل المسلمين ، فقد لقى

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٠٠/١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٩٧ .

(٢) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢١١ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٤٧/٢-٣٤٨ .

(٣) الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٥٦/١ .

(٤) الواقدى ، نفس المصدر ، ٦٢/١-٦٣ .

(٥) الواقدى ، نفس المصدر ، ١٠/١-١١ .

(٦) عزار : بليدة شمالى مدينة حلب بينهما يوم . (ياقوت ، معجم البلدان ، ١١٨/٤).

(٧) الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة من نواحى حلب (ياقوت ، نفس المصدر ، ١٩/٣) . وورد اسمها عند الواقدى (الراوندات) ، ولم نجدها بهذا اللفظ ، وأثبتنا اسمها كما ورد عند ياقوت ، وأراه الصحيح لتوافق موضعها مع مكان الحادث التاريخى ، ولعل ورود اسمها عند الواقدى هكذا من تصحيف النساخ أو خطأ مطبعى .

(٨) الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٧٥/١-٢٧٦ .

(٩) محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٦٣ .

رجل من نصارى العرب خالد بن الوليد فى طريقه الى الشام ، فخذله قائلا : ان الروم فى جمع كثير مائتى ألف أو يزيدون ، فان رأيت أن ترجع عن حاميتك فارجع (١).

ومع ذلك فان الروم كانوا لايثقون كثيرا فى نصارى العرب ، ويرونهم أبناء عم المسلمين فى العروبة ، نستشف ذلك من قول هرقل لرسول عمر بن الخطاب : "ألقيت ابن عمك هذا الذى ببلدنا" يعنى جبلة بن الايهم (٢).

وقد قابل المسلمون الفاتحون هذا الموقف العدائى بالالتزام بمبادىء الاسلام ، ووصايا الخلفاء فى قتال نصارى الشام ، بل أنهم تحلوا بالصبر والحلم والتسامح فى معاملة من انتقض منهم وتمرد بعد الفتح ، وغالبا ماأعيد فتح المدن الخارجة على طاعة المسلمين ، مرة ثانية على ماصولح عليه أهلها فى المرة الأولى . كما أن فتح جل مدن الشام صلحا ، وخلو تاريخ الفتح الاسلامى لبلاد الشام من أسلوب الخراب والتدمير والفتك ، دليل على سمو المعاملة ، وحسن السيرة ، وانسانية المبادىء ، وحضارة الفاتح والحاكم المسلم الذى أخضع بلاد الشام لحكم دولة الاسلام المتميزة . ومن هنا يدرك كل منصف البون الشاسع بين طبيعة الفتح الاسلامى ، والحركات العسكرية الأخرى من يهودية ويونانية ورومانية وفارسية ، التى حكمت بلاد الشام فيما قبل الاسلام (٣).

ويحاذى ذلك الموقف العدائى موقف ايجابى رحب بالفتح ، وقبل الحكم وتعاون أهله مع الفاتحين المسلمين ، وتمثل فى بعض نصارى الشام ، وخاصة بعض متنصرة العرب والنبط ، وكان أقل أهمية وأضعف أثرا من سابقه .

---

(١) صالح درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٢٩ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٠٢/٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٩٣/٢ ؛ ابن الأثير الكامل ، ٢٨٢/٢ .

(٣) عن طبيعة الحكم البيزنطى والفارسى لبلاد الشام قبيل الفتح ، انظر : التمهيد .

وكان وراء هذا الموقف الايجابى عدة عوامل ، منها الدين ، فقد اعتنق الاسلام بعض نصارى الشام أفرادا وجماعات ، نتيجة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم اياهم الى الاسلام(١)، ومع سير الفتوحات(٢)، أو لمعرفتهم حقيقة هذا الدين وصدق نبوة سيد المرسلين ، وما لمسوه من حسن سيرة الفاتحين ، مما دفعهم الى الترحيب بالفتح وقبول الحكم وان لم يعتنقوا الاسلام .

لقد كان بعض أهل دين النصرانية على علم مما يجدونه فى كتبهم من البشارات بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ودينه وسمات أمته ، على أن دين الاسلام سيظهر على الدين كله ، وأن المسلمين سيفتحون بلاد الشام مما دفع بعضهم الى أخذ الأمان من المسلمين لنفسه وأهله(٣)، أو لديره(٤)، أو دعوة أهل مدينته الى مصالحة المسلمين ، كما حدث من أحد علماء دمشق(٥)، وآخر فى أركه(٦)، وبطرك بيت المقدس(٧)، أو دعوة قومه ألا يحاربوا المسلمين(٨)، أو الانضمام اليهم فى حرب الروم ، واعتناق الاسلام(٩).

---

(١) عن انتشار الاسلام بين نصارى الشام على أثر دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، انظر قبل : ص١٠٧-١٠٨ .

(٢) انظر بعد : انتشار الاسلام بين نصارى الشام ، ص٥٠١ ومابعدها .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٧٨/١-٨١ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦٠/٧ ؛ بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٠٥/١-٢٠٦

(٥) الواقدى ، نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٦) الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٦/١-٢٧ . ولم أجد لها تعريفا بهذا الاسم ، ووجدت (أرك) : مدينة صغيرة فى طرف برية حلب قرب تدمر ، وهى من فتوح خالد بن الوليد (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٥٣/١) . ولعلها المقصودة فى هذا الخبر ، وانما صحف الاسم .

(٧) الواقدى ، نفس المصدر ، ٢٣١/١-٢٤١ .

(٨) الواقدى ، نفس المصدر ، ١٢/١ .

(٩) الواقدى ، نفس المصدر ، ٣٠٠/١-٣٠٨،٣٣١ ، ٢٩/٢-٣٦،٩٨-١٠٥ .

وكذلك حسن سيرة المسلمين ، فان المسلمين وهم محاصرين دمشق ، كانوا يغيرون على من حولها ، فكان الجند يأتون بكل ماغنموا ولو كان ابرة أو مسلة ويسلمونها صاحب المقسم لايستحلون منه شيئا ولايغلون ، فعجب من أمانتهم الروم ، وبث البطريق عيونه ليأتوه بأخبارهم ، فأخبروه بأمانتهم وعدلهم وحسن سيرتهم وعبادتهم ، فقال : هؤلاء رهبان بالليل ، أسد بالنهار ، لاوالله مالى بهؤلاء طاقة ، ومالى فى قتالهم خير ، ومال الى الصلح واعتناق الاسلام ، ولم يؤخره الا الخوف من الامبراطور ومابلغه عنه من أنه يجمع الجموع لحرب المسلمين(١). واشترط أهل بعلبك فى صلحهم أن لايدخل العامل المسلم المدينة وانما يبقى خارجها ، ويؤدون اليه جزيتهم وخراجهم ، فكان المسلمون وقد عسكروا خارج المدينة يشنون الغارة على من لم يصالحهم بعد ، ويبيعون غنائمهم ببعلبك ، فوجد أهلها أن المسلمين قوم لاخيانة ولاغش ولاظلم فيهم ، ففرحوا ببيعهم وشرائهم ، وربحوا كثيرا ، فطمع فيهم بطريقهم ، وأخذ العشر من تجارة أهل مدينته ، ثم أراد أخذ الربع ، فأبوه وقتلوه ، وخرجوا الى المسلمين ، وطلبوا من الأمير أن يدخل المدينة ويحكم فيهم ، فأبى حتى يأخذ أمر أبى عبيدة ، وفاء لعهدهم ، فأذن له بناء على طلبهم(٢)؛ ففضلوا حكم المسلمين على حكم أهل ملتهم لعدلهم وحسن معاملتهم ، وهذا ماصرح به أهل حمص للمسلمين عندما قالوا : "لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم"(٣).

---

(١) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٩٧ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١/١١٩-١٢٠ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٢٣٦-٢٣٧ . وتلك الأمانة وعدم الغل ، من سمات المؤمنين وقد وصاهم بها الرسول عليه السلام والخلفاء . انظر قبل : ص٩٠-٩١،١٢٦-١٣٦ .

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ١/١٤٥-١٤٦ ؛ وانظر قبل ، عهود الصلح ، ص١٧٨ .

(٣) عواد مجيد الأعظمى ، بلاد الشام الأرضية والقاعدة فى التطلع العربى الاسلامى لفتح مدينة القسطنطينية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية واليرموك ، عمان ، ١٩٨٧م ، ص٣٣٦-٣٣٧ .

وكذلك طلب أهل قنسرين وغيرهم من أهل شمال بلاد الشام الصلح من المسلمين قبل قتالهم ، لما بلغهم من حسن معاملة المسلمين ، وسيرتهم ، ووفائهم وعدلهم ، ولعل ذلك قد بلغهم من أناس كان خالد بن الوليد ومن معه قد أسروهم من حول قنسرين ، فأطلقهم أبو عبيدة وأقرهم فى أرضهم على أداء الجزية والخراج(١). وقد وصف المسلمون رجلا من الروم كان فى أسر المسلمين ، فأفلت ولحق بهرقل وهو خارج من الشام يريد القسطنطينية وقد سأله عنهم فقال : "أحدثك كأنك تنظر اليهم ، فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، مايأكلون فى ذمتهم الا بثمن ، ولايدخلون الا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه . فقال : لئن كنت صدقتنى ليرثن ماتحت قدمى هاتين"(٢). وصدق حدس هرقل فقد ملك المسلمون بلاد الشام التى كان بها آنذاك .

وليس عجيبا أن تكون تلك سيرة الفاتحين ، وفيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حملة الدعوة ، وأهل القرآن ، والتابعون لهم باحسان ، وقد بهر نصارى الشام بسمتهم ، وحسن سيرتهم ، فقد قال الامام مالك : "لما دخل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الشام نظر اليهم رجل من أهل الكتاب فقال : ماكان أصحاب عيسى بن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهادا من هؤلاء"(٣). ولاغرابة فى ذلك فقد قال الشافعى فيهم : "وقد أثنى الله على الصحابة فى التوراة والانجيل والقرآن وسبق لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم من الفضل ماليس لأحد بعدهم"(٤). وقال ابن القيم : "وقد شهد لهم الصادق والمصدوق الذى لاينطق عن الهوى بأنهم خير القرون على الاطلاق ، كما شهد لهم ربهم تبارك وتعالى بأنهم خير الأمم على الاطلاق"(٥).

(١) انظر : الواقدى ، فتوح ، ١/١١٢-١١٥ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٦٠٢-٦٠٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٢٩٩ .
(٣) ابن القيم ، هداية الحيارى ، ص١٩٠ .
(٤) ابن القيم ، نفس المصدر ، ص١٩٨-١٩٩ .
(٥) نفس المصدر والصفحات .

ويرى البعض أن من العوامل ، الخلاف المذهبى بين نصارى الشام ، وكان غالب أهل البلد على المذهب اليعقوبى (الطبيعة الواحدة) ، بينما كان الحكام الروم على المذهب الملكانى الأرثوذكسى (الطبيعتين) ، وقد أدى هذا الاختلاف الى اضطهاد الحكومة لرعاياها من نصارى بلاد الشام اليعاقبة . فدعاهم ذلك الى قبول الحكم الاسلامى ، واعتبروا المسلمين مخلصين لهم من النير الدينى الذى فرضته عليهم بيزنطة ، وقد ذكر جوزيف نسيم عن جيفوند أن نصارى الشام طلبوا من المسلمين تخليصهم من الاضطهاد البيزنطى (١). غير أنى لم أجد لخبر جيفوند هذا ذكرا فى المصادر الاسلامية .

ولقد سر السريان بالحكم الاسلامى ، وسموا العهد الاسلامى بالعهد الذهبى (٢)، وقال البطريرك اليعقوبى بانطاكية : "ان الله المنتقم الواحد القهار ، أثار من الجنوب أبناء اسماعيل لانقاذنا من أيدى الرومان ، ... ، وأن هذا الخلاص لم يكن ميزة هينة لنا"(٣). غير أنه من العسير الاطمئنان الى أهمية ذلك الخلاف فى قبول نصارى الشام للحكم الاسلامى ، لما عرف من مواقفهم العدائية تجاه الفاتحين ، واستبعاد أن يؤدى ذلك العداء الى افساحهم المجال لدين جديد لايرتضى كلا المذهبين ، كما أنهم لايعرفون كيف سيعاملهم المسلمون (٤). وان ذكر أن اليعاقبة أقرب روحا الى المسلمين منهم الى الأرثوذكس (٥). غير أن هناك فئة من عرب الشام كانوا على الوثنية ، وهؤلاء استقبلوا الفاتحين بالترحاب ، ووقفوا الى جانبهم ضد البيزنطيين ، ولم يمض وقت طويل بعد الفتح حتى اندمجوا فى المجتمع الاسلامى واعتنقوا دين الاسلام (٦). ويبدو أن سوء سيرة الحكام الروم ،

---

(١) العلاقات الاسلامية البيزنطية ، ص٣٠٤ .
(٢) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٦٩-٧٠،١٢٠ .
(٣) شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص١٢٠ .
(٤) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٧٠-٧١ ؛ شفيق جاسر محمود ، نفس المرجع ، ص١١٩-١٢٠ .
(٥) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٢-٥٥٣ .
(٦) صالح الحمارنة ، نفس المرجع والصفحات .

وظلمهم وعدوانهم على رعاياهم من أهل الشام ، وقد رأوا من المسلمين حسن السيرة والمعاملة والعدل ، مادعاهم الى كراهة حكم الروم ، والميل لحكم المسلمين ، والانضمام اليهم[١].

لكن نبيه عاقل[٢] يقلل من أثر ذلك ، ويقول : لم نجد فى مصادرنا مايؤكد أن سوء الادارة البيزنطية من جهة ، والخلاف المذهبى من جهة أخرى سهلت مهمة الفاتحين ، لشدة المقاومة التى واجهها المسلمون .

ويتحدث بعض الباحثين عن عوامل أخرى أدت الى قبول نصارى الشام للحكم الاسلامى وهى : التقارب الثقافى بين الشام وشبه الجزيرة العربية[٣]، ونظرة سكان بلاد الشام الى الرومان على أنهم غزاة غرباء اغتصبوا بلادهم[٤]، وأن بعض نصارى الشام قدم الانتماء الى السامية أو العروبة على الانتماء الدينى[٥].

وفى رواية لثيوفانس ، يعزى ذلك الى ايقاف بيزنطة المساعدات المالية التى كانت تقدم للقبائل العربية القاطنة فى منطقة تخوم الشام ، فانحازوا للمسلمين[٦].

وقد أدت آثار الحرب الفارسية ، والأوبئة التى حلت بأقاليم الشام ، كاقليم حوران ، الى سرعة فتحه ، كما أدت العلاقات العرقية والتجارية المتميزة لأهله الى تسهيل عملية الفتح ، والتحاق عربه بجيوش المسلمين بما فيهم المسيحيين فى اتمام عملية الفتح الاسلامى لبقية أقاليم الشام[٧].

---

(١) انظر : الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٢١/١-٢٢٢ ؛ الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٧٥-١٧٦،٢١٥-٢١٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٣١٨/٢-٣٢٠،٣٥٢ .

(٢) موقف سكان الشام من الفتح ، ص١٧٥ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك عند : لطفى يحي ، استقبال بلاد الشام للفتح ، ص٣٢-٤٦،٢٩

(٤) صالح درادكة ، مقدمات فى فتح بلاد الشام ، ص١٠٥،١٣١ .

(٥) سهيلة الريماوى ، مدينة حمص ، ص٢٣١-٢٣٢ ؛ سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ص٢١٦-٢١٧ .

(٦) محمد البطاينة ، فتح فلسطين ، ص٣٥ .

(٧) Maurice Sartre : op. cit, p.164-167 .

ونحن لانستبعد عاملا من هذه العوامل ، بل نقول أن تلك العوامل مجتمعة بلورت موقف من مال الى المسلمين ، وقبل حكمهم ، فكل فرد أو جماعة تأثر بتلك العوامل أو ببعضها ، وان لم يكن لأحد العوامل من أثره فى فئة أو طائفة فلاشك أن له أثره عند آخرين ، كما أنها لاتتساوى فى قوة التأثير والأهمية ، مؤكدين أن أهمها وأعظمها أثرا هو ماقدمناه من العوامل وهو العامل الدينى وحسن سيرة الحكام الفاتحين ، لأن الفتح الاسلامى لم يكن حركة عسكرية ، وانما كان حركة دعوة ، استهدفت نشر الاسلام واعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته ، فلما عرف نصارى الشام تلك الحقيقة ، وسعدوا بالعيش فى ظلها مبتغى كل محكوم من حاكم ، قبلوا الحكم ورحبوا بالفاتحين.

ومن دلائل الموقف الايجابى اجتماع جموع كثيرة الى خالد بن سعيد ابن العاص فى تيماء لما أمره أبو بكر الصديق بدعوة من حوله الانضمام اليه وأمر الصديق لعمرو بن العاص لما وجهه الى فلسطين الاستعانة بقبائل بلى وعذره.وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب(١). وانضمام جماعة من بنى مشجعه من قضاعة الى جيش خالد بن الوليد بعد أن صالحهم فى قصم(٢). وقتال جماعة من بنى القين ولخم وجذام وغسان وعاملة وأفناء من قضاعة ، مع المسلمين فى فحل(٣). وأبدى أهل البلد بفحل ميلهم للمسلمين ، غير أنهم اعتذروا بغلبة الروم عليهم(٤). ولما قدم خالد بن الوليد الشام فزع له الأعراب الذين كانوا بالشام(٥). وخافه من كان على

---

(١) محمد خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات ، ص١٤٩-١٥٢ .

(٢) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٨١،٧٦،٧٧ .

(٣) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١١١،١٣٠ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٢٥٩،٢٧١، ٢٨٠-٢٨١ .

(٤) الأزدى ، نفس المصدر ، ص١١١-١١٢ .

(٥) صالح درادكه ، مقدمات فى فتح الشام ، ص١٣١ .

طريقه من قبيلة بهراء فى سوى[(١)]. وفى معركة اليرموك حارب نصارى الشام بما فيهم السواد الأعظم من متنصرة العرب الى جانب الروم ، ومال الى المسلمين قوم من قضاعة ولخم وجذام وغيرهم ، فلما حميت المعركة ، خذلوا المسلمين ففروا من أرض المعركة ، ولاذوا بالقرى القريبة[(٢)]. ولايعرف أكان فرارهم عن شدة قتال لاقوها ، أو مكرا بالمسلمين ، وفى كلا الحالتين كان خذلانهم المسلمين شر أعظم من خير انضمامهم اليهم .

كما دخل آخرون مع المسلمين حمص وحلب وقنسرين وبالس التى أسكنها أبو عبيدة قوما من العرب الذين كانوا بالشام ، وأسلموا بعد قدوم المسلمين ، وآخرون لم يكونوا مع البعوث نزعوا من البوادى من قيس[(٣)]. وأمر عمر أبا عبيدة لما سار الى حمص أن يستنجد بأهل القوة والجلد من العرب[(٤)].

وخرج أهل حماة يطلبون الصلح من أبى عبيدة ويقولون : "نريد أن نكون فى صلحكم وذمامكم فأنتم أحب الينا"[(٥)]. كما بادر قوم من أهل حمص الى طلب الصلح قبل أن يصل المسلمون مدينتهم وهم محاصرين دمشق ، وقاتلوا الروم مع المسلمين[(٦)]. كما دل أحد الدمشقيين خالدا على عورة المدينة وانشغال من فيها بعيد من أعيادهم ، فاقتحمها[(٧)]. ونقل مسالمة

---

(١) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٣٦٩-٣٧٠ ؛ وسوى : ماء لبهراء من ناحية السماوة ، وعليه مر خالد بن الوليد فى طريقه من العراق الى الشام . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٢٧١) .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٠ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٥٧٠-٥٧١ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ١/٢١٢-٢١٣،٢١٤ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٥ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٣/٦٠١ .

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ١/١١٨ .

(٦) الواقدى ، نفس المصدر ، ١/٤٧ .

(٧) قدامة ، الخراج ، ص٢٩٢ .

الشام الى المسلمين خبر الجموع التى حشدها هرقل لحرب المسلمين وهو بانطاكية(١). وفى اليرموك ، حذر أحد متنصرة العرب المسلمين بتحرك ماهان لحربهم وهم على غرة(٢). كما اعتمد عليهم أبو عبيدة كأدلاء ، ومنهم يونس بن عمرو الغسانى ، دليله الى حلب(٣).

يقول أبو يوسف(٤): لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين وحسن سيرتهم ، صاروا أشد على الروم من المسلمين ، فبعث كل أهل مدينة ممن صالحوا المسلمين رجالا يتجسسون على الروم ، فأخبروا رؤساءهم بما جمع هرقل من الجموع ، فبلغوا عمالهم الذين خلفهم أبو عبيدة فيهم ، فأخبروه فأمرهم برد ماجبى منهم ، وأن يخبروهم أن ذلك لعدم قدرة المسلمين على منعهم ، وان نصرهم الله فانهم على الشرط ، فلما قالوا لهم ذلك وردوا عليهم الأموال ، قالوا : ردكم الله الينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شىء بقى لنا حتى لايدعوا لنا شيئا .

ولما رأى أهل المدن التى لم تصالح المسلمين ماحل بقومهم وأهل ملتهم من الهزيمة والقتل فى اليرموك ، طلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة على ماصولح أهل المدن الأخرى ، الا أنهم شرطوا عليه أن يخرج من عندهم من الروم آمنين بأموالهم وأهليهم ، فأعطاهم ذلك ، ففتحوا له أبواب مدنهم ، كلما مر بمدينة طلبوه الصلح ، فصالحهم .

وكلما مر بمدينة من التى كان صالحها قبل اليرموك ، وقد رد عليهم أموالهم التى جباها من الجزية والخراج ، تلقوه بالأموال التى كان ردها عليهم ، وتلقوه بالأسواق ، فتركهم على عهدهم الأول لم يغيره ولم ينقضه(٥).

---

(١) ابن حبيش ، الغزوات ، ١٨٤/٢ .
(٢) ابن أعثم ، الفتوح ، ١٩٧/١ .
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٥٥/١ .
(٤) الخراج ، ص٢٨٣ .
(٥) أبو يوسف ، نفس المصدر ، ص٢٨٣-٢٨٤ .

وفى هـذا دليل على ثبات أكثر مـن صالح المسلمين قبـل اليرمـوك على الـولاء ، وقبولهم الحكم الاسلامـى . كما أن موقف مـن لم يكن صولح قبل اليرمـوك يدل على أثر نصـر اليرمـوك على تغير مـواقف نصارى الشـام ، وبالأخص أهل البلد . بينما كان من لاذ بمدنهم من الـروم بحاجة الى الأمان للخـروج الى أرضهـم سـالمين ، ومـاذاك الا لتغير مـوازين القـوى ، وميلان الكفـة العسكـرية لصـالح المسلمين ، وأنهـم أضحـوا القـوة المهيمنـة فى بلاد الشام.

وقـد أغلق أهل حمص من النصارى واليهود أبواب مـدينتهم فى وجه الـروم بعد انسحاب المسلمين ، وأخبروهـم أن ولايتهـم أحب اليهم من ظلم الروم وتعسفهم (١). وثبـت أهل دمشق على ولائهم للمسلمين ، ودخلـوا فى حكمهـم بعد اليرموك على شـروط الصلح الأول دون قتـال (٢). وثبت أهل حمـص ، وطلبوا تجديد عقد الـذمة كأهل دمشق ، وخرجوا يقلسـون فـرحا بمقدم المسلمين (٣). كما خرج أهل معرة النعمان يقلسون بالسيوف بين يدى أبى عبيدة ، فرحا بمقدم الحكام المسلمين (٤).

ولما أطبـق هـرقل الحصار على الأمير أبى عبيـدة فى حمـص بعـد فتحها للمـرة الثانية عقب اليرموك ، واستنفر النصارى فى الشـام والجزيرة ، راسل أهــل حمـص ، فلم يجيبـوه ، وأوفـوا بالعهـد ، وثبتـوا على الـولاء لحكـم المسلمين (٥).

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٣ .

(٢) ابن حبيش ، الغزوات ، ٣٦٦/٢ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤/٧ .

(٣) الأزدى ، تاريخ فتـوح الشـام ، ص٢٣١ ؛ البلاذرى ، نفـس المصـدر والصفحـة ؛ ابن حبيـش ، نفـس المصدر ، ٣٦٦/٢ ؛ ابن منظـور ، نفس المصـدر ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٢ .

(٤) البلاذرى ، نفـس المصـدر ، ص١٣٧ ؛ محمـد خريسات ، دور العـرب المتنصـرة فى الفتوحات ، ص١٥٤-١٥٧ .

(٥) ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٢٩٤/٢ .

كما ظل أهل الأردن على الولاء والخضوع لسلطان المسلمين ، وقد خرج عليهم الكثير من أهل الشام عند انسحاب المسلمين الى اليرموك[(١)]. وقد اعتذر عرب حاضر قنسرين من حربهم مع الروم لخالد بأنهم انما حشروا ولم يكونوا يريدون حربه[(٢)]. كما مال بعض الروم من أهل انطاكية مع المسلمين عند فتح مدينتهم[(٣)]. وعندما قدم عمر بن الخطاب الشام ، لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان ترحيبا وفرحا[(٤)]. وقدم له عظماء نصارى الشام الضيافة[(٥)].

ولاشك أن المسلمين أفادوا ممن مال اليهم ووقف الى جانبهم فى حرب الروم ، غير أن ذلك لايرقى الى تغيير موازين القوى وجعلها فى صالح المسلمين ، ولكن تحقق ذلك للمسلمين بقوة ايمانهم ، وصدق جهادهم ، ونصر الله لهم ، ويبدو أن المسلمين كانوا يعملون محدودية الفائدة التى جنوها من انضمام بعض متنصرة الشام اليهم فى قتال الروم ، وقد تجلى ضعف دورهم فى أهم معركة خاضها المسلمون ضد نصارى الشام حكاما ومحكومين وهى اليرموك . ومع ذلك فقد حرص المسلمون على تألف نصارى الشام ، واثابة من تعاون معهم . فكانوا يرضخون لهم من الغنائم[(٦)]، وأسقطوا عن البعض خراج أرضهم كالسامرة وأهل شيزر[(٧)]. ولاغرابة فى قولنا بضعف الفائدة من وقوف تلك الفئة الى جانب المسلمين ، اذا كان قد تحقق لنا أنه لم يضر المسلمين وقوف جمهور القوى النصرانية فى وجه الفاتحين ، ولم تعق مقاومتهم اتمام الفتح وبسط نفوذ الحكم الاسلامى على بلاد الشام .

---

(١) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص١٧٨-١٧٩ .
(٢) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٩٧/٢-٢٩٨ .
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٩٦/١ .
(٤) انظر قبل : ص٤٣٧ .
(٥) ابن منظور ، مختصر تاريخ ابن عساكر ، ج١٧ ، ص٢٩٨ ، ج٢٩ ، ص٢٢٥-٢٢٦ .
(٦) انظر قبل : ص٢٦٥ .
(٧) انظر قبل : ص١٨٨ .

الموقف بعد تمام الفتح وخضوع نصارى الشام للحكم الاسلامى :

واذا انتقلنا الى الفترة التى تلت فتح بلاد الشام حين أصبح الحكم الاسلامى لها واقعا حياتيا ، نجد قدرا كبيرا من التجاوب بين أهل البلاد والحكام المسلمين ، فلم يقم بالشام مايمكن أن نصفه بأنه حركات استقلالية ، مهما كان اللون الذى اتخذته تلك الحركات(١). لقد قبل نصارى الشام الحكم الاسلامى ، وتعايشوا مع المسلمين(٢)، ومارسوا حياتهم فى أمن وسلام من خلال مبادىء الاسلام التى تكفل لكل رعايا دار الاسلام حياة كريمة ، ولسيرة الحكام المسلمين خلال عصر الراشدين والأمويين الذين التزموا تلك المبادىء فى غالب أحوالهم ، وحكموا فيهم بالعدل عاملين بروح البر والرحمة والاحسان(٣). وهذا ماساعد على كثير من التعاون والتعامل بروح الانتماء للدولة الاسلامية . فقد استعين بالنصارى فى كثير من مجالات الحياة ، الادارية ، والمالية ، والعسكرية(٤). وأسهم النصارى فى الحياة الاقتصادية ، والعمرانية ، والفكرية بفاعلية(٥). ويبين مدى القبول بالحكم والولاء للحاكمين خلو عصر الخلفاء الراشدين والأمويين من حركات لنصارى الشام أخذت صفة العموم ، وقامت على أساس دينى أو اقليمى للخروج على حكم المسلمين(٦). كما كان موقف جمهورهم من حركة الجهاد

---

(١) لطفى يحي ، استقبال بلاد الشام للفتح ، ص٣١ .

(٢) انظر قبل : الناحية الاجتماعية ، ص٤٥٠ ومابعدها .

(٣) انظر قبل : طبيعة الحكم الاسلامى وحسن معاملة نصارى الشام فى عصر الراشدين والأمويين ، ص٢٤٢ ومابعدها .

(٤) انظر قبل : الاستعانة بنصارى الشام فى عهد الخلفاء الراشدين ، ص٢٦٢ ومابعدها والأمويين ص٢٧٤ ومابعدها .

(٥) عن دور نصارى الشام فى الحياة الاقتصادية والعمران والعلوم ، انظر بعد : الفصل السابع والثامن .

(٦) انظر بعد : حركات نصارى الشام ، ص٥١٩ .

الاسلامى ضد البيزنطيين حميدا(١)، وأسهموا فى قمع الفتن الداخلية(٢)، واستمرت مشاركتهم فى الجيوش الاسلامية(٣)، ومن ذلك رواية تشير الى قتال أهل الذمة مع المسلمين . فذكر ابن كثير أن المسلمين خاضوا معركة مع الترك فى فهزم المسلمون ، فسار جيش آخر من الشام لحق الترك وهم عائدون فألحق بهم الهزيمة ، واستنقذ أسارى المسلمين من أيديهم ومن كان معهم من نساء المسلمين ومن أهل الذمة أيضا(٤).

ان سمو روح الاسلام ، وحسن معاملة الحكام المسلمين ، والحياة الكريمة التى عاشها نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى والتى لم تتهيأ لهم فى ظل حكم أهل ملتهم الروم ، خلقت موقفهم الموالى ، وقد عبروا عنه عمليا بما أسلفنا الحديث عنه آنفا وأعلنوه فيما ورد على ألسنتهم تعبيرا عن الواقع الجديد للمسلمين ، فيذكر أن أهل الكتاب أول من سمى عمر بن الخطاب بـ"الفاروق" ، والصحيح أن من سماه بذلك النبى صلى الله عليه وسلم(٥). كما يورد ابن الجوزى(٦)عددا من الروايات تشير الى احترام نصارى الشام لعمر بن عبد العزيز وحزنهم على فقده ، فكانوا يعدونه نورا فى الأرض انطفأ بموته ، ويسمونه الصديق . وكان أحد كتاب النساطرة يضيف كلمات التبجيل الى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم والى أسماء الخلفاء الأول اذا عرض لذكرهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز(٧). ويصف البطرك عيشويابه الحكام المسلمين معبرا عن موقفه من

---

(١) انظر بعد : موقف نصارى الشام من حركة الجهاد الاسلامى ضد البيزنطيين .

(٢) انظر بعد : دور نصارى الشام فى الفتن الداخلية .

(٣) عن الاستعانة بهم فى القتال ، انظر قبل : ص٢٦٣-٢٦٤،٢٨٧،٤٩٢-٤٩٣ .

(٤) البداية والنهاية ، ٣١٤/٩-٣١٥ .

(٥) انظر عن ذلك : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٩٥/٤-١٩٦ ؛ ابن المبرد ، محض الصواب فى فضائل عمر بن الخطاب ، ص١٥٦-١٥٩ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٣٣١ .

(٧) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ٣٢٩/١ .

الحكـم الاسلامى بقوله : "ان العـرب الذين مكنهم الـرب مـن السيطرة على العـالم ، يعاملوننا كما تعرفـون بالحسنى ، انهم ليسوا أعـداء للنصـرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قسيسينا وقديسينا ، ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وأديرتنا"(١).

والحق أن المسلمين لايمتـدحون الا صاحب النصـرانية المسيـح عليه السلام وملتـه قبل التحريف ، لامـابيد النصارى عند الفتـح ، التى أصبحـت على كل حال منسوخة بالاسلام(٢).

ويقـول المطـران ايليا : "ان الـذى نعتقده فى المسلمين هـو أنه يلـزمنا طاعتهم ومحبتهم أكثر من غيرهـم وذلـك أنهـم يرون صيـانتنا واعـزازنا والاحسـان الينـا ديانة وفـرضا ، لأن كتـابهم (القـرآن) يأمـرهم بذلـك ، ويعتقدون أن من ظلمنا وآذانا وتعدى علينا منهم كان صاحبهم (محمد صلى اللـه عليه وسلم) ، خصمه يوم القيـامة ، وشرعهم يحمـدنا ، ويجيزنا من بين سائر أهل الملل"(٣).

وقال صاحب التاريخ المسعودى : "فطالبوا أهل الذمة بالجزية فأدوها ، وأحسنوا اليهم ، وتقررت الأمور بفضل الله تعالى ، وطابت قلوب النصارى فى مملكتهم ثبتها الله ونصرها"(٤).

وقـد شهد عدد من المؤرخين المستشرقين بما وجده النصـارى من تسامح وحسـن معاملة وعدل ورحمة ، أدت الى قبولهم بالحكـم الاسلامى والسعادة بالحياة فى ظله(٥). ويقارن شفيق جاسر محمـود(٦)معاملة المسلمين لنصـارى

---

(١) شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٩٨،١٩٩ .

(٢) عـن القول فى النصرانية بعد التحريف ، انظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيـح لمن بدل دين المسيح .

(٣) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٢٥ .

(٤) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص١٢٦ .

(٥) نقل أقوالهم توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٦٦،١٢١-١٢٤،١٢٦،١٤٧ .

(٦) تاريخ القدس ، ص٤٧-٤٨،١٢٣ .

الشام المتميزة بالانسانية والرحمة والتحضر ، وما لاقوه على يد اليهود عندما دخلوا فلسطين ، من تدمير وقتل للرجال والنساء والأطفال والشيوخ وحتى البهائم ، وكذلك ما نالهم على يد الفرس من تدمير وقتل وحشى قتل فيه الآلاف ، وتخريب لدور العبادة من كنائس وأديرة . غير أن النصارى لم يكونوا أحسن حالا من سابقيهم ، فان الصليبيين لما دخلوا القدس ، ذبحوا المسلمين ، وأحرقوا اليهود بلا رحمة[1]. انه الفرق بين دين الله الحق دين الاسلام والديانات المنحرفة ، وتعامل المؤمنين حملة الدين والخلق والحضارة وكفار بلا دين ولا خلق ولا حضارة .

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٢٢ .

* انتشار الاسلام بين نصارى الشام في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

كـان الاسلام قد وجد طريقه الى نصارى الشام منـذ عهد النبوة ، فقد أدت دعـوة الرسول صلى الله عليـه وسلم نصارى الشام الى اللـه ، وغزواته التى وجهها الى تخوم بلاد الشام ، الى اعتناق أعداد مـن نصارى تلك البلاد دين الاسلام ؛ وقـد ذهب بعضهم اليه بالمدينة كتميم الـدارى وغيره ، ومنهم من قتل مثل فروة بن عمرو الجذامـى ، ومنهم من بقـى فى الشـام ، وانضم الى المسلمين لما قدموا فاتحين لبلاد الشام(١). وتجلى ذلك عندما وجه أبو بكر الصـديق خالـد بن سعيـد بن العـاص الى تيمـاء وأمـره بدعـوة مـن حولـه للانضمام الى صفوف المجاهدين ، وأمره أيضا عمرو بن العاص الذى وجهه الى فلسطين أن يستعين بقبائل بلى وعذره وسائر قضـاعة ومن سقط هناك من العرب وأن يندبهم للجهـاد(٢). وكـونه يندبهم للجهـاد واعانة المسلمين على قتـال أهل الكفر من الروم ، يعنى أن منهـم من كان على الاسلام ، خاصـة أن عهـود الـرسول صلى اللـه عليـه وسلم التى أعطـاهـا أهـل تخوم الشـام لم يشترط عليهـم القتال مع المسلمين(٣). فلم يكـن الاسلام غريبا على نصـارى الشام عندما خرجت الجيوش الاسلامية الفاتحة الى بلاد الشام ، تحمل الدعوة وتحميها ، وتزيل العوائق عن سبيل وصولها الى عامة نصارى الشام .

غير أنه يصعـب على البـاحث تتبـع حركة انتشار الاسلام بين نصـارى الشام على وجه الدقة . ذلك أن المؤرخين القدماء لم يولـوا هذه القضية على عظـم شأنها ، كبير اهتمام ، فلم يخصوا الحديث عنها بفصـل أو أقل أو أكثر

---

(١) عـن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى الشام الى الاسلام ، وغـزواته الى تخوم الشام ، واعتناق أعداد من نصارى الشام الاسلام على أثر ذلك ، انظر قبل : الفصل الأول ، ص١٠٧ ومابعدها .

(٢) انظر قبل : ص٤٩٢،١٤٤ .

(٣) انظـر ماتضمنته عهود الصلح التى أعطـاها الرسول عليه السلام للنصـارى فى تخوم الشام ، قبل : ص١٠٢-١٠٦ .

بشكل منفرد . وغاية مابكتبهم معلومات متناثرة فى ثنايا الأخبار عن الدعوة والفتوح والحوادث ، لاتفى بالغرض ولاتقدم صورة متكاملة عن مدى انتشار الاسلام بين أهل بلاد الشام من النصارى وغيرهم . وجل تلك المعلومات أخبار عن اسلام بعض الأفراد والجماعات خلال سير الفتوحات وأعقابها ، ثم تكاد المصادر أن تسكت عن دعوة نصارى بلاد الشام الى الاسلام ، بعد أن أصبحوا يعيشون فى ظل الحكم الاسلامى ، وعنه مدى انتشاره بينهم .

غير أن القرائن والشواهد تفيد أن المصادر وان لم تقدم مايعتمد عليه بشكل صريح فى هذا المجال ، الا أنها تشير وتبين أن نصارى الشام أخذوا يعتنقون دين الاسلام جماعات وأفرادا حتى صار جمهور أهل الشام مسلمين ولم يبق على النصرانية الا قليلهم ، وأضحى الاسلام هو الدين الغالب على تلك البلاد سلطانا وعقيدة . وقد قرر هذه الحقيقة العامة دون الحديث عن كيفية حدوثها ابن تيمية بقوله : لما فتح عمر بن الخطاب الشام ، وأدى أهله اليه الجزية ، أسلم منهم خلق كثير لايحصى عددهم الا الله تبارك وتعالى ، فان العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى ، ولم يكن فى المسلمين من يعمل فلاحه ولم يكن للمسلمين فى دمشق مسجد يصلون فيه الا مسجد واحد لقلتهم ، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعا لاكرها(١). وقلة المسلمين بادء الأمر أمر صحيح ، غير أنهم لم يكونوا بدمشق فحسب ، بل سكنوا المدائن والأجناد ، ونزلوا الثغور ، واتخذوا لهم مسجدا فى كل مدينة نزلوها(٢). لكن عدد الفاتحين قل كثيرا على اثر طاعون عمواس(٣)، فقد كان جند ابى عبيدة ستة وثلاثين ألفا قبل الطاعون ، فلم يبق منهم الا

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/١٠٤-١٠٥ .

(٢) انظر قبل : ص٢٣٤-٢٣٥،١١٨-١١٩،١٧٢-١٧٣ ؛ وأيضا نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٨١ .

(٣) عن طاعون عمواس ، انظر قبل : ص٢٣٠-٢٣١ ؛ وانظر : الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٧٠ .

ستة آلاف[(١)]. ومن ثم فالمسلمون بالشام بعد الفتح كانوا ممن أسلم من أهل الشام ، ومن نزل الشام من القبائل التى نزحت اليها بعد الفتوحات واستوطنت بها[(٢)]، علاوة على من بقى بها من الفاتحين .

وقال ابن القيم[(٣)]: "فهؤلاء نصارى الشام كانوا ملء الشام ثم صاروا مسلمين الا النادر فصاروا فى المسلمين كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض" .

كما أن الواقع التاريخى ، والأخبار التاريخية المخبرة عن حوادث بلاد الشام أو الحوادث العامة التى كان أهل الشام طرفا فيها ، وبخاصة الفتن ، كحروب معاوية مع على رضى الله عنهما[(٤)]، وانقسام أهل الشام بعد موت معاوية بن يزيد ، وعلى اثر مقتل الوليد الثانى ، تتحدث عن أهل الشام وبخاصة القبائل العربية اليمنية التى كانت تقطن الشام قبل الفتح وكانت على النصرانية ، على أنها قبائل مسلمة ، وكأنها بجملتها قد تركت النصرانية واعتنقت الاسلام ، حتى أضحت هى عماد البيت الأموى ، والقوة الاسلامية العسكرية الضارية فى بلاد الشام .

والصحيح أن بعض تلك القبائل ، وأفراد منها ظل على النصرانية حتى وقت متأخر ، وسرى الاسلام بين أفرادها بطيئا ، كتغلب ، وبنى ثعلبة وغيرها[(٥)].

والأخبار المتعددة والمتواترة فى هذا الميدان كثيرة جدا لاتحتاج الى أمثلة ، وقد كان زعماء تلك القبائل وبعض أفرادها ، مستشارين ، كتابا ،

---

(١) عادل أبو عمشة ، فتوح الشام فى الشعر العربى ، ص٥١١-٥١٢ . وقد اختلف فى عدد من اجتمع لأبى عبيدة فى الشام ، انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٧٨-٨٠ .

(٢) نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٨١،٨٢،٨٣ .

(٣) هداية الحيارى ، ص٣٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال غلبة قبائل اليمن فى جيش معاوية فى صفين ، وقد كان معظمها قبل على النصرانية : نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص٨٢ .

(٥) انظر : ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٩٣-٩٦ .

وأمراء ، وقادة ، وقد ازداد نفوذ اليمانية بعد اسلام غالبيتهم ، ووقوفهم الى جانب معاوية فى صفين ، ومروان فى الجابية ومرج راهط ، فكان معاوية وابنه يزيد ، وعمر بن عبد العزيز ، يختارون ولاة الأجناد من زعماء القبائل حسب الأكثرية العددية فيها(١).

ومن النادر خلال قرائتك لتراجم الشاميين أن تجد اشارة تفيد أنه كان نصرانيا فأسلم ، أو تتحدث عن سبب اسلامه وكيفيته ، وكأنهم عاشوا على الاسلام ، وماذلك الا لأن جل عرب الشام المتنصرة اعتنقوا الاسلام جملة ، ودخلت بعض القبائل فى الاسلام عن بكرة أبيها ، فلم يعد المؤرخون يرون جدوى أو أهمية للتحدث عن اعتناقهم الاسلام .

أما أهل البلد النصارى من غير العرب ، فان الأخبار عن انتشار الاسلام بينهم قليلة ، ولكن شواهد أخرى تفيد اعتناق الكثير منهم الاسلام كنقص عدد النصارى وعدد كنائسهم(٢)، لكن نسبة من أسلم منهم قليلة ، ودخولهم فى الاسلام كان بطيئا(٣)، مقارنة بمتنصرة العرب .

ومما يفيد انتشار الاسلام بين النصارى ، أيضا ، نقص الجزية نتيجة اسلام بعض نصارى الشام ، فبالنظر الى مقدار خراج الأجناد الشامية ، وغالبا مايعنى مجمل جزية الرأس والخراج ، عند بعض المؤرخين والجغرافيين يتبين النقص الكبير فى مقاديرها ، مما يدل على اعتناق أعداد كبيرة منهم الاسلام ، حيث أن الجزية تسقط عمن أسلم(٤).

ويدل على ذلك أيضا زيادة عدد المسجلين فى ديوان العطاء بالشام بسرعة ، فمثلا كان عدد أهل ديوان دمشق زمن الوليد من العرب خمسة وأربعين ألفا ، وفى سنة ١٢٦هـ بلغوا أربعا وثمانين ألفا ، فأين هذا الرقم ممن

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٠١-١٠٦ .

(٢) انظر قبل : ص٥٠٤ .

(٣) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٢٣ .

(٤) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٩٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٢/٢٣٣-٢٣٤ ؛ نقولا زيادة ، جغرافية الشام ، ص١٦٥ .

بقى فى الشام بعد الفتح وطاعون عمواس ، ان هذا العدد لايمثل الوافدين من العرب الى الشام ، وانما أيضا من أسلم من عرب الشام وانضم اليهم(١).

ويتبادر سؤال ملح على الذهن ، كيف صار معظم أهل الشام مسلمين وقد كان أهلها نصارى المسيح عليه السلام ، وتلاميذه ، ورسله ، وجذور النصرانية عميقة فى نفوسهم ، وأرضهم مهد النصرانية ، وموطن مقدساتها فما أسباب ذلك؟ انه دين الله الحق أظهره على الدين كله ، انه نور الاسلام قشع ظلمة الكفر عن عيون الضالين ، فاهتدوا الصراط المستقيم . انه اغراء اليقين ، وبريق المثل السامية لحملة الدعوة والدين ، وجاذبية المعاملة الحسنة من حكام المسلمين للمحكومين ، وتطبيق شريعة الله السمحة ومبادئه العادلة وأحكامه الرحيمة . انه اختيار الفطرة البشرية المجبولة على الصفاء ، والعقل الذى لايقنعه الا المنطق والحجة القوية والبرهان الساطع ، المتمثلة فى دين الله الحق دين الاسلام .

لقد كان اسلام جل نصارى الشام استجابة لدعوة الحق التى رافقت الفتوحات الاسلامية(٢)، فاعتنق الاسلام كثير منهم ، لما عرفوا أنه الحق ، اعتمادا على ماعندهم من البشارات(٣)، وظهور صحته لهم ، عن دعوة المسلمين اياهم خلال المفاوضات التى تسبق القتال(٤)، ومابان من سلوك المسلمين وأخلاقهم وسيرتهم ، كمثل حسنة تدل على أنهم حملة دعوة ، وأمناء رسالة ، وأهل دين ، وخلق(٥). وكذلك حسن معاملتهم ، ورفقهم

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٨٣ .

(٢) عن دعوة نصارى الشام الى الاسلام ، انظر قبل : ص٧٨-٩٢،١١٣-١٢٥ .

(٣) انظر البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم وعلم نصارى الشام بصحة نبوته ، قبل : ص٧٠-٧٧ .

(٤) كاسلام جرجه على يدى خالد بن الوليد فى اليرموك . انظر قبل : ص١١٧ .

(٥) أقر النصارى بصفات الفاتحين الحميدة ، انظر قبل : ص١٢٢،٢٤٣،٢٤٥ .

بغيرهم تسامحا ورحمة وبرا(١)، وحكمهم بالعدل(٢). فقد أسلم أحد نصارى تغلب لما شكى لعمر أخذ العشار العشر كلما مر عليه ، فأمر عمر ألا يأخذ منه العشر الا مرة واحدة فى العام ، وان تعدد مروره فى العام الواحد ، فأسلم(٣).

وقد ساعد على اقبالهم على اعتناق الاسلام تشريعاته العادلة ، وذلك بمساواة من أسلم منهم بالمؤمنين فى الحقوق والواجبات(٤)، والاختلاط بالمسلمين ، فى السكن ، والأسواق وغيرها ، حيث سكن المسلمون فى الشام بمدائنها بين أهلها من النصارى وغيرهم ، ثم أنزل بعض القبائل فى الأرياف والقرى فى الأراضى التى ليس لأحد حق فيها ، فاعتملوها ، وبذلك خالطوا أهل الأرض من زراع وفلاحين(٥). ونتيجة للاختلاط بمن استعان بهم المسلمون فى الأعمال المختلفة(٦)، والتعامل معهم فى شؤون الحياة وتبادل المصالح(٧)، والتزاور والتعاطف والتواصل ، لجوار أو رحم أو حاجة ، أو مرض ، أو جنازة ، أو فرح(٨). كل تلك الأسباب والظروف أدت الى معرفة نصارى الشام حقيقة دين الاسلام ، فاعتنقوه أفواجا ، طوعا لاكرها .

---

(١) عن حسن معاملة المسلمين لنصارى الشام زمن الخلفاء الراشدين والأمويين ، انظر قبل : ص٢٤٢ ومابعدها .

(٢) وعن عدلهم ، انظر قبل : ص٢٤٢-٢٤٣،٢٥٤-٢٥٨ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٤) نقل ابن تيمية ماذكره أبو عبيد عن ابن الزبير : أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى أهل اليمن : "أنه من أسلم من يهودى أو نصرانى ، فانه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ماعليهم ، ..." . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١/١٠٤-١٠٥ .

(٥) انظر قبل : ص١٧٣-١٧٤ ؛ ص٣٤٨،٤٥٣-٤٥٤ ؛ ونجدة خماش ، الادارة فى العصر الأموى ، ص١٥٢ .

(٦) عن استعانة المسلمين بنصارى الشام ، انظر قبل : ص٢٦٢ ومابعدها .

(٧) انظر التعامل معهم فى الحياة الاقتصادية والعمرانية والعلمية فى الفصلين التاليين .

(٨) انظر قبل : ص٤٣٥-٤٣٦ .

يقول ابن تيمية [١]، أن اسلام الكثير من أهل الكتاب جاء لعلمهم بحقيقة الدين ، لأن أنبياءهم بشروهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، واستدل بما فى كتبهم فى زمنه من تلك البشارات ، وكذلك اخبار من أسلم منهم ومن لم يسلم بما فيها من ذكره ، وعلمهم به ، كيهود يثرب ، وهرقل ، والمقوقس ، والنجاشى ، واستشهد على علم النصارى ، وأنها سبب فى ايمان الكثير منهم بقوله تعالى : {**وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**} [٢]. وذكر ابن القيم [٣]، استجابة الناس لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، طوعا واختيارا لاكرها ، فان المسلمين لم يكرهوا أحدا عليه ، وانما قاتلوا من حاربه ، وأما من هادن المسلمين وسالمهم ، فلم يقاتل ولم يكره ، امتثالا لأمر الله : {**لاإكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى**} [٤]، فأكثر أهل الأرض دخلوا فى دعوته لما تبين لهم الهدى ، وأنه رسول الله حقا ، ومنهم نصارى الشام .

وهناك من يذكر أسبابا أخرى ساعدت على انتشار الاسلام بين نصارى الشام ، منها ماله وجاهة ويمكن أن نعده من الأسباب الثانوية ، ومنها مايعد دعاوى للنيل من الاسلام وأهله . فقد ذكر أن وراء اعتناقهم الاسلام عاملين أولهما تدهور الكنيسة ، والثانى اعجاب أهل الذمة بالعقيدة الاسلامية [٥]، لما فيها من اليسر والبساطة مما لم يألفوه فى ديانتهم السابقة [٦]، ولاعترافه بالديانات القديمة [٧]. وأن الخلافات المذهبية المسيحية المتعددة جعلت نصارى

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٢٧٥/٣ ومابعدها .
(٢) المائدة ، آية : ٨٣
(٣) هداية الحيارى ، ص٣٦-٣٨ .
(٤) البقرة ، آية : ٢٥٦
(٥) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٢٥-١٢٦ .
(٦) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص١٢١ .
(٧) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٢٨ .

العرب ينفرون من دينهم ويقبلون على الاسلام ، الذى لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة اغراءاته ، فقد قدم مزايا مادية جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لاتقبل الجدل ، مما أدى الى اعتناق النصارى فى الشرق دين الاسلام ، ومتابعة نبى الرحمة (١). وعلل ذلك أيضا بسبب القرابة العرقية بين عرب الشام وعرب الجزيرة ، والتذمر من الحكم البيزنطى والنزعة الاستقلالية ، والمنافع الشخصية بالانضمام الى ركب الفاتحين (٢). أو القول أن ذلك بسبب فرض ضرائب اضافية فى العصر الأموى ، مما دفع البعض إلى اعتناق الاسلام فرارا منها (٣).

كما أدت العلاقات التجارية والعرقية فى آن واحد الى سرعة فتح بعض الأقاليم الشامية ، كاقليم حوران ، ذو العلاقة التجارية المتميزة مع عرب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة مكة ، منذ ماقبل الفتح ، فكان أول اقليم تم فتحه ، وأول اقليم بنيت فيه المساجد الاسلامية ببلاد الشام ، ودخلته أولى نسخ القرآن الكريم حيث وصلت الى مدينة بصرى ، مما يسر انتشار الاسلام بين أهله ، ولعب دورا مميزا فى بداية تاريخ بلاد الشام الاسلامية ، وقد ظهرت آثار ذلك فى الدراسات الأثرية (٤).

وكان اعفاء من أسلم من دفع الجزية سببا فى دخول كثير من أهل الذمة فى الاسلام (٥)، ويمكن أن نعد حركة التعريب من عوامل انتشار الاسلام ، فقد أدى حرص بعض الكتاب على وظائفهم الى تعلم العربية ، ولاشك أن تعلم العربية سهل لهم معرفة أكبر بدين الاسلام ، مما أدى على الراجح الى اسلام الكثير منهم .

---

(١) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٨ .

(٢) جورج عطية ، الجدل الدينى ، ص٤٠٩ .

(٣) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص١٣٨-١٣٩ .

(٤) Maurice Sartre : op. cit, p.155,160-162,164-165 .

(٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٨٦/٥ .

كمـا أن أمر عمر بن عبد العـزيز بعزل غير المسلمين مـن الدواوين ، أدى الى اسلام بعضهـم ، حفاظـا على عمله[١]. غير أن هناك من يقـول أن بعـض النصـارى أكرهوا على اعتنـاق الاسلام ، فاتهم الـوليد بن عبـد الملك بمحاولة ارغام المسيحيين على اعتناق الاسلام ، مما أدى الى قتل الكثير منهم فى الكنائس[٢]. وفى خبر آخر أن الوليد بن عبد الملك قتـل كل الأسرى فى الكنائس لسبب غير معروف[٣]. ويبدو أن الروايتين لخبر واحد ، والراجح وان صح الخبر ، هو قتل الوليد للأسرى فى الكنائس ، وان كنا لانعرف من هؤلاء الأسرى ، ولكن ليس قتـل نصـارى الشام على الاسلام فى الكنـائس ، ويذكـر أن الـوليد بن عبـد الملـك أجبر بنى تغلـب على الاسلام[٤]. واتهم ثيـوفانس عمـر بن عبد العزيز باجبـار النصـارى على الـدخول فى الاسلام ، وقتل من لم يعتنقه[٥]. وقد ردت نادية صقر[٦]على ذلك بأن ثيوفانس انفرد بهـذا الخبر ، ولم يذكره غيره من المستشرقين ، ولاالمصـادر العربية ، وتصدى فلهـوزن لدحض تلك التهمة لما عرف من تمسك عمر بن عبـد العزيز بمبادىء دينـه وعـدله ، ولادراك عمر منـع الاسلام اكراه النـاس على الـدين ، قرآنا وسنـة ، ثم استشهدت بالواقع الذى ينفى هذا الخبر والمتمثـل فى بقاء أعداد من نصارى الشام على النصرانيـة ، وأنه لـو كان عمر أمـر بذلـك ، لما بقى نصرانى فى ديار الاسلام .

كما يبطل هذه التهمة تمسك عمر بمبادىء الاسلام فى اقـرار أهل الذمة على دينهم اذا أدوا الجزية ، فقد كتب فى حكم الذميين :

---

(١) انظر قبل : ص٢٩٣ .
(٢) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٣٨ .
(٣) انظر قبل : ص٣٩١ .
(٤) انظر قبل : ص٣٩١-٣٩٢ .
(٥) نادية صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٢٣ .
(٦) انظر : نفس المرجع ، ص٢٣-٢٦ .

"وان كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية وأمسك بيديه فانا نقبل ذلك منه"(١).

ولعل ثيوفانس كما تقول نادية حسنى صقر اختلط عليه الأمر لكثرة الداخلين فى الاسلام أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله(٢)، فظن أنه أجبر النصارى على الاسلام . وأرى ثيوفانس لم يستوعب مدى حجم التحول الكبير لنصارى الشام الى الاسلام وانتشار عقيدة التوحيد بينهم ، فاتهم عمر ابن عبد العزيز باجبار نصارى الشام على الاسلام بهتانا .

وقد بذل عمر بن عبد العزيز جهودا فى سبيل الدعوة ، ورفع المظالم عن أهل الذمة ، والعدل فيهم ، ورعاية الدولة لهم ، وكفاة المحتاج منهم فأحسن اليهم ، وتألفهم على الاسلام(٣).

وأمر عامله على خراسان أن يدعو أهل الذمة الى الاسلام ، وأن يضع الجزية عمن أسلم منهم ، فأسلم نحو أربعة آلاف على يديه فى خراسان(٤). وان لم يكن فى هذه النصوص والأخبار الخاصة بعمر مايخص أهل الشام ، فان سياسته وأثرها لاشك شملت نصارى الشام ، وهم أقرب اليه ، وتحت نظره . ولم يكن غريبا أن يأتى اتهام الوليد وعمر بارغام النصارى على الاسلام على لسان بعض الكتاب المسيحيين والمستشرقين ، الذين زعم بعضهم أن الاسلام انما انتشر بحد السيف(٥). ونأخذ برد أحدهم على ذلك الادعاء ، يقول أرنولد : "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام"(٦). وقوله عن الاسلام : "انه

---

(١) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز (طبعة عالم الكتب) ، ص٨٤ .
(٢) سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٢٦ .
(٣) عن جهود عمر بن عبد العزيز فى نشر الاسلام ، وسياسته تجاه النصارى التى ساعدت على اعتناقهم دين الاسلام ، انظر : نادية حسنى صقر ، نفس المرجع ، ص١٣-٢٦ ؛ ماجدة فيصل زكريا ، عمر بن عبد العزيز ، ص١٧٢-١٧٥ .
(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٣٨٦/٥ .
(٥) انظر عن تلك المقولة : أبو عبيد الخزرجى ، بين الاسلام والمسيحية ، تحقيق محمد عبد الغنى شامة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص١١٥-١١٨،٢٨٥-٢٩١ .
(٦) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٢٥ .

الـدين الوحيد الذى لم يفرض بالقـوة بل أقبل الناس على اعتنـاقه بارادتهـم واختيارهم"(١).

وفى قـول ابن تيمية وابن القيم الـذى ذكرناه فى أول هـذا المبحـث ، مايؤكد انتشار الاسلام طوعا لاكرها .

وفيمـا يلى نعرض لأمثلة على اعتنـاق نصارى الشـام أفـرادا وجماعات لدين الاسلام ، يتبين لنا على ضـوئها سرعة انتشاره ، والاقبـال عليه اختيارا وصـدق ايمان من اعتنقه ، وان كـانت للأسف قاصرة على أن تكـون صـورة مثلى لتحـول جل نصارى الشام الى الاسلام ، غير أنها ستظهـر لنا فى النهاية ماقدمناه من غلبة دين الاسلام على الشـام أرضـا وأهلا ، سلطـانا ودينـا .

لقـد بدأ انتشـار الاسلام بين نصـارى الشام فى عهـد الخلفـاء الراشدين والأمـويين مع الخطوات الأولى لسير الفتـوحات الاسلاميـة . فانه عندما عقد أبو بكـر أول لواء وجهه نحو بلاد الشام لخالد بن سعيـد بن العاص ، وأمره بنزول تيمـاء ودعـوة من حولـه للانضمام اليه ، انضـم اليـه جموع كثيرة ، واستنفـرت الروم العرب المتنصـرة لصده ، من بهراء وتنـوخ وكلب وسليح ولخم وجذام وغسان ، فغزاهم ، فتفرقوا عنه ، ونزل مكـانهم ، ودخل عامة من تجمع لـه فى الاسلام(٢). ولما أغـار خالد بن الوليد على غسـان فى مرج راهط ، قتل وسبى ، وصالح عامتهم ، وأسلموا(٣). ويروى عن أبى الخزرج الغسـانى أن أمـه كانت فى ذلـك السبى ، فلما رأت دين المسلمين وهـديهم ، وقـع الايمان فى قلبهـا وأسلمـت ، وجاء زوجها يطلبهـا ، وكـان قد أسلم بعد الوقعة ، فدفعها المسلمون اليه برضاها(٤).

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص١٢١ .

(٢) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣/٣٨٨-٣٨٩ ؛ ابن حبيـش ، الغزوات ، ٢/٢٠٢ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص١٨٦-١٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٧/٣-٤ .

(٣) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٨٢-٨٣ ؛ ابن حبيش ، نفـس المصدر ، ٢/٢٢٤

(٤) الأزدى ، نفس المصدر والصفحات ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر والجزء والصفحات

وأسلم روماس صاحب بصرى لما عنده من علم الكتاب بنبوة محمد وصحة دينه ، وأسلمت زوجته معه ، وجاهد مع المسلمين فى فتوح الشام ، ثم ولاه عمر بصرى حتى مات بعدها بقليل(١). وأسلم قاتل خلاد بن سعيد ابن العاص رضى الله عنه عندما رأى حين قتله نورا ساطعا الى السماء(٢).

كما أسلم نبطى أرسله أبو عبيدة بكتاب الى عمر ، لما دعاه الخليفة الى الاسلام(٣). واعتنق أحد نصارى دمشق على يدى خالد بن الوليد ، وجاهد مع المسلمين حتى استشهد فى اليرموك رحمه الله(٤). وأسلم على يدى خالد قسيس حين فتح دمشق ، وأصبح اسمه أبا اسحق القرشى مولى خالد بن الوليد(٥). ورومى آخر أسلم وتسمى عبد الرحمن(٦).

وأتى جماعة من نصارى العرب المسلمين فى اليرموك ، فأسلموا ، فاستعان بهم المسلمون كجواسيس ، وقد أخفوا خبر اسلامهم(٧). ووجه باهان قائد الروم فى اليرموك رسولا من عظماء قومه يدعى جرجه وكان على مقدمة قومه ، يسأل المسلمين أن يبعثوا من يفاوض الروم ، فلما رأى دينهم وهديهم وقولهم فى المسيح وأمه ، وعلم صحة مايدعون اليه ، أسلم ، وانضم اليهم ، فاستشهد باليرموك رحمه الله(٨). وعندما أسر المسلمون قسيسا فى جماعة يحملون هدايا من هرقل بانطاكية الى صاحب حلب ، يدعوه للصمود

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢٧/١-٣٢ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣/٧ .
(٣) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢٦٩/٢-٢٧٠ .
(٤) الواقدى ، نفس المصدر ، ٨٤/١-٩٢ .
(٥) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١١٧ .
(٦) نجدة خماش ، نفس المرجع والصفحة .
(٧) الأزدى ، تاريخ فتوح الشام ، ص٢١١-٢١٢ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٣١٧/٢،٣٤٨ .
(٨) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٩٩/٣-٤٠٠ ؛ ابن حبيش ، نفس المصدر ، ٣٣٤/٢-٣٣٥ ، ٣٨٧-٣٨٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٨٣/٢ ؛ ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٢/٧-١٣ .

فى وجه المسلمين ويعده بالمدد ، أسلم على يد أبى عبيدة ، وأخبره أنه أسلم من البارحة على يدى النبى عليه السلام ، وقد رآه فى المنام(١).

وقد أسلم بعض طىء عندما قدم أبو عبيدة الى قنسرين فاتحا ، وصالح أكثرهم على الجزية ، ثم أسلموا بعد ذلك بيسير الا من شذ من جماعتهم(٢). وكان حاضر قنسرين لتنوخ ، فدعاهم أبو عبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح ، وقد أسلم بعضهم بعد ذلك زمن المهدى العباسى(٣). ولعل بنو سليح أقامت على النصرانية لصلتها القوية بالروم ، فقد ولوهم زعامة العرب المتنصرة فى فترة من حكمهم لبلاد الشام(٤).

وجاء امرؤ القيس بن عدى الكلبى الى عمر بالمدينة مسلما ، فولاه من أسلم من قومه(٥).

ويذكر الواقدى(٦)أن يوقنا صاحب قلعة حلب أسلم بعد فتحها ، وكان قد أسلم أخوه يوحنا لعلمه بحقيقة دين الاسلام أمام أخيه يوقنا قبل اسلامه وهو يحارب المسلمين ، فقتله ، كما أسلم مع يوقنا صاحب حلب نحو مئتين من بنى عمه ، وأربعة آلاف من أتباعه وخدمه ، وقد حسن اسلامه وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان له يد بيضاء فى فتوح المسلمين بعد ذلك وقد ذكر عمر التدمرى(٧)، أن رواية الواقدى عن جهاد يوقنا وفتح مدينة طرابلس على يديه ، وان لم تكن معتمدة عند المؤرخين ، فانه لايمكن اهمالها.

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ١٥٤/١ .
(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥١ ؛ أبو الفداء ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، ص٣٤ .
(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٠ .
(٤) انظر قبل : ص٥٧ .
(٥) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م٤ ، ج٨ ، ص٣٥٠-٣٥١ .
(٦) انظر : نفس المصدر ، ٢٧١/١،٢٤٥-٢٥٤،٢٨٠ ، ٢٨٣/١ ، ٢٩/٢،٩٨-١٠٥ .
(٧) الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ، ص٣٥٣-٣٥٧ .

كما أشار الواقدى[١] الى وجود عدد كبير من الروم وبطارقتهم ممن كان قد اعتنق الاسلام فى جيش المسلمين . وذكر أنه كان بجيش المسلمين المتوجه لفتح ساحل الشام مايزيد على ثلاثة آلاف ممن أسلم منهم .

ويذكر الواقدى أيضا اسلام صاحب المدائن الكبرى وروميه الكبرى[٢] وكثير من أهل الرستن[٣]. وأبناء صاحب عزاز وقس بها عنده علم الكتاب ، وقد أسلم لاسلامه أكثر أهل عزاز[٤]. وبعض أهل طرابلس[٥]، وباسيل ابن عم صاحب صور ، وأكثر أهلها[٦].

وتقول نجدة خماش استنادا الى ماورد عند ابن سعد والطبرى : نلاحظ اشتراك العجم الذين دخلوا فى الاسلام مع العرب على اثر معركة اليرموك ، وبعد فتح قيسارية ، واسهام عدد كبير منهم فى فتح مصر[٧]. وقد انتشر الاسلام بين القبائل التى أظهرت العداء للمسلمين ، وان كان انتشاره بينهم بطيئا ، كغسان واياد[٨]. فان الغساسنة الذين ظلوا يقاتلون المسلمين حتى أخرجوهم من الدرب ، وبقى بعضهم فى أرض الروم ، نجد جماعة منهم تعود وقد اعتنقت الاسلام وعلى رأسها يزيد بن الأسود الغسانى[٩]. أما زعيم الغساسنة جبلة بن الأيهم الغسانى فالروايات تضطرب فيما انتهى اليه أمره ،

---

(١) فتوح الشام ، ٧١/١ ومابعدها ، ٢٩/٢ .
(٢) نفس المصدر ، ٣٠٠/١-٣١١،٣٠٨ .
(٣) نفس المصدر ، ١٥٠/١-١٥٢ ؛ والرستن : بليدة قديمة على نهر العاصى بين حماة وحلب . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٣/٣) .
(٤) نفس المصدر ، ٢٧٧/١-٢٨٠ .
(٥) نفس المصدر ، ٢٩/٢-٣٠ .
(٦) نفس المصدر ، ٣٢/٢-٣٥ .
(٧) الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٤٣-٣٤٤ .
(٨) محمد خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة ، ص١٩٨-١٩٩ .
(٩) انظر : قبل : ص٤٧٦،٤٨٢-٤٨٣ ؛ ابن حجر ، الاصابة ، ترجمة يزيد بن الأسود الغسانى ، ٦٧٣/٣ .

هل أسلم ثم ارتد ، أم لم يسلم وخرج الى أرض الـــروم ، ويرى جواد علي أنه لم يدخل في الاسلام أبدا(١).

واياد خرجت الى أرض الــروم ، فهـدد عمـر هـرقــل ان لم يخرجهـم ليخـرجن النصـارى مـن دولة الاسلام ، فـرجع منـه أربعـة آلاف ، وخنـس البـاقون بأطـراف أرض الـروم ، وكـل ايادى فى أرض العـرب مـن أولئـك الأربعة آلاف(٢). ويرد معنـا فى ثنـايا الأخبـار والحوادث وتراجم المسلمين أناس مـن اياد ، وذلك يدل على تفشـى الاسلام فيهم . كمـا تسرب الاسلام الى بعض تغلب فى دومة ، وكانوا من الكثرة والشوكة ماجعل مضايقتهم لمن بقى على المسيحية منهم الى الهجرة الى خرستا(٣)الاستيطان بها(٤).

وبعـد نهاية الفتوحات ، ومعـرفة عامة نصارى الشـام حقيقة الاسلام ، وحسـن معاملة أهله ، دخل كثير منهـم فى الدين أفواجا ، فقـد كانت قبيلة تنوخ وغيرها بحاضر حلب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ، ثم أسلمـوا بعد ذلك(٥). ولما فتـح أبو عبيدة بالس ، رتبها وأسكنها قـوما من العرب الذين كانوا بالشام وأسلمـوا بعد قدوم المسلمين(٦). وأراد عمر بن الخطاب عنـدما قدم الجابية ، ألا يساوى بين مـن قـدم الشام ، ومن خرج مقـاتلا مـن بيتـه بالشام من لخم وجذام ، فسألوه العـدل ، فقسم لهم(٧). وكأن الخبر يوحى

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٢٩ ؛ وانظـر قبل : ص٤٧٥،٧٦-٤٧٦

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٥٤-٥٥ .

(٣) خرستـا : لم أجد لها تعريفا بهذا الاسم ، ووجدت : خرستـاباذ : قرية شرقى دجلة من أعمال نينوى . ولعلها المقصود . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٨٥/٢).

(٤) معروف زريق ، تاريخ دومة ، ص٣٢ .

(٥) البلاذرى ، فتـوح البلـدان ، ص١٥١ ؛ ابن الأثير ، الكـامل ، ٣٤٣/٢،٣٤٤ ؛ أبو الفداء ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، ص٣٤ .

(٦) البلاذرى ، نفـس المصدر ، ص١٥٥ ؛ قـدامة ، الخراج ، ص٣٠٥ ؛ وبالـس : بلـدة بالشام بين حلب والرقة (ياقوت ، نفس المصدر ، ٣٢٨/١) .

(٧) اليعقـوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤٧/٢ ؛ ابن منظـور ، مختصـر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

ليس باسلام بعض لخم وجذام وانما باسلام القبيلتين جملة ، ولم يمض وقت طويل على الفتح حتى أسلم غالبية من بالشام من العرب الوثنيين(١).

ومع أن ابن عساكر يقول أن كلب كلهم يوم تزوج عثمان رضى الله عنه نائلة بنت الفرافصة الكلبية نصارى(٢). أى بعد فتح الشام لأن عثمان تزوجها وهو خليفة وقد تم فتح الشام زمن عمر بن الخطاب . فانه يقول : "كان عبد الملك بن مروان قد ولى صدقات كلب رجلا من بنى أمية"(٣). مما يدل على اعتناق كثير منهم الاسلام ، وأن المسلمين منهم أصبحوا من الكثرة ماجعل عبد الملك يولى صدقاتهم أحد بنى أمية .

وتشير رواية الى اسلام رجل اعتمد عليه معاوية فى مهمة بأرض الروم(٤). ورواية الى اسلام راهب ترك النصرانية الى الاسلام واستشهد فى أرض الروم(٥)، والى ميمون الجرجمانى الذى كان عبدا روميا فأسلم ، وولاه عبد الملك جماعة من الجند ، فاستشهد غازيا(٦). وكان سحيم بن المهاجر الرومى أميرا لطرابلس وقائدا لأسطولها زمن عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد(٧). واسمه يدل على أنه من مسلمة الروم .

كما أنزل بنو أمية الصقالبة وكانوا على النصرانية فى عدد من مدائن بلاد الشام ، فاندمجوا فى المجتمع الاسلامى وخدمة الدولة والمسلمين ، وقاتلوا فى صفوفهم وأخذوا لغة العرب ، واعتنقوا الاسلام(٨).

ويقال : أن حصن سلمان بقورس نسب الى سلمان الصقلبى الذى رتبه

---

(١) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٢-٥٥٣ .
(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١٣ ، ج٢٦ ، ص٢٣٠ .
(٣) ابن منظور ، نفس المصدر ، م١٥ ، ج٢٩ ، ص٢٥٨ .
(٤) عمر تدمرى ، ثغور بلاد الشام ، ص٣٣٥-٣٣٩ .
(٥) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ٢٩٧/٢ .
(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٥ .
(٧) عمر تدمرى ، نفس المرجع ، ص٣٣٩-٣٤٢ .
(٨) انظر عن ذلك : صلاح الدين عثمان هاشم ، الصقالبة ، ص٢٢٩-٢٣٢ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٤٥-٣٤٦ .

مروان بن محمد فى جماعة من الصقالبة فى الثغور[١]، وهو مايشير الى اسلام تلك الجماعة ، ان صحت الرواية .

واستمرت الدعوة ، فأسلم نصرانى استجابة لدعوة الضحاك بن مزاحم له[٢]، كما استمر انتشار الاسلام نتيجة للدعوة والمثل الحسن وغيرها من الأسباب .

وأخيرا فان انتشار الاسلام الواسع فى بلاد الشام وبين أهله ، واتخاذ بنى أمية دمشق الشام مركزا لدولة الاسلام ، واغراء الدين الحق ، وجاذبية المعاملة الحسنة ، وكل العوامل الأخرى التى ساعدت على اعتناق جمهور نصارى بلاد الشام دين الاسلام ، لم تؤد الى اجتثاث النصرانية من تلك البلاد . ولم يكن ذلك راجعا للاسلام دينا ولأهله حكما ، وانما كون تلك البلاد هى مهد النصرانية ، وموطن مقدساتها ، وعمق أثر ذلك فى نفوس أهلها ، مما أبقى جزءا من نصارى الشام على نصرانيتهم ، ليس فى ذلك الوقت فحسب ، بل وحتى وقتنا الحاضر .

وتشير نجدة خماش[٣] الى أن قسما كبيرا من سكان الشام بقى على مسيحيته الى القرن الثالث الهجرى ، كما يشير محمد كرد على ، الى بقاء جماعة من متنصرة العرب على النصرانية حتى القرن الثالث . فيذكر أن المازنى (ت ٢٤٩هـ) مر بدير بصرى بالشام ووجد به جماعة من الرهبان من بنى الصارد من أفصح الناس ، وفيهم عجوز شاعرة[٤].

وتذكر نجدة خماش أن تسامح بنى أمية جعل انتشار الاسلام بطيئا ، مستدلة بكثرة الاسقفيات والكنائس التى بقيت منتشرة فى بلاد الشام ، والاشارات الى كثرة اليهود والنصارى بالشام فى أوائل العصر العباسى ،

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٥٥ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ٢٠٢/١ .

(٣) الادارة ونظام الضرائب ، ص٤٢٩ .

(٤) خطط الشام ، ١٢٤/٤ .

وماتظهره المقارنة بين ماذكره أركولف فى رحلته الى الشام سنة (٥٠هـ/٦٧٠م) وزيارة وليبالد لها سنة (١٣٧هـ/٧٥٤م) ، من أن المسيحية كانت لاتزال واسعة الانتشار ، لاسيما فى جنوب الشام ولبنان(١).

ومن خلال ماتقدم أرى اسلام القسم الأكبر من نصارى الشام ، وأن انتشار الاسلام قد تم بين نصارى الشام من العرب سريعا ، بينما كان انتشاره بطيئا بين نصارى الشام من غير العرب وأن اليعاقبة ومنهم متنصرة العرب كانوا أكثر ميلا اليه ، لما كان بينهم وبين الروم من الخلاف المذهبى والعداء السياسى ، أما الملكانيون فكانوا أكثر تمسكا بالنصرانية ، وأشد ارتباطا بالروم ، كونهم على مذهب واحد هو مذهب (الطبيعتين) .

ومع أن المعلومات عن انتشار الاسلام بين نصارى الشام وغيرهم فى المصادر غير وافية ولامتكاملة ، الا أن ماتوفر لنا منها وقدمناه آنفا صور لنا ماكان عليه الحال تقريبا ، وهو أن نصارى الشام تحول أكثرهم الى الاسلام ولم يبق على النصرانية الا قلة قليلة لم يعد لها حول ولاقوة ، فى ظل حكم الدولة الاسلامية والمسلمين وشريعة الاسلام الخالدة المهيمنة .

---

(١) الشام فى صدر الاسلام ، ص١٤٣-١٤٤ .

* حركات نصارى الشام ضد الحكم الاسلامى خلال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

نستطيع أن نقسم حركات نصارى الشام فى هذه الفترة الى قسمين : الأول الحركات التى قاموا بها خلال سير الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام وقبل استقرار الوضع . والثانى حركاتهم بعد استقرار الوضع ، وهيمنة الحكم الاسلامى على سائر بلاد الشام ، وتنظيم أحواله .

وقد تمثلت حركاتهم الأولى فى انتقاض عدد من المدن على المسلمين بعد فتحها ، والانضمام الى الروم فى محاولاتهم العسكرية التى استهدفت الاستيلاء على مافتحه المسلمون ، واخراجهم من بلاد الشام .

غير أننا لايمكن أن نعد تلك الحركات موقفا نهائيا وثابتا من الحكم الاسلامى ، لأنهم حتى ذلك الحين لم يعرفوا الاسلام على حقيقته ولاطبيعة الحكم الاسلامى ، والأولى أن نعدها حلقة من حلقات الصراع العسكرى بين الفاتحين المسلمين والروم على حكم بلاد الشام . فقد قامت تلك الحركات على يد بقايا الروم فى تلك المدن ، أو على يد أهلها ولكن بتأثير من الروم رغبة أو رهبة ، حيث استغل الروم أثر نفوذهم القديم فى نفوس أهل البلاد وحالتهم النفسية ، والعلاقة الدينية واضطراب موقفهم تجاه صراع عسكرى لايزال قائما ، بين قوة جديدة لايعرفون حقيقة أمرها ، ولاكيف ستعاملهم ، وقوة يخشون بأسها ، وقد عرفوا جورها ان لم يطيعوها وتمكنت من حكمهم مرة أخرى .

لذلك نجد أن معظم المدن التى انتقضت هى المدن الحدودية فى شمال بلاد الشام وسواحله ، التى كانت فى متناول القوة الرومية . يقول نبيه عاقل (١) أن مدن أواسط سورية وشمالها كانت تنتقض على القادة كلما آنس أهلها ضعفا من جانب المسلمين ، أو جاءهم مدد جديد من بيزنطة ، الأمر الذى يوضح أنهم كانوا أكثر ولاء للروم من سكان مدن جنوب بلاد الشام

---

(١) موقف سكان بلاد الشام من الفتح ، ص١٧٢ .

وذلك للواقع الجغرافى والبشرى . فالمناطق الجنوبية بحكم حدودها المشتركة مع الحجاز ، ووجود العنصر العربى بها ، والعلاقات التجارية بين أهلها منذ الجاهلية ، لم يلاق المسلمون عنتا فى توطيد سلطانهم فى تلك المناطق .

ونستطيع القول أن المدن الداخلية وخاصة الجنوبية تحدد موقفها نهائيا بعد اليرموك بثبات أهلها على الولاء للمسلمين .

وبناء على ماقدمناه ، نرى أنا لسنا بحاجة الى تفصيل الحديث عن حركات تلك المدن باعتبارها لاتمثل حركات مستقلة ، ذلك أن انتقاضها وفتحها مرة ثانية كان جزءا من حركة الفتح والتصدى لها من قبل الروم .

ومن المدن التى انتقضت على المسلمين وأعيد فتحها مرة ثانية ، معظم البلاد التى فتحها المسلمون بعد انسحابهم لليرموك للقاء الروم(١). وكذلك طبرية (٢)؛ وقنسرين (٣)؛ وحلب (٤)؛ وانطاكية (٥)؛ وحمص وشيزر وأرمين (٦) وجوسية (٧)(٨)؛ وعسقلان (٩)؛ وصيدا وعرقه (١٠) وجبيل (١١) وبيروت (١٢).

---

(١) ابن حبيش ، الغزوات ، ٢/٣٠٧،٣١٥-٣١٦ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٣ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٢٩٠ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٠ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ١/١١٨-١٣٠ ؛ قدامة نفس المصدر ، ص٣٠٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢/٣٤٤ .

(٤) قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٥ ؛ ابن الأثير ، نفس المصدر ، ٢/٣٤٥ .

(٥) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٢،١٦٤ ؛ قدامة ، نفس المصدر ، ص٣٠٤ .

(٦) لم أجد له تعريفا ، ولعلها تصحيف سرمين ، وهى بلدة مشهورة من أعمال حلب وذكر الميدانى أنها هى مدينة سدوم . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/٢١٥ .

(٧) جوسيه : قرية من قرى حمص من جهة دمشق بين جبل لبنان وجبل سنير . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/١٨٥) .

(٨) الواقدى ، نفس المصدر ، ١/١٣٠-١٣١ .

(٩) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٨ .

(١٠) عرقة : بلدة شرقى طرابلس ، وهى آخر عمل دمشق بينها وبين البحر نحو ميل . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٤/١٠٩) .

(١١) جبيل : بلد فى سواحل دمشق شرقى بيروت . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٢/١٠٩) .

(١٢) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٣ .

وقيل ، انتقض أهل طرابلس أيام عبد الملك بن مروان ، فأعاد الوليد ابن عبد الملك فتحها(١). وذكر الطبرى(٢)، أنه كانت تنتقض فيما بين صلح عمر وخلافة عثمان المدن الساحلية ، فتفتح ثانية .

ويرجع تمرد المدن الساحلية الى تلقيهم الامدادات من البيزنطيين عن طريق البحر ، والمسلمون لم يكن لديهم أسطول يحمى تلك السواحل ويقطع عنها امدادات الروم ، مما أدى الى تذبذب ولاء أهلها حتى وقت متأخر من الفتح . ولما أقام المسلمون القواعد الساحلية ، وأنشأوا الأسطول الاسلامى أصبحت تلك المدن بمعزل عن الروم ، فدان أهلها للحكم الاسلامى(٣).

وقد ازداد اهتمام المسلمين ، ولاسيما الأمويين بأمر السواحل والأسطول لحمايتها وتوطيد سلطان المسلمين بها وقطع الصلة بين أهلها من النصارى والروم(٤).

وبعد أن هيمن الحكم الاسلامى على بلاد الشام ، وخضع نصارى الشام لسلطان المسلمين ، وعرفوا طبيعته المتسمة بالوفاء والعدل والرحمة والبر والرعاية والتسامح والاحسان ، التى تبدت لهم بعد تنظيم أمور بلاد الشام ، وتطبيق شرائع الاسلام على أهله استبانوا البون الشاسع بين خير حكم المسلمين الفاتحين ، وشر حكام الروم ، فآثروا الحياة فى ظله على العودة الى حكم بيزنطة .

وكادت هذه الفترة تخلوا من حركات مستقلة لنصارى الشام تعبر عن رأى أهلها ، وتنطلق من موقفهم من الحكم الاسلامى ، لأسباب سياسية ، أو دينية ، أو عرقية ، أو اقليمية ، حتى أن الحركة الأبرز فى هذه الفترة ، وهى حركة الجراجمة ، لم تكن حركة شامية مستقلة ، وانما بتوجيه ودعم من بيزنطة .

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٤ .
(٢) تاريخ الأمم ، ٢٦٢/٤ .
(٣) نبيه عاقل ، موقف سكان الشام من الفتح ، ص١٧١-١٧٢ .
(٤) انظر عن ذلك : موقف نصارى الشام من حركة الجهاد الاسلامى ضد الروم ، ص٥٤٨ ومابعدها .

يقـول ثابت الـراوى : أمـا أهل الذمة فلم يكن هنـاك مـايدعوهم الى الثورة ماداموا متساوين مع اخوانهم الذين أسلموا فى دفـع الضرائب ، كما أن قلتهـم ، وتفرقهم ، وحاجتهم الى زعيم دينى أو سيـاسى يقودهم جعلتهم بعيدين عن اثارة الثورات أو الاشتراك فيها(١).

وقـوله عام ، وان كان يتحـدث عن أهل الذمة بالعـراق ، فانه ينطبق على مـن بالشام منهم ، غير أنه قـد جانب الصواب فى بعـض قوله ، فان من أسلم مـن أهل الذمة يعفى من الجزية ، وان أخذت منهـم فى العصر الأموى فى بعـض أقاليم المشرق ، الا أنه لم يثبـت أخذها من الموالى بالشـام ، كماأن بروز الزعماء يقترن بدواعى الحاجات ، والحوادث ، ولم يكـن نصارى الشام بحاجة الى الثورة أو زعيم يقودهم للتمرد على حكم المسلمين العادل .

حركات الجراجمة :

خضـع الجراجمـة (٢)للحكـم الاسلامـى بعـد فتـح مـدينتهم

---

(١) العراق فى العصر الأموى ، ص١٣١-١٣٢ .

(٢) الجراجمة : قوم من أصل فارسى ، استوطن سوريا أجيالا طويلة ، فمنهم من نزل الشـام بالجرجومة وعرفوا بالجراجمة ، ومنهم من اتخذ مـرعش وطنا وكانت تدعى "جرمـانيقية" وعـرفوا بالجرامقـة ، والجراجمـة أهـل جرجومـة ، والجرامقـة أهـل جرمـانيقية "مرعش" ، شعب واحد ، ومنهم المردة الذين كـانوا يسكنون الشاطىء الجنـوبى الغربى لبحر قزوين عند فتح الاسكندر المقدونى لبلاد فـارس ، وكان قسم آخر منهم يسكن الشاطىء الشرقى للخليج الفارسى ، والمروه اسم آخر للجراجمة والجراجمة من بنو الأحرار الفرس ، وكان من قدم منهم اليمن مع سيف بن ذى يزن قـد سمـى فى صنعاء بنو الأحرار وفى اليمـن بالأبنـاء وعـرف مـن نزل منهم الكوفة بعد ذلك بالأحامرة ، وفى البصرة بـ"الأساورة" ، وفى الجزيرة بـ"الخضـارمة" وقيـل : كـانوا قـد نزلـوا فى الأصـل بجوار مـرعش ، ثم انتقلـوا الى الجرجومـة واتخذوها عاصمة لهم ، وقد دخل هؤلاء القوم تلك البلاد على دفعات وفى أوقات مختلفة ، ومن المردة من سكن قليقية ، وهم الذين وكل اليهم الروم تحصين لبنان فى وجه العـرب زمـن بنى أميـة والعـرب يدعون المردة والجراجمـة أمـة واحدة ، والمردة أو الجراجمـة اسم لمجموعة عسكرية لادينية مـن أصل فارسى ، عرف من نزل الشام منهم بالجراجمة ، ومن استقر فى آسيا الصغرى بالمردة . وكـانت لغتهم السـريانية ، وديانتهـم المجـوسية ثم تنصـروا . وهنـاك جدل واسـع بين المؤرخين حول أصل الجراجمة "المردة" ، وحملاتهم العسكرية ، وعلاقتهم بالموارنة . =

الجرجومة[١] زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فيذكر البلاذرى أنه لما فتح أبو عبيدة أنطاكية ، وكان أمر الجراجمة الى والى أنطاكية أيام الروم ، ولم ينتبه المسلمون لذلك ، وقد لزموا مدينتهم الجرجومة ، وهموا باللحاق بالروم ، خوفا على أنفسهم ، ثم أن أهل أنطاكية نقضوا العهد ، ففتحت ثانية ، وولاها أبو عبيدة بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهرى[٢]، فغزا الجرجومة ، فلم يقاتله أهلها ، اذ بادروا بطلب الصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين ، وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ، وأن لايؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين اذا حضروا معهم حربا ، ودخل من كان فى مدينتهم وقراها من غيرهم فى هذا الصلح فسموا الروادیف[٣].

غير أن الجراجمة لم يصدقوا الولاء للمسلمين ، فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم[٤]. وكانوا كثيرى التمرد على العرب والبيزنطيين على حد سواء لذلك عرفوا بالمردة[٥]. ولم

= انظر عن ذلك : بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٨١/١-٢٨٦،٢٨٨ ؛ عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ، ص٣٦٤-٣٦٥ . وذكر أن بعضهم قال : بأن الجراجمة قوم من العجم بالجزيرة ، وقيل : الجراجمة ، نبط الشام . نفس المرجع ، ص٣٦٥ .

(١) الجرجومة : مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا ، قرب أنطاكية ، بالثغر الشامى . (البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ١٢٣/٢) .

(٢) حبيب بن مسلمة بن مالك القرشى الفهرى ، له صحبة ورواية يسيرة ، جاهد فى خلافة أبى بكر وشهد اليرموك أميرا ، وكان على ميسرة معاوية فى صفين ، وكان يقال له : "حبيب الروم" لكثرة غزوه أرضهم ، وولى أرمينية لمعاوية ، فمات بها سنة ٤٢هـ . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ١٨٨/٣-١٨٩ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٣-١٦٤ .

(٤) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٦٤ .

(٥) عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان فى ساحل دمشق (لبنان) ، ص٣٦٤ .

يتحدث البلاذرى عن حركتهم زمن معاوية ، حيث تمكن الجراجمة بالتحالف مع الروم من الخروج على المسلمين ، والسيطرة على جبال لبنان مع المردة الذين قدموا من آسيا الصغرى مع الروم . فيذكر أن والى أرمينية تمرد على الامبراطور البيزنطى كونستانس الثانى (٦٤٢-٦٦٨م/٢١-٤٨هـ) ، وراسل معاوية بن أبى سفيان ليقف الى جانبه ضد الروم ، فأرسل الامبراطور الى معاوية يفاوضه على عدم مساعدة الأرمن ، فأصبح معاوية فى موقف المساوم للروم ، وظلت هذه المبادرة بيده عشر سنوات لم يستطع الامبراطور خلالها الحصول على اتفاقية سلام، حتى سنة (٦٧٧م/٥٧-٥٨هـ) على عهد الامبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م/٤٨-٦٥-٦٦هـ) الذى نجح فى أخذ المبادرة من يد الخليفة ، وذلك عن طريق ارسال جماعة من المردة الذين كانوا يقيمون فى منطقة الأناضول الى جبال لبنان ، فجعلوه تحت سيطرتهم الفعلية ، وأخذوا يشنون الغارات على المسلمين ببلاد الشام من هناك ، مما أدى الى اضطرار معاوية الى توقيع اتفاقية السلام التى يريدها الروم(١). وقد تمكن الروم من الوصول الى الشام وانزال المردة به ، ودعم الجراجمة ، على أثر انتصارين بيزنطيين على المسلمين ، وذلك بعد أن غزا المسلمون أرض الروم ، الاولى سنة (٥٤هـ/٦٧٤م) ، والثانية سنة (٥٥هـ/٦٧٥م) ، وساعد الروم فى تحقيق تلك الانتصارات استخدام النار الاغريقية التى اخترعها "كالينيكوس" البعلبكى الأصل ، التى كانت من العوامل المساعدة على تحقيق النجاح للأسطول البيزنطى . وعلى أثر هزيمة المسلمين ، واحراق أكثر سفنهم بالنار الاغريقية التى لم يصل الى سواحل الشام منها الا عدد قليلا ، انكشف الساحل الشامى للبيزنطيين فوصل الروم الى مدينتى صور وصيدا ، واستطاعوا اقتحامها والقضاء على كل مقاومة فيهما ، ثم تسلقوا جبال لبنان واستولوا عليها ، وأنزلوا بها الجراجمة ، فبثوهم بين جبال الجليل فى شمال

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، حولية ثيوفانس ، ص١٦ ؛ وانظر : بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٩٢/١-٢٩٥ .

فلسطين الى الجبل الأسود فى شمالى الشام ، وشكلوا بذلك حاجزا يفصل بين القوات الاسلامية فى الأجناد بالداخل ، والقوات فى الساحل ، مما اضطر معاوية لرفع الحصار عن القسطنطينية وعقد هدنة مع الامبراطور قسطنطين الرابع مدتها ثلاثون عاما ، التزم فيها معاوية بدفع عشرة آلاف قطعة ذهبية ومائة عبد ، وخمسين فرسا كل سنة ، على أن يوقف الروم والمرده غاراتهم على المسلمين (١). وذكر بأن بداية خروج الجراجمة الى لبنان سنة (٤٦هـ/٦٦٦م)(٢)، وقيل : سنة (٤٩هـ/٦٦٩م)(٣).

وأشار البلاذرى (٤)الى أن معاوية صالحهم على مال يؤديه لهم ، وأخذ منهم رهناء وضعهم فى بعلبك .

وقد هدف البيزنطيون من وراء دعم الجراجمة ، وانزالهم فى جبل لبنان ، شغل معاوية عن محاولته الاستيلاء على القسطنطينية ، اذ أن الاستيلاء على جبال لبنان سيمنع التعاون بين الأساطيل الاسلامية فى القواعد البحرية وبين القوات البرية فى الداخل ، اذ كانت تتصل عن طريق ممرات عبر تلك الجبال(٥). وقيل : أن كونستانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م/٢٠-٤٨هـ) الذى أرسل المردة سنة (٤٦هـ/٦٦٦م) ، وأعانهم فى ثورتهم على معاوية والانتشار فى لبنان فعقد معاوية معه الصلح ليتخلى عن نصرة المردة(٦). ويقول حتى : أن الأسطول البيزنطى قام بنقل الجراجمة من الجرجومة الى صور وصيدا(٧).

---

(١) عمر عبد السلام تدمرى ، ثغور بلاد الشام ، ص٣٣١-٣٣٣ .

(٢) عمر سليمان العقيلى ، خلافة معاوية ، ص١١٦ .

(٣) عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ص٣٦٦ .

(٤) فتوح البلدان ، ص١٦٩ .

(٥) ابراهيم أحمد العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، دار رياض الصالحين ، الفيوم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص٩٨ .

(٦) نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٤٤ ؛ نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص١٥١ .

(٧) عمر سليمان العقيلى ، خلافة معاوية بن أبى سفيان ، الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص١١٦ .

فشكل الجراجمة نواة التف حولها الخارجون على الحكم الاسلامى فى الشام ، فانضم اليهم كثير من العبيد والأسرى وأهل البلاد والموارنة ، وأصبحوا فى مدة وجيزة ألوفا عديدة ، فقوى بأسهم(١).

وقد تكونت القوة التى سيطرت على جبال لبنان بصورة رئيسية من جراجمة الشام ، ومن المردة الآتين من آسيا الصغرى ببلاد الروم(٢). ونتيجة لهجمات الجراجمة تلك ، أنزل معاوية قبائل من العراق وفارس فى المدن الساحلية كصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة ، وفى بعض أنحاء الجبل كبعلبك والهرمل(٣)وغيرها ، ومن ذلك انزال الزط فى انطاكية ، لتقف فى وجه المردة ، وتقطع اتصالهم ببيزنطة(٤). يقول البلاذرى : أن معاوية نقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية نحو سنة ٤٢هـ/٦٢٢-٦٢٣م جماعة ، وفى رواية أخرى : أنه نقل قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة ٤٢هـ/٦٢٢-٦٢٣م(٥).

كما نقل معاوية من الزط والسيابجة بشرا الى سواحل الشام وانطاكية ونقل الوليد بن عبد الملك أيضا قومامن الزط الى انطاكية وناحيتها(٦).

ولما مات معاوية ، استفحل خطر الروم ، وانتزعوا مدينة حماه ، ناقضين للهدنة ، وعندما أراد يزيد استردادها ، اعترضه الجراجمة وردوه عنها سنة ٦٠هـ/٦٧٩-٦٨٠م ، فعزم يزيد على تقوية المرابطة فى السواحل ، وأقفل أهل رودس وقبرص(٧).

---

(١) ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٩٨ ؛ بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٩٣/١ ؛ ابراهيم العدوى ، نفس المرجع ، ص٩٨ ؛ عمر العقيلى ، خلافة معاوية ابن أبى سفيان ، ص١١٦ .

(٢) بطرس ضو ، نفس المرجع ، ١٢٨٦/١ .

(٣) لم أجد له تعريفا . ولعله كرمل : وهو حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل بحر الشام ، وكرمل : قرية فى حدود الخليل من ناحية فلسطين . (ياقوت معجم البلدان ، ٤٥٦/٤) .

(٤) بطرس ضو ، نفس المرجع ، ٣١١/١ ؛ ابراهيم العدوى ، نفس المرجع ، ص٩٩ .

(٥) فتوح البلدان ، ص١٢٤ .

(٦) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص٣٦٩ .

(٧) عمر عبد السلام تدمرى ، ثغور بلاد الشام ،ص٣٣٣ .

وفى خلافة عبد الملك بن مروان استغل الروم الفتنة بينه وبين عبد الله بن الزبير ، فلما استعد عبد الملك بن مروان للخروج لحرب مصعب بن الزبير ، خرجت خيل الى جبل اللكام وعليها قائد رومى ، ثم سارت الى لبنان وقد انضم اليهم كثير من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين ، فاضطر عبد الملك الى مصالحتهم على ألف دينار فى كل جمعة ، وعلى مال يؤديه لامبراطور الروم لانشغاله عن محاربته وخشيته أن يغلب على الشام ، مقتديا بصلح معاوية . ثم أنه بعد ذلك وجه اليهم سحيم بن المهاجر الرومى ، فخدع قائد الروم ، وأظهر ممالأته وذم عبد الملك ، فلما أمنه ، انكفى عليه بقوم من موالى عبد الملك وجنده ، كان قد أعدهم فى كمين لمواقعته ، فقتله ومن كان معه من الروم ، ونادى بالأمان لسائر من انضم اليه من أهل الشام ، فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم الى الجرجومة ، وأتى الأنباط قراهم ، ورجع العبيد الى مواليهم(١). وذكر أن سحيما بن المهاجر استطاع استمالة العبيد لما وعدهم أن من أتاه فهو حر ويثبت فى الديوان ، فانفض اليه خلق كثير ، وقاتلوا معه ، فوفى لهم ، وجعل لهم ربعا على حده ، فهم الذين يسمون الفتيان(٢). ويدل وعده باثبات من انضم اليه فى الديوان على أن بعض أولئك العبيد الأباق الذين تمردوا وانضوا الى الجراجمة والروم كانوا على الاسلام ، اذ ليس لأهل الذمة نصيب فى العطاء .

ولعل انضمام الأنباط ، وهم الفلاحون الى الجراجمة ، جاء نتيجة عدم قدرتهم على دفع الضرائب المفروضة عليهم ، اذ يشير ثيوفانس الى

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٤-١٦٥ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ١١٨/١-١١٩ (نقل قول ابن عساكر ، وقد وافق البلاذى تقريبا ، غير أنه جعل فروج الجراجمة ومن انضم اليهم بتحريض من امبراطور الروم الذى وجه اليهم بقوة انضمت اليهم وأفسدت فى الأرض) .

(٢) نجدة خماش ، الجيش الشامى فى العصر الأموى ، ص٣٥٣ .

حدوث عدد من الكوارث الطبيعية فى الشام آنذاك ، من جفاف ، وزلازل ، وأوبئة[١]، والتى لاشك أن أثرت على القدرة المالية وكمية الانتاج التى تتناسب مع ماقدر عليهم من الخراج .

وذكر ثيوفانس أن الخليفة عبد الملك بن مروان أخضع أهل البلاد وسيطر عليهم ، كما يذكر أن عددا منهم حاول التخلص من آثار المجاعة فى زمنه بالخروج الى أرض الروم ، وأن المجاعة قد تسببت فى ثورة البعض وجلائهم[٢].

ويظهر أن اخضاع عبد الملك لثورة أهل البلاد كان عند انضمام جماعات منهم الى حركات الجراجمة ، كما نص على ذلك البلاذرى ، وليس عند قيامهم بحركة أخرى ، لأن المصادر العربية لم تشر الى حركات أخرى لأهل بلاد الشام غير حركات الجراجمة .

وقد ذكر الطبرى [٣]، وابن الأثير [٤]، فى أحداث سنة ٧٠هـ/٦٨٩-٦٩٠م ، أن الروم ثاروا ، واستجاشوا على من بالشام من المسلمين ، فصالح عبد الملك ملك الروم على ألف دينار يؤديها اليه كل جمعة ، خوفا منه على المسلمين ويبدو أنها اشارة غير صريحة الى حملة الروم على لبنان بالتعاون مع الجراجمة التى قدمنا ذكرها . وكان الجراجمة أيضا يغيرون من الجرجومة أيام عبد الملك على قرى أنطاكية والعمق[٥]، واذا غزت الصوائف أصابوا من قدروا عليه من أواخر العسكر ، ففرض عبد الملك لأقوام وجعلهم مسالح أردف بهم الصوائف لحمايتها من الظهر من غارات الجراجمة[٦].

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، حولية ثيوفانس ، ص٢٥-٢٦ .
(٢) لطفى عبد الوهاب يحيى ، نفس المرجع ، ص٢٥-٢٦ .
(٣) تاريخ الأمم ، ١٥٠/٦ .
(٤) الكامل ، ٣١٦/٨ .
(٥) العمق : كورة بنواحى حلب بالشام ، وكانت من نواحى أنطاكية . (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٥٦/٤) .
(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٦ .

ويذكر ثيوفانس فى حوادث السنة الأولى لعبد الملك حدوث مجاعة وطاعون فى الشام ، وتكرر غارات المردة فى جوار لبنان ، فطلب عبد الملك تجديد الصلح الذى أبرمه معاوية مع الروم ، على أن يمنع الروم غارات الجراجمة وأن يخرج المردة الذين قدموا من آسيا الصغرى وأنزلهم الروم لبنان ، مقابل أن يدفع عبد الملك للروم فى كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا ، وأن يقتسم الخليفة والامبراطور خراج قبرص وأرمينية وليباريا[١]بالسوية ، فأمر امبراطور الروم بابعاد اثنى عشر ألف من المردة من لبنان ، وهم الذين قدموا من آسيا الصغرى فى الحملة الأولى زمن معاوية ، لامردة الجرجومة ، فأخرج الامبراطور أولئك المردة من لبنان ، حيث أمر أمير جبل لبنان يوحنا أن لايتعرض لعبد الملك ، وأن يخرج بجيشه من أرض الشام نحو الغرب ، فماطل وتعذر بالشتاء ، فأرسل الامبراطور جيشا أظهر أنه يريد حرب المسلمين ، وكلف القائد أن يحتال على يوحنا فيقتله ، فقابله وخلع عليه وطلب منه المعونة على المسلمين ، فلما تمكن منه ، قتله وهزم من معه ، وخرج المردة بامارة سمعان ابن أخت يوحنا المقتول مرغمة بأمر الامبراطور الى أرمينية ، ومن هناك اجتازت الى بلاد طراكيا ، واستقروا فى اقليم بمفيلية واتخذوا من أضالية مركزا لقائدهم[٢].

وتذكر نجدة خماش[٣]أن ماكان يؤديه عبد الملك كان كل أسبوع وليس كل يوم ، وأشارت أن جستنيان أدرك أنه أخطأ بنقل المردة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فأمر بنقل سكان قبرص ليحرم الخليفة من الجزية التى يؤدونها اليه ، وأخذ من بها من العرب أسرى ، غير أنهم تعرضوا لعاصفة قوية ، غرق فيها معظمهم قبل وصولهم الى الهيليسبونت (مضيق البسفور) ،

---

(١) لم أجد له تعريفا .

(٢) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٢٩٥/١-٣١٤،٢٩٨ ؛ وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص١٨٤-١٨٦ .

(٣) الشام فى صدر الاسلام ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

ثم طلب الامبراطور تيبيريوس الثالث (٦٩٨-٧٠٥م/٧٩-٨٦هـ) من الخليفة اعادة القبارصة الذين نقلوا الى أرض الروم الى جزيرتهم ، لاعادة تأهيل قبرص ، وفى خلافة الوليد بن يزيد أجلى منهم خلقا الى الشام لاتهامهم بممالأة الروم ، فأنكر عليه المسلمون ذلك ، وردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم .

ويحاول بطرس ضو[1] أن يوفق بين رواية البلاذرى التى تنص على أن القضاء على حركة الجراجمة زمن عبد الملك تم على يد القائد المسلم سحيم بن المهاجر ، ورواية ثيوفانس التى تعزو ذلك الى الامبراطور ، بأن الخديعة تمت بتواطؤ الروم والعرب معا ، اذ لم يكن بمقدور الروم ارسال جيش الى الشام جهرا دون موافقة المسلمين ، وليس من المستبعد أن يكون سحيم بن المهاجر الرومى ، ذاته تظاهر بحيلة حبكها ملك الروم والخليفة ، بأنه قائد رومى أرسله امبراطور الروم لمساندة المردة . والذى أراه تقديم رواية البلاذرى ، ولعل بطرس ضو أصاب الحقيقة ، بتحايل سحيم أنه قائد رومى ، ولعلها خدعة استغل فيها عبد الملك أصل سحيم الرومى فى انطلاء الخدعة على الروم ، ولكن دون علم الروم والترتيب معهم ؛ أما لماذا أمر الامبراطور باخراج المردة ، فيبدو أن ذلك راجع الى كون المعاهدة قد تمت بعد هزيمة الجراجمة والمردة وقتل قائدهم على يد سحيم ، وليس قبل ذلك ، مما ساعد الخليفة على املاء ذلك الشرط . وهو شرط خاص بمردة آسيا الصغرى ، أما الجراجمة فعاد أكثرهم الى مدينتهم الجرجومة .

ويعلل بطرس ضو[2] اخراج الامبراطور للمردة من الشام بما فيه من مضرة على مصالح دولته والمسيحية فى الشرق بأسباب دينية ، وأن أسرة سرجون بن منصور فى دمشق لعبت دورا هاما فى تلك المكيدة .

---

(١) تاريخ الموارنة ، ٢٩٨/١ .

(٢) نفس المرجع ، ٢٩٩/١ .

ويذكر محمد كرد على[1]، الخلاف الذى حدث بين الموارنة والـروم ، وايقـاع الـروم بهم فى الشـام ، فيقـول :"وفى سنـة ٧٥هـ/٦٩٤-٦٩٥م وصـل موريق وموريقان من قواد الـــروم الى الشـــام وحملا بجيـــوشهما على دير القـديس مارون فى جهات حماه وقتلا منهم خمسمائة راهـب وهدما بنيانه ، ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيـا أحدا من أتباع بطـريرك الموارنة ، ثم انتهـى جيشهما الى طرابلس فخضـع لهم أهل الكورة ، ثم قوى الجبليون (الموارنة) على عسكـر الروم ، فقتلـوا أكثرهم وانهزم الباقـون . والذى دعا الروم الى قتـال الموارنة قولهم بالطبيعتين والمشيئتين ، ثم أبيـح لهـم محاربة جيـش الـروم ، فلمـا عـرف الجبليـون وأهل العواصم بهذا انهالوا على الروم من أعـالى الجبال فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون .

قال الدويهى : وبسبب هذه الحملة على يوحنا مارون كان بدء التفرقة بين الموارنة والملكـانيين ، لأن الـذين اتبعـوا جيش الـروم وانقـادوا لرأيهم سمـوا ملكيـة تبعا للملك ، والـذين ثبتـوا فى الأمانة تحت طـاعة البطـريرك يوحنا مارون سموا موارنة .

ثم تمرد الجراجمـة مـرة ثالثـة زمـن الوليد بن عبـد الملـك ، ففى سنة ٨٩هـ/٧٠٧-٧٠٨م اجتمع الجراجمة الى مدينتهم الجرجومـة ، وأتاهم قوم من الروم من جهة الاسكندرونة[2]، وروسنس[3]، فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فى جيش كثيف ، فافتتحها ، على أن ينزلوا حيث

---

(١) خطط الشام ، ١/١٢٠-١٢١ .

(٢) الاسكنـدرونة : مـدينة فى شرق انطـاكية على ساحل بحر الشام بينهـا وبين بغـراس أربعـة فـراسخ ، وبينها وبين انطـاكية ثمانيـة فراسخ . (ياقوت ، معجـم البلـدان ، ١٨٢/١) .

(٣) روسس : لم أجدها بهذا اللفظ . ووجدت روسيس : كورة من كور العواصم على البحر بين انطاكية وطرسوس . (انظر : ياقوت ، نفس المصـدر ، ٨٣/٣) . ولعلها المقصود .

أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت مدان من القمح وقسطان من الزيت ، وعلى أن لايكرهوا على ترك النصرانية ، وأن يلبسوا لباس المسلمين ، ولايؤخذ منهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم مايؤخذ من المسلمين ، فأخرب مدينتهم ، وأسكنهم جبل الحوار(١) وسنح اللولون(٢) وعمق تيزين(٣)، وصار بعضهم الى حمص ، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة أنطاكية ، ثم هرب الى بلاد الروم(٤). وأشار اليعقوبى الى ايقاع مسلمة بن عبد الملك بالجراجمة زمن الوليد(٥). وهكذا وضع الوليد نهاية لتمرد الجراجمة فى العصر الأموى ، بعد أن تفانوا فى خدمة الدولة البيزنطية ، فكانوا فى بعض الأحيان يمثلون حاجزا حديديا فصل الشام عن أراضى بيزنطة ، وعرقلوا حركة الفتوحات الاسلامية فى أرض الروم(٦). لكن الأمويين نجحوا بعد ذلك فى احتوائهم ، فصدقوا الولاء ، وبعد أن كانوا يمثلون الحركات الداخلية ، نجدهم زمن يزيد بن عبد الملك فى جيش مسلمة بن عبد الملك الذى قضى على حركة

---

(١) الحوار : حوار : كورة بحلب بين عزار والجومة . وحوار أيضا : من قرى منبج ، وحوار : جبل فى غربى جيحان من ثغور الشام ، وهى كورة كبيرة مدينتها البلاط . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣١٤/٢) . ولانعلم أيها المقصود على سبيل القطع ، وأراه الموضع الأخير ، حيث ورد فى النص جبل الحوار .

(٢) لم أجد له تعريفا .

(٣) عمق تيزين : وجدت لكل منها تعريف ، وأنهما موضعين لاموضع واحد . فالعمق : انظر التعريف به قبل : ص
وتيزين : قرية كبيرة من نواحى حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين . (ياقوت نفس المصدر ، ٦٦/٢) .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٥) تاريخ اليعقوبى ، ٢٨٣/٢ .

(٦) ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٩٨ .

يزيد بن المهلب[(١)]. يقول ياقوت[(٢)]: وقد استعان المسلمون بالجراجمة فى مواطن كثيرة فى أيام بنى أمية وبنى العباس وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة .

ويرى بطرس ضو[(٣)]أن الجراجمة المردة تولوا الدفاع عن النصرانية بعد انهيار حكم الدولة البيزنطية فى سوريا ومايليها من بلدان المشرق ، فى العصور الحالكة التى توالت على تلك البقعة منذ ذلك الحين . والملاحظ أن رأيه مدفوعا بعصبية وكراهية للاسلام والمسلمين ، والصحيح أنه كما اتضح أن حركات الجراجمة لم تكن ذات دوافع دينية ، ولم يظهر مايشير الى خدمتها النصرانية . كما أن تلك الفترة كانت تمثل ازدهار بلاد الشام حضاريا وحرية دينية نالها نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى لم يجدوها فى زمن البيزنطيين ، ومعاملة تميزت بالانسانية ، ومايتلائم مع سمو تطبيق شرع الله على عباد الله بيد المؤمنين .

وقد يتبادر الى الذهن التساؤل هل المردة الجراجمة هم الموارنة؟ والجواب : وقوع الخلاف وكثرة الجدل بين العلماء حول ذلك ، وقال بطرس ضو[(٤)]: الصحيح أن المردة الجراجمة كانوا موارنة دينا وحضارة ولغة ، غير أنهم كانوا من أصل فارسى قدم على سوريا بينما كان الموارنة شعب سورى الأصل .

وعن حركات الموارنة يذكر محمد كرد على[(٥)]قول ابن القلاعى : ان الموارنة كانوا عند دخول المسلمين الشام يسكنون جبل لبنان ، ويتولون

---

(١) عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ص٣٦٦ .

(٢) معجم البلدان ، ١٢٣/٢ .

(٣) تاريخ الموارنة ، ٢٨١/١ .

(٤) انظر عن العلاقة بين الجراجمة المردة والموارنة : بطرس ضو ، نفس المرجع ، ٣٠٢/١-٣١١،٢١٣ ، ١٣-١٤ .

(٥) خطط الشام ، ١٢١/١ .

الجبال والسواحل التى تجاورهم ، وكان أميرهم بقرية بسكنتا(١). وقد نزل الى البقاع فى رجاله ونهبها وقتل الكثير من أهلها ، ولبث أياما فى قب الياس(٢)، فلما انتهى خبره الى عبد الملك ، مكر به حتى قتله وقتل كثيرا من عسكره ، وأحرق القرى ، وأبعد الموارنة من البقاع(٣)، وظلت الحروب ثائرة بين المسلمين والموارنة من ذلك الحين نحو ثلاثين سنة ، ثم ابتنى الموارنة حصنا فوق نهر الكلب(٤)جرت عنده موقعة هائلة .

ولعله يقصد أن تلك المعركة وضعت حدا لتمرد الموارنة ، واذا كان عبد الملك قد حاربهم ، ولعله لم يتمكن من ذلك الا بعد أن استقام له الأمر فى أعقاب قضائه على ابن الزبير سنة ٧٣هـ/٦٩٢-٦٩٣م ، وقد ذكر أن الحرب دامت نحو ثلاثين سنة ، وهذا يعنى أن المعركة الحاسمة تكون قد حدثت فى أواخر عهد يزيد بن عبد الملك أو أوائل عهد هشام .

ونحن لانعرف هل كانت حركة الموارنة زمن عبد الملك خاصة بهم ، أم أنه قصد مشاركتهم للجراجمة فى الخروج على عبد الملك ، لكن المعروف أن حركة الجراجمة قضى عليها نهائيا زمن الوليد بن عبد الملك ولم تدم ثلاثين سنة ، مما يوحى بأن الموارنة فى لبنان كان لهم شأن آخر مع المسلمين بعد القضاء على حركة الجراجمة ، وان كنا نرجح أنهم تعاونوا معا على حرب المسلمين زمن عبد الملك وهم أهل مذهب واحد ، وكان لبنان مسرحا لحركتهم تلك ، وهو موطن الموارنة .

---

(١) لم أجد له تعريفا .

(٢) لم أجد له تعريفا .

(٣) البقاع : موضع يقال له بقاع كلب ، قريب من دمشق ، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق . (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٤٧٠/١) .

(٤) نهر الكلب : بين بيروت وصيدا من سواحل عواصم الشام . (ياقوت ، نفس المصدر ، ٣٢٣/٥) .

* دور نصارى الشام فى الفتن الداخلية خلال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

فى هذه النقطة نتحدث عن دور نصارى الشام فى الفتن الداخلية ، وعن ذلك أمدتنا بعض الروايات عن استعمال الأمويين ، ولاسيما معاوية ابن أبى سفيان وابنه يزيد للنصارى سواء أكانوا من عبيدهم ، أو من رقيق الخمس ، أو من النصارى من القبائل اليمنية الذين لم يكونوا قد اعتنقوا الاسلام ، مثل نصارى قبيلة كلب .

ونحن نذكر هذه الروايات كما هى لأننا لانستطيع اثبات مدى صحتها ولاسيما ماكان خاصا باستخدامهم فى محاربة معاوية لعلى بن أبى طالب فى صفين ، أو فى محاربة يزيد لأهل المدينة فى وقعة الحرة أو فى محاصرة جند الشام زمن يزيد أيضا لعبد الله بن الزبير فى مكة .

ونحن نذكر هذه الروايات نقلا عن المصادر التاريخية ، وسيكون لنا على ذلك رد عند ايرادها وفى نهاية الحديث عن هذه النقطة .

عمل نصارى الشام قبل الفتح الاسلامى لبلاد الشام على الافادة من الفتن الداخلية للنيل من الاسلام وأهله ودولته ، عن طريق تحريك الفتن وتحريض المناوئين وحمايتهم وجعل الشام ملجأ لهم ودفعهم الى محاربة المسلمين والخروج عليهم . وفى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فر الى الشام والتجأ الى النصارى بها ، أبو عامر الراهب وعدى بن حاتم الطائى وكان نصرانيا شريفا فى قومه ، عندما علم بمسير على بن أبى طالب ليهدم الفلس صنم طىء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظل بالشام حتى قدمت عليه أخته بخبر عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فوفد الى النبى عليه السلام ، فأسلم ، وكذلك كنانة بن عبد ياليل الثقفى وعلقمة بن علاثة (١).

---

(١) انظر عن ذلك قبل : ص١١٠ ؛ وأيضا : جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الحروب والفتن الأهلية ، ص١٤٨، ١٧٩ .

كما حاول نصارى الشام استمالة كعب بن مالك أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوه للقدوم عليهم ، ووعدوه بتوفير الملجأ الآمن والحياة المترفة له بالشام ، وذلك عندما تخلف عن غزوة تبوك ، وقاطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون مع من كان معه من المخلفون . لكن الله ثبته ولم يجب دعوتهم ، وعرف قصدهم ، وتاب الى الله وانتظر الفرج ، فتاب الله عليه(١).

وفى عصر الخلفاء الراشدين ، لحق طليحة بن خويلد الأسدى (٢)، الذى تنبأ وارتد عن الاسلام ، لما هزم خلال حروب الردة ، بآل جفنة من الغساسنة بنواحى دمشق بالشام ، ثم تاب وعاد الى جماعة المسلمين بعد وفاة أبى بكر الصديق(٣)، وكان قد استجاب لنداء اليهود فى حمل السلاح ضد المسلمين يوم الأحزاب ، وحاول الدفاع عن خيبر ، ثم أسلم عام ٩هـ/٦٣٠-٦٣١م ، ثم ادعى النبوة ، وتبعه معظم القبائل التى تأثرت بأهل الكتاب ، وقد تأثر بالنصرانية فى أسجاعه وفى العبادات ، ثم لجأ الى قبيلة كلب النصرانية فى الشام بعد هزيمة ، وقد اجتمعت فى حركته المؤثرات اليهودية والنصرانية والوثنية(٤).

---

(١) انظر قبل : ص١١١ ، حاشية ١ .

(٢) طليحة بن خويلد الأسدى ، أسلم سنة ٩هـ ، ووفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد بعد وفاة النبى عليه السلام ، فى عهد أبى بكر ، وادعى النبوة ، وقيل : ادعاها فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وله مع المسلمين وقائع ، ثم خذله الله على يدى خالد بن الوليد ، فهزم وتفرق جنده ، فهرب حتى نزل الشام على آل حفنة ، فأقام عندهم حتى مات الصديق حياء منه ، ثم رجع الى الاسلام ، وحسن اسلامه ، وقد قدم على عمر واعتذر من فعله ، ثم جاهد مع المسلمين وأبلى بلاء حسنا ، كان من الأبطال المذكورين ، وكان يعد بألف فارس قاتل فى اليرموك والقادسية ، واستشهد بنهاوند سنة ٢١هـ . (ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢١/٧-١٢٢) .

(٣) الذهبى ، الخلفاء الراشدون ، ص٨٦ .

(٤) جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الحروب والفتن الأهلية ، ص١٨٠ .

وبعد فتح بلاد الشام وقف أهل الشام وبخاصة القبائل العربية اليمنية وعلى رأسها قبيلة كلب الى جانب معاوية فى اقامة دولته وأصبحوا عماد البيت الأموى الحاكم ، وساندوا مروان بن الحكم فى استعادة سلطان بنى أمية على الدولة الأموية بعد أن أشرفت على الانهيار ، ودعموا الخلفاء فى اخماد الفتن الداخلية .

وكان الخلل فى الجبهة الشامية يعرض الخلافة الأموية للخطر ، وقد ظهر ذلك فى حوادث الفتنة التى أدت الى قتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأدت الى سقوط الدولة الأموية(١). وكان دورهم فى تلك الفترة بصفة العموم ايجابيا اذ شاركوا فى اخماد الفتن ، وعملوا على تحقيق أهداف الدولة وخدمة أغراض خلفائها ، ولماكانت القبائل اليمنية القوة الرئيسية التى ركن الأمويون الى الاعتماد عليها(٢). وهى القبائل كانت قد استوطنت الشام منذ ماقبل الاسلام ، وكانت على النصرانية ، فان الاسلام وان كان قد انتشر بين أفرادها بشكل واسع بعد الفتح الاسلامى(٣)، فان بعضهم كان لايزال على النصرانية ، فمن المتوقع أن يكون أولئك النصارى قد شاركوا ضمن قبائلهم فى ذلك الدور . فقد ذكر أن بعض القبائل قامت جملة كقبيلة كلب وكوحدة متكاملة فى تلك الحوادث(٤). كما نص لامنس على مشاركة النصارى مع من أسلم من قبائلهم(٥).

---

(١) عن دور أهل الشام فى توطيد سلطان بنى أمية ، انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٥٧ ومابعدها .

(٢) انظر : نبيه عاقل ، خلافة بنى أمية ، ص٧٨-٨٠ .

(٣) عن انتشار الاسلام بين نصارى الشام ، انظر قبل : ص١٠٧-١٠٩، ٥٠١ ومابعدها .

(٤) ابراهيم بيضون ، مؤتمر الجابية ، المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص١٥١-١٥٢ .

(٥) رضوان السيد ، الخلافة والملك ، المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص١٢٩-١٣٠ .

ولم يتخذ معاوية موقفه المخالف لعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما ، الا بعد أن شاور القبائل الشامية وضمن وقوفها معه(١). فقاتلت معه فى صفين(٢). لكننا لانستطيع التأكيد على مشاركة من ظل على النصرانية منهم فيها .

لقد كانت القبائل اليمنية الشامية القوة الكبرى فى الجيش الشامى ، والقاسم المشترك فى قيام الحكم الأموى وسقوطه ، فقد كان لقبيلة كلب بزعامة حسان بن مالك بن بحدل(٣)وجذام ولخم وطىء والقين وتنوخ والسكاسك والسكون وغسان(٤)وغيرها ، الدور الرئيسى فى تولى مروان بن الحكم الخلافة لما غلب بهم مناوئيه فى مرج راهط ، وجعلها لولديه من بعده(٥).

كما اعتمد الأمويون على القبائل الشامية فى اخماد حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث(٦)، وحركة يزيد بن المهلب(٧)، وغيرها(٨).

---

(١) انظر : عمر سليمان العقيلى ، خلافة معاوية بن أبى سفيان ، ص٣٣-٣٤ .

(٢) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٠/٥ ومابعدها ؛ عمر سليمان العقيلى ، نفس المرجع ، ص٤١-٤٣ .

(٣) حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف ، أبو سليمان الكلبى ، أمير بادية الشام ، كان من القادة فى جيش معاوية يوم صفين ، ثم آزر مروان فى حربه مع الضحاك بن قيس . قال أحد مؤرخيه : سلم الناس على حسان بالخلافة ، أربعين ليلة ، ثم سلم الأمر الى مروان . (الزركلى ، الأعلام ، ١٧٦/٢-١٧٧) .
قلت : لم يصح أن حسان بويع بالخلافة .

(٤) انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٣٠/٥-٥٣٨،٦١٠ ؛ نبيه عاقل ، خلافة بنى أمية ، ص١٢٢-١٣٠،١٣٣-١٣٥ .

(٥) عن حركة ابن الأشعث انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٣٣٤/٦ ومابعدها .

(٦) عن حركة ابن المهلب ، انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ١١٩/١ ومابعدها .

(٧) شارك أهل الشام فى القضاء على حركات الخوارج فى العراق والمشرق ، عن ذلك انظر : نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٦٩ ومابعدها .

بينما كان قيام القبائل اليمنية فى الشام على الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقتله(١)، والوقوف فى وجه مروان بن محمد والانضمام الى أعدائه(٢)، من أسباب سقوط الدولة الأموية ، واستخدم بنو أمية بعض شعراء النصارى فى خدمة أغراضهم ، وسلطوا ألسنتهم للنيل من خصومهم ، كدفع الشاعر النصرانى الأخطل التغلبى الى هجاء أهل المدينة(٣).

وكان دعم القبائل اليمنية للأمويين ناتجا عن صلة الرحم(٤)، وحفاظا على مكاسبهم التى جنوها من جراء ذلك الدعم ، وحرصا على مصالح الشام الاقليمية(٥).

ونحن لانؤكد مشاركة نصارى الشام مع قبائلهم فى جيش الدولة الأموية الذى عمل على اخماد الفتن ، وقضى على مناوئى الحكم الأموى ، أو الحروب التى حدثت بين أبناء البيت الحاكم . وسنذكر بعض الروايات الصريحة والمبهمة التى تشير الى مشاركتهم فى ذلك ، ولكن كما يبدو ان صحت تلك الأخبار ، أن دورهم كان محدودا ، وأثرهم غير عميق .

فقد ذكر الطبرى ، قتال مولى رومى لمعاوية معه فى صفين وبعض عبيده(٦). لكنه قال مولى ، وتلك اشارة على أنه مسلم ، ولعل أصله رومى

---

(١) عن دور اليمنية فى مقتل الوليد بن يزيد ، انظر : حسين عطوان ، سيرة الوليد بن يزيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٢٩١-٣١٢ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٨٧-١٩٤ .

(٢) عن ذلك انظر : سعدى أبو جيب ، مروان بن محمد ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٣٦ ومابعدها .

(٣) انظر بعد : ص٧١٣ .

(٤) صاهر عثمان ومعاوية وغيرهما من بنى أمية ، قبلة كلب اليمنية ، انظر قبل : ص٢٤٨ .

(٥) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٥٤٤/٥ ؛ البياسى ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، تحقيق شفيق جاسر محمود ، الأردن ، عمان ، بيادر وادى السير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ٢٥٠/٢ ؛ نجدة خماش ، نفس المرجع ، ص١٦٣ محمد كرد على ، خطط الشام ، ١١٥/١-١١٦ .

(٦) الطبرى ، نفس المصدر ، ٢٥/٥-٢٦ ؛ ابن أعثم ، الفتوح ، ١٤٤/٢،١١١،٢٦-٢٧ .

والخبر لم ينص على أنه من النصارى . أما عبيده ، فأولئك لانعلم شيئا عن عقيدتهم فربما كانوا مسلمين ولعلهم كانوا نصارى أو غير ذلك ، ويمكن أن يكونوا أصلا من أهل الشام وقد يكونونو من سواها ، ويمكن أن يكونوا ملك يمين لمعاوية ، أو من رقيق الخمس .

وكان للدولة رقيق يسمى رقيق الخمس أو رقيق الامارة ، وكان معظم رقيق بني أمية منهم ، وقد بلغوا من الكثرة ماجعلهم جماعة ذات شأن وخطر ، ونظرا للأعداد الكبيرة للعبيد فى الشام ، عين منذ خلافة سليمان بن عبد الملك رجال يتولون أمر الرقيق ، فقد عين عبد الله بن عمرو ابن الحارث مولى بنى عامر بن لؤى على بيوت الأموال والخزائن والرقيق والنفقات (١).

وذكر ارسال أحد نصارى تغلب من الشام من قبل أحد أتباع على وكان قد لحق بمعاوية الى أخيه بالعراق وكان من المناصحين لعلى يدعوه للحاق به ، ويخبره بدعوة معاوية له ، ووعده بالكرامة والامارة ، فدفعه الرجل الى على ، فقطع يده فمات (٢).

لكن جميل المصرى يذكر أن نصارى الشام شاركوا فى جيش معاوية بصفين فى قتال على بن أبى طالب ، وأن أهل الكتاب قد هيئوا أهل الشام لعداوة على ، وأنهم عملوا على ايقاع الفتنة بين المسلمين وحرضوا على القتال وأن منهم من انضم الى على أيضا (٣). لكنه لم يقدم أدلة صريحة على ماذكر .

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٥١-١٥٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٣٠/٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٨٦/٣-١٨٧ .

(٣) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص٢٨١-٢٨٤،٢٨٢-٢٨٥ .

كما يذكر أن معاوية لما بلغه مسير مالك الأشتر[(١)] الى مصر من قبل على بن أبى طالب ، وقد أمره عليها ، وكان معاوية قد طمع فى مصر ، عظم عليه أمر ولاية الأشتر لها ، لما يعرفه من كفايته ، وأنه سيحول دون مايريد فأغرى دهقانا من أهل الخراج ، أن يحتال فى قتل الأشتر ، عى أن يترك له خراجه عشرين سنة ، فأقام الدهقان بالعريش[(٢)]، فلما مر عليه الأشتر سقاه سما فى عسل فمات من ساعته[(٣)].

وقيل : أن معاوية بن أبى سفيان دفع طبيبه ابن أثال النصرانى[(٤)] الى الاحتيال فى قتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[(٥)] لما خاف ميل أهل الشام اليه بعد أن عظم شأنه ولأثر أبيه وشدته وغنائه فى حرب الروم ، ذلك أن معاوية لما كبرت سنه أراد أن يبايع لابنه يزيد ، فأخبر أهل الشام أنه يريد أن يولى الأمر رجلا ، واستشارهم ، فقالوا عليك بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان فاضلا ، فسكت معاوية ، وأضمرها فى نفسه ،

---

(١) الأشتر مالك بن الحارث النخعى ، أحد الأشراف والأبطال المذكورين ، حدث عن عمر وخالد بن الوليد ، وفقئت عينه يوم اليرموك ، وكان شهما مطاعا زعرا ، ألب على عثمان وقاتله ، وكان ذا فصاحة وبلاغة ، وشهد صفين مع على ، وتميز يومئذ ، وكاد أن يهزم معاوية ، بعثه على بعد صفين عاملا على مصر ، فمات فى الطريق مسموما ، قيل : عارضه عبد لعثمان فسم له عسلا . وكان على ينبرم به ، لأنه كان صعب المراس . انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣٤/٤-٣٥ .

(٢) العريش : مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (المتوسط) . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ١١٣/٤-١١٤) .

(٣) ابن حبان ، السيرة ، ص٥٤٨ ؛ البياسى ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، ١٢٨/١-١٣٠ .

(٤) انظر حديثنا عنه فى الحياة العلمية ، بعد : ص٦٩٣ .

(٥) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد القرشى المخزومى ، من الشجعان المعروفين والأبطال المشهورين كأبيه ، وكان قد عظم قدره ببلاد الشام حتى خاف منه معاوية ، وقيل : أدرك النبى عليه السلام ، وحفظ عن معاوية ، وشهد صفين معه وكان يلى الصوائف ، وقد مات مسموما سمه ابن أثال النصرانى . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٢/٨ .

فاشتكى عبد الرحمن ، فدعا معاوية بن أثال وطلب منه أن يأتى عبد الرحمن ويحتال فى قتله ، فسقاه شربة فانخرق فمات سنة ٤٦هـ/٦٦٦م ، فبلغ الخبر ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بمكة ، فأخذ مولى له رومى وانطلق الى الشام فقعد لابن أثال وهو خارج احدى الليالى من عند معاوية فقتله ، فقبض عليه معاوية ، وجلد مولاه مئة سوط ، وقضى فى ابن أثال باثنى عشر ألفا ، فودتها بنو مخزوم ، وأخرجه من دمشق ، فأخذ منها معاوية ستة آلاف أدخلها فى بيت المال ، فلم تزل الدية فى المعاهدين كذلك ، حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فأبطل النصف الذى يأخذه السلطان(١).

وقد أنكر الامام ابن كثير صحة نسبة الأمر الى معاوية(٢).

ومع ورود هذه الأخبار المنسوبة الى معاوية فى قتل الأشتر وعبد الرحمن ، فاننا لانعتقد صحتها ، وقد سبقنا ابن كثير الى انكار نسبة قتل عبد الرحمن الى معاوية ، حيث أن هذا الأمر لايتوافق مع روح العصر ، ولم يكن عبد الرحمن المنافس الوحيد ليزيد على الخلافة بل هناك من هو أحق بها منهما فى الشام وغيره ، كما أن هذا العمل لايمكن قبوله عن أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضى الله عنهم أجمعين ، وربما

---

(١) انظر عن هذا الخبر : المصعب الزبيرى ، كتاب نسب قريش ، نشره وصححه وعلق عليه أ.ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص٣٢٧-٣٢٨ ؛ ابن حبيب ، المنمق فى أخبار قريش ، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٣٦٠-٣٦٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٢٧/٥-٢٢٨ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص١٤٧ . (لم يذكر قصة موته ، ولكنه ذكر عند حديثه عن ذرية الوليد بن المغيرة ، أن من أولاد خالد بن الوليد المهاجر ، وأن عبد الرحمن بن خالد عقب المهاجر ، وولد المهاجر خالد . وهذا يعنى أن هناك غير خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد ، خالد بن المهاجر بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . لكنه لم يذكر أنه قتل ابن أثال) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٢٥/٣ ؛ البياسى ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، ٢٩٦/١-٢٩٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٢/٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

كان غرض هذه الروايات الاساءة الى بنى أمية . لكن هناك شبه اجماع من المصادر على أن عبد الرحمن سمه ابن أثال ، فهو قاتله ، بصرف النظر عن نسبة هذا الأمر لمعاوية .

ويروى مايشير الى دور سرجون بن منصور الرومى من نصارى الشام فى فتنة مقتل الحسين بن على بن أبى طالب ، فيذكر أن يزيد لما علم بقدوم مسلم بن عقيل بن أبى طالب الكوفة لأخذ البيعة للحسين بن على ، سأل شيعة بنى أمية فى الكوفة يزيد أن يوليها أميرا قويا غير النعمان بن بشير الذى كان قد ضعف ، فاستشار يزيد سرجون بن منصور ، فأشار عليه أن يجمع الكوفة مع البصرة لعبيد الله بن زياد ، فأخذ برأيه مع أنه كان عاتبا على عبيد الله ، وضم له المصرين(١).

وذكر أن نصارى الشام شاركوا فى جيش يزيد بن معاوية فى قتال أهل المدينة بموقعة الحرة(٢). وبالنظر فى ماذكره الطبرى عن جيش يزيد ، وجدته قال : "فخرج مناديه فنادى : أن سيروا الى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل"(٣). وهذا النص يدل على أنه استدعى أهل العطاء وهم المسلمون ، فلاعطاء لذمى . ولم أجد فى تتبع أخبار موقعة الحرة ذكرا لقتال النصارى مع جيش يزيد ، الا ماذكر من أن راية مسلم بن عقبة قائد جيش الشام كانت مع غلام له يدعى : "رومى"(٤)، وقيل : غلام

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٣٥٦/٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢٦٨/٣ . (وقد ذكر ابن الأثير أنه أشار بذلك اعتمادا على أن معاوية أمر بجمع المصرين له قبل مماته وأخرج كتاب معاوية ، فأنفذه يزيد) .

(٢) جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص٤٩٦-٤٩٧ ؛ نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص١٠٩-١١٠ .

(٣) نفس المصدر ، ٤٨٣/٥ .

(٤) الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٨٨/٥ .

رومى[(١)]. ولعله من أصل رومى ولكنه مسلم .

كما ذكر الطبرى رواية تشير الى قتال رجل يظن أنه رومى وآخر من العبيد فى جيش يزيد بن معاوية فى حرب عبد الله بن الزبير بمكة[(٢)]. والرواية تثير الشك فى أصلهما ولم تصرح بنصرانيتهما .

كما أسهم العبيد فى تمكن مروان بن الحكم من دمشق لما حارب الضحاك بن قيس الفهرى . فيذكر أنه لما خرج مروان الى الجابية ومنها نزل على مرج راهط ، للقاء الضحاك ؛ كان يزيد بن أبى النمس الغسانى لم يشهد الجابية ، وكان مختبئا بدمشق فثار يزيد بن أبى النمس بأهل دمشق فى عبيدها فغلب عليها ، وأخرج عامل الضحاك منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال وبايع لمروان وأمده بالسلاح[(٣)].

ويظل هؤلاء العبيد موضع تساؤل أيضا ، أهم نصارى أم مسلمين أم غير ذلك ، وهم من أهل الشام أم لا؟!

ويذكر صالح الحمارنة[(٤)]: "أن مروان بن الحكم استعان بمائتى رجل من أهل أيلة وهم نصارى لضبط المدينة المنورة ، وأن أهل الذمة كانوا يؤثرون الخدمة الحربية على دفع الجزية" .

وصحيح أن أهل أيله كانوا نصارى لما صالحهم الرسول صلى الله عليه وسلم[(٥)]، لكن هذا لايعنى أن مروان بن الحكم استعان بمائتى نصرانى منهم ، واعتقد ان صح الخبر أنهم كانوا ممن أسلم من أهل أيله ، فان مرور نحو ٥٥ عاما منذ صالحهم النبى عليه السلام حتى زمن مروان كفيل باسلام الكثير

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٣١٣/٣ ؛ البياسى ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، ١١٩/٢-١٢٠ .

(٢) تاريخ الأمم ، ٥٧٦/٥-٥٧٧ .

(٣) الطبرى ، نفس المصدر ، ٥٣٧/٥ .

(٣) المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٥ ؛ وانظر أيضا : شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٧٦ .

(٤) صولح نصارى أيلة فى غزوة تبوك سنة ٩هـ ، انظر قبل : ص١٠٠ .

منهم . وقام نحو من ألف من عبيد عمرو بن سعيد الأشدق للذب عنه ، لما قبض عليه عبد الملك بن مروان ، فقتله ، ففرق عبد الملك فيهم المال فانفضوا(١).

كما انضم كثير من النبط النصارى وعدد من أباق عبيد المسلمين الى الجراجمة فى حربهم لعبد الملك بن مروان ، فتمكن سحيم بن المهاجر الرومى أن يستميل عبيد أهل الشام الذين انضموا الى الجراجمة ، فقاتلوا معه ، وأعطيوا الحرية ، وأثبت المسلم منهم فى الديوان ، وجعلوا ربعا على حده ، وهم الذين يسمون الفتيان(٢).

وفى حركة يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، تشير خطبته الى اشتراك فئات من نصارى الشام فى جيش مسلمة بن عبد الملك ، من جراجمة وجرامقة وانباط وزراعون ، وصقالبة(٣). كما يذكر مشاركة الصقالبة بقيادة رجل يقال له سلساق والعبيد المماليك فى الحروب التى جرت بين الخليفة مروان بن محمد وابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك(٤). كما استعان مروان بن محمد بالعبيد فى حرب الخوارج بزعامة الخيبرى سنة ١٢٧هـ/٧٤٤-٧٤٥م ، وبالفعلة لقطع الأشجار من أجل عقد الجسور فى حربه لسليمان بن هشام(٥).

وشهدت بلاد الشام فى العصر الأموى فتنة العصبية القبلية التى شب أوارها فى أعقاب مرج راهط ، بين القبائل القيسية واليمنية ، وكان متنصرة الشام جزءا من تلك القبائل ، فعمل نصارى الشام على ايقاد روح العصبية وبخاصة بعض شعرائهم ، ونتيجة لذلك حدث عدد من المعارك بين العصبيتين

---

(١) البياسى ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، ٢/٤٤٦-٤٤٧ .
(٢) انظر قبل : حركات نصارى الشام ، ص٥٢٧ .
(٣) انظر : عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٧٢٠-٧٢١ .
(٤) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٧/٣٢٤،٣٢٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٤/٢٨٧ .
(٥) نجدة خماش ، الجيش الشامى ، ص٣٦٢-٣٦٣ .

وبخاصة بين كلب وتغلب ، والذى تحول من خلاله الصراع بين الأمويين والزبيريين الى صراع قبلى خفت فيه صوت الاسلام ، وظهرت فيه بشاعة العصبية القبلية ، وصور من الوحشية التى لم يعرفها العرب فى الاسلام ولاقبله ، ولكنها كانت مألوفة بين أهل الكتاب فى الشام ، كقتل الأسرى ، وبقر بطون النساء ، وغير ذلك ، واستمرت العصبية وآثارها حتى استطاع عبد الملك بن مروان التخفيف من غلوائها بايجاد شىء من التوازن فى معاملة الدولة لتلك القبائل ، وان لم يتمكن هو ومن جاء بعده من القضاء عليها(١).

وبعد أن عرض جميل المصرى لدور أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، قال : "وهكذا نجح أهل الكتاب فى اثارة الفتن بين المسلمين ، نجاحا لم يتمكنوا منه بمصادمة المسلمين وجها لوجه ، وأخذوا ينظرون ويفركون أيديهم فرحا وهم يرون طاقة المسلمين تهدر بينهم فيما لاطائل وراءه"(٢).

والذى أراه أن نصارى الشام من العرب ، وقد أصبحوا قلة ضمن الأكثرية ممن أسلم من قبائلهم ، وأن اشتراكهم ضمن قبائلهم فى حوادث الفتن الداخلية أمر لانؤكده فأدلته التى أشرنا اليها محدودة وضعيفة ، كما لانستطيع نفيه قطعيا ، فتلك قرائن على مشاركتهم ، وهو أمر متوقع اذ يسنده ماتوافر لدينا من معلومات على مشاركتهم فى الجيوش الاسلامية خلال حركة الجهاد الاسلامى ضد الروم(٣). فان صح اشتراكهم مع قبائلهم ، فان دورهم

---

(١) عن ذلك ، انظر : ابراهيم بيضون ، مؤتمر الجابية ، ص١٧٦-١٩٠ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٦٧-١٦٨ ؛ نبيه عاقل ، خلافة بنى أمية ، ص١٥٨-١٦٠ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص٤٦٢-٤٧١ ؛ ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص٩٤،٩٥،٢٠٠ ؛ يوسف العش ، الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، دمشق ص٢٣٧-٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص٢٩١ .

(٣) انظر دورهم ذلك فى النقطة التالية .

ظاهرا أخذ دور قبائلهم ، وهو الوقوف الى جانب بنى أمية فى اقامة دولتهم وحرب مناوئيهم ، وان كان قد انقلب فى آخر عمرها وكانت تلك القبائل حربا عليها وسببا من أسباب سقوطها . ونحن لانبرىء بعض أولئك النصارى من غش المسلمين والكيد لهم والعمل على ايقاد الفتن بينهم لعلمنا بعدم رضاهم عن المسلمين ، لقول الله تعالى {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم** ...}(١)، لكن دورهم فى ذلك لم يكن المحرك الحقيقى لما حدث من فتن فى تلك الفترة . أما نصارى الشام من غير العرب ، فقد أسرهم عدل المسلمين وتسامحهم ، وكذلك الأمن والرخاء الذى عاشوه فى ظل الحكم الاسلامى ، فلم تبرز روح الحقد على مسرح الحوادث التاريخية ، وماكان من بعضهم من أعمال عدوانية ضد المسلمين ودينهم ودولتهم ، لم يكن أيضا فى تلك الفترة خطيرا ولارئيسا فيما حدث من فتن وحروب أهلية آنذاك ، وكانت هيمنة الدولة وغلبة المسلمين فى ذلك الوقت ، قد كبتت حقد نصارى الشام على المسلمين ، ولم تدع له متنفسا كافيا فى الايقاع بين المسلمين ، وأن ماحدث فى تلك الفترة من حروب وفتن كانت ناتجة فى الغالب عن أسباب خاصة بالمسلمين ، لكن دور نصارى الشام فيها لاينكر ، غير أنه كان ثانويا لارئيسا ، والله أعلم .

وعلى الرغم من أن الشام أصبحت مركز الدولة الاسلامية ، الا أننا لانعرف كثيرا عن الأحوال الداخلية لبلاد الشام ، وبالأخص فى عهد معاوية لأن الاهتمام كان موجها فى هذه الفترة الى بلاد العراق والمشرق(٢). وتظهر صورة الأحوال الداخلية لبلاد الشام فى العصر الأموى غامضة ، اذ ينصب اهتمام المؤرخين على حوادث الفتح وأخبار الفتن الجارية خارج بلاد الشام ، الا ماكان من أخبار الحوادث الكبرى التى رافقت الفتنة فى أعقاب موت معاوية الثانى ، ومقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وهذا فى الحقيقة ليس اهمالا من المؤرخين لأخبار بلاد الشام ، وانما يوحى ذلك باستقرار الوضع الداخلى بصفة العموم فى بلاد الشام . فما حدث من فتن بلاد الشام فى بعض الفترات القصيرة من عمر الدولة الأموية ، وجدنا أخبارها واضحة جلية فى المصادر التاريخية .

---

(١) البقرة ، آية : ١٢٠

(٢) Hugh Kennedy : op. cit, p.171 .

* موقف نصارى الشام من الجهاد الاسلامى تجاه البيزنطيين :[١]

حددت عهود الصلح الموقف الذى يجب على نصارى الشام اتخاذه . فألزمتهم بصدق الولاء للدولة الاسلامية ، وذلك بعدم التجسس على المسلمين وكشف عورتهم لأعدائهم ، أو ايواء جواسيس الأعداء وعونهم وممالأتهم بل ألزمت عهود الصلح بعض نصارى الشام وخصوصا من لهم شوكة ممن يقطنون مناطق الثغور كالجراجمة أن يكونوا أعوانا وعيونا ومسالح للمسلمين[٢]

غير أن بعض نصارى الشام لم تكن تلك العهود تنطبق عليهم ، أو تنظم علاقتهم بالمسلمين ، وتحدد موقفهم من الجهاد ضد الروم ، وهم أولئك الذين فروا من وجه الفاتحين المسلمين ولجأوا لأرض الروم ، أو أجلاهم الروم من بلاد الشام . فظلوا بأرض الروم ، وتصدوا لحركة الجهاد الاسلامى من هناك ، امتدادا لموقفهم العدائى السابق من الفتح والحكم الاسلامى ، كبعض متنصرة العرب من الغساسنة واياد وغيرهم ، والروم وهم كثر ، فان بعض الحملات الاسلامية لما وصلت الى آسيا الصغرى من أرض الروم ، تصدت لها القوات البيزنطية ، وكان ممن تصدى للمسلمين الى جانب الروم بعض متنصرة العرب[٣].

أما نصارى الشام الذين بقوا بأرض الشام على مختلف أجناسهم ومذاهبهم ، فانه من خلال قراءة الأخبار المتعلقة بالجهاد الاسلامى ضد الروم ، يندر أن يجد الباحث بينها مايشير صراحة الى موقف نصارى الشام منه . والأخبار التاريخية الصريحة المتوفرة حول ذلك ، ومايمكن أن نفهمه

---

(١) نقصد موقفهم من الجهاد الاسلامى ضد الروم بعد خروجهم من كل بلاد الشام ، سواء من الحملات الاسلامية الى أرض الروم ، أو التصدى لحملات الروم التى استهدفت الاسلام وأهله ببلاد الشام .

(٢) انظر ماتضمنته عهود الصلح من ذلك ، قبل : ص١٨٩-١٩٠ .

(٣) انظر ذلك قبل : ص٤٨٢-٤٨٣ .

من قراءة حوادث الغزوات الاسلامية بأرض الروم[١]، وان لم تصرح بدور النصارى ، فانها توحى على العموم بموقف ايجابى ، أو على الأقل موقفا محايدا من الصراع بين المسلمين ونصارى الروم[٢]. ويشذ عن العموم فئة قليلة تأخذ موقفا عدائيا يتسم بالميل الى الروم والتعاون معهم ، وخصوصا فى مناطق الثغور ، اما طوعا وولاء ، نتيجة لرابطة الدين والجنس واللغة ، أو تبعا للمصلحة والميل مع ميل ميزان القوى ، أو كرها حيث أن وجود تلك الفئة المنحازة للروم بالمناطق الحدودية يفيد بأن بعضهم كانوا مكرهين على ذلك الموقف ، بضغط من الروم ، أو خشية من مغبة وقوعهم تحت طائلة يد الروم ، ان تمكنوا من الوصول الى بلدانهم الحدودية ، بالاغارة أو الاستيلاء ، خصوصا فى الفترة الأولى من الحكم الاسلامى التى شهدت كثيرا من الحملات الرومية على الثغور الاسلامية برا وبحرا[٣]، وذلك قبل تحصين الثغور[٤]، وبناء الأسطول الاسلامى[٥].

---

(١) بدأت الغزوات الاسلامية لأرض الروم من بلاد الشام فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، والمسلمون لم يستكملوا فتح بلاد الشام بعد . (انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٨-١٦٩ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٠٢/٣) ؛ واستمرت طوال فترة البحث ، بقية عصر الراشدين والأمويين ، عن تلك الفتوحات ، انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦٨-١٧٢ ؛ ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٤٣-١٦٧ .

(٢) ونحن نقرأ مثلا ماكتبته نجدة خماش عن دور أهل الشام فى الفتوح ، لانجد تصريحا لدور النصارى فى حركة الجهاد ضد الروم . انظر : الشام فى صدر الاسلام ، ص١٩٥-٢٠٦ .

(٣) انظر : علية عبد السميع الجنزورى ، الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص٢٠-٧٤ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية لابيزنطية ، ص٨-١٢٨ .

(٤) عن تحصينات الثغور زمن عمر وعثمان ومعاوية وغيرهم ، انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٤-١٣٥،١٤٨-١٤٩،١٥٣،١٦٦ .

(٥) عن الأسطول الاسلامى ، انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ٣٥/٥-+٤٢ ؛ أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م ، مؤسسة شباب الجامعات ، الاسكندرية ، ص١٧ ومابعدها .

ولما استكمل المسلمون تحصين الثغور ، وأنشأوا الأسطول ، وتمكنوا من حماية بلاد الشام من غائلة الروم ، وأمن أهل تلك البلدان من نصارى الشام خطر الروم ، لم نعد نلمس لهم تعاونا مع الروم ضد المسلمين . ويبرز أثر الخلاف المذهبى ، فى تحديد موقف نصارى الشام من الجهاد الاسلامى ضد الروم ، اذ يظهر أن غالب من مال الى الروم ، هم الملكانيون أتباع مذهب الطبيعتين مذهب امبراطور بيزنطة وكنيستها . فان من يراجع تواريخ فرق اليعقوبية والنسطورية يقف فيها على عدة شهادات ناطقة بتحريهم للاسلام ، وانتصارهم على النصرانية البيزنطية(١).

فلقد كان الجراجمة الموارنة عقبة فى طريق الجهاد الاسلامى ضد الروم فلما انفصلوا عن كنيسة بيزنطة ، لم يعودوا أداة رومية للنيل من المسلمين(٢). ونتيجة للموقف الايجابى لليعاقبة فى الشام ، نالوا رضا الدولة الاسلامية(٣). ويبدو أن المسلمين قدروا ذلك كثيرا وانعكس على معاملتهم حتى للسريان الذين يعيشون خارج الدولة الاسلامية ، فيذكر أن سليمان بن عبد الملك ، أطلق سراح الأسرى السريان الذين وقعوا فى الأسر مع بعض الروم ، عند استيلاء قواته على بعض المدن البيزنطية فى آسيا الصغرى ، مما يدل على أن المسلمين لم يكونوا ينظرون للسريان كأعداء(٤).

لقد استدعت حركة الجهاد ضد الروم حماية مركز الدولة فى الشام القريب من حدود بيزنطة ، وذلك بتحصين الثغور البرية والبحرية ، بناء وترميما ، واقامة الأربطة والمناظر والمسالح والحصون والأبراج والمواقيد ، وترتيب المقاتلة بها ، وانزال عناصر سكانية لاعمارها ، وشحنها بالميرة والسلاح ، لمواجهة الحملات الرومية على حدود الدولة الاسلامية ، التى

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٣٤-١٣٦ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٢٠-١٢١ .

(٢) انظر قبل ، حركات الجراجمة ، ص٥٣١ .

(٣) انظر قبل : ص٣٨٨-٣٩١ .

(٤) Jean Maurice Fiey : op. cit, p.18 .

جاءت محاولـة لاستعادة بلاد الشام من يد المسلمين ، أو كـردة فعل للغزوات الاسلاميـة التى وجهت الى أرض الروم ، وكذلك لعدم الثقـة والاطمئنان فى أهل السواحل من أهل البلد الذين ظل موقفهم مذبذبا بين المسلمين والروم ، كما أن بعض الثغور خربها الروم عند خروجهم من الشام ، وأجلوا أهلها عنها ، أو فروا منها ولحقوا بأرض الروم خوفا(١).

وقـد شـرع المسلمون فى الاهتمـام بالثغـور منذ زمـن عمـر بن الخطاب الذى أمر أبا عبيدة ، ومعاوية مـن بعده بذلك(٢). غير أنه لم يأذن لمعـاوية بركوب البحر لما عرض عليـه ذلك(٣)، وكـان المسلمون كلما فتحـوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل ، رتبوا فيهـا قوة لحفظها(٤). فلما استخلف عثمان أمر معـاوية بتقوية الثغـور ، وأذن له بركـوب البحـر(٥). وسـار بنـو أمية على النهـج ذاته ، وكان لمعاوية اليـد الطولى فى هذا الميـدان ، وكـان عمله وهو خليفـة امتـدادا لجهـده زمـن عمـر وعثمـان(٦)، وكـذلك عبـد الملـك بن مروان(٧)، وابنـه الوليـد(٨)، وعمـر بن عبـد العـزيز(٩)، ويزيد بن

---

(١) انظـر قبـل : مـوقف نصارى الشـام مـن الحكـم الاسلامى ، ص٤٧١ ؛ البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ص١٦٨ ؛ أحمد مختـار العبادى والسيد عبـد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص٣٠ .

(٢) انظر عن ذلك : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٤،١٥٣،١٥٤،١٥٥ .

(٣) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٤ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٥٨/٤-٢٥٩

(٤) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر والصفحة .

(٥) انظـر : البلاذرى ، نفس المصـدر ، ص١٣٤-١٣٥،١٥٣ ؛ الطبرى ، نفـس المصـدر ، ٢٦٠/٤ .

(٦) انظـر : البلاذرى ، نفس المصـدر ، ص١٣٩-١٤٠،١٤٨،١٥٣ ؛ أحمـد مختـار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ص٢٠ .

(٧) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٨-١٤٩،١٥٠،١٦٩ .

(٨) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٥٣،١٧٢ .

(٩) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٩ .

عبدالملك[١]، وهشام بن عبد الملك[٢]، ومروان بن محمد بن مروان[٣].

ثم شرع المسلمون فى بناء الأسطول الاسلامى ، فى سواحل مصر والشام ، معتمدين على خبرة أهل البلاد البحرية[٤]. فأهل الشام وبالذات سكان السواحل اللبنانية من صور وصيدا جنوبا الى جبيل وطرابلس شمالا قد برعوا فى صناعة السفن وتمرسوا فى ركوب البحر . كما اعتمد معاوية أيضا على العرب اليمنيين وخاصة بنو سليح من قضاعة الذين كانوا قد استقروا فى الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة ، والغساسنة أيضا كان لهم ضلع فى قيام البحرية الاسلامية ، الذين كان منهم جالية تسكن مدن ساحل بلاد الشام الى مابعد الفتح بأمد ليس بالقصير ، وأسهمت بفاعلية فى صناعة الأسطول ، وقيادته والقتال مع المسلمين فى البحر[٥].

لقد حارب بعض نصارى الشام الى جانب المسلمين فى جهادهم ، فنجد ذكرا لهم فى بعض الغزوات[٦]، وخدموا المسلمين كأدلاء وعيون وجواسيس[٧]. ولم يقتصر دورهم على بناء الأسطول ، وصيانته ، وخدمته ، وقيادة سفنه ، وانما بالمشاركة فى قتال الروم فى المعارك البحرية كذات الصوارى ، أو فتح جزر البحر الأبيض المتوسط ، وغزو القسطنطينية ، أو

---

(١) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٧١ .
(٢) انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٧٢،١٧١ .
(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٧٠ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٣٠٨ .
(٤) عن نشأة الأسطول ، انظر : البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٤-١٢٥ ؛ أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص١٨ ومابعدها ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٣٥/٥ ومابعدها ؛ ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٧٠-٧٢ ؛ وانظر أيضا بعد : الصناعة ، ص٥٩١ ومابعدها .
(٥) أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ص٢٥-٢٦،١٨،٢٧ ؛ عمر تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ، ص٣٦٢-٣٦٤ .
(٦) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٧٠/٧ > وانظر قبل : ص٢٦٣-٢٦٤،٤٩٢-٤٩٣ .
(٧) انظر قبل : ص٢٦٢-٢٦٣ .

الذود عن سواحل بلاد الشام[١].

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين من ركوب البحر فى بدء أمرهم وسبب الاستعانة بالعجم فى بناء الأسطول وخدمته ، بأن العرب لم يكونوا يملكون الخبرة بركوبه وثقافته ، بينما كان الروم يملكون ذلك ، وأنه لما استقر حكم العرب وصار لهم العجم تبعا ، وتقرب كل ذى صنعةمنهم بصنعته اليهم ، واستخدموا النواتية فى حاجاتهم البحرية ، وتكررت ممارستهم البحر ، وكسبوا ثقافته ، تاقت أنفسهم للجهاد فيه ، فأنشأوا الأساطيل ، فى البلدان الواقعة على ضفافه كالشام[٢]. غير أن اعتماد المسلمين على غيرهم فى صناعة الأسطول وقيادته وخدمته لم تدم طويلا ، فان احراق بعض نصارى الشام ممن كان معاوية زمن عثمان قد ائتمنهم واعتمد عليهم[٣]فى صناعة السفن وقيادتها ، أفقدهم الثقة فيهم ، فتعلم العرب ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ، ثم اعتمدوا على أنفسهم ، ومع هذا كان أكثر البحرية الذين تكلفوا غزو الروم من أهل الاسلام[٤].

كما أن تحصين الثغور ومااستدعاه ذلك من بناء بعض المدن والقلاع والحصون والمنارات وترميمها ، ليكون بمثابة أسوار لدار الاسلام فى وجه هجمات الروم على حدود الدولة الاسلامية وقواعد انطلاق للمجاهدين الى أرض الروم ، استلزم الاستعانة بأهل الصنعة من نصارى الشام ، حيث ركن المسلمون فى بادىء نشاطهم العمرانى حربيا كان أو مدنيا على حد سواء ، على المهرة من المهندسين والبنائين والفعلة من نصارى الشام ، وذلك لانشغالهم بأمر الجهاد ، وقلة خبرتهم فى هذا المجال ، وشح أهل الحرف

---

(١) انظر : ابن أعثم ، الفتوح ، ٣٤٧/١-٣٤٩،٣٥٩ ؛ عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق (لبنان) ، ص٣٦٢-٣٦٤ ؛ عمر تدمرى ثغور بلاد الشام ، ص٣٤٥ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٣٤/٥ .

(٣) انظر ذلك بعد : ص٥٥٨ .

(٤) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٣٧/٥ .

والصناعات بين العرب[١].

وعلى قدر اهتمام الخلفاء المسلمين باختيار رسلهم الى الروم من أهل الثقة والفطنة والكياسة وصدق الولاء ، وغيرها من الصفات الواجب توفرها فى الرسول الذى يمثل الدولة ، ويفاوض الأعداء على بعض المصالح الحيوية كعقد صلح أو هدنة أو فكاك أسرى وغير ذلك[٢]؛ اتخذ بعض الخلفاء الأمويين رسلهم من نصارى الشام ، فيذكر أن الرسول الذى اختلف بين معاوية وامبراطور الروم ، لما عزم على غزو الشام خلال الفتنة بين على ومعاوية ، ونجح فى توقيع صلح كف به امبراطور الروم عن عزمه ، مقابل أداء معاوية مائة ألف دينار اليه ، غلام كان لمعاوية يدعى : "فناق الرومى"[٣]. وينقل عمر تدمرى رواية للمنبجى أن رسول معاوية الى أهل الجزيرة أرواد[٤]لما نزل عليها غازيا كان أسقفا يقال له : "توما"[٥].

والتقى المسلمون بالصقالبة[٦]فى بلاد الشام كجند فى القوات البيزنطية

---

(١) عن دور النصارى فى الصناعة والعمارة ، انظر بعد : ص٥٨٦ ومابعدها ، ص٦٤٦ ومابعدها .

(٢) عن الاهتمام بالرسل ، انظر : ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٢١٥ ومابعدها .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ٣٢٩/١ ؛ عمر عبد السلام تدمرى ثغور بلاد الشام ، ص٣٢٥-٣٢٦ .

(٤) أرواد : اسم جزيرة فى البحر قرب القسطنطينية ، فتحها المسلمون سنة ٥٤هـ . (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٦٢/١) .

(٥) عمر عبد السلام تدمرى ، نفس المرجع ، ص٣١٩ .

(٦) الصقالبة : جيل حمر الألوان ، صهب الشعور ، يتاخمون بلاد الخزر فى أعالى بلاد الشام ، وقيل : كانت مساكنهم بين بلاد البلغار والقسطنطينية ، وقد انتشروا فى بلاد أوروبا الشرقية وروسيا ، ويسمون بالسلاف ، والذين قدموا الشام هم أجداد الشعوب السلافية التى تقطن حاليا أوروبا ، والسلاف جمع ينتمون الى الشعوب الهندية الأوربية التى استقرت بأوروبا منذ أقدم العصور ، ومواطنهم فى القديم منطقة السهول والغابات الواقعة الى الشمال الغربى من البحر الأسود =

التى تصدت لهم عند فتح الشام[1]، وخلال حركة الجهاد الاسلامى ضد الروم مالت جماعة من النصارى الصقالبة الى المسلمين ، ففرت من جيش الروم وانضمت اليهم ، فأنزلوهم الشام ، وأضحوا قوة أسهمت بفاعلية مع الجيش الاسلامى . فيذكر ثيوفانس ضمن أحداث سنة (٦٦٤م/٤٣-٤٤هـ) أن مجموعة من المقاتلين الصقالبة فى جيش الروم ، هربوا من صفوف الروم وانضموا الى المسلمين الذين كانوا فى غزوة بأرض الروم ، بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فأخذهم معه الى الشام ، فأنزلهم الخليفة معاوية قريبا من مدينة أفامية بشمال الشام ، وذلك بقرية حملت على أغلب الظن اسم الصقلبية[2]. وبعد سبعة وعشرين عاما من وصول المجموعة الأولى من الصقالبة الى الشام ، وصلت مجموعة أخرى منهم كبيرة العدد ، وذلك سنة (٦٩٣م/٧٣-٧٤هـ) عندما نقض جستنيان الثانى الهدنة التى بينه وبين عبد الملك على أثر مشكلة القراطيس فالتقى المسلمون بالروم فى معركة سيباستوبوليس[3]، وخلال المعركة انفصل عن جيش الروم عشرون ألفا من الصقالبة ، وانضموا للمسلمين مما أدى الى هزيمة الروم هزيمة ساحقة ، فأنزلهم الخليفة عبد الملك بنواحى انطاكية وقورس[4]، الى جانب من أسر

= ومن هناك شمالا على سفوح جبال الكربات وحوض الفستولا الى سواحل بحر البلطيق وأخذ العرب تسمية الصقالبة عن اسكلابوى واسكلابينوى الاسم الذى أطلقه عليهم البيزنطييون . انظر : (الفزارى ، السير ، حاشية ١١٦ ص١٤٧-١٤٨ ؛ صلاح الدين عثمان هاشم ، الصقالبة ، ص٢١٨-٢١٩) .

(١) صلاح الدين عثمان هاشم ، نفس المرجع ، ص٢٢٧ .

(٢) صلاح الدين عثمان بن هاشم ، نفس المرجع ، ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٣) سيباستوبوليس : معركة حدثت فى أرمينية سنة ٧٣هـ بين المسلمين والروم ، انتصر فيها المسلمون ، وتسمى سيباستوبوليس الآن (سولوساراى) . انظر عن ذلك : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص١٨٦ ؛ أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، ص٨١-٨٢ .

(٤) قورس : مدينة قديمة من نواحى حلب . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/٤١٢) .

منهم خلال الحملات الاسلامية فى آسيا الصغرى ، وبلاد الخزر ، فأنزلهم المسلمون مع من سبقهم ، فى خاخيط[١]، والخصوص[٢]؛ وعند الصدام بين المسلمين والروم فى سنة (٦٦٤م/٤٣-٤٤هـ) عند غزو صقلية ، فر خمسة آلاف صقلبى من جيش الروم الى المسلمين ، فأنزلوهم فى منطقة سليوكوبولس ، قرب أفامية ؛ وقد انضم الصقالبة الى الجيش الاسلامى فى جهاده ضد الروم ، وأفاد المسلمون من خبرتهم بآسيا الصغرى ، فبعد سنتين من معركة سيباستوبوليس ، قاتل الصقالبة الذين انضموا الى المسلمين ، الى جانبهم ضد الروم[٣].

أما عن الفئة التى وقفت الى جانب الروم ومالأتهم خلال حركة الجهاد الاسلامى ، فان الروم قد غلبوا على بعض السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ، ففتحها معاوية ، ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع[٤]. وكانت تلك النواحى تنتقض فيما بين صلح عمر وولاية عثمان ، فتفتح ثانية[٥]. فقد انتقض أهل عسقلان بعد فتحها ، وأمدهم الروم ففتحها معاوية وأسكنها الروابط وأوكل بها الحفظة ، ثم أخربتها الروم وأجلت أهلها عنها خلال الفتنة بين عبد الله بن الزبير وبنى أمية ، فلما تولى عبد الملك بناها وحصنها[٦]. كما أخرب الروم قيسارية

---

(١) خاخيط : لم أجد له تعريفا .

(٢) الخصوص : موضع قريب من الكوفة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٧٥/٢) .

(٣) عن انضمام الصقالبة للمسلمين ، وانزالهم الشام ، ومشاركتهم المسلمين فى جهاد الروم . انظر : (صلاح الدين عثمان هاشم ، الصقالبة ، ص٢٢٩-٢٣٢ ؛ لطفى عبد الوهاب يحي ، حولية ثيوفانس ، ص٢٣ ؛ نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٤٥-٣٤٦،٣٦١-٣٦٣ ؛ وانظر أيضا : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص١٨٤-١٨٧) .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٣ .

(٥) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٦٢/٤ .

(٦) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٤٨ .

وهـدموا مسجـدها ، فلمـا استقـام الأمـر لعبـد الملك رمهـا وشحنهـا وأعـاد مسجدها[١]. وأغاروا زمن عمر بن عبد العزيز على اللاذقية وهدموها وسبوا أهلهـا فأمر عمر ببنائها وتحصينها ، فتم ذلك فى زمـن يزيد بن عبد الملك[٢]. وهـذه الأخبار توضح عدم ولاء أهـل تلك البلاد للمسلمين ، وامـداد الروم لهـم ، أو غزو الروم لبلادهـم ، وتعاونهم مع الروم ، ويظهـر أن المسلمين لمسـوا موقف أهل السواحل فلم يعودوا موضع ثقتهم ، وعملـوا على الفصل بينهم وبين الروم ، وان لم تصرح بدور نصارى الشام فى ذلـك ، فلجأوا الى سيـاسة تحصين الثغور وترتيبهـا وشحنها بالمقاتلة وتوطينهـم بهـا . ويبدو أن الـروم فقدوا تعاون أهل السـواحل من نصارى الشام بعـد انتهـاج المسلمين تلك السياسة ، فأعملوا الحيلة للوصول الى سواحل الشام والايقاع بالمسلمين فيهـا . ففـى زمن عبد الملـك قدم بطريق من أرض الـروم ومعـه بشر كثير ، وتحايل على عبـد الملك ، فطلـب منه الأمان على أن يقيم بطـرابلس ، ويؤدى الخراج ، فأعطاه ذلك ، وبعد نحو سنتين انقض على الحامية الاسلامية ، فقتل عاملها وأسر من معه من الجنـد ، ولحق بأرض الروم ، وقيـل قفـل الأبواب عليـه ، وحصره المسلمون ، فـأخذ وصلب ، وهرب مـن أصحابه جماعة الى أرض الـروم ، وقيـل : فتحـت زمـن عثمان ، وانتقضـت زمـن عبد الملك ، ففتحها الوليد فى زمانه[٣].

ويذكـر ابن زنجويه أن أرض عـربسوس[٤]، بين المسلمين والـروم متروكـة على أن لايخفـوا على المسلمين عـورة الروم ، ولاعلى الـروم عـورة المسلمين ، فكتـب الى عمـر : أن أهلهـا يخبرون الـروم بعـورة المسلمين ، ويخفون عورة الروم عنهم ، فأمر عمر باجلائهم وتعويضهم عن ممتلكاتهم ،

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٨-١٤٩ .

(٢) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٩ .

(٣) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٣٣-١٣٤ .

(٤) عربسوس : مدينة بالثغر من ناحية الحدث قرب المصيصة . (ابن زنجويه ، الأموال ٤١٨/١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٩٦/٤) .

بالضعف عن كل شيء ، وان أبوا فأجلهم سنة وانبذ اليهم ، ثم أجلهم وخرب أرضهم ، فعرض عليهم ذلك ، فأبوا ، فأجلاهم بعد سنة وأخربها(١). قال أبو عبيد : انما عرض عليهم عمر الجلاء والعوض ، لأنه لم يتحقق ذلك عنده ، وأن النكث من طائفة منهم دون اجماعهم ، والا ماأعطاهم الا القتال والمحاربة(٢). ويقول الماوردى (٣): واذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولاغنم أموالهم ولاسبى ذراريهم مالم يقاتلوا ووجب اخراجهم من بلاد المسلمين آمنين حتى يلحقوا مأمنهم من أدنى بلاد الشرك ، فان لم يخرجوا طوعا ، أخرجوا كرها .

وبينما معاوية يعد أسطوله فى طرابلس لغزو الروم ، قام أخوان لرجل يقال له بقناطر من نصارى الشام ، كانا يعملان فى الميناء ، وقد ثارت فى نفسيهما روح التعصب للروم ، بالعمل على عرقلة حركة الجهاد ، وتعطيل ماأعده معاوية ، وذلك بالتسلل الى سجن المدينة ، فأطلقا من به من النصارى ، ثم توجهوا الى دار عامل المدينة ، فقتلوه ، وذهبوا الى مرسى السفن ، فأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا ماكان فيه من العتاد ، ثم فروا فى احدى السفن الى أرض الروم ، ونقلوا أخبار الاستعداد الاسلامى لغزو الروم ، فراح الروم يعدون أنفسهم لمواجهة المسلمين ، لكن تلك الخيانة لم تثن معاوية عن عزمه ، فأتم استعداده من جديد ، وخرج لغزو الروم ، فالتقوا فى ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/٦٥٤-٦٥٥م حيث نصرهم الله على الروم(٤).

---

(١) ابن زنجويه ، الأموال ، ٤١٨/١-٤١٩ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٦١ .
(٢) ابن زنجويه ، نفس المصدر ، ٤١٩/١ .
(٣) الأحكام السلطانية ، ص١٢٧ .
(٤) عمر عبد السلام تدمرى ، تاريخ طرابلس ، مؤسسة الرسالة ، ودار الايمان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ١٠١/١-١٠٢ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٠١/١ .

ويذكر أن أحد هذين النصرانيين استطاع أن يفر بالامبراطور قنسطانز الثانى على أحد السفن ، عندما لاحت بوادر الهزيمة فى معركة ذات الصوارى [١].

وكان كالينيكوس مخترع النار الاغريقية [٢] من نصارى بعلبك بالشام [٣]، خرج من دار الاسلام ولحق بالروم سنة (٥٣هـ/٦٧٣م) ، فقدم لهم اختراعه ، الذى استخدموه ضد الأساطيل الاسلامية ، وكان من أسباب صمود القسطنطينية أمام حصارات المسلمين ومحاولاتهم فتحها [٤].

وقد مر معنا [٥] الحديث عن حركات الجراجمة ، وقد اتضح من خلاله نقضهم العهد والخروج على المسلمين ، وممالأتهم للروم ، وذلك بعرقلة سير الحملات البرية عن طريق الدروب ، والانقضاض على ساقتها ، والتعاون مع

---

(١) عمر تدمرى ، ثغور بلاد الشام ، ص٣٢٤ .

(٢) النار الاغريقية : أو البحرية ، تتكون من كبريت وحامض الطرطويك والصمغ الفارسى والقار والخام والنترات ، ويخلط المزيج ، ويوضع فى عبوات مختلفة ، لايطفؤها الا التراب والخل ، وقد احتفظ الروم بسرها أربعة قرون ، وقد استخدمها المسلمون فى الحروب الصليبية لما عرفوا سرها وطوروها عن طريق البحث وأصبحت تعرف بالنار الاسلامية ، وظلت معروفة الى القرن الرابع عشر الميلادى عندما عرف البارود . انظر : ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص١٤٥-١٤٨ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٣٧/٥ ؛ وانظر : سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربى ، الجيزة ، ١٩٦٧م ، ص٢٣٢ .

(٣) ذكرت سعاد ماهر ، أن مخترع النار الاغريقية مصريا يدعى قلينيكوس من مدينة هليوبوليس المصرية (عين شمس) ، وليس من أهل الشام . انظر : نفس المرجع ، ص٢٣١-٢٣٢ .

(٤) انظر : محمد كرد على ، نفس المرجع والجزء والصفحة ، ١٩/٤ ؛ عمر عبد السلام تدمرى ، نفس المرجع ، ص٣٣١-٣٣٢ ؛ لطفى عبد الوهاب يحى ، حولية ثيوفانس ، ص٢٢٨ .

(٥) انظر حركة الجراجمة قبل ، ص٥١٩ ومابعدها ؛ وانظر أيضا : محمد كرد على ، نفس المرجع ، ١١٧/١-١٢١،١١٣ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص٥٤١-٥٥٠ .

الروم فى الاستيلاء على أجزاء من السواحل وجبال لبنان ، وتكوينهم فاصلا بشريا ، يحجز بين المسلمين فى الداخل وسواحلهم ، مما سهل وصول الروم الى السواحل ، ومنع المسلمين من القدرة على صدهم ، كما حدث زمن يزيد عندما اعترضوا طريق جيشه الذى توجه لاخراج الروم من حماه .

فكان الجراجمة أخطر فئات النصارى ببلاد الشام الذين عملوا على عرقلة حركة الجهاد الاسلامى تجاه الروم ، حتى قضى الوليد بن عبد الملك على حركتهم ، ووضع حدا نهائيا لتمردهم على المسلمين . ثم استقاموا لأمر الحكام المسلمين وحسن ولاؤهم وعملوا فى خدمتهم ، وقد ظهر أن ذلك لم يكن بانهاك قوتهم لما أخرج الروم اثنى عشر ألفا من المردة من لبنان الى آسيا الصغرى عنهم ، ولاللقضاء على حركتهم زمن الوليد فحسب ، وانما أسهم فى تبدل موقفهم انفصالهم المذهبى عن الكنيسة البيزنطية ، على أثر ايقاع الروم بالموارنة فى الشام سنة ٧٥هـ/٦٩٤-٦٩٥م .

الفصل السابع
دور نصارى الشام فى الحياة الإقتصادية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* دورهم فى الزراعة .

* دورهم فى التجارة .

* دورهم فى الصناعة .

الفصل السابع
دور نصارى الشام فى الحياة الاقتصادية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

*** توطئة :**

كان النصارى يمثلون الأكثرية السكانية فى بلاد الشام قبيل الفتح الاسلامى وكان دورهم رئيسيا فى حياة المجتمع الشامى ، ورسم سماته فى جوانب الحياة المختلفة به . وعندما اتخذ الأمويون دمشق عاصمة للدولة الاسلامية ، لم يقتصر أثر نصارى الشام على حياة المجتمع الشامى فحسب بل على جوانب الحياة المختلفة فى دار الاسلام عامة . ومن ثم فاننا سنحاول فى هذا الفصل معرفة دور نصارى الشام ليس فى التطور الحضارى لبلاد الشام فى العصر الأموى فحسب ، بل والتعرف أيضا على دورهم فى خدمة الدولة الاسلامية وتطورها الحضارى ، وكذلك أثرهم السلبى فى هذه الجوانب .

والقاعدة العامة فى الفقه الاسلامى هى أن الذميين كالمسلمين فى المعاملات الشاملة لجميع الارتباطات القانونية وفى جميع الشؤون الدنيوية (١) وللذميين حرية العمل فى دار الاسلام ومباشرة النشاط الاقتصادى الذى يرغبونه ، وهم كالمسلمون فى المعاملات والتجارات وسائر العقود والبيوع وسائر التصرفات ، الا التعامل بالربا ، والاتجار بالخمر والخنزير فى أمصار المسملين ، فكانوا لذلك يباشرون أنواع الأعمال (٢)، وشاركوا المسلمين فى

---

(١) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص٥٤٧ .

(٢) عبد الكريم زيدان ، نفس المرجع ، ص١١٠-١١١ ؛ يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٢١-٢٢ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٦٥ .

الحياة الاقتصادية بالاضافة الى مساهمتهم فى الحياة الاجتماعية والعلمية (١).

وذكر ابن القيم (٢) ثبوت أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم عامل النصارى شراء ورهنا ، وأنه زارعهم وساقاهم ، وأكل من طعامهم ، مما يدل على جواز معاملتهم (٣).

فالاسلام لايمنع أن تقوم العلاقات بين المسلمين وغيرهم على المصالح الدنيوية كالبيع والشراء واستخدامهم كأجراء والاستفادة مما عندهم فى شئون الحياة الدنيا فقط عند الحاجة والضرورة ، واذا أمن غشهم وخداعهم (٤).

وفى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ثبت لدينا مما قدمناه (٥) أن المسلمين استعانوا بأهل الذمة عامة ونصارى الشام خاصة فى أعمالهم المختلفة فى حدود بيناها ، كما يشهد بذلك الواقع التاريخى ، وماحوته المصادر من ذكر لتلك الشواهد ، حتى أضحت حقيقة لايمكن انكارها ، وان تضمنت المصادر أيضا مايفيد منع بعض الخلفاء الاستعانة بأهل الذمة . وقد اتضح لنا أن ذلك المنع لم يكن مطلقا ، وانما محددا بمنعهم من الأعمال التى بها تكون لهم الولاية على المسلمين ، وايذاؤهم ، ووقوع الخطر منهم على الاسلام وأهله ودولته .

وبدراسة هذا الفصل ستتضح صورة مدى تلك الاستعانة ، ودورهم كرعايا للدولة الاسلامية فى جوانب الحياة المختلفة بها .

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٣٦ .

(٢) أحكام أهل الذمة ، ١/٢٦٩-٢٧٠ .

(٣) وانظر عن استعانة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم باليهود والنصارى ، وتعامله معهم قبل : ص٢٦٦-٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣ . وانظر : ص٤٣٥-٤٣٦ .

(٤) خميس صالح الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص١٨٠ .

(٥) عن استعانة المسلمين بنصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، انظر قبل : ص٢٦٢ ومابعدها .

* دورهم فى الزراعة :

كان المسلمون قد فتحوا أرض الشام عنوة ، ومدنها صلحا سوى بعضها كقيسارية فقد فتحت عنوة(١). ولما تم لهم الفتح ، قرر الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ايقاف أرض الشام لعامة المسلمين ، فلم يقسمها وأقرها بأيدى أهلها بعد أن رفع عنهم السبى ، على أن يؤدوا عنها الخراج(٢). وقدر الخراج على قدر ماتحتمله الأرض(٣).

قال الأوزاعى(٤): أجمع رأى عمر وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما ظهروا على الشام على اقرار أهل القرى على ماكان بأيديهم من أرضهم يعمرونها ويؤدون خراجها الى المسلمين .

وهذا القرار يعنى أن المسلمين تركوا لأهل الأرض من نصارى الشام أمر الفلاحة ، وزراعة الأراضى . فيذكر ابن تيمية(٥)أن عمر بن الخطاب لما فتح الشام كان العامة والفلاحون وغيرهم ، عامتهم نصارى . وقيل : كان العمل فى الأراضى أول مافتحت على أهل الذمة ، فكان الصحابة يكرهون تعاطى ذلك(٦). وجاء أن عمر رضى الله عنه كتب الى عماله ألا يأذنوا لأحد من الجند المسلمين أن يزرع أو يزارع فى الأرض التى فتحت(٧). واذا كنا نعلم أن أرض الشام قد فتحت عنوة ، وأنها بقرار عمر رضى الله عنه الآنف الذكر قد أصبحت أرضا خراجية ، وأوكل أمر زراعتها لأهلها من

---

(١) عن فتح أرض الشام عنوة ، انظر قبل : ص١٥٧ .

(٢) عن قرار عمر بن الخطاب هذا ، انظر قبل : ص٢٣٠-٣٤٢،٢٣٣ .

(٣) انظر قبل : ص٣٤٢-٣٤٥ .

(٤) فالح حسين ، الحياة الزراعية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، نشر بدعم الجامعة الأردنية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص٤٣ .

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٤/١-١٠٥ .

(٦) عبد الحى الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص٤٦ .

(٧) عبد الحى الكتانى ، نفس المرجع ، ص٤٨ .

نصارى الشام ، وأن الأراضى العشرية آلت الى المسلمين بالاقطاع ، أو بالاحياء ، أو مما جلا عنه أهله ولم يكن فيه حق لأحد فنزل به المسلمون(١). وأنها تمثل نسبة يسيرة من المساحة الكلية لأرض الشام التى أصبحت معظمها خراجية وبقيت بأيدى أهلها من النصارى ، فان ذلك يعنى أن أمر الفلاحة وزراعة جل أراضى بلاد الشام ظل بيد أهلها من النصارى بل أن الأراضى العشرية التى آلت الى المسلمين وهى الأقل تولى الدور الأكبر من أمر الفلاحة فيها وزراعتها العبيد والأجراء ، ولعل بعضهم كان من نصارى الشام أيضا ، وآخرون من غيرهم . بل ورد فى شروط عهود الصلح أن المسلمين ولوا النصارى الذين عقدوا لهم الذمة معاملة ماجلا عنه ملوكهم من الأرض وهى الصوافى بدمشق وطبرية(٢). اذ لم يكن غالب العرب المسلمين من أهل الفلاحة ، كما شغلوا فى أول أمرهم بأمر الجهاد ، فتركوا زراعتها لمن ثقف أمر الفلاحة من أهلها ، خصوصا أن كثيرا من تلك الأراضى العشرية آلت الى الأمراء من البيت الحاكم والسادة الأشراف وأهل السعة اما عن طريق الاقطاع أو الاحياء أو الشراء ، وهؤلاء بلاشك اعتمدوا على العبيد والأجراء فى عمارة تلك الأراضى وزراعتها ، وأقطعت بعض تلك الأراضى العشرية الى قبائل شامية حرصا على ولائها ، أو الى قبائل نزلت أرض الشام فى أعقاب الفتوح ، فأنزلت فى الأطراف والثغور لاعمارها . ولم يقف اعمار الثغور على المسلمين ، فقد أنزلت بعض الفئات غير المسلمة فيها ومنهم النصارى ، كما فعل مروان بن محمد عندما بنى الخصوص(٣).

وبالرغم من أن كلود كاهن (Claud Cahen) يذكر أن العبيد كانوا يستخدمون لأداء الأعمال البيتية والحرف اليدوية ، وأنهم لم يستخدموا فى العمل الزراعى فى العصر الأموى ، فهناك روايات تشير الى أن العمل فى

---

(١) انظر قبل : ص٣٤٨-٣٤٩ .

(٢) انظر قبل : شروط عهود الصلح ، ص١٨٩ .

(٣) قدامة ، الخراج ، ص٣٠٨ .

الأرض كان يعتبر من الأعمال الأساسية للعبيد ، وكانت المزرعة اذا وهبت وهبت بآلاتها ورقيقها[١]. فيذكر أن معاوية رضى الله عنه كان يقطع الأرض الخراجية بعلوجها وخراجها[٢]. ونفهم من ذلك أن الخليفة كان يقطع الأرض الخراجية التى مات عنها أهلها وليس لهم عقب ، بعد أن قبضها وعمرها برقيق الدولة (الخمس)[٣]، فأقطعها بمن فيها من رقيق الدولة الذين أوكل اليهم عمارتها ، وليس بمن فيها من أهلها من نصارى الشام ، لأن أولئك كانوا أحرارا قد رفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه عنهم السبى وأقرهم على أرضهم[٤]وقد يكون ذلك الرقيق الذى يهبه الخليفة مع الأرض كان ملك يمين للذمى الذى مات عن أرضه وليس له وارث ، أو ملك يمين من أنباط القرى تابعين لبطارقة من الروم ، فلما كان الفتح جلوا وتركوا الأرض ومن عليها من الفلاحين[٥]، فقبضت الأرض ومن عليها من الرقيق ثم أقطعت تلك الأرض ومن عليها من الفلاحين الرقيق لبعض المسلمين .

ولم تقتصر الافادة من الرقيق على زراعة أرض الشام ، وقد جلبت منهم الفتوحات أعدادا كبيرة ، فيذكر أن عبد الملك بن مروان بعث بعدد من الرقيق الى المدينة للعمل فى اصلاح الزراعة[٦]. وقد تكون الهبة للأرض ومن بها من الرقيق من رجل لآخر ، وذلك عندما تكون الأرض ومن عليها ملكه ، وله أن يهبها[٧].

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٥٣ .
(٢) فالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٢١٧ .
(٣) كثر رقيق الخمس الذى آل الى الدولة نتيجة الفتوحات الاسلامية حتى جعل لهم بنو أمية مسئولا يشرف على أمورهم ، انظر قبل : ص٥٤٠ .
(٤) انظر قبل : ص٢٨٢-٢٨٣،٣٤٢ .
(٥) انظر : ابن منظور ، مختصر تاريخ ابن عساكر ، ٢٣٩/١ .
(٦) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٨٤ .
(٧) وهب طلحة بن عبيد الله عليا ضيعة له بما فيها من الرقيق والآلة والدواب ، انظر الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص٤٩-٥٠ .

وتذكر ثريا حافظ عرفة[(١)] أن العرب الفاتحين استوطنوا بلاد الشام ، وكان هدفهم الاستقرار ، فعمروا الأرض ، غير أنهم لم يعتادوا الزراعة ، فتركوا الأرض للفلاحين مقابل نسبة من المحاصيل أو بالمزارعة ، وأن الأمراء والأشراف الذين حازوا الاقطاعات كانوا يبعثون من ينوب عنهم ويتولى أمور الأرض والفلاحين واعطاء العشور عن الأرض . والمقبول أن أولئك الفلاحين كانوا من نصارى الشام ، وبعضهم كان قد أسلم ، ممن عرفوا أرض الشام ، عمارتها وسقياها ومحاصيلها ومواسمها ، يدل على ذلك الاستمرار على التقويم الزراعى القديم فى مواعيد المواسم الزراعية خلال شهور السنة[(٢)].

واشترط عمر رضى الله عنه على أهل الذمة فى اصلاح القناطر ، والجسور ، والطرق[(٣)]. اهتماما بوسائل الاصلاح الزراعى ، فقد كان من مبدأ عمر رضى الله عنه تقوية الزراعة وتنشيط الزراع[(٤)].

وتقول نجدة خماش[(٥)]: ثم أخذت الدولة على عاتقها هذه الأمور لما استقرت وارداتها ، ويبدو أن الزامهم بذلك كان فى المصالح الخاصة بهم ، كحفر قناة خاصة بأرضه ، أو ترعة خاصة ببلدته ، أما ماكان لعامة الناس ككراء النهر الكبير الذى فيه مصلحة لكافة الناس ، فان الدولة تتكفل به . فيذكر أبو يوسف[(٦)] أن على الامام كرى الأنهار العظيمة التى لعامة المسلمين وقيام الناس بكراء أنهارهم الخاصة ، ويقول ابن القيم[(٧)]: على الامام أن

---

(١) الحياة الاقتصادية ، ص١٧٩-١٨١ .
(٢) فالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٩٠ .
(٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص١٩٢ ؛ ابن زنجويه ، الأموال ، ٣٦٩/١-٣٧٠ ؛ البلاذرى فتوح البلدان ، ص١٧٨-١٧٩ ؛ ابن منظور ، مختصر تاريخ ابن عساكر ، م١ ، ج١ ص٢٠٦،٢٣٠ ؛ الكتانى ، التراتيب الادارية ، ٢٨٣/١ .
(٤) عبد الحى الكتانى ، نفس المرجع ، ص٤٨ .
(٥) الادارة ونظام الضرائب فى الشام فى عصر الراشدين ، ص٤٥٣-٤٥٤ .
(٦) انظر : الخراج ، ص٢٠٩-٢١٣ .
(٧) أحكام أهل الذمة ، ١١٧/١ .

يعمر الأرض من بيت المال من سهم المصالح ، ولايجوز الزامهم بعمارتها من أموالهم ، فان سألهم عمارتها على أن يحتسب لهم ماأنفقوه عليها من خراجها ورضوا بذلك جاز ولم يجبروا عليه ، الا أن يكون سهم المصالح عاجزا عن ذلك ، ولايضر بهم عمارتهم أرض الخراج ، وفى ذلك مصلحة لهم ولأصحاب الفيء فهذا يسوغ له الزامهم به(١).

وفى العهد الأموى كان يصرف من بيت المال مبالغ حسنة لتحسين وسائل الرى والزراعة ، وكان بيت المال مسئولا عن حفر الترع للزراعة وغيرها من المصالح(٢). ومما يذكر عن تحمل الدولة الأموية لكرى الأنهار والقنوات أمر سليمان بن عبد الملك بكراء نهر بردى لما شكا له الناس قلة مائه ، وتكليف هشام بن عبد الملك رجلا بذات المهمة فى زمنه(٣).

لقد اعتنى الخلفاء الأمويون والولاة فى الأقاليم بوسائل الرى الزراعية القديم منها والحديث ، فأجروا الجداول وحفروا الترع والقنوات العديدة ، وطهروها ، وأقاموا السدود والقناطر ، وردموا المستنقعات ، واهتموا بالطرق وأحيوا الموات ، واقتنوا المزارع ، وجعلوا القرى مستغلات ونزلوها وعمروها وتنافسوا فى ذلك .

وقد حظيت غوطة دمشق بحظ عظيم من العناية فى العهد الأموى ، حيث نزل بها رجال من بنى أمية فعمروا فيها القصور وأنشأوا المزارع وشقوا الجداول وعنوا باستثمارها واستنباتها(٤). كما أثبتت الحفريات أن حوران شهدت نهضة زراعية وصناعة زراعية فى العصر الأموى ، وقد

---

(١) من هذا الباب ماذكر أن عمر بن الخطاب وصل نهر النيل بالبحر الأحمر ، وهو ماعرف بقناة أمير المؤمنين ، وخصص ثلث ايراد مصر لعمل الجسور والترع لارواء الأراضى . انظر : الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص٤٨ .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٦٩ .

(٣) فالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٨٧-٨٨ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص١٦٨،١٦٦،١٧٤ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ١٤٦/٤ .

اشتهـرت بزراعـة القمـح والعنب ومعاصره فى حوارن مشهـورة[(١)]. وشملت عنـايتهم بمنشـآت الرى الزراعيـة العديد من مدن بلاد الشـام ، سـواء كانت هذه المنشآت تخدم العامة أو الخاصة[(٢)].

ومن انشاءات معاوية الزراعية ، حفر الآبار ، واقـامة السدود للانتفاع بالمياه وانشاء المصانع[(٣)]على الطرقات[(٤)]. وأسهم يزيد بن معاوية فى توسيع رقعـة الأرض الـزراعية فى غـوطة دمشق عندما حفر القنـاة التى عـرفت بنهر يزيد . وهذا النهر قديم وانما كراه يزيد ووسعه لاصلاح الـرى فى الغوطة ، فأخذ اسمه[(٥)].

ولما فتـح العرب بلاد الشـام كانت المنشآت الخاصـة بالـزراعة فى المدن القـديمة قـد صممـت منـذ العصـر الـرومانى ، ومنهـا القنـوات التى أجريت لتوصيل المياه الى داخل مدينة دمشق ، والقناة المعلقـة التى تمد صور ، وقناة مدينة حلب ، وقد جددت هـذه القناة زمن عبـد الملك بن مروان[(٦)]. وكان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء ، واتخذ المصانع والضيـاع ، فقلده رعاياه ، وكـانوا اذا التقوا فى زمانه سـأل بعضهم بعضا عن البنـاء والمصانع ، وكتب الى عماله بتسهيل الثنايا وحفر الآبار[(٧)].

---

(١) انظر :

Francois Villeneuve : Contribution de L'Archeologie a l'Histoire economique et sociale des villags du Hawran .

مـن أبحاث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، اكتـوبر ١٩٨٣م ، عمان .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٦٨-١٦٩ .

(٣) المصـانع : الآبار والأبنية والأحواض تتخـذ للماء . (ابن منظـور ، لسان العرب ، مادة : صنع) .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص١٦٩ .

(٥) فـالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٨٢-٨٣،٣٠ ؛ محمد كرد على ، غـوطة دمشق ، مطبعة الترقى ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص١٧٩ .

(٦) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص١٦٦-١٦٧ .

(٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦/٤٩٧-٤٣٧ .

ولما بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ، احتفر لأهلها قناتهم التى تدعى برده ، واحتفر آبارا بها وولى الاشراف على بنائها كاتبا نصرانيا له يدعى البطريق بن النكا ، وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك(١).

واعتنى هشام بن عبد الملك بالزراعة وطرق الرى ، يقول المسعودى عنه : كان يجمع الأموال ويعمر الضياع واتخذ القنى والبرك بطريق مكة ، ومن أعماله بناء السدود والقنوات واصلاح الأراضى سواء فى الشام أو غيرها ، فقد أمر عماله بشق القنوات والاهتمام بطرق الرى الزراعية ، ومنها قناة تمتد حوالى أربعين كيلو مترا ، وقد تحدث فواز طوقان عن الاتقان والحذق الهندسى فى مشاريع الرى والقنوات التى أمدت قصر الحائر بالمياه ، كما أمر هشام بن عبد الملك بحفر نهيرات صغيرة فى دمشق لتزويد أهلها بالمياه اللازمة للرى والشرب ، وأمر بكرى ترع دمشق ، وأمد أهل خرستا بالماء من نهر يزيد ، كما أحيا أرضا واسعة بالرصافة التى بناها فى بادية الشام والتى عرفت باسمه فسميت رصافة هشام ، وحفر نهرين لاروائها ، وكان حريصا على اتخاذ الضياع حتى بلغت حد المبالغة ، وهو الذى استخرج النهر الذى فوق الرقة ، وغرس غرسا كثيرا فى الجزيرة والشامات بلغت غلته أكثر من خراج مملكته ، وجدد تقسيم مياه بردى على الأراضى وللشرب ، وكانت مقسمة من قبل الفتح ، فكان نظاما دقيقا ، بحيث كان الخلاف نادرا بين الفلاحين(٢).

ويذكر مؤرخ سريانى مجهول أن هشام بن عبد الملك فاق من سبقه من الخلفاء فى الاهتمام بالزراعة ، فيذكر أنه أنشأ القصور والجسور لرى

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٩ .

(٢) ثريا حافظ عرقة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٧٢-١٧٣،٢٣٧-٢٣٨ ؛ وانظر : فالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٧٢-٦٢،٨٧ ؛ محمد كرد على ، الادارة الاسلامية فى عز العرب ، ص١١٤ ؛ محمد كرد على ، غوطة دمشق ، ص١٨٩ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ص١٤٦ .

الأراضـــى ، وأنه أجرى قنـاة مـن نهـر الفـرات لـرى الأراضـــى فى أعـالى سورية[(١)]. وفى عهـد الوليد بن يزيد بن عبـد الملك حفـر نهـر بالأردن[(٢)]. وحفـر مسلمة بن عبد الملك لأهل بالس وبوبلس وقاصـرين وعابدين وصفين نهـرا من الفرات يمد أرضهم بالمياه على أن يجعلوا لـه الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان ، ففعل ووفوا له بالشرط[(٣)]، وكانت له أرض بغراس وقرى وضياعا فى شمال سورية مثل الاسكندرونة وعين السلـور وبحيرتها[(٤)]. وذكر عواد مجيد الأعظمى[(٥)] جهـود مسلمة الكبيرة فى تنشيـط الزراعـة ومشـاريع الـرى مـن استصلاح الأراضـى وحفـر الأنهـار ، وبنـاء الخزانات ، واقطـاع الأراضـى وتشجيـع الزراعة ، وكـان جملتهـا فى الجزيرة الفـراتية والعـراق وأرض الخزر . ولم يقـدم أمثلـة لجهـوده فى بلاد الشـام ، لاغفـال المصـادر المحفوظة ذكر ذلك ، غير أن تلك الأمثلة أدلة على جهـوده فى هذا المجال ، الـذى بلاشك أن الشام حظى بشـىء من تلك الجهود والأعمـال الـزراعية ، وماقدمناه آنفا يشير الى جهوده فى بلاد الشام .

ومما قـدمناه عن الزراعة يتبين أن المسلمين أقـروا أرض الشـام بيـد أهلهـا ، فظلت فلاحة الأرض فى جل بلاد الشـام بأيديهـم ، كمـا أفادوا من المشـاريع الـزراعية القـديمة الا أن جهـود الخلفـاء والـولاة والأمـراء وعـامة المسلمين بالأرض امتلاكـا واستصلاحا وزراعـة ومـايخدم ذلـك مـن المشـاريع الانمائيـــة التى أشـرنا الى أمثلـة منهـا ، تدل على اهتمـــام الـدولة الاسلاميـة بالـزراعة كمورد هام يصب فى خزينـة الدولة ، وعلى حرصهـا على الاكتفـاء الذاتى من المحاصيل الغذائية ، مفيدة من خصوبة الأقاليم المفتـوحة كالشام ،

---

(١) J.F.Healey : Op. Cit. p. 6 .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٢٤٨/٧ .

(٣) البلاذرى ، فتـوح البلدان ، ص١٥٥-١٥٦ ؛ ياقـوت ، معجـم البلدان ، ٣٢٨/١ .

(٤) فالح حسين ، الحياة الزراعية ، ص٦٢ .

(٥) الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، منشورات اتحاد المؤرخين العـرب ، بغداد ١٩٨٠م ، ص١٢٣-١٢٩ .

وأن دور نصارى الشام فى الحياة الزراعية ، لم يتعد زراعة الأرض الخراجية التى ظلت بيد أهل الذمة . ولعل بعضهم شارك فى انشاء المشاريع الزراعية كمهندسين ومشرفين ، مع التأكيد على أن أولئك النصارى قد انتشر الاسلام بينهم مع مرور الوقت ، فظل بعضهم يقوم بدوره فى خدمة الحياة الزراعية فى بلاد الشام ، الى جانب اخوانه المسلمين ، الذين شاطروا النصارى فى خدمة ألزراعة ببلاد الشام فى الأراضى العشرية التى آلت اليهم ، وقد ظل معظم الانتاج الزراعى كما كان قبل الاسلام ، وقد تأثر بعدالة المسلمين فى يسر ماقدروه على الأرض الخراجية ، والرفق فى جباية الخراج ، مما دفع النصارى فى الشام الى القيام بالزراعة فى ظروف ساعدتهم على العمل الدؤوب ، وزيادة الانتاج ، بعكس ماكان عليه الحال فى العصر البيزنطى ، من الغلو فى تقدير الضرائب على الأراضى الزراعية ، والشدة فى جبايتها ، مما دفع الكثيرين من الفلاحين الى هجرة أراضيهم ، وتعطيل مساحات واسعة من الأراضى الزراعية .

*** التجارة :**

الأصل فى الاسلام حرية العمل للذمى ، ومن ذلك حق ممارسة التجارة ، غير أنهم منعوا من التعامل بالربا والاتجار بالخمر والخنزير فى أمصار المسلمين جهارا(١). فقد شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصارى نجران ألا يأكلوا الربا(٢). وفعله سنة ، وأساس لعهود الصلح التى أعطاها المسلمون لنصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين . وشرط عمر بن الخطاب رضى الله عنه على نصارى الشام ألا يبيعوا الخمور(٣)، وأمر بكسر متاع رجل من أهل السواد وتشريد ماشيته لما بلغه رضى الله عنه اثراؤه من الخمر ، وأحرق على قرية زرارة بالكوفة لبيع الخمر فيها(٤).

---

(١) انظر قبل : ص٢٠٢، ٤٣٧-٤٣٨، ٥٦٢ .
(٢) انظر قبل : ص١٠٥ .
(٣) انظر قبل : ص٢٠٢، ٤٣٧-٤٣٨ .
(٤) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٧٢٧-٧٢٩ .

كما منع عمر بن عبد العزيز الاتجار بالخمر بين الأمصار ، ونقلها من رستاق الى آخر ، وأن يصير ماوجد فى السفن من الخمر للتجارة خلا(١). وأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر ، وقد فعل ذلك فى الحانات وعطلها ، وفى الطرقات العامة ، وترك ماخفى عن الأعين وقال لصاحب شرطته : "من وارت البيوت فاتركه"(٢).

كما منعوا من اتخاذ الخنازير فى أمصار المسلمين(٣)، وفى قول أبى يوسف أنهم اذا مروا بها على العاشر لايأخذ منها شيئا ، انما يقومها أهل الذمة ويؤخذ منهم نصف العشر(٤). وقوله هذا الأخير يناقض أمر منع الاتجار بها ، اذ أن تعشيرها يعنى حدوث الاتجار بها بين الأمصار ، وأن أهل الذمة لم يلتزموا أمر المنع تجاوزا لما شرط عليهم ، ولعل بعض الحكام غض الطرف عن الزامهم ذلك .

وقد قدمنا(٥)مارجحه أبو عبيد أن الخمر والخنزير لاتعشر ، وأن عمر ابن عبد العزيز نهى عامله عن أخذُ العشر على الخمر . وقيل : بل يؤخذ العشر على جميع أنواع التجارات(٦).

ويقول ابن القيم(٧)فى شرح شرط "ولانبيع الخمور" ، أى لانبيعه ظاهرا على مرأى من المسلمين وكذلك نقله من موضع الى موضع فى دار الاسلام فى البلد وخارج البلد .

ويقول عبد الكريم زيدان(٨)، كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير فى أمصار المسلمين أو ادخالها فى الأمصار على وجه الشهرة

---

(١) انظر قبل : ص٤٤٩ .

(٢) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٤٥-٤٧ .

(٣) انظر قبل : ص٤٣٧،٤٤٩ .

(٤) الخراج ، ص٢٧٣ .

(٥) انظر قبل : ص٣٣٣ .

(٦) انظر قبل : ص٣٣٣ .

(٧) أحكام أهل الذمة ، ٧٢٨/٢ .

(٨) أحكام الذميين والمستأمنين ، ص١١٠-١١١ .

والظهـور ، الا أن لهـم بيعهـا فى قراهم وأمصارهم أو فى مـوضع ليـس من أمصار المسلمين ولو كان فيه مسلمون .

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فى جواز التعـامل معهم تجاريا(١).

وقد تبين من دراسة خميس الغامدى(٢)للعلاقات الاقتصادية التجارية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مع النصارى ، أنها كانت قائمة سواء كانوا من أهل الذمة كنصارى نجران ، أو أهـل الحرب فى زمنـه كنصارى الشام ، وأنهـا وان بدت ضعيفة ومحدودة نتيجة للحروب بين الفـرس والروم ، وبين المسلمين وقريش ، وبين المسلمين والروم ، فانها لم تنقطع وظلت مستمرة مع النصـارى فى الشـام حتى فى حالـة الحرب بين الطرفين ، وأورد ابن القيم(٣) أقـوال عـدد مـن الفقهاء فى حكـم مشـاركة المسلم النصـرانى أو اليهـودى فى التجارة ، فذكر اجازة أحمد بن حنبل ذلك على كراهة ، إلا أن يكون المسلم هو المتولى للبيع والشراء ، كمـا ذكر كراهة مجاهد وعطـاء وطاووس والحسن وكـراهة الشافعى لذلك مطلقـا ، وكذلك كراهة ابن عبـاس لتعاملهم بالربا .

وفى عصـر الخلفـاء الـراشـدين ، تضمنـت عهـود الصلـح التى أعطـاها المسلمـون لنصارى الشام ، الأمـان على تجارتهم ، والاتجار حيثمـا أرادوا من البلاد الاسلامية(٤)، بل والـزامهم باخراج الأسواق للجند اذا نزل بالقـرب منهم(٥). كمـا كان الجيش الاسلامى يحمل معه التجار ، لتلبيـة حاجة الجند بأسـواق متنقلة ، وشراء الغنائم ، كما كان يفعل مسلمـة بن عبد الملك(٦).

---

(١) انظر قبل : ص٥٦٣ .

(٢) انظر : العلاقات بين المسلمين ونصارى الشام زمن الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، ص٣٢٦-٣٣٥ .

(٣) انظر : أحكام أهل الذمة ، ١/٢٧٠-٢٧٤ .

(٤) انظر قبل : ص١٧٤ .

(٥) انظر قبل : ص١٨٩ .

(٦) عواد مجيد الأعظمى ، مسلمة بن عبد الملك ، ص١١٥ .

وفرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أهل الذمة ومنهم نصارى الشام العشور على تجارتهم التى يتجرون بها بين الأمصار فى دار الاسلام ، وقد نص عهد بعلبك على فرض العشور على تجارة أهلها[١]. ويقوى ماورد فى نص عهد بعلبك من أن فرض العشور زمن عمر رضى الله عنه كان صلحا مع الجزية والخراج ، قول أبى عبيد[٢]: فى سبب أخذ العشر من أهل الذمة "فوجدته أى عمر بن الخطاب انما صالحهم على ذلك صلحا" ، واستدل بما روى ، أن عثمان بن حنيف لما مسح السواد ، جعل على أموال أهل الذمة التى يختلفون بها من كل عشرين درهما درهما، عدا الجزية والخراج . والواقع أن التاجر يستفيد من مرافق الدولة مثل طرق المواصلات وخدماتها والجسور والقناطر وحماية الدولة للتجارة وتأمينها[٣]. وذكر فتحى عثمان[٤]أن المسلمين ألغوا مراكز المكوس بين العراق والشام ، والشام ومصر ، لكونها جميعا أصبحت تحت سيادة الدولة الاسلامية . والصحيح أن المسلمين ظلوا يأخذون العشور فى المراكز الواقعة على الحدود بين الأمصار ، اذ كانت تؤخذ عشور التجارة مما مر به التجار على تلك المراكز من مصر الى مصر[٥].

ويبدو أن ضرائب أخرى فرضت على التجارة فى العصر الأموى غير العشور ، وهى ماعرف بـ(المكوس) ، يبين ذلك أمر عمر بن عبد العزيز عامله عبد الله بن عوف أن يهدم بيت المكس برفح[٦]. وقد أمر عمر بن

---

(١) انظر بعد ، ملحق رقم : ٢ .
(٢) الأموال ، ص٦٣٨-٦٣٩ .
(٣) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص٦٨ .
(٤) الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٣٦/٣ .
(٥) انظر حديثنا عن العشور قبل : ص٣٧١ .
(٦) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٨٠ .

عبـد العزيز بوضـع المكس عامـة عن الناس(١). ولاينتظـر أن عمر بن عبـد العـزيز ألغى عشور التجارة التى فـرضها عمر بن الخطـاب رضـى الله عنه ، فانما كان جاهدا فى الاقتداء بسيرته فى أهل القبلة والذمة(٢)، وقد قدمنا(٣) بعـض أوامره بشأن العشور ممـا يدل على أنها كانت تؤخذ فى زمنـه ، كمـا كتب الى عماله بأخذ عشور التجارة وغيرها(٤).

واعتمد المسلمون على العملة الأجنبية ومنها الدينار الذهبى البيزنطى ، ردحا مـن الزمن ، حتى سك عبد الملك بن مروان العملـة الاسلامية . لذلك أبقى الفاتحون المسلمون على دور الضرب البيزنطية على حالهـا ، وظل يعمل بها الضرابون المسيحيون الشاميون فظل العمال المسيحيون يسكون بها العملة البيزنطية للحكام المسلمين ، كماكانوا يسكون بها عملة ذهبية محلية لخلفاء بنى أميـة على طرز العملة البيزنطيـة . ودور الضرب التى كـانت قـائمة قبل الفتح ظلـت قائمة بعده ، وكانت فى بعلبك ودمشق وحمص وطبرية ، ويتضـح ذلك من امضاء الصناع على هذه العملة(٥). كما ضرب الأمويون النقود النحاسية فى الـرملة ، وكان الهدف مـن هذه النقود تسهيل عمليـات البيـع والشراء ، وقـد وجد حوالى خمسـة عشـر مـركزا لضـرب النقـود فى جنـدى فلسطين والأردن أهمهـا الـرملة ، وهـذا يظهـر لنا أهمية المنطقـة التجـارية وخاصـة الرملة(٦).

---

(١) ابن عبـد الحكـم ، سيرة عمر بن عبـد العـزيز ، ص٨٧ ؛ أبو عبيـد ، الأمـوال ، ص٦٣٣ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٥٦/٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص١٠٧ .

(٣) انظر قبل : ص٣٧١ .

(٤) ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص٨٧ .

(٥) Hebert, R.J : Op. Cit, p. 135 .

(٦) صادق أحمد داود جودة ، مدينة الرملة ، ص٢٧٦ .

ولقد تأثرت التجارة مع الروم بسك عبد الملك بن مروان العملة الاسلامية الخالصة بسبب ماعرف بأزمة القراطيس (أوراق البردى) التى حدثت بين الدولة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية وأدت الى الحرب بينهما وكان الامبراطور البيزنطى قطع أو هدد بقطع التجارة بين بلاده والشام ، مما تسبب فى توقف الحركة التجارية بينهما وأدى الى ركود اقتصادى(١).

ولاشك أن التجارة العالمية وتجارة الشام مع الدول المجاورة قد تأثر بالفتح الاسلامى لبلاد الشام .

والظاهر أن الحكم الاسلامى للشام لم يحدث انقلابا كليا فى حركة التجارة واقتصاديات المنطقة ، أو أنه أدى الى تدهور اقتصادها ، حقيقة وجد ثمة أثر لهجرة السكان وتحركاتهم وتأثرت التجارة بسبب الحروب بين المسلمين والروم فى البحار ، ولكنه تأثير طفيف(٢). فقد كان البحر المتوسط طريقا تجاريا زمن البيزنطيين ، وأصبح منطقة حرب فى بداية العصر الاسلامى(٣). غير أنها لم تنقطع فى ذلك البحر ولم تكن قطيعة نهائية فى التبادل التجارى بين المسلمين والروم ، ويختلف الكتاب فى تحميل المسئولية أحد الطرفين(٤).

وقد أدت الرقابة البيزنطية وتحديد منافذ التجارة بين الشرق والغرب ابتداء من سنة (٧١٦م/٩٧-٩٨هـ) الى عدم وصول التجار السوريين والمصريين الى أسواق الغرب ، كما أدى ذلك الى ركود اقتصادى فى الشام ومصر وكذلك فى اقتصاديات بيزنطة نفسها(٥). ويذكر أن المسلمين منعوا رعاياهم من التجارة مع دول النصارى زمن الفتوح ، ثم وجهوا التجارة

---

(١) عن سك العملة الاسلامية ، انظر قبل : ص٢٩٧ ومابعدها .

(٢) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ص٢٣٧ .

(٣) Hugh Dennedy : Op. Cit, p. 14 .

(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٢٥٠/٤ ؛ فتحى عثمان ، نفس المرجع ، ٢٤٢/٣-٢٤٤ .

(٥) فتحى عثمان ، نفس المرجع ، ٢٤٦/٣ .

بعد ذلك(١). ولعل محاربة الروم للأمويين اقتصاديا ، واقفال الطرق البحرية كان سببا وراء حملة سليمان بن عبد الملك على عاصمتهم ، غير أن بيزنطة لم تستغن عن تجارة الدولة الاسلامية فتركت مجالا ضيقا لذلك ، ولم تتعنت القسطنطينية فى تجارتها مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بأخشاب السفن ، مما يعنى أن العداء الدينى والسياسى ذاب أمام ضرورات الاتصال بين القوتين ، غير أن الشام فقدت مركزها التجارى حوالى سنة (٧٥٢م/١٣٥هـ) بسبب الحصار الاقتصادى البيزنطى ، فقد أحدثت الحرب الاقتصادية اضطرابا وفوضى فى الشام ومصر وشمال افريقية والأندلس(٢)، كما فقدت بلاد الشام أيضا ماكان لها من مركز تجارى فى الدولة الاسلامية فى العهد الأموى بسبب انتقال مركز الخلافة العباسية الى بغداد ، اذ أصبحت بلاد العراق المحور الرئيسى للحركة التجارية بين الشرق والغرب زمن العباسيين .

لقد مرت التجارة بحالة فتور خلال الفتوح ، فلما استقر الأمر للمسلمبن فى الأقاليم التى تم فتحها ومنها الشام نشطت الحركة التجارية من جديد(٣). ويذكر فيليب حتى أن انفصال سورية عن الامبراطورية البيزنطية أضعف تجارتها البحرية الى حد ما ، ولكنها استعاضت عن ذلك بأسواق جديدة شملتها سيادة الدولة الاسلامية فى فارس وآسيا الوسطى وفى افريقية والأندلس(٤). ولما سيطر المسلمون على الشام وتجارتها وهم أهل السيادة على أرض فارس وكثير من أرض الروم ، أصبحت الشام مرة أخرى القوة المسيطرة على التجارة والمعبر الرئيسى بين الشرق والغرب(٥). وقد أدى

---

(١) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣/٢٤٢ .

(٢) فتحى عثمان ، نفس المرجع ، ٣/٢٤٠-٢٤١،٢٤٦ ؛ نقولا زيادة ، الأسطول العربى ص٧٣ .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٦٥ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٦٤ .

(٥) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع والصفحة .

التغير الذى أحدثه الفتح وزوال الحواجز السياسية بين الشام ومصر والعراق الى حرية التجارة ونشاطها فى تلك الأقاليم وثراء أهلها[١]. وكان أهل الساحل الشمالى قد تحملوا عبء التجارة فى البحر المتوسط زمن الروم فلما ساد الاسلام على الشام ورث المسلمون الاشراف على التبادل التجارى بين الشرق والغرب والسيطرة على طرق التجارة وتأمينها[٢]. وقد ساعد الشام على تبوأ تلك المكانة التجارية العالمية موقعها وامتداد سواحلها وتوفر المواد الخام لصناعة سفن التجارة بها ، وحسن أخلاق أهلها وتميزها ببعض الصناعات[٣]، فنشطت التجارة بها وأسهمت فى التبادل التجارى العالمى ، فكانت تقوم بنقل المتاجر وتعنى بتخزينها ، وتهتم بتسويقها ، وبالتالى قامت مدن القوافل التى تنطلق منها التجارات عبر بلاد الشام[٤]. وكانت المراكب التجارية تقلع من صور وطرابلس الى ماحولها من موانىء البحر المتوسط[٥]. وكان للشام تجارة رائجة مع اقليم الحجاز منذ ماقبل الاسلام ، واستمر ذلك التواصل بعد الفتح ، واهتم الخلفاء بالمشاريع الاقتصادية فى ذلك الاقليم ، ومايخدم النهوض به حضاريا ، وكان النبط يحملون من الشام الى الحجاز الزيت والدرمك[٦]فى الجاهلية وبعد الاسلام ، ويعودون الى الشام بحاصلات الحجاز واليمن وبحاصلات الشرق ، وقد أثبتت الحفريات الأثرية عمق التواصل الحضارى بين المنطقتين[٧].

---

(١) نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٧٣ .

(٢) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣/٢٢٣،٢٢٥ .

(٣) انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤/٢٣٣-٢٣٨ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٤٠ .

(٥) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٤/٢٤١،٢٤٢ .

(٦) الدرمك : دقيق الحوارى . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : درك) .

(٧) سعد الراشد ، منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلتها ببلاد الشام فى صدر الاسلام والخلافة الأموية ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الندوة الثانية ، بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، المجلد الثانى ، عمان ، ١٩٨٧م ، ص٤٦٩-٤٨١ ؛ محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٤/٢٣٩-٢٤١ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٧٤ .

ونالت التجارة عناية الخلفاء الأمويين ، فقد اهتموا بتيسير سبل التجارة ، فنشروا الأمن والطمأنينة فى أنحاء دولتهم وأقاموا المحطات والآبار والمنازل والخانات فى طرق القوافل ، والفنادق والحمامات بالمدن التجارية كالرملة . وقد أفاد التجار من المشاريع التى قامت على طرق الحج لراحة الحجاج ، وممن عنى بذلك عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام(١). وساعد الاهتمام بالثغور على تأمين طرق التجارة ورواجها(٢). وكان للرباطات البحرية دور فى تأمين حماية المراكب التجارية وفى تيسير عملية التبادل التجارى ، ففى كل رباط كان يوجد قوم يعرفون لسان الروم ، يقومون بدور الرسل ، واذا التقت مراكب الطرفين تبادلوا التجارات(٣).

وكانت دمشق عاصمة الدولة الاسلامية مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشام ، فقد مهد الأمويون الطرق وأمنوها ، وعمروا المرافئ والفرض ، وأنشأوا الفنادق والرباطات ، ورتبوا سير القوافل الاقتصادية بين المراكز التجارية فى المدينة الكبرى(٤).

وعلى عكس ماكان موجودا فى أواخر العصر البيزنطى نشطت الحركة التجارية بين المدن البحرية المطلة على شواطئها ، وبالذات فى الشام ومصر ، وامتد ذلك النشاط الى المدن الداخلية بها ، فنشطت الحركة التجارية فى بلاد الشام ، وأصبحت بلاد الشام بفضل الاستقرار السياسى والأمنى الذى هيأه اتخاذ الأمويين لها قاعدة لخلافتهم المركز التجارى الرئيسى لحركة تجارة العبور (الترانزيت) العالمية بين الشرق والغرب .

وقد اشتغل أهل الذمة من نصارى ويهود بخدمة الحركة التجارية العالمية بين الشرق والغرب والتى أصبحت بلاد الشام المعبر الرئيسى لها ،

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٧٢-٢٧٣ .
(٢) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٢٩/٣ .
(٣) فتحى عثمان ، نفس المرجع ، ٢٣٠/٣ .
(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٢٤١/٤-٢٤٢ .

ومن التجارات الرئيسية التى اهتموا بها تجارة الرقيق ، وتجارة التوابل والأصباغ ، وتجارة المنسوجات الحريرية ، وتجارة المجوهرات ، وهذا أدى بدوره الى وجود الأسواق التجارية فى المدن الكبرى ببلاد الشام(١).

وكان لأهل الشام أسواق موسمية كالسوق الذى يقام فى الخامس عشر من سبتمبر من كل عام فى بيت المقدس ، وهو يوافق عيد الصليب(٢). وتوقيت هذا السوق فى مدينة بيت المقدس يدل على أن معظم التجار بها كانوا من النصارى . وكان للشاميين مواعيد لأسواقهم الموسمية تلك وقد عرفت منذ الجاهلية وكان النبط يقدمون على بلاد العرب ويقيمون لهم بها سوقا سنوية يحشرون لها ، ولأذرعات سوق يقام بعد سوق بصرى بسبعين ليلة ، واستمر بعد الاسلام ، وكان يقام بدمشق سوق كبير يجتمع فيه التجار وأصحاب الحرف ، حيث تنشط الحركة التجارية وتتنوع السلع القادمة من مختلف الأقطار(٣). وكان للرملة أسواقها ، والحركة التجارية بها نشيطة حيث يفد للمدن سكان المدن والقرى المجاورة للبيع والشراء ، وذكر أن للرملة أربعة آلاف صنيعة(٤).

وأصحاب الحرف كان غالبهم من النصارى مما يشير الى دورهم التجارى فى تلك الأسواق . وكانت تلك الأسواق تخضع للرقابة ، وكان

---

(١) عن أنواع التجارة بالشام وأسواقها ، انظر : ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٥٠-٢٥٣،٢٥٧-٣٢٦٣،٢٧٤-٢٧٧ ؛ وانظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٤٠-٤٤١ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٣٦/٣ .

(٢) محمود عمران ، كتابات الرحالة أركولف ، ص٣١٨-٣١٩ .
وعيد الصليب هو ذلك اليوم الذى طلبت فيه هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الخشبة التى يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام صلب عليها ، فلما وجدت وحملت اليها ، نقشتها بالذهب ، واتخذت ذلك اليوم عيدا . ويعده النصارى أحد الأعياد الشرعية الصغرى . انظر : توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٢٩٢ سلام شافعى محمود سلام ، أهل الذمة فى مصر ، ص٢١٨ .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٥٥-٢٥٦ .

(٤) صادق أحمد جودة ، مدينة الرملة ، ص٢١٣-٢١٥ .

رجال الحسبة يشرفون عليها ، من حيث النظام واختبار الموازين والمكاييل ومراقبة الأسعار وعدم الغش والمغالاة فى الأثمان(١). ولم تكن الدولة تتدخل فى تحديد الأسعار وان حثت على عدم المغالاة ، ويفهم من نص رفض فيه عمر بن عبد العزيز تحديد الأسعار لما طلب منه ذلك لغلائها فى زمنه ، أن ذلك الغلاء نتج عن سياسة العدل والتسامح التى انتهجها فى معاملة أهل الذمة ، بعدم تكليفهم فوق طاقتهم ، مما جعل الرجل منهم لايضطر الى بيع سلعته فيرخص سعرها ، وانما كيفما شاء وبالسعر الذى يرضيه(٢). وفى هذا اشارة الى أن حجم تجارات الذميين فى أسواق الشام كان من الكثافة لدرجة تؤدى الى تأثيرها على ارتفاع الأسعار وانخفاضها على مستوى البلد .

وفى العصر الاسلامى اشتهر عدد من المدن الداخلية بنشاطها التجارى بدلا من المدن الساحلية التى كانت مشهورة بحركتها التجارية فى العصر البيزنطى ، فقد حلت دمشق مكان انطاكية ، وحلت الرملة وقيسارية مكان صور . وهذا لايعنى اختفاء أهمية المدن الساحلية ، فقد بقيت لها أهميتها كقواعد عسكرية أمامية وليس كمدن تجارية ، كما كان حالها فى العصرين الرومانى والبيزنطى(٣). غير أن المدن الساحلية صور وصيدا وطرابلس اشتهرت فى العصر الأموى بأهميتها العسكرية والاقتصادية والتجارية معا ، فكانت صور احدى القواعد البحرية فى العصر الأموى ، وكانت صيدا ذات أهمية تجارية وحربية ، وكانت من أشهر أسواق العطور ، أما طرابلس فأضحت أكثر المدن أهمية على الساحل السورى فى العصر الاسلامى اذ كانت لها أهمية اقتصادية وتجارية وحربية ، وقد تهيأ لها ذلك بسبب اهتمام الخلفاء الراشدين والأمويين بها باعتبارها الميناء الطبيعى لدمشق وحمص ، وهكذا هيأ لها الخلفاء الراشدون والأمويون أن تصبح المنفذ الرئيسى للطرق

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٥٣-٢٥٤ .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٥٤ .

(٣) Hugh Kennedy : Op. Cit, p. 9,14 .

التجـارية التى تصلها بأهم مـدن الشام الداخلية الأخرى ، وبحركـة القوافل التجارية من بلاد الشام والعراق والخليج العربى[١].

ويقول هيو . ج . كندى[٢]بعد أن أشار الى بقاء بعض المدن الشامية واندثار أخرى وازدهار البعض واضمحلال الآخر بين أواخر العهد البيزنطى والعهـد المبكـر للاسلام ، أن المدن السـاحلية التى بقيـت قـائمة فى العصـر الاسلامـى بالشام كانت خالية من المساجد أو الأسواق ، وهـذا يدل على أن عدد المسلمين بها كان ضئيلا ، وأنه لم يكـن لهـم دور هـام فى الحيـاة الاقتصادية لبلاد الشام ، وأنهم لم يسهموا بأية جهـود فى الحروب التى جرت بين المسلمين والروم فى العصر الأموى وبداية العصر العباسى .

ويمكننـا أن نوافقـه فى ضعـف دور المسلمين التجـارى فى هـذه المدن السـاحلية لتحول مراكز التجارة الى المدن الداخلية فى العصـر الاسلامى كما قدمنا فى الصفحة السابقة ، وذلـك لأن المدن السـاحليـة كـانت منطقة صراع بين المسلمين والروم فى تلك الفترة ، والتجارة تحتاج الى الاستقرار والأمن . غير أن استقـرار الأمـر وثبـات السيـادة الاسلاميـة على السـاحل بعـد نشـأة الأسطول مكن من ازدهار بعض المدن الساحلية كصور وصيدا وطرابلس[٣].

كمـا أننا لانوافقه فى خلـوها من المساجد ، فقد بنى عبـادة بن الصامت مسجدا فى اللاذقيـة[٤]، وأمـر عثمان بن عفـان رضى الله عنـه عـامله على الشـام وهـو معـاوية بن أبى سفيـان رضـى اللـه عنـه أن يشحـن السـواحل بالمرابطة ويبتنى لهم المساجد ويكبرها[٥]. كما أن نزول العرب بتلك المنطقة ماكان الا لحمايتها والانطلاق منها للجهاد فيما وراءها من جزر البحر وأرض

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٤٩-٢٥٠ .

(٢) Hugh Kennedy : Op. Cit, p. 1-2,7 .

(٣) انظر ص٣١-٣٧ .

(٤) انظر قبل : ص١١٨ .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٤-١٣٥ .

دولة الروم ، فكيف ينكر دورهم القتالى .

وكانت أهم المدن التجارية فى بلاد الشام فى العصر الأموى دمشق وحلب وحمص وطبرية وعكا والرملة ويافا وانطاكية وبصرى وبعلبك والحميمة وصغر (زغر)(١).

وقد استمرت أحوال التجارة فى البحر المتوسط على ماهى عليه عقب فتح بلاد الشام ، ولم تغير الفتوحات هذه الأحوال الا قليلا ، فاستمرت التجارة فى أيدى السوريين واليونانيين ، ولم يحدث تغيير فى توزيع السكان ، الا فى الأقاليم الساحلية السورية التى تحرك سكانها على أثر الهجوم الفارسى على بلاد الشام ، وعلى أثر الفتح الاسلامى ، فجلا بعضهم الى آسيا الصغرى وجهات أخرى من بلاد البحر المتوسط .

وقد استمرت هذه التحركات أوائل الحكم الأموى . ويمكن القول أن معظم المهاجرين من سوريا كان أكثرهم من رجال الحكومة البيزنطية أو الكنيسة الأرثوذكسية الملكانية ، وأقلهم من التجار وأهل الحرف الذين تؤثر هجرتهم على الحركة التجارية (٢). وكان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعد مدة من الفتح الاسلامى من جميع أهل الأديان من الشاميين (٣).

ولما كان الاسلام يمنع المسلمين (٤) من الاشتغال بالربا ، فان معظم أعمال الصيرفة كانت فى أيدى النصارى واليهود (٥). ويقول الجاحظ ، كان

---

(١) انظر :

Hugh Kennedy : Op. Cit, p. 9,11 ,12,13.

ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٤٥-٢٤٩ ؛ وزغر : قرية بمشارف الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/١٤٢-١٤٣)

(٢) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ص٢٣٥-٢٣٦ .

(٣) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤/٢٥٠-٢٥١ .

(٤) كما منع الذميين من التعامل بالربا ، انظر قبل : ص١٠٥،٥٦٢ .

(٥) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٤٢ .

أغلب الصيارفة حتى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى مسيحيين ، ولكن اليهود بدأوا يزاحمونهم فى هذه المهنة(١). وقد قام الصيارفة بتسهيل العمليات التجارية ، ومع مرور الزمن نشأت المصارف المالية ، وكانت تسمى فى العصر الأموى "حوانيت الصيارفة"(٢). فكان المسيحيون تجارا وصيارفة ، وجمعوا من ذلك ثروات طائلة ، وقد نظم أهل الذمة أمورهم حتى كادت بعض المهن كالتجارة والصيرفة أن تكون مقصورة عليهم(٣).

وبعد الفتح الاسلامى لبلاد الشام ، واستقرار العرب الفاتحين بها ، ولمهارتهم فى التجارة وخصوصا قريش ، ولمركزهم السياسى فى البلاد ، ولموقع تلك البلاد ومكانتها التجارية ، شارك العرب الفاتحون أهل البلاد فى تجارتها ، وأسهموا فى تنشيطها واتساعها ، ولم يروا تعارضا بين اشتراكهم فى الفتوحات أو الادارة والعمل فى التجارة ، وقد وضعت الضرائب على التجارة بصورة تشجع المسلمين على الاشتغال بها وتحمى تفوقهم التجارى فيها(٤). فبرعوا فى التجارة سواء الداخلية أو الخارجية منها عبر البحار بعد أن ركبوا البحر وحذقوا فنون الملاحة فيه(٥).

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٤٢ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤٤٣ ؛ وانظر عن استعمال الصكوك والسفاتج الى جانب العملة النقدية فى قبض المستحقات المالية ، لتسهيل العمليات التجارية ، عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية ، ٢/٦١١-٦١٢ .

(٣) يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٢١-٢٢ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٦٤-١٦٥ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٧٠،٢٧٩ .

(٥) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص٦٨ .

*** الصناعة :**

لاتجود المصادر بمعلومات ذات بال عن دور نصارى الشام فى الصناعة ببلاد الشام أو سواها ، بل ولاعن الصناعة ذاتها فى فترة البحث ، وجل ماحوته الكتب عن الصناعة وصناعها ، جاء حديثا بصفة العموم عن الصناعات ببلاد الشام دون تحديد تأريخها أو من قام بها . وماجاء صريحا عن دور نصارى بلاد الشام فى الصناعات عقب الفتوح الاسلامية حتى نهاية العصر الأموى ، جاء نزرا يسيرا وغير متكامل .

وسنقصر حديثنا من خلال ماتوفر لدينا من معلومات عن دور نصارى الشام فى الصناعة خلال فترة البحث ، دون الحديث عن الصناعة بشكل عام.

لقد كشفت الدراسات الأثرية استخدام أهل الشام منذ القدم للخامات اللازمة للصناعة فى بلادهم ، ومعرفتهم لكثير من الصناعات القائمة عليها ، مما يجعل من الصعب تحديد نشأة صناعات بعينها فى العصر الأموى ، غير أننا نستطيع القول أن المسلمين كان لهم فضل رعاية هذه الصناعات والرقى بها فى العصر الأموى عما كانت عليه من قبل(١).

ولقد كان جل اعتماد المسلمين فى البداية على الصناع من المسيحيين السوريين(٢)والقبط . ولذلك قيل : أن الحرف والصناعات تركت لأهل الذمة منذ الفتح ، واستفاد المجتمع الاسلامى منها ، حيث كانت أصلا موجودة فى المجتمع السورى ، وأقرهم عليها الخلفاء الأمويون(٣).

ويذكر محمود المقداد(٤)أن بعض الباحثين ذهب الى أن العرب ومواليهم سكنوا المدن يشتغلون بالسياسة ، وظلت طبقة أهل الذمة تعمل بالزراعة والصناعة لخدمتهم ، وأضاف : أن هذا الرأى غير مقبول لمخالفة

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٩٩ .

(٢) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، دار الفكر العربى ، ودار الكتاب الحديث ، الكويت ، ص٣٢ .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٧٨ .

(٤) الموالى ونظام الولاء من الجاهلية الى أواخر العصر الأموى ، ص٢١٣-٢١٤ .

الـواقع ، ولأن صاحبه ناقض نفسه عندما ذكر أن الأعـراب قد خلعوا عنهم بداوتهم ، وأقبلوا على الزراعة . ولما ظلت الصناعات بعد الفتح بأيدى أهل البلاد المفتـوحة أخذت الأساليب الفنية المحلية تتطور تطـورا لايفقدها الصلة بما فيهـا ، ولكنهـا تخضع لمبـادىء الشـريعة الاسلامية متـأثرة بامتزاج العـرب بأهـل البلاد المفتوحة ، وتتلمذهم على يد أهل تلك البلاد ، واختلاط أهـل البلاد المختلفـة فى دولة الاسلام الواحدة ، وهو ماأنتـج صناعة فنية متشابهة فى جملتهـا متميزة فى جزئيـاتها(١). وكـان طبيعيا لـذلك أن تتأثر الحيـاة فى الـدولة الأموية التى اتخذت من دمشق عاصمة لها بالحضـارة البيزنطية ، وأن يصبـح الفـن البيزنطى معينـا يستمـد منـه المسلمـون العـون على التشييـد والتصنيع(٢). لذلك برز أهل الذمة فى الصناعات والمهن المختلفـة ، وامتهن النصـارى كثيرا مـن تلك الحرف ، فكـان معظـم الصنـاع منهـم ، وأعطـاهم المسلمـون حرية واسعة فى ممارسة حرفهم ، ولم تتدخل الـدولة الا فى بعض الصنـاعات كسـك النقـود وصناعة الأسطـول والحرير(٣)، ولم تكن الدولـة تعـاملهم على أساس الدين بل على أسـاس الحرفة ، وكـان لكل حرفة سوقها وزيهـا ورئيسهـا الذى يمثلهـا ، فظهـر التخصص فى الصنـاعات ، وكـان لهـا نقاباتها ، وتقاليدها(٤).

ان ماقدمناه من أقوال الباحثين حول اعتماد المسلمين على أهـل الذمة وبخاصـة النصارى فى الصناعـة ، فيه الكثير من الصحـة ، وان كان به شىء من المبالغة فان الأعمال فى أى مجتمع وأى عصر لايمكن أن تكون قصرا على فئـة مـن الناس ، غير أن فئـة منهـم يمكن أن تكون الغـالبة على حرفـة من

---

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٧ .

(٢) محمـد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، مكتبة الانجلـو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص٥٠ .

(٣) سنـذكر أسباب تدخل الدولة فى تلـك الصناعات عند الحديث عنهـا ، انظـر بعد : ص٥٩٧، ٦٠١–٦٠٢ ؛ وانظـر تدخل الـدولة فى صنعـة سـك العملـة قبـل : ص٢٩٧ ومابعدها .

(٤) انظر : توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٤٦، ٤٣٨، ٤٤٤–٤٤٥ .

المهن مع مشاركة الغير فيها . فالمقبول أن الصناعات كان الغالب عليها فى بلاد الشام بعد فتحها هم نصارى الشام ، ولكنها لم تكن قصرا عليهم ، فشاركهم الموالى والمسلمون من العرب بفاعلية ، حتى بدا لجمال جودة(١)أن الحرف اليدوية والأعمال التجارية كانت فى الغالب من اختصاص الموالى والعبيد ، وأنهم كانوا مسيطرين عليها . وهناك من الكتاب وخاصة المحدثين من عرب ومستشرقين من يقول أن المصادر تكاد تجمع على أن العرب وخاصة أهل البادية فى الجاهلية وصدر الاسلام والعصر الأموى ، كانوا يكرهون ممارسة الصناعات والمهن اليدوية المختلفة ، ويعدون الاشتغال بها عيبا وحطة ، ويزدرون أصحابها(٢). ولذلك نجد باحثا يرى أنه لم يكن للعرب دور مباشر فى ممارسة التجارة والصناعة غالبا(٣).

والحق أن العرب أسهموا بنصيب قد يقل أو يكثر من حالة الى أخرى فى جميع الأعمال زراعة وتجارة وصناعات مختلفة مع أهل الذمة والموالى الذين غلبوا عليها ، فقد كان العرب فى الواقع على علم بكثير من الحرف ، وكانوا يعملون بها ، منذ الجاهلية وصدر الاسلام . وقد ذكر الكتانى(٤) أسماء كثير من العرب سادتهم وعامتهم فى الجاهلية ، وفى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ممن مارسوا الحرف والصناعات المختلفة ، كصناعة بعض أنواع الأسلحة ، والنجارة ، والدباغة ، والصياغة ، والنحت ، والنقش ، والحياكة ، وغيرها .

---

(١) انظر : جمال جودة ، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالى فى صدر الاسلام ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص١٠٧-١١٨ .

(٢) انظر : محمود المقداد ، الموالى ، ص٧٩-٨١،٢١١ ؛ جميل المصرى ، الموالى (موقف الدولة الأموية منهم) ، أم القرى للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص١٩ .

(٣) جمال جودة ، نفس المرجع ، ص١١٣-١١٤،١٠٩ .

(٤) انظر : التراتيب الادارية ، ٢/٥٢،٥٧،٥٩-٦٠،٦١،٦٣-٦٦،٧٣-٧٥،١٠٧-١٠٨، ١١١-١١٣،١١٦،١١٨-١٢١،١٦٥ .

وقد سعى العرب الى كسب المهارات الصناعية ، وحرصوا على تعلم فنونها على يدى أهلها ، ولم يأنف من ذلك حتى سادتهم . فقد ذكر أن عروة ابن مسعود[١] وغيلان بن سلمة[٢]، لم يحضرا حصار الطائف زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كانا بجرش[٣] يتعلمان صنعة المنجنيقات والدبابات[٤]. وقد عدها محمد أحمد معبر[٥] جرش اليمن ، وهى مضبوطة بالشكل هكذا فى طبقات ابن سعد لكنه لم يشر الى أنها جرش اليمن أو جرش الشام ، والضبط من الناشر . وأنا أراها جرش الشام حيث الصناعة متقدمة فى بلاد الشام التابعة للدولة البيزنطية ، وكان لأهل الحجاز مع الشام صلات تجارية وغيرها . ولعل ماذكر من وجود آبار عادية وأرحاء عظيمة

---

(١) عروة بن مسعود بن معتب الثقفى ، كان أحد الأكابر فى قومه ، وقيل أنه المراد بقوله : {على رجل من القريتين عظيم} على خلاف ، وكان له اليد البيضاء فى تقرير صلح الحديبية ، قيل : شهد الحديبية ، وقيل : أسلم سنة تسع، وقيل لحق بأثر الرسول صلى الله عليه وسلم منصرفه عن الطائف ، فأسلم واستأذن الرسول عليه السلام أن يرجع الى قومه ، فأذن له ، فدعاهم الى الاسلام ، فقتلوه . انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٢/٤٧٧-٤٧٨ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، ٣١٢/١ .

(٢) غيلان بن سلمة بن معتب الثقفى ، كان شاعرا ، وفد على كسرى فسأله أن يبنى له حصنا بالطائف ، فبناه ، ثم جاء الاسلام فأسلم ، وكان له عشر من النسوة ، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار أربعة منهن ، ويفارق بقيتهن ، ففعل. انظر : ابن سعد ، نفس المصدر ، ٥/٥٠٥-٥٠٦ .

(٣) جرش ، مدينتان ذكرهما ياقوت الحموى ، الأولى : جرش بالضم ثم الفتح وشين معجمة ، من مخاليف اليمن من جهة مكة ، قيل أنها مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة .

والثانية : جرش ، بالتحريك ، وهى اسم مدينة عظيمة كانت وهى الآن ـ زمن ياقوت ـ خراب ، وبها آبار عادية تدل على عظم عمارتها ، وفى وسطها نهر جار يدير عدة رحى عامرة الى هذه الغاية ، وهى فى شرقى جبل السواد من أرض البلقاء . (معجم البلدان ، ٢/١٢٦-١٢٧) .

(٤) ابن سعد ، نفس المصدر ، ٣١٢/١ .

(٥) مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة ، دار جرش للنشر والتوزيع ، خميس مشيط ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٤١ .

ظلت عامرة حتى زمن ياقوت الحموى كما ذكر فى التعريف بجرش الشام اشارة على تقدم صناعى كانت تشهده المدينة ، وفى ذلك دليل على أنها المقصودة فى هذا الخبر ، والله أعلم .

ولم يجد المسلمون فى عهد النبوة غضاضة فى الاستعانة بالصناع المهرة من غير المسلمين ، فقد كان من سبى خيبر ثلاثون صانعا ، تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ينتفعون بصنعتهم(١). وقيل أن الذى صنع المنبر النبوى الأول نجار رومى ، وقيل تميم الدارى وهو من مسلمة أهل الشام(٢). واذا ماتحرينا الحقيقة فى العصر الأموى وجدنا أن كثيرا من العرب ولاسيما أهل الحواضر كانوا ذوى خبرة ببعض المهن منذ الجاهلية ، فواصلوا العمل فيها بعد أن استقر بهم المقام فى البلاد التى تم فتحها ، واكتسبوا باحتكاكهم أهل الذمة والموالى الخبرة بصناعات جديدة ، كما نزلت جماعات من الأعراب فى حواضر البلاد المفتوحة وراحوا يقتبسون من أهلها خبراتهم بتلك الأعمال وينخرطون فى عداد أصحابها(٣).

وكانت بلاد الشام تمثل قلعة صناعية عتيدة فى دولة الروم ، ففى بلاد الشام وموانيها نشطت صناعة السفن الحربية والتجارية ، وفى مدن الشام ازدهرت صناعة الزجاج والأقمشة وغيرها من الصناعات(٤). وكانت بلاد الشام غنية بعدد كبير من المعادن والمواد الخام اللازمة للصناعة والمساعدة على وجودها وتطورها(٥). ولاشك أن المسلمين بفتحهم بلاد الشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب ورثوا تلك الصناعات وأفادوا من خبرات أصحابها .

---

(١) الكتانى ، التراتيب الادارية ، ٧٥/٢ .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٣) محمود المقداد ، الموالى ، ص٢١٢-٢١٣ .

(٤) سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ، ص١٩٩ .

(٥) ذكرت ثريا حافظ عرفة المعادن والمواد الخام المتوفرة ببلاد الشام ، انظر : نفس المرجع ، ص٢٠١ ومابعدها .

وكان لتشجيع الحكام المسلمين والكبراء الأثر البين فى ازدهار العمارة وبعض فروع الصناعة وتطورها(١).

ومن أهم الصناعات التى قامت فى بلاد الشام بعد فتحها حتى نهاية العصر الأموى ، وكان لنصارى الشام دور كبير فى قيامها ، صناعة السفن . فقد كان للبيزنطيين مراكز لصناعة السفن على شواطىء البحر المتوسط ، وهذه المراكز وقعت فى أيدى المسلمين بعد الفتح ، وكانت دور الصناعة فى الاسكندرية والقلزم وعسقلان ويافا وقيسارية وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية ، وقد آل الى العرب أمر العناية بها ، وقد تم ذلك على يد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أمير الشام وعبد الله بن سعد بن أبى السرح أمير مصر ، وكان تنظيم الحملة على قبرص سنة ٢٨هـ/٦٤٨-٦٤٩م أو ٢٩هـ/٦٤٩-٦٥٠م أول عمل فى هذا المجال ، فقد استدعى معاوية رضى الله عنه الصناع على اختلاف أعمالهم الى عكا ، ليصنعوا مايحتاج اليه من السفن (٢).

وقد استعانت الدولة الاسلامية فى أوائل عهدها فى بناء السفن وركوب البحر بأهل البلاد التى خضعت لحكم المسلمين وفيهم النواتية(٣)، الذين حذقوا هذه الصنعة وبرعوا فيها(٤).

غير أننا نقف قليلا لمناقشة ماذكره عدد من الباحثين اعتمادا على ماأورده البلاذرى ، أن معاوية بن أبى سفيان أنشأ أول دار لصناعة السفن بالشام فى عكا سنة ٤٩هـ/٦٦٩م ، وكانت الصناعة قبل ذلك بمصر فقط . اذ

---

(١) ارنست كونل ، الفن الاسلامى ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م ، ص١٢ .

(٢) نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٤٩ ؛ وانظر الصفحة التالية ومابعدها .

(٣) النوتى : الملاح الذى يدير السفينة فى البحر ، والملاح الذى يلى الشراع ، ونوتى من نات ينوت أى تمايل ، وقد سمى الملاح نوتيا لأنه يميل مع السفينة فى البحر من جانب الى جانب ، وهو معرب من الكلمة اللاتينية (Nauta) . سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، حاشية (١) ، ص٢٧٣ .

(٤) سعاد ماهر ، نفس المرجع ، ص٧٣،١٦٥ .

يقـول البلاذرى : "لما كانت سنـة تسع وأربعين خرجت الـروم الى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بجمع الصنـاع والنجـارين فجمعـوا ورتبهـم فى السـواحل ، وكـانت الصنـاعة فى الأردن بعكـا ، ... فنقـل هشـام بن عبد الملك الصنـاعة الى صـور ، ..."(١). وهذا النص يشير الى أن معاوية رضى الله عنه أنشأ دارا لصنـاعة السفن فى عكا بالشام سنة ٤٩هـ/٦٦٩م ، وجمع لصناعتها الصناع والنجارين ، ولم يحدد هويتهم ، غير أن المقبول أن يكونوا من أهل السواحل ذوى الخبرة بصنـاعة السفـن ، ولاشـك أن جلهم كـانوا نصارى وان كنا نعتقـد مشـاركة المسلمين لهـم فى ذلك ، خصوصا من أسلم مـن نصارى الشام ذاتهـم ، أو مـن موالى المسلمين والفئات غير العربية التى أنزلها معاوية رضى الله عنه السواحل من الفرس وغيرهم(٢).

وأرى أن قـول البلاذرى هذا لايصح ، فكيف نقبـل أن الشام لم يكن بهـا صناعة سفن حتى أنشأ معاوية دار لصناعة السفن بعكـا ، وأنها قبل ذلك كانت بمصر فقط ، فلدينـا مـن النصـوص عـن البلاذرى نفسـه وغيره مـن المؤرخين مـايدل على أن معـاوية رضـى اللـه عنـه شـرع فى بنـاء الأسطـول بسـواحل الشام ، وغزا به البحـر منذ زمن عثمان رضـى اللـه عنه . ويمكن قبـول خبر البلاذرى هـذا على أن تلـك الـدار التى أنشـأها معـاوية لصنـاعة السفـن فى عكـا سنـة ٤٩هـ/٦٦٩م ، كـانت أول دار اسلاميـة ، بينمـا كـانت صناعة السفن قبل ذلك فى دور صناعتها القديمة المعروفـة منذ العهد البيزنطى واستعين بمن كـان فيهـا مـن الصنـاع والنـواتية المهـرة مـن أهـل البلاد . فالبلاذرى نفسه يذكر عند حديثـه عن غزو معاوية رضـى الله عنه بالمسلمين

---

(١) فتـوح البلـدان ، ص١٢٤-١٢٥ ؛ وانظـر : عمر تدمـرى ، ثغـور بلاد الشـام ، ص٣٢٨-٣٢٩ ت؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطيـة ، ٣٥٩/١ ، ٤٥/٢ ؛ نقـولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٤٠ ؛ سعاد ماهر ، البحـرية فى مصر الاسلامية ص٣٠٠-٣٠١ ؛ نجدة خماش ، الجيش الشامى ، ص٣٦٣-٣٦٦ .

(٢) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص١٢٤ .

قبرص سنة ٢٨هـ/٦٤٨-٦٤٩م (على خلاف) قوله : "فركب من عكا ومعه مراكب كثيرة"(١). وأنه غزاها مرة ثانية سنة ٣٣هـ/٦٥٣-٦٥٤م فى "خمسمائة مركب ، ففتح قبرص عنوة"(٢).

وفى الطبرى(٣) قول الواقدى : "غزا معاوية رضى الله عنه فى سنة ثمان وعشرين قبرص ، وغزاها معه أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، حتى لقوا معاوية ، فكان على الناس" . ويفيد النص أن معاوية خرج بأسطول الشام وابن أبى السرح بأسطول مصر فالتقيا وصارا فى أسطول واحد تحت امرة معاوية رضى الله عنه . وقال البلاذرى : "رم(٤) معاوية عكا عند ركوبه منها الى قبرص"(٥). وعكا كانت قاعدة بحرية بها دار لصناعة السفن منذ العهد البيزنطى وقد ورثها المسلمون كما قدمنا(٦). ويقدم لنا ابن أعثم خبرا يسند مانريد تبيانه ، من أن معاوية خلال ولايته للشام ، ومنذ أن أذن له الخليفة عثمان بغزو قبرص ، اهتم بصناعة السفن وعمل على انشاء أسطول اسلامى فى الشام ، مفيدا فى بادىء الأمر من دور الصناعة القديمة التى ورثها المسلمون عن البيزنطيين ، ومن خبرات أهل السواحل من نصارى الشام وغيرهم الذين حذقوا هذه الصنعة ، وأنه خاض بذلك الأسطول غزواته البحرية زمن عثمان الى قبرص وفى ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/٦٥٤-٦٥٥م . فقد أورد ابن أعثم(٧) خبر فتح قبرص ، وقال أن معاوية رضى الله عنه بعد أن أخذ الاذن من الخليفة عثمان كتب الى أهل

---

(١) فتوح البلدان ، ص١٥٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص١٥٨ .
(٣) تاريخ الأمم ، ٢٦٢/٤ .
(٤) رم : الرم إصلاح الشىء الذى فسد بعضه . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : رمم) .
(٥) نفس المصدر ، ص١٢٤ .
(٦) انظر قبل : ص٥٩١ .
(٧) الفتوح ، م١ ، ص٣٤٨ .

السواحل يأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى ساحل عكا ليكون ركوب المسلمين منها الى قبرص ، فأصلحت المراكب وجمعت ، ودفع من عكا فى عشرين ومائتى مركب . وفى هذا القول دلالة على أن معاوية عمد الى اصلاح المراكب القديمة فى دور صناعتها القديمة وعلى يدى أهلها . ومما يفيد شروع معاوية رضى الله عنه فى صناعة السفن منذ زمن عثمان ماذكر من أن معاوية أعد سفنا كثيرة فى طرابلس استعدادا لغزو القسطنطينية سنة ٣٤هـ/٦٥٤-٦٥٥م ، فقام روميان باحراق تلك السفن ، فما لبث أن خرج فى نفس السنة فى أسطول شامى سانده أسطول مصر لحرب الروم فى ذات السوارى [١]. مما يدل على قدرة دور الصناعة الشامية فى تعويض السفن التى أحرقت فى زمن يسير .

وينقل نقولا زيادة [٢] رأى على محمد فهمى الموافق لما ذهبت اليه معتمدا على حيثيات أخرى ، حيث قال : ويرى فهمى أن رواية البلاذرى بأن صناعة السفن كانت بمصر فقط لاتتفق تماما مع نشاط معاوية البحرى ، وأن انشاء دار الصناعة فى جزيرة الروضة كان سنة (٥٤هـ/٦٧٣م) ، فيما يروى البلاذرى أن دار الصناعة أنشئت بعكا سنة (٤٩هـ/٦٧٣م) أى قبل دار الصناعة بالروضة بخمس سنين ، ولعل الأخذ بالقول أن معاوية كان كبير العناية بصنع سفن جديدة فى الموانىء الفينيقية التى استولى عليها هو الأمر الأمثل ، فما نحسب معاوية ينتظر حدثا معينا فيستجيب له استجابة مؤقتة .

ويقول محمد ضيف الله بطاينة [٣]: ويبدو أن الدولة فى هذه الفترة كانت قد استفادت من خبرات سكان بلاد الشام وبلاد مصر القدامى ، واستعانت بما عندهم من المراكب فى الغزوات التى قامت بها فى البحر ، الا

---

(١) انظر قبل : ص٥٥٣ ، وأيضا : ابن الأثير ، الكامل ، ٥٨/٣ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٣٧/٥ .

(٢) الأسطول العربى ، ص٥٠-٥١ .

(٣) فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص١٢٣-١٢٥ .

أنهـا لم تركـن الى ذلـك طـويلا بل باشـرت باقـامة دور الصنــاعة البحـرية وأضافت فيها خبرات رعاياها من الأمم البحرية القديمة .

فـاذا مـاذكر أن أول دار أنشئـت لصنـاعة السفـن فى مصـر فى العصـر الاسلامــى سنـة (٥٤هـ/٦٧٤م) بجزيرة الــروضة [١]، وكـان البلاذرى وهـو يتحـدث عـن انشاء دار لصناعـة السفن بعكا سنة ٤٩هـ/٦٦٩م ، أن الصنـاعة كانت بمصر فقط ، اتضح لنـا أنه يقصـد أول دار أنشـأها المسلمـون لصنـاعة السفـن بالشام ، بينما كانت أول دار أنشـأها المسلمـون لصنـاعة السفن بمصر كانت بجزيرة الروضة سنة ٥٤هـ/٦٧٤م ، وهـذا لاينفـى وجود دور الصنـاعة القـديمة التى أفـاد المسلمـون منهـا ومن خبرات أهلهـا مـن أرباب الصنعة فى صناعة السفن التى كونت أساطيلهم الحربية التى خاضوا بها معاركهم البحرية قبل ذلك التاريخ سواء كان ذلك بالشام أو مصر .

وكـانت صنـاعة السفن بالشـام قبـل الفتح الاسلامـى فى صـور وعكـا وطرابلس [٢]. واعتمد المسلمون على أهل الخبرة من أهل الشام الذين عرفوا بذلـك منــذ العهـد البيزنطــى ، واستخـدموا الأمـم التى مــارست البحــر وصناعته [٣]. ويذكر بطرس ضـو [٤]أن الموارنة تعـاونوا مع معـاوية رضـى الله عنه فى بناء أسطوله البحرى .

وكـان الملاحون فى بلاد الشـام فى غـالب الأحوال مــن سكـان البلاد الأصليين ، وقد كان الروم قلة بينهم ، لأن عددا كبيرا من الروم رحل عن

---

(١) سعـاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص٣١٣ ؛ أحمد مختـار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص٢٥ .

(٢) انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤٠/٥ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ص ٢٤٧،٢٤٩-٢٥٠ .

(٣) الكتانى ، التراتيب الادارية ، ٣٧٣/١ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلاميـة البيزنطية ٢٨/٢ .

(٤) تاريخ الموارنة ، ٤١٢/١ .

البلاد أثناء الفتح وفى أعقابه(١).

ومن هذا يتضح أن الخبرة فى صناعة السفن المتأصلة فى تقاليد أهل الساحل الشاميين كان لها أثر كبير فى اتقان العمل البحرى من بناء السفن وشحنها وقيادتها ، كما كانت السفن الاسلامية التى صنعت فى العصر الأموى تشبه السفن البيزنطية فى شكلها ، لأن الأسطول الاسلامى نشأ فى البيئة ذاتها التى صنعت فيها السفن فى الشام فى العصر البيزنطى من قبل ، وكان الصناع الذين بنوا السفن الاسلامية الأولى هم أحفاد أولئك الذين صنعوا السفن البيزنطية على سواحل الشام ، فكان التشابه فى الصنعة أمرا طبيعيا ، غير أن هؤلاء لم يكونوا يومها مخططين أو مسيرين للأمور ، فكانوا أصحاب الخبرة الصناعية للأسطول وليس لهم ادارته . كما أن العرب المسلمين سرعان ماأخذوا بثقافة البحر ، مكتسبين خبرتهم ممن خضع لحكمهم من الأمم السابقة أصحاب المهارة فى صناعة السفن وركوب البحر .

كما استعان معاوية بالعناصر العربية اليمنية من أهل الشام لخبرتهم البحرية(٢)، واستعين أيضا بالأقباط المصريين فى صناعة الأسطول الشامى وخدمته بل والقتال فيه ، لخبرتهم المتميزة(٣). ذلك أنه لما استقر الأمر للمسلمين وشمخ سلطانهم وخضع لهم غيرهم ، تقرب لهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته ، فأنشأوا لهم السفن والشوانى ، واستخدموا منهم النواتية فى حاجاتهم البحرية(٤). ولاشك أن بعض أولئك كانوا قد اعتنقوا الاسلام ،

---

(١) عن ذلك انظر : نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٥٦،٨١ .

(٢) أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص٢٥-٢٦ .

(٣) نجدة خماش ، الجيش الشامى ، ص٣٦٣-٣٦٦ ؛ السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٩م ، ص٢٧-٢٨ ؛ سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص٧٣-٧٥،٢٣٢ .

(٤) أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص١٦٦ .

فظلوا فى خدمة الأسطول وصناعته ، صناعا أو قادة أو غير ذلك من جوانب خدمته .

ويبدو أن الاستعانة بنصارى الشام وغيرهم فى بناء الأسطول وصناعته وخدمته وتوفير الخامات له وخدمته ، لم يكن أمرا اختياريا وانما كان أمرا الزاميا .

يذكر نقولا زيادة(١) وهو يتحدث عن أسطول مصر ، أن ماحدث فى الشام كان كالذى حدث فى مصر آنذاك ، لوحدة الدولة ، وعمومية السياسة ، وتشابه الظروف ، فيقول : "وكان على السكان أن يزودوا الأسطول بالملاحين اللازمين له ، ويذكر على محمد فهمى من خلال الأوراق البردية أن الملاحين كانوا يفرضون على سكان مصر كلها لاعلى سكان المدن الساحلية فحسب ، وأن البلدة التى لاتتمكن من توفير الرجال المطلوبين ، عليها أن تدفع أجر ملاحين بدل يجلبون من بلد آخر ، وللحكومة أن ترفض البدل .

كما اتبعت الحكومة الاسلامية فى مصر سياسة أشبه ماتكون بالتجنيد الوراثى فى الأمور الصناعية خاصة البحرية ، فألزمت أهل الصناعات أن يكون ابن الملاح ملاحا ، وابن الحداد حدادا ، وهكذا دواليك ، وكان يدفع لهم أجر مقابل عملهم ، وهو مايبعد هذه السياسة عن صفة السخرة(٢).

وكان توفير مهرة الصناع من نجارين وبنائين وحدادين وقلفاطيين يتم بنفس الأسلوب الذى يتبع فى الحصول على الملاحين ،و كان يلجأ الى ارغام بعض الفئات على العمل فى مصانع السفن ، كما كان يطلب من فئات أخرى أن تدفع مبالغ معينة من المال لاستئجار العمال اللازمين ، والا عوقبوا ، ولم يعف من ذلك حتى رهبان الأديرة كما أوضحت أوراق البردى(٣).

---

(١) الأسطول العربى ، ص٦٥-٦٦ .

(٢) نقولا زيادة ، نفس المرجع ، ص٦٥ .

(٣) نقولا زيادة ، نفس المرجع ، ص٦٦-٦٧ .

وكان على السكان أن يقدموا للأسطول بعض المواد البنائية والسفينية والتموينية كالأخشاب ، والحديد ، والنحاس ، والحبال ، والوسائد ، والقماش ، الى جانب الزامهم بالمواد الغذائية من خبز وقمح وسمن وخل وزيت وملح وكانت نفقات الأسطول كبيرة ، والمخصصات على نوعين ، عادى وآنى عند الضرورة ، وكانت نقدا وحبوبا وتدفع للموظفين والمسئولين والعمال والملاحين ، وكانت هذه النفقات تجمع من السكان(١).

ويتبين من أوراق البردى قدر أجور الصناع ، غير أن الملفت للنظر أنها كانت بالعملة البيزنطية ، مع أن أغلب تلك البرديات تعود لما بين سنة (٨٠-٩٨هـ/٦٩٩-٧١٩م) ، فهل استمر التعامل بالعملة البيزنطية بعد سك العملة الاسلامية ؟(٢).

وربما لم يكن قد سك حتى ذلك الوقت كميات كافية للسكة الاسلامية التى سكها عبد الملك بن مروان سنة ٧٧هـ لتصبح هى العملة السائدة فى التعامل فى مختلف أمصار الدولة الاسلامية .

ومن الصناعات ذات العلاقة بصناعة الأسطول ، صناعة النار الاغريقية التى اخترعها كالينيكوس من أهل بعلبك بالشام ، غير أن تعصبه لنصرانيته ، دعاه الى نقض عهد الذمة والخروج من الشام الى أرض الروم ، فقدم للبيزنطيين اختراعه ، فكان سلاحا ماضيا وقف فى وجه حركة الجهاد الاسلامى تجاه الروم ، ولقى منه المسلمون فى الحروب البحرية الأهاويل(٣).

ويذكر أن العرب تعلمت صناعة الحرب من الفرس والروم ، وكان ذلك سببا لدخول ألفاظ رومية وفارسية كثيرة فى لغتهم(٤). ومن ذلك نقلهم

---

(١) نقولا زيادة ، الأسطول العربى ، ص٦٤-٦٥ .
(٢) نقولا زيادة ، نفس المرجع ، ص٦٩ .
(٣) انظر قبل : ص٥٥٩ .
(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٦/٥ .

صناعة المنجنيق والطراده عن البيزنطيين[١]. غير أن العرب رقوا بتلك الصناعات وطوروها[٢].

ومن أبرز الصناعات المعدنية فى الشام سك العملة ، وقد ظل المسلمون يستخدمون العملة البيزنطية الذهبية ، والعملة العربية التى سكت فى البداية على طراز العملة البيزنطية ، حتى سك عبد الملك بن مروان العملة الاسلامية الخالصة سنة ٧٧هـ . وكان المسلمون قد أبقوا على دور الضرب البيزنطية ، واستمر الصناع النصارى الذين كانوا بهذه الدور يسكون العملة للمسلمين ، ولم يكن سك عبد الملك بن مروان العملة الاسلامية الخالصة يقضى باخراج النصارى من تلك الصنعة ، وانما الزامهم صناعتها على الطراز الاسلامى الخالص ، وان كنا لانملك دليلا على بقائهم فى تلك الصناعة بعد التعريب[٣].

أما صناعة المجوهرات والتحف العاجية فقد عرفتها سورية منذ عهود قديمة ، وقد تأثر الفن الاسلامى بالزخارف المسيحية الشرقية والساسانية المحفورة على العاج والمجوهرات فيما لايخالف عقيدة الاسلام ، فلم يقبل صناع التحف على صناعة التماثيل ونقش الصور كما كان سائدا قبل الاسلام ، ويمكن القول أن الأمويين استخدموا فى هذه الصناعة وغيرها من الصناعات الفنية الصناع الفنيين المهرة فى جميع الأمصار التى فتحوها[٤]. وكان للفاتحين فضل توفير خامات الذهب والفضة والأحجار الكريمة اللازمة لصناعة الحلى من عوائد غنائم الفتوحات[٥].

---

(١) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية ، ص٢٢٣ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٢٤١/٤-٢٤٢ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ص٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) انظر قبل : ص٣٠٨ .

(٤) انظر : محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٦٧-٦٩ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٢٦،٢٢٧ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٢٦ .

(٥) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٢٢٥/٤-٢٢٦ .

وقد اشتهرت بلاد الشرق وخاصة الشام ومصر منذ القدم بصناعة الزجاج ، فلما جاء الاسلام ظلت الأساليب القديمة سائدة ، وظل الصناع يمارسون صناعتهم وفق ماعرفوه من الأساليب القديمة ، فى زخرفة الأوانى المتميزة بدقة صناعته فيما عدا رسم الصور عليها(١).

أما صناعة الخزف ، فقد اتبع الخزافون فى العصر الاسلامى فى بادىء الأمر الأساليب التقليدية التى سادت فى مصر وسوريا والعراق وايران ، ثم بدأوا يبتكرون أساليب جديدة فى صناعة الخزف الاسلامى مع استبعاد رسم الصور عليها ، وكانت هذه الصناعة قد عرفت فى الشام منذ عهد الأنباط ، فقد عثر على أفران لصناعة القاشانى عند أبواب دمشق تؤكد النشاط فى هذه الصناعة منذ أقدم العصور واستمرارها فى العصر الاسلامى ببلاد الشام(٢).

وكون الشام بلادا زراعية ، فقد عرف بها عدد من صناعات المنتجات الزراعية منذ أقدم العصور واستمرت فى العصر الاسلامى كصناعة الزيوت والصابون وغيرها(٣). ولاشك أنها استمرت بيدى أهلها الذين خبروا صنعتها ، حتى عرفها المسلمون منهم وشاركوهم فيها . كما نقل المسلمون الى بلاد الشام عددا من الصناعات ومنها صناعة السكر التى جاءت من الهند الى ايران فى القرن السابع الميلادى ثم نقلها العرب الى العراق والشام ومصر(٤).

---

(١) انظر : زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٥٨١-٥٨٢ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة أحمد فكرى ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ، ١٩٥٨م ، ص٢٣٠ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٠٤/٣ .

(٢) انظر : ديماند ، نفس المرجع ، ص١٦٤ ؛ زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٢٥٨ ومابعدها ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢١٦-٢١٧ .

(٣) انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٥٦/٤-١٦٠ ؛ ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٣٤-٢٣٦ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٣٧ .

ومنها صناعة العطور ، وكان عبد الله بن راشد على صناعة طيب الخلفاء يصنعه لهم[(١)].

وهذه الصناعات المنقولة الى بلاد الشام على يد المسلمين ليس هناك مايمنع من مشاركة النصارى لهم فيها ، وهم أرباب الصناعات فى الشام آنذاك ، وعليهم المعول فى كثير من الأعمال اليدوية . كما صنع الورق زمن بنى أمية بالشام ، وهناك مايدل على أنه عرف ببلاد الشام منذ العصر الجاهلى[(٢)]. وان صح ذلك فانما يكون بنو أمية قد أقاموا صناعته على يد من عرف ذلك من أهل البلاد الأصليين سواء من أسلم منهم أو من ظل على النصرانية .

ومن أهم الصناعات الشامية التى كان لنصارى الشام دور فيها ، صناعة النسيج ، فقد كانت صناعةالنسيج موجودة فى بلاد الشام قبل الاسلام ، وعنى أهل الشام بتلك الصناعة والاتجار بها . وكانت بلادهم تضم مراكز هامة لصناعة النسيج وزخرفته ، فلما فتح المسلمون الشام ورث المسلمون مصانع الحرير الحكومية المعروفة بدور الطراز ، وكانت فى بيروت وصيدا ، فاستمرت صناعة الحرير بدور الطراز تلك فى العصر الاسلامى ، وكانت تلك المصانع تعمل للدولة ، فتصرف الدولة عليها وتقدم لها ماتحتاجه من الأقمشة ، وكانت تلك الصناعة قد خملت فى نهاية العصر البيزنطى لاتباع الحكومة الرومية سياسة احتكار تلك الصناعة ، فنهض بها بنو أمية ، وشجعوها ، وقيل أن معاوية أنشأ فى قصره الخضراء بدمشق دارا للطراز ، ثم شاعت فى كثير من المدن كصور وحلب ودمشق وغيرها ، وذلك لاهتمام الخلفاء والأمراء والأكابر بها ، فقد جرت عادة الخلفاء على صنع الثياب الحريرية الفاخرة الخاصة بهم ، وكذلك الخلع التى كانوا يخلعونها على كبار أصحاب الوظائف ، وقد نقش اسم الخليفة على الطراز تسجيلا لحكمه

---

(١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٣٨ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٢٢٢/٤ .

وسلطـانه ، وكان يعين لها من يقوم بأمرها ويسمـى صاحب الطراز[١]. وفى بادىء الأمـر صنعت هذه الثيـاب الفاخرة المخصصة للخلفـاء فى دور الطـراز المعـروفة منذ العصر البيزنطـى فقد ظهر الأثر البيزنطـى على بعض مصنوعات النسيـج فى ذلك العصـر[٢]والمنطـق يدعـو للاعتقـاد أن من قـام بأمـر هذه الصناعة هم المهرة من الحاكة الذين كانوا يعملون بتلـك المصانع منذ العصر البيزنطـى مـن نصارى الشام ، وبمشـاركة مـن أسلم مـن أهـل تلك البلاد أو استقـدم اليهـا ونزل بها مـن أهـل الصنعة. ولذلك لانقبـل ظـن ثريا حافـظ عرفة[٣]، أن صناع النسيج كانوا من الفرس ، لأن كلمة طراز كانت فارسية الأصـل . وكـانت صنـاعة الحرير أصلا صينيـة نقلهـا الـروم الى أرضهـم ، واحتكرتها الدولة فى عهد الامبراطور جستنيان ثم عـرف أهل الشام سرها ، فانتشرت فى بلادهـم[٤]. وأدت سيـاسة الاحتكـار تلـك الى خمـول صنـاعة النسيـج بالشام أواخر العصـر البيزنطى[٥]. غير أن الـدولة الأمـوية جارت الـروم فى احتكـار تلك الصنعـة أو فى شبـه احتكارهـا ، فقـد كـانت مصانع الحرير حكومية ، أو تخضع لرقابة شديدة من الدولة[٦].

يقـول دافيد تالبوت رايس[٧]: اننـا فى الوقت الحاضر لانعـرف عمليا

---

(١) انظـر : ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٠٥-٢٠٨،٢١٢،٢٥٧،٢٥٩ ؛ زكـى محمـد حسـن ، فنـون الاسلام ، ص٣٤٥ ؛ ديماند ، الفنـون الاسلاميـة ، ص٢٤٩ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٤/٢٠٠ ومابعدها .

(٢) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٠٨ ؛ محمد عبد العـزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامـى ، ص٦٧ ؛ ديماند ، نفـس المرجع والصفحة (ذكـر أن العرب استخدموا القبط فى مصانع النسيج التى أنشأوها بعد فتح مصر) .

(٣) نفس المجرع ، ص٢١٣ .

(٤) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٦٠-٢٦٣،٢٠٥-٢٠٨ .

(٥) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢٦٣ .

(٦) زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٣٤٥-٣٤٦ ؛ نقولا زيادة ، الأسطـول العربى ص٧٣ .

(٧) الفن الاسلامى ، منير صلاحى الأصبحى ، مطبعة جامعـة دمشق ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م دار القلم العربى للنشر والتوزيع ، حلب ، ص٧ .

أى شىء عن فنون الأشغال المعدنية أوحياكة الأنسجة أو زخرفة المخطوطات فى العصر الأموى ، وهى الفنون التى ستصبح فيما بعد ممثلة الى حد كبير للفن الاسلامى . ولعله قال ذلك لأنه لم يشاهد شيئا من آثار ذلك العصر التى رآها عدد من الأثريين وتحدثوا عنها وأبرزوا مابها من سمات الفن والصنعة خلال ذلك العصر .

وموجز القول أن فترة عصر الخلفاء الراشدين فيما بعد فتح بلاد الشام والعصر الأموى تمثل مرحلة انتقالية للفنون والصناعات فى بلاد الشام من صورتها فى الحضارات القديمة الى الصورة التى أصبحت عليها فى الفن الاسلامى ، وقد تميزت هذه المرحلة بمحاكاة الطرز القديمة والتأثر بالحضارات السابقة ، والافادة من خبرات ومهارات الصناع والفنانين من أهل تلك الحضارات فى البلاد التى تم فتحها كبلاد الشام ، من أسلم منهم ومن بقى على نصرانيته .

الفصل الثامن
دور نصارى الشام فى العمران والفنون والحياة العلمية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* دورهم فى العمارة الاسلامية والفنون .

* دورهم فى الحياة العلمية .
  - المكانة العلمية لبلاد الشام عند الفتح الاسلامى .
  - دورهم فى الطب .
  - دورهم فى الترجمة .
  - أثرهم فى الفكر الاسلامى .
  - دورهم فى الكتابة والأدب .

الفصل الثامن
دور نصارى الشام فى العمران والفنون والحياة العلمية فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

* دورهم فى العمارة الاسلامية والفنون :

كان من شروط الصلح التى أخذها المسلمون على النصارى الزامهم بالقيام بعمارة بعض المرافق ، وصيانتها . فقد شرط عليهم اصلاح القناطر(١) واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نبط الشام فى نظافة موضع الصخرة والمسجد الأقصى ، من كناسة وضعها النصارى على قبة الصخرة فبلغت محراب داود بالمسجد الأقصى ببيت المقدس ، وذلك بعد فتحه ايليا(٢).

وكانت العمارة فى عصر الخلفاء الراشدين متسمة بروح البساطة واليسر والزهد والتقشف ، كما كان عليه الحال فى عصر النبوة(٣). فقد وصف الرحالة أركولف مسجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى القدس ،

---

(١) انظر قبل : ص١٨٩ .
وقد شرط ذلك على أهل الجزيرة أيضا ، فقد كان فى صلحهم : اصلاح الجسور والطرق . انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٧٨،١٧٩ ؛ قدامة ، الخراج ، ص٣١٢ ومابعدها .

(٢) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦١٠/٣-٦١٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥٧/٧،٥٩-٦٠ .
ومن أمثلة الافادة من خبرات غير المسلمين فى العمارة زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، خارج بلاد الشام ، أن عمرو بن العاص باذن الخليفة أفاد من خبرة أحد أقباط مصر ليدله على مسار خليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو قديما قد دفن ، وذلك مقابل اسقاط الجزية عنه وعن أهل بيته ، كما جمع الفعلة واستعان بهم فى حفر الخليج حتى أجرى به السفن مابين النيل وبحر القلزم (الأحمر) . انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص١٦٢-١٦٦ . وأرى الجزية هنا يقصد بها جزية الأرض أى الخراج .

(٣) اتسمت العمارة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بالبساطة ، فقد بنى مسجده عليه السلام باللبن ، وجعلت عضادتاه بالحجارة وسواريه جذوع النخل ، وسقفه الجريد . (انظر : الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص٧٧) .
ولم يذكر فى أخبار عمارته وغيرها من العمائر زمن الرسول عليه السلام ، الاستعانة بغير المسلمين .

بأنه : "غير حسن البناء ، وأنه قام على دعائم خشبية ، وأن المسجد قام فى بقايا خربه وأن هذا البناء يتسع لثلاثة آلاف فى وقت واحد"(١). وهكذا كانت العمارة الأولى للمسلمين فى الأمصار التى فتحوها سواء فى المساجد أو المنازل .

وقد كان المسلمون فى البصرة والكوفة قد أقاموا أول أمرهم فى خيام وفساطيط وقباب ، فاستأذنوا الخليفة عمر رضى الله عنه فى القصب ، فلما وقع الحريق بالكوفة والبصرة أذن لهم فى البناء باللبن، وأمرهم : "ألا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولاتطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة" ، وعهد اليهم ألا يرفعوا فوق القدر وهو مالايقربهم من السرف ولايخرجهم من القصد(٢).

وعلى تلك البساطة العمرانية نشأت المساجد الأولى فى البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان(٣)، وفى بلاد الشام .

---

(١) محمود عمران ، كتابات الرحالة أركولف ، ص٣٢١ ؛ كريزويل ، الآثار الاسلامية ص٢٤-٢٥ . وأضاف محمود عمران : "وذكر الرحالة برنارد فى عام ٨٧٠م/٢٥٥هـ أنه فى شمال كنيسة القديس بطرس يوجد معبد سليمان الذى يضم مسجد العرب" ويقول محمد زينهم عزب : وهناك من يقول أن مسجد عمر أقيم فى جزء من معبد رومانى قديم ينسب الى هيرود وهدمه الامبراطور تيتوس ، ويذهب كريزويل الى أن هذا المسجد الأول كان يقوم فى جناح من ذلك المعبد . انظر ابن الجوزى تاريخ بيت المقدس ، تحقيق محمد زينهم عزب مكتبة الثقافة الدينية مقدمة المحقق ص١٢-١٣ .
ويظهر الخلاف واضحا بين المؤرخين حول هذه القضية ، وكفى به وهنا لحجة من قال بذلك ، والصحيح ماقدمناه . انظر قبل : ص١١٨،١٧٣ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤/٤٣-٤٤ ؛ على حسن الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص٢٨١-٢٨٤ .

(٣) انظر : الطبرى ، نفس المصدر ، ٤/٤٤-٤٥ ؛ كريزويل ، نفس المرجع ، ص٢٣،٢٥-٢٦ ؛ كمال الدين سامح، العمارة فى صدر الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١م ، ص١٠ .

وفى الشام حيث لم ينشىء المسلمون عقب الفتح مدنا جديدة ، ونزلوا المدن القديمة ، فقد سكنوا فى كل مرفوض وماجلا عنه أهله من الدور(١)، وقيل : قاسموهم منازلهم(٢)، وصالحوهم على أخذ كنيسة فى كل مدينة أو جزء من كنيسة وحولوها مسجدا ، أو موضعا يبنون عليه بيتا لله(٣). وفى العراق اتخذ سعد بن أبى وقاص(٤)رضى الله عنه ايوان كسرى بالمدائن مسجدا(٥). ولعل ذلك من باب سماحة التشريع ، وتسامح المسلمين ، والقرب من غيرهم لدعوتهم واظهار الحق لهم . لذلك فانا لانسمع عن أى نشاط عمرانى فى بلاد الشام عقب الفتح حتى السنين الأولى من عمر الدولة الأموية(٦).

وينقد أحمد فكرى(٧)جعل المستشرقين تلك الأخبار عن أخذ بعض الكنائس أو جزء منها مساجد مبدأ عاما وأن تخطيط المسجد موروث عن

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٧ ؛ وانظر قبل : ص٤٥٣ .

(٢) انظر قبل : ص١٧٣-١٧٤ .

(٣) انظر قبل : ص١٧٢-١٧٣ .

ويذكر كريزويل ، أنه قد حدث فى الشرق مثل ذلك ، فقد اتخذ المسلمون بعض الأبنية القديمة فى بلاد فارس مساجد ، فانه يذكر أن مسجد اصطخر كان فى السابق معبد نار . انظر : الآثار الاسلامية ، ص٢١-٢٢ .

(٤) سعد بن مالك بن أهيب القرشى الزهرى ، أبو اسحق بن أبى وقاص ، أحد العشرة وآخرهم موتا ، من السابقين فى الاسلام ، وهو خال النبى صلى الله عليه وسلم ، روى عنه كثيرا ، وكان أحد الفرسان ، وأول من رمى سهما فى سبيل الله ، وأراق دما فى الاسلام ، أحد الستة أهل الشورى ، وقائد المسلمين فى فتوح العراق ، وعلى يديه فتحت المدائن ، وهو الذى اختط الكوفة ، ووليها لعمر وعثمان ، ولما قتل عثمان اعتزل الفتنة ، ومناقبه كثيرة رضى الله عنه ، ومات سنة ٥٥هـ على خلاف .

انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٣٣/٢-٣٤ .

(٥) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ١٦/٤ .

(٦) كرويزويل ، نفس المرجع ، ص٢٧ .

(٧) مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، ص١١-١٣ .

تخطيط الكنائس ، وتدليلا على الفراغ العربى وانكار أثر العرب فى العمارة والفن ، بأن تلك الأخبار ان صحت فانما هى استثناءات ضئيلة لظروف خاصة ، وأن حفائر أجريت حديثا فى مسجد قرطبة أثبتت أن نظام هذا المسجد لايرتبط فى شىء بنظام الكنيسة التى كانت فى موضعه .

وان كان عمر قد حارب كل مظاهر الترف فى البناء ، والتزام القصد فان الترف قد غلب على وصايا عمر ، وذلك بفعل تتابع الزمن ، وتغير الظروف ، واختلاف الولاة ، وتوالى الخلفاء(١). فقد شهد أواخر عصر الراشدين وعلى يدى بعض الصحابة وغيرهم اهتماما عمرانيا(٢).

فلما قامت الدولة الأموية ، واتخذت من دمشق بالشام عاصمة لها ، وقد استقرت الأمور بعد الفتوحات الاسلامية الكبرى ، ضمت الدولة تحت سيادتها عناصر وأمم ذات حضارات عريقة ، اهتم المسلمون بالعمارة ، وحاكى بنو أمية الروم فى مظاهر حضارتهم الدنيوية ، وفكروا فى تشييد مساجد تبز فى عظمتها الكنائس المسيحية ، كما بنوا القصور والعمائر الفخمة داخل المدن وخارجها التى لاتقل فخامة عن قصور البيزنطيين ، فقامت حركة عمرانية نشطة ، استعانوا فيها بادىء الأمر بالمهندسين والبنائين والصناع والفنانين المهرة الذين وجدوهم فى البلاد التى فتحوها ممن أسلم منهم ، ومن ظل على دينه ، وأفادوا من مواد البناء المتوفرة فى تلك البلدان ، واقتبسوا فنون الحضارات القديمة التى ورثوها ، وطبعوها بطابع دينهم ، وان ظل الأثر الأجنبى واضحا فى العمارة الاسلامية الأولى التى تمثل مرحلة الانتقال من الفنون القديمة الى الفن الاسلامى المتميز(٣).

---

(١) على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص٢٨٧ .

(٢) انظر : على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص٢٨٥ .

(٣) انظر : أرنست كونل ، الفن الاسلامى ، ص١٥ ؛ كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الاسلام ، ص١٧ ؛ على حسنى الخربوطلى ، نفس المرجع ، ص٢٦٩-٢٧٠ ؛ زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٣٢،٣٤ ؛ صالح حمارنة، المسيحية فى الشام ، ص٥٥٤ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٢٠/٢ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٢٤٩ ؛ بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٤٠٦/١-٤١١ .

وقد أوضحت دراسة أوراق البردى استخدام العمال الأجانب على نطاق واسع فى العمارة الاسلامية(١).

فلم كل ذلك الاعتماد على المعماريين الشاميين وغيرهم ، والاقتباس من فنهم ؟

لقد كانت بلاد الشام تحتل مكانا مرموقا فى تاريخ الفن المعمارى المسيحى ، وفن التصوير ، باعتبارها مركز المسيحية الأول ، ولمكانتها فى الامبراطورية البيزنطية فهى مركز الفنون المسيحية فى الشرق ، وكان لها فى شتى المجالات تراث عريق منذ العصور القديمة ، فنقل المسلمون عنها بعض أساليب العمارة والزخرفة ، وفى الحقيقة أن المسلمين باقتباسهم فن تلك الحضارة حافظوا على الماضى المضىء وابداعات العصور الماضية(٢).

ولاتقان أهل الذمة وبخاصة النصارى هندسة البناء ، والحدادة والنجارة ، وبراعتهم فى الفنون الجميلة من التصوير والنقش والحفر على الخشب والزخرفة والنحت والهندسة ، كان لهم الأثر الكبير فى الفن العربى الاسلامى سواء فى الهندسة أم البناء ، أم الزخرفة ، اذ كان منهم أغلب المهندسين الذين شيدوا العمارة الاسلامية(٣).

غير أن العرب المسلمين وان لم يحملوا معهم الى البلاد التى فتحوها أساليب فنية خاصة بهم ، فقد كانت سياستهم الحكيمة باستخدام الفنانين من أهل تلك البلاد خير عون على النهضة بالفن ، وأن تشجيع الحكام والكبراء لأهل الصنعة المعمارية من أهل الذمة وممن أسلم منهم ساعد على ازدهار

---

(١) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٠٣،٣٠٠/٣ .

(٢) Dill, E : La Fin de L'art antique dans la zune du futur bilad al-Sham .
من أبحاث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، عمان ، أكتوبر ١٩٨٣م ؛ كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الاسلام ، ص٤ .

(٣) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٦٦ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص١٠٩-١١٢ .

العمارة ، وتعلم العرب فنونها على يدى أولئك ، واختصار مرحلة الانتقال من الفنون القديمة الى الفن الاسلامى ، فى ظل الاسلام ودولته ، سواء كان الفنيون من المسلمين أم أهل الذمة ، أو كانت العمارة خاصة بالمسلمين أم للنصارى (١).

وقد تحدث عدد من المؤرخين والأثريين القدامى والمحدثين عن استخدام المسلمين ان العرب وان لم يكن لهم فن خاص بهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد تبنوا الفنون الرفيعة الراقية فى البلاد التى فتحوها فى عصر الخلفاء الراشدين (٢).

يقول زكى محمد حسن (٣)، من الانصاف أن نسلم أن العرب لم يكن لهم قبل الاسلام أساليب فنية ناضجة ، اللهم الا فى أطراف شبه الجزيرة العربية ، حيث الممالك التى اتصلت بالأمم الأجنبية وتأثرت بأساليبها الفنية فكان من الطبيعى أن يكون نصيب العرب فى بادىء الأمر من قيام الفنون الاسلامية روحيا فحسب ، ومن الصعب أن ننسب لهم أى عنصر فنى فى العمائر والتحف فى بداية العصر الاسلامى سواء أكان ذلك فى الشكل أم فى الزخرفة أم فى الأساليب الصناعية ، وانما تنسب الى الشعوب الأخرى التى تألفت منها الدولة الاسلامية ، والتى كان لها قبل الاسلام أساليب فنية زاهرة كالفرس والمسيحيين فى الشرق الأدنى . فبرز الى الوجود فن اسلامى قائم على أساس الفنون القديمة الساسانية والرومانية ، والهيلينستية والقبطية وفنون الهند والصين وآسيا الوسطى المحلية التى وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوها ، وتطورت الطرز الفنية المختلفة فى خصائصها الخاصة ، المشتركة فى خصائصها العامة ، برعاية المسلمين ، لتكون فنا اسلاميا متميزا عما عداه

---

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٥،٦٦٨ ؛ أرنست كونل ، الفن الاسلامى ، ص١٢ .

(٢) ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٢٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص١ .

فى مختلف الصناعات[١]. فبدأ أسلوب اسلامى ناشىء ينمو تدريجيا مشتقا على الأخص من مصدرين فنيين هما الفن البيزنطى والفن الساسانى[٢].

واتخذ المسلمون سياسة حكيمة باستخدام الفنانين من أهل الذمة والموالى وتشجيعهم ، مما ساعد على النهضة بالفن واختصار مرحلة الانتقال وتطور الفنون القديمة بما يلائم المسلمين ، ويسر للعرب تعلم الصناعات الفنية[٣].

لقد كانت صناعة الفسيفساء فى بلاد الشام قديمة وان تأثرت بمؤثرات خارجية نتيجة وجود عدد من الرقيق الذين عملوا بتلك الصناعات ، وقد كانوا من الصناع فى بلاد الشرق قبل ذلك[٤]. وقد أخذ المسلمون بأسلوب الفن البيزنطى فى صناعة الفسيفساء الذى امتاز بالفسيفساء الزجاجية ، وأخذوا كذلك بالأسلوب الاغريقى المتأخر والرومانى الذى امتاز بالفسيفساء الحجرية ، فكان الفن الاسلامى امتدادا لتلك الفنون[٥]. بينما كانت الزخارف الخشبية فى فجر الاسلام متأثرة بالفن الزخرفى الساسانى والهلنستى ، ثم تطور فن صناعة الحفر على الخشب تدريجيا حتى أصبح للفن الاسلامى أساليبه الخاصة[٦].

أما التصوير[٧]فى العصر الاسلامى فقد اتبع فى نشأته التقاليد المحلية بالشام ، ومارسه فنانون محليون وفق تقاليدهم الخاصة ، ولم يمارسه الغرباء

---

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٦٦٧ .
(٢) ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٢٤-٢٥ .
(٣) زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٦٦٨ .
(٤) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٢١ .
(٥) ثريا حافظ عرفة ، نفس المرجع ، ص٢١٨ .
(٦) زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٤٤٢ .
(٧) تصوير ذات الأرواح محرم فى الاسلام . (انظر ماكتبناه حول ذلك فى الرسالة التى تقدمنا بها لنيل درجة الماجستير بعنوان الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص٢٧٥-٢٨٠) . وذكر محمد كرد على أن التصوير كان مستعملا فى صدر الاسلام ، انظر : خطط الشام ، ١٠٣/٤،١٠١-١١٤ .

ولاالعرب الفاتحون[1].

وقد خالف العرب نهج البيزنطيين فى الفنون الجميلة بعدم تصوير وتجسيم الانسان والحيوان ، واستعاضوا عنه بالنقش النباتى ، فبرعوا وافتنوا فيها ، وأجادوا زخرفة الزجاج والنسيج والمبانى والكتب وغيرها ، بالمناظر الطبيعية والهندسية[2]. ولقد سار التأثير الفنى الهندسى والتصويرى من الشام باتجاه مصر وشمالى افريقيا حتى بلغ أوروبا ، وسار شمالا حتى قليقية وفى آسيا الصغرى حتى أرمينية ، غير أن الفن البيزنطى لم يخل من تأثير الاشعاع السورى[3].

وقد ظهر خلال مرحلة الانتقال ابان العصر الأموى سمات أسلوب فنى شرقى جديد ، لم يقتصر على الأساليب الفنية السورية وغيرها كما هو واضح فى قصر المشتى ، وهو مايمكن تسميته بالفن الأموى[4]، الذى يمثل ولادة فن اسلامى متميز . ولم يوفق على حسنى الخربوطلى[5]عندما أنكر على المسلمين الوصول الى مرحلة الابتكار الفنى ، وأن أنفتهم وبداوتهم منعتهم من متابعة غيرهم ، وحالت دون تعلم تلك الفنون والصناعات ، وأنهم أخذوا الفن البيزنطى دون تغيير ، متعجبا من ظهور فن اسلامى متميز على يد رعايا الدولة الاسلامية من غير العرب ، فان الاعتماد على غير العرب من المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة لم يكن أنفة من ممارسة تلك الصناعات ، وانما لمهارة أصحاب الحضارات القديمة وحاجة المسلمين لخبراتهم ، وقد انخرط من تعلم الصنعة من العرب فى العمل بتلك الفنون والصناعات ، بعد أن تعلموا

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٠٥/٤ ؛ عفيف بهنسى ، الفن العربى الاسلامى فى بداية تكوينه ، دار الفكرة ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٢٣ .

(٢) أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص١٦٤ .

(٣) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٤١٦/٢ .

(٤) انظر حديثنا عن عمارة قصر المشتى بعد : ص٦٧٨-٦٧٩ .

(٥) الحضارة العربية الاسلامية ، ص٢٧١-٢٧٢ .

ماكانوا يجهلونه . كما أن المسلمين كانوا أصحاب تلك المشاريع ، فجاءت متسمة بما يناسب تعاليم دينهم جنبا الى جنب مع سمات العناصر المعمارية والفنية القديمة ، وأخذت سمات الفن الاسلامى تبرز وتتضح فى أواخر القرن الأول الهجرى على أقل تقدير ، وقد تجلى فى هندستهم حب الزخرفة واللطف ، واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين ، وكان تفننهم فى هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، كما برع المهندسون العرب فى علم عقود الأبنية ، وكيفية شق الأنهار وتقنية القنى وسد البثوق وتنفيذ المساكن وايجاد الآلات الثقيلة لخدمة المشاريع المعمارية الكبرى(١).

فقام الفن الاسلامى فى العصر الأموى ، وكان الطراز الأموى أول الطرز أو المدارس فى الفن الاسلامى ، وكانت السيادة الفنية فى عصرهم للفنيين السوريين الذين قام على أكتافهم هذا الطراز الأموى ، فانتقل الى سائر البلدان على يد العمال الذين يستقدمونهم من الشام ومصر وفارس وغيرها ممن له قدم راسخة فى الصنعة، فألفوا بين الأساليب الفنية المختلفة التى ورثوها عن الحضارات السابقة ووجدوها فى الأقاليم التى فتحوها ، لتكون فنا اسلاميا متميزا نجحت الدولة الاسلامية فى نشره فى كل أجزائها فى القرون الثلاثة الأول(٢).

وقد تحدث عدد من المؤرخين والأثريين القدامى والمحدثين عن استخدام المسلمين للمهرة من المعماريين والصناع والفنانين ، من أهل الشام ، من أسلم منهم ومن بقى على النصرانية وغيرهم من أهل الأقاليم الأخرى ، فى العمارة والفن الاسلامى .

وقد جاء قليل من الروايات صريحا ونص على استخدام النصارى من أهل الشام وغيرهم بينما لم تنص روايات أخرى على ذلك ، لكن أثر الفن

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٢١/٤ .

(٢) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص١٢-١٣ .

المسيحى الشامى ، أو الهيلينستى ، أو البيزنطى أو القبطى أو الفارسى أو غيرها إلظاهر على الفن المعمارى الاسلامى فى العصر الأموى ، دفع بعض الأثريين الى اعتبار ذلك دليلا على أن اليد العاملة التى قامت بتلك العمارة والفنون كانت من نصارى الشام أو غيرهم وفقا لنوع الأثر ، كما أعادوا أصول كثير من تلك العمائر الى الفنون القديمة التى سبقت الاسلام ، وقد بالغ عدد من الأثريين المستشرقين فى هذه القضية وعلى رأسهم عالم الآثار الاسلامية كريزويل .

وسنتناول فى الصفحات التالية ماورد من نصوص صريحة بالاستعانة بأهل الشام مسلمهم ونصرانيهم ، وكذلك الطرز الفنية الدالة على الأثر الفنى المسيحى فى العمارة الاسلامية ، ومناقشة ذلك . ومما ورد فى هذا الشأن مارواه الفاكهى (١) أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أرسل الى مكة من الشام بعض النبط ليعملوا الآجر لدوره ، اذ كانت دور مكة تبنى بالمدر فكان معاوية أول من بنى بالجص والآجر بها . وقد بنى عدة دور بمكة منها ماعرف بالدور الست المتقاطرة ، ومنها عشرة دور أخرى اشتهرت بأسماء من أشرف على بنائها من غلمانه (٢). وقد بنيت بعض تلك الدور بالجص ثم طليت به كالدار البيضاء ، وبعضها بنيت بالآجر الأحمر والجص الأبيض ، فكانت رقطاء ولذلك سميت بالرقطاء ، وبعضها بنى بالحجارة كدار سعد (٣). ونص الفاكهى الآنف الذكر ، بأن معاوية أرسل من الشام النبط ليعملوا الآجر لدوره ، ولم يصرح بأن هؤلاء النبط كانوا نصارى ، ولعلهم من نبط الشام الذين اعتنقوا الاسلام .

---

(١) أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه ، دراسة وتحقيق ، عبد الملك بن دهيش ، مطبعة ومكتبة دار النهضة الحديثة ، مكة ، ١٤٠٧هـ ، ٢٢٦/٣ ، ٢٠١/٤ .

(٢) الأزرقى ، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدى الصالح ملحس ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٢٣٨/٢-٢٤٠ ؛ وانظر أيضا أحمد السيد دراج ، التطور العمرانى لمكة المكرمة ، بحث لم ينشر ، ص٢١ .

(٣) الأزرقى ، نفس المصدر ، ٢٣٧/٢-٢٣٨ .

ومـاروواه ابن كثير (١)، أن عبـد الملـك بن مـروان لما أراد بنـاء قبـة الصخرة الذى تم سنة ٧٢هـ/٦٩١-٦٩٢م ، وجه بالأموال الجزيلـة ، والعمال وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم الى بيت المقـدس ، ووكل بالعمل رجاء ابن حيوة (٢) ويزيد بن سلام (٣) مولاه . ويفهم من قوله أنه جمع مهرة العمـال والصناع من سائر أهل البلاد المفتوحة ـ ويلاحظ أيضـا أنه لم ينص على أنهـم كانوا من نصارى الشام أو غيرها ـ لكنهم بلاشـك كانوا من أهل الحضـارات القـديمة ممن كان قـد اعتنـق الاسلام ، والعـرب الـذين أتقنـوا الصنعـة وتعلموا فنونها ، فجاءت عمارتها متسمة بالعظمـة والفخامة والجمال حتى قـال عنهـا ابن كثير : "ولم يكـن يومئـذ على وجه الأرض بنـاء أحسـن ولاأبهى من قبة صخرة بيـت المقدس" (٤). كما أقام عبد الملك خدمـا لمسجد قبـة الصخـرة ، وكانوا ممـاليك لـه ، وكانوا يسمون الأخمـاس لأنهـم مـن خمس الأسرى (٥). ولعلهم ممن كان قد أسلم من أولئك الرقيق .

ويقول شفيق جاسر محمود : "ومن أجل الوصول الى هذا المستوى من الضخـامة لجأ عبـد الملـك الى استخـدام الهنـدسة الهيلينستيـة والفنـانين

---

(١) انظـر : البداية والنهاية ، ٢٨٣/٨-٢٨٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ اليعقـوبى ، ٢٦١/٢ ؛ وأيضا : زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٣٦-٤٠ .

(٢) رجاء بن حيوة الكندى الأزدى ويقال الفلسطيني ، الامام الفقيـه من جلة التابعين كان ثقة ، عالما فاضلا كثير العلم ، وكـان سيد أهل الشام فى أنفسهـم ، كان كبير المنزلـة عند سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وأجرى اللـه على يديه الخيرات ، ثم أخر فأقبل على شأنه ، وكان يزيد بن عبد الملـك يجرى عليه ثلاثين ديناراً فى كل شهر ، فقطعها هشام ثم أجراها ، ومات سنة ١١٢هـ .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٥٥٧/٤-٥٦٠ .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) نفس المصدر ، ٢٨٣/٨ .

(٥) نجدة خمـاش ، الشـام فى صـدر الاسلام ، ص١٥٢-١٥٣ ، والمعـروف أن خمـس الأسرى ملك للدولة لامماليك للخليفة ذاته ، فقد كانت الـدولة تملك رقيقا خاصا يسمى "رقيق الخمس" وهو حصتها من أسرى الحروب . انظر : ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص١٤٩ .

المدربين "(١).

وذكر الأزرقى(٢) والبلاذرى(٣)، أنه لما كان سيل الجحاف بمكة سنة ٨٠هـ/٦٩٩م ، الذى صبح الحاج يوم التروية فذهب بكثير منهم وبأمتعتهم ، وهدم الدور الشارعة على الوادى ، وهلك أناس فى ذلك الهدم ، ودخل المسجد الحرام ، وأحاط بالبيت العتيق ، بعث الخليفة عبد الملك بن مروان بمال عظيم الى عامله على مكة ، وأمره بعمل ضفاير(٤) للدور الشارعة على الوادى وعمل ردما(٥) على أفواه السكك يحصن بها دور الناس من السيول ، وبعث مهندسا نصرانيا فى عمل ضفاير المسجد الحرام ، وضفاير الدور فى جنبتى الوادى ، فعمل عددا من الضفاير والردوم لتلك الغاية(٦). غير أن الفاكهى(٧)، لم ينص على أن ذلك المهندس كان نصرانيا ، وهذا الخلاف بين

---

(١) تاريخ القدس ، ص٢٠٧ .

(٢) أخبار مكة ، ٢/١٦٨-١٦٩ .

(٣) فتوح البلدان ، ص٦٥-٦٦ .

(٤) ضفاير : فى حديث على بن أبى طالب أن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما نازعه فى ضفيرة كان على ضفرها فى واد كانت احدى عدوتى الوادى له ، والأخرى لطلحة ، فقال طلحة : حمل على السيل وأضر بى .
قال ابن الأعرابى : الضفيرة مثل المسناه المستطيلة فى الأرض فيها خشب وحجارة ، وضفرها عملها من الضفر ، وهو النسج ، ويقال للحقف من الرمل ضفيرة ، وهو ماعظم وتجمع ، وقيل ماتعقد بعضه على بعض . والضفر : البناء بحجارة بغير كلس ولاطين ؛ ومنه : وضفر الحجارةحول بيته ضفرا . (ابن منظور ، اللسان ، مادة : ضفر) .

(٥) الردم : جمعه ردوم ، وهو سدك بابا أو ثلمة أو مدخلا ، وقيل الردم أكثر من السد ، لأن الردم ماجعل بعضه على بعض . (ابن منظور ، اللسان ، مادة : ردم).

(٦) وانظر أيضا : محمد طاهر الكردى ، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٥هـ ، ٢/٢٠٥ ؛ صالح أحمد العلى ، الحجاز فى صدر الاسلام ، دراسات فى أحواله العمرانية والادارية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص١٥١ .

(٧) أخبار مكة ، ٣/١١٣ .

المصـادر ، يقـودنا الى الاعتقـاد أن وجود كلمة نصرانى فى الخبر الـوارد عنـد الأزرقى والبلاذرى من فعل النساخ ظنا منهم أنه نصرانيا مادام عبد الملك قد أرسله من الشام ، ولعله ممن اعتنق الاسلام من أهـل الشام ، وذلك أحرى بالقبـول ، اذ لـن تبخل الشـام بمهنـدس مسلم قادر على ذلـك العمـل فى مكة حرسهـا اللـه ورعى حرمتها ، فقـد أسلم عدد كبير مـن نصـارى الشام خلال الفتح وفى أعقابه(١).

وفى خلافـة الوليد بن عبـد الملك ، بنى الجامع الأمـوى بدمشـق مابين سنتى (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) ، وقد استعمل الوليد فى بنـائه خلقا كثيرا من الصنـاع والمهنـدسين والفعلـة ، ويقال أن الوليد بعـث الى امبراطـور الروم يطلب منه صناعا فى الرخام وغير ذلك ، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على مايريد ، فبعث اليه امبراطور الروم مائتى صانع(٢).

ويذكر أن عدد من شارك فى عمارة هذا المسجد الـذى دامت نحو عشر سنوات ، بناء وزخرفة ، اثنا عشر ألف صانع(٣).

ويذكـر أن الوليد لما عزم على هـدم كنيسة يوحنـا ليـدخلها فى مسجد دمشـق جمع الفعلة والنقاضين ، فهـدموها ، وكان قـد بدأ الهدم بنفسه(٤).

---

(١) انظر قبل : ص٥٠١-٥١٨ .

(٢) ابن كثير ، البـداية والنهاية ،، ٧٥/٩-١٥٣،٧٦ ؛ ويذكر المسعـودى أنه بدأ البناء سنـة ٨٧هـ ، وأنه رأى هذا التـاريخ مكتوبا بالذهب على حائط المسجـد فى زمنه . انظـر : مروج الذهب ، ١٦٦/٣-١٦٧ ؛ ابن منظـور ، مختصـر تاريخ ابن عساكر ، م١ ، ج١ ، ص٢٦٣ ؛ العمـرى ، الجامـع الأمـوى بدمشـق ، ص٥٣ ؛ النعيمـى ، الجامـع الأمـوى بدمشق ، ص١٠٣ ؛ ابن جبير ، الجامـع الأمـوى بدمشـق ، ص١٣ (ذكـر عـددهم اثنا عشر ألف صـانع . ولعله خطأ من النسـاخ ، أو اختلـط عليه الأمر مع العدد الاجمالى للصناع فى عمارة المسجد) .

(٣) اليافعى ، مرآة الجنان ، ٢٠٨/١ ؛ وقيل : اثنا عشر ألـف مرخم . ذكر ذلك : ابن كثير ، نفـس المصدر ، ص١٥٥/٩ ؛ العمـرى ، نفس المصـدر ، ص٥٦ ؛ النعيمى ، نفس المصدر ، ص٩٤،١٠٧ .

(٤) البلاذرى ، فتـوح البلـدان ، ص١٣١-١٣٢ ؛ قـدامة ، الخراج ، ص٢٩٤-٢٩٥ .

ومما يفيد حضور بعض الصناع النصارى عملية الهدم أن الوليد لما هم بهدم الكنيسة قال له جماعة من نجارى النصارى ماتجسر نبدأ فى هدمها ، فأخذ المعول وبدأ بالهدم ، وتبعه المسلمون ، وتم هدمها(١).

ويذكر بعض علماء الآثار والفنون أن الوليد استعان فى عمارته بصناع وعمال من شتى البلاد الاسلامية وغيرها ، كايران والهند ومصر والمغرب وبلاد الروم ، الى جانب العمال السوريين ، وأن الذى أشرف على عمارته مهندس ايرانى(٢).

وان مما يثير العجب القول باستعانة الوليد بالامبراطور البيزنطى ليعينه بصناع وفسيفساء لعمارة مسجد دمشق ، ومن بعد المسجد النبوى ، وهو فى الشام التى تعد وريثة الحضارة اليونانية والهيلينستية والرومانية والبيزنطية ، وقد كانت صناعة الفسيفساء معروفة وقديمة بالشام(٣). بينما لم نجد نصا واحدا يشير الى الاستعانة بنصارى الشام فى عمارتها ، فاذا ماصح القول بالاستعانة بالروم ، صح لنا الاعتقاد ومن باب أولى ، باستعمال نصارى الشام فى عمارتها وان لم يصرح بذلك . غير أن المؤكد أن الوليد استعان بأهل الخبرة من المهندسين والبنائين والمزخرفين والصناع من أهل الشام وغيرها ، والمعتقد أنهم كانوا ممن دخل الاسلام من أهل البلاد المفتوحة ، وأصحاب الحضارات القديمة ، لذلك جاءت عمارته على ماهى عليه من الضخامة والفخامة والفن الهندسى والزخرفى المتقن حتى قال ابن كثير عن مسجد دمشق بعد عمارته : "ليس له فى الدنيا مثيل فى حسنه

---

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، م١ ، ج١ ، ص٢٦١ ؛ العمرى ، الجامع الأموى بدمشق ، ص٥١ النعيمى ، الجامع الأموى بدمشق ، ص١٠٠ . وانظر ماكتبناه قبل عن نزع كنيسة يوحنا من يدى النصارى وادخالها فى مسجد دمشق : ص٤٢٠-٤٢٥ .

(٢) انظر : زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٤٠ ؛ محمد مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٥٥ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٢٤ .

(٣) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام ، ص٢١٦-٢٢٥ .

وبهجته"[١]. ومما يقوى الاعتقاد بتولى المسلمين عمارة مسجد دمشق ذلك الحوار الذى دار بين أحد المعماريين والخليفة الوليد حول جعل بيضة قبة المسجد من الذهب الخالص ، يفهم منه أن ذلك المهندس كان مسلما[٢]. وماذكر من ثناء المشايخ على أمانة الفعلة والصناع على مواد البناء المستخدمة فى عمارة مسجد دمشق عند انشائه ، وحفظها ، ورد مازاد منها ولو كان يسيرا[٣]. وسنجد دلائل الأثر الفنى تبين أن من قام بعمارته كان من المسلمين ، وذلك من خلال المقارنة بين صفة عمارة المسجد الأموى فى دمشق وصفة عمارة المسجد النبوى ، ذلك أن الأثر الفنى فى المسجد الأموى خلا من التأثيرات المسيحية اذ خلت زخرفته من صور ذات الأرواح ، مما يبين أنها عمارة اسلامية صرفة ، واذا ماصح ذلك عن مسجد دمشق فلايمكن القبول بأن الوليد نفسه الذى عمر المسجدين فى عهده ، وبأمره ، أن يستعين بالنصارى فى المسجد النبوى ، وهو لم يستعن بهم فى مسجد دمشق ، مع مالمسجد الرسول من الحرمة ولمدينته من القداسة[٤].

أما عن عمارة المسجد الأقصى فيذكر نبيه عاقل[٥]، أنه جاء فى بردية تعرف باسم "بردية أفروديتو" ، وهى عبارة عن رسالة رسمية أرسلها قره بن شريك ، الذى ولى مصر للوليد سنة ٩٠هـ/٧٠٨-٧٠٩م ، الى أحد حكام منطقة مصر العليا يأمره فيها بدفع أجور بعض العمال من منطقته الذين ساهموا فى بناء المسجد الأقصى ، وهذه الورقة لاتدع مجالا للشك فى أن المسجد الأقصى يعود الى زمن الوليد لاالى زمن أبيه عبد الملك ، وتنهى الخلاف حول ذلك، كما تشير الى مشاركة عمال من مصر فى عمارته . وهو لم ينص على أنهم كانوا نصارى ولعلهم ممن اعتنق الاسلام من الأقباط .

---

(١) البداية والنهاية ، ١٥٨/٩ .
(٢) ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٥٤/٩ .
(٣) ابن كثير ، نفس المصدر ، ١٥٥/٩ .
(٤) انظر بعد : الصفحة التالية ومابعدها عن عمارة المسجد النبوى .
(٥) تاريخ خلافة بنى أمية ، ص٢٣٢ .

ويذكر جورج مارسيه فى حديثه عن زخارف المسجد الأقصى أن بعض النحاتين الأقباط قد ساهموا فى زخرفة وتزيين بعض ألواح هذا المسجد(١).

ويقول محمد كرد على : "والوليد لما بنى أموى دمشق وأقصى القدس دعا اليها بنائين من الفرس والروم والهند"(٢).

ويقول شفيق جاسر محمود فى سياق حديثه عن عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة : "اعتمد المسلمون فى البداية على صناع وفنيين من المسيحيين والسوريين الذين تتلمذوا عليهم"(٣). علما بأن النص على الاستعانة بالمسيحيين فى عمارته لم تصرح به المصادر .

وعن عمارة المسجد النبوى ، الذى شرع فى عمله بهدم المسجد القديم فى صفر سنة ٨٧هـ/٧٠٦م وفرغ من عمارته لانسلاخ سنة ٨٩هـ/٧٠٨م ، بأمر الخليفة الوليد ابن عبد الملك(٤). يذكر عدد من المؤرخين أن الخليفة الوليد ابن عبد الملك استعمل فى عمارته جماعة من العمال الروم من الشام والقبط من مصر والروم من الدولة البيزنطية ، وذلك لما أمر ببنائه سنة ٨٧هـ/٧٠٦م ، وقيل سنة ٨٨هـ/٧٠٦-٧٠٧م . فذكر البلاذرى(٥)أن الوليد بعث الى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر . وذكر الطبرى(٦)من روايتين للواقدى أن الوليد بعث بالفعلة الى عمر بن عبد العزيز ، ووافقه ابن الأثير فيما ذكره(٧). وذكر ابن كثير(٨)أن الوليد أرسل اليه "فعولا كثيرة" . وهذه

---

(١) نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص٢٣٢ .

(٢) خطط الشام ، ١٢١/٤ .

(٣) تاريخ القدس ، ص٢٠٦ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧٧/٥ .

(٥) فتوح البلدان ، ص٢١ .

(٦) تاريخ الأمم ، ٤٣٥/٦-٤٣٦ .

(٧) الكامل ، ١٠٩/٤ .

(٨) البداية والنهاية ، ٨٠/٩ .

المرويات ، لم تنص على أنهم نصارى ، ولعلهم ممن اعتنق الاسلام من نصارى روم الشام ، ونصارى قبط مصر . مع أن كلمة روم الشام فى العرف التاريخى تعنى نصاراها ، وقبط مصر تعنى نصاراها . أما من أسلم منهم أو من غيرهم من العجم فقد أطلق عليهم لفظ الموالى .

ويفاد من بعض الروايات أن المسلمين فى المدينة هدموا المسجد النبوى وشرعوا فى بنائه قبل أن يصل اليهم من بعث بهم الوليد من العمال . فيذكر الطبرى : أن عمر "أخذ فى هدم بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبناء المسجد ، فلم يمكث الا يسيرا حتى قدم الفعلة الذين بعث بهم الوليد"(١). وفى رواية أخرى عن صالح بن كيسان(٢)الذى ولى الاشراف على عمارة المسجد النبوى ، قوله : "فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى قدم علينا الفعلة الذين بعث بهم الوليد"(٣). كما شارك فى هندسة بناء جدران الحجرة النبوية بعد ادخالها فى المسجد حتى لايتمكن الناس من الصلاة اليها ، عثمان بن عروة(٤)، أحد شيوخ المدينة ، وذلك بأن يزور(٥)الجدار الخلفى عن طريق بناء جدارين من طرفى الجدار الخلفى حتى يلتقيان فيكون الشكل خماسيا ،

---

(١) تاريخ الأمم ، ٤٣٥/٦ .

(٢) صالح بن كيسان ، الامام الحافظ الثقة ، جامعا من الحديث والفقه والمروءة ، يعد من التابعين ، وهو أحد الموالى ، مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ضمه عمر بن عبد العزيز وهو أمير بالمدينة ، ثم بعث به الى الوليد بن عبد الملك فضمه الى ابنه عبد العزيز بن الوليد ، مات بعد الأربعين والمائة .
انظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٤٥٤/٥-٥٤٦ .

(٣) الطبرى ، نفس المصدر والجزء والصفحة ، السمهودى ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، حققه وفصله وعلق حواشيه ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٥٢٢/٢ .

(٤) لم أجد له ترجمة .

(٥) الزور : الاعوجاج أو الميل . (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : زور) .

لايمكن إلذى خلف الحجرة من استقبالها[١]. كما يشير السمهودى[٢] الى قيام بعض بنائى المدينة وعلى رأسهم وردان البناء ببناء الحجرة النبوية ، وذلك عندما سقط الجدار ، عند حفر الأساطين ، أو لهطول الأمطار ، فى ولاية عمر ابن عبد العزيز على المدينة .

كما أن الذى قام بكتابة الآيات القرآنية فى زخرفة قبلة المسجد النبوى أحد الكتاب المسلمين . فقد ذكر ابن النديم عن خالد بن أبى الهياج[٣]: "أنه كان كاتب الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى كتب الكتاب الذى فى قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالذهب من سورة (والشمس وضحاها الى آخر القرآن)"[٤]. وقيل مولى لآل حويطب بن عبد العزى يقال له : سعد حطبة[٥].

غير أن عددا من الروايات الأخرى أفادت الاستعانة بنصارى الروم البيزنطيين فى عمارته ، فذكرت أن الوليد بن عبد الملك كتب الى امبراطور الروم أن يعينه على عمارة المسجد النبوى ، فأعانه بمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائة عامل ، وأربعين حملا من الفسيفساء ، وأمر أن يتتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها الى الوليد ، فبعث الوليد بذلك الى عمر بن عبد العزيز[٦]. ويذكر الطبرى من رواية للواقدى عن صالح ابن كيسان ، قوله : ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) السمهودى ، وفاء الوفاء ، ٥٤٨/٢ ، وانظر ص٥٤٣-٥٤٨ .

(٢) انظر : نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) خليل الزرو ، الحياة العلمية ، ص١٩٤ ؛ محمد هزاع الشهرى ، عمارة المسجد النبوى فى العصر المملوكى (٦٤٨-٩٢٣هـ) ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة ، قسم الحضارة والنظم ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص١٣٥-١٣٦ .

(٥) محمد هزاع الشهرى ، نفس المرجع والصفحات .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ٨٤/٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٤٣٦/٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١٠٩/٤ .

وبعث بذلك الوليد الى صاحب الروم ، وذكر الخبر ، ثم قال : وبعث بذلك الى عمر بن عبد العزيز(١).مما يفيد الشروع فى العمارة قبل وصول من بعث بهم الوليد . وذكر السمهودى(٢): أن الامبراطور بعث اليه ببضعة وعشرين عاملا ، وقيل : بعشرة عمال يعدلون مائة ، وفى رواية أخرى :أنه بعث اليه بأربعين عاملا من الروم ، وبأربعين من القبط .

ويقول السمهودى من رواية للواقدى : "كان عمل القبط مقدم المسجد ، وكانت الروم تعمل ماخرج من السقف جوانبه ومؤخره"(٣). كما ذكر السمهودى روايات تفيد مشاركة العمال النصارى فى عمارة المسجد النبوى ومحاولة بعضهم انتهاك حرمته(٤).

ان القول باستعانة الوليد بنصارى الروم البيزنطيين فى عمارة المسجد النبوى ، سبق وأن شكك فيها أحد المؤرخين القدماء ، وهو الامام ابن كثير فقال : "والمشهور أن هذا انما كان من أجل مسجد دمشق والله أعلم"(٥). والامام ابن كثير بقوله هذا يصحح ماذكر من الاستعانة بهم فى عمارة مسجد دمشق ، وينكرها فى عمارة المسجد النبوى .

ولعل أوائل هذه المصادر متأثرة فيما ذكرته فى هذا الشأن بروح العصر أو الهوى ، وأخذ عنهم من جاء بعدهم ، فانهم عاشوا فى العصر العباسى ، الذى جاءت جل كتابات مؤرخيه ميالة لبنى العباس ، ناقمة على بنى أمية ، والله أعلم .

كما أنكر صحتها من المؤرخين المحدثين نبيه عاقل الذى قال : "وعندنا أن هذه الرواية بالشكل الذى جاءت فيه فيها شيء من نقص أو خطأ، اذ لايعقل أن يكتب الوليد الى امبراطور بيزنطة بعزمه على تجديد بناء مسجد

---

(١) تاريخ الأمم ، ٤٣٦/٦ .
(٢) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ٥١٩/٢ .
(٣) نفس المصدر ، ٥٢٤/٢-٥٢٥ .
(٤) نفس المصدر ، ٥١٩/٢ .
(٥) البداية والنهاية ، ٨٠/٩ .

الرسول ويطلب عونه ، وأن يقوم الامبراطور البيزنطى بارسال الذهب والعمال والفسيفساء اليه ، وأن يجهد فى جمع الفسيفساء من المدن البيزنطية الخربة ليرسلها الى خليفة دمشق ، وبينهما مابينهما من حروب وصراع ، الصراع المسيحى الاسلامى ، الذى كان قائمًا فى هذه الفترة ، ويبدو أقرب الى القبول مايذكره البلاذرى من أن الوليد بن عبد الملك هو الذى أرسل المال والفسيفساء الى عمر بن عبد العزيز ، وأن العمال الأجانب الذين ساهموا فى عملية البناء هم من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، أى من رعايا الدولة العربية الاسلامية ، وليس من رعايا الدولة البيزنطية"(١).

ونحن قد قدمنا(٢)أنه اذا لم يصرح بالاستعانة بنصارى الشام ومصر ، وهم من أهل الذمة ورعايا الدولة الاسلامية ، فلايعقل قبول القول بالاستعانة بنصارى الروم ، كما أن فى الشام من الصناع والفسيفساء مايكفى الوليد للقيام بمشاريعه ، وعنده من الأموال الكثيرة ما يسع ذلك . كما أن القول بأن الامبراطور البيزنطى بعث بعمال قبط يبطل صحة تلك الروايات اذ أن القبط كانوا آنذاك من رعايا الدولة الاسلامية ومصر ولاية من ولاياتها ، وليس لامبراطور الروم سلطان عليهم .

كما أن اختلاف الرواة فى عدد من بعث بهم الامبراطور الى الوليد ، وكون رواية الطبرى عن محمد بن عمر الواقدى ، ورواياته لايحتج بها اذا خالف غيره من أصحاب المصادر الموثوقة(٣)، يجعل الباحث ، يأخذ بما هو أولى بالقبول ، وأقرب للمنطق ، وماوافق روح العصر ، وطبائع الأمور . وهذا يدعونا الى ترجيح كفة الروايات التى أشارت باستعمال روم الشام وقبط مصر ، والذين نراهم ممن اعتنق الاسلام وعمل فى خدمة الدولة بما يملكه من صنعة ومهارة .

---

(١) تاريخ خلافة بنى أمية ، ص٢٢٩-٢٣٠ .
(٢) انظر قبل : حديثنا عن الجامع الأموى ، ص٥٨ .
(٣) انظر ماكتبناه عن قول النقاد فى الواقدى ومروياته ، قبل : ص٤٥٩ .

وذكـر محمد بن هزاع الشهـرى عند حديثه عن عمـارة المسجد النبوى زمـن الوليد بن عبد الملك ، أن عملية الهدم ، وقطع أحجـار البناء وتهيئتها والبناء ، كان قد تم على يد عمال محليين من الحجاز عـامة والمدينة خاصة . وأن عمـارة الوليد سبقت بعمـارات لم يذكر فيها الاستعـانة بعمـال أجانب ، كما أن عمارة المسجد الحرام(١)فى زمن الوليد نفسه لم يذكر فى الحديث عنها الاعتمـاد على غير المسلمين ، ويرى أن مـن بعث بهم الـوليد لم يتعد عملهم الزخرفة ، وأنهم لم يكونوا من الروم البيزنطيين ، ولامـن روم الشام ولاقبط مصـر ، ولانصارى ، وأنهم ممن اعتنقوا الاسلام من نصـارى الشام ومصر . مؤيدا رأى فريد شافعى ، حيـث يرى أن لفـظ الروم ظـل يطلـق على أهل الشـام من أسلم منهم ومن بقى على النصرانية ، ولفـظ القبط على أهل مصر مسلمهـم ونصرانيهم ، مستدلا باطلاق الرومى على صهيـب الرومى الصحابى الجليـل ، وكذلك القبطى على مـارية القبطية وأنهم ممـن اعتنق الاسلام من أهـل الشـام ومصر . واستشهـد بما ورد فى بحث فان برشـم عـن فسيفساء قبة الصخرة والجامع الأموى ، الذى أثبت أن الفنانين والصناع الذين قاموا بها كانوا من أهل الشام ، وأنهـم كـانوا أصحـاب مـدرسـة خاصـة تميزهـم عـن المدرسـة البيزنطية وغيرها ، وقـال أنه يمكننا تعميم هـذا الاستنتـاج أيضا على عمارة الحرمين فى عهد الوليد ، ويزيد هذا الاستنتاج قـوة قول سوفاجيه بأن الفسيفسـاء استخدمت فى تكوين الأشـرطة الكتابية فى المسجـد النبوى ، وأن معظم تلك الكتابات آيات قرآنية ، مما يدل على معرفة هؤلاء العمال باللغة العـربية ، وأنهم مسلمون ، اذ لايمكـن لعمر بن عبد العـزيز أن يترك كتابتها لغير المسلمين المتطهرين(٢).

---

(١) انظـر عمـارة عبـد الملك وابنـه الـوليد للمسجـد الحرام وترخيمـه لجدران وأرض الكعبة المشرفة ، وتذهيب بابها وميزابها وأساطينها ، الصفحة التالية .

(٢) انظـر : عمارة المسجد النبـوى ، ص١١٥-١١٧،١٢٠-١٢٣،١٤٠-١٤٢ . وقـد نقل قول فريد شافعى بأنهم عربامسلمين ، وأنه قد استمر اطلاق لفظ الروم والقبط على من أسلم ومـن لم يسلم مـن نصـارى الشـام ومصـر . (العمـارة العـربية ، ص٥٩٥،٥٩٣ ومابعدها) .

وقد قدمنا أن من قام بكتابة الآيات القرآنية فى قبلة المسجد النبوى زمن الوليد ، كاتبه خالد بن أبى الهياج ، أو سعد حطبة مولى آل حويطب (١).

وقد دلت الطرز الفنية فى عمارة قبة الصخرة والجامع الأموى والمسجد الأقصى (٢) على أن من قام بعمارتها كانوا من المسلمين ، ومن ثم فليس من المعقول أن يستعين الوليد فى عمارة المسجد النبوى بالنصارى ، لما لمسجد المصطفى من الحرمة ولمدينته من القداسة ، وهو لم يستعن بهم فى عمارة مسجد دمشق والمسجد الأقصى .

ولقد عد محمد الشهرى آنفا أن عدم الاشارة الى الاستعانة بالنصارى فى عمارة الوليد للمسجد الحرام دليل على عدم الاستعانة بهم فى المسجد النبوى ، اذ كيف لايستعين بهم الوليد ولايحتاجهم فى عمارة المسجد الحرام ويحتاجهم ويستعين بهم فى المسجد النبوى وقد عمرا فى آن واحد .

وهذا صحيح ، فان المسجد الحرام والكعبة المشرفة نالتا اهتمام عبد الملك وابنه الوليد ، وتمت عمارتهما فى عهديهما على درجة من الفخامة وحسن الزخرفة وجودة المواد ومهارة العمال .

فعن عمارة عبد الملك ، يقول الأزرقى : "ثم عمره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه ولكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة"(٣). وجعلوا فى رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب (٤).

وعن عمارة الوليد ، يقول : "ثم عمر الوليد بن عبد الملك بن مروان المسجد الحرام ، وكان اذا عمل المساجد زخرفها ، قال : فنقض عمل عبد الملك ، وعمله عملا محكما ، وهو أول من نقل اليه الأساطين الرخام ،

---

(١) انظر قبل : ص٦٦٣ .

(٢) انظر بعد : ص٦٩٣ ومابعدها .

(٣) الأزرقى ، أخبار مكة ، ٧١/٢ .

(٤) الأزرقى ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

فعملـه بطـاق واحد بأسـاطين الـرخام وسقفـه بالسـاج المزخرف وجعـل على رؤوس الأسـاطين الـذهب على صفـايح الشبـه مـن الصفـر ، وأزر المسجـد بالـرخام مـن داخله ، وجعل فى وجه الطيقـان فى أعلاهـا الفسيفسـاء ، وهو أول من عمله فى المسجد الحرام ، وجعل للمسجد شرافات"(١).

وبعـث الـوليد الى واليه على مكـة خالـد بن عبد اللـه القسـرى بستة وثلاثين ألـف دينـار فضرب منهـا على مصراعى باب الكعبـة صفـايح الذهب وعلى ميزان الكعبـة وعلى الأسـاطين التى فى باطنهـا وعلى الأركـان التى فى جوفهـا ، ويقال أن الحلية التى حلاهـا الوليد للكعبـة هـى ماكانت فى مائدة سليمـان بن داود عليـه السلام مـن ذهـب وفضة ، وكـانت قـد احتملت من طليطلة بالأندلس ـ من غنائم الفتح الاسلامى ـ(٢).

كما بعث الوليد بجزعة من رخام سوداء مخططة ببيـاض مدورة وحولها طوق من ذهب عرضه ثلاثة أصابع وضعت فى الجدار المقابل لباب الكعبة ، يقـال : أن النبى صلى اللـه عليـه وسلم صلى حيال مـوضعها ، جعلهـا حيال لحاجبه الأيمن(٣).

وغطيـت جدر الكعبـة مـن باطنهـا برخام أبيـض وأحمر وأخضـر ، وألـواح ملبسة ذهب وفضة وهمـا ازاران أسفل وأعلى ، ومـن الرخام وهو منقوش ، ومحلى بالذهب ، كما حليت جدرانه بأفاريز من الفسيفساء ، وأرض الكعبة أيضا مفروشة برخام أبيض وأحمر وأخضر(٤).

وخلاصـة القول ، أن هذه العمارة بما حوته من فـن تمثل فى استخدام أفضـل المواد الانشـائية ، وتغطيـة الجدران والأرض بالـرخام الملـون بشكـل متناسق ، وتحليتها بالذهب ، وزخرفتها بالفسيفساء ، قد تمت على أيدى عمال

---

(١) الأزرقى ، أخبار مكة ، ٧١/٢-٧٢ .

(٢) محمـد طـاهر الكردى ، لتاريخ القـويم ، ص ؛ وانظر : الأزرقى ، نفـس المصـدر ، ٢٩١/١ .

(٣) الأزرقى ، نفس المصدر ، ٢٩٣/١-٢٩٤ .

(٤) الأزرقى ، نفس المصدر ، ٢٩٥/١،٢٩٦،٢٩٧-٢٩٨ .

مسلمين ، واذا ماتم هذا فى المسجد الحرام ، فلاشك أنه قد تم على أيديهم فى المسجد النبوى وغيرها من المساجد الاسلامية ، دون الحاجة الى الاستعانة بغير المسلمين ، والله أعلم .

ويذكر محمد كرد على(١) ومحمد عبد العزيز مرزوق(٢) أن عبد الله بن الزبير دعا بنائين فنانين من الروم والفرس للعون فى بناء الكعبة المشرفة بعد أن تهدمت خلال حصار جيش الخليفة يزيد بن معاوية له ، فهدمها وأعاد بناءها غير أنه لايمكن الركون لما ذكراه ، لأن المصادر الموثوقة لم تشر الى هذا الخبر ، وخبرهما غير موثق ، ولأن مصادر تاريخ مكة التى تحدثت عن عمارة الكعبة المشرفة وتيسر لى الاطلاع عليها لم تشر الى ذلك الخبر . وقد ذكر كريزويل نقلا عن الأغانى اسهام الفرس فى بناء الكعبة زمن ابن الزبير(٣). غير أنه لم يوثق الخبر من كتاب الأغانى ، ومع ذلك فان كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى مصدر لايعتد به ، ومافيه ليس حجة، خصوصا اذا تفرد بالخبر وخالف عامة الكتاب ، ولعل محمد كرد على ومحمد عبد العزيز مرزوق نقلا الخبر عنه ولم يوثقاه .

ولعلهم ان صحت هذه الرواية كانوا ممن أسلم من الفرس والروم .

ويذكر البلاذرى (٤) أن سليمان بن عبد الملك لما بنى لنفسه مدينة الرملة التى استحدثها ومصرها ، أذن للناس فى البناء ، فبنوا ، واحتفر لهم قناة وآبارا ، وولى النفقة على بنائها بالرملة ، كاتبا له نصرانى من أهل لد يقال له : البطريق بن النكا .

ويذكر صادر أحمد جودة(٥) أن ابن البطريق أو البطريق بن النكا أو ابن البكا ، هو الذى أشار على سليمان ودفعه لبناء مدينة الرملة ، ذلك أنه

---

(١) خطط الشام ، ١٢١/٤ .
(٢) قصة الفن الاسلامى ، ص٥٠ .
(٣) الآثار الاسلامية ، ص٣١ .
(٤) فتوح البلدان ، ص١٤٩ .
(٥) الرملة ، ص٣٠-٣١،٣٣،٢٣٩ .

سأل أهل لد أن يبنى له دارا بجوار كنيستهم كنيسة جرجس (جورج) ، فأبوه ، فغضب وأقسم أن يخرب مدينتهم ، فكلم سليمان وشجعه على بناء الرملة ، تخليدا لذكره كما فعل أخوه الوليد ببناء الجامع الأموى وغيره من الأعمال العمرانية ، ففعل ، وأشرف كاتبه على بنائها .

وفى عمارة الأفراد ، يذكر أنه لما اتسعت الفتوح وأقبلت الدنيا على المسلمين بنى الكثير منهم كطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، دورا متسعة فخمة من الحجارة والرخام فى المدينة والكوفة وغيرهما ، وأوكلوا أمر بنائها الى المهرة من الفرس والروم(١).

واستخدم خالد بن يزيد بن معاوية عندما كان واليا على حمص أربعمائة عبد فى بناء مسجدها(٢). ولعلهم ممن كان قد أسلم من رقيق الخمس التابع للدولة .

والى جانب الأخبار الصريحة باستخدام عمال من أهل البلاد المفتوحة وخاصة أهل الشام فى العمارة الاسلامية ، فان بعض التأثيرات الأجنبية فى مخططات وأشكال وأساليب وطرز وزخرفة العمارة الاسلامية وفنونها دليل آخر على أن من قام بذلك عمال من غير العرب ، من أهل الحضارات القديمة فى البلاد المفتوحة ، لما ظهر من فخامة العمارة ، ومهارة العمال ، والاقتباس من الحضارات السابقة . وهذا مايدعونا الى ذكر بعض أمثلة التأثيرات الدالة على ذلك .

ان اتصال الطرز فى العمارة الاسلامية بالطرز القديمة فى الشام دليل على استخدام المعماريين السوريين ، كما أن دخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف ، يشير الى استخدام عمال أجانب أخر من غير بلاد الشام كالفرس والقبط(٣). ولقد تمثل فى جميع عمائر العصر الأموى التى

---

(١) أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص٢٤٧ .
(٢) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٥٢ .
(٣) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٠٠/٣ .

وصلـت الينا التأثيرات البيزنطية والساسانية سواء فى التصميم أو الـزخرفة ، ويمكـن التعـرف على تلك التـأثيرات فى يسـر ، اذ لم تكتمـل شخصيـة الفن الاسلامـى زمن بنى أمية ، وقـد أخذ يكون فى بطء من التقـاليد الفنيـة التى ورثهـا من الفن الساسانى والبيزنطـى وغيرهما فنا اسلاميـا جديدا متميزا(١). ويظـن بعـض الباحثين أن بعـض الأجزاء التى زادت فى عمـارة المسـاجد عند تطـورها بعد البساطة الأولى قـد تكون مقتبسة عن بعـض أجزاء مـن العمائر المسيحيـة ، فيرون أن المئـذنة أخذت عـن أبراج الكنـائس ، والمحـراب عن حنيـة تكون فى صدر الكنيسة ، ومنهم من يرى أن المسلمين قـد عملوا ذلك من ذات أنفسهم ، دون اقتبـاس لهـا ممـا يشابهها فى العمـارة المسيحيـة(٢).

كما أن تغطية المنشآت الاسلامية بالقباب واقامة المساند على أقواس أو عقـود ، هـو تقليد شامى محلى قـديم ، تبنتـه العمارة الاسلاميـة كمـا فى قبة الصخـرة وقبة حمام قصير عمره ، بينما الشكل المعمـارى للمساكن والقصور التى ظهـرت فى بداية العصـر الاسلامـى هـو تطبيق للتقليـد المعمـارى المحلى الشامى(٣).

لقد كانت الجدران فى بادىء الأمر تكسى بالرخام والأحجـار الملونة ، وحليت قبة الصخرة وصحن الجامع الأمـوى بالفسيفساء(٤). كما أن أغراض الفسيفسـاء الجزئيـة الأمـوية فى جامـع دمشـق أو فى قبـة الصخـرة لهـا صلة بالتراث البيزنطـى ، والنقـوش المثيرة للـدهشة فى العصـر الأمـوى فى خرابة المغجـر يمكن أن تؤدى الى بعض التلاقى مع مصر وكـذلك مع قصر الحير(٥) من ناحية أخرى . وتوضح الاكتشافات الأخيرة فى بلميرا للـزخرفة بالأشكال

---

(١) محمـد عبـد العزيز مرزوق ، قصـة الفن الاسلامى ، ص٦٢،٧١ ؛ فتحـى عثمـان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٩٨/٣ .

(٢) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٢١ .

(٣) عفيف بهنسى ، الفن العربى الاسلامى ، ص١٤-١٥ .

(٤) ارنست كونل ، الفن الاسلامى ، ص٢٥ .

(٥) خربة المفجر ، وقصر الحير ، انظر بعد : ص٦٨٠ .

أنهـا ذات صبغـة اغـريقية رومـانية ، وتدل على وجود تراث بشكـل منقطـع النظير فى سوريا(١).

وعـن قبة الصخرة فى القدس ، التى أنشأها الخليفـة الأموى عبد الملك بن مـروان ، عام (٧٢هـ/٦٩١م) ، والتى تعـد من أقدم وأجمـل الأبنيـة التى خلفتهـا الحضـارة الاسلامية ، يقـول كريزويل :"الواضـح مـن تحليلنا أن قبة الصخرة بناء سورى بأكمله"(٢).

وبعـد انتشـار الاسلام بين عـرب سـوريا انصبـت النشـاطات العـربية السـورية القـديمة فى بوتقة الفنـون الاسلاميـة ، فان مخطـط البنـاء الثمـانى ، والقبة المركزية فى عمارة قبة الصخرة ، كان أسلوبا معمـاريا شائعا فى سوريا وشهـدته العمارة العربية فى فلسطين ابان النفـوذ الرومـانى والبيزنطى ، فأفاد المسلمـون مـن خبرة اخوانهـم العـرب السـوريين كما أن الـزخارف فى قبـة الصخرة تمثل الأسلوب العربى الشامى الذى ساد سوريا فى الفترة البيزنطيـة ، ملتزما بالروح الاسلامية حيث خلت من تصوير أى مخلـوق ، والاعتماد على الرسوم النباتية والهندسية(٣). وهذا القول يوضح دور المسلمين السـوريين بما يملكون من خبرة ومهارة معمارية فى العمارة الاسلامية .

واذا كـان بعض الباحثين ينسبون تلك الصنعة الى عـرب سوريا بدافع من روح القومية ، فان باحثين أخر نسبـوا تلك الفنون الى تأثيرات متعـددة وأنه قد بدأ يظهر فيها الفن الأموى المتميز .

---

(١) Dill, E : Op. Cit.

(٢) انظر : الآثار الاسلامية ، ص٥٥-٦١ .

(٣) صفـوان التـل ، بناء وزخارف قبـة الصخـرة ، المؤتمر الدولى الثـالث لتـاريخ بلاد الشـام ، "فلسطين" ، المجلد الأول ، القدس ، الجامعة الأردنيـة ، عمان ، وجامعة اليرمـوك ، اربد ، مطـابع الجمعيـة الملكيـة ، عمـان ، الأردن ، الطبعـة الأولى ، ١٩٨٣م ، ص١٢٨ ومابعدها .

يقول مروان أبو خلف(١): من دراسة العناصر الزخرفية التى تغطى الأفاريز الرخامية فى قبة الصخرة نرى أن هذه الزخارف متأثرة بالفن البيزنطى والفن الساسانى ، الا أنها تظهر هنا بشكل متحور عن شكلها الطبيعى ، وذلك من ظواهر الفن الأموى .

ونشاهد فى فسيفساء قبة الصخرة ببيت المقدس أنواعا عديدة من أشجار النخيل ، وأغلب الظن أنها من صناعة الفنانين السوريين الذين استعاروا فيما استعاروه من الفنون السورية قبل الاسلام أشكال قرون الرخاء ، وأكاليل الغار المحوره التى تعلوها رسوم الفواكه أو النباتات ، وهى تعبيرات زخرفية تشبه مانراه فى اطارات الجامات(٢). كما أن أعمدة وتيجان ورفائد الجدران الرخامية فى قبة الصخرة لاتكاد تتميز عن أمثالها فى احدى العمائر البيزنطية ، وبعض تصاميم الأشكال أقرب ماتكون الى الأشكال المحلية ، وهى مدينة بذلك للفن المسيحى الشامى والبيزنطى عامة(٣). ويظن أن قبة الصخرة منقولة عن القبة الموجودة فى كنيسة القيامة التى تكاد تساويها فى الحجم وتقع على مقربة منها(٤). وأن زخارفها الفسيفسائية مستمدة من الفن البيزنطى والساسانى ، فالفروع النباتية وفصوص الفسيفساء وألوانها بيزنطية الشكل والأصل ، بينما اقتبس المهندس المجهول تصميم البناء من كنيسة بصرى ، وعظمة البناء وروعته لوحظ أنه

---

(١) الأفاريز الرخامية المحفورة والمذهبة فى العهد الأموى فى قبة الصخرة المشرفة فى القدس ، المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، القسم العربى ، عمان ، ١٩٨٩م ، م١ ، ص٤٦٢ .

(٢) ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٣٥ .

والجامة : هى الدائرة الصغيرة التى يوجد بداخلها نقش أثرى ، مثل : "لااله الا الله" ، أو "محمد رسول الله" ، "أقام السلطان" ، وتكون على واجهات العمائر .

(٣) دافيد تالبوت رايس ، الفن الاسلامى ، ص١١ ؛ زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ص٤٠ ؛ كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الاسلام ، ص٢٥ .

(٤) كمال الدين سامح ، نفس المرجع ، ص٢٤ .

قد قصد أن يكون منافسا لكنيسة القيامة التى يحج اليها المسيحيون والمجاورة لقبة الصخرة(١).

وقد انتهى بحث فان برشم فى كل النصوص التى تحدثت عن الفسيفساء فى قبة الصخرة الى أنها من صنع عمال سوريين بوجه عام وليست من صنع عمال بيزنطيين ، ومن المحتمل أن بعضهم من أجناس أخرى اشتركت مع الصناع السوريين وهو مايفسر وجود بعض العناصر الساسانية فى تلك الزخارف .، ولكننا نلاحظ أن ذلك لايعنى اشتراك عمال من ايران ، لأن معظم موضوعات العناصر الساسانية كانت قد انتقلت الى الشام منذ ماقبل الاسلام ، وأقبل الصناع السوريون على استعمالها(٢).

وبالنظر الى عناصر الأسلوب الفنى التى استخدمت فى عمارة قبة الصخرة ، والتى ذكرها صفوان التل(٣)، فان عدم وجود صور للكائنات واعتماد الزخرفة الهندسية والنباتية وكذلك الكتابات الاسلامية يدعونا للقول بأن من قام بعمارته كان ممن اعتنق الاسلام من نصارى الشام ، أو غيرهم ، وأن سمات الفن الاسلامى بدأت تظهر فى العمارة الاسلامية(٤).

وقد تأثرت زخارف الفسيفساء بالمسجد الأموى فى دمشق بالأساليب الفنية الهلنستية (اليونانية الشرقية) فى رسومها كما تأثروا بالأساليب الفنية الساسانية ، مما يحمل على القول أن الصناع كانوا من أهل الشام ، وأنهم

---

(١) محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٥٣-٥٤،٥٧ .

(٢) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٦٤٧ ؛ عفيف بهنسى ، الفن العربى الاسلامى ، ص٢٠ .

(٣) بناء وزخارف قبة الصخرة ، ص١٢٩ .

(٤) عن السمات المشتركة بين الفن الاسلامى والبيزنطى ، ووجوه الاختلاف بينهما ، انظر بحث :

Fawzi Zayadine : The Significance of Byzantini and umayyad iconography,

من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، عمان ، أكتوبر ١٩٨٣م .

يمثلون المدرسة المحلية التى ازدهرت من الفنون الهلنستية فى سوريا حين فتحها المسلمون . وترجح الآنسة فان برشم أن الفسيفساء التى صنعت بأمر الوليد فى دمشق وفى المدينة لم تكن من صناعة عمال من البيزنطيين ، بالرغم من أن بعض المؤلفين العرب المحدثين الذين تحدثوا عنها ينسبونها الى صناع من الروم(١).

وفى الجامع الأموى يوجد بضع نوافذ يسدها ألواح من الرخام المخرمة بالزخرفة الهندسية ، وتعد أقدم زخارف هندسية فى الاسلام ، ويتجلى فيها التأثير البيزنطى(٢).

وبالنظر الى وصف زخرفة الجامع الأموى يتبين لنا أن الزخرفة تمت على يد فنانين مسلمين ، ومن المرجح أنهم كانوا ممن اعتنقوا الاسلام من نصارى الشام ، لأن الزخرفة خلت من صور ذات الأرواح ، وهو مايؤيد قول فان برشم أن تلك الزخرفة لم تكن صنعت بيد عمال بيزنطيين كما ذكرت بعض المصادر العربية فقد ذكر أن الوليد : "غطى جدرانه بالرخام المجزع المفصل أشكالا وألوانا ، وأكملت الى السقف بالفسيفساء ، وهى فصوص صغيرة من الزجاج الملون منها المذهبة والمفضضة وتتخللها الأصداف الناصعة البياض ، وضعت بحيث تألف منها كل ماخطر على بال الفنان من رسوم هندسية ونباتية وآيات قرآنية ومناظر للطبيعة بينها القصور والدارات التى تجرى من تحتها الأنهار ، أما سقوفه فقد صنعت من الخشب المحلى بالنقوش الموشى بالذهب ، وعلقت القناديل والثريات بسلاسل من الذهب الخالص ، ثم أرخيت على أبوابه أستار الحرير"(٣).

---

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٦٤٧-٦٤٩ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٢١ ؛ كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية فى صدر الاسلام ، ص٣١ .

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٥٥ ؛ وانظر : كمال الدين سامح ، نفس المرجع والصفحة .

(٣) نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، ص٢٢٨-٢٢٩ [نقلا عن : الريحاوى ، مدينة دمشق ، ص١٧٦] .

واذا كانت زخرفة المسجد الأموى بدمشق قد خلت من الأثر المسيحى فلم نجد بها صور لذات الأرواح ، وهو مايدل على أن من قام بها كان من المسلمين ، فمن باب أولى أن يكون ذلك قد حدث بالمقابل فى المسجد النبوى الذى عمر فى زمن الوليد بن عبد الملك أيضا وخلال فترة عمارة المسجد الأموى الذى عمر بين سنتى ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م ، بينما عمر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مابين سنتى ٨٧-٨٩هـ/٧٠٦-٧٠٨م . كما ينطبق ذلك على بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وكل المساجد .

وعن الجامع الأموى فى عمان ، الذى أوضحت دراسة الاستير نورثدج[١] أنه بنى فى أواخر العصر الأموى ، يذكر الباحث أنه حاكى فى عمارته قبة الصخرة والجامع الأموى وغيرهما من العمائر الأموية المتأثرة بالفن البيزنطى وغيره من الفنون القديمة ، وفى المسجد الأقصى ظهرت التأثيرات الهلنستية واضحة فى الكوابيل الخشبية (المساند) ، اذ نجد فيها تعبيرات من ورقة شوكة اليهود وتفريعات من ورقة العنب مجتمعة فى وحدات زخرفية مزدحمة تشبه تلك التى وجدت على فسيفساء قبة الصخرة والجامع الأموى بدمشق ، ويعنى ذلك بقاء الأساليب الهلينستية والساسانية فى الحفر على الخشب متبعة فى بداية العصر الاسلامى[٢].

ونخلص من تتبع أساليب الفن المعمارى فى العمارة الدينية بالمساجد التى أقيمت فى العصر الأموى أنها جاءت خالية من صور ذات الأرواح ، وهو مايدل على أن من قام بعمارتها كان من المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام من أهل البلاد المفتوحة .

بينما سنجد فيما سنذكره عن العمارة المدنية فى الصفحات التالية وجود أصول من الفن الرومانى واشتمال زخرفتها على صور ذات الأرواح .

ولقد شهدت حوران فى العصر الأموى نهضة عمرانية حافظت على النسق المعمارى البيزنطى ، الذى استمد أصوله من الفن الرومانى[٣].

---

(١) Alastair Northedge : The umayyad mosque of Amman, p. 140-147-149 .
من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، الندوة الثالثة ، عمان ، ١٩٨٩م .

(٢) ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص١١٥ ؛ ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية ، ص٢٣١ .

(٣) انظر بحث : Francois Villeneuve : Op. Cit .

وفى عمارة المدن ، كان ماستحدث منها ، اسلامى التخطيط والبناء ، اذ يرى كريزويل أن مدينة الرملة التى أنشأها سليمان بن عبد الملك ابان خلافة الوليد ، تدل آثارها على أنها اسلامية النشأة والتخطيط والبناء(١). غير أن ذلك لم يمنع أن يكون المشرف على عمارتها أحد نصارى الشام(٢). بينما احتفظت المدن القديمة وخاصة الداخلية كدمشق والقدس وحلب بالتخطيط العمرانى الرومانى ، أما المدن الساحلية فتعرضت لتغيير جذرى(٣).

أما التأثيرات فى القصور الأموية(٤)، فان قصير عمرة(٥)الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، يظهر فيما وصلنا منه ، بعد اكتشاف هذا القصر فى أوائل القرن العشرين ، كثير من الأشكال الزخرفية الرمزية ، والصور الآدمية والحيوانية والنباتية ، التى تمثل مشاهد مختلفة ، ومنها صورة للخليفة جالسا على الكرسى وأعداء الاسلام حوله ، ومن الواضح أن تلك الصور لاتعود الى الفن البيزنطى بل الى الفن الهلينستى المتأخر فى سورية ، الا أن هناك مايشير الى التأثيرات الفارسية وهى فكرة الصورة التى ترينا أعداء الاسلام ، وفيها خليط من التعبيرات الهندية أيضا ، ونسب بعض منها الى

---

(١) صادق أحمد جودة ، الرملة ، ص٢٨-٢٩ .

(٢) انظر قبل : ص٦٢٧-٦٢٨ .

(٣) Hugh Dennedy : Op. Cit, p.15 .

(٤) عن القصور الأموية فى الأردن ، انظر :
G.R.D.King : The umayyacl Qusur and related settlements in Jordon .
من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، الندوة الثالثة ، القسم الانجليزى ، عمان ، ١٩٨٩م .

(٥) قصير عمرة : قصر صيد صغير ، يقع على بعد خمسين ميلا شرق عمان ، وينسب هذا القصر الى الوليد بن عبد الملك ، وقد عمر مابين سنتى ٩٢هـ/٧١١م ووفاة الوليد بن عبد الملك .
انظر : زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٤٤-٤٧ .

الفن البيزنطى فى قول بعضهم(١). ونحن نستبعد وجود الصور الآدمية والحيوانية ، ومنها صورة الخليفة الجالس على الكرسى وأعداء الاسلام حوله وقت بناء هذا القصر ، وفى رأينا أنه ربما يكون قد رسمت فيما بعد فى القرون المتأخرة من تاريخ الاسلام .

أما نظام الأقبية بقاعة الاستقبال فى قصير عمره وحمام الصرح فهو نموذج محلى(٢). ويلاحظ أن الذين قاموا برسم صور قصير عمرة كانوا يعرفون العربية أكثر من الاغريقية لكنهم لايتقنونها ، مما يرجح أنهم كانوا سوريين أو آراميين أو أرمن(٣). بينما يذكر ترتون(٤)أن الذين نهضوا بزينته لايعرفون العربية .

أما قصر المشتى(٥)الذى رجح أنه من القصور الأموية ، فان تخطيط قاعة العرش فيه تمثل تخطيطا يظهر لأول مرة فى سوريا فى هذا القصر ، وقد شوهد أصل هذا التخطيط فى الحمامات الرومانية فى تونس والجزائر وروما ، وفى كنيسة البطريرك يوحنا ببيت المقدس ، وفى أحد قصور بصرى(٦). أما

---

(١) انظر : كريزويل ، الآثار الاسلامية ، ص١٢٣-١٢٥ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٣٧ ؛ أرنست كونل ، الفن الاسلامى ، ص٢٢-٢٣ ؛ كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية فى صدر الاسلام ، ص٤٠ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٥٩ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ص٢٦٤-٢٦٥ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٩٨/٣-٢٩٩،٣٠٠ .

(٢) كريزويل ، نفس المرجع ، ص١٤٨ .

(٣) كمال الدين سامح ، نفس المرجع والصفحة ؛ كريزويل ، نفس المرجع ، ص١٣٥-١٣٦ ؛ زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٤٧ .

(٤) أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٧٦ .

(٥) قصر المشتى : بناء يقع على بعد عشرين ميلا جنوبى عمان ، اختلف فى تاريخ عمارته ، وأرجح الأقوال أنه قصر أموى ، ولكن لانعرف تماما أى الخلفاء الأمويين يمكن نسبته اليه .
انظر : زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٤٨-٥٢ .

(٦) زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٥٢ ؛ كمال الدين سامح ، نفس المرجع ، ص٤٧،٥٠ .

زخارفه ، فان بها عناصر وتأثيرات بيزنطية وهيلنستية وساسانية تلاحظ فى الزخارف النباتية والحيوانية[١]. ويتضح تأثير الفن السورى فيه من استعمال نبات الأكانت (شوكة اليهود) وورقة الكرمة ، التى كانت أكثر الصيغ الزخرفية شيوعا فى الفن السورى ، وقد استمدها من الفن الهلنستى والرومانى[٢]. فما كان منها على يسار المدخل فى واجهة القصر ، تظهر فيه أشكال آدمية وحيوانية وطيور ، اشتقت أشكالها من الفن المسيحى السورى وماكان منها على يمين المدخل ، فلاأثر لأشكال الكائنات الحية فيها ، وهذا يدل على عدم الاقتصار على الأساليب السورية والساسانية ، ويكشف عن أسلوب جديد شرقى يصح تسميته بالأسلوب الأموى[٣].

ويرى فريق من علماء الآثار أن وجود الصور فى الجانب الأيسر وخلو الأيمن منها دليل على أن الصناع ربما كانوا ذميين فأسلموا وعملوا على احترام تعاليم الاسلام تجاه التصوير[٤]. أو من أحد المسلمين الذين ساءه وجود هذه الصور المخالفة لتعاليم الاسلام ، أو أن هذه الصور أضيفت ورسمت فيما بعد بعد ظهور مدارس التصوير ولم تكن فى العمارة الأموية .

ووجد غازى بيشة[٥] من دراسته لآثار قصرى المشاش[٦] وعين

---

(١) كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية فى صدر الاسلام ، ص٥٠ .

(٢) عفيف بهنسى ، الفن العربى الاسلامى ، ص١٩ .

(٣) ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص٩٠-٩١ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٦١-٦٢ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٠٠/٣ .

(٤) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٥٠ .

(٥) انظر عن قصر المشاش وعين السيل :

Ghazi Bisheh : Qasr Mshash and Qasr Ayn al-sil. two umayyad sites in Jordan .

من بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام ، الندوة الثالثة ، القسم الانجليزى ، عمان ١٩٨٩م .

(٦) قصر المشاش : يقع فى الأردن فى وادى المشاش على بعد (١٩) كم تقريبا الى الشرق من قصر الموقر ، وعلى بعد ٢١ كم شمال غربى قصر الخزانة . انظر :
Ghazi Bisheh : op. Cit, p.18-28 .

السيل [١] أنهما يمثلان بقايا الآثار الاسلامية فى الأردن فى صدر الاسلام ، وأنهما شبيهان بالقصور الأموية الأخرى فى البناء ، وتخطيطهما يدل على نسبتهما الى العصر البيزنطى ، وربما أعيد بناؤهما فى العصر الأموى .

وقصر خربة المفجر الأموى [٢]، حوت زخارفه التى لازالت واضحة فيما وصلنا من آثاره ، صورا ورسومات على هيئة تماثيل آدمية من الجص ، والفسيفساء التى تشبه فسيفساء قبة الصخرة والمسجد الأقصى ان لم تفقها جمالا ، والراجح أن عمالا محليين قاموا بالعمل مقتبسين من التصاميم الهلينستية والساسانية المعروفة ، كما يرى بعض الباحثين [٣]. ونحن نقول ان القصر وان نسبت عمارته للعصر الأموى ، فلعل تلك الصور والتماثيل أضيفت اليه فيما بعد ، على يد من ملكه بعد أن فشى التصوير ، وظهرت مدارسه ، فان العصر الأموى كان قريبا من فجر الاسلام الذى حرم تصوير ذات الأرواح ، فكيف بتماثيل مجسمة .

كما أعاد كريزويل الأصول المعمارية لقصر الحير [٤] وقصر الطوبة [٥] الى أصول معمارية بيزنطية وهلنستية وساسانية [٦]. وقد تعرضت بلاد الشام

---

(١) قصر عين السيل : يقع فى الأردن على بعد ١,٧٥ كم الى الشمال الغربى من قلعة الأزرق . انظر : . Ghazi Bisheh : op. Cit, p.18-28

(٢) قصر خربة المفجر : وهو قصر هشام ، يقع الى الشمال من مدينة أريحا فى مكان يعرف بخربة المفجر . انظر : محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، ص٥٨ .

(٣) دافيد تالبوت رايس ، الفن الاسلامى ، ص٢٢ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع ، ص٥٨ ؛ زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص٥٣ .

(٤) قصر الحير : يقع فى الصحراء على بعد ٦٠ ميلا تقريبا الى الشمال الشرقى من تدمر وحوالى ٤٠ ميلا الى الجنوب من الرصافة ، وينسب الى هشام بن عبد الملك . انظر كريزويل ، الآثار الاسلامية ، ص١٥٦-١٦٧ .

(٥) قصر الطوبة ، قصر أموى يقع على بعد ستين ميلا الى الجنوب الشرقى من عمان ، وأكبر الظن أنه شيد فى عصر تشييد قصر المشتى أى زمن الوليد . انظر : زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٥٣ .

(٦) انظر : نفس المرجع ، ص١٦٨-١٧٠،١٨٤-١٨٦ ؛ وانظر : زكى محمد حسن ، نفس المرجع والصفحة .

لعـدد من الزلازل وعاديات الأيام ، خرب معهـا كثير مـن العمائر الأموية ، ومن ذلك زلزال سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م) ، الذى ترك آثاره على قصر القسطل ، الـذى كان يقع فى البلقاء ، وهـو قصر أموى اختلف فيمـن ينسـب اليه من الخلفاء الأمويين . وزخارفه التى كان من الممكن أن تفيـدنا فى دراسة أصوله المعمارية والفن الاسلامى فيه كلها دمرت(١).

أما حمام الصرح الأمـوى(٢)، فـان تخطيطه وأسـاليب بنائه وتشييـده عرفت فى الشام منذ العصر المسيحى(٣).

وظهر الأثر البيزنطى فى عمارة الثغور والربط ، بل كانت بعض الربط فى الأصل حصونا بيزنطية(٤). كما ظهر الأثر البيزنطى والشامـى خاصة على العمـائر فى الحجاز وشمال غـرب الجزيرة العربية ، فقـد أثبتـت الاكتشافات الأثرية مـدى التشـابه بين العمـارة فى هذه المنطقة والعمـارة ببلاد الشـام فى العصـر الأمـوى فى الشكل الهنـدسى والأسـاليب والمواد وتأثرهـا بالحضـارة البيزنطية ، مما يدل على قيام اليد العاملة الشامية بها(٥).

---

(١) انظر :

Patricia Carlier : Qastal al-balga. an umayyad site in Jordan .

مـن بحوث المؤتمر الـدولى الرابع عـن تاريخ بلاد الشام ، النـدوة الثـالثة ، القسم الانجليزى ، عمان ١٩٨٩م .

(٢) حمـام الصرح : شيده أمير أمـوى ، على بعد ثلاثة أميال الى الجنـوب الشرقى من القلعة الرومانية المعروفة بقصير الحلابات على طريق الحج ، على بعد اثنى عشر ميلا شمالى عمان ، أعاده كريزويل الى مابين عامى ٧٢٥ و٧٣٠م .

انظـر : كـريزويل ، الآثار الاسلاميـة ، ص١٣٩-١٤١ ؛ زكـى محمـد حسن ، فنون الاسلام ، ص٤٧-٤٨ .

(٣) زكى محمد حسن ، نفس المرجع ، ص٤٧-٤٨ .

(٤) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣/٣٣٧ .

(٥) انظـر : سعد الراشد ، منطقة الحجـاز وشمال غرب الجزيرة وصلتهـا ببلاد الشام ، ص٤٦٩-٤٨١ .

وقد نقد أحمد فكرى [١]أقوال علماء الآثار حيال مصادر وأصول الآثار الاسلامية ، التى طغت عليها عقيدة راسخة تمثلت فى انكار أى فضل للعرب فى اقامة مبانيهم وتشكيل فنونهم ، وأن بلاد العرب كانت فراغا معماريا قبل الاسلام ، وأن العرب لم يجلبوا معهم فنا معماريا الى البلاد التى فتحوها ، ووصفهم بالانحراف عن الأسلوب العلمى والمغالاة أحيانا واتخاذ الاستثناء قاعدة عامة ، وأنه فى حالة صحة الروايات التى اعتمدوا عليها فى بعض ماعتقدوه ، فان ذلك فى الحقيقة يمثل حالة استثناء ضئيلة ، كما أن اشتراك العمال المسيحيين فى أعمال البناء والزخرفة لم يكن فى الحقيقة غير استثناء ، وقد أدى تنكرهم للعروبة اهمال ظاهرة الوحدة الفنية فى البناء والزخرفة ، وظهور الاختلاف بين أولئك الأثريين وتناقض آرائهم.

ونحن لانخالفه فى طغيان الهوى على بعض المستشرقين ، لدرجةالمبالغة فى نسبة أصول بعض العمائر الاسلامية تخطيطاوبناء وزخرفة الى الفنون القديمة وأهلها . غير أن المرويات المشيرة الى استخدام نصارى الشام وغيرهم فى العمارة والفنون الاسلامية ، ووضوح هيمنة الأثر الفنى المعمارى الشامى المحلى خاصة ، والاغريقى والرومانى والبيزنطى عامة وغيرهامن فنون الشرق على آثار العمارة الاسلامية الأولى ، لدليل على استخدام اليد العاملة من أهل الشام ، مسلمهم ونصرانيهم ومن سواهم . اذ أن القول باستخدام النصارى لايعنى انكار دور من أسلم من أهل الشام وغيرها ، ومن مهر الصنعة من العرب المسلمين ، فان انتشار الاسلام فى الشام فى تلك الفترة كان كبيرا بين نصارى العرب حتى أسلمت قبائل برمتها ، بينما كان انتشاره بطيئا بين النصارى من غير العرب [٢]. وهؤلاء هم سكان البلاد الأصليين وورثة الحضارة الاغريقية والرومانية ثم البيزنطية ، لذا فان عمل من أسلم

---

(١) انظر : مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص٨-٢١ ، وعن مناقشته لأقوال علماء الآثار المستشرقين عن مصادر وأصول عمارة المساجد ، انظر : ص٢٦٣-٢٩٠

(٢) انظر قبل : ص٥١٧-٥١٨ .

من نصارى العرب والقلة من أهل البلاد الأصليين ، لم يكن يغنى عن استخدام جمهور نصارى الشام من غير العرب ، كما أن ذلك دليلا على اقتباس الفن الاسلامى من طراز العمارة والفنون الشامية . أما استخدام عمال من غير أهل الشام ووجود عناصر فنية أجنبية أخرى فى عمارتها كالساسانية والقبطية وغيرها ، فانه يدل على قدرة الدولة الاسلامية على احتواء العناصر والديانات والحضارات القديمة ، والاستفادة منها فى خدمة الدولة الاسلامية ، بمايلائم تعاليم الشريعة الاسلامية ويحقق أهدافها . لذا فنحن نرى أن المسلمين لم يستعينوا بالنصارى فى العمائر الدينية . أما العمائر المدنية كالمدن والقصور والحمامات وغيرها ، فانه يعتقد أن النصارى كان لهم دور فيها ، فان مابقى من تلك العمائر ، واكتشف أثريا فى العصر الحديث ، اشتمل على صور ذات الأرواح ، وهو ماعده كثير من الباحثين وخاصة المستشرقون ، وعدد من علماء الآثار المسلمين ، دليلا على الأثر المسيحى فى العمارة الاسلامية ، وان تلك العمائر انما زخرفت بأيدى النصارى ، كما نص على ذلك بعض المصادر التى قلنا بأن ماذكرته ربما كان بفعل الميل ، والتأثر بروح العصر ، حيث أنها دونت فى العصر العباسى .

ونحن لانملك مايمكننا من انكار استعمال بعض النصارى فى العمائر المدنية ، أما الدينية فقد وصلنا الى الجزم بعدم مشاركة النصارى فى عمارتها.

الا أننا لانقبل صحة نسبة تلك الصور التى اشتملت عليها زخارف بعض تلك العمائر المدنية من قصور وحمامات وغيرها الى العصر الأموى ، وهو مالم نقبله فى صحة نسبة رسم صورة الخليفة معاوية والخليفة عبد الملك على العملة اليهما ، أو أن ذلك تم بأمرهما(١). اذ أن المسلمين آنذاك كانوا يدركون حرمة تصوير ذات الأرواح ، فجاءت العمائر الدينية التى استحدثها المسلمون خالية من ذلك ، كدليل على حرمتها ، ومراعاة ذلك الحكم من قبل المسلمين . وكيف نقبل قيام المسلمين برسم تلك الصور زمن معاوية

---

(١) انظر قبل : ص٣٠٩-٣١٠ .

وعبد الملك والوليد وهشام وغيرهم ، فى حين أننا على علم بأن الخليفة يزيد ابن عبد الملك أصدر مرسوما بمحو الصور وتكسير التماثيل فى العمائر المسيحية ذاتها ، ومنها الكنائس ، فكيف بالعمائر الاسلامية .

وان وجه ماوجد من تلك الصور عندنا هو أنها من بقايا العمارة البيزنطية القديمة ، اذ أن بعض القصور أشار عدد من الباحثين الى أنها يمكن أن تنسب الى العهد البيزنطى ، وانما جددها المسلمون وسكنوها ، أو أن تلك الصور والرسوم ذات الأرواح أضيفت الى تلك العمائر على يد من سكنها بعد الأمويين فى العصور التالية ، اذ أنها لم تبق خالية ، وأن أملاك الأمويين صودرت وسكنت حتى خربت مع تعاقب الأيام ، ومنها مازال ، ومنها مابقيت آثاره .

وقدمنا ، أن من المعتقد أن اضافة صور ذات الأرواح ، انما تم بعد ظهور مدارس التصوير فى فارس فى القرن الخامس الهجرى . ويمثل قول علماء الآثار أن صورة الخليفة وحوله أعداء الاسلام أثر مستمد من الفن الفارسى ، قرينة على ماذهبنا اليه ، وأن اضافة تلك الصور استهدف منها الفنانون الفرس الشيعة الاساءة الى بنى أمية ، ولعل بعضها رسم بدون هدف وانما لتزيين تلك القصور ، عندما شاع التصوير .

يقول الدكتور صفوان التل : لقد تركت زخارف قبة الصخرة أثرا كبيرا على منهاج الفنون الاسلامية وذلك باعتبارها من أقدم أساليب الزخرفة الاسلامية على الاطلاق ، ومن خلال دراسة هذه الزخارف نجد القائم على هذه الزخرفة لم يكن مطلق اليد أو حر التنفيذ ، بل نراه مقيدا وملتزما بعدد من التعليمات الصارمة حتى يتوافق العمل الفنى مع الفلسفة والتقاليد الاسلامية . ان مخطط البناء الثمانى ، والقبة المركزية ، يمثل أسلوبا عمائريا كان شائعا فى بلاد الشام ، وأن للعرب فى سوريا تراثا قديما تمكنوا من الاستفادة من خبراتهم الموروثة لخدمة دين الاسلام . أما الفسيفساء التى سيطرت على زخارف بناء قبة الصخرة الداخلية فهى تمثل الأسلوب العربى الشامى الذى ساد بلاد الشام فى الفترة البيزنطية . لقد كانت زخارف قبة

الصخـرة تمثل أسلوبا نباتيـا هندسيا ، مبتعدا عن تصـــوير أى مخلـوق ، فنشأ الفن الزخرفى الأموى الاسلامى ، فنا نباتيا هندسيا ، مبتعـدا عن رسوم ذات الأرواح ، وبشكل خاص داخل العمائر الدينية ، ولايزال هـذا المنع مستمرا فى الأمـــاكن المقـدسة حتى اليـوم ، كمـا لايزال الأسلـــوب الفنى الاسلامـى الشـامى مستمـرا رغـم تطور التـاريخ [١]. وقـد ذكـرنا صفـة عمارة المسجـد الأمـوى وزخرفته ، وخلوها من الأثر المسيحى ، وكـذلك المسجد النبوى ، والمسجـد الحرام ، والكعبـة المشـرفة ، وانما كل ذلـك دليـل على أن من قام بتلـك العمائر الدينية هم من العمال المسلمين ، ولم يكـن للنصارى دور فيها لخلـوها من الأثر المسيحى وصور ذات الأرواح . أما مـاظهر من تأثر طرزها المعمـارية بالطرز القديمة فى الحضارات السابقة ، فانما جاء على يدى مـــن أسلم من أهل البلاد المفتوحة أصحـاب تلـك الحضارات ، مفيـــدين مـن خبراتهـم وحضـارتهم السابقة ، آخذين بما يلائم دين الاسلام الـذى اعتنقوه ، تاركين مايخالف تعاليمه .

---

(١) انظر : صفوان التل ، بناء وزخارف قبة الصخرة فى القدس .

* دورهم فى الحياة العلمية :

توطئة :

استن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى الافادة من الكفار فيما يحتاجه المسلمون من العلوم ، ولم يقتصر الاسلام ودور الدولة الاسلامية على الحث على العلم كما جاء فى القرآن والسنة ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل فداء أسرى بدر الذين يحسنون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين(١). وقد تعلم عبد الله بن عمرو بن العاص(٢)العبرية ، فكان يقرأ التوراة(٣)، ويحسن السريانية(٤)، ولاشك أنه تعلمها على يدى أهلها .

وكان المسجد المدرسة الأولى التى تعلم فيها المسلمون ، ولما كثرت الفتوح ودخل الناس فى الاسلام أفواجا عربا وعجما ، وكثر الولدان ، أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ببناء بيوت المكاتب (الكتاب) ، ونصب

---

(١) محمد السيد الوكيل ، الحركة العلمية فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه ، دارالمجتمع للنشر والتوزيع ، السعودية ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٣-١٤ .

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشى السهمى ، أبو محمد ويقال أبو عبد الرحمن ، قيل : كان اسمه العاص فغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا وعن عدد من الصحابة ، وحدث عنه بعض الصحابة وكثير من التابعين ، قال ابن سعد أسلم قبل أبيه ، كان كثير العبادة وقصته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواصلة قيام الليل وصيام النهار مشهورة ، وكان يقرأ الكتابين التوراة والقرآن ، وكان كثير الحديث ، لأنه كان يكتب ، وكان ناسكا ، شهد الحروب والغزوات ، وكان يضرب بسيفين ، وكانت راية أبيه معه فى اليرموك ، وشهد صفين مع معاوية ، وولاه الكوفة مدة قصيرة ، ولم يبايع لابنه يزيد ، واختلف فى مكان موته وتاريخه وذلك بين سنتى ٦٥-٦٩هـ .

انظر : ابن حجر ، الاصابة ، ٣٥١/٢-٣٥٢ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ١١١/٤ .

(٣) ابن حجر ، نفس المصدر والجزء ، ص٣٥٢ .

(٤) الزركلى ، نفس المرجع والجزء والصفحة .

الرجال لتعليمهم القراءة والكتابة وتأديبهم مع الابقاء على التعليم فى حلقات الدرس بالمسجد للكبار(١). ويذكر أن عمر رضى الله عنه جعل بعض سبى قيسارية فى الكتاب(٢).

وليس ثمة شك لدينا أنه قصد من أسلم منهم من عرب قيسارية بالشام ممن كان يقرأ ويكتب ، أو لعله قصد الكتابة فى الدواوين ، والله أعلم .

لقد أقر عمر رضى الله عنه ماكان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنى عليه ، وزاد ماأداه اليه اجتهاده ، ووافقه عليه أصحابه ، فبنى مكاتب التعليم ودون الدواوين ، ونقل من أنظمة الفرس والروم فى الادارة والجيش مايحتاج اليه لتنظيم تلك الجوانب فى حياة المسلمين ، مما لم ير به بأسا ، وأقره عليه الصحابة(٣).

يقول محمد السيد الوكيل : ان عمر رضى الله عنه حين اتسعت رقعة الفتوحات ، ودخل كثير من أهل البلدان المفتوحة فى الاسلام ، وهم أهل علوم وحضارات قديمة ، لم يغب عنه أثر تلك العلوم والحضارات فى نفوس أصحابها ، وأنها لابد أن تنتقل يوما الى المسلمين وتؤثر فيهم ، فلم يرفضها ولم ينه عنها ، اذ لاضير على المسلمين أن ينهلوا من العلوم النافعة ، اذ ليس فى الاسلام مايمنع ذلك ، فالحكمة ضالة المؤمن يبحث عنها فى مظانها ، ويأخذها أنى وجدها .

فانه لما فتحت أرض فارس والروم ، كان بها علوم لتنظيم الدولة ، فاستفاد المسلمون منها زمن عمر دون أن يؤثر ذلك فى النظام الاسلامى أو يخل بطابعه العام ، أو يخرجه عن التعاليم الاسلامية ، قال أبو يوسف : لما أراد عمر بن الخطاب أن يمسح السواد ، أرسل الى حذيفة أن ابعث الى

---

(١) محمد السيد الوكيل ، الحركة العلمية فى عصرالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ص٤٧ .

(٢) انظر قبل : ص٢٦٤ .

(٣) محمد السيد الوكيل ، نفس المرجع ، ص٤٩ .

بدهقان من جرجى[١]وبعث الى عثمان بن حنيف أن ابعث لى بدهقان من قبل العراق ، فبعث كل منهما بواحد ومعه ترجمان من أصل الحيرة ، فسألهم كيف كنتم تؤدون الأعاجم فى أرضهم . فاستفاد من معرفتهما ، ولم يمنعه مكانه أن يتعلم منهما مالم يكن يعلم ، مادام لايؤثر فى عقيدته ، ولايخالف تعاليم الاسلام ومبادئه[٢].

وقد مر معنا أن عمر رضى الله عنه سأل أحد نصارى الشام عن قدر الأرزاق التى كان الروم يأخذونها[٣].

وبالمقابل حرص عمر رضى الله عنه ، والمسلمون على نشر العلم الدينى بين المسلمين فى البلاد المفتوحة ، فوجه لها عددا من علماء الصحابة ، حتى يتعلم أهلها الاسلام وعلومه من مصادره الوثيقة دون تحريف أو تشويه قد يصيبها من أثر العلوم القديمة التى رسخت مفاهيمها فى عقول من أسلم من أهل تلك البلدان المفتوحة ، واطلع عليه المسلمون الفاتحون[٤].

لقد أقبل العرب المسلمون الى جانب العلوم العربية والدينية الخالصة نتيجة لاختلاطهم بأصحاب العلوم والحضارات القديمة فى البلدان المفتوحة على طلب مالديهم من العلوم والمعارف ومظاهر الحضارة ، فأخذوا عنهم هندسة المدن وعمارة المبانى وطرق استصلاح الأرض وارووائها بحفر الأنهار والآبار وشق الترع والقنوات ، وطرق جباية الضرائب وضبط الدواوين ، ودراسة علوم الأمم النظرية[٥].

---

(١) وردت عنده "جرجى" ولم أجدها فى معاجم البلدان ، وبالرجوع الى نص أبى يوسف وجدته "جوخى" ، انظر : الخراج ، ص٩٠ . ولعله خطأ مطبعى .
وجوخى (جوخا) :اسم نهر عليه كورة واسعة تدعى جوخى فى سواد العراق ولم يكن ببغداد مثلها ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم ، حتى صرفت دجلة عنها فخربت . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ص١٧٩ .

(٢) محمد السيد الوكيل ، الحركة العلمية فى عصرالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ص٤٣-٤٥ .

(٣) انظر قبل : ص٢٦٤ .

(٤) محمد السيد الوكيل ، نفس المرجع ، ص٤٥-٤٦ .

(٥) نجدة خماش ، الدواوين المركزية ، ص٣٢ .

ـ المكانة العلمية لبلاد الشام عند الفتح الاسلامى :

وفى بلاد الشام لم تمت الحضارة البيزنطية التى ازدهرت هناك فى العصر البيزنطى بعد الفتح الاسلامى ، فلقد حرص المسلمون على الافادة مما وجدوه ببلاد الشام من أصول حضارية نافعة ، وذلك بترجمة العلوم اليونانية ، والاستعانة بالمهندسين والفنانين الروم والمهرة من الصناع والعمال الروم ، أو باستخدام أساليب الروم فى الأنظمة ، وباستخدام النقود البيزنطية حتى سك عبد الملك بن مروان العملة العربية الاسلامية الخالصة ، أو غير ذلك مما يشهد لبلاد الشام أنها كانت عند فتح المسلمين قلعة حضارية بيزنطية(١). والحضارة لاتنشأ من فراغ ، وكلنا يعرف أنه لم يكن للعرب بالجزيرة العربية قبل الاسلام مايصح أن نسميه علما متكاملا ، بمعنى دراسة منتظمة للطبيعة ومظاهرها وقوانينها ، فالتراث العلمى العربى الاسلامى لم يتولد الا مع الاسلام ، وبعد ظهور الاسلام ، فالفلسفة مثلا والطب وعلوم الطبيعة لم تظهر من العدم ، بل من أصول مختلفة ، ومن هذه الأصول الأصل السريانى(٢). والمساهمة السريانية فى فجر الاسلام مساهمة غير مباشرة ، لكنها تدل على أن

---

(١) سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٢) جورج عطية ، الأثر السريانى ، ص١٤١-١٤٢ . والسريان : اسم غريب أطلقه المصريون ثم اليونان على أهل سوريا ، ومن اليونان استعاره الآراميون الغربيون ومن السريان الغربيين سرى الى المتنصرين من الكلدان الآشوريين ، فتسموا باسم السريان تميزا لهم عن الكلدان الآشوريين الوثنيين ، فلم يكن الاسم السريانى يومئذ يشير الى أمة بل الى الديانة المسيحية لاغير . هذا وان لفظة سريانى تفسر بلفظة نصرانى ، وهذا الاسم عند الكلدان الآشوريين مرادف لكلمة مسيحى من أى أمة وجنس كان . انظر : رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ح٣ ، ص٢٤ ؛ ويقول جورج عطية : واللغة السريانية فى الواقع هى اللهجة الشرقية للغة الآرامية ، ويجمع العلماء على أن "السريانية" جاءت نسبة الى سورية ، أى بلاد الشام . ولما كانت الآرامية تشمل أقواما عديدة يعيش بعضها خارج سورية ، أصبح مفهوم السريانية بعد السيطرة العربية مقتصرا على لغة مسيحي بلاد الشام وبعض العراق ، وهذا مايغنيه عادة العلماء الذين يساوون بين السريانية والأدب المسيحى الشامى . نفس المرجع ، ص١٤٠ .

العـرب عرفوا الفلسفة اليونانية قبل عصر المأمون ، فمـراكز العلوم اليونانية فى الشام وغيرها لم تتوقف عن نشاطها بعد الفتح الاسلامى ، بل استمرت فى العطـاء ، وبدأ تأثيرهـا على العـرب المسلمين ، من خلال المنـاقشات والجدل الدينى ، والترجمة التى أمدتهم بالعلوم والمعارف القـديمة ، والنظم الحضارية السـابقة ، وهو ماأدى الى تفـاعل حضارى بين حضارة الفـاتحين وأهل البلاد المفتوحة ، ونتج عنه ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، باسهام شامى مميز ، أعان العرب على الاسهام فى حركة الحضارة العالمية(١).

لقد كان التواصل الحضارى فى بلاد الشام أكيدا ، وأن كلام القـائلين بأن المفكـرين والعلماء العرب لم يعرفوا الفكر اليونانى القـديم الا فى العصر العبـاسى هو زعم لاصحـة له(٢). وقـد ساعد كل ذلـك على تمازج علمـى ، وتلافح فكرى ، وحركة علمية نشطة(٣). فكان النصارى فيها حلقـة الوصل بين الفكـر اليونانى والعربى ، وأسهمـوا فى صيانة الفكـر اليونانى من الضياع بترجمته(٤). ومـن المهـم أن نعلم أن افـادة العـرب من العلـوم والحضـارات القديمة اقتصرت على ماياسب دينهم وأخلاقهم وعاداتهم(٥).

ونتيجـة للتسامح والحرية التى نعـم بها النصارى ببلاد الشـام ، وبحكـم روابط العـروبة واللغة بين المسلمين الفاتحين ، ومتنصـرة عرب الشام ، التف هؤلاء حول المسلمين ، وعمدوا الى العناية باللغة العـربية وآدابها ، وأخذوا ينقلون علومهم من السريانية الى العـربية(٦)، حتى قال درابر : "ان العـرب

---

(١) جورج عطيـة ، الأثر السـريانى ، ص١٧١-١٧٣ ؛ شفيـق جاسـر محمـود ، تاريخ القدس ، ص٦٩-٧٠ .

(٢) جورج عطية ، نفس المرجع ، ص١٤٢ .

(٣) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٧٦ .

(٤) توفيـق اليوزبكى ، تاريخ أهـل الذمة فى العراق ، ص٤٣٤ ؛ سهيـل قـاشا ، نفس المرجع ، ص١١٢-١١٣ ؛ فتحـى عثمـان ، الحدود الاسلاميـة البيزنطيـة ، ٢٦٥/٣ .

(٥) فتحـى عثمـان ، نفس المرجع ؛ توفيـق اليـوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٩٢ ، ٢٥٧/٣ ؛ سهيل قاشا ، نفس المرجع ، ص٧٦ .

(٦) سهيـل قـاشا ، نفـس المرجع ، ص٧٧،٧٨ ؛ توفيـق اليـوزبكى ، نفـس المرجع ، ص٤٠٠-٤٠٢ .

قد زحفوا بجيش من أطبائهم ومؤدبى أولادهم من النسطوريين ، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ماأتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين"[١]. اذ أن العرب المسلمين بفتحهم بلاد الشام احتووا العلوم اليونانية ، والنظم الرومانية ، وورثوا مراكز ومدارس ذلك الفكر ببلاد الشام ، مثل انطاكية التى كانت أهم مدينة مسيحية فى بلاد الشام من الناحية الفكرية ، ودمشق التى كان بها أكبر مدارس الفلسفة ، وقد انتقلت اليها من صيدا وازدهرت فى القرنين السابع والثامن ، ومن العلماء الذين أنجبتهم صفرونيوس بطريرك بيت المقدس عند الفتح ، ويوحنا الدمشقى ، وقيسارية وغزة فى فلسطين ، وبصرى وبيروت وقنسرين وصيدا وأريحا ، وكذلك الأديرة التى أقام الرهبان المدارس بها كدير قنسرين ، وصارت تلك المراكز بكتابها ومدارسها ، وخزائن كتبها وفكرها ، جزءا من الدولة الاسلامية ، فأثرت فى العقلية العربية الاسلامية ، وقد كان يدرس بها العلوم والفلسفة ، بجانب البحوث الدينية النصرانية ، وكان لها تقاليدها العلمية فى البحث والتأليف والترجمة . ولما قامت الدولة الأموية كانت كل هذه المراكز نشطة ، وظلت حتى أواسط العهد العباسى ، وقيل : بل استمر بعضها فى العطاء ، وهى التى قامت بنقل العلوم المختلفة الى العربية ، ونشر الثقافات القديمة . وقد تأثر هؤلاء بتشجيع العرب المسلمين لهم فى ميادين العلوم والمعارف ، اذ كان المسلمون شديدى التحمس لنشر العلوم ومنها الطب والصيدلة ، فأنشأوا مدارس للطب والصيدلة ، وأنشأوا لذلك البيمارستانات[٢]. ولعب اقليم الثغور دوره الحضارى ، وكانت أنطاكية فيه مركزا للثقافة اليونانية التى رعاها اليعاقبة قبل الاسلام ، ثم أدركها الاضمحلال قبل الفتح على أثر نوازل الفرس وزلازل الطبيعة ، لكن عمر بن عبد العزيز نقل اليها مدرسة

---

(١) شفيق يموت ، أهل الذمة ، ص٢٣ .

(٢) انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٤،١٢/٤ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٦٥،٢٦٠-٢٥٨/٣ ، ٣٣٥-٣٣١/٣ ، ٢٨١/١ ؛ جورج عطية ، الأثر السريانى ، ص١٥٦-١٧١ ؛ بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ٤١٢-٤١١/١ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٤،٤٠٥،٤٠٦-٤٠٧،٢٧٥ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٢٩٩،٣٠٠ ؛ منير الخورى ، صيدا عبر حقب التاريخ ، ص١٣٧ .

الاسكندرية وهذا ماأتاح لها الانبعاث من جديد . فرغم وقوعها فى منطقة ثغرية قلقة ، الا أن موقعها يسر لها جلب المخطوطات من بلاد الروم فى آسيا الصغرى ، والاشراف على حركة تبادل الكتب خلال فترات السلم ، وظلت مدرسة انطاكية زاهرة نحو ١٣٠ سنة أو أكثر ، ثم انتقلت الى حران زمن المتوكل على الله ، وبعد أربعين سنة انتقل الفلاسفة والعلماء منها الى بغداد فى زمن المعتضد بالله(١).

وبذلك أضاف أهل الذمة علومهم وأفكارهم الى ماعند العرب المسلمين ، فتكون من ذلك مزيج من الحضارات ، أصبحت فى ذاتها تختلف عن غيرها من الحضارات السابقة ، عقيدتها الاسلام ولغتها العربية ، فسميت بالحضارة العربية الاسلامية(٢).

لقد استعان المسلمون بأهل العلم والخبرة من نصارى الشام فى كثير من جوانب الحياة ، فاستعملوا من له علم بالأنظمة الادارية فى الدواوين كمنصور الرومى وابنه سرجون بن منصور وحفيده يوحنا وغيرهم(٣). ومن له علم بالزراعة والصناعة والهندسة فى مشروعاتها(٤). ومن علماء الكيمياء النصارى بالشام كالينيكوس ، مخترع النار الاغريقية ، لكنه فر باختراعه الى الروم ، وقدمه لهم فحاربوا به المسلمين(٥).

ـ دورهم فى الطب :

اتخذ الخلفاء الأمويون بعض علماء الطب من نصارى الشام لمداواتهم ، واهتموا بالصحة وعلم الطب دراسة وترجمة ونشرا ، وأنشأوا لذلك البيمارستانات لعلاج المرضى من الناس ، وكان الوليد بن عبد الملك أول

---

(١) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٢٨١/١ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٩٣-٣٩٤ .

(٣) انظر دورهم فى الادارة قبل : ص٢٥٩ ومابعدها .

(٤) انظر اسهام علمائهم وأهل الخبرة والمهارة الفنية منهم فى تلك المجالات قبل : الفصل السابع والثامن .

(٥) انظر قبل : ص٥٥٩ .

من أنشأ البيمارستانات من الخلفاء وذلك سنة (٨٨هـ/٧٠٥م)[١]. وكان معظم الأطباء من النصارى[٢]. ومن الأطباء النصارى الذين اشتهروا فى العصر الأموى ببلاد الشام ابن أثال النصرانى ، وكان من الأطباء المتميزين فى دمشق ، ولما تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة اصطفاه لنفسه ، وأحسن اليه وكان كثير المحادثة معه ، قريبامنه ، يلازمه ليل نهار ، وكان ابن أثال خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها ، والسام منها والقاتل[٣].

ومنهم أبو الحكم الطبيب النصرانى ، كان عالما بأنواع العلاج والأدوية ، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة ، وكان معاوية بن أبى سفيان يستطبه ، وأرسله مع ابنه يزيد لما ولاه موسم الحج طبيبا له ، ويبدو أن بعثات الحج كانت ترافق ببعثات طبية ، وقد عمر طويلا ، وعاش حتى زمن عبد الملك بن مروان ، وعالجه فى مرضه الذى مات فيه ، ولم تعرف سنة وفاته[٤].

وابنه الحكم بن أبى الحكم الدمشقى كان طبيبا بارعا يلحق بأبيه فى معرفته الطبية ، مقيما بدمشق عارفا بالأدوية والأعمال الطبية والصفات البديعة ، برز فى صدر الدولة العباسية ، وهو أبو الطبيب المشهور عيسى بن

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤١٣ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٩٨-٩٩ .

(٢) يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ص٢٢ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص١٦٥ ؛ توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ص١٧١-١٧٢ ؛ خليل داود الزرو الحياة العلمية فى الشام ، ص١٨٥ .

(٤) القفطى ، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المثنى ، القاهرة ، ص١٢٣ ؛ ابن أبى أصيبعة ، نفس المصدر ، ص١٧٥-١٧٦ ؛ خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٨٥ .

الحكـم ، وقد حكى عيسى قصـة عن أبيه تظهر براعته الطبيـة ، وقدرته على ايقـاف نزيف من شريان أصابه الحجـام لأحد الناس ، وقـد ولـد الحكم سنة ١٠٥هـ/٧٢٣-٧٢٤م ومات سنة ٢١٠هـ/٨٢٥-٨٢٦م(١).

وعندما وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى نحو الحجـاز أصحب معه طبيبا(٢).

وتاذوق طبيـب فى صـدر الاسلام فى زمـن بنى أميـة واشتهـر عنـدهم بالطـب ، اختـص بخدمة الحجـاج الثقفى ، وكان عالما بصنـاعة الطـب ، وله كناش كبير ألفه لابنه ، وكتاب فى الأدوية ، ومصنفـات أخرى فى فنه . وله تلامـذة أجلـة فى الطـب ، تقـدموا بعـده ومنهم من أدرك الـدولة العبـاسية كفـرات بن شحناثا ، ومات فى خلافـة المنصور العباسـى ، وقيل : مات سنة ٩٠هـ/٧٠٨-٧٠٩م بواسط(٣). وكان بعض القسس يداوون المرضى ، وكانت الأديرة مراكز للعلاج من بعض الأمراض ، فقد اشتهرت بعض الأديرة بالمياه الكبريتية(٤).

ـ دورهم فى الترجمة :

اهتم العرب المسلمون فى بادىء أمرهم بتكوين دولتهم وتوطيد أركانها وحمـاية الـدعوة ونشرها ، وانصـب اهتمـامهم العلمى على القـرآن والسنـة ومـاترتب عليهما من العلوم فى الفقه واللغة والمغازى وغيرهـا ، فلما فتحوا البلاد التفتوا الى العلوم القديمة فترجموها .

يقول محمد كرد على : وكان مطمح نظر المدونين ضبـط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما ، ثم دونوا فيما هو كالوسيلة اليهما(٥).

---

(١) القفطـى ، أخبـار العلمـاء ، ص١٢٣-١٢٤ ؛ ابن أبى أصيبعـة ، عيــون الأنبـاء ، ص١٧٦-١٧٧ ؛ خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٨٧ .

(٢) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص٣٥٦ .

(٣) القفطى ، نفس المصدر ، ص٧٤،٧٦ ؛ ابن أبى أصيبعة ، نفـس المصدر ، ص١٧٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨٥/٩ .

(٤) على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص١٠١-١٠٢ .

(٥) خطط الشام ، ٢٢/٤ .

وأرى أن الدور الأكبر لنصارى الشام فى مجال الحياة العلمية ، هو قيامهم بترجمة العلوم القديمة ونقلها من اللغات الأعجمية الى اللغة العربية . فقد شهد القرن الأول نشأة العلوم العربية التى جاء معظمها عن طريق الترجمة ، حيث شهد العصر الأموى المرحلة الأولى فى حركة الترجمة ، وقد بدأت بسيطة ومحدودة ولم تشتهر بينهم لأن السلف كانوا يمنعون من الخوض فيها(١)، لكنها مع ذلك كانت حجر الأساس لبناء هذه الحركة عموما . وقد ترجم فى هذا العصر مادعت اليه الحاجة ، فلما بدأ العرب عصر الترجمة لجأوا الى العارفين بلغات العلوم القديمة الناطقين باللغة العربية وكانوا من السريان ومعظمهم نصارى وبخاصة النساطرة واليعاقبة ، كما أسهم فيها اليهود والصابئة والفرس ووثنيو حران ، فكلفهم العرب بترجمة ذلك التراث وتركوا الحرية للمترجمين دون الزامهم بمذهب أو مبدأ ، حتى لايعوقوا الانتاج(٢).

ولعل الدوافع التى كانت وراء قيام حركة الترجمة هى : انتشار الاسلام وسيادة اللغة العربية فى البلاد المفتوحة ، واقبال أهل الذمة على الترجمة تحقيقا لرغبة العرب ، أو تقربا منهم الى المسلمين لمكاسب مادية أو معنوية ، وكذلك ظهور الفرق الاسلامية واحتدام الجدل بينها من ناحية والجدل مع النصارى من ناحية أخرى ، وقد وجدوا النصارى يقارعونهم بالمنطق والفلسفة اليونانية ، فأقبلوا على الفلسفة للافادة منها فى الدفاع عن الاسلام تجاه خصومهم من الذميين(٣).

---

(١) رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ٣/٥٤-٥٥ .

(٢) انظر : رشيد الجميلى ، نفس المرجع ، ص٥٥،١٧،١٩-٢٠،٢٤-٢٥ ؛ عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤م ، ص١١٥ ؛ دى لاسى اوريلى ، الفكر الغربى ، ص٥٠-٥١ .

(٣) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤١٢ .

ويرى عبد الواحد ذنون طه[1]، أن معاوية بن أبى سفيان لم تقتصر اهتماماته العلمية بعلم التاريخ ، على استدعاء عبيد بن شريه[2]وغيره من علماء اليمن للاطلاع على المعرفة التاريخية ، وتشجيع تدوينها وشيوعها فى بلاد الشام ، بل اعتمد على مصدر محلى لايمكن الجزم فى تحديد جذوره تماما ، فكان من برنامجه اليومى أن ينام ثلث الليل ثم "يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك ، وأخبار الحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ..." . وقال : ان هذا النص يتضمن عدة حقائق أشار اليها شاكر مصطفى ، منها وجود معارف تاريخية واسعة بحيث تقرأ كل ليلة ، وأن هذه المعارف كانت معلومة ومكتوبة بالعربية ، ومصنفة فى دفاتر أو كتب ، يقوم عليها غلمانه موكولون بها . وقد استبعد شاكر مصطفى أن تكون هذه المعلومات مما يتعلق بالمغازى والسير ، أو عن تاريخ العهد الراشدى ، أو مطلع العهد الأموى ، وانما كانت فى رأيه :"كتبا فى تواريخ الأمم السالفة" كتبها له أو ترجمها علماء الروم . وأضاف : والواقع أنه لايمكن انكار وجود حركة علمية ومؤلفات غير عربية سابقة ، وعلماء نصارى ساهموا فى تأليف مثل هذه المؤلفات .

---

(١) دور بلاد الشام فى نشأة علم التاريخ فى العصر الأموى ، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام فى العهد الأموى ، القسم العربى ، المجلد الأول ، ص٧٢ .

(٢) عبيد بن شريه الجرهمى ، راوية من المعمرين ، ان صح خبره فهو أول من صنف الكتب من العرب ، كان من الحكماء الخطباء فى الجاهلية ، أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، واستحضره معاوية من صنعاء الى دمشق ، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم فحدثه ، فأمر معاوية بتدوين أخباره ، فأملاها فى كتابين ، الأول أسماه : "كتاب الملوك وأخبار الماضين" طبع مع كتاب "التيجان وملوك حمير" تحت عنوان : "أخبار عبيد بن شريه فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها" . والثانى : "كتاب الأمثال" ، وتوفى نحو سنة ٦٧هـ/٦٨٦م . الزركلى ، الأعلام ، ١٨٩/٤ .

وهو رأى ان صح كانت تلك المؤلفات أول ماترجم من العلوم .

والمشهور أن خالد بن يزيد[١]يعد أول شخصية فى الاسلام يأمر بترجمة كتب الكيمياء والطب والنجوم ، من اليونانية والقبطية الى العربية ، فكان ماعمله أول نقل فى الاسلام من لغة الى لغة ، كما كان أول عربى مسلم يبحث فى العلوم العقلية ويظفر منها بمركز جدير بالنظر والاعتبار ، ومؤلفاته فى هذا المجال خير شاهد على ذلك[٢].

ويذكر أن خالدا أمر باحضار بعض الفلاسفة اليونانيين من مصر لترجمة ماأراد من كتب الصنعة وغيرها[٣]. وكانت صناعة الكيمياء رائجة بالاسكندرية ، وقام خالد بأسفار عديدة اليها ، شغف خلالها بالكيمياء ، فدفعه ذلك للحصول على مصنفات الاغريق والسريان فى فنون العلم والمعرفة

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، أبو هاشم القرشى الأموى ، وكان موصوفا بالعلم وقول الشعر ، ذكر خالد للخلافة عند موت أخيه الخليفة معاوية ابن يزيد ، فلم يتم له ذلك ، وغلب مروان على الخلافة بشرط أن خالدا ولى عهده.

قال ابن خلكان ، كان خالد يعرف الكيمياء وصنف فيها ثلاث رسائل ، وهذا لم يصح . قيل : توفى سنة أربع أو خمس وثمانين ، وقيل : سنة تسعين . الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣٨٢/٤-٣٨٣ . وقد قال عنه ابن خلكان : "كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صناعة الكيمياء والطب ، وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومى ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ماجرى له مع مريانس الراهب المذكور ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار اليها ، وله فيها أشعار كثيرة مطولات ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسعة علمه" . وفيات الأعيان ، ٢٢٤/٢ .

(٢) انظر : رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ص٥٥-٥٨،٦١-٦٤ ، ج١ ، ص٦٣ ؛ خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٧٧ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٩ .

(٣) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٨٢ ؛ أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة والعشرون ، ص٢٠٧ .

وبخاصة كتب الكيمياء[١]. ويلاحظ أن أغلب الذين قاموا بالترجمة كانوا نصارى ، ومن أقدمهم "ستيفان (اسطفان) الكبير" ، الذى استجاب لخالد فترجم له الكثير من الكتب[٢]. كما استفاد خالد فى الترجمة من راهب نصرانى اسمه "مريانش (مريانوس)"[٣]. ومع أن مريانوس رومى الأصل ، فانه يعد شاميا ، اذ أن العلم الذى يظهر فى بلد هو من مبتكراتها ، وكان مريانوس قد طلب العلم على يد "أدمز" ، ولما مات أستاذه انزوى فى صومعة قرب مدينة القدس ، ويقال أن خالد أصبح تلميذا له ، ودرس عليه الكيمياء والطب والفلك ، وانتقل الى حمص وسكن مع خالد فى قصره ، واستعان خالد بغالب مولاه ، وأمره أن يحفظ كلام مريانوس وكتابته ، لشدة حرصه على علمه[٤]. وكان لعلم الكيمياء مكانته آنذاك ، حتى أن خالدا رضى به بدلا عن الخلافة لما صرفت عنه[٥]. ولم يكن هذا العلم مباحا للجميع ، وانما للملوك والأكابر ، وكان مريانوس لايعطى علمه الا لمن يثق بدينه وورعه وأمانته ، لأنه كان يعتبر ذلك سرا من الأسرار لايجوز البوح به فلايعطى الا لمن يصونه[٦]. وقد بلغ خالد فى علم الكيمياء والطب درجة الاتقان ، وكان له دراية بفنون العلم ، وله مؤلفات دالة على براعة ، رأى بعضها ابن النديم[٧]. وكان له خزانة كتب حوت كتبا من فنون العلم

---

(١) رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ص٥٩ .

(٢) رشيد الجميلى ، نفس المرجع ، ص١٨١ ؛ شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧١م ، ص١٠٠ ؛ خليل الزرو الحياة العلمية فى الشام ، ص١٨٢ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام ، ص٥٥٥ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢٢٤/٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦٤/٩ .

(٤) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٧٩-١٨٠ ؛ دى لاسى أوليرى ، الفكر العربى ، ص٧١ .

(٥) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٧٧ .

(٦) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٧٨ .

(٧) ابن خلكان ، نفس المصدر ، ٢٤٤/٢ ؛ خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٧٧-١٧٩،١٨٢ ؛ دى لاسى أوليرى ، نفس المرجع والصفحة .

المختلفة[١]. ومما يدل على علمه بالكيمياء وتقدم ذلك العلم فى زمنه أنه استطاع تحلية المياه المالحة من الأملاح[٢]، كما وجد الحجر الفلسفى الذى يصنع به الذهب الاصطناعى[٣]. ومع ذلك فكان يكتسى ثوب تواضع العلماء فيقول "عنيت بجمع الكتب فما أنا من العلماء ولامن الجهال"[٤]. غير أن هناك من شكك فى قدرة خالد فى علم الكيمياء ، فمنهم من معاصريه محمد بن عمرو بن العاص[٥]. ومن المؤلفين ، الذهبى[٦]، وابن خلدون[٧] ومن المحدثين عمر فروخ[٨]. وقد كفانا مؤنة الرد رشيد الجميلى الذى قال "وفى رأيى أن الأمير الأموى ، واستنادا الى ماأتيت على ذكره من مصادر نعتمد عليها فى دراستنا للتاريخ الاسلامى ، كان أول من رعى أمر الترجمة بل هو أول من بحث فى العلوم القديمة وخاصة الكيمياء ، فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، وان أى رأى آخر سواء كان قديما أو حديثا ، مصدرا أم مرجعا ، يخرج عن هذا الرأى يتنافى تماما وحقيقة ذلك الاجماع القوى للمصادر والمراجع ، فى تأييد صاحبنا التام والمطلق فى كل ماتطرقنا اليه آنفا خاصة وان التكهن لاغير هو دليل من يخالفنا رأينا هذا"[٩].

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ٦/١٨٤ .

(٢) خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٨٢-١٨٣ . (ولعله يقصد تبخيرها ثم تصفيتها مما يرسب بها من أملاح) .

(٣) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٩ .

(٤) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٨٣ .

(٥) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٧٨ .

(٦) سير أعلام النبلاء ، ٤/٣٨٣ .

(٧) نقل قوله ، خليل الزرو ، نفس المرجع والصفحة .

(٨) فى كتبه : العرب فى حضارتهم وثقافتهم ، ص١٩٤ ؛ وعبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، ص٩٧-٩٨ ؛ وتاريخ العلوم عند العرب ، ص٢٤٢ ؛ ذكر ذلك ، رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ص٦٠-٦١ ، ج١ ، ص٥٥ .

(٩) رشيد الجميلى ، نفس المرجع ، ج٥ ، ص٦٥ ، ج١ ، ص٦٦ .

كما ترجم كتاب أهرن القس[١]وهو كناش فى الطب ، ترجمه ماسرجويه الطبيب اليهودى البصرى ، وهو ثلاثون مقالة وزاد عليها ماسرجويه مقالتين ، وقد ذكر أن الخليفة مروان بن الحكم هو الذى أمر بترجمته ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجده فى خزائن الكتب ، فاستخار الله فى اخراجه للناس ينتفعون به أربعين ليلة ، فأخرجه ونشره[٢]. وقيل ، بل عمر هو الذى أمر ماسرجويه بترجمته واخراجه للناس[٣]. كما قام عمر بن عبد العزيز بنقل مدرسة الطب من الاسكندرية الى انطاكية بالشام ، واستطب عبد الملك بن ابجر الكنانى الذى كان أستاذا نصرانيا فى مدرسة الاسكندرية وأسلم على يدى عمر قبل توليه الخلافة ، فنقله والمدرسة الى الشام ، واعتمد عليه فى صناعة الطب[٤]. وقد انصب اهتمام المترجمين على تعريب الفكر اللاهوتى ، والكتب الفلسفية والطبية وكتب الكيمياء والفلك والهندسة وغيرها . والواضح أن من قام بها هم العرب المتنصرة الذين يعرفون العربية لغتهم القومية ، والسريانية لغتهم الدينية ، أو ممن تعلم العربية من النصارى تقربا للفاتحين وللعمل فى خدمتهم ، أو ممن اعتنق الاسلام منهم ، فتعلم العربية للتعمق فيه ومعرفته[٥]. ومن أشهر المترجمين

---

(١) أهرن القس فى صدر الملة ، صاحب الكناش ، وكناشة بالسريانية ، نقله ماسرجيس الى العربية ، وهو ثلاثون مقالة وزاد عليها ماسرجيس مقالتين . القفطى ، أخبار العلماء ، ص٥٧ ؛ ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص١٥٨ .

(٢) انظر : بارتولد ، عمر بن عبد العزيز ، ص٢٨٢ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٥ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص١٩-٢٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ، نفس المصدر ، ص٢٣٢ ؛ رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ص٦٢-٦٣ ؛ خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٨٦ .

(٤) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص١٦٣ ؛ خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٨٥-١٨٦ رشيد الجميلى ، نفس المرجع ، ص١١٧-١١٩،١٨٦-١٨٧ .

(٥) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٧٨ ومابعدها ؛ خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٩٥ .

فى العصر الأموى يعقوب الرهاوى[١]، وهلال بن أبى هلال الحمصى ، وزروبا بن ماجوه الحمصى[٢]، وقسطا بن لوقا البعلبكى ، الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف ، وأبى عثمان الدمشقى ، وعبد المسيح بن عبد الله الحمصى ، وحنين بن اسحق البغدادى المولد ، الشامى المنشأ والتعليم[٣].

ويرى نا لينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية الى العربية كتاب أحكام النجوم المنسوب الى هرمس الحكيم[٤]. وكان ممن نقلت كتبهم من اليونانية الى العربية ، البطريرك صفرونيوس الذى حضر فتح بيت المقدس ، وهو دمشقى عرف بعلمه الجم ويرجح أنه كان مارونيا ، ومكسيموس ، واندراوس الدمشقى ، ويوحنا الدمشقى ، نديم الخلفاء الأمويين قبل ترهبه ، وقد عرب من مؤلفاته فى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام[٥]. وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما ، ثم دونوا فيما هو كالوسيلة اليهما[٦].

وقد وصف بعض هؤلاء المترجمين بركاكة اللغة ، وهذا لايعنى أنه كان أعجميا وتعلم العربية ، بل قد يكون من متنصرة العرب فى الشام ، فان هؤلاء قد تأثرت لغتهم بمجاورة الأعاجم ، كما كانت لغة طقوسهم الدينية المسيحية هى السريانية ، الى جانب أن معظم قبائل العرب المتنصرة كانت فى الأصل يمنية ، وعلماء العربية لم يأخذوا شيئا من لغة أهل اليمن لأنهم كما

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٩ ؛ سهيل قاشا ، نفس المرجع ، ص٩٢ .

(٢) خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٩٥ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ٢٤/٤-٢٥

(٣) محمد كرد على ، نفس المرجع والجزء والصفحات .

(٤) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٢١/٤-٢٢ .

(٥) سهيل قاشا ، نفس المرجع ، ص٨٠-٨١ ؛ شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٩٥-٩٦ .

(٦) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٢٢/٤ .

يقولون "ذوو لسان ماهو بلساننا"(١).

وفى الوقت الذى جد النصارى فى ترجمة العلوم المختلفة الى العربية انكب فريق آخر منهم على التأليف فى صنوف المعرفة ، وقد قام الرهبان فى الأديرة بالدور الأكبر فى هذا الشأن ، وتركوا من الكتب التى ألفوها اضافة الى ماترجموه أعدادا كبيرة زخرت بها المكتبات ودور العلم ، وقد امتازت هذه المخطوطات بنقوشها وزخارفها وخطوطها الرائعة ، وزينوا كتبهم ببعض الصور(٢). ومن أولئك العلماء يوحنا الدمشقى وبولس الأنطاكى(٣).

لقد أقبل النصارى بعد الفتح الاسلامى على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها ، وأخذوا يصوغون أفكارهم وعلومهم وآدابهم بما يتوافق والدين الاسلامى والتقاليد العربية ، فأصبحت اللغة الحضارية السائدة هى العربية ، ففقدت الشعوب غير العربية ذاتيتها اللغوية(٤). فلم تستطع لغة الشعب فى الشام التصدى للغة العربية ، اذ كانت لغة الحكام الروم فى الشام هى اليونانية ، وقد خرج هؤلاء بفتح المسلمين بلاد الشام ، أما لغة الشعب فكانت السريانية والآرامية والعربية ، وهذا ماأضعفها أمام العربية التى سادت(٥).

وكان اقبال النصارى على تعلم العربية اختياريا لااجباريا ، رغبة فى التقرب للمسلمين والحصول على المكاسب ، وضرورة دعت اليها طبيعة المواطنة والاختلاط والتعامل ، وتعريب الدواوين وتعريب الثقافة ، كل ذلك ساعد على انتشار العربية بين أهل الذمة ، وهو ماأدى الى حسن التعايش ، وانتشار الاسلام بينهم ، وتمازج الفكر والعلوم والثقافات المختلفة

---

(١) نجدة خماش ، الشام فى صدر الاسلام ، ص١٠٨ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٢٠-٤٢١ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص١٠٧ ؛ محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٠٦/٤ .

(٣) عن دورهم العلمى وبعض مصنفاتهم ، انظر قبل : ص٤٠٢ ومابعدها .

(٤) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٩٢ ؛ سهيل قاشا ، نفس المرجع ، ص٧٦ .

(٥) انظر : فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٦٥٤/٣ .

فى بوتقة الحضارة العربية الاسلامية[١].

ولما انتقل التراث العلمى القديم الى أيدى العرب ، أعملوا فيه الفكر وراحوا يرقون فى سلم المعرفة ، وكتبوا صفحات رائعة خلدت ذكرهم ، والى جانب ماترجم لهم وكتبوه ، ظل النصارى يكتبون مايمثل علمهم وفكرهم داخل الدولة الاسلامية[٢].

ورغم أن النصارى كانوا أقرب الى الحضارة الاغريقية ، والعلوم القديمة ، الا أنهم لم يثابروا على المحافظة على تفوقهم العلمى ، بل استأثر به المسلمون ، فلم يقدر النصارى بعد على أن ينجبوا عالما واحدا يصح مقارنته بالفارابى أو ابن سينا أو البيرونى أو ابن رشد[٣]. وأخيرا ، فرغم ماترجم من العلوم زمن بنى أمية لم يصل الينا مما ترجم فى عصرهم ولاكتاب[٤].

ويمكننا أن نعد حركة التعريب جزءا من حركة الترجمة ، بل وداعية اليها ، فهى فى ذاتها تعريب وترجمة للأنظمة الادارية والمالية القديمة ، ولغة الدواوين فى الأقاليم المختلفة الى اللغة العربية ، كما أنها وسيلة دفعت كثيرا من نصارى الشام الى تعلم العربية ، فأصبحت لغة الثقافة والعلم ، فكتب بها بعض النصارى مؤلفاتهم ، أو ترجموا اليها العلوم القديمة ، كما ساعد ذلك على انتشار الاسلام بينهم[٥].

وقد قدمنا[٦]أن جدلا دينيا قام بين النصارى والمسلمين ، بدأ شفويا ثم تطور الى جدليات كتابية ، فأثر عن مؤلفات نصرانية واسلامية ، وان

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٩٢-٣٩٣ ؛ سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ النصارى فى العراق ، ص٧٧ .

(٢) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ النصارى ، ص٩١ .

(٣) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٩٨ .

(٤) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، ص١٣ .

(٥) عن أثر حركة التعريب على نصارى الشام ، انظر قبل : ص٢٨٨ ومابعدها . وانظر أيضا : رشيد الجميلى ، حركة الترجمة ، ٥٣/١ .

(٦) انظر حديثنا عن الجدل الدينى ، قبل : ص٣٩٣ ومابعدها .

مما يؤسف له أنه لم يصلنا من مصنفات المسلمين فى تلك الفترة شىء . كما استدعى ذلك الجدل عودة المتكلمين المسلمين الى كتب الفلسفة والمنطق ، ليستعينوا بها على الرد على النصارى المتمكنين فى ذلك ، وهو ماأدى الى نشاط حركة الترجمة الى العربية ، وخصوصا فى هذا المجال . كما نتج عن ذلك ، تأثر البعض بما فى كتب الفلسفة والمنطق القديمة ، وماحوته الجدليات النصرانية آنذاك ، وعلى الأخص تأليفات يوحنا الدمشقى ، عقديا ، وفكريا ومنهجيا .

ـ أثرهم فى الفكر الاسلامى :

وكان جو الأمن والحرية والتسامح الذى عاشه النصارى فى ظل الحكم الاسلامى قد هيأ امكانية الجدل ودخول التأويل ، واستطاع النصارى بمكرهم أن يكون أثرهم فى عقيدة المسلمين وفكرهم أكبر من غيرهم من أهل الأديان والمذاهب الدينية والفكرية ، حتى قال الجاحظ : "ان هذه الأمة لم تبتل باليهود ولابالمجوس ، كما ابتليت بالنصارى ، لأنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ويتخذونها هدفا لهجماتهم ، والضعيف الاسناد من رواياتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ماقد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا الى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوى ، ويلبسون على الضعيف"(١).

وفى ميدان الفلسفة لم يكن للنصارى فلسفة أصلا ، وانما جاءت اليهم عن طريق اليونان ، وبعد الفتح نقلت الى العربية ، فتأثر بها العرب المسلمون ، وكان تأثيرهم واضحا فى الفرق الاسلامية . وقد أثار المسيحيون الجدل فى الشرق الاسلامى ، فى صفات الله ، وفى طبيعة المسيح ، وكلمة الله ، وفى الجبر والقدر والوحى والعقل ، كما أثار المسلمون الجدل فى

---

(١) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص١٣٤-١٣٥ [نقلا عن : غوستاف لوبون ، الحضارة ، ص٢٣٥] .

موضوع خلق القرآن ، وقد أدى ذلك الى الاستعانة بعلم المنطق والفلسفة اليونانية لدعم هذه الأفكار(١).

وقد كان لتعاليم الثقافة الاغريقية أثرها فى اتجاه الفكر عند المسلمين(٢).

ومن المدارس الفكرية التى كان للمفكرين السريان شأن كبير فيها هى المدرسة الرواقية(٣)"أصحاب المظلة" . وقد وصلت الرواقية الى العرب والمسلمين عن طريق شراح فكر أرسطو ، ومن خلال كتب جالينوس وغيره ممن ترجمت كتبهم الى العربية ، ولكن يرجع عدد من الدارسين أن الديصانية(٤)كانت السبيل الى وصولها الى العرب ، والتشابه بين أقوال الرواقيين وأقوال بعض المتكلمين والمعتزلة ظاهرة ، وهى أقوى ماتكون فى مسائل العناية والجبر والاختيار وفى مسألة تحسين العقل وتقبيحه ، وقد بلغ الاعتماد على العقل وأحكامه الذروة عند بعض المتكلمين بالتصريح بوجوب تقديمه على ظاهر الشرع عند التعارض ، وكان للرواقية أثر خطير فى العالم الاسلامى كله وليس فى بلاد الشام وحدها ، والمدرسة الأخرى هى الافلاطونية الحديثة فالتفلسف العربى الاسلامى فى الواقع انما هو تعاليم الافلاطونية المحدثة(٥)التى وصلت عن طريق المدارس السريانية وماترجم من

---

(١) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤١٨-٤١٩ .

(٢) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٣٩٩ .

(٣) الرواقيون : قوم ينسبون الى رواق كان يدرس فيه (Zeus) اليونانى الفلسفة للعامة فى جزيرة قبرص سنة ٣٠٠ق.م . وقد ظهرت الفلسفة العملية فلسفة الرواقيين ، خلال عصر الفلسفة اليونانية الذى استمر من سنة ٦٠٠ق.م الى سنة ٥٠٠م .

انظر : محمد فريد ، تاريخ الفلسفة فى المنطق ومابعد الطبيعة ، نقله الى العربية حسن حسين ، الطبعة الأولى ، المطبعة المصرية ، ص٩٥ ؛ محمد غلاب ، الفلسفة الاغريقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٣٨م ، ص١٣٩ .

(٤) الديصانية : أصحاب ديصان . وقد أثبتوا أصلين "نورا وظلاما" ، فالنور يفعل الخير قصدا واختيارا ، والظلام يفعل الشر طبعا واضطرارا ، حسب زعمهم . الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٢٥١-٢٥٢ .

(٥) الأفلاطونية الحديثة : هى تفسيرات وتعليقات وعرض المفكر والفيلسوف (أفلوطين) ، كمآثر وآراء أفلاطون ، وهو من فلاسفة العهد الهلنسى ، ظهر سنة ٢٠٤م ، تبنى مآثر أفلاطون وشرحها للناس ، فأضحت فلسفة خاصة عرفت بالأفلاطونية الحديثة .

طه باقر ، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، ٥٩٣/٢ .

كتب الأفلاطونية وشروحها(١).

وقد تسللت فلسفة افلاطون فيما بعد الى المسلمين عن طريق اليهود والنصارى(٢). وقد ظهر نتيجة تأثر المجتمع الاسلامى بالفلسفة اليونانية نزعة الزهد والتصوف(٣).

ولم يقتصر التأثير المسيحى على العقيدة والفكر بل وحتى المنهج العلمى ، فان علماء الكلام اتخذوا من منهج يوحنا الدمشقى فى تأليف كتاب "ينبوع المعرفة" نبراسا اتبعوه فيما بعد فى تصنيفاتهم ، بل نسجوا على منواله فى تنسيق الكلام عن العقيدة(٤). غير أن جورج عطية يذكر أن هذا المنهج استنه فورفوريوس شارح الافلاطونية الحديثة ، وتابعه فيها السريان من نساطرة ويعاقبة ، ومن ثم حاكاهم فى ذلك فريق كبير من المؤلفين المسلمين ، وكان قد ترجمت كثير من كتب فورفوريوس الى العربية(٥).

وقد رأى البعض أن الحركات الفكرية الاسلامية الأولى الخارجة على أهل السنة والجماعة ، نشأت نتيجة المناقشات الدينية والأثر الفكرى لأهل الكتاب ، وموروثات العلوم والثقافات القديمة ، وبخاصة عن طريق يوحنا الدمشقى وتلميذه ثيودور أبو قرة ، فقد تسربت بعض الأفكار والآراء المسيحية عما ترجم ونقل من الكتب المسيحية ، وعن مواعظ الرهبان فى الأديرة ، الى بعض الفرق الاسلامية ، بينما يرى البعض أن ذلك نتج عن التطور السياسى والاجتماعى للجماعة الاسلامية نفسها دون تأثير خارجى ، وكلا الرأيين فيهما كثير من الصحة(٦).

---

(١) انظر تفاصيل ذلك عند : جورج عطية ، الأثر السريانى ، ص١٤٤-١٥٥ .

(٢) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص١٠٧،١١١ .

(٣) توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤١٩ .

(٤) خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٢٥ .

(٥) جورج عطية ، الأثر السريانى ، ص١٤٤-١٥٥ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣/٣٤٤-٣٤٥ .

(٦) جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٣١٥-٣١٦ ؛ صالح الحمارنة ، المسيحية فى الشام ، ص٥٥٧ ؛ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٣٧-٣٣٨ .

وكان مسلك القوى الفكرية المعادية للاسلام جاء عن طريق الخلافات السياسية ، والمتشابه من القرآن الكريم(١).

يقول الشهرستانى : أن الشبهات التى وقعت فى آخر الزمان هى بعينها تلك الشبهات التى وقعت فى أول الزمان ، وأن شبهات أمة كل نبى فى آخر زمانه ، ناشئة من شبهات خصماء أول زمانه من الكفار والملحدين وأكثرها من المنافقين ، وأن الشبهات كلها ناشئة من شبهات ابليس اللعين ، واليه أشار القرآن فى قوله تعالى : {**ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين**}(٢)، وشبه النبى صلى الله عليه وسلم كل فرقة ضالة فى هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة ، فقال : "القدرية مجوس هذه الأمة"(٣)، وقال عليه السلام جملة : "لتسلكن سبل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة ، والنعل بالنعل ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"(٤)(٥).

وسنشير الى بعض آثار الفكر المسيحى فى العقيدة والفكر والمذاهب الاسلامية ، سواء كان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر . فقد ذكر : "أن العرب قد استعملوا كلمة تفويض لترجمة فكرة يوحنا عن أصل الارادة ، وقد سميت هذه الطائفة بالمفوضة"(٦).

---

(١) جميل المصرى ، نفس المرجع ، ص٣١٣-٣١٤ .
(٢) البقرة ، آية : ١٦٨
(٣) أبو داود ، سنن أبى داود مع عون المعبود ، ٤٥٢/١٢ ؛ ابن حنبل ، مسند الامام أحمد بن حنبل ، ٨٦/٢ ، ٤٠٧/٥ .
(٤) انظر : البخارى ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٥٧١/٦ ، ٣١٢/١٣ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ٢٠٥٤/٤ (رواه البخارى ومسلم بلفظ آخر) .
(٥) انظر : الملل والنحل ، ص١٤-١٩ .
(٦) خليل الزرو ، الحياة العلمية ، ص١٢٧ .
والمفوضة : من الرافضة ، زعموا أن الله تعالى خلق محمد صلى الله عليه وسلم ثم فوض اليه تدبير العالم ، فهو الذى خلق العالم دون الله تعالى ، ثم فوض محمد صلى الله عليه وسلم تدبير العالم الى على بن أبى طالب ، فهو المدبر الثالث ، وهذه الفرقة شر من المجوس الذين زعموا أن الاله خلق الشيطان ثم ان الشيطان خلق الشرور ، وشر من النصارى الذين سموا عيسى عليه السلام مدبرا ثانيا ، فمن عد مفوضة الرافضة من فرق الاسلام ، فهو بمنزلة من عد المجوس والنصارى من فرق الاسلام . البغدادى ، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، ص٢٣٨

وكـان أثر النصارى اليعاقبة بالشام كبيرا على فـرقة الجبرية [(١)] من المسلمين ، اذ كانت النزعة الغالبة على النصرانية الشرقية القول بحرية الارادة الانسانية (الجبرية) ، وكان لهم مدارسهم فى شمال سورية ، ومنها دير قنسرين التى واصل فيها العلماء دراساتهم دون ازعاج من المسلمين ، وهذا يساعد على تفسير بداية ظهور الجبرية فى دمشق وشيوعها فى الشام زمن بنى أمية [(٢)].

وكان ليوحنا الدمشقى أثره فى فرقتى المرجئة [(٣)] والقدرية [(٤)]، اذ لم يكن عرضا أن ظهرت عند المرجئة والقدرية فى الشام آراء يوحنا الدمشقى فى أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة لجميع الناس ، وفى حرية ارادة

---

(١) الجبرية ، الجبر : هو نفى الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الرب تعالى ، وهم أصناف . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٨٥ .

(٢) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص٨٦،١٤١-١٤٢ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٣٠٢ .

(٣) المرجئة: الارجاء على معنيين ، أحدهما : التأخير ، والثانى : الرجاء ، واطلاق اسم المرجئة على جماعة المرجئة ، بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد ، وأما بالمعنى الثانى ، فظاهر ، فانهم كانوا يقولون ، لاتضر مع الايمان معصية ، كما لاتنفع مع الكفر طاعة . وقيل الارجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة الى يوم القيامة ، فلايقضى عليه بحكم مافى الدنيا من كونه من أهل الجنة ، أو من أهل النار . وقيل الارجاء : تأخير على رضى الله عن الدرجة الأولى الى الرابعة ، وهم أصناف . انظر : البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص١٩ ؛ الشهرستانى ، نفس المصدر ، ص١٣٩ .

(٤) القدرية : من المعتزلة وهم عشرون فرقة ، يجمعها كلها فى بدعتها أمور منها نفيها كلها عن الله صفاته الأزلية ، وقولها بأنه ليس لله عز وجل . علم ولاقدرة ولاارادة ... ، وقولهم جميعا بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ولالشىء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لله عز وجل فى اكسابهم ولافى أعمال سائر الحيوانات صنع ولاتقدير . ولأجل هذا سماهم المسلمون القدرية . انظر : البغدادى ، نفس المصدر ، ص٩٣-٩٤ ؛ الشهرستانى ، نفس المصدر ، ص٤٣-٤٦ .

الانسان [١]. ومن مقارنة عقدها موريس سيل بين أقوال يوحنا الدمشقى والقدرية ، وجد تشابها بينهما فى أشياء كثيرة [٢]. كما ذكر ابن قتيبة أن غيلان الدمشقى [٣] كان قبطيا قدريا ، لم يتكلم أحد قبله فى القدر ودعا اليه الا معبد الجهنى [٤]، ومن ذلك يتضح أن الفكر النصرانى سرب فكرة القدر الى المسلمين ، وتمكن غيلان من نشرها فى دمشق بجرأة [٥]. ومن النصارى الذين أثروا فى العقيدة فى الشام نصرانى اسمه سوسن ، أسلم ثم عاد وتنصر وهو أول من نطق بالقدر ، فقد أورد الأوزاعى : "أول من نطق فى القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن ، كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، فأخذ عنه معبد الجهنى ، وأخذ غيلان عن معبد" [٦]، وكان للنسطورية أثرها فى فرقة المعتزلة [٧]، اذ تناولت مشكلة الجبر والاختيار ، واعتنقوا مبدأ الاختيار

---

(١) خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٢٤ ؛ وانظر : فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٢/٣ .

(٢) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٢٦-١٢٧ .

(٣) غيلان بن مسلم الدمشقى ، تنسب له الغيلانية من القدرية ، وهو ثانى من تكلم فى القدر ودعا اليه ، كان من الكتاب البلغاء ، أفتى الأوزاعى بقتله فقتله الخليفة هشام بن عبد الملك .
انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١٢٤/٥ .

(٤) معبد الجهنى البصرى ، كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة وهو رأس القدرية ، قدم المدينة وأفسد بها أناسا ، وذكر الأوزاعى أن أول من تكلم فى القدر رجلا نصرانيا من أهل العراق يقال له سوسن ، أسلم ثم تنصر ، فأخذ عنه معبد ، وأخذ غيلان عن معبد ، قيل : كان يقول بقول النصارى ، قتله الحجاج وقيل عبد الملك ، بعد الثمانين وقبل التسعين . انظر : ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٢٠٣/١٠-٢٠٤ .

(٥) انظر : جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص١٤٤-١٤٥ .

(٦) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٢٧-١٢٩ .

(٧) المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية والعدلية ، ويعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد : القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته ونفوا الصفات القديمة ، وقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته ، =

فتأثرت بهم فرقة المعتزلة القائلة بحرية الارادة الانسانية (١). كما كان النساطرة ينفون التشبيه كالمعتزلة ، ويقولون بالقدر كالقدرية (٢). وتأثر المعتزلة أيضا بأفكار يوحنا الدمشقى ، وكان أثر الفلسفة الهيلينية واضح فى أفكار المعتزلة (٣). ومن الأفكار المسيحية التى تسربت الى فرقة المعتزلة ، القدر والاجبار وصفات الله ، على الرغم من أن القرآن تعرض لمسألة القدر والاجبار (٤). غير أن مونتقمرى وات يشكك فى الدور الذى يعتقده البعض فى تأثير يوحنا الدمشقى على الأفكار الاسلامية التى انتشرت زمن غيلان الدمشقى والجعد بن درهم (٥)، وذلك لأن كتابات يوحنا قد حدثت فى رأيه

= واتفقوا أن كلامه محدث مخلوق ، ونفوا رؤية الله فى دار القرار بالأبصار ونفوا التشبيه عنه ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة ، وسموا هذا النمط توحيدا . وغير ذلك من اعتقاداتهم ، وسموا بالمعتزلة لاعتزال واصل بن عطاء الغزال رأسهم وداعيهم الى بدعتهم بعد معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، مجلس الحسن البصرى ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه المعتزلة ، وقال البغدادى سموا بذلك ، لاتفاقهم على دعواهم فى الفاسق من أمة الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين وهى أنه فاسق لامؤمن ولاكافر ، ولأجل هذا سماهم المسلمون المعتزلة ، لاعتزالهم قول الأمة بأسرها ، وكان قول علماء التابعين وأكثر الأمة آنذاك ، أن صاحب الكبيرة من أمة الاسلام مؤمن ، ولكنه فاسق بكبيرته ، وفسقه لاينفى عنه اسم الايمان والاسلام ، وقد افترقت المعتزلة فيما بينها عشرين فرقة كل فرقة تكفر سائرها . انظر : البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص٩٣ ومابعدها ؛ الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص٤٣ ومابعدها .

(١) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص٨٣ .

(٢) خليل الزرو ، نفس المرجع ، ص١٢٣ .

(٣) دى لاسى أوليرى ، الفكر العربى ، ص٧٣-٧٤ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٣/٣ .

(٤) توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٣٣٧-٣٣٨ .

(٥) الجعد بن درهم من الموالى ، مبتدع ، وله أخبار فى الزندقة ، كان يسكن دمشق ، وسكن الجزيرة الفراتية ، أدب مروان بن محمد فسمى مروان بالجعدى نسبة اليه ، ثم أدب ولده ، أخذ يفسر آراءه فى نفى الصفات أيام هشام بن عبد الملك ، وكان يقول بخلق القرآن ، شهد عليه ميمون بن مهران بالزندقة ، فطلبه هشام بن عبد الملك ، وأرسله الى خالد القسرى عامله على العراق ، فقتله يوم النحر . انظر : الزركلى ، الأعلام ، ١٢٠/٢ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٣١٦-٣١٧ .

"بعد عشرين أو ثلاثين سنة بعد بدء الجدل بالأفكار الجديدة لغيلان والجعد"(١).

أما فكرة الحلول والتناسخ ففكر النصارى واضح فيها بنسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه ، حين يقولون : "ان اللاهوت اتحد بالناسوت فى الامام وان النبوة والرسالة لاتنقطع أبدا ، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى" ، وكان المونوفيزيتية (مذهب الطبيعة الواحدة) فى الشام وغيرها من الفرق النصرانية التى تقول بفكرة الحلول والتناسخ(٢).

ويقول جميل المصرى : يرى معظم المستشرقين أن مسألة القضاء والقدر والصفات الالهية ظهرت فى الاسلام بتأثير تعاليم الكنيسة النصرانية ونفوذ أساتذتها المتكلمين أمثال يوحنا الدمشقى وتلميذه ثيودور أبو قرة ، والى هذا الرأى يذهب بعض كتاب المقالات الاسلاميين مثل ابن حزم والشهرستانى والبغدادى ، ويرى آخرون أن الخلافات العقدية والجدل الدينى نشأ بسبب تعاليم الاسلام ذاته ، ونتيجة للتطور السياسى والاجتماعى للجماعة الاسلامية نفسها ، ويرى هو أن الأمرين فيهما الكثير من الصحة ، فمشكلة خلق القرآن كانت بتأثير من يوحنا الدمشقى وتلميذه ، حيث استغل مركزه فى البلاط الأموى(٣).

ويلاحظ جميل المصرى أيضا ضعف أثر فرقتى الملكانية والمارونية المسيحيتين فى الشام على المسلمين عقديا وفكريا ، فلصراحة التثليث فى فرقة الملكانية كان أثرها المباشر بين المسلمين قليلا ، وكان أثرهم غير مباشر وذلك عن طريق الفلسفة ، غير أنها ناهضت المسلمين سياسيا وعسكريا(٤).

---

(١) خليل الزرو ، الحياة العلمية فى الشام ، ص١٢٦ .

(٢) جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ، ص١٧٣ .

(٣) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص١٢٥-١٢٦ ؛ نفس المرجع ، ص٣١٥-٣١٦ ؛ فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣٤٣/٣ .

(٤) جميل المصرى ، نفس المرجع ، ص٨٧ ؛ نفس المرجع ، ص٣٠٣ .

فقد كان الروم الحكام فى الشام ملكانيين ، وهم الذين تزعموا التصدى لحركة الفتح الاسلامى . بينما كانت فرقة المارونية قلة ، وليس لهم قوة ، فاعتصموا بجبال لبنان فى حمى المسلمين ، ولم يكن لهم تأثير مباشر على تفكير المسلمين ، حتى ظن ابن الاثير أنهم انقرضوا فى زمنه ، لكن الحقيقة انهم كمنوا لفترات فى مناطق عزلة بجبال بلاد الشام يظهروا بين الفينة والأخرى فى حال ضعف المسلمين ، واستغلتهم قوى الصليبية فى العصور الحديثة ، ضد الدولة العثمانية ، ثم فى اثارة القومية ، وفتن لبنان المعاصرة(١). وأضيف أن الجراجمة كانوا مارونيين ، وكان لهم شوكة فى العصر الأموى ، وكانوا كثيرى التمرد على سلطان المسلمين ، ميالين للروم ، حتى قضى على حركاتهم الوليد بن عبد الملك نهائيا(٢).

ــ دورهم فى الكتابة والأدب :

وقد برز عدد من نصارى الشام فى الكتابة والأدب ، فاشتهر منهم فى الكتابة سرجون بن منصور وابنه يوحنا الدمشقى(٣). وكان ثيودور أبو قرة أول نصرانى دون بالعربية(٤).

ومن الكتاب أيضا ، قنان بن متى ، وابنه قيس ، وحفيده الحصين(٥).

يقول محمد كرد على : ظهر كثير من الشعراء والبلغاء فى هذه الديار (الشام) ولاسيما من السريان واللاتين والروم ، واشتهروا فى العالم وخلدوا آثار نبوغهم فى الخطابة والشعر والمجادلة . وقد كثر سواد أهل هذه الفئة فى عهد الدولة العربية الاسلامية أيضا(٦).

---

(١) جميل المصرى ، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية ، ص٨٧-٨٨ .
(٢) انظر قبل : ص٢٨٠-٢٨٢ .
(٣) انظر قبل : ص
(٤) محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٩/٤ .
(٥) محمد كرد على ، نفس المرجع ، ٢٤/٤ .
(٦) انظر : محمد كرد على ، نفس المرجع ، ١٢٢/٤-١٢٣ .

وقد عرف عدد من عرب الشام بالكتابة والشعر ، غير أن منهم من لايعرف له ترجمة ، ولايعلم أكان على النصرانية أم اعتنق الاسلام بعد الفتح (١).

وكان البلاط الأموى محط رجال عدد من الشعراء النصارى ، فمنهم من أكثر المقام بالشام كالأخطل التغلبى ، ومنهم من كان يغدو ويروح ، وخاصة من شعراء تغلب فى الجزيرة الفراتية .

وكان الأخطل النصرانى غياث بن الغوث التغلبى (٢)، من شعراء العصر المبرزين ، عد أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر شعراء عصرهم ، وهم جرير والفرزدق والأخطل ، وقد شبه بالنابغة الذبيانى فى الجاهلية ، وقدمه سليمان بن عبد الملك على الفرزدق وجرير ، وكان شاعر بنى أمية ، يمدحهم ويذود عنهم ويهجو خصومهم من الزبيريين وأهل المدينة ، ولم يتورع عن هجاء الأنصار بأمر يزيد بن معاوية قبل خلافته (٣). قربه يزيد بن معاوية وعبد الملك ، وكان عبد الملك يعده شاعر الأمويين (٤). وكان الوليد بن عبد الملك يميل الى جرير (٥). وكان الشعراء يقدرون حكمه فى الشعر ونال شعره استحسان الكثير من الناس ، وكان من سادة المسلمين من يزوره للاستماع لقريضه ويدعوه للضيافة (٦). بينما كان يخضع لتأديب رجال دين النصرانية ، لنصرانيته (٧).

ويبدو أن حظوته عند بعض الخلفاء الأمويين جرأته على المسلمين ، فهجا الأنصار وأثار بشعره نعرات الجاهلية وروح العصبية القبلية عملا أراد به أهل الكتاب توهين المسلمين ، ولم يتورع عن النيل من الاسلام ، وهذا

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ١٧/٤، ١٩، ٢٤ .
(٢) انظر عن شعره وأخباره : الجمحى ، طبقات فحول الشعراء ، شرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى بمصر ، المؤسسة السعودية ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ٤٥١/٢-٥٢١ .
(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص١١٤-١١٥ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ١٢٣/٥ .
(٤) ابن قتيبة ، نفس المصدر ، ص١١٥ ؛ الجاحظ ، التاج ، ص١٣٢-١٣٤ .
(٥) الجمحى ، نفس المصدر ، ٤٧٦/٢-٤٧٧ .
(٦) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ص١٧٧ .
(٧) الجمحى ، نفس المصدر ، ٤٩٠/٢-٤٩١ .

مادفع الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، أن يمنعه من الدخول عليه ، لما بلغه من شعره ذاك ، كما لم يعط الأعشى التغلبى شيئا لما مدحه ، لأن ليس للشعراء فى بيت المال حقا ، ولأنه نصرانى(١).

ومنهم القطامى عمير بن شييم (ت نحو ١٣٠هـ/٧٤٧-٧٤٨م) ، كان من نصارى تغلب ثم أسلم ، وهو ابن أخت الأخطل ، وذكر ديوانه حاجى خليفة فى كشف الظنون(٢). وكعب بن جعيل التغلبى (ت نحو ٥٥هـ/٦٧٥م) شاعر تغلب فى عصره ، شاعر مخضرم كان فى زمن معاوية رضى الله عنه ، وشهد معه صفين وكان شاعر معاوية وأهل الشام ، يمدحهم ويرد عنهم ، طلب منه يزيد بن معاوية أن يهجو الأنصار فامتنع ، وقال : "أرادنى أنت الى الكفر بعد الاسلام" ، ودله على الأخطل ، وقد كان نصرانيا فأسلم ، وقد ضاع ديوانه(٣). وأعشى تغلب ربيعة بن يحيى بن معاوية (ت٩٢هـ/٧١٠-٧١١م) ؛ كان على النصرانية ، ومات عليها ، اشتهر فى العصر الأموى ، وقد قصد الشام ، واتصل بالوليد بن عبد الملك ومدحه وانقطع إليه(٤). ومنهم شمعله التغلبى كان رئيس قومه ، عاصر عبد الملك وولديه الوليد وهشام ، وتمسك بالنصرانية(٥). وكان نابغة بنى شيبان النصرانى عبد الله بن المخارق (ت١٢٥هـ/٧٤٢-٧٤٣م) صديقا لعبد الملك وانقطع اليه ومدحه ، واستغل ثقته به للايقاع بين البيت الأموى ، فحرضه على خلع أخيه عبد العزيز

---

(١) انظر : الجمحى ، طبقات فحول الشعراء ، ٤٥٢/٢، ٤٦١-٤٦٦، ٤٧٧-٤٨٤ ؛ ابن الجوزى ، عمر بن عبد العزيز ، ص١٩٨-٢٠١ ؛ الاتليدى ، اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ، طبع بالمطبعة اليوسفية ، مكتبة الجمهورية العربية ، مصر ص٤٦-٤٨ ؛ جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٤٢٨، ٤٥٩، ٤٦٠-٤٦١ .

(٢) انظر : الجمحى ، نفس المصدر ، ٥٣٤/٢، ٥٣٥-٥٤٠ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ٨٨/٥ توفيق اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق ، ص٤٠٢ .

(٣) انظر : الجمحى ، نفس المصدر ، ٥٧٢/٢-٥٧٦ ؛ ابن قتيبة ، طبقات الشعر والشعراء ، ص١٥١ ؛ الزركلى ، نفس المصدر ، ٢٢٥/٥-٢٢٦ ؛ توفيق اليوزبكى ، نفس المرجع ، ص٤٠٢ .

(٤) الزركلى ، نفس المصدر ، ١٧/٣ ؛ جميل المصرى ، نفس المرجع ، ص٤٢٨ .

(٥) انظر : سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، ص٨٢-٨٤ .

بقوله :

لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح

ولما بلغ عبد العزيز قوله قال : "أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا صعبا وأوردها موردا خطرا ، ولله على ان ظفرت به لأخضبن قدمه بدمه" ، كما مدح الوليد بن عبد الملك ، وله فيه مدائح كثيرة ، وله ديوان شعر مطبوع (١).

يقول جميل المصرى (٢): وأدرك أهل الكتاب ماللشعر من أثر فى نفوس العرب ، فتحرك الكتابيون العرب ، وأثاروا النعرات القبلية والعصبيات منذ وقعة الجمل وصفين ، وفى زمن معاوية رضى الله عنه اتخذوا الشعر سلما لأغراضهم المكبوتة فى نفوسهم فأثروا على العرب المسلمين ، وبخاصة الشاعر الأخطل التغلبى ، الذى أصبح ذا مركز سياسى الى جانب مركزه الأدبى زمن عبد الملك بن مروان وكان لسان النصارى وسفيرهم . وقد ضيق عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الشعراء ، وعمل عمر بن عبد العزيز رحمه الله على الحد من شأنهم وأثرهم (٣).

---

(١) جميل المصرى ، أثر أهل الكتاب ، ص٤٢٨،٤٥٨-٤٥٩ ؛ الزركلى ، الأعلام ، ١٣٦/٤ .

(٢) انظر : نفس المرجع ، ص٤٥٧-٤٦٠ .

(٣) انظر أيضا ماكتبناه عن دورهم فى الفتن الداخلية قبل : ص٥٣٥ ومابعدها .


الخاتمة

الخاتمة

بعد دراسة موضوع نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية نخرج بمجموعة من النتائج القيمة يأتى فى مقدمتها أن الحكم الاسلامى نسيج وحده ليس كمثله حكم قبله ولاحكم بعده ، قانونه شريعة الاسلام بمبادئها الخالدة وتعاليمها السمحة ، شريعة لجميع البشر شاملة لجميع شؤونهم وأحوالهم ، تامة خالدة خاتمة صالحة لكل زمان ومكان ورجاله أولهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، مؤسس الدولة الاسلامية ، وبانى قواعد حكمها ، وواضع الأسس الأولى لعلاقة المسلمين بنصارى الشام ومن بعده أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين ، حيث تم فتح بلاد الشام فى عهد الشيخين أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما . فبأيدى الصحابة فتحت ، وبهم حكمت ، فحكموا بالكتاب والسنة ، واجتهدوا فى حكم ماستجد فيما ليس فيه نص ، وفعلهم سنة ، وهم القوم الذين رضى عنهم ربهم ، وأثنى عليهم نبيهم ، وشهد لهم أعداؤهم ، ولاغرو فهم خير أمة أخرجت للناس ، وخير القرون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء بعدهم التابعون وتابعيهم باحسان ، حكموا نصارى الشام بالعدل ، وعاملوهم بأحكام الاسلام فى بر واحسان ، كالمسلمين فى دار الاسلام أمام شرع الله ، فان الدولة الاسلامية وان قامت على الاسلام فقد اتسعت للمسلمين وغيرهم ، كما كانت أحكام الملة لجميع البشر .

فعاش نصارى الشام فى ظل الحكم الاسلامى آمنين ، ينعمون بالسلام والاستقرار والحرية والرخاء ، حفظ المسلمون ذمتهم ، وأوفوا لهم بعهودهم وأدوا اليهم حقوقهم ، وزادوهم رحمة وتسامحا وبرا واحسانا ، مالتزموا العدل وأدوا الواجبات .

وبالنظر الى حياة نصارى الشام فى ظل الحكم البيزنطى قبيل الفتح الاسلامى ، وكذلك الحكم الفارسى الذى سيطر على بلاد الشام آنذاك حقبة

قصيرة من عمر الزمن ، تبين البون الشاسع بين الحكم الاسلامى وبينهما ، فقد اتسما بالجور السياسى والاضطهاد الدينى والاستنزاف الاقتصادى ، وافتقد نصارى الشام فى ظلهما العدالة والرحمة ، وعوملوا بالسوء والتفرقة ، والاشتطاط فى فرض وتقدير الضرائب المالية الباهظة والتعسف فى جبايتها ، كما عانوا ويلات الحروب ووحشية المحاربين ، فكان حكم المسلمين رحمة وخلاصا لنصارى الشام ، ووجدوا فى ظله مالم يجدوه فى ظل حكم الروم البيزنطيين أصحاب لسانهم وحضارتهم ، وأهل ملتهم النصرانية ، وماذلك بغريب على النصارى ، فان النصرانية التى تدعو للمحبة والسلام وعانت الاضطهاد عند نشأتها ، لم تلبث بعد أن انتشرت وصار لها دولة فملكت ، أن أنزلت بالمخالفين لها أصناف التنكيل والعذاب الوحشى ، حتى ولو كانوا نصارى ان خالفوا المسيطرين على زمام الملك منهم مذهبيا ، فما اضطهد البيزنطيون نصارى الشام الا لكونهم على مذهب الطبيعة الواحدة (اليعقوبى) مخالفين بذلك مذهب الامبراطور البيزنطى مذهب الطبيعتين (الملكانى) .

بينما لانعجب من تميز طبيعة الحكم الاسلامى بالعدل ، لأن الحكام المسلمين منفذين لشرع الله لايسيرون وفق قانون وضعى يتغير بتغير الزمان والمكان ، ويتأثر بدواعى الحاجات والمصالح ، وتسيره الأهواء ، فانما هم ملتزمين قول الله تعالى : {**يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**}(١).

وبينت الدراسة أن العلاقات بين الدولة الاسلامية ونصارى الشام بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه دعاهم الى الله ، ووجه غزواته الى تخوم بلادهم ، عندما تصدى أصحاب الأمر فيهم للدعوة ، وأنه بدأ بجهادهم قبل غيرهم خارج جزيرة العرب من باب مبدأ الموالاة فى الدعوة ولعموم رسالته عليه السلام ، وأنه أوصى بحسن معاملتهم والوفاء

---

(١) المائدة ، آية : ٨

لهم وحفظ ذمتهم ، بل سار بنفسه الى تبوك بأطراف بلادهم مجاهدا يريد غزوهم ، وقد أثمرت جهوده عليه السلام ، عن اسلام قليلهم ، وبقاء الكثير منهم على كفرهم ، وصالحه بعضهم كأهل أيلة وجرباء وأذرح ، وانضووا فى ظل الحكم الاسلامى ، فكانت العهود التى أعطاهم اياها وغيرهم من أهل الكتاب ، أساسا للعهود التى أعطاها المسلمون بعده لنصارى الشام وغيرهم من أهل الذمة ، وقاعدة من القواعد التى قامت عليها العلاقات بين المسلمين ونصارى الشام .

واستمرت دعوة نصارى الشام الى الاسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وقد تم فتح بلادهم فى عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى حركة دعوة ، استهدفت نشر الاسلام واعلاء كلمة الله وازالة العوائق من وجه الدعوة ، وحماية العقيدة ، ففتحت أكثر مدن الشام صلحا ، وكل أرضها عنوة . فأقر المسلمون الأرض بيد أهلها ولم يقتسموها غنيمة وأجروها مجرى الصلح ، وفرضوا عليها الخراج ، كما رفعوا عن أهلها السبى وأقروهم فى أرضهم وفرضوا على رؤوسهم الجزية ، أما أهل الصلح فأقروهم على ماصولحوا عليه .

واتضح أن المصادر لم تحفظ لنا من نصوص عهود الصلح الشامية سوى أربعة ، وهى عهد دمشق وبعلبك وايلياء (بيت المقدس) ولد وسائر فلسطين وبقية العهود ضاع نصها ، وحوت المصادر بعض مضامينها ، ونصوص تلك العهود نالت محتوياتها الثقة ، باتفاق مضامينها فى المصادر المختلفة تقريبا ، وتوافقها أحكام الاسلام فى أهل الذمة ، وتوافقها مع مثيلاتها التى أعطيت لأهل الذمة فى الأقاليم الأخرى ، غير أن تلك النصوص لم تحز على الثقة فى حرفية لفظها ، لاختلاف لفظ كل نص من مصدر الى آخر .

وظهر لى أن تلك العهود لم تكن تحوى بالضرورة جميع حقوق واجبات نصارى الشام ، وأن بعضها خلا حتى من ذكر شرط عقد الذمة الأول وهو الجزية ، وانما يدل ذلك على أنها كانت رمزا لعقد الذمة ، أما حقوق وواجبات من عقد لهم العهد فهى معروفة لدى المسلمين وبها

يحكمـون ويعاملون من أصبح فى ذمتهـم ، وان لم ينـص عليها العهد ، وأن المسلمين ربما أعطـوا مـن الحقـوق وكلفوا بالواجبات بعـض مـن صالحهم مالم يعـط أو يؤخذ مـن غيرهم ، مـاكان فى حدود المباح وبه تتم المصلحـة ، أو تدفـع المفسدة ولايخالف أحكـام الملة فى معاملة أهل الـذمة ، كـاشتراط هدم سور مدينتهم ، أو الحفاظ على سورها أو أرجائها .

ومن النتائج الهامة التى توصلنا اليها ثبوت صحـــة الشروط العمرية ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أخذها على عموم نصارى الشام لابلد بعينـه بعد تمام فتح بلاد الشام ، وذلك بعد استقصاء نصـوصها ، ومناقشتها ، وايراد الأدلة على صحتها ، ودفع قول من أنكرها .

ووجدت أن أسـاس قول منكـريها أنها حوت من الشـروط مـالم تنص عليه العهود الأولى ، وتلك قاعدة باطلة ، فقد ثبت لنـا أن العهود الأولى لم تكن تحوى بالضرورة كل أحكام الاسلام فى أهل الذمة أو أسس معاملتهم ، أو أن عـدم ذكرها فى تلك العهود يعفى أهلها من الالتزام بتلـك الأحكام .

وممـا توصلنـا اليه ترجيح بطلان القـول باسقاط المسلمين الجزية عـن بعـض نصارى الشام نظير عونهـم المسلمين ، كالجراجمـة ، وأن المقصود كما بدا لنـا هو اسقاط جزية الأرض وهـى الخراج وليس جزية الـرأس ، لأنهـا شرط عقد الذمة لهم ، وعلـة ايقاف قتالهم ، وشعار صغـارهم ، وفرض الله تعـالى عليهـم فى كتـابه ، وقـد درج المسلمـون على اطلاق لفـظ الجزية على خراج الأرض ، ولفظ الخراج على جزية الرأس .

وبفتـح بلاد الشام خضع عـامة نصارى الشام اداريا للحكـم الاسلامـى وأحكـام الملة ، وذلك بمقتضـى عقد الذمة والولاية العـامة للمسلمين فى دار الاسلام ، لكـن المسلمين تركـوا لنصارى الشام النظر فى أمـورهم المدنية الى رؤسـائهم ، وذلـك مـن باب التحـاكم لاالقضـاء الملزم ، فـان تراضـوا والا تحاكمـوا الى المسلمين ، وحكم الشرع نافذ لايرد لعلـو كلمة الله وحكمه فى دار الاسلام .

وخلصنا من رصد الواقع التاريخي خلال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين أن المسلمين استعانوا بنصارى الشام فى كثير من جوانب الحياة ، فاستخدموهم فى الادارة ولكن فيما ليس فيه ولاية على المسلمين ، ولايلحق بهم أذى أو ضرر من خلاله ، وليس من الوظائف الشرعية ، الا ماكان ولاية سرجون بن منصور الرومى ديوان الخراج ، وأمثلة أخرى محدودة فى العصر الأموى .

كما استعين بهم فى الجيوش كأدلاء وعيون ورسل ومترجمين وأعوان ومسالح ومقاتلين فى البر والبحر ، وعملوا فى قيادة الأسطول وخدمته وصناعته ، وكذلك فى أعمال المسلمين وخدمتهم ، واعتمد عليهم فى سك العملة قبل التعريب .

وبينت الدراسة دورهم البارز فى الحياة الاقتصادية ، فتولوا زراعة جل أرض الشام بمقتضى اقرارها بأيديهم وفرض الخراج على رقابها . وعملوا فى التجارة وهيمنوا على الصيرفة ، وتعاملوا بأنواع التجارات فى حدود المباح ، فحرم عليهم الربا ومنعوا من الاتجار بالخمر والخنزير فى أمصار المسلمين ، وفرض عليهم نصف العشر فيما اتجروا به بين الأمصار كسائر أهل الذمة ، وتعامل معهم المسلمون تجاريا . ونشطت الصناعة بالشام آنذاك ، وكان لنصارى الشام دور بارز فيها وبخاصة صناعة الاسطول ، وثبت لنا أن معاوية بن أبى سفيان شرع فى صناعته منذ أذن له عثمان رضى الله عنه بغزو قبرص سنة ٢٨هـ ، لاكما أرخ لذلك بعض المؤرخين بسنة ٤٩هـ عندما أنشأ معاوية أول دار لصناعة السفن فى عكا من أرض الشام ، بل تبين أن مشاركتهم فى صناعة الأسطول كانت فى بعض الأحيان الزامية .

واستخدم المسلمون نصارى الشام وغيرهم فى العمارة الاسلامية والفنون ، فأفادوا من خبراتهم ، واقتبسوا من طرزهم المعمارية والفنية مايلائم تعاليم الدين الاسلامى ، أما ماكان مخالفا له كوجود صور ذات الأرواح فى بعض العمائر المدنية ، أو صور بعض الخلفاء على العملة فانها لم تصح نسبتها اليهم عندنا .

وتبين أن استخدامهم اقتصر على العمائر المدنية من مدن وقصور وحمامات وغيرها ، بينما صح لدينا عدم الاستعانة بهم فى العمائر الدينية ، وأن ماورد من نصوص فى بعض المصادر عن الاستعانة بهم فى عمارة الجامع الأموى والمسجد النبوى وغيرهما ، لم تصح لدينا ، وكان لها تأويلها .

وأظهرت الدراسة دور نصارى الشام فى الحياة العلمية ، واسهامهم فى تطورها ، عن طريق تتلمذ بعض المسلمين على يديهم ، والافادة من علم بعض أهل الفكر والصنعة منهم ، فاستطب المسلمون أطباء النصارى ، وأفادوا من علومهم ، وترجموا بعض مصنفاتهم فى الطب ونشروها ، وقيام بعضهم بترجمة العلوم القديمة الى العربية ، وأخذ أهل الاهتمام من المسلمين عنها . وقد أدت الترجمة الى انتشار العربية بين نصارى الشام وبالتالى انتشار الاسلام ، وهو ماساعد على تمازج الفكر والعلوم والثقافات المختلفة فى بوتقة الحضارة الاسلامية . ولم يكن دور نصارى الشام فى هذا المجال ايجابيا صرفا فقد أوضحت الدراسة تأثر بعض المسلمين بفكر النصارى وعقيدتهم ومنهجهم العلمى ، وبرزت آثارهم الفكرية فى آراء الفرق الدينية التى نشأت فى هذه الفترة كالمفوضة والجبرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، بل يرى البعض أن الحركات الفكرية الأولى الخارجة على أهل السنة والجماعة ، نشأت نتيجة الأثر الفكرى لأهل الكتاب .

وكان لشعرائهم أثر سيء فى اثارة الفتن والايقاع بين المسلمين ، فكان الأخطل النصرانى واحدا ممن نفخ بشعره ليوقد نار الصعبية القبلية التى اصطلى بلظاها المسلمون .

وكان عمل نصارى الشام فى بعض تلك الجوانب ودورهم فيها ، بشرط من المسلمين فى عهود صلحهم ، أو بأمرهم ، ورضاهم ، ولحاجتهم اليهم . وتلك الاستعانة أثبتها الواقع التاريخى آنذاك بصرف النظر عن الحكم الشرعى فى استعمال الكفار فى أعمال المسلمين ومصالحهم .

كما اتضح لناأن حركة تعريب الدواوين والقراطيس والطرز وسك العملة الاسلامية الخالصة زمن عبد الملك بن مروان وكذلك أمر عمر بن عبد العزيز وغيره من الخلفاء بمنعهم من العمل فى الدواوين ، قلص وجود نصارى الشام فى تلك الأعمال ، وأسهم فى انتشار اللغة العربية والاسلام بينهم ، حرصا من بعضهم على مابأيديهم من الوظائف ، كما حرر الادارة الاسلامية واقتصادها من النفوذ السياسى والاقتصادى للنصارى ، ومن التأثيرات النصرانية عقدية ولغوية وفنية وتنظيمية ، وعمل على تكامل شخصية الدولة الاسلامية .

أما ماليا ، فخرجنا من هذه الدراسة بأن المسلمين فرضوا على نصارى الشام أربعة ضرائب هى : الجزية والخراج والأرزاق والضيافة ، وكذلك عشور التجارة كالمسلمين وأهل الحرب وان اختلف القدر ، ولم يفرض عليهم ضرائب اضافية أخرى . وتبين لى أن المسلمين استمروا فى الزام نصارى الشام بهاجميعا حتى مابعد العصر الأموى ، وليس كما قال بعض الباحثين أن الأرزاق والضيافة كانت ضرائب مؤقتة ألغيت بعد استقرار المسلمين . وقد راعى المسلمون فى فرض تلك الضرائب ، تكليف نصارى الشام طاقتهم وقدر ماتحتمله أراضيهم ، والرفق بهم فى جبايتها ، وعدم تعذيبهم على أدائها واسقاطها عمن عجز عنها . وقد قدرت تلك الضرائب فى الشام على غير ماقدر على أهل العراق .

واتضح أن موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الدينية والاجتماعية قام على أساس اشراف الدولة الاسلامية على تلك النواحى بحكم الولاية العامة للمسلمين عليهم ، واعطائهم ماصولحوا عليه ، من الأمان على مللهم ودور عبادتهم وشعائرهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية ، على أن يلتزموا حدود مالهم وماعليهم مما أباحه الشارع لهم .

وقد ثبت من هذه الدراسة ، أن المسلمين لم يكرهوهم على الدين ، ومنعوهم من الدعوة لدينهم ، كما منحوهم الحرية الفكرية فى مجادلة المسلمين وغيرهم للدفاع عن عقيدتهم ، وألزموهم عدم استحداث الكنائس

واظهار الشعائر الدينية والعادات الاجتماعية الممنوعة ، وثبت لدى صحة الزامهم الغيار وعدم التشبه بالمسلمين ، وأن ذلك كان بأمر عمر بن الخطاب لاكما قال بعض الباحثين أنه فرض عليهم بعد عمر ، فى زمن سميه عمر بن عبد العزيز أو بعد ذلك .

وتبين أن النصارى لم يلتزموا دوما ماشرط عليهم ، بينما غلب التسامح على موقف المسلمين منهم ، فجاء من الخلفاء من ألزمهم أحكام الملة فيهم ، ورد تجاوزهم ، وأعاد اليهم حقوقهم ، كعمر بن عبد العزيز ، ومن ذلك كفالة الدولة للذمى فى حالة العجز .

وفى اطار مجتمع دار الاسلام ، اختلط المسلمون بنصارى الشام ، فتعايشوا ، وتعاونوا فى المصالح الدنيوية ، وقامت بينهم أنواع من العلاقات والمعاملات . وأدى ذلك الى أثر اجتماعى متبادل ، كان من المسلمين على نصارى الشام حميدا ، ومن نصارى الشام على المسلمين مذموما ، كبروز مظاهر اللهو والترف والبذخ وسماع الغناء فى أوساط المسلمين .

ومن نتائج الموضوع الهامة أن موقف نصارى الشام من الدولة الاسلامية بدأ عدائيا فى جملة الا فى حدود ضيقة وخاصة عند الدعوة وخلال سير الفتوحات ، ولما بسط المسلمون سلطانهم على بلاد الشام واستظل أهلها بالحكم الاسلامى ، وعرفوا حقيقة الدين وطبيعة حكم المسلمين ، وأدركوا البون الشاسع بين حكم المسلمين وحكم البيزنطيين قبلهم تبدل موقفهم من عداء وتصدى الى ولاء وقبول .

وبينت الدراسة انتشار الاسلام بين نصارى الشام آنذاك ، حتى أصبح أكثر أهل الشام مسلمين وقليلهم كافرين . وتبين أن انتشار الاسلام بين نصارى العرب كان سريعا ، حتى تحولت كثير من قبائل متنصرة العرب الى الاسلام جملة ، بينما كان انتشاره بين العجم بطيئا . وكان ميل نصارى اليعاقبة اليه أكثر من الملكانيين .

وكادت فترة البحث بعد استقرار المسلمين تخلو من حركات لنصارى الشام ذات شأن وخطر ، عدا حركات الجراجمة ، وهى فى الحقيقة لم تقم

بدوافع ذاتية ، ولكن بتحريض من الروم وعون ومساندة ، وقد تمكن الوليد ابن عبد الملك من القضاء عليها نهائيا .

أما الفتن الداخلية فكان لنصارى الشام دور فيها ، ولكن ظهر فى الغالب بصورة المشاركة فى جيوش الدولة الاسلامية وخدمة أهدافها ، ومحاربة مناوئيها ، وبخاصة فى العصر الأموى . ومع التسليم بعدم رضى اليهود والنصارى عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم ، قال تعالى : {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم** ...}(١)، فاننا لانملك أدلة تاريخية عن استغلال دورهم ذاك فى توسيع الفجوة بين المسلمين ، والنيل منهم ، والعمل على هدم دينهم ، وتقويض دولتهم . ونحن نعتقد أن النفوس المريضة منهم تحمل مثل هذا الكيد ، لكن بدا لنا من هذا البحث أن هيمنة المسلمين ، وقوة دولتهم ، وصحة ايمانهم فى تلك الحقبة من الزمن ، كبت كيد الكائدين ، ولم يفسح المجال لحقد النصارى أن ينال من المسلمين ، وأن ماكان من نصارى الشام فى تلك الفترة لم يكن رئيسيا فيما حدث من فتن بين المسلمين ، ولكنه ثانويا .

أما موقف نصارى الشام من حركة الجهاد الاسلامى ضد البيزنطيين ، فقد اتضح لنا أنه وان لم يكن ايجابيا فانه كان فى الغالب محايدا ، اذ لم تكن العلاقة الدينية بين نصارى الشام والروم ذات بال فى تحديد موقفهم من حركة الجهاد ، الا فى حالات نادرة ، ولكل قاعدة شواذ .

وختاما ، فالكمال لله ، وأعتذر عن كل خطأ ونقص ونسيان ، متمثلا بقول الامام الشافعى رحمه الله ، قال الامام المزنى : "قرأت كتاب الرسالة على الشافعى ثمانين مرة ، فمامن مرة الا وكان يقف على خطأ ، فقال الشافعى : هيه أبى الله أن يكون كتاب صحيحا غير كتابه" . وأستغفر الله ، وأصلى وأسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) البقرة ، آية : ١٢٠

الملاحق

الملاحق

ملحق رقم (أ)
"نص عهد دمشق"

رواية ابن سراقة من طريق الأوزاعى
أبو عبيد ، الأموال ، ص٢٦٦-٢٦٧
ونقلها ابن زنجويه عن أبى عبيدة ، انظر : الأموال ، ٤٧٣/٢

"هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق ، انى أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم" .

"شهد أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ،وقضاعى بن عامر وكتب سنة ثلاث عشرة"(١).

* * *

رواية البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٨

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماأعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شىء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية" .

* * *

---

(١) اختلف المؤرخون على تاريخ فتح مدينة دمشق ، والرواة يكادون يجمعون على أن فتحها قد تم عام ١٤هـ ، انظر عن ذلك : أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام) ، ص٣٥٨-٣٦١ .

رواية قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص٢٩٢

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماأعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أمانا عن أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسور مدينتهم لايهدم ، ولايسكن شيء من بيوتهم ودورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية" .

* * *

رواية الأوزاعى

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١١٧/٢-١١٨ (طبعة دار الفكر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق انى أمنتهم على دمائهم وكنائسهم ، أن لاتسكن ولاتهدم . شهد يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وقضاعى بن عامر . وكتب فى رجب من سنة أربع عشرة" .

* * *

رواية ابن سراقة من طريق الأوزاعى

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١٨١/٢

(طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

"هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق : انى أمنتكم على دمائكم وأموالكم ومساكنكم وكنائسكم أن لاتهدم أو تسكن مالم تحدثوا حدثا ، أو تؤوا محدثا غيلة" .

* * *

رواية ابن سراقة من طريق أبى عمرو

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١٨٠/٢

(طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

"هذا كتاب من خالد بن الوليد : انى أمنتكم على دمائكم وذراريكم وأموالكم وكنائسكم أن لاتهدم أو تسكن ، شهد على ذلك أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة" .

ملحق رقم [٢]
"نص عهد بعلبك"

رواية البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٣٦

"بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب أمان لفلان بن فلان ، وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها ، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم ، وللروم أن يرعوا سرحهم مابينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولاينزلوا قرية عامرة ، فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ماعلينا ، ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التى صالحنا عليها وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ، شهد الله وكفى بالله شهيدا" .

* * *

رواية اسماعيل بن عياش

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ٤٠٠/٢٠ (المخطوط)

"... هذا أمان من أبى عبيدة بن الجراح لفلان بن فلان وفلان وأهل مدينتهم بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ولرؤسائها وسكانها الروم والنصارى ولأموالهم ولدوابهم ولبيعهم ودياراتهم وكل شىء لهم خارج المدينة من المواشى ، ولأرحائهم ، وانهم على سكنهم لايكرهون عليه ، وان عليهم السمع والنصح والطاعة ، ولاعقب بيعة بيننا وبينهم فيما قد خلا من القتال والحرب ، وان للروم أن يسرحوا ويظعنوا حيث شاءوا خمسة عشر ميلا ولايلبثوا فى قرية أو أبنية ، ولأهل المدينة وتجارها وكسابها أن يتجروا فى المدينة شهرى ربيع وجمادى الأولى ، فاذا انسلخ فانهم يسرون حيث شاؤوا أن يمكثوا بأموالهم ودوابهم ، وان مكثوا بعد الثلاثة أشهر فان عليهم مثل ماعلى أهل المدينة من الطاعة والنصح واعطاء الذى عليهم من السبيل ، فان

أحبوا أن يسيروا عند نفاذ هذه الصحيفة ساروا ، وان لنا على الروم وفارس أن لايحملوا شيئا كان للمؤتمنين من أموالهم عند النبط والعرب من حيث نفاذ هذه الصحيفة .. فان مكثوا فلنا عشور العرب والروم وأهل المدينة ، وان شاؤوا أن يذهبوا حيث شاؤوا من الأرض بأموالهم ، فان ذمة أبى عبيد والمؤمنين لهم بهم . وان للمؤتمنين ماعرفوا من أموالهم عند الروم والعرب وان لنا عندهم كل نفس حرة مسلمة فيهم ، فى رومهم وفرسهم وعربهم ونبطهم ، والله هو الشاهد على هذه الصحيفة ، ويزيد بن أبى سفيان ومعمر بن وثاب ، وكتب عبد الله بن رومان وختم أبو عبيدة بخاتمه".

ملحق رقم [٣]
"نص عهد ايلياء"

رواية اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ١٤٧/٢

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس انكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لاتسكن ولاتخرب الا أن تحدثوا حدثا عاما ، وأشهد شهودا" .

* * *

رواية خالد وعبادة

الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦٠٩/٣

ومجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢٥٣/١ (مع اختلاف يسير فى اللفظ)

"بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ؛ أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أن لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولاينتقص منها ولامن حيزها ، ولامن صليبهم ولامن شىء من أموالهم ولايكرهون على دينهم ولايضار أحد منهم ، ولايسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت ـ اللص ، السارق ـ فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ومن سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لايؤخذ منهم شىء حتى

يحصد حصادهم ، وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة ١٥هـ" .

* * *

رواية ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص١٦
نقلها عنه : زكريا القضاة ، معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧٤

"بسم الله . من عمر بن الخطاب لأهل مدينة ايلياء انهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم ألا تهدم ولاتسكن . وأشهد شهودا" .

رواية ابن حبيش ، الغزوات ، ص٤١٦

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أن لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولاينتقص منها ولامن حيزها ، ولامن صليبهم ، ولامن شىء من أموالهم ، ولايكرهوا على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، ولايسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت ، فمن خرج منهم ، فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فانه آمن وعليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم وعلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لايؤخذ منهم شىء حتى تحصد حصادهم ، وعلى مافى الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا

أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة" .

* * *

رواية ابن الجوزى ، فضائل القدس

نقلها زكريا القضاة ، معاهدة فتح بيت المقدس ، ص٢٧٥

كتب عمر بن الخطاب لأهلها : "انى قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلاتكم وبيعكم ولاتكلفوا فوق طاقتكم ، ومن أراد منكم أن يلحق لأمنه فله الأمان ، وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين .

شهد عبد الرحمن بن عوف ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ومعاوية" .

ملحق رقم [٤]
"نص عهد لد وسائر فلسطين"

رواية خالد وعبادة

الطبرى ، تاريخ الأمم ، ٦/٦٠٩-٦١٠

"بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ولاينتقص منها ولامن حيزها ولامللها ، ولامن صلبهم ولامن أموالهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره" . أى مثل شرط ايلياء .

*　　*　　*

رواية ابن حبيش ، الغزوات ، م٢/٤١٦-٤١٧

"بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لاتسكن كنائسهم ، ولاتهدم ، ولاينتقص منها ، ولامن حيزها ولامللها ، ولامن صلبهم ، ولامن أموالهم ، ولايكرهوا على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين ، أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره" . أى مثل شرط ايلياء(١).

---

(١) لم تحفظ لنا المصادر من نصوص عهود الصلح الأولى التى أعطيت لنصارى الشام ، سوى الأربعة السابقة الذكر . انظر قبل : ص١٦١-١٦٢ .

ملحق رقم [٥]
"نص الشروط العمرية على نصارى الشام"

اضافة الى النص الذى أورده الطرطوشى من رواية عبد الرحمن بن غنم وقد أثبتناه فى المتن(١)، ورد النص فى عدد من المصادر ومن طرق مختلفة على أنه شرط على نصارى الشام عامة ، أو أهل دمشق وسائر أهل الشام ، أو أهل الجزيرة وطبق على أهل الشام . وسنكتفى بذكر نماذج للنص فى صيغه المتعددة تلك ، وبطرقه المختلفة ، دون حصره فى كل المصادر فانما هو تكرار للمرويات التى سنوردها .

* * *

(أ)

رواية عبد الرحمن بن غنم من طريق شهر بن حوشب
ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١٧٤/٢-١٧٥
(طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم أن عمر بن الخطاب كتب على النصارى حين صولحوا :

"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه من نصارى أهل الشام .

انا سألناك الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا على أن نؤدى الجزية عن يد ونحن صاغرون ، وعلى أن لامنع أحدا من المسلمين أن ينزلوا كنائسنا فى الليل والنهار ، ونضيفهم فيها ثلاثا ، ونطعمهم فيها الطعام ، ونوسع لهم أبوابها ، ولانضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيا ، ولانرفع فيها

---

(١) انظر قبل : ص١٩٧-١٩٩ .

أصواتنا بالقراءة ، ولانؤوى فيها ولافى شىء من منازلنا جاسوسا كعدوكم ، ولانحدث كنيسة ولاديرا ولاصومعة ولاقلاية ، ولانجدد ماخرب منها ، ولايقصد الاجتماع فيما كان منها من خطط المسلمين وبين ظهرانيهم ، ولانظهر شركا ولاندعو اليه ولانظهر صليبا على كنائسنا ولافى شىء من طرق المسلمين وأسواقهم ، ولانتعلم القرآن ، ولانعلمه أولادنا ، ولانمنع أحدا من ذى قراباتنا الدخول فى الاسلام ان أراد ذلك ، وأن تجز مقادم رؤوسنا ، ونشد الزنانير فى أوساطنا ، ونلزم ديننا ، ولانتشبه بالمسلمين فى لباسهم ولافى هيئتهم ، ولافى سروجهم ، ولاننقش خواتيمهم فننقشها عربيا ، ولانكتنى بكناهم ، وأن نعظمهم ونوقرهم ونقوم لهم من مجالسنا ، ونرشدهم فى سبلهم وطرقاتهم ، ولانطلع فى منازلهم ، ولانتخذ سلاحا ولاسيفا ولانحمله فى حضر ولاسفر فى أرض المسلمين ، ولانبيع خمرا ولانظهرها ، ولانظهر نارا مع موتانا فى طرق المسلمين ، ولانرفع أصواتنا مع جنائزهم ، ولانجاور المسلمين بهم ، ولانضرب أحدا من المسلمين ، ولانتخذ من الرقيق بيتا جرت عليه سهامهم .

شرطنا ذلك كله على أنفسنا وأهل ملتنا فان خالفناه فلاذمة لنا ، ولاعهد ، وقد حل لكم منا مايحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة" .

* * *

(ب)

رواية مسروق بن الأجدع عن عبد الرحمن بن غنم

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ١٧٥/٢-١٧٦

(طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

عن مسروق ، عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام :

"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا .

انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لانحدث فى مدينتنا ولافيما حولها ديرا ولاكنيسة ولاقلية [١] ولاصومعة راهب ، ولانجدد ماخرب منها ، ولانحيى ماكان منها من خطط المسلمين ، ولانمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولانؤوى فى كنائسنا ولافى منازلنا جاسوسا ، ولانكتم غشا للمسلمين ، ولانعلم اولادنا القرآن ، ولانظهر شركا ولاندعو اليه أحدا ، ولانمنع من ذوى قراباتنا الدخول فى الاسلام ان أرادوه ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولانتشبه بهم فى شىء من المسلمين من لباسهم فى قلنسوة ولاعمامة ولانعلين ولافرق شعر ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانتكنا بكناهم ، ولانركب السرج ، ولانتقلد السيوف ولانتخذ شيئا من السلاح ، ولانحمله معنا ، ولاننقش على خواتيمنا بالعربية ، ولانبيع الخمور وأن نجز مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيث ماكنا ، وأن نشد زنانيرنا على اوساطنا ، وأن لانظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لانظهر كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولاأسواقهم ، ولانضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيا ، ولانرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولانخرج شعانينا ولاباعوثنا ولانرفع أصواتنا مع موتانا ، ولانظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين وأسواقهم ، ولانجاورهم بموتانا ، ولانتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ، ولانطلع عليهم فى منازلهم.

فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه : ولانضرب أحدا من المسلمين . شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل قبلتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فان نحن خالفنا عن شىء مماشرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلاذمة لنا وقد حل لكم

---

(١) صحتها : قلاية .

منا مايحل لأهل المعاندة فى الشقاق"(٢).

*　　　*　　　*

(ج)

رواية عباس بن سهل بن سعد على أنه شرط على أهل دمشق وسائر أهل الشام
ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ٢/١٢٠-١٢١
(طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)

"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم .

انك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا . انا شرطنا لك على أنفسنا أن لانحدث فى مدينة دمشق ولافيما حولها كنيسة ولاديرا ولاقلاية ولاصومعة راهب ، ولانجدد ماخرب من كنائسنا ولاشيئا منها ماكان فى خطط المسلمين ولانمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، ولانؤوى فيها ولافى منازلنا جاسوسا ، ولانكتم على من غش المسلمين ، وعلى أن لانضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيا فى جوف كنائسنا ، ولانظهر الصليب عليها ، ولانرفع أصواتنا فى صلواتنا وقراءتنا فى كنائسنا ولانخرج صليبنا ولاكتابنا فى طرق المسلمين ولانخرج باعوثا ولاشعانين ولانرفع أصواتنا مع موتانا ، ولانظهر النيران معهم فى أسواق المسلمين ، ولانجاورهم بالخنازير ، ولانبيع الخمور ، ولانظهر شركا فى نادى المسلمين ، ولانرغب مسلما فى ديننا ، ولاندعوا اليه أحدا ، وعلى أن لانتخذ شيئا من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين

---

(١) وأورد ابن عساكر نفس الرواية من طريقين آخرين والخلاف بينهما يسير . انظر : نفس المصدر ، ٢/١٧٧-١٧٨ ، ١٧٨-١٧٩ .

كما وردت رواية مسروق هذه فى عدد من المصادر منها : ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ١٠٣/١ (طبعة مطابع المجد التجارية) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٢/٦٦١-٦٦٢،٦٦٢-٦٦٣ .

ولانمنع أحدا من قرابتنا ان أرادوا الدخول فى الاسلام ، وأن نلزم ديننا حيث ماكنا ، ولانتشبه بالمسلمين فى لبس قلنسوة ولاعمامة ولانعلين ، ولافرق شعر ، ولافى مراكبهم ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانتسمى بأسمائهم ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ، ونفرق نواصينا ، ونشد الزنانير على أوساطنا ، ولاننقش فى خواتيمنا بالعربية ، ولانركب السروج ، ولانتخذ شيئا من السلاح ، ولانجعله فى بيوتنا ، ولانتقلد السيوف ، وأن نوقر المسلمين فى مجالسهم ، ونرشدهم الطريق ونقوم لهم من المجالس اذا أرادوا المجالس ، ولانطلع عليهم فى منازلهم ، ولانعلم أولادنا القرآن ولانشارك أحدا من المسلمين الا أن يكون للمسلم أمر التجارة ، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط مانجد ونطعمه فيها ثلاثة أيام ، وعلى أن لانشتم مسلما ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده .

ضمنا ذلك لك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا . وان نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه فلاذمة لنا . وقد حل لك منا ماحل من أهل المعاندة والشقاق . على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا وأقرونا فى بلادكم التى أورثكم الله عز وجل عليها شهد الله على ماشرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيدا" .

*　　　*　　　*

(د)

رواية اسماعيل بن عياش على انه شرط على أهل الجزيرة

ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ٦٥٨/٢-٦٦١

أخبرنا اسماعيل بن عياش قال : حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا:

كتب أهل الجزيرة الى عبد الرحمن بن غنم : "انا حين قدمت بلادنا طلبنا اليك الأمان بأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على انفسنا ألا نحدث فى مدينتنا كنيسة ، ولافيما حولها ديرا ولاقلاية ولاصومعة راهب ، ولانجدد ماخرب من كنائسنا ولاماكان منها فى خطط المسلمين ، وألا نمنع

كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار ، وأن توسع أبوابها للمارة وابن السبيـل ، ولانؤوى فيهـا ولافى منـازلنا جاسـوسا ، وألا نكتم غشـا للمسلمين ، وألا نضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيا فى جوف كنائسنا ، ولانظهر عليهـا صليبا ، ولانرفع أصواتنا فى الصلاة ولاالقراءة فى كنـائسنا فيما يحضره المسلمـون ، وألا نخرج صليبا ولاكتابا فى سوق المسلمين ، وألا نخرج باعـوثا ـ قـال : والبـاعوث يجتمعون كمـا يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولاشعـانين ، ولانرفع أصواتنـا مع موتانا ، ولانظهر النيران معهـم فى أسواق المسلمين ، وألا نجاورهم بالخنازير ولانبيع الخمور ، ولانظهـر شركا، ولانرغب فى ديننـا ، ولاندعـو اليه أحدا ، ولانتخـذ شيئا من الـرقيق الـذى جن عليه سهـام المسلمين ، وألا نمنـع أحدا مـن أقـربائنا أرادوا الـدخول فى الاسلام ، وأن نلـزم زينا حيثما كنا ، وألا نتشبـه بالمسلمين فى لبـس قلنسـوة ولاعمامة ولانعلين ولافرق شعر ولافى مراكبهم ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانكتنى بكناهم ، وأن نجز مقـادم رؤوسنـا ولانفـرق نواصينـا ، ونشد الـزنانير على أوسـاطنا ، ولاننقـش خواتمنا بالعربية ، ولانركـب السروج ، ولانتخـذ شيئـا من السلاح ولانحملـه ، ولانتقلد السيـوف ، وأن نوقر المسلمين فى مجالسهـم ، ونرشـدهم الطـريق ، ونقوم لهم عن المجـالس ان أرادوا الجلوس ، ولانطلـع عليهـم فى منازلهم ، ولانعلم أولادنا القرآن ، ولايشارك أحد منا مسلمـا فى تجارة الا أن يكـون الى المسلم أمر التجـارة ، وأن نضيف كل مسلم عـابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمـه مـن أوسط مانجد . ضمنـا لك ذلك على أنفسنـا وذرارينـا وأزواجنا ومساكيننا ، وان نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنـا ، وقبلنا الأمان عليه ، فلاذمة لنا ، وقد حل لك منا مايحل لأهل المعاندة والشقاق" .

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم الى عمر بن الخطـاب رضى الله عنه فكتـب اليـه عمر : أن أمض لهـم مـاسألوا ، وألحق فيهـم حرفين اشترطهمـا عليهـم مع ماشرطوا على أنفسهـم : "ألا يشتروا مـن سبـايانا ، ومـن ضرب مسلما فقد خلع عهده" .

قائمة المصادر والمراجع والبحوث

أ - المصادر

ب - المراجع

ج - البحوث

(أ) المصادر :

(١) القرآن الكريم .

(٢) ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) ، الكامل ، راجعه وعلق عليه نخبة من العلماء ، الناشر ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٣) الأزدى (ت٢٣١هـ) ، تاريخ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، الناشر مؤسسة سجل العرب .

(٤) الأزرقى (ت٢٤٤هـ) ، أخبار مكة وماجاء فيها من آثار ، تحقيق رشدى الصالح ملحس ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٥) ابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ) ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥م .

(٦) ابن أعثم (ت٣١٤هـ) ، الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة .

(٧) البخارى (ت٢٥٦هـ) ، صحيح البخارى مع فتح البارى ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى ، الناشر دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

(٨) البغدادى (ت٤٢٩هـ) ، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم .

(٩) أبو البقاء الجعفرى (ت/القرن السابع) ، الرد على النصارى ، حققه وقدم له د. محمد حسانين ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

(١٠) البكرى (ت٤٨٧هـ) ، معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت .

(١١) البلاذرى (ت٢٧٩هـ) ، أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .
(١٢) ،، ،، فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
(١٣) البياسى (ت٦٥٣هـ) ، الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، دراسة وتحقيق د. شفيق جاسر أحمد محمود ، الأردن ، عمان ، بيادروادى السير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
(١٤) البيهقى (ت٤٥٨هـ) ، سنن البيهقى ، دار الفكر .
(١٥) الترمذى (ت٢٧٩هـ) ، جامع الترمذى مع تحفة الأحوذى ، راجع أصوله وصححه عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
(١٦) ابن تغرى بردى (ت٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
(١٧) ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، مطابع المجد التجارية .
(١٨) ،، ،، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق وتعليق د. على بن حسن بن ناصر ، د. عبد العزيز بن ابراهيم العسكر د. حمدان بن محمد الحمدان ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، النشرة الأولى ، ١٤١٤هـ .
(١٩) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، تحقيق بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
(٢٠) الجاحظ (ت٣٥٥هـ) ، كتاب التاج فى أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكى باشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .

(٢١) ابن جبير (ت٦١٤هـ) ، والعمرى (ت٧٤٩هـ) ، والنعيمى (ت٩٢٧هـ) ، نصوص عن الجامع الأموى بدمشق ، حققها وقدم لها محمد مطيع الحافظ ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٢٢) الجمحى (ت٢٣١هـ) ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى ، المؤسسة السعودية بمصر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٢٣) ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) ، تاريخ بيت المقدس ، تحقيق الدكتور محمد زينهم عرب ، مكتبة الثقافة الدينية .

(٢٤) ،، ،، تاريخ عمر بن الخطاب ، تحقيق أحمد شوحان ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة التراث دير الزور .

(٢٥) ،، ،، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، ضبطه وشرحه وعلق عليه ، نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٢٦) ابن حبان (ت٣٥٤هـ) ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء وهو القسم الأول والثانى من كتابه (الثقات) ، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء ، مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، بيروت .

(٢٧) ابن حبيب (ت٨٥٩هـ) ، كتاب المنمق فى أخبار قريش ، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فارق ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٢٨) ابن حبيش (ت٥٨٤هـ) ، الغزوات الضامنة الكافلة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة فى أيام الخلفاء الأئمة الأول الثلاثة أبى بكر الصديق ، وأبى حفص الفاروق ، وأبى عمرو ذى النورين السفر الأول ، المجلد الأول والثانى ، دراسة وتحقيق طلال

ابن سعود بن محمد الدعجانى ، رسالة ماجستير غير مطبوعة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

(٢٩) ابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ) ، الاصابة فى تمييز الصحابة ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ .

(٣٠) ،، ،، تلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير ، عنى بتصحيحه وتنسيقه والتعليق عليه السيد عبد الله هاشم المدنى بالمدينة ، سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

(٣١) ،، ،، كتاب تهذيب التهذيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٣٢) ابن حزم (ت٤٥٦هـ) ، جمهرة أنساب العرب ، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء باشراف الناشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

(٣٣) ،، ،، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، القاهرة .

(٣٤) الحميرى (ت٨٦٦هـ) ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها ا.لافى بروفنسال .

(٣٥) ابن حنبل (ت٢٤١هـ) ، كتاب فضائل الصحابة ، حققه وخرج أحاديثه وصى الله بن محمد عباس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٣٦) ،، ،، مسند أحمد بن حنبل ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٣٧) الحنبلى الحلبى محمد بن ابراهيم بن يوسف (ت٩٧١هـ) ، الزبد والضرب فى تاريخ حلب ، تحقيق محمد التونجى ، منشورات مركز المخطوطات والتراث ، جمعية احياء التراث الاسلامى ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

(٣٨) الحنبلى ، مجير الدين (ت٩٢٨هـ) ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، الأردن ، توزيع دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م .

(٣٩) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ، مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٤٠) ابن خلكان (ت٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

(٤١) ابن خياط (ت٢٤٠هـ) ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٤٢) الدارمى (ت٢٥٥هـ) ، سنن الدارمى ، تخريج وتحقيق وتعليق ، السيد عبد الله هاشم ، الناشر ، حديث آكادمى نساط أباد ، فيصل آباد ، باكستان ، ١٤٠٤هـ .

(٤٣) أبو داود (ت٢٥٧هـ) ، سنن أبو داود مع عون المعبود ، ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر المتكبة السلفية بالمدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

(٤٤) الذهبى (ت٧٤٨هـ) ، الخلفاء الراشدون من تاريخ الاسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

(٤٥) ،، ،، سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٤٦) الرازى (ت٦٠٦هـ) ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ضبط وتقديم وتعليق محمد المعتصم بالله البغدادى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

(٤٧) ،، ،، مناظرة فى الرد على النصارى ، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد النجار ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م .

(٤٨) ابن زنجويه (ت٢٥١هـ) ، كتاب الأموال ، تحقيق د. شاكر ذيب فياض ، طبع ونشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٤٩) ساويرس بن المقفع (كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى) ، كتاب سير الآباء البطاركة ، باريس ، ١٩٠٣م .

(٥٠) ابن سعد (ت٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار الفكر ، ودار صادر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٥١) السمهودى (ت٩١١هـ) ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .

(٥٢) السيوطى (ت٩١١هـ) ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

(٥٣) ،، ،، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، حققه وعلق عليه عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى ، مكتبة الدار ، المدينة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .

(٥٤) الشهرستانى (ت٥٤٨هـ) ، الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت .

(٥٥) الطبرى (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الأمم ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار سويدان ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية .

(٥٦) الطرطوشى (٥٢٠هـ) ، سراج الملوك ، المطبعة الوطنية ، الاسكندرية ، ١٢٨٩هـ .

(٥٧) ابن الطقطقا (ت٧١٩هـ) ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت .

(٥٨) ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .

(٥٩) عبد الجبار الخولانى (ت٣٧٠هـ) ، تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، حققه وقدم له سعيد الأفغانى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، عن الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م .

(٦٠) ابن عبد الحكم (ت٢١٤هـ) ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٦١) ،، ،، فتوح مصر وأخبارها ، مكتبة المثنى ، بغداد ، طبعة جديدة لطبعة ليدن سنة ١٩٢٠م .

(٦٢) ابن عبد السلام ، عز الدين (ت٦٦٠هـ) ، أحكام الجهاد وفضائله ، حققه وقدم له وعلق عليه د. نزيه حماد ، الناشر ، مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٦٣) ابن العبرى (ت٦٨٥هـ) ، تاريخ مختصر الدول ، صححه وفهرسه انطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبنانى ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٦٤) أبو عبيد الخزرجى (ت٥٨٢هـ) ، بين الاسلام والمسيحية ، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمد عبد الغنى شاتة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

(٦٥) أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) ، كتاب الأموال ، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، دار الفكر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

(٦٦) ابن العديم (ت٦٦٠هـ) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، الجزء الأول (١-٤٥٧هـ) ، المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

(٦٧) ابن عساكر (ت٥٧١هـ) ، تاريخ دمشق ، صورة من نسخة المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، والقاهرة ، ومراكش ، واستانبول ، فهرست الشيخ محمد بن رزق بن الطرهونى ، الناشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ (مخطوط) .

(٦٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، دراسة وتحقيق محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروى ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

(٦٩) الفاكهى (ت٢٧٩هـ) ، أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه ، دراسة وتحقيق عبد الملك بن دهيش ، مطبعة ومكتبة دار النهضة الحديثة ، مكة ، ١٤٠٧هـ .

(٧٠) أبو الفداء (ت٧٧٢هـ) ، اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب ، تحقيق محمد كمال وفالح البكور ، دار القلم العربى ، حلب ، سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

(٧١) الفزارى (ت١٨٦هـ) ، كتاب السير ، دراسة وتحقيق فاروق حماده ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م

(٧٢) ابن قتيبة الدينورى (ت٢٧٦هـ) ، كتاب عيون الأخبار ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

(٧٣) ،، ،، طبقات الشعر والشعراء ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٧٤) قدامة بن جعفر (ت٣٢٩هـ) ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتحقيق د. محمد حسين الزبيدى ، دار الرشيد للنشر ، العراق ، ١٩٨١م .

(٧٥) القرطبى (ت٦٧١هـ) ، الجامع لأحكام القرآن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م .

(٧٦) القضاعى (ت٤٥٤هـ) ، تاريخ القضاعى كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف ، دارسة وتحقيق جميل عبد الله محمد المصرى ، مركز البحوث واحياء التراث الاسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

(٧٧) القفطى (ت٦٤٦هـ) ، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبى ، القاهرة .

(٧٨) القلقشندى (ت٨٢٠هـ) ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

(٧٩) ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) ، أحكام أهل الذمة ، حققه وعلق حواشيه د. صبحى الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م .

(٨٠) ،، ،، هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، تقديم وتحقيق وتعليق د. أحمد حجازى السقا ، الناشر المكتبة القيمة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ .

(٨١) الكتبى (ت٧٦٤هـ) ، عيون التواريخ ، السفر الأول (السيرة النبوية ـ خلافة الصديق) ، تحقيق حسام الدين القدسى ، مجاز من جامعة دمشق ، ١٩٢٧م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

(٨٢) ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية ، دقق أصوله وحققه أحمد أبو ملحم ، على نجيب عطوى ، الأستاذ فؤاد السيد ، الأستاذ مهدى ناصر الدين ، الأستاذ على عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٨هـ.

(٨٣) ،، ،، الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٨٤) ،، ،، مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد على الصابونى ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .
(٨٥) الكندى (ت٣٥٠هـ) ، كتاب الولاة وكتاب القضاه ، تهذيب وتصحيح رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م .
(٨٦) ابن ماجه (ت٢٧٥هـ) ، سنن ابن ماجه ، حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقى ، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر .
(٨٧) الماوردى (ت٣٧٠هـ) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .
(٨٨) ابن المبرد (ت٩٠٩هـ) ، محض الصواب فى فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، دراسة وتحقيق عبد العزيز بن محمد الفريح ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٥هـ .
(٨٩) المسعودى (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
(٩٠) مسلم (ت٢٦١هـ) ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، الناشر دار احياء التراث العربى .
(٩١) المصعب بن عبد الله الزبيرى (ت٢٣٦هـ) ، كتاب نسب قريش ، عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ا.ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .
(٩٢) المقدسى (ت٥٠٧هـ) ، البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

(٩٣) المقريزى (ت٨٤٥هـ) ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٩٤) ابن منظور (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار الفكر ، بيروت .

(٩٥) ،، ،، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، قام على تحقيقه مجموعة من الباحثين ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م سورية ، دمشق .

(٩٦) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ويليه تجارب الأمم لمسكويه ، مكتبة المثنى ، بغداد .

(٩٧) النسائى (ت٣٠٣هـ) ، سنن النسائى ، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى ، الناشر دار احياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .

(٩٨) ابن النقاش (ت٧٦٣هـ) ، كتاب المذمة فى استعمال أهل الذمة ، حققه وصححه وعلق عليه وقدم له عبد الله ابراهيم بن على الطريقى ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .

(٩٩) ابن هشام (ت٢١٣هـ) ، السيرة النبوية ، حققها وضبطها وشرحها ووضعه فهارسها مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ، طبع ونشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م .

(١٠٠) الواقدى (ت٢٠٧هـ) ، فتوح الشام ، دار الجيل ، بيروت .

(١٠١) ،، ،، كتاب الردة مع نبذة عن فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيبانى ، تحقيق د. يحى الجبورى ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

(١٠٢) ،، ،، كتاب المغازى ، تحقيق د. مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
(١٠٣) اليافعى (ت٧٦٨هـ) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان ، تحقيق عبد الله الجبورى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
(١٠٤) ياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ) ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربى بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
(١٠٥) يحيى بن آدم القرشى (ت٢٠٣هـ) ، كتاب الخراج ، تصحيح وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر ، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ .
(١٠٦) اليعقوبى (ت٢٨٤هـ) ، تاريخ اليعقوبى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
(١٠٧) يوحنا الدمشقى (ت١٣١-١٣٢هـ/٧٤٩م) ، المئة مقالة فى الايمان الأرثوذكسى ، عربه عن النص اليونانى الأرشمندريت أوديانوس شكور ، ق.ب ، (ويمثل الجزء الثالث من كتابه "ينبوع المعرفة") ، منشورات المكتبة البولسية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .
(١٠٨) أبو يوسف (ت١٨٢هـ) ، الخراج ، تحقيق وتعليق د. محمد ابراهيم البنا دار الاصلاح للطبع والنشر والتوزيع .

(ب) المراجع العربية والمعربة :

(١) ابراهيم ابراهيم هلال ، حديث هرقل وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٢) ابراهيم أحمد العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، دار الجيل ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، والطبعة الثانية .

(٣) ابراهيم سليمان عيسى ، معاملة غير المسلمين فى دولة الاسلام ، دار المنار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

(٤) أحمد اسماعيل على ، تاريخ بلاد الشام فى العصر العباسى ١٣٢-٤٦٣هـ/٧٤٩-١٠٧٠م ، دراسة رياسة اجتماعية ، دار دمشق ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

(٥) أحمد السباعى ، تاريخ مكة ، مطبوعات نادى مكة الأدبى ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٦) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٥م .

(٧) أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة والعشرين .

(٨) أحمد شلبى ، مقارنة الأديان (المسيحية) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٤م .

(٩) أحمد طلعت الغنام ، أضواء على النصرانية تاريخها وعقيدتها ، مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة .

(١٠) أحمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام) ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(١١) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، دار المعارف بمصر القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .
(١٢) أحمد مختار العبادى ، والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .
(١٣) أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، المطبعة الحديثة ، حلب ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م .
(١٤) ارنست كونل ، الفن الاسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .
(١٥) أبو الأعلى المودودى ، حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية ، الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ، دار القرآن الكريم الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
(١٦) انستانس الكرملى ، النقود العربية الاسلامية وعلم النميات ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م .
(١٧) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة الدينى والسياسى والحضارى من مارمارون الى ماريوحنا مارون ٣٢٥-٧٠٠م ، دار النهار للنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م .
(١٨) ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، مطبعة الاعتماد ، بمصر ، ١٩٤٩م .
(١٩) توفيق سلطان اليوزبكى ، تاريخ أهل الذمة فى العراق (١٢-٢٤٧هـ) ، دار العلوم ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
(٢٠) ثابت اسماعيل الراوى ، العراق فى العصر الأموى من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، منشورات مكتبة الأندلس بغداد ، الطبعة الثانية ، طبع بمطابع النجف الأشرف .

(٢١) ثريا حافظ عرفة ، الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

(٢٢) جمال جودة ، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالى فى صدر الاسلام ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

(٢٣) جميل عبد الله المصرى ، أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية فى القرن الأول الهجرى ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

(٢٤) ،، ،، الاسلام فى مواجهة الحركات الفكرية (زمن الدولة الأموية) ، دار أم القرى للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

(٢٥) ،، ،، تاريخ الدعوة الاسلامية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٢٦) ،، ،، الموالى (موقف الدولة الأموية منهم) ، دار أم القرى للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢٧) جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ١٩٨٤م .

(٢٨) الحبيب الجنحانى ، التحويل الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع صدر الاسلام ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .

(٢٩) حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى "الحياة المالية والاقتصادية والادارية" ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٣٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م .

(٣١) حسن بن على الحارثى ، المعاهدات فى عصر الخلفاء الراشدين ، رسالة ماجستير فى الحضارة والنظم الاسلامية ، لم تنشر ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، مكة ، ١٤٠٨هـ .

(٣٢) حسين عطوان ، سيرة الوليد بن يزيد ، دار المعارف ، القاهرة .

(٣٣) حمد محمد العرينان ، اباحة المدينة وحريق الكعبة فى عهد يزيد بن معاوية من المصادر القديمة والحديثة ، مع ترجمة حافلة ليزيد بن معاوية لمحمد بن ابراهيم الانبارى ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٣٤) خليل داود الزرو ، الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١م .

(٣٥) خميس صالح محمد الغامدى ، العلاقات بين المسلمين والنصارى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ١٤١٤هـ .

(٣٦) خير الدين الزركلى ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م .

(٣٧) دافيد تالبوت رايس ، الفن الاسلامى ، منير صلاحى الأصبحى ، مطبعة جامعة دمشق ، دار القلم للنشر والتوزيع ، حلب ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

(٣٨) دى لاسى أوليرى ، الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ، نقله الى العربية وعلق عليه اسماعيل البيطار ، دار الكتاب اللبنانى بيروت ، ١٩٨٢م .
(٣٩) م.س.ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتصدير الدكتور أحمد فكرى ، دار المعارف بمصر ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨م .
(٤٠) ربيع هادى المدخلى ، منهج الأنبياء فى الدعوة الى الله فيه الحكمة والعقل ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
(٤١) رشيد الجميلى ، حركة الترجمة والنقل فى المشرق الاسلامى فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، منشورات جامعة قاريونس .
(٤٢) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، دار الفكر العربى .
(٤٣) أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .
(٤٤) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، الجيزة ، ١٩٦٧م .
(٤٥) سعدى أبو حبيب ، مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
(٤٦) سعيد بن على القحطانى ، الحكمة فى الدعوة الى الله تعالى ، مطبعة سفير ، الرياض ، توزيع مؤسسة الجريسى ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
(٤٧) سلام شافعى محمود سلام ، أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى (٤٦٧-٦٤٨هـ/١٠٧٤-١٢٥٠م) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

(٤٨) سهيل قاشا ، لمحات من تاريخ نصارى العراق ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٨٢م .

(٤٩) السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٢م .

(٥٠) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٩م .

(٥١) سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى فجر الاسلام من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م .

(٥٢) شفيق جاسر أحمد محمود ، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها حتى الحروب الصليبية ، مطابع الايمان ، عمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

(٥٣) شفيق يموت ، أهل الذمة فى مختلف أطوارهم وعصورهم ، الشركة العالمية للكتاب ، مكتبة المدرسة ، دار الكتاب العالمى ، الدار الافريقية العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .

(٥٤) شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٢م .

(٥٥) ،، ،، المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ، نشأتها ، مقدماتها ، تطورها اللغوى والأدبى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١م .

(٥٦) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧١م .

(٥٧) صابر طعيمة ، الأسفار المقدسة قبل الاسلام ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

(٥٨) صادق أحمد داود جوده ، مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
(٥٩) صالح أحمد العلى ، الحجاز فى صدر الاسلام ، دراسات فى أحواله العمرانية والادارية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
(٦٠) عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ، المطبعة الاسلامية الحديثة القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٣م .
(٦١) عبد الحى الكتانى ، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .
(٦٢) عبد الرحمن فهمى ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات (فجر السكة العربية) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٦٣) ،، ،، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ١٩٨٧م .
(٦٤) عبد السميع عبد البارى الصائغ ، المعاهدات النبوية ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٣٩٨هـ .
(٦٥) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام ، مكتبة القدس ، بغداد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
(٦٦) ،، ،، أصول الدعوة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، مكتبة البشائر عمان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
(٦٧) عبد الله بن حسين الشنبرى ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ١٤١٠هـ .

(٦٨) عدنان على رضى النحوى ، دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، مكتبة أسامة ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

(٦٩) عفيف بهنسى ، الفن العربى الاسلامى فى بداية تكوينه ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٧٠) على حسنى الخربوطلى ، الحضارة العربية الاسلامية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة .

(٧١) على عبد الواحد وافى ، الأسفار المقدسة ، فى الأديان السابقة للاسلام دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(٧٢) علية عبد السميع الجنزورى ، الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

(٧٣) عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٩٧١م .

(٧٤) عمر رضا كحالة ، أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة .

(٧٥) عمر سليمان الرحيلى ، خلافة معاوية بن أبى سفيان ، الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٧٦) عمر عبد السلام تدمرى ، تاريخ طرابلس ، مؤسسة الرسالة ودار الايمان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٧٧) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤م .

(٧٨) عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، تقديم محمود سعيد عمران ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٥م .

(٧٩) عمر أبو النصر ، الأيام الأخيرة للدولة الأموية ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢م .
(٨٠) عواد مجيد الأعظمى ، الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، ١٩٨٠م .
(٨١) فالح حسين ، الحياة الزراعية فى بلاد الشام فى العصر الأموى ، نشر بدعم الجامعة الأردنية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
(٨٢) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة .
(٨٣) فتحية النبراوى ، تاريخ النظم والحضارة الاسلامية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
(٨٤) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال الياحزى دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .
(٨٥) ،، ،، تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٦١م .
(٨٦) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، دراسة وثائقية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م.
(٨٧) ،، ،، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار الفكر القاهرة ، باريس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .
(٨٨) ك.كريزويل ، الآثار الاسلامية الأولى ، نقله الى العربية عبد الهادى عيلة ، استخرج نصوصه وعلق عليه أحمد غسان سباتو ، دار قتيبة ، دمشق ، مطبعة خالد بن الوليد ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
(٨٩) كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١م .

(٩٠) ماجدة فيصل زكريا ، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم ، مكتبة الطالب الجامعى ، مكة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
(٩١) محمد أحمد معبر ، مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة ، دار جرش للنشر والتوزيع ، خميس مشيط ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
(٩٢) محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ، طبع ونشر الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ .
(٩٣) محمد السيد الوكيل ، الحركة العلمية فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، السعودية ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
(٩٤) محمد بن صامل السلمى ، منهج كتابة التاريخ الاسلامى مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
(٩٥) محمد ضياء الرحمن الأعظمى ، اليهودية والمسيحية ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
(٩٦) محمد ضيف الله بطاينة ، فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
(٩٧) محمد طاهر الكردى ، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، الطبعة ١٣٨٥هـ .
(٩٨) محمد عبد العزيز مرزوق ، قصة الفن الاسلامى ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

(٩٩) محمد عبد الهادى المطرودى ، عقد الذمة فى التشريع الاسلامى ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلام ، مسراته ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ/١٩٨٧م .

(١٠٠) محمد فؤاد عبد الباقى ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(١٠١) محمد كرد على ، الادارة الاسلامية فى عز العرب ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م .

(١٠٢) ،، ،، خطط الشام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الناشر مكتبة النورى دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(١٠٣) ،، ،، غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، مطبعة الترقى بدمشق ، الطبعة الثانية ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

(١٠٤) محمد مختار باشا ، كتاب التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(١٠٥) محمد ناصر الدين الألبانى ، ارواء الغليل فى تخريج أحاديث منار السبيل ، باشراف محمد زهير الشاويش ، الناشر المكتب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(١٠٦) محمد بن ناصر الجعوان ، القتال فى الاسلام أحكامه وتشريعاته ، دراسة مقارنة ، مطابع المدينة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(١٠٧) محمد هزاع الشهرى ، عمارة المسجد النبوى فى العصر المملوكى (٦٤٨-٩٢٣هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى بمكة ، كلية الشريعة ، قسم الحضارة والنظم الاسلامية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(١٠٨) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .

(١٠٩) محمود المقداد ، الموالى ونظام الولاء من الجاهلية الى أواخر العصر الأموى ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
(١١٠) معروف زريق ، تاريخ دومة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
(١١١) منير الخورى ، صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠٠ق.م الى ١٩٦٦م ، طبعة بيروت ، ١٩٦٦م .
(١١٢) نادية حسنى صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة ، مكتبة الفيصلية ، مكة ، ١٩٨٤م .
(١١٣) نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بنى أمية ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
(١١٤) نجدة خماش ، الادارة فى العصر الأموى ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
(١١٥) ،، ،، الشام فى صدر الاسلام "من الفتح حتى سقوط خلافة بنى أمية ، دراسة للأوضاع الاجتماعية والادارية" ، دار طلاس دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .
(١١٦) ج.م.هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، الناشر مكتبة سعيد رأفت ، مؤسسة الوفاء للطباعة ، القاهرة .
(١١٧) ينس محمد يحيى ، عقد الصلح بين الشريعة الاسلامية والقانون المدنى "دراسة مقارنة" ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٨م .
(١١٨) يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، طبع فى المطبعة العمومية ، بيروت ، ١٩٠٠م .
(١١٩) ،، ،، مختصر تاريخ سورية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م .

(١٢٠) يوسف العش ، الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، دمشق .
(١٢١) يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(ج) البحوث :

(١)

(١) أحمد السيد دراج ، معالم التطور العمرانى لمكة المكرمة ، قدم محتواه محاضرة فى نادى مكة الأدبى .

(٢) عبد الباقى قصة ، تحقيق بعض الوثائق النبوية من العهود التى أعطاها الرسول لليهود والنصارى ، مجلة دارة الملك عبد العزيز ، العدد الثالث ، السنة الخامسة ، ربيع الثانى ، ١٤٠٠هـ/مارس ١٩٨٠م ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(٣) عتيق عبد الرحمن المفتى ، دراسة للمعاهدات فى العهد النبوى ، مجلة المؤرخ العربى ، عدد (١٦) ، ١٤٠١هـ ، اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، العراق .

(٤) على محمد عودة الغامدى ، "رؤية تاريخية لصفات مكة عند أهل الكتاب" ، بحث فى طريقه للنشر .

(٢)

بحوث المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام :

أولا : البحوث باللغة العربية :

(أ) بحوث المؤتمر الدولى (الأول) لتاريخ بلاد الشام ، المنعقد فى الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية .

(٢) صالح الحمارنة ، المسيحية فى أرض الشام فى أوائل الحكم الاسلامى.

(٣) عبد العزيز الدورى ، العرب والأرض فى بلاد الشام فى صدر الاسلام.

(٤) محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية الاسلامية مصدر وثائقى للتاريخ والفن .
(٥) نقولا زيادة ، جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجرى .

(ب) بحوث المؤتمر الدولى (الثالث) لتاريخ بلاد الشام "فلسطين" ، المجلد الأول "القدس" ، الجامعة الأردنية ، عمان ، وجامعة اليرموك ، اربد مطابع الجمعية العلمية الملكية ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م .
(١) صفوان التل ، بناء وزخارف قبة الصخرة فى القدس "دراسة تحليلية" .
(٢) محمد ضيف الله البطانية ، فتح فلسطين وملكيتها بعد الفتح الاسلامى .

(ج١) بحوث المؤتمر الدولى (الرابع) لتاريخ بلاد الشام المنعقد فى الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك .
بحوث عن : بلاد الشام فى العهد البيزنطى الندوة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، الطبعة الثانية ، عمان ، ١٩٩١م .
(١) توفيق فهد ، ماوية وضجعم أو العرب والرومان فى أواخر القرن الرابع .
(٢) جورج عطية ، الأثر السريانى فى الحياة الفكرية والعلمية فى بلاد الشام
(٣) نقولا زيادة ، التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب .

(ج٢) وبحوث عن : بلاد الشام فى صدر الاسلام ، الندوة الثانية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، القسم العربى ، المجلد الثانى والثالث ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٧م .
(١) ابراهيم بيضون ، حملة مؤتة .
(٢) ابراهيم زيد الكيلانى ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام (دراسة نقدية) .

(٣) احسان عباس ، فتح بلاد الشام "مؤشرات وارهاصات" .
(٤) أحمد بدر ، الدور الادارى والثقافى لطبقة الصحابة النازلة فى الشام.
(٥) جاسر أبو صفية ، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام .
(٦) ،، ،، معركة اليرموك (دراسة تاريخية نقدية) .
(٧) جوزيف نسيم ، العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الشام وتخومه فى صدر الاسلام فى ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين فى العصور الوسطى .
(٨) زكريا القضاه ، معاهدة فتح بيت المقدس (العهدة العمرية) .
(٩) سامى العانى ، تجربة مؤتة .
(١٠) سعد الراشد ، منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلتها ببلاد الشام فى صدر الاسلام والخلافة الأموية اعتمادا على الاكتشافات الحديثة .
(١١) سعيد عاشور ، الامبراطور هرقل ومقاومة الفتح الاسلامى لبلاد الشام.
(١٢) سهيلة الريماوى ، مدينة حمص عند الفتح الاسلامى .
(١٣) صالح موسى درادكه ، مقدمات فى فتح بلاد الشام .
(١٤) عادل أبو عمشة ، فتوح الشام فى الشعر العربى .
(١٥) عبد العزيز الدورى ، تنظيمات عمر بن الخطاب "الضرائب فى بلاد الشام" .
(١٦) عبد المنعم ماجد ، موقف الروم العرب من الاسلام .
(١٧) عرفان شهيد ، أسرار النصر العربى فى فتوح الشام ، معركة اليرموك .
(١٨) عمر عبد السلام تدمرى ، الفتح الاسلامى وسياسة الاسكان لساحل دمشق "لبنان" .
(١٩) عواد مجيد الأعظمى ، بلاد الشام (الأرضية والقاعدة فى التطلع العربى الاسلامى لفتح مدينة القسطنطينية ، دراسة عسكرية - حضارية).

(٢٠) فالح حسين ، الفروض العينية "الضيافة والأرزاق" كمصدر لتمويل جيش الفتح .
(٢١) كوركيس عواد ، مصادر الفتوحات العربية لبلاد الشام .
(٢٢) لطفى عبد الوهاب يحي ، استقبال بلاد الشام للفتح العربى (الخلفية الثقافية) بلاد الشام فى صدر الاسلام .
(٢٣) محمد عبد القادر خريسات ، دور العرب المتنصرة فى الفتوحات .
(٢٤) محمود عمران ، كتابات الرحالة اركولف كمصدر لبلاد الشام فى عصر الراشدين .
(٢٥) ناصر الدين الأسد ، وقعة اجنادين .
(٢٦) نبيه عاقل ، موقف سكان بلاد الشام من الفتح .
(٢٧) نجدة خماش ، الادارة ونظام الضرائب فى الشام فى عصر الراشدين.
(٢٨) نقولا زيادة ، تموين الجيوش العربية الاسلامية أثناء فتوح بلاد الشام.
(٢٩) وداد القاضى ، مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح.

(ج٣)وبحوث عن : بلاد الشام فى العهد الأموى ، الندوة الثالثة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، القسم العربى ، المجلد الأول ، عمان ، ١٩٨٩م .
(١) ابراهيم بيضون ، مؤتمر الجابية .
(٢) أحمد بدر ، الاقطاع فى بلاد الشام خلال القرنين الأول والثانى للهجرة .
(٣) جورج عطية ، الجدل الدينى المسيحى الاسلامى فى العصر الأموى وأثره فى نشوء علم الكلام .
(٤) رضوان السيد ، الخلافة والملك (دراسة فى الرؤية الأموية للسلطة).
(٥) صلاح الدين عثمان هاشم ، الصقالبة ببلاد الشام فى زمن الأمويين مع القاء نظرة على الدراسات الاسلامية عن الدولة الأموية .
(٦) عبد الواحد ذنون طه ، دور بلاد الشام فى نشأة علم التاريخ فى العصر الأموى .

(٧) عمر عبد السلام تدمرى ، ثغور بلاد الشام .
(٨) فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد ، عمر بن عبد العزيز وتضارب الأخبار حول شخصه ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ملحق ببحث المترجم الموسوم الصقالبة .
(٩) لطفى عبد الوهاب يحيى ، حولية ثيوفانس ، مصدر بيزنطى عن بلاد الشام فى العصر الأموى .
(١٠) محمد عبد القادر خريسات ، دور غسان فى الحياة العامة .
(١١) مروان أبو خلف ، الأفاريز الرخامية المحفورة والمذهبة فى العهد الأموى فى قبة الصخرة المشرفة فى القدس .
(١٢) مصطفى العبادى ، أضواء من الوثائق البردية على الادارة الأموية .
(١٣) نجدة خماش ، الأخبار وادارتها .
(١٤) ،، ،، الجيش الشامى فى العصر الأموى .
(١٥) نقولا زيادة ، المراكز الادارية والعسكرية فى بلاد الشام فى العصر الأموى .

(ج٤) وبحوث فى تاريخ بلاد الشام فى العصر الأموى ، استكتبت لجنة تاريخ بلاد الشام أصحابها فى موضوعات محددة من أجل معالجة النقص وسد الفجوات فى الندوات والمؤتمرات السابقة ، التى بقيت دون معالجة ، طبع فى مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٠م .
(١) نجدة خماش ، الدواوين المركزية فى الشام فى العصر الأموى .
(٢) نقولا زيادة ، الأسطول العربى فى أيام الأمويين .

(د) بحوث المؤتمر الدولى (الخامس) لتاريخ بلاد الشام .
بحوث عن بلاد الشام فى العصر العباسى ، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، جامعة دمشق ، وجامعة اليرموك ، القسم العربى ، عمان ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(١) غازى بيشة ، مناهضة الصور وتشويهها فى ضوء الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة فى أم الرصاص ومعين .

ثانيا : البحوث باللغتين الانجليزية والفرنسية :

(أ) البحوث عن تاريخ بلاد الشام فى العهد البيزنطى .

بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام .

The fourth international conference on the history of bilad al-sham. form the onset of the byzntine era until the close of the umayyad era amman-Jordan 15-21 October 1983 .

(1) S.Gero : Early contacts between byzantium and the arab empire. review and some reconsiderations .

(2) Fawzi zayadine : The significance of byzantine and umayyad iconography .

(3) Francois villeneuve : contribution de L'archeologie a L'histoire conomique et sociale des villages du hawran-VII siecle . Ar.J.C.

(4) M.Fley : The last campaign into persia and its influence on the attitude of the local population towards the muslim conquers 7-16H/628-636A.D.

(5) Maurice sartre : Le Hawran byzantin a la veille de la comquete musulmane .

(6) Michael G. Morony : Syria under the persians 618-629.

(7) E.Mill : La fin de l'art antique dans la zone du futur bilad al-sham .

(8) Waler emil kaegi : New perspectives on the last decades of the byzantine era .

(9) Waller Emile kaegi,Jr : The strategy of heraclius .

(10) Warner seibt : Byzantine administration in bilad al-sham .

(ب) البحوث عن تاريخ بلاد الشام فى صدر الاسلام حتى سنـة ٤٠هـ/٦٤٠م :
بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام :

The fourth international conference on the history of bilad al-sham (English and french papers) proceedings of the second symposium on the history of bilad al-sham during the early islamic period up the 40A.H/640A.D. Amman 1987 . Vol.I .

(1) F.M. Donner : The problem of early arabic historiography in syria .

(2) Lawrence L.Conrad : Al-Azdi's history of the arab conquests in bilad al-sham. some historiog-raphical obser vations .

(3) R.J.Hebert : The early coinage of bilad al-sham .

(4) Hugh kennedy : The origins of the Qays-yaman dispute in bilad al-sham .

(5) :The towns of bilad al-sham and the arab conquest .

(6) Stefan leder : The attitude of the jews and their role towards the arab-islamic conquest of bilad al-sham .

(ج) البحوث عن تاريخ بلاد الشام فى العصر الأموى :
بحوث المؤتمر الدولى الرابع عن تاريخ بلاد الشام :

The fourth international conference on the history of bilad al-sham during the umayyad period proceeding of the third symposium 2-7 rabi,I 1408 A.H/24-29

October 1987 English secton - Vol.II Amman - 1989 .

(1) J.F.Healey : Syriac sources and the umayyad period .

(2) Jena maurice fley : The umayyads in syriac sources .

(3) Robert schick : The fate of the cristians in palestine during the byzantine - umayyad transition, 600-750 A.D.

(4) G.R.D. Keng : The umayyad qusur and related settlements in Jordan .

(5) Ghazi bisheh : Qasr mashash and qasr ayn al-sil : two umayyad sites in Jordan .

(6) Patricia carlier : Qastal al-balqa an umayyad site in Jordan .

(7) Alastair northedge : The umayyad mosque of Amman .

(8) Michael L. Bates : The coinage of syria under the umayyads, 692-750 A.D.

(9) Ulrich rebstock : Observations on the diwan al-kharaj and the assessment of tzxes in umayyad syria .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الفصل الثانى

دعوة نصارى الشام الى الاسلام والوصاية بهم وماصولحوا عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

الفصل الثالث

السياسة الادارية تجاه نصارى الشام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

الصفحة

الفصل الرابع
السياسة المالية تجاه نصارى الشام
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

الفصل الخامس
موقف المسلمين ازاء نصارى الشام من الناحية الدينية والاجتماعية
فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

الصفحة

الصفحة

الفصل الثامن

دور نصارى الشام فى العمران والفنون والحياة العلمية

فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين